تاريخ الانشقاق

كتاب

يشتمل على تاريخ العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية من القرن الاول الى عهد البطريرك فوتيوس . وتاريخ الحوادث في ايام البطريرك فوتيوس وبعدها الى تمام الانشقاق في القرن الحادي عشر . وتاريخ علاقات الكنيستين بعد الانشقاق الى آخر مجمع اجتمعتا فيه وكل حادث تليه ملاحظات توافق موضوعه

تأليف

الارشيمندريتي جراسيموس مسرّه اللاذقي

رئيس كنيسة السوريين الارثوذكس في اسكندرية

عُني عنه

طُبع باجازة الحبر الجليل بابا وبطريرك اسكندرية الجزيل القداسة والغبطة

كيريوس كيريوس صفرونيوس

بالمطبعة الابرهيمية في الاسكندرية سنة ١٨٩١ مسيحية

قال القديس بولس الرسول

« واسألكم ايها الاخوة · ان تلاحظوا الذين يُحدِثون الشقاق والشكوك ·
« خلافاً للتعليم الذي تعلمتموهُ · وأعرضوا عنهم · فانَّ امثال اولئك
« لا يخدمون ربَّنا يسوع المسيح بل بُطونهم · وبعذوبة الكلام والدُّعآء
« بالبركات يخدعون قلوب السُّلمآء · فانَّ طاعتكم قد اشتهرت عند
« الجميع · وانا فرحٌ بكم · غير اني أُحبُّ ان تكونوا حكمآء في الخير وبُسطآء
« في الشر · والهُ السلام ليسحق الشيطان تحت اقدامكم سريعاً »

وقال القديس يوحنا الذهبيُّ الفم

« إنَّ الذي يشقُّ كنيسة الله يعمل عملاً افظع من عمل الذي يُنكرُ الايمان ·
« لان الذي يُنكرُ الايمان يُهلك نفساً واحدةً فقط · أعني نفسهُ · واما الذي
« يشقُّ الكنيسة فيهلكُ نفوساً كثيرةً · ولهذا السبب خطيئتهُ اعظم من
« خطيئة الكافر »

فاتحة الكتاب

بأسمكَ اللهمَّ نفتتحُ يا ربَّنا الواحدَ الحكيمَ العلاَّم · يا جامعَ المتفرِّقات ومُعيدَ المنفصلات الى حُسنِ الانتظام وراسماً لكلِّ موجودٍ افضلَ ما يقومُ بهِ من النظام · نحمدُكَ ونشكرُكَ على عظيمِ احسانكَ لجنسِ الانام · الذي بعُدَ منكَ فقرَّبتهُ · وجافاكَ فأدنيتهُ · وجحدكَ فجذبتهُ · وانهضتهُ وفديتهُ بدمِ الوحيد رئيسِ السلام · واقتنصتهُ الى الايمان الحقِّ بشباكِ الرسل العظمآء الكرام · وسلمتهُ وصايا واحكاماً تقلعُ بذارَ الخصام · بافصحِ الكلام · وتقطعُ جراثيمَ الحسدِ السمَّام · قطعَ حدِّ الحسام · وتطعنُ حاجبَ كبريآءِ اللئام · طعنَ نبلِ السهام · وتقشع قتام الجهل والظلام · في كل اينٍ وآنٍ · وعصرٍ ومكانٍ · مدى الدهور والايام · على الدوام ·

أمَّا بعدُ فيقول الفقير الى الله الحكيم العليِّ · الارشيمندريتي جراسيموس مسرَّه اللاذقيّ · انَّ من تصفَّح الاقوالَ الالهيَّة · وما كتبهُ الرسلُ القديسون من التعاليمِ الخلاصيَّة · وسلَّموهُ من الحقائقِ التقليديَّة · لا يسعهُ الاَّ أن يندهلَ من سموِّ عقائدها الدينيَّة · الفائقةِ على المداركِ البشريَّة · ويعترفَ بكمالاتِ الآدابِ المسيحية · الجامعةِ كلَّ الفضائلِ الحقيقية · والمنزَّهةِ عن الشوائبِ العلنيَّة والسرِّية * تلكَ حقيقةٌ حقَّقها معشرُ الفلاسفةِ المتقدمين · والعلمآء

المتاخرين · سواء كانوا من المسيحيين · ام غير المسيحيين · من الذين بحثوا في تهذيب شريعتنا · وآداب ديانتنا · فشهدوا بسموّ منزلتها · واقرّوا بألوهيّة مصدرها · واعترفوا بعظيم فضلها · وقدّروها حقّ قدرها * ولا نُطيلُ القولَ في مناقب الآداب المسيحية · وتعاليم ديانتنا الالهية · فانّ غرضنا في هذا المقام · انما هو جانبٌ من الكلام · في المحبة والسلام * أعني بذلك الفضيلتين العظيمتين · اللتين بُنيَ الدينُ المسيحيُّ عليهما · وامتاز بنوعٍ خصوصيٍّ بهما · فكانتا له البدء والنهاية · والعلّة والغاية * لاننا اذا بحثنا في الديانة المسيحية · واصولها القوية · نرها صادرةً عن المحبة · ومبنيةً على المحبة · ومسوّسةً بالمحبة * فان محبة الله لجنس البشر · هي عينها قد اقتضت تنازلَ ابنه الوحيد ليسالمَ المخلوقَ مع الخالق · ويخلصه من التعبد للخطيئة · ويعلمه ان يعمل البرَّ بالمحبة والسلام * وقد قال في ذلك القديسُ يوحنا الانجيليُّ « لانهُ هكذا احبَّ اللهُ العالم · حتى انهُ بذل ابنهُ الوحيد · لكي لا يهلك كلُّ مَن يؤمن به · بل تكون لهُ الحياةُ الابدية »[1] · وقال ايضاً في آيةٍ ثانية « ليس لاحدٍ حبٌّ اعظم من هذا · ان يبذل نفسهُ عن احبائه »[2] · والقديس بولس الرسول يقول « وكلُّ ما لي من الحياة سيفنى الجسد · انا حيٌّ بهِ في الايمان بابن الله · الذي احبني · وبذل نفسهُ لاجلي »[3] والقديس يوحنا الرسول يقول ايضاً في رسائله « بهذا تتبيَّن محبة الله لنا · إن الله ارسل ابنهُ الوحيد الى العالم · لنحيا به · واما المحبة في هذا · إننا لم نكن نحن احببنا الله · بل هو احبَّنا · فارسل ابنهُ كفّارة عن خطايانا »[4] * ثم ان القديس بولس الرسول في رسالته الى اهل افسُسْ يعلم بصريح العبارة · ان ثمرَ محبة الله لنا هو مسالمتنا مع الله واجراء السلام · واسمع ما قال في ذلك « اما الآن فانتم الذين

(١) يو ٣ : ١٦ (٢) يو ١٥ : ١٣ (٣) غلا ٢ : ٢٠ (٤) ١ يو ٤ : ٩ و ١٠

كانوا حيناً بعيدين · قد صرتم في المسيح يسوع قريبين · بدم المسيح · لانهُ هو سلامُنا · هو جعل الاثنين واحداً · ونقض في جسدهِ حائط السياج الحاجز · اي العداوة · وابطل ناموس الوصايا بتعاليمهِ · ليخلُقَ الاثنين في نفسهِ انساناً واحداً جديداً · باجرائه السلام · ويصلح كليهما في جسدٍ واحدٍ مع الله بالصليب · بقتله العداوة في نفسه · وجاء وبشركم بالسلام · انتم البعيدين · وبشّر بالسلام القريبين »[1] والقديس يوحنا اللاهوتي كتب في كتاب الرؤيا هذا المعنى نفسهُ حيث قال « مِنْ يسوع المسيح الشاهد الامين · وبكرِ الاموات · ورئيس ملوكِ الارض · الذي احبَّنا وغسلنا بدمهِ من خطايانا »[2] والقديس بولس يقول ايضاً في رسالته الى رومية هكذا « فاذ قد تبرَّرنا بالايمان · فلنا سلامٌ مع الله بربنا يسوع المسيح »[3] وفي رسالته الى اهل كولوسي يقول ايضاً « لانهُ فيهِ رضيَ الآب ان يحلَّ الملءُ كلهُ · وان يصالح بهِ الجميع لنفسهِ · مسالماً بدم صليبهِ ما على الارض وما في السماوات »[4] * وهذه الغاية تتضح من نبوات الانبياء · حيث يُدعى مخلصُنا رئيسَ السلام[5] وتتضح من بشائر الملائكة ايضاً وتمجيدهم الله حين ميلاد المسيح · ومن تسبيح التلاميذ حين دخوله اورشليم * قال القديس لوقا الانجيلي « وظهر بغتةً مع الملاك (الذي بشّر الرعاة بميلاد المخلص) جمهورٌ من الجند السماويين · يسبحون الله ويقولون « المجد لله في العلى · وعلى الارض السلام · وفي الناس المسرّة »[6] وفي ذكرِ دخول يسوع اورشليم قال ايضاً « ولما قرُبَ من منحدر جبل الزيتون · طفق جميع جمهور التلاميذ يفرحون ويسبحون الله بصوتٍ عظيم قائلين · مباركٌ الملك الآتي باسم الرب · السلامُ في السماء · والمجد

(١) اف ٢ : ١٣ — ١٧ (٢) رؤ ١ : ٥ (٣) رو ٥ : ١ (٤) كو ١ : ١٤ — ٢٠
(٥) اش ٩ : ٦ (٦) لو ٢ : ١٤

في نعلي »[1] * فالمحبة والسلام هما اساس التعليم المسيحي . ومصدر الخلاص . وغاية عمل ابن الله . وقد قال القديس بولس الرسول « ان غاية الوصية . انما هي المحبة من قلب طاهر . وضمير صالح . وايمان لا رياء فيه »[2] ومخلصنا لهُ المجد دعا الذين يفعلون السلام ابناء الله . لانهم يقتفون بفعلهم آثار فعل ابن الله . فطوبهم على ذلك وقال « طوبى لفاعلي السلام . فانهم بني الله يُدعَون »[3] ولما ازمع ان يتكبد الآلام . ويفارق تلاميذه . وينتقل من هذا العالم . فني وصيته الاخيرة لهم . اودعهم سلامه . وحرضهم بنوع خصوصي على حفظ المحبة . ففتح تلك الوصية قائلاً « اني اعطيكم وصية جديدة . ان يحب بعضكم بعضاً . وأن يكون حبكم بعضكم لبعض . كما احببتكم انا . بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي . اذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً »[4] ولما ودعهم قال لهم « السلام استودعكم . سلامي أعطيكم . . . هذه هي وصيتي . أن يحب بعضكم بعضاً . كما انا احببتكم . . . بهذا اوصيكم ان يحب بعضكم بعضاً »[5] وفي صلاته الى الاله الآب دعا من اجل التلاميذ ليكونوا واحداً بالروح والقلب . ولا يدخل بينهم شقاق ولا خصام فقال « ايها الآب القدوس . احفظ باسمك الذين اعطيتهم لي . ليكونوا واحداً كما نحن واحد . . . لست أسأل ان ترفعهم من العالم . بل ان تحفظهم من الشرير . . . واست أسأل من اجل هؤلاء فقط . بل من اجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم . ليكونوا بأجمعهم واحداً . كما انت ايها الآب في . ليكونوا مكملين في الوحدة . . . وقد عرفتهم اسمك وسأعرفهم . لتكون فيهم المحبة التي احببتني . واكون انا فيهم »[6] * ثم انهُ بعد قيامته من الاموات .

(١) لو ١٩ : ٣٨ (٢) اتي ١ : ٥ (٣) مت ٥ : ٩ (٤) يو ١٣ : ٣٤و٣٥
(٥) يو ١٤ : ٢٧و١٥ : ١١و١٧ (٦) يو ١٧ : ١١و١٥و٢٠ — ٢٢و٢٦

لما دخل على تلاميذه والابواب مغلقة مرارا مكررة . ولما لاقى النسرة والتلميذين السائرين الى عمواس . افتتح خطابهُ لهم بالسلام قائلاً « السلام لكم »[1] موكدا بهذا ان نتيجة آلامهِ وموتهِ وقيامتهِ كانت السلام لجنس البشر . وموسساً المؤمنين بهِ على المحبة والسلام . ليدخلوا ملكوتهُ الذي كما قال بولس الرسول هو « برٌ وسلامٌ وفرحٌ في الروح القدس »[2] . ولذا كان بولس وسائر رسل ربنا يعلّمون المؤمنين السلوك في المحبة ووحدة الروح ورباط السلام . وينهونهم عن الشقاق والخصام . ويحثونهم من اجل سلامهم على مثال مخلصنا لهُ المجد * فبولس الرسول كتب في ما كتبهُ الى اهل كورنثوس هكذا « ايها الاخوة . افرحوا اكتملوا وتعزوا . وكونوا على رايٍ واحدٍ . وابقوا على السلام . والهُ المحبة والسلام يكون معكم »[3] وفي محلٍ آخر ايضاً كتب يقول « اسهروا . اثبتوا على الايمان . كونوا رجالاً . تشددوا . ولتكن اموركم كلها بالمحبة »[4] وفي رسالتهِ الى اهل أفسس يدعوا المؤمنين ان يكونوا « متأصلين في المحبة ومتأسسين عليها »[5] وهو يوصيهم ايضا قائلاً « كونوا مقتدين بالله . كابناء احباء . واسلكوا في المحبة »[6] « واجتهدوا في حفظ وحدة الروح برباط السلام »[7] . وقد كتب الى اهل كولوسي فحثهم على فضائل كثيرة . ثم قال لهم « وفوق جميع هذه البسوا المحبة التي هي رباط الكمال . ولتتغلب في قلوبكم سلام المسيح . السلام الذي اليه دعيتم في جسدٍ واحدٍ . وكونوا شاكرين »[8] والقديس بولس الرسول يحث المسيحيين قائلاً « كونوا جميعاً بقلبٍ واحدٍ مشفقين بعضكم على بعض . ذوي

(١) مت ٢٨ : ٩ ولو ٢٤ : ٣٦ ويو ٢٠ : ١٩ و٢١و٢٦ (٢) رو ١٤ : ١٧
(٣) ٢كو ١٣ : ١١ (٤) ١كو ١٦ : ١٣ (٥) اف ٣ : ١٧ (٦) اف ٥ : ١ — ٢
(٧) اف ٤ : ٣ (٨) كو ٣ : ١٤ — ١٥

محبة اخوية . وقبل كل شيء « أحبوا بعضكم بعضاً محبة شديدة »[1] واخيرًا القديس يوحنا الحبيب رسول المحبة يشهد في الذي لا يحفظ المحبة أنه لا يعرف الله . وقد قال بصريح العبارة « انَّ كلَّ مَن يُحبّ . فهو مولود من الله وعارف به . ومن لا يُحبّ . فانهُ لا يعرف الله . لان الله محبة »[2] . وهذا يوافق ما قاله بولس الرسول في رسالته الى اهل كورنثوس حيث كتب « انَّ الله ليس اله التشويش بل اله السلام »[3]

فادام التعليم المسيحيّ والدين المسيحيّ كلهُ مصدرهُ المحبة واساسهُ المحبة . وغايتهُ السلام كما اوضحنا في ما قدمنا من الآيات الشريفة . أفليس من الواجب ان يكونَ جميع المؤمنين بالمسيح عائشين على قاعدة المحبة المسيحية . وملازمين المسالمة بعضهم نحو بعض . ومرتبطين روحًا واحدة . وقلبًا واحدًا . ورأيًا واحدًا . لا تفكّكهُ عوارض التشويش . ولا يُفسدهُ بذارُ الخصام ؟ واذا صحَّ هذا الواجب بالنسبة الى الأفراد . أفليس من الأَوْلى ان يصحَّ على الكنائس المسيحية المتفرقة في انحاء المعمور . لتكون على الرأي الواحد في التعاليم الدينية . وعلى السِّلم والاتفاق في العلاقات المتبادلة . وتؤلّف كلُّها جسدًا واحدًا . طاهرًا . شريفًا . مقدسًا . للرأس الواحد . مصدر القداسة والطهارة . ربّنا يسوع المسيح ؟ ولكننا اذا راجعنا تاريخ الكنيسة . ننظر لسوء الحظ ما لا يسرُّ الخاطر . بل ننظر ما يكدر ويحزن كلَّ قلب مسيحيّ . مما ينافي السلام . ويضادُّ المحبة * ننظر هرطقات . ومقاومات . وحروبًا دينية . كثيرًا ما صدمت اركان الكنيسة . وزعزعت اساساتها . واوشكت ان تخربها الخراب التام * نرى ابوابَ الجحيم مفتوحةً امامها . وجنودَ الشرير هائجةً عليها . وعدوَّ الخيرات يجمع قواهُ ضدَّها . ساهرًا ليلاً

(١) ١ بط ٤ : ٨ و ٤ : ٨ (٢) ١ يو ٤ : ٧ — ٨ (٣) ١ كو ١٤ : ٣٣

ونهارًا . وطائفًا من الشمال الى اليمين ومن المشرق الى المغرب . يُثير الزوابع الهائلة . والعواصف الشديدة . والانواء الثقيلة . ليبيدَ ويغرق هذه السفينة المقدسة في بحر فتن العالم . ويخنق ويحرق بذار الزارع الصالح باشواك الشكوك . وزوان الاضاليل . ونيران البِدَع والشقاق . وكلّ نوع من الخصام .

فانهُ من بدء عمل الخلاص بتجسُّد الكلمة . قد جاء هو عينه الى المخلص . واخذ يجرّبهُ باساليب كثيرة . وحيَل متنوعة . ليُفسد العمل المقدس . الذي تجسَّد لاجلهِ . ولكنهُ خاب . وآل سعيهُ الى « اذهب خلفي ياشيطان »[1] وتركهُ وذهب مخزيًا * ولما لم ينجح عملهُ . اخذ يحرك شيَعَ اليهود وعظماءهم . وحكام الارض . ويهيجهم على المخلص . حتى توصل الى انهُ دخل في واحد من التلاميذ انفسهم . وهو يهوذا الاسخريوطيّ المعروف . وطلب ان يهدم بهِ الكنيسة . فلم يستطع * وكثيرًا ما كان يحتال على مصفّ التلاميذ كلهِ كما شهد مخلصنا لهُ المجد حيث قال « سمعان سمعان هوذا الشيطان سأل ان يغربلكم مثل الحنطة »[2] غيرانهُ كان يصادف قوةً الهيةً تلجم اندفاعهُ وتمزق اشراكهُ وتهدم قواهُ * ومع هذا كلهِ أبَى إلاَّ ان يُديمَ القتال بسلاح الاحتيال . ويُعرقلَ بالاضطهاد والفساد خطوات المبشرين بالسلام * ولذا كان مخلصنا لهُ المجد يشجّع التلاميذ على ما كان مزمعًا ان يلاقيهم في العالم من الاضطهاد والضيق وحروب الشرير . موكدًا لهم أنهُ قد غلب العالم[3] . وأنَّ ابوابَ الجحيم لن تقوى على كنيستهِ[4] * على ان تلك المصاعب والاخطار لم تنحصر في تعدّي الخارجين عن الايمان فقط من يهود وامم . بل كثيرًا ما جاءت من أُناس ، مُنتمين على حالٍ اشد واقوى من تلك . فنشأ عنها الانقسام . والبغضة . والحروبُ الداخلية . والتحزّبات . والفتن .

(١) مت ٤ : ١ — ١١ (٢) لو ٢٢ : ٣١ (٣) يو ١٦ : ٣٣ (٤) مت ١٦ : ١٨

وكلُّ ما يخدم الخراب. كما شهد المخلص لهُ المجد «إنَّ كلَّ مملكةٍ تنقسم على نفسها تخرب. وكلُّ مدينةٍ او بيتٍ ينقسم على نفسهِ لا يثبت»[1] * ولكي نؤكد ما نحن على يقينٍ عظيمٍ فيهِ انَّ عنايةً الهيةً خصوصيةً حفظت الكنيسة في بحر الاضطراب الداخلي (فضلاً عن الخارجيّ) من صدمات امواج الخراب النهائيّ. وفاءً للوعد الصادق. نفتح كتاب التاريخ الكنائسيّ. ونستلفت القرّاء الى التأمّل في مشهد ما نذكرهُ من زوابع الهرطقات والشقاق في الكنيسة.

فترى التاريخ يحدثنا. أنَّ عدوَّ البشر فتح ومدَّ اشراكهُ في سبيل نجاح الايمان من ازمنة الرسل القديسين عينها وأملأها من صنّارات الكبرياء وكلاليب الاستبداد. ووضع فيها طعماً لذيذاً جميل المنظر قريب التناول. ولكنهُ مملوءٌ سماً قتّالاً. أعني بهِ طعم محبة المجد وما يليهِ من طمعٍ وحسدٍ وسوء طويةٍ وخبث نيةٍ وخصوصاً التهافت الى السيادة والسلطة. وما زال يحتال ويدوس ويحسّن ويدلّس. حتى صاد بعض الضعفاء * واوجد الشقاق في الكنيسة من عصر الرسل القديسين عينهِ * وهذه الحقيقة تؤكدها تعاليم الرسل انفسهم. فان القديس بولس الرسول قد نهى اهل رومية عن مشاركة الذين يحدثون الشقاق كما سبقت الآية[2]. ويحذّر اهل كولوسي قائلاً «احذروا ان يسلبكم احدٌ بالفلسفة والغرور الباطل حسب سنّة الناس على اركان هذا العالم»[3] ويوصي اهل تسالونيكي قائلاً «نوصيكم ايها الاخوة باسم ربنا يسوع المسيح. ان تجتنبوا كلَّ من يسلك من الاخوة على خلاف الترتيب. بغير مقتضى التقليد الذي تسلّموهُ منا»[4] وقد كتب لتلميذهِ تيطس يقول «اما المباحثات الهذيانية والانساب. والخصومات. والمماحكات على الناموس. فاجتنبها. فانها غيرُ نافعةٍ

(١) مت ١٢: ٢٥ (٢) رو ١٦: ١٧ (٣) كو ٢: ٨ (٤) تس ٣: ٦

. بل باطلة. ورجلُ البدعة بعد الانذار مرةً وأُخرى. أعرض عنهُ. عالماً أنَّ من هو كذلك قد فسد تماماً»[1]. وفي رسالتهِ الى تلميذهِ تيموثاوس يذكر بصريح العبارة بعض البدَع وبعض تابعيها باسمائهم حيث قال «اجتنب الكلام العاليَ المتلبّس بالبدَع. فانهم يزدادون بهِ كثيراً في النفاق. وكلمتهم ترعى كالآكلة. ومنهم ايميناوس وفيليطاس»[2]. ومعلومةٌ عندنا من الكتاب والتاريخ الحوادث الخصامية التي حدثت في عصر الرسل بسبب الختان وغيرهِ. وانعقد لاجلها مجمع الرسل القديسين. وحُكم على اليهود المتمذهبين بالديانة المسيحية. وهم متشبثون بظلّ الشريعة. وايضاً الخصام الذي قام في غلاطية وكورنثوس ورومية ضدَّ القديس بولس الرسول نفسهِ. وخصوصاً الانقسام الذي نشأ في كورنثوس بانتماء بعض المسيحيين الى بولس. وبعضهم الى بطرس. وبعضهم الى ابلُّس. وهلمَّ جرّا * وايضاً بدعة اسكندر وايميناوس وفيليطاس المذكورة. وبدَع النقولائيين او البلعاميين[3] وغيرهم.

وبعد عصر الرسل القديسين نرى بدَعاً وشقاقاتٍ يطول الشرح في احصائها. فمنها في القرن الثاني بدعة اليهود الناصريين. والابيونيين. والالكساعيين. والشمشونيين. وبدعة الغنوستيين على اختلاف مذاهبهم. وانقسامهم الى قسمين. اسيويين ومصريين. ثم تشعّب القسم الاسيويّ الى مذاهبَ عديدةٍ. منها مذاهبُ ساطُرنينوس. ومركيون. وبرديسانس. وتاتيانوس. والانكراتيين. وايضاً تشعّب القسم المصري الى مذاهب باسيليدس. وكيرنثس. وكربوكراتيس. والنديوس. والحيويين. والباتروباسثيين. والموندانيين. واضداد الثالوث على اختلاف مذاهبهم * وفي القرن الثالث وما يليهِ نجد بدَع ايارکس. ونوبتوس.

(١) تي ٣: ٩ — ١١ (٢) ٢ تي ٢: ١٦ — ١٧ (٣) رؤ ٢: ٦ و ١٥

وسابيليوس · وبولس السميساطي · وبيرلس في بصره العرب · وبدعة نوباتس. ثم انشقاق الدوناتيين · والتاثيين · ونختمهم بآريوس المشهور إمام المبتدعين * وبعد آريوس قامت بدع ابوليناريوس · ومرقلس · وفوتينوس · ومكدونيوس · وبرسكيليانوس · وإفذيوس · ثم بدعة نسطوريوس · وبرسوم · ثم بدعة افتيشيس (المعروف باوطيخا) واتباعه · وبطرس القصّار · ثم بدعة بيلاجيوس · وسيبيروس · ويعقوب البرادعي · والأغوثيين · وذوي الثلاثة الآلهة · ثم بدعة موحدي المشيئة · وما تفرع عنها · وما قام بعدها في الشرق والغرب ·

غير انّ الانشقاق المحزن اكثر من كل انشقاق سواه · والجرح الأليم الذي أنسى الكنيسة كلّ جراحها السالفة · والمصيبة العظيمة التي غطّت على كلّ المصائب السابقة · كان الانشقاق الكبير بين الكنيسة الشرقية المؤلفة من الكراسي البطريركية الاربعة القسطنطيني والاسكندري والانطاكي والاورشليمي · ومن كراسي الاسقفيات الخاضعة لها والمستقلة بنفسها في الشرق · وبين الكنيسة الغربية المؤلفة من كرسي اسقف رومية وسائر الاسقفيات المرؤوسة منه في الغرب · وهذا الانشقاق قد بدأ على ما هو معلوم في عصر البطريرك القسطنطيني فوتيوس (سنة ٨٦٣) وتمّ في عصر البطريرك القسطنطيني ميخائيل كيرولاريوس (سنة ١٠٥٤) وعليه مدار مؤلفنا هذا ·

وقد كان يليق بنا ان نجعل تاريخنا مندبةً · وسلسلة مراثٍ · نندب ونرثي بها الحالة المحزنة والحوادث الهائلة التي رافقت مدته او تخلفت عنها الى يومنا هذا · ولكنّا نكتفي من ذلك بذكر الحوادث فقط ونترك الحال ان تندب نفسها · ونبحث البحث الوافي · ونوضح الايضاح الكافي · في اسباب الانشقاق المذكور · وكيفية التخرّج فيه ونهاية امره ·

هذا ومن كون الكنيستين الشرقية والغربية · نظرًا للارتباط الروحي بينهما كانتا منذ البدء على علاقات مهمة · كثيرًا ما تستندان عليها في قضاياهما · ومن كونهما عقدتا مجامع · وجدّدتا علاقات بعد الانشقاق لتتضامدا لمساعدة والنزاع وعودا الى الوحدة التي رغبتاها كلٌّ منهما بحسب مبادئها او مقاصدها · فلكي يكون موضوعنا مستوفي الافادات · وقائمًا بالغرض المطلوب · عزمنا ان نبحث ايضًا على قدر الاقتضاء في علاقات الكنيستين قبل الانشقاق · وبعد الانشقاق · الى حين انقطاع العلاقات بينهما انقطاعًا تامًا * وعلى ذلك نقسم الكتاب الى ثلاثة اقسام · فالقسم الاول يبحث في علاقات الكنيستين التي تقدمت الانشقاق · والقسم الثاني في علاقاتهما وتخرّجهما في مدة الانشقاق · والقسم الثالث في علاقاتهما بعد الانشقاق * ولكي نمهّد للقارئ فهم ما نحن عازمون ان ندرجه من التاريخ · ونجعل ابحاثنا التاريخية في اسباب الانشقاق ومبادئه وافيةً من كل الوجوه · نقدم على الاقسام الثلاثة لمحةً تبحث في مبدإ النظام الكنائسي والرتب الكنائسية · ونردف كلّ بحثٍ تاريخيّ بملاحظاتٍ تفيد أهمّ ما هو فيه موضوع مناظرة بين الكنيستين ودعوى واستناد كل واحدةٍ منهما * وعلى هذه الهيئة نشرع في الموضوع · ونسأل الله التوفيق في كل مشروع ·

فاقبلوا ايها السادات الشرفاء · والاخوة النجباء · والابناء الادباء · سواء كنتم من ابناء الكنيسة الارثوذكسية · ام من المنتمين للكنيسة الغربية · وتصفّحوا هذه الخدمة الاخوية · الصادرة عن ضمير صالح ونية مسيحية مجرّدة عن روح الغرض الظالم والغايات الخصوصية · ومستندة على البراهين القوية · والبينات الجلية · من الكتاب ومن المجامع المسكونية والمكانية · ومن تفاسير الآباء واقوالهم الدرّية · ومن التواريخ القديمة الحقيقية · ولا تشكّوا في ان السلام

والانضمام بجلب العمار والانقسام والخصام بخرب الديار ويفضي الى الدمار. ولا تكونوا من المتشبثين والمتحزبين بلا تروٍ والحاكمين بلا بحثٍ * بل قوموا بنا نرمي الضعف البشري على ناحيةٍ وانهضوا الى تقويم الزللَ واصلاح الخلل فاننا ما التزمنا ان نرتبطَ بضعف الغير ونضيفَ على زلاتنا زلاتٍ بل علينا ان نسعى في الخير جهدنا اذ لا ينالُ احدٌ الاَّ ثمر تعبهِ فلا يحصد من الخير شرًا ولا من الشرّ خيرًا كما انهم لا يجتنون من الشوك عنبًا ولا من الحسك تينًا * واله المحبة والسلام يهبكم نعمةً وقوةً على كل ضعفٍ ويكسر كل عدوٍ للخير امامكم ويسحق الشيطان تحت اقدامكم سريعًا.

على اني قبل ان اختم مقالتي هذه افيدكم من كلام الله ما هو حظُّ الذين يزرعون الانقسام ويفضّلون الشقاق على السلام فاسمعوا ومجدوا الله:

قال الربُّ لهُ المجد «يشبهُ ملكوتُ السماوات رجلاً زرع زرعًا جيدًا في حقلهِ. وفيما الناس نائمون جاء عدوُّهُ وزرع في وسطِ القمح زؤانًا ومضى. فلما نمى النبت واخرج ثمرًا حينئذٍ ظهر الزؤان. فجاء عبيد رب البيت وقالوا لهُ: يا سيد أَلَم تكُن زرعت في حقلك زرعًا جيدًا. فمن أين الزؤان؟ فقال لهم انَ رجلاً عدوًا فعلَ هذا. فقالَ لهُ عبيدهُ أتريدُ ان نذهب ونجمعهُ؟ فقال لهم لا. لئلاَّ تقلعوا الحنطة مع الزؤان عند جمعكم لهُ. دعوهما ينبتان جميعًا الى الحصاد. وفي اوان الحصاد اقول للحصادين اجمعوا اولاً الزؤان واربطوهُ حزمًا ليحرق. واما القمح فاجمعوهُ الي اهرائي»[1]

فنسأل الله ان يحمينا واياكم من حكمهِ على الزؤان. ويُبعدَ الشرير من بيننا. لنكونَ قمحًا نقيًا. وزرعًا صالحًا في ارضهِ الجيدة. آمين.

(١) متى ١٣: ٢٤ — ٣٠

لمحـــة

في مبدإ النظام الكنائسي واصل الرتب الكنائسية للبطاركة والبابوات وسائر الاساقفة وفي معناها ومركزها وحقوق كل واحدةٍ منها

من الامور المقررة. والحقائق الواضحة. التي لا تقبل شبهةً ولا تحتمل شكًا. ان النظام روح الوجود. وان كل هيئةٍ لا تقوم الاَّ بنظام يدير حالتها. ويحفظ وجودها. ويضمن نجاحها * ولما كانت كنيسة المسيح المقدّسة هيئةً عظيمةً. يشخصها افرادٌ كثيرون متنوعو الاجناس. متباينو المشارب. مشكّلو الرتب. وجسمًا حيًا واحدًا. تؤلفهُ اعضاءٌ كثيرةٌ. كانت هي ايضًا تحتاج كباقي الهيئات الى نظامٍ داخليٍ تقوم بهِ. وارتباطٍ روحيٍ ترتبط عليهِ. لترتب لكل شخصٍ رتبتهُ. ويعرف كلُّ عضوٍ وظيفتهُ. ولا يسودَ في اقدس الهيئات وافضلها خللٌ. يخالف طبيعةَ الوجود.

ومن ثمَّ لما تجسّد مخلصُ العالم ربُّنا يسوعُ المسيح. وشرع في تأسيس الكنيسة وعمل الخلاص. فاول امرٍ عني فيهِ كان وضعَ النظام * فانهُ انتخب هيئةً خصوصيةً وهي مصفُّ الرسل القديسين. وناط بها عمل البشارة. وهداية الامم. وادارة الكنيسة. ومنحَ المواهب للمؤمنين * فدعا اولاً اندراوس واخاهُ بطرس صيادَي السمك وقال لهما «اتبعاني فاجعلكما صيادَي بشرٍ»[1]. ثم دعا يعقوب بن زبدى ويوحنا اخاه[2]. ثم سائر «الذين ارادهم. وعيَّن منهم اثني عشر ليكونوا معهُ ويرسلهم للكرازة. واعطاهم سلطانًا على الارواح النجسة لكي

(١) متى ٤: ١٩ ويوا: ٤٠ و٤١ (٢) متى ٤: ٢١

يُخرجوها . ويشفوا كلَّ مرضٍ وكلَّ ضعفٍ . . . ثم ارسلهم ليبشروا . واوصاهم كيف يسلكون في تبشيرهم»[1] * وبعد قيامته من الاموات ارسلهم ليتلمذوا ويعلموا كلَّ الامم . فقال لهم «قد أُعطيتُ كلَّ سلطانٍ في السماء والارض . فاذهبوا وتلمذوا كلَّ الامم . معمدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس . وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به . وها انا معكم كل الايام . الى منتهى الدهر»[2] وقد اعطاهم ايضاً السلطة الروحية . اذ نفخ فيهم وقال لهم «خذوا الروح القدس . من غفرتم خطاياهم تُغفر لهم . ومن امسكتموها تُمسك لهم[3]» * وبعد صعوده الى السماوات ارسل اليهم الروح المعزّي بشبه ألسنةٍ نارية . ومنحهم مواهب اللغات . وقوةً من العلاء كما كان وعدهم[4]

فخرج التلاميذ بتلك القوة العظيمة . واخذوا يبشرون اليهود والأمم بملكوت الله . ويؤسسون الكنائس . وكانوا هم وحدهم محور الكنيسة . ينظرون في احوالها ويهتمون بشؤونها . كما نتعلم من سفر اعمالهم الذي كتبهُ لوقا الانجيلي * فكانوا يحلّون الخطايا ويربطونها . ويقاصّون الخطاة . ويزجرون المذنبين . ويبكّتون الاشرار . ويقطعون من جسم الكنيسة الاعضاء التي لا تقبل اصلاحاً * وكانوا يحلّون المشاكل . ويحكمون في المسائل . تارةً على حدةٍ افرادياً . وتارةً كلهم معاً مجتمعياً[5] * وقد اقاموا بوضع اليد خداماً في الكنيسة القسوس والشمامسة . ثم منحوا بوضع اليد ايضاً قوتهم وسلطانهم لاشخاصٍ غيرهم سمّوا اساقفة . واقاموهم رعاةً في اماكن محدودةٍ . كما اقام بولس تيموثاوس في أفسس . واقام تيطس في

(١) مر ٦ : ١٢ — ١٦ و ٦ : ٧ — ١٣ مت ١٠ : ١ الخ لو ٩ : ١ — ٦ (٢) مت ٢٨ : ١٨ — ٢٠ ومر ١٦ : ١٥ (٣) يو ٢٠ : ٢٢ (٤) اع ٢ : ١ — ١٣ ومر ١٦ : ١٧ ولو ٢٤ : ٤٩ (٥) اع ١٥

كريت . وغيرهُ غيرهما في اماكن غيرها . وهكذا تألّف نظام الكنيسة وسياستها الروحية بقسمة المؤمنين الى رعاةٍ ورعيةٍ . او اكليروسٍ وشعبٍ . وقسمة الاكليروس الأعلى[1] الى ثلاث درجاتٍ وهي درجة الاساقفة ودرجة القسوس ودرجة الشمامسة . وهذه الدرجات الثلاث قد أُقيمت في الكنيسة بحق الهيّ لا بحقٍ كنائسيّ . اعني انها أُسّست ورُتّبت لابتداء على مجرد استحسان المؤمنين . بل من الله نفسهِ . ونُحَ بنعمة الروح القدس . فلا يقع عليها او على احداها تغييرٌ او نفيٌ . كما ان المعمودية مثلاً موسّسةٌ من الله . ولا تقبل شيئاً من ذلك * اما وظائف كل واحدةٍ منها فهي ان الاساقفة أُقيموا خلفاء الرسل في كلِّ شيءٍ ما عدا الرتبة الرسولية العامة . التي تحولت بهم الى رتبةٍ اسقفيةٍ خاصةٍ . تعني بذلك انَّ كلَّ واحدٍ من الرسل كانت لهُ حقوقٌ عامةٌ على كل المسكونة وفقاً لوصية مرسلهم[2] . واما الاساقفة فقد انحصرت حقوقهم كلُّ واحدٍ منهم في رعيةٍ غيره التي أُقيم عليها من دون ان يكون لاحدٍ منهم حقُّ المداخلة في رعية غيره بلا رخصةٍ ورضىً منهُ[3] . وكما كان الرسل القديسون متساوين في الرتبة الرسولية لا يمتاز احدهم على الآخر في شيء * وكان كلُّ واحدٍ منهم لهُ كلُّ السلطان الذي للآخرين بلا نقصٍ بحيث كانت درجة المساواة بينهم كاملةً . هكذا كان الاساقفة خلفاؤهم متساوين في الرتبة الاسقفية لا يمتاز احدهم على الآخر في شيءٍ منها كما لم يزالوا الى يومنا هذا والى منتهى الايام * واما القسوس

(١) قلنا الاعلى لان كلمة «اكليروس» تعمّ الدرجات الكنائسية ايضاً كالابيوذياكون والاناغنوسط والمرتل وغيرهم (راجع قانون ٢٦ و٦٨ و٧٠ للرسل و٢٤ و٤٠ لمجمع اللاذقية وغيرها) (٢) مر ١٦ : ١٥ ومت ٢٨ : ١٨ — ٢٠ (٣) قانون ١٤ للرسل و١٥ للمجمع الاول و٥ للرابع و٣٠ للسادس

فكانوا يقامون بوضع اليد ايضاً وكانوا تحت سلطة الرسل او الاساقفة رعاةً للكنائس على افرادها ومساعدين للاساقفة وروساء على الشعب . وعملهم تعليمُ المؤمنين . والنظر في قضاياهم . واقامة الاسرار والخدَم الكنائسية . والسهر على الرعية . وحفظ وديعة الرب * واما الشمامسة فكانوا مساعدين للقسوس والاساقفة في خدَمهم . كما اوضحنا كلَّ ذلك بالتفصيل في محلهِ[1] * هكذا سُنَّ النظام الكهنوتي من الله . وهكذا سلَّم من الرسل الى الكنيسة . لتُساس عليهِ . وتمنح بهِ نِعَم الله للمؤمنين . وتدوم جسماً منتظماً للرأس الواحد يسوع المسيح * وقد أُمرت من الله على فم الرسل ان تخضع في الاحوال العالمية الخضوع الواجب للسلطة المدنية . فقال في ذلك بولس الرسول لكنيسة رومية « لتخضعْ كلُّ نفسٍ للسلطات العالية . فانهُ لا سلطان الاَّ من الله . والسلاطين الكائنة إنما رُتِّبت من الله . فمَن يقاوم السلطان فانما يعاند ترتيب الله . والمعاندون يجلبون دينونةً على انفسهم . . . لانَّ السلطان خادم الله للخير . . . ولم يتقلد السيف عبثاً . . . فلذلك يلزم الخضوع لهُ . . . ادُّوا لكلِّ حقَّهُ . الجزْيَة لمَن لهُ الجزْيَةُ . والجباية لمن لهُ الجباية . والمهابة لمن لهُ المهابة . والكرامة لمن لهُ الكرامة . لا يكُن عليكم لاحدٍ حقٌّ »[2] وكتب ايضاً لتلميذهِ تيطُس يقول « ذكِّر (الشيوخ والعجائز والفتيات والعبيد) ان يخضعوا للرئاسات والسلاطين . وان يطيعوا ويكونوا متأهبين لكلِّ عملٍ صالح »[3] وبطرس الرسول كتب في رسالتهِ الأُولى يقول « فاخضعوا إذن لكل خليقةٍ بشريةٍ من اجل الرب . اما للملك فكالأعلى . واما للولاة فكالمرسلين من قبلهِ . . . أكرِموا الجميع . أحبُّوا المواخاة . اتقوا الله . أكرموا الملك »[4] * على ان هذهِ

(١) راجع كتاب الانوار في الاسرار في سر الكهنوت (٢) رو ١٣ : ١ — ٨
(٣) تي ٣ : ١ (٤) ١ بط ٢ : ١٣ — ١٧

الطاعة بحسب تعليم الكتاب المقدَّس مطلوبةٌ من المؤمنين في علاقاتهم العالمية فقط . أعني ما دامت السلطة لا تكلِّفهم الى ما يضادُّ قواعد ايمانهم . ولكن متى تعدَّت السلطة واجباتها وكلفتهم الى ما يخالف ايمانهم . فحينذاك عليهم ان يخضعوا لله اكثر من الناس . كما فعل الرسولان بطرس ويوحنا عندما حُكِم عليهما من مجلس اورشليم بان لا يبشرا . ورفضا حكمهُ بقولها « احكموا انتم : ما العدل امام الله ؟ أن نسمع لكم ام لله ؟ فانَّا لا نقدر ان لا نتكلم بما عاينا وسمعنا »[1] وكما قال القديس بوليكربوس للوالي ستاتيوس كوادراتوس « انا قد تعلَّمنا ان نقدم للرئاسات والسلطات المقامة من الله الاكرام اللائق الذي لا يضرُّ بنا »[2] وعنى بالضرر الضرر في الايمان كما يتضح من مراجعة الرسالة كلها

وقد حافظت الكنيسة على هذا النظام المقدَّس كلَّ المحافظة . وبناءً عليهِ كانت ولم تزل تؤدي لكلِّ حقهُ . فتحترم السلطة المدنية الاحترام اللائق . وتعترف بحقوقها في السياسة العالمية . وتصلِّي من اجلها كلَّ يوم . ولكنها في احوالها الروحية تنقاد الى رعاتها الاساقفة والكهنة . وتعتبر كل رتبةٍ من الرتب الكهنوتية حقَّ اعتبارها . معترفةً برأسٍ واحدٍ المسيح رئيس الرعاة العظيم . ومعتقدةً المساواة التامة بين الاساقفة من حيث الدرجة الكهنوتية والحقوق الالهية . كما يشهد آباؤها القدماء جميعهم من اغناتيوس المتوشح بالله الى كبريانوس اسقف قرطاجنة وسائر الآباء والمولفين الكنائسيين والمجامع العديدة في المشرق والمغرب . فانهم يعلِّمون برأيٍ واحدٍ ان اتحاد الكنيسة يقوم بوحدة الروح الذي فيها وبوحدة رأسها يسوع المسيح . لا بوحدة شخصٍ منظور . فكما ان المسيح واحدٌ وروح الله في الكنيسة واحدٌ . هكذا الكنيسة في جوهرها وطبيعتها واحدةٌ . واما رعاتها

(١) اع ٤ : ١٩ و ٢٠ (٢) رسالة ازمير للبطس في استشهاد بوليكربوس

جميعهم فهم من حيث الحق الالهي متساوون اذ ان رئاسة الكهنوت واحدة لامتعددة والكنيسة واحدة *قال القديس كبريانوس «كما ان الغصن متى انفصل عن جذعهِ لا يقدر ان ياتي بثمرٍ . هكذا المسيحي الخارج عن شركة الكنيسة التي فيها قوة الله . فالكنيسة هي النظام الحيُّ المرتَّب من المسيح . النظام الذي بهِ يمتدُّ فعل الروح القدس في كل عصرٍ من المسيح الى الرسل ومنهم بالشرطونية الى خلفائهم الاساقفة . وهكذا ترتبط الكنيسة كلُّها بالمسيح الرباط القوي»[1] . والقديس ايريناوس يقول «ان الكنيسة هي الحافظ للايمان . فتمنح بالروح القدس الشركة مع المسيح . فحيث الكنيسة هناك روح الله . وحيث روح الله هناك كل النعمة»[2] . والقديس اغناتيوس المتوشح بالله . (وهو من خلفاء بطرس الرسول) يقول «ان جميع الاساقفة الذين تعينوا الى اقاصي المسكونة هم وكلاء المسيح ورأيهم رأيُ المسيح»[3] والقديس كبريانوس يقول ايضاً بصريح العبارة «ان الرتبة الاسقفية واحدة»[4] وفي رسالتهِ الخامسة والخمسين يقول «كما انها أُقيمت كنيسةٌ واحدة للمسيح في كل العالم منقسمة الى اعضاء كثيرة . هكذا الرتبة الاسقفية واحدةٌ منقسمةٌ الى عدد اساقفةٍ كثيرين» . وهذا المعنى عينهُ ذكرهُ في خطابهِ الافتتاحي في مجمع قرطاجنَّة (سنة ٢٥٦) فقال «لا احد من اساقفتنا سقَّف نفسهُ او غصب رفقاءهُ بخلوف سلطتهِ المطلقة على الطاعة لهُ . وذلك لانَّ لكلِّ اسقفٍ حقَّ الحكم بناءً على حريتهِ وسلطانهِ . فكما لا يحكم عليهِ من الآخرين لا يحكم هو على الآخرين . فيجب ان ننتظر حكم ربنا يسوع المسيح الذي لهُ وحدهُ سلطان اقامتنا على سياسة

(١) ضد النوفاتيين (٢) ضد الهراطقة ٣ : ٣٤ : ١ و ٤ : ٤٣ (٣) الى افسس فصل ٢ (٤) في وحدة الكنيسة فصل ٥

كنيستهِ . ودينونتنا على اعمالنا» * هذه شهاداتٌ اوردناها من اقدم المؤلفين المسيحيين والآباء الاهليين . منها يُفهم مبدأُ الكنيسة وحقيقة تعليمها منذ القديم في الوحدة الكنائسية ورتبة رئاسة الكهنوت الجليلة .

ولكن ما دامت الاسقفية واحدةً . والاساقفة على مثال الرسل القديسين متساوين جميعهم بعضهم ببعضٍ في رتبتهم الواحدة . ولا يمتاز احدهم على الآخر في شيءٍ بها . فما بالنا نرى في الكنيسة رؤساء كهنةٍ مشكَّلي الرتب متنوعي العلاقات من بطريركٍ . وبابا . ومطرانٍ . ورئيس اساقفة . واسقفٍ . ونرى بعض هذه الوظائف لتقدم وترأس . وبعضها لتبع وتخضع ؟ وكيف ومن اين نشأ هذا التقدم وهذه الرئاسة ؟ أوليس في الامر عكسٌ لما ذكرناه عن نظام الكنيسة القديم ؟ * هذا امرٌ نرى البحث فيهِ مفيداً وضرورياً بالنسبة الى موضوعنا . فنقول :

انهُ في بدء انتشار الايمان المقدس في العالم كان المسيحيون يجتمعون في محلٍ واحدٍ لاقامة الصلاة . وتأدية فروض العبادة . يسمونهُ كنيسةً * والكنيسة في وضعها الاصليّ لفظةٌ يونانية ، معناها في الاصل : اجتماعُ الناس كثيرين مدعوين لغرضٍ في مكانٍ واحدٍ * ثم أُطلق هذا المعنى على الجماعة المجتمعة نفسها . وخصوصاً على جماعة جمهور اصحاب السياسة المنظر في القضايا المدنية . وأُطلق ايضاً على مكان الاجتماع عينهِ . وعلى ذلك جاء هذا الاسم عند المسيحيين بمعنى جماعة المؤمنين تحت رعاية الاسقف وبمعنى المكان الذي يجتمع فيهِ المؤمنون مع اسقفهم لاقامة الصلاة * وفي اول الامر كانت في كل مدينةٍ كنيسةٌ واحدة يجتمع فيها الشعب وفي مقدمتهِ اسقفهُ . فكان لكل كنيسةٍ اسقف * والاسقف كلمةٌ يونانية . اصل لفظها « إِبِسْكُبُس » . ومعناها الرقيب او الناظر . وكان اليونانيون والامم يسمُّون بها آلهتهم كما ورد في مولفات هوميروس وافلاطون

وغيرها[1] . ثم سمّوا بها اولي الرتب والقضايا والمراكز المدنية العليا . وفي الكنيسة سُمّي بها رؤساء الكهنة بنوعٍ خاصٍّ[2] * ثم . لما امتد الايمان الى القرى والمزارع المجاورة المدن . كان المؤمنون فيها يحضرون الى كنيسة المدينة التابعون لها ويصلّون * غير ان الحال اقتضت بعد ذلك ان يزيد عدد الكنائس . لان المؤمنين كانوا يكثرون في المدن والقرى ولم تَعُد الكنيسة الواحدة كافيةً لاجتماعهم . وخصوصاً الذين كانوا من القرى البعيدة كانوا يكابدون مشقةً في حضورهم الى المدينة . فأُقيمت كنائس أُخرى في المدن وفي القرى كان يرعاها ويتولّى امرها اسقف المدينة نفسهُ . وقد كان مركزهُ بالنسبة الى المؤمنين الذين آمنوا على يدهِ مركز والدٍ روحيٍّ بين اولادٍ لهُ بالرب . وكانت كنيستهُ الاصلية تُعتبَر اماً . والكنائس المتجددة في المدينة او في القرى بناتٍ لها * غير ان وجود الاسقف في جميع الكنائس لم يكن ممكناً . وقيامهُ بجميع الواجبات الاسقفية فيها كان صعباً . فدعت الضرورة ان يُقيمَ اساقفة المدن اساقفةً آخرين في القرى معينين لهم وتحت مناظرتهم في سياسة شعوبهم . وهولاء هم المدعوون في التاريخ «خوربيسكوبي» (اي اساقفة القرى) . فتألّفت من ذلك علاقةٌ تابعيةٍ بين الاساقفة . وعلاقةُ امتيازٍ فيهم بين رئيسٍ ومرؤوسٍ . وأعلى وأدنى . لا في الرتبة الاسقفية . كأنّ رئاسة كهنوت المرؤوس ناقصةٌ عن رئاسة كهنوت رئيسهِ . حاشا ! بل في العلاقات الادارية فقط . مع المحافظة على جوهر الرتبة

(١) تاريخ ملانيوس فصل ١٤ من المقدمة (٢) راجع كتاب الانوار (في الكهنوت) — قال الملوك لاون وقسطنطين : ان الاسقف هو الرقيب المعتني بجميع النفوس بنات الكنيسة التي في ابرشيته . ولهُ القوة على اقامة القس والشماس والاناغنوسط والمرتل والراهب» (المنتخبات نيتاس ٨ كتاب ٢)

الاسقفية . التي كان الاسقف الاوّل وسائر اساقفتهِ في القرى متساوين فيها . يتممون بالسوية كلّ واجباتها . ولم يمتزْ فيها اسقفٌ على اسقفٍ . كما لا يمتازُ كاهنٌ على كاهنٍ في كهنوتهِ . ولا شمامٌ على شمامٍ في شموسيتهِ .

غير ان العلاقات بين الاساقفة ما كانت محصورةً بين اساقفة المدن واساقفة القرى فقط . بل كانت ظروفٌ كثيرة تقتضي علاقاتٍ شديدةً بين الكنائس نفسها بعضها مع بعضٍ . ومن ثمَّ بين اساقفتها . واهمُّ تلك الظروف كانت المخابرات الكتابية . واحياناً المذاكرات الشخصية . الناشئة عن الارتباط الديني ووحدة الايمان . والحوادث المهمة الكنائسية . وما شاكلها . وامثالها كثيرةٌ في التاريخ الكنائسي منذ القديم * فمنها ان بعضاً من المؤمنين كانوا يحملون رسائل كنيسةٍ ويقرأُونها في كنيسةٍ أُخرى . كما حمل بعض الكولوسيين رسالة القديس بولس الرسول اليهم وقرأُوها بامرهِ في كنيسة اللاذقية . وحملوا رسالتهُ ايضاً الى اللاذقيين وقرأُوها في كنيستهم[1] * ومنها ان الكنائس كانت تخابر بعضها بعضاً بكتاباتٍ في حوادث مهمةٍ نصحاً او استنصاحاً . كما تشهد رسائل القديس اغناتيوس المتوشح بالله الى القديس بوليكربوس اسقف ازمير . والى كنيسة أفَسُس حين كان اسقفاً عليها اونيسيموس . والى كنيسة مغنيسا في عهد اسقفها دامان . والى فيلادلفية . والى كنيسة رومية وغيرها * ورسائل القديس بوليكربوس . والقديس ديونيسيوس الاربوباغي اسقف كورنثوس . والقديس اكليمس اسقف رومية وغيرهم * وكما حصل في القرن الثاني بين كنائس اسيا الصغرى وغلاطية . وبين كنيستي ازمير والبنطس * وكانت تفضح تلك العلاقات اكثر فاكثر عند انتخاب الاساقفة . فان الاسقف

(١) كو ٤ : ١٦

الجديد كان يكتب لاخوته الاساقفة البعيدين خبر انتدابه وشرطته . ويتال منهم الاجوبة مقرونة بالمعرفة والقبول والتبريك * وكانت امثال هذه العلاقات الكتابية كثيرة . كالافادات عن افراز بعض اعضاء مضرّين في الكنيسة . او قطع احد الاساقفة او الكهنة وهم جرًا .

اما المذاكرات الشخصية فكانت إما بزيارة اساقفة الكنائس بعضهم بعضاً . كزيارة بوليكربوس اسقف ازمير انيكيطوس اسقف رومية . وإما باجتماع اساقفة كثيرين لانتخاب اسقف . او للنظر في موضوع مهم على مثال الرسل القديسين . وهذه الهيئات المجتمعة تُسمّى مجامع . ومع ان مبدأها من الرسل القديسين انفسهم الذين عقدوا بنفسهم مجامع عديدة . ففي ايام الاضطهادات الشديدة لم يتيسر عقدها نظرًا لتشتّت شمل المؤمنين * غير انها بعد النصف الاول من القرن الثاني المسيحي اخذت تنعقد وتنظر في قضايا كثيرة . وفي سياسة الكنيسة . حتى صارت من القرن الثالث وما بعده تنعقد لحلّ كلّ مسألة تتعلق بعقائد الايمان والامور الكنائسية * وكانت تؤلف من اسقف المدينة واساقفة القرى التابعة لها . وعلى الغالب من اساقفة المدن المجاورة بعضها بعضاً * فهذه العلاقات الكتابية والاجتماعية كانت واحداً من جملة اسباب الامتياز الاداري بين الاساقفة . حتى لانقول انها كانت السبب الاصلي لها .

لانه عند اجتماع الاساقفة كان لا بدّ من ان يتقدم واحدٌ فيهم جميعهم وان يتقدموا هم ايضاً بعضهم على بعض في الجلسة . ولما كانت المدن التي يرأسونها ويسوسون كنائسها غير متساوية من حيث الاهمية المدنية . كانت الطبيعة عادةً تقتضي ان يتقدم في مجامع الاساقفة اسقف المدينة المتقدمة . فان كان المجمع مؤلفاً من اسقف المدينة واساقفة قراها كان يتقدم

فيه اسقف المدينة . وان كان منعقداً من اساقفة مدن كثيرة كان يتقدم فيه اسقف المدينة الاكثر شهرة . ولكن لم تمضِ مدةٌ الاّ وانتظمت المجامع على نظام مربوط بقوانين وحدود . وهكذا من مبادئ القرن الثالث تألفت مجامع الابرشيات . اي ان اساقفة كل ابرشية كانوا يجتمعون ويتذاكرون في ما يتعلق بالابرشية * والابرشية كلمة يونانية معناها في الاصل المكان المروّس من الإبارخوس . وفي اصطلاحنا المدني معناها المتصرفية او القضا او المديرية (المقاطعة) . وهي مشتقّة من كلمة إبارخوس معناها الرئيس او المتسلط . وبحسب الاصطلاح المدني المتصرف او القائمقام او المدير * والابرشية في الوضع غير الباريكية . وفي المعنى ليست بعيدة عنها . واما القول بانها من باروخي التي تفسّر بالمعاش فغير مصيب (١) * ومنها سُميت اقسام السلطة الروحية ابرشيات وعمّ الاسم على كل رعية كنائسية بالنسبة الى راعيها سواء كان رئيسها اسقفاً او رئيس اساقفة او ميتروبوليتا (مطرانًا) او بطريركاً احيانًا * فعند اجتماع مجامع الابرشية كان التقدم فيها او حق الرئاسة عليها لاسقف عاصمة الابرشية التي تُسمّى «ميتربوليس» * والميتروبوليس كلمة يونانية معناها « المدينة الام » . وقد خُصّت في اصل وضعها بالمدن الاصلية التي رحل منها قومٌ واقاموا مدينة جديدة غيرها . فكانت المدينة القديمة اماً والجديدة ابنة لها اي مولودة او موجودة منها . وعلى هذا المعنى سُميت ايضاً بعض الكنائس بالأُم ومدنها « ميتروبوليس » بالنسبة الى مدن أُخرى اخذت عنها الايمان كما ذكرنا إشارة الى انها ولدتها في الايمان . ثم اتّسع معنى كلمة « ميتروبوليس » الى اكثر من ذلك . فصارت كل مدينة متقدمة على مدن غيرها في مقاطعة او ولاية او ابرشية تُسمّى « ميتروبوليس » بمعنى

(١) راجع دائرة المعارف للبستاني في كلمة ابرشية

العاصمة إمَّا نظرًا لكثرة سكانها او نظرًا لاهميتها · وهكذا لفظة «ميتروبوليت» المعروف عندنا «بالمطران» معناهـــا اسقف المدينة الام او اسقف المدينة المتقدمة[1] · ومن هذا البحث في الاسم يُفهَم جوهر وظيفة الميتروبوليت والامتياز الذي بينهُ وبين سائر اساقفة الابرشية · فانهُ مع ماخُصَّ بهِ من التقدم عليهم لم يزل اسقفًا مثلهم في رتبتهِ الكهنوتية ممتازًا عنهم ظاهرًا اي إداريًا فقط نظرًا لامتياز مركزهِ في الاحوال المدنية · ولهذا السبب كان في اجتماعهِ مع اخوتهِ يُعتبَر متقدمًا بين متساوين او كما يقول اللاتين PRIMUS INTER PARES · وقبل الاجتماع كان هو يطلب على الغالب انعقاد المجمع · وذلك امرٌ طبيعيٌّ ايضًا لا يختلف فيهِ اثنان · فانَّ كل هيئةٍ قامت على غير قاعدة الفوضى لا بدَّ من متقدمٍ فيها · وكلُّ مجمعٍ دعت الضرورة الى عقدهِ لا بدَّ من تعيين وقتٍ ومكانٍ لاجتماعهِ بواسطة شخصٍ يعلن ذلك لاعضائهِ · وهذان الامران كان اجدرهما اسقف المدينة المتقدمة · فضلاً عن ان مركزهُ نظرًا لاهمية المدينة كان ينفع مراكز الاساقفة رؤساء المدن الخاضعة مدنيًا لحكومة مدينتهِ · فكانت ترجع اليهِ مسائل عديدة · وتعرض عليـهِ قضايا كثيرة تحتاج الى مداخلتهِ او مساعدتهِ * وكلٌّ يفهم ان اعتبار مركز الاسقف الاول في الابرشية والولاية كان بقدر كثرة اهمية عاصمتها · ونظرًا لهذهِ الاعتبارات الخارجية لُقِّب اساقفة العواصم بالقاب تشير الى اهميتهم · فكان الاسقف منهم يسمَّى «الاسقف الاول» او «اسقف الكرسي الاول» ومركزهُ يسمَّى «الكاثدرا الأُولَى الاسقفية»[2] ومعنى «الكاثدرا» السدة او الكرسي ·

(١) مجمع سَرديكي قانون ٦ * قال غبرئيل الفيلادلفي «انهُ يسمى ميتروبوليتًا لان لهُ منزلة الام في مدينتهِ اي شعبهِ» (في الكهنوت) (٢) مجمع قرطاجنة قانون ٤٣ و٤٦

على ان داعيًا آخر ايضًا اقتضى توجيه الحاظ المؤمنين الى بعض المراكز الاسقفية اكثر من غيرها · ومن ثمَّ جعل لاساقفتها امتيازاتٍ على غيرهم خاصةً · وكان ذلك قيام بعض الكراسي الاسقفية عن تاسيسٍ رسوليٍّ · واتصال سلسلة الخلافة من الرسول المؤسس الكرسي الى الاسقف المتولي ادارة كنيستهِ · وكانت هذهِ الكراسي تُسمى «الكراسي الرسولية» · والمشهور عندنا منها كراسي اورشليم وانطاكية وكورنثس وافسس ورومية واسكندرية · غير ان كرسي اورشليم فقد منذ القديم اهميتهُ الادارية بسبب الظروف التي خربت مركزهُ · وبعكس ذلك كرسي انطاكية ام المسيحيين الذين من الامم ومركز الشرق كلهِ · فانهُ حصل على اتساعٍ عظيمٍ · وامتدت حقوقهُ على كل الكنيسة الشرقية · فيما ان حقوق سائر الكراسي الرسولية لم تجاوز ابرشيتها * وهذهِ الحقوق قد اعترف بها المجمع الاول المسكوني وصدَّق عليها في القانون السادس من قوانينهِ * واما كنيسة اسكندرية فقد اسَّسها بحسب تسليم التاريخ الكنائسي القديس الرسول مرقص الانجيلي · وبشَّر فيها · ورعاها · وانتقل فيها في السنة الثامنة من تملُّك نيرون[1] · ولذلك ونظرًا لاهمية مركزها في ذلك العصر · اذ كانت محور الاشغال تتقاطر اليها الناس من كل جهةٍ · كان لاسقفها حقُّ اقامة الاساقفة في كل جهات القطر المصري · وكانت لكلمتهِ اهميةٌ عظيمة لدى سائر الكنائس * وهذا الحق عينهُ حصل عليهِ ايضًا اسقف روميه في البلاد الغربية لانها كانت عاصمة المملكة وقتئذٍ والمركز الوحيد الرسولي في الغرب ·

فمما تقدم نرى ان علاقات الرئاسة والخضوع في الكنيسة كانت قائمة في القرون الاولى بامتيازاتٍ مدنيةٍ بين المدن المتقدمة وما دونها او بامتيازات

(١) تاريخ افسابيوس ٢ : ١٦ و٢٤

مدنية مقرونة باعتبار واكرام للكنائس المؤسسة من الرسل . ولكن الاساس المدني كان المرجح والمعوّل عليه . لان المدن التي كانت تسقط مدنياً كانت تخسر رئاستها كنائسياً مع قطع النظر عن اصل تاسيسها . ككنيسة اورشليم المؤسسة من المسيح ورسله . مرجع المسائل المسيحية كلها من كل جهة في البدء[1] فانها لما سقطت اهميتها المدنية فقدت اهميتها الكنائسية . ومثلها ايضاً كنائس افسس وكورنثس . والعكس بالعكس . اعني ان الكنائس التي تقدمت مدنياً تقدمت ايضاً كنائسياً . ككنيسة القسطنطينية وغيرها . الى ان تقرّرت المراكز الممتازة من المجامع المسكونية واستمرت كما هي .

ولما نقل قسطنطين الكبير تخت الملك من رومية الى القسطنطينية . وغيّر تقسيم المملكة . ورتّب ايالاتها . ونظم ابرشياتها على نظام جديد تغيّرت اهمية المراكز الاسقفية . وتوفقت على قدر الامكان لاقسام المملكة مدنياً * فقسم قسطنطين المملكة كلها الى اربعة اقاليم او اقطار . وهي الشرقي والايلري والايطالي والغلاطي * وقسم كل اقليم او قطر الى ولايات . وكل ولاية الى ابرشيات * فالاقليم الشرقي كان مولفاً من خمس ولايات : الأولى ولاية الشرق ابرشياتها خمس عشرة . وقصبتها انطاكية * والثانية ولاية مصر . ابرشياتها تسع . وقصبتها اسكندرية * والثالثة ولاية اسيا . ابرشياتها اثنتا عشرة . وقصبتها أفسس * والرابعة ولاية البنطس . ابرشياتها ثلاث عشرة . وقصبتها قيصرية الكبادوكية * والخامسة ولاية ثراكي . ابرشياتها ست . وقصبتها هرقلية التي أُلغيت بعد ذلك . واخذت القسطنطينية مركزها * والاقليم الايلري كان مولفاً من ولايتي مكدونية وداكية * والاقليم الايطالي كان مولفاً من اربع ولايات : الأولى ولاية

(١) راجع كتاب اعمال الرسل

رومية . ابرشياتها عشر . وقصبتها رومية * والثانية ولاية ايطاليا . ابرشياتها سبع . وقصبتها ميلان * والرابعة ولاية افريقيه . ابرشياتها ست وقصبتها قرطاجنة * واخيراً الاقليم الغلاطي كان مؤلفاً من ولايات فرانسا واسبانيا وبريطانيا[1] * وكان حكام الاقليم من حيث الوظيفة أُمراء . وحكام الولايات ولاة . وحكام الابرشيات مدبرين . ولهم اسماء خاصة في اليونانية واللاتينية لا محل الآن للتدقيق فيها * فعلى هذه المراكز المدنية توفقت مع الوقت المراكز الروحية الكنائسية على قدر الامكان . وهكذا انقسمت امتيازات الاساقفة في السلطة السياسية الكنائسية الى قسمين . قسم الميتروبوليتين . وقسم الإكسرخوسة * فاساقفة عاصمات الابرشيات . الذين كانوا في القديم يُسمّون «اساقفة الكراسي الأُولى» كما رأينا . سُمّوا باسم خاص ميتروبوليتين (او مطارنة) . وكانت حقوقهم ان يشرطنوا ويثبتوا اساقفة الابرشية . ويجمعوا المجامع الابرشية . ويرأسوها . ويتولوا حركات الاساقفة . حتى اذا اراد احدهم ان ينتقل من مركزه الى مركز اسقف غيره او الى بلاط الملك . كان عليه ان يستأذن من مطرانه[2] . وفي ما عدا ذلك كان كل اسقف مستقلاً في ادارته واعماله حتى انه اذا ارتكب ذنباً او أُتهم بتقصير اقتضى محاكمته لم يكن حق محاكمته للميتروبوليت وحده ولا لاسقف غريب بل لمجمع اساقفة الابرشية * واما اساقفة عاصمات الولايات والاقاليم . اعني الاولين في المطارنة . فكانوا يسمّون إكسرخوسة الولايات او اساقفة اولين[3] . غير انها كانت لبعضهم اسماء خاصة ايضاً منذ القديم . فكان اسقف انطاكية يسمّى بطريركاً . واسقف اسكندرية «بابا» واسقف رومية «اسقفاً»

(١) تاريخ ثاودوريطس ٥ : ٢٨ و٦ : ٩ وغيره (٢) قانون ١١ لمجمع انطاكية
(٣) قانون ٩ و١٧ للمجمع الرابع و٦ للثاني

او اسقف المدينة (اي رومية) او حبرًا (وهو اسم ماخوذ عن استعمال قديم لكهنة الوثنيين في رومية) واحيانًا كان يُسمّى «بابا» * اما كلمة «بابا» فمن الواضح انها ليست كلمة لاتينية ولا غربية. بل هي شرقية محضة. واول من سُمّي بها اسقف اسكندرية من ابناء ابرشيته في القطر المصري وفي اسكندرية عينها * قال المحققون انها كلمة عربية الاصل. مترجمة عن كلمة بطريرك الاعجمية التي كان بدءًا يُسمّى بها اسقف انطاكيه وحدهُ. فلا دخلَ لها في الرتبة الاسقفية. ولا تزيد مَن دُعي بها اهميةً. ولا تدلُّ على امتيازات لهُ على غيره. وانما اعتاد ابناء الديار المصرية ان يسمّوا بها رئيسهم الروحي. كما لم يزالوا الى يومنا هذا. اذ يدعون بطاركتهم ورؤساء كهنتهم بكلمة الاب كما يدعون كهنتهم. فيقولون ابونا البطريرك الانبا الفلاني. وابونا المطران الانبا الفلاني * قال افتيشيوس بطريرك اسكندرية (وهو سعيد ابن بطريق من رجال القرن العاشر) ان كلمة «بابا» مركّبة من «أب آبا» ثم أُدرجت الى «ابابا» وتخففت بلفظ «بابا»[1]. ولكنّ آخرين ذهبوا الى انها كلمة يونانية الاصل ماخوذة من «بابّاس» معناها الاب فقط * قال صاحب دائرة المعارف «هي لفظة يونانية معناها الاب. كان يستعملهُ النصارى الشرقيون لقبًا للقسوس. وكان الغربيون في الاصل يلقبون بهِ الاساقفة. اما الآن فهو مخصوصٌ بالحبر الاعظم في رومية». قلت. انها افادةٌ ناقصة. لان الاسم ليس مخصوصًا الآن باسقف رومية. بل هو مستعملٌ لبطريرك اسكندرية ايضًا. اذ لم يزل الى اليوم يُسمى بابا. ويتضح اصطلاح الغربيين على تسمية اساقفتهم آباء من اعمال مجمع قرطاجنة. حيث يُسمى روساء الكهنة آباء. وقد ذكر ثاوذورُس بلصامون بطريرك انطاكية «ان اللاتين

(١) في تاريخهِ طبعة سنة ١٦٦١

يسمون الاب بابا»[1]. ولكن ما من مؤلّف كنائسيّ او لغويّ ذهب ان الكلمة لاتينية. بل نرى ان الذين قالوا بانها اسمٌ لاساقفة الغرب. قالوا ايضًا بانها اسم للكهنة الشرقيين. فلو كانت تخوّل المسمَّين بها امتيازات لكانت لكهنة الشرق الامتيازات عينها التي لباباوات الغرب. فانرأي المصيب المعوَّل عليهِ هو ان الاسم خُصَّ اولاً ببطريرك اسكندرية. ثم انتقل من كرسي اسكندرية الى كراسي افريقية ومنها الى كرسي رومية وكراسي الغرب اجمالاً على ألسنة الافريقيين* وقد ذكر البطريرك سعيد ابن بطريق المشار اليهِ هذا المعنى بقولهِ «ثم انتقل (الاسم بابا) من كرسي اسكندري على كرسي رومي»[2] *ولكن اخرين خالفوا هذا الراي وزعموا ان تسمية اسقف اسكندرية «بابا» منحوتة من البابا كِستينوس للقديس كيرلُس في المجمع الثالث المسكوني اكرامًا لهُ. ومن ذلك العصر اخذ بطاركة اسكندرية يلقّبون بالباباوات. غير ان هذه الدعوى ليست حقيقية. لان اصل الكلمة الشرقي من جهةٍ سواء كان يونانيًا او عربيًا. وعادة المصريين المحفوظة الى اليوم. وشهادة البطريرك افتيشيوس السالف ذكرهُ. تؤكّد ان بطاركة اسكندرية كانوا يُسمّون باباواتٍ لا قبل المجمع الثالث والثاني فقط بل قبل الاول ايضًا[3] * وقد عمَّ بعد ذلك (اسم بابا) اساقفة البلاد الغربية الى عهد البابا غريغوريوس السابع سنة (١٠٥٧). ومن ذلك الوقت بطل استعمالهُ لغير الاسقف الروماني[4] *واما كلمة «أنبا» فربما أُخذت من الاصل العبراني «أبّا» وفي اللغط العربي «أنبا» ومعناها الاب المخصوص المقصود وتُطلَق ايضًا على الاب ذي الفضيلة والنسك او ذي الرئاسة النسكية ومن ثمَّ على روساء

(١) رسالة في امتيازات البطاركة (٢) في الكتاب المذكور (٣) كتابهُ المذكور صفحة ٣٨ (٤) تاريخ فيلار يطوس بافيدي اليوناني في سياسة الكنيسة

الكهنة . ولا يُعرَف لاستعمالها زمنٌ . ولكنها وردت للبطاركة في جميع كتب الخدم الكنائسية عندهم * وربما لقط السريان في لسانهم « انبا » بدلاً من « آبا » لانهم يستعملونها هم ايضاً وغيرهم من الكلدان ومَن جاراهم الى يومنا هذا * على ان بابا اسكندرية قد سُمِّي منذ القديم بطريركاً * وكان اسم البطريرك خاصاً في اول الامر باسقف انطاكية وحدهِ كما ذكر ذلك بطرس بطريرك انطاكية في رسالتهِ الى رئيس اساقفة اكليباحيث يقول «غير ان هؤلاء (اي البطاركة الخمسة) لم يُسمَّ كلُّ واحدٍ منهم بطريركاً وجوباً بل جوازاً * فان رئيس الكهنة الروماني يسمَّى « بابا » والقسطنطيني «رئيس اساقفة» والاسكندري « بابا » والاورشليمي « رئيس اساقفة » ورئيس كهنة انطاكية وحدهُ فقط سمِّي « بطريركاً » [1] * قلتُ . وان كان روساء الاساقفة الآخرون القسطنطيني والاسكندري والاورشليمي سُمُّوا بطاركةً من المجامع [2] لارتباط الاسم بامتيازاتٍ منحت لهم . فان البابا الاسكندري يظهر انهُ سُمي بطريركاً من اليونانيين في رعيتهِ قبل ان يسمى الآخرون . وانما قلنا من اليونانيين لان كلمة « بطريرك » (وصحة لفظها بتريارشيس) هي كلمةٌ يونانية الاصل والبناء . مركبةٌ من « باتريا » اي العشيرة و « آرشيس » اي الرئيس . ومعناها رئيس العشيرة . كما شرحها ايضاً بلصامون في رسالتهِ في امتيازات البطاركة * واول مَن سُمِّي بهذا الاسم رؤساء عشائر اليهود . فانهم بعد خراب اورشليم وتشتُّت شملهم في المدن المتفرقة . وخصوصاً في اسكندرية . اصطلحوا ان يقيموا عليهم متقدمين ورؤساء كانوا يسمونهم « بطاركة » (اي رؤساء قبائل او عشائر) وجعلوا لهم مساعدين

(١) آلاتيوس ١ : ١٢ : ١ (٢) قانون ٧ للمجمع الاول المسكوني وقانون ٦ للمجمع الثاني وغيرها

بصفة اعضاء هيئةٍ تحت رئاستهم كانوا يرسمونهم رسلاً * وقد قال القديس ابيفانوس في ذلك « وهولاء (اي الروساء اعضاء الجمعية اليهودية) هم في الرتبة تحت رتبة البطريرك (الذي هو الرئيس الاول) يسمَّون رسلاً . ويجالسون البطريرك واحياناً كثيرةً يقيمون معهُ ليلاً ونهاراً باتصال ليشوروا عليهِ . ويبدوا لهُ ما يوافق الشريعة » [1] فمن هذا المبدإ سُمِّيَ اسقف انطاكية بالاسم اليوناني بطريركاً اي رئيس الامة او الطائفة كما ذكر البطريرك المشار اليهِ . لان انطاكية كانت وقتئذٍ مدينةً يونانيةً محضةً . وكان فيها يهودٌ كثيرون رحلوا اليها قبل الشتات وبعدهُ . فكان اسقفها رئيساً على المؤمنين من الامم واليهود . الذين ألَّفوا امةً او طائفةً تحت رئاستهِ * ثم ان للكلمة على رأي بعض معنىً ثانياً وهو « رئيس الآباء » او « اب الآباء » . ولكنهُ ليس المعنى الحقيقي لها . لانها لو كانت على هذا المعنى لكان يجب ان تُلفَظ « باترارشيس » لا « باتريارشيس » . ويظهر ان الذين ذهبوا ان لفظة « بابا » (اب آباء) تُرجمت عنها اعتبروها على هذا المعنى . غير ان قواعد الاشتقاق توءيد المعنى الاول * ثم عمَّ اسم البطريرك اسقفَي انطاكية واسكندرية من المسيحيين اليونانيي اللغة في ابرشيتهِ كما ذكرنا ثم انتقل الى غيرهما . قال المورخ سقراط » وقد قسموا (آباء المجمع الثاني) الابرشيات واقاموا بطاركةً » [2] * وروى بعض المورخين ان القديس اثناسيوس الكبير اول من سمَّي باباوات اسكندرية بطاركةً حيث كتب عن اسكندر بابا اسكندرية [3] وسماهُ بطريركاً * وقد خالف ما تقدم من الآراء ما ورد في احدى حواشي كتاب « البيذاليون » على تفسير القانون السادس من قوانين المجمع الاول المسكوني . فان كاتبها السعيد الذكر ذهب الى ان اسم « البطريرك » لم يُسمَّ بهِ احدٌ من

(١) هرطقة ٣٠ : ٤ (٢) ٨ : ٥ (٣) مقدمة تاريخ ملاتيوس فصل ١٦

اساقفة الكراسي الاولى الى ايام الملك ثاوذوسيوس الصغير . وبناءً عليه يعتبر عبارة البطريرك الانطاكي بطرس في بطاركة انطاكية غير صحيحة . وقد استند في هذا التقرير على المورخ سقراط الذي قال « ان ثاوذوسيوس الصغير اولاً سمّي اسقف رومية ويوحنا الذهبي الفم بطاركةً »[1] . واستند ايضاً على تسمية الملك يوستينيانوس كل البطاركة به في المجمع الرابع المسكوني * غير اننا نرى ان ما قالهُ سقراط لا ينقض ما قالهُ البطريرك بطرس . لان كلام سقراط انما هو بالنسبة الى بطريركي رومية والقسطنطينية اللذين سُمّيا بطاركة من الملك ثاوذوسيوس . ولا علاقة لهُ مع البطريرك الانطاكي ولا الاسكندري . والبرهان على ذلك ان بطريرك اسكندرية كان في ايام القديس اثناسيوس يُدعى بطريركاً سواءً كان القديس اثناسيوس اول من دعاهُ كما ذهب بعض المورخين او كان غيرهُ قبلهُ كما اشرنا . ومن المعلومات التاريخية ان اثناسيوس الكبير كان قبل الملك ثاوذوسيوس الصغير باكثر من مائة سنة . فكيف يصحّ قول القائلين ان كلام سقراط في بطريركي رومية والقسطنطينية يشمل سائر البطاركة ايضاً الاسكندري والانطاكي ؟ واما تسمية الملك يوستينيانوس كل البطاركة بطاركةً فانما هي دليلٌ على ان الاسم لم يكن قبل يوستينيانوس اسماً رسمياً لجميعهم . ولكنها ليست دليلاً على انهُ لم يكن اسماً لبعضهم في مراكزهم . لان تسمية ثاوذوسيوس اسقف رومية والقديس الذهبي الفم بطاركةً برهانٌ واضحٌ على ان الاسم كان معروفاً ومستعملاً قبل يوستينيانوس الكبير . ثم صار على عهدهِ اسماً رسمياً للمراكز الاولى . فكلام البطريرك الانطاكي بطرس في بطاركة انطاكية ليست فيهِ رائحة للغرض كما راى صاحب البيذاليون بل هو الحق المحض . ويؤيّد هذا الحق

(١) ٧ : ٢١

المورخ سقراط عينهُ حيث قال « ان المجمع الثاني المسكوني لقّب بعض الاساقفة الممتازين شخصياً بالبطاركة مثل غريغوريوس النيسي التابع لاسقف قيصرية » وهذا دليلٌ على ان الاسم كان لهُ منزلة ممتازة في المجمع الثاني الذي كان قبل ثاوذوسيوس ايضا بنصف قرن واكثر .

اما الإكسَرخوسة فكانوا نوعين . إكسَرخوسة الاقاليم . وإكسَرخوسة الولايات . وكانت حقوقهم ان يثبتوا الميتروبوليتين ويشرطنوهم . ويجمعوا مجامع الولايات ويرأسوها . ويسمعوا القضايا التي تُقدَّم ضد المطارنة من دون ان يتعدوا على حقوق المجمع في الحكم عليهم * والإكسَرخوس لفظٌ يونانيٌ معناهُ في الاصل « البادئ في العمل او القائد » وعند البزنطيين « رسولٌ او مامورٌ او حاكمٌ فوق العادة » وفي اللغة الكنائسية معناهُ « الرئيس الروحي الممتاز » او « المامور الروحي الممتاز » . وقد لُقّب بهِ روساء العاصمات الولايات نظراً لامتيازهم اداريّاً على المطارنة ورؤساء الابرشيات . قال صاحب الدائرة « وكان الاكسَرخوس دون البطريرك في الرتبة . الاّ انهُ كان اعظم من ميتروبوليت » فكان يقابل رتبة الوالي المدنية . والبطريرك يقابل رتبة الامير * على ان البطاركة انفسهم كانوا يُسمّون اكسَرخوسة وبعض المطارنة الممتازين سُمّوا بهِ ايضاً . وعلى الخصوص لما تقرر لقب البطريرك للكراسي الخمسة المتقدمة * قال بلصامون في شرح القانون التاسع من قوانين المجمع الرابع المسكوني « ان اكسَرخوس الولايات على ما ارى ليس ميتروبوليت الابرشية . بل ميتروبوليت كل الولاية . والولاية هي التي تشتمل ابرشيات كثيرة . على ان امتياز الاكسَرخوسة هذا لا يعمل بهِ في ايامنا . فان بعض الميتروبوليتين يُسمّون اكسَرخوسة ولا سلطة لهم البتة على سائر ميتروبوليتي الولاية . فيظهر ان اكسَرخوسة الولايات كانوا في

تلك الازمنة نوعاً آخر · او انهم هم انفسهم والامتيازات الممنوحة لهم من القوانين توقّفت » قلت. هكذا نرى في ايامنا ايضاً ان كلمة اكسَرخوس لم تزل لقباً لكثيرين من المطارنة من دون حقوقٍ وامتيازاتٍ لهم على كل دائرة اكسَرشيتهم * فمطران حلب مثلاً يُسمّى « اكسَرخوس سوريا الأُولى » * ومطران حماه « اكسَرخوس سوريا الثانيـة » * ومطران اللاذقية « اكسَرخوس ثاودورية » * ومطران ديار بكر « اكسَرخوس كل ما بين النهرين وارمينيا الرابعة » * وكلٌّ من مطارنة بيروت وطرابلوس وصور وصيدا « اكسَرخوس فينقيه الساحلية » * وكلٌّ من مطارنة حمص وبعلبك « اكسرخوس فينقية اللبنانية » * ومطران آدنه « اكسَرخوس كيليكيا الأُولى والثانية » وهلمَّ جرًّا * والاكسَرخوس في ايامنا « مامور او مفتقدٌ روحيٌّ يعيّنهُ رئيس الكهنة او البطريرك في كرسيهِ للنظر في قضايا الاكليروس والشعب مع قطع النظر عن درجتهِ الكهنوتية · فيجوز ان يكون اسقفاً او ارشيمندريتاً او قسّاً * والاكسَرخوس ايضاً نائبٌ في احدى الجهات عن بطريركٍ او اسقفٍ او ديرٍ يرأس ديراً او اديرةً كاكسَرخوسة كرسي اورشليم وطورسينا وغيرهم ·

واما لقب رئيس اساقفة فبعد انهُ كان يشمل الدرجات العليا بين الاساقفة (كما لم يزل يلقب بهِ البطاركة) خُصَّ اخيراً بالاساقفة الممتازين في ابرشية الميتروبوليت · اما لانهم كانوا يتقدمون على اساقفةٍ آخرين تحت ادارتهم · او لان مركزهم كان مهمًّا مع قطع النظر عن وجود او عدم وجود اساقفة عندهم · وهذا يوافق ما ذكرهُ نيلوس ذوكساباتريوس في كلامهِ عن البطاركة · فانهُ قسم اولاً البطريركيات الى اكسَرشيات ثم الى مطرانيات ثم الى رئاسات اسقفية ثم الى اسقفيات ثم قال « وفي سائر المدن الصغيرة كانوا يقيمون اساقفةً · ولكن

اذا وجدت مدن كبيرة في الابرشية الواحدة لا تمتاز عنها عاصمتها الاَّ قليلاً · فكانوا يجعلون تلك المدن مراكز رئاسة اسقفيةٍ · من دون ان يكون لها اساقفةٌ تحت سلطانها · لانهُ تقرر ان اقامة مطرانيتين في ابرشيةٍ واحدةٍ امرٌ غير موافقٍ. ما لم تنفصل بعد ذلك اسقفيةٌ عن مطرانها لداعي اعتبارٍ ملوكيٍّ · وتُشرَّف من الملك بان تكون مطرانيةً او رئاسة اسقفيةٍ نظراً لفضيلة اسقفها يومئذٍ · فانها تُسمَّى هي ايضاً مطرانيةً وان لم تكن لها مدنٌ او اسقفياتٌ تحت ادارتها لتكون مطرانيةً عليها » · وقال بلصامون « لقد حُدِّد من الآباء · في امر المدن التي ترأس مدناً أُخرى كثيرةً مُساسةً من اساقفةٍ · ان يرأسها مطرانٌ تسميهم القوانين أوَّلين · واما التي لا ترأس مدناً مُساسةً من اساقفةٍ · فأن تُخدَم من رؤساء اساقفةٍ · وهؤلاء يكونون تحت المطارنة · وأعلى من الاساقفة » فالى هنا قد فهمنا ما هو الاسقف · ورئيس الاساقفة · والميتروبوليت · والاكسَرخوس · والبطريرك ·

وبقي علينا ان نعرف كيف قامت المراكز الخمسة البطريركية في الكنيسة * فاننا ذكرنا في ما سبق ان بعض المراكز الاسقفية نظراً لاقتران اهميتها المدنية بتسلسل اساقفتها عن خلافةٍ رسوليةٍ حصلت في العالم المسيحي على امتيازٍ خاصٍّ يزيد اعتبارها عن غيرها · والمشهور عندنا من تلك المراكز اسكندرية · وانطاكية · وافسس · والبنطس · وكورنثوس · وهرقليه (في الشرق) ورومية (في الغرب) · ولكن رومية (عاصمة العالم وقتئذٍ) وانطاكيه (قصبة الشرق) واسكندرية (قصبة الديار المصرية) امتازت على سائر المراكز الأُخرى الممتازة كما سبق القول · وهذا الامتياز ذكرهُ المجمع الاول المسكوني في القرن السادس * ولما صارت مدينة القسطنطينية عاصمةً للمملكة من ايام قسطنطين الكبير · بعد

انها كانت خاضعةً لاكسرخوس هرقليه عاصمة ولاية ثراكي · اقتضى مركزها المدني مركزًا كنائسياً مناسباً لهُ · وعليهِ رفع المجمع الثاني المسكوني منزلة اسقفها وقرّر لهُ حقوقاً وامتيازاتٍ مساويةً لحقوق المراكز الأُولى الثلاثة · وعلى الخصوص ساواهُ باسقف رومية القديمة · لكونهِ اسقف رومية الجديدة · عاصمة المملكة · وقدمهُ على الاسقفَين الآخرَين الاسكندري والانطاكي [1] · فكان يُسمّى رئيس اساقفة القسطنطينية رومية الجديدة ·

ولم تمضِ سنونٌ كثيرةٌ حتى امتدت سلطتهُ على كل ثراكي واسيا الصغرى والبُنطُس * وقد قال المورخ ثاوذوريطوس في القديس يوحنا الذهبي الفم : ان عملهُ من حيث الوظيفة الاسقفية كان ممتدًا الى الجهات المذكورة [2] * وقال في نِسطوريوس ايضاً « انهُ كان اسقفاً على كل المسكونة لا اقل » [3] · ومع ان اكسرخوس هرقليه قام معترضاً على هـذا التغيير · لكنَّ الظروف احوجتهُ الى الامتثال · وحُفظ لهُ الحق بان يسلّم هو عصا الرعاية للبطريرك القسطنطيني حين انتدابهِ · كما لم يزل الامر مستمرًا الى يومنا هذا * وهكذا قرّر المجمع الرابع المسكوني (سنة ٤٥١) بحضور القيصر خضوع تلك الولايات وما يجاورها لادارة رئيس اساقفة القسطنطينية · وثبّت ايضاً حقوق مساواتهِ في الكرامة للكرسي الروماني [4] · وخولهُ الحق في محاكمة ميتروبوليتي الولايات الأُخرى [5] · فصار اكسرخوسة ثراكي واسيا والبُنطُس في درجةٍ متوسطةٍ بين رئيس اساقفة القسطنطينية وسائر الميتروبوليتين · ومع الزمان تساووا بهم · كما ذكرنا · وعلى هذا

(١) القانون الثالث للمجمع الثاني المسكوني (٢) التاريخ الكنائسي ٥ : ٢٨
(٣) هذر الهراطقة ٤ : ١٢ وتاريخ سقراط ٧ : ٢٨ وسجل ثاوذوسيوس ١٦ : ٢ : ٤٥
(٤) قانون ٩ (٥) قانون ٢٨

الوجه انتظم كرسي القسطنطينية البطريركي ·

على ان كرسي اورشليم الذي قلّت اهميتهُ بعد خراب المدينة وخضع نوعاً ما لاسقف قيصرية فلسطين · اخذ من القرن الرابع ان يترقّى · وكان المساعد لهُ في الترقي الاعتبار والوقار الذي كان للاماكن المقدسة في اعين الجميع · وخصوصاً بعد ما اقام القديس قسطنطين الكبير في تلك الاماكن كنائس جميلة · وزارتها القديسة هيلانة امهُ (سنة ٣٢٦) واخذ المؤمنون يتراكضون الى زيارتها * فكانت الضرورة تدعو ان تُعاد منزلة اسقف اورشليم الى كرامتها القديمة مدنياً · وهذهِ الضرورة نظرفيها المجمع الاول المسكوني وقرّر لهُ في البند السابع من قوانينهِ امتيازًا اكرامياً · فجعلهُ في رتبة ميتروبوليت * وكذلك المجمع الثاني المسكوني سمّي كنيسة اورشليم في احدى رسائلهِ امّ جميع الكنائس * وفي المجمع الثالث المسكوني طلب ايوبينا ليوس الاورشليمي ان تكون لهُ السلطة على فلسطين وفينيقية وبلاد العرب · فرفض القديس كيرلّس الاسكندري رئيس المجمع طلبهُ · غير ان القيصر ثاوذوسيوس الثاني المعروف بالصغير اصدر امرًا ملوكياً فيهِ يمنحهُ لقب البطريرك · واعطاهُ حق السلطة على فلسطين وفينيقية وبلاد العرب · فساء ذلك في اعين مكسيموس بطريرك انطاكية واقام عليهِ الحجة · فحكم المجمع الرابع المسكوني بين البطريركين بارجاع فينيقية وبلاد العرب لبطريرك انطاكية · وعرف اسقف اورشليم بطريركاً · وقرّر لهُ السلطة على ابرشيات فلسطين فقط * هكذا قامت البطريركيات الخمس · اعني الثلاثة القديمة الرومانية والاسكندرية والانطاكية · والاثنتَين الحديثتَين القسطنطينية والاورشليمية في القرن الخامس (سنة ٤٥١) · ومن ذلك العصر اخذوا يسمون رؤساء كهنة الكراسي الشرقية الاربعة القسطنطيني والاسكندري

والانطاكي والاورشليمي باسم البطريرك الذي كان قبلاً خاصا بالانطاكي ثم عمَّ استعمالهُ للاسكندري ولغيرهما من الاساقفة كما ذكرنا · واما اسقف رومية فحافظ على اسم البابا مع البطريرك الاسكندري وكثيرين من اساقفة الغرب الى القرن الحادي عشر كما ذكرنا في ما تقدم * وهكذا استوفى نظام ادارة الكنيسة حقوقهُ بوجود خمسة مراكز بطريركية تضبط زمام الكنيسة · فكان لكل مركزٍ فروعهُ · ولكل بطريركٍ اكسرخوستهُ ومطارنتهُ · ولكل اكسرخوسٍ ومطرانٍ رؤساء اساقفتهِ · ولكل رئيس اساقفةٍ اساقفتهُ · ولكل اسقفٍ كهنتهُ وشمامستهُ. يرعى كلٌ منهم اعني من البطاركة والمطارنة ورؤساء الاساقفة والاساقفة رعيتهُ الروحية الخاضعة لهُ · ويعتني بادارة الكنائس المنوطة بهِ من دون ان يكون لهُ امتيازٌ على رئيسٍ من ذويهِ في درجتهِ · اوحقٌ وحكمٌ على كهنوتهِ * وعلى ذلك لم تكُن سياسة الكنيسة على النوع الملكي المستقل بفردٍ واحدٍ فقط · كما يريد البابويون ولا مضبوطةً بايدي العامة وهيئة الشعب بلا نظام ولا ترتيب كما تريد طائفةٌ اخرى · بل كانت سياستها شبيهةً بالجمهورية الخاصَّة منوطةً برؤساء ومجامع · تنوب هيئتهم عن الكنيسة كلها · ويؤلفون كلهم هيئة المجمع المسكوني · وبدونهم او بدون بعضهم لا يُعتبرَ مجمعٌ مسكونياً · ولا يجري تحديدهُ وجوباً على الكنيسة كلها · وبالعكس فان كل ما كان يُقرَّر باتفاقهم عموماً في مجمعٍ مسكونيٍّ · كان اجراؤهُ واجباً على كل فردٍ من اعضاء الكنيسة.

غير ان هذا النظام لم يُراعَ حقَّ المراعاة من كنيسة رومية * لان اساقفتها لم يكتفوا بحقوقهم المقررة سابقاً · بل طلبوا السلطان والسيادة على كل الكنيسة الجامعة · وعلى سائر اخوتهم رؤساء الكهنة من بطاركة ومطارنة ورؤساء اساقفة واساقفة · وزيادةً على ذلك طلبوا ان يحصروا في انفسهم الكهنوت كلهُ ·

وادعوا انهم الينبوع الكهنوتية الوحيدة التي تفيض منها مواهب الكهنوت لسائر رؤساء الكهنة على اختلاف رتبهم · وانهم رؤوس الكنيسة ذوو السلطان المطلق عليها كلها · وانهم ارفع منزلةً من المجامع المسكونية التي تؤلفها هيئة الكنيسة · حتى ان الكنيسة كلها تغلطوهم لا يغلطون · والكنيسة تسقط وهم يسقطون * وهذهِ الدعوى لم يدَّعِها احبار رومية على هذهِ الصورة من الازمنة الأُولى · بل مع تمادي الزمان اتصلت الى هذا الحدّ * على انها لم تكُن في بدئها سوى اكرامٍ خالٍ من معنى الرئاسة · فقصد رؤساء كهنة رومية ان يحولوهُ رويداً رويداً الى رئاسةٍ وسلطةٍ على ما تقدم · وهذا هو السبب الاول الذي افتتح انشقاق الكنيسة الى شطرين متباعدين ·

واذا دققنا النظر في تاريخ الشرق والغرب · وتاملنا مشرب كل واحدٍ منهما · يمكننا ان نقف على الاسباب التي دفعت رؤساء كهنة رومية ليدعوا تلك الدعوى · ولا يبالوا في انشقاق الكنيسة بسببها * واخص هذهِ الاسباب اثنان اولها الفرق بين الشرق والغرب في المشرب والعوائد والافكار · وثانيها التقلُّبات المدنية التي حدثت في المملكة الرومانية * فاذا فحصنا المشرب الروماني بعد المسيح · وقابلناهُ على المشرب الشرقي · نَرَهُ بعيداً عنهُ لا اقل مما كان مشرب رومية قبل المسيح بعيداً عن مشرب الشرقيين من اليونان والمصريين وغيرهم * ومن المعلوم ان مشرب الشرقيين في القديم كان على الغالب موجهاً الى الفلسفة والعلوم اكثر مما كان موجهاً الى الرئاسة والسلطة · ولا عبرة في ما ندر فان النادر لا يُبنى عليهِ * واما مشرب رومية فكان منصباً الى السلطة والسيادة اكثر مما كان ميالاً الى الفلسفة · وهذا لا نبديهِ رأياً منا بلا استنادٍ بل نؤكدهُ بما نقل عن اقوال شعراء رومية وخطبائها انفسهم * فان الشاعر الروماني ڤرجيليوس

يقول بصريح العبارة في شعره المسمّى (إنيّاس) هكذا «ايها الشعب الروماني دعْ الغير يشتغل في التلاملات الفلسفية · والصنائع الجميلة · وانت اذكر ان تحكم على الشعوب · وتكبح المتكبّرين» · وقال ايضاً شيشرون الخطيب الشهير «ان الرومانيين يعتنون في ان يفعلوا بتبصّرٍ اكثر مما ان يتاملوا بعقولهم · فانهم يعتبرون العمل وحده موضوعاً يليق به مدح الفضيلة كلها»* وهذا الفرق عينهُ في المشرب والافكار والعوائد نراهُ ايضاً بين مسيحيي الشرق ومسيحيي الغرب · فان الكنيسة الشرقية كان معظم اهتمامها البحث في العقائد المسيحية والتعاليم الدينية والتوصّل الى فهمها · واما الرومانيون فكان معظم اجتهادهم في تطبيق العقائد والديانة كلها على عوائدهم وحياتهم المدنية والشخصية · وكان اكتراثهم لسياسة الكنيسة والسلطة عليها اكثر من اكتراثهم للفلسفة الدينية · ولهذا السبب كانت اكثر الاختلافات الكنائسية التي قامت في كنيسة رومية تتعلق بسياسة الكنيسة · فيما ان الاختلافات الدينية الشرقية كانت تتعلق غالباً بالعقائد المسيحية كسرّ التجسُّد والتثليث وغيرهما ·

وقد أُضيف الى هذا المشرب الطبيعي في المناخ الروماني سببٌ ثانٍ وهو التغيّرات والتقلّبات المدنية · وذلك منذ نُقِلَ كرسي الملك الروماني من العاصمة القديمة رومية الى عاصمةٍ جديدةٍ القسطنطينية من الملك قسطنطين الكبير* فان الشعب الروماني وروساء رومية اخذوا يترقبون الفرَص ليحصلوا على سيادةٍ تعوض على مركز مدينتهم السيادة التي اضاعتها · وتجعل لكنيستهم اهميةً مستثناةً في العالم المسيحي * فما رأوا سبيلاً آخر يتوصلون بها الى ذلك سوى الدعوى برئاسةٍ لهم على الكنيسة واسناد تلك الدعوى الى مصادر متنوعة. منها كتابية. ومنها تقليدية* فاما الكتابية فاهمها بعض اقوال مخلصنا لبطرس الرسول مثل قولهِ

«انت بطرس وعلى هذه الصخرة سابني كنيستي» جواباً على اعترافهِ بانهُ ابن الله وقولهِ «وساعطيك مفاتيح ملكوت السماوات» اشارةً الى وظيفتهِ الرسولية الرعائية التي منحها لهُ وللرسل بعد القيامة · وقولهِ ثلاثاً «ارعَ خرافي» تذكيراً لهُ بانكارهِ المثلّث وتقويماً واعادةً الى رتبتهِ الرعائية اسوةً بالرسل · فيدعون بان هذه الاقوال ميزت القديس بطرس على سائر التلاميذ وبان اسقف رومية خليفةُ بطرس · فيمتاز على الاساقفة الآخرين · خلفاء غير بطرس * ولكن فضلاً عما في هذا الاستناد (على فرض صحتهِ) من حق المساواة بين بطريرك انطاكية واسقف رومية نظراً لخلافة كليهما عن بطرس · ولا نقول بالارجحية لبطريرك انطاكية نظراً لحقوق بكوريتهِ وخلافتهِ عن بطرس قبل اخيهِ الروماني · فانهُ استنادٌ كتابيٌّ بالنظر الى البحث في منزلة بطرس الرسول فقط. ولكنهُ بالنظر الى الدعوى برئاسة البابا وخلافة البابا عن بطرس الرسول هو استنادٌ تاريخيٌّ اكثر مما هو كتابيٌّ. وخلافة اسقف رومية لبطرس الرسول ايضاً هي جوازية اكثر مما هي حقيقية. واعظم المورخين المنتقدين والباحثين في الحقائق التاريخية لا يوافقون كنيسة رومية عليها · فبعضهم ينكرها انكاراً قطعياً بدعوى ان بطرس الرسول لم يدخل ولم يُبشر ولم يستشهد في رومية · والآخرون يقولون بانهُ اقام فيها مدةً قصيرةً جداً في اخر حياتهِ بعد تاسيسها من بولس الرسول فلم يرعَها وحده بل مع بولس المؤسس الاصلي لها الى ان قَبِلَ فيها اكليل الشهادة في ايام نيرون · والرايان لا يوافقان دعوى القائلين بتبشير بطرس فيها وتاسيسهِ اياها ورعايتها منهُ خمس وعشرين سنةً · ولنا في هذا الموضوع كلامٌ وافٍ نشرنا جانباً منهُ في مجلة الهدية تحت عنوان «سلسلة بطاركة انطاكية»[1] وسنستوفيهِ انشاء الله حين نصدر كتاب

(١) مجلة الهدية عدد ١١١ وما بعدهُ

السلسلة * واما المصادر التقليدية فهي الدعوى بان رؤساء كهنة رومية قد سادوا على الكنيسة كلها وعلى سائر رؤسائها وعلى المجامع المسكونية والمكانية من القرون المسيحية في كل عصر على مدى التاريخ. ومن ثم الدعوى بان طابعهم في ايام فوتيوس او قبل فوتيوس السلطة على الكنيسة لم يكن طلباً حديثاً * فعلى هذين المصدرين بُنيت الدعوى بالرئاسة مع الزمان وامتدت رويداً رويداً في الغرب اولاً. حيث كان نجاحها ممكناً اكثر من الشرق نظراً لمركز الكرسي الروماني بين سائر الكراسي الغربية. ثم اخذ البابوات يطرحونها في الشرق كما سبق الايضاح * ولكنها صادفت مقاومات في الجهتين وخصوصاً في الشرق. ولم تكن النتيجة منها سوى الانشقاق كما سيتضح تفصيل ذلك في ما ياتي.

وكان غرضنا ان نبحث في الاستنادات الكتابية ونوضح حقيقة معناها اولاً. ثم نبحث في الاستنادات التاريخية. ولكننا لم نراعِ هذه القاعدة لسببين. اولها كون البحث في الاستنادات الكتابية يتعلق بشرح الكتاب المقدس اكثر مما هو من خصائص التاريخ. وله محلٌ عندما نتكلم في منزلة بطرس الرسول بين الرسل * والثاني لان الحقائق التاريخية بالنسبة الى انشقاق الكنيسة هي اقرب من البحث في منزلة بطرس بين الرسل. وهي على ما ارى كافية لتاييد الحق في مسألة النظام الكنائسي والعلاقات الرعائية بين الشرق والغرب كيفما كانت واية كانت منزلة بطرس بين الرسل. فنقول:

القسم الاول

في العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية قبل الانشقاق

يشتمل هذا القسم على العلاقات التي كانت موضوع اجتماعٍ او موضوع كتاباتٍ او موضوع نزاعٍ احياناً بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية. وعلى الحوادث التي يعتبرها المؤرخون الكنائسيون والمحامون عن مبادئ كلٍ من الكنيستين استناداتٍ لتعزيز مبادئ كنيسته ضد الأُخرى. ولكنه لا يتجاوز القرن التاسع * لانه وان كانت حصلت قبل القرن التاسع برودةٌ في العلاقات بين الكنيستين كما سيتضح كلُّ شيءٍ في دوره. لكنَّ القرن التاسع يعتبر وهو في الحقيقة قرن ارتفاع لهيب الانشقاق واضطرام سعيره وبروزه الى الفعل في ايام البطريرك القسطنطيني فوتيوس والبابا الروماني نيقولاوس * فنستقرئ الحوادث بحسب سلسلة تاريخها. ونفصل هذا القسم الى تسعة فصول. لكلِّ قرنٍ فصلٌ.

الفصل الاول

في علاقات الكنيستين في القرن الاول

القديس اكليمس اسقف رومية وكنيسة كورنثس

نتعلم من التاريخ القديم. ان مدينة كورنثس المدعوَّة قبل ذلك (إيبرا) كانت من اعظم مدن بلاد اليونان واشهرها تجارةً وغنىً ورفاهةً[1]. وبعد ان اعادبناءها

(١) هيرودوتس ٢ : ٣٠ و ٥ : ٢٢ . استرابون ٨ : ٦ : ٢٢ . ثوكيديدس ١ : ١٣ وغيرهم

بوليوس قيصر (سنة ٤٤ ق.م) صارت عاصمة كل اخائيا ومركز التمدن اليوناني تجارةً وسياسةً * ففي هذه المدينة نادى بالمسيح القديس بولس الرسول في سياحته الرسولية الثانية. واقام فيها سنةً ونصف ونيف. والَّف من شعبها كنيسةً كثيرة العدد * غير انهُ لم يمضِ وقتٌ طويلٌ الاَّ وظهرت قلاقل في تلك الكنيسة بسبب احزابٍ انتمت فِرَقًا الى افرادٍ. فكان حزبٌ لبولس وحزبٌ لابلُّس (وهو من الذين بشروا ايضًا فيها) وحزبٌ لبطرس وهو حزب اليهود او المتيوهدين. وحزب للمسيح وهلمَّ جرًّا. وزيادةً على ذلك جرت فيها امورٌ كثيرةٌ مخلةٌ بالآداب ومخالفة للعوائد الحميدة ولقاعدة اللياقة * فكتب القديس بولس الرسول لاهل كورنثُس اولاً [1] وثانياً وثالثاً ضدَّ هذا السلوك. واقتلع من بينهم تلك الرذائل. وعلَّمهم كيف يليق بهم ان يسلكوا.

ولكنها لم تمضِ سنونٌ كثيرةٌ الاَّ وشبَّت في تلك الكنيسة نيران النزاع والشقاق الى درجةٍ كادت تودي بها الى الخراب. وكان القديس بولس الرسول قد استشهد وقتئذٍ. ولكنَّ القديس يوحنا الرسول كان في ذلك الوقت حيًّا بعد * فبعضٌ من رجال كنيسة كورنثُس كتبوا رسالةً الى كنيسة رومية خجلاً ووجلاً من تلك الحالة الرديئة وعواقبها الوخيمة. وطلبوا معونةً لتضميد الجراح وملافاة الخراب * وكان يومئذٍ على كرسي رومية الاسقف اكليمس * غير ان احوال رومية ايضًا كانت على ما يظهر من الاجوبة مضعضعةً بسبب اضطهاد عنيف. فلم يستطع ان يجاوب الكورنثيين حالاً. ولكنهُ بعد ان هدأت الزوبعة الرومانية كتب لهم جوابهُ.

وقد وصلت الينا كتابتهُ الجليلة لكنيسة كورنثُس في رسالتين. طبعهما

(١) ١كو ٥ : ٩ — ١١ وهي رسالة مفقودة

العالم الشهير المطران فيلوثاوس برياينوس (سنة ١٨٧٥) بمقدماتٍ بديعةٍ وشروحٍ ضافيةٍ. ومن الرسالة الأُولى نعلم اسباب الانشقاق واجوبة القديس.

فان اسباب الانشقاق في كورنثُس كانت على ما ورد في رسائل القديس اكليمس الغيرة والحسد والكبرياء والانتفاخ وما شاكلها من العيوب. واصلهُ من شخصين او ثلاثة كانوا رؤساء الهيجان [1]. فكانوا يفتخرون بالحكمة وبقوة الكلام وبشدة التزهد. وهم على جانبٍ عظيمٍ من الرياء والمكر [2]. وكانوا يُضلُّون كثيرين من عظماء واغنياء كورنثُس ويجذبونهم اليهم. ويزعجون بهم تلك الكنيسة [3]. والذي دفعهم الى ذلك هو اهانتهم بعض القسوس. وتهكُّمهم بهم وازدراؤهم اياهم. وترفُّعهم عليهم. لانهم كانوا أُناساً بسطاء ابرارًا. يخدمون رعية المسيح سنين كثيرةً بفضيلةٍ وتقوى [4]. فكان رؤساء الاحزاب يتعظمون عليهم ويستهزئون بهم. ويطردونهم من خدمتهم حسدًا وتكبُّرًا. مدَّعين انهم هم ذوو اللياقة والاهلية ليحلُّوا محلهم في الخدمة [5]. وكانوا يحركون كل ساكنٍ ضدهم. مومِلين نوال مقاصدهم بواسطة اشخاصٍ كثيرين انضموا اليهم كانوا يخدمون مجدهم [6] * وهكذا ازعجوا كنيسة المسيح الكورنثية. اذ ترك كل واحدٍ منهم خوف الله والمحبة الاخوية. وصاروا سببًا للتجديف على اسم الرب من الامم [7].

فكتب لهم القديس اكليمس يعتذر اولاً عن إبطائهِ في الكتابة. وبعد الاعتذار يمدح فضائلهم بشباتهم على الايمان. وبحسن تقواهم. وبشاشتهم نحو الغرباء. وخضوعهم للرعاة. وهذيذهم بكلام الله. وخصوصاً بشدة تمسُّكهم في حفظ

(١) رسالة اولى فصل ١٤ و٤٧ و١ و٥٠ و٥٧ (٢) فصل ١٢ و١٥ و١ و٢ و٣٨ و٥٧
(٣) فصل ٣٨ و٤٦ و٤٧ (٤) فصل ٢٩ و٤٠ (٥) فصل ١ و٥٠ و٥٤ و٥٥ و٥٧
(٦) فصل ٣٠ و٤٥ (٧) فصل ٢ و١ و٢١ و٤٧ و٤٩

وصايا الله * ثم يجمع اسباب الشقاق بالغيرة والحسد . ويبين من امثال العهد القديم ومن الجديد ايضاً كم كانت الشرور الناتجة عن هذين الداءين كثيرة . ويعلمهم واجباتهم بعضهم نحو بعض . ويحثهم على التوبة وعلى فضائل كثيرة . ثم يبرهن لهم ان كهنوت الكنيسة بدؤُهُ من الله . ويمدح اثمار المحبة . ويدعولهم .

فبعض المحامين عن دعوى الكنيسة الغربية برئاسة البابا يدعون بان هذا الحادث يؤيّد رايهم . ويثبت دعواهم . بقولهم ان كنيسة كورنثس عندما اضطربت احوالها . طلبت يد المساعدة من كنيسة رومية . وهي كما ذكرنا مدينةٌ من المدن الشهيرة في بلاد اليونان . وانها لو لم تكن تعرف لرومية رئاسة عليها . لما كانت راجعتها بل كانت راجعت القديس يوحنا الرسول الذي كان وقتئذٍ في افسس .

غير ان الشرقيين وكثيرين من الغربيين انفسهم ايضاً يدفعون هذه الدعوى ببراهين قويةٍ وحججٍ دامغة يثبتون بها انها لا تنطبق على القول الصحيح . ويبرهنون ان اسباب كتابة كنيسة كورنثس للقديس اكليمس او لكنيسة رومية (التي كان هو اسقفاً عليها) لم تكن الاعتراف بالرئاسة بل كانت المعرفة الشخصية * فان القديس اكليمس كان مساعداً في عمل البشارة للقديس بولس الرسول موسّس كنيسة كورنثس . وقد ذكر ذلك القديس بولس في رسالتهِ الى اهل فيلبّي حيث يقول « واكليمس وسائر معاوني الخ [1] * فكان بولس الرسول في حياتهِ مرجع احوال الكورنثيين وصاحب العناية بهم كما يظهر من رسائلهِ اليهم اولاً وثانياً واكثر * ثم ان الاشخاص الذين بدأت كنيسة رومية في بيتهم . وهم اكيلا وبريسكيلا . لم يكونوا وطنيين بل رومانيين . وكانا من جملة اليهود المنفيين من رومية بامر القيصر كلاوديوس * واما القديس يوحنا الرسول فكان

(١) ٤ : ٣

في اسيا بعيداً عن كورنثس . ولا علاقة لهُ معها في السابق * فمعرفة اكيلا وبريسكيلا من جهةٍ للقديس اكليمس . ومعرفة الكورنثيين لهُ ولمعلمهِ بولس الرسول . ومعرفة اكليمس شخصياً وعن معلمهِ باحوال كنيسة كورنثس منذ تاسيسها . هي كانت الداعي الوحيد لكتابتها لهُ لا بصفة رئيس عامٍّ عليها وعلى غيرها . بل بصفة عارفٍ لها ومعروفٍ منها * والذي يرفع كل شبهةٍ في عدم صحة الدعوى بالرئاسة الاقوال عينها التي كتبها اكليمس في فاتحة رسالتهِ اذ يقول « من كنيسة الله التي في رومية الى كنيسة الله التي في كورنثس » حيث يتضح جلياً ان الخطاب كان بين متساويتين في دائرة مركزٍ واحدٍ وهو الله من دون ان يرد ذكرٌ لاسم القديس اكليمس فضلاً عن الرئاسة وعن السلطان .

على ان المورخ الشهير الغربي جيبّه وكثيرين غيرهُ يذهبون ان القديس اكليمس لما كتب رسالتهُ الى اهل كورنثس لم يكن اسقفاً على رومية بعد . ويستندون في ذلك على قول القديس في الفصل (٤١) من الرسالة الأُولى هكذا « فانها لا تُقدَّم ذبائح في كل مكان . . . بل في اورشليم فقط . ولا في كل مكانٍ منها بل امام الهيكل على المذبح الخ » ومن كون الهيكل واورشليم خربت في السنة السبعين بعد المسيح . والقديس اكليمس لم يكن وقتئذٍ اسقفاً على رومية . فيذهبون ان الرسالة كُتبت بعد استشهاد الرسل وقبل خراب المذبح والهيكل واورشليم . اي قبل السنة السبعين وقبل اسقفية اكليمس . ويعتبرون ان الاضطهاد الذي أخّر جواب القديس للكورنثيين كان اضطهاد نيرون * ولكن آخرين يذهبون ان الاضطهاد المذكور كان اضطهاد القيصر دوميتيانوس . وان الرسالة كُتبت بعدهُ اي (سنة ٩٦) حين كان اكليمس اسقفاً على رومية

كما ذكر المورخ افسابيوس[1] عن ايجيسيبوس * واذا اعتبرنا هذا الراي فنقول: ان القديس اكليمس عبَّر عن الحوادث الماضية بفعل الحاضر تقويةً المعنى وتشخيصاً لهُ في الذهن ·

ولكن كيفما كانت الحال · لا يُشتمُّ من حادث المراسلة بين كنيسة كورنثس والقديس اكليمس رائحة رئاسةٍ · وخصوصاً في اوقات ما خطرت فيها لرجال كنيسة رومية افكارٌ تشبه افكار المتاخرين عنهم * وهاك الحادث والنظر فيهِ منقولاً عن المورّخ القديم افسابيوس القيصري · قال :

«فبعد ان اسَّس الرسل المغبوطون الكنيسة وبنوها · سلَّموا خدمة الاسقفية الى لينوس · ولينوس هذا ذكرهُ بولس في رسائلهِ الى تيموثاوس * وقد خلفهُ انيكليتوس (او آناكليتوس) وبعدهُ أُقترع للاسقفية اكليمس ثالث الثمانية من الرسل. وهو قد شاهد الرسل القديسين وساعدهم · وعلى عهد اكليمس هذا نفسهِ حدثت ثورةٌ على الاخوة الذين في كورنثس ليست بقليلة · فارسلت كنيسة رومية كتابةً كافيةً ووافيةً الى الكورنثيين توفقهم في السلام وتجدِّد ايمانهم والتسليم الذي كانت قد اخذتهُ حديثاً من الرسل»[2]

فكلٌ يرى انهُ ليس في هذه الشهادة شيءٌ يؤيِّد دعوى برئاسةٍ لاسقف رومية على الكنائس · وجل ما يُستفاد منها هو ان كنيسة المسيح التي في رومية قامت بواجبات محبتها نحو اختها التي في كورنثس برسالةٍ تحثها فيها على السلام · ومع ان كاتب تلك الرسالة كان الاسقف الروماني اكليمس نفسهُ · فهو لم يُشِر الى حقوق رئاسةٍ لهُ لا تصريحاً ولا تلميحاً ولا يذكر اسمهُ على الاقل كما كان يفعل بولس الرسول مثلاً في رسائلهِ · ولاجل زيادة البرهان قوةً على مساواة

(١) تاريخ افسابيوس ٣ : ١٦ (٢) تاريخ الكنيسة ٣ ، ٦ وايريناوس ٣ : ٣

الرسل وخلفائهم · واشتراك بطرس وبولس في رعاية كنيسة رومية · نورد شهادةً أُخرى ايضاً من مؤلفات القديس ابيفانيوس اسقف قبرص حيث يذكر اساقفة رومية القدماء · قال :

«فانهُ قد صار اساقفةً في رومية اولاً بطرس وبولس الرسولان نفسهما · ثم لينوس · ثم اكليتوس · ثم اكليمس معاصر بطرس وبولس · الذي ذكرهُ بولس في رسالتهِ الى اهل فيلبي · ولا يتعجبنَّ احدٌ من ان غيرهُ خلفوا الرسل في الاسقفية قبلهُ وهو معاصر بطرس وبولس · لانهم هم ايضاً كانوا معاصرين الرسل. فاننا لا نعلم حق العلم ما اذا كان في حياة الرسل نال شرطونية اسقفيتهِ من بطرس ثم استعفى واقام متنحيا (اذ انهُ هو يقول عن نفسهِ في احدى رسائلهِ[1]) او انهُ أُقيم بعد خلافة الاسقف اكليتوس للرسل»[2]

فمن هذه الشهادة ومن شهادة افسابيوس السابقة ايضاً يتضح جلياً ان موسس كنيسة رومية لم يكن واحداً اي بطرس بل كان اثنين اي بطرس وبولس · وان هذين الرسولين سلَّما ادارة تلك الكنيسة وهما حيَّان الى ثلاثة اساقفة الواحد بعد الآخر كما كان سائر الرسل يقيمون اساقفةً وقسوساً في كل الكنائس التي كانوا يوسسونها · وعليهِ لا يمكننا ان نعتبر اسقف رومية خليفةً لبطرس وحدهِ · كما انهُ لا يمكننا ان نحصر خلافة بطرس الرسول باسقف رومية · لانهُ هو نفسهُ اقام القديس افوديوس على كرسي انطاكية · واقام القديس مرقس الانجيلي في اسكندرية على الرأي الغالب · ولهذا السبب نرى الكنيسة الجامعة الارثوذكسية تعتبر خلافة بطرس في كرسي انطاكية وكرسي رومية واحدةً ·

(١) يعني انهُ استعفى (راجع مقدمة بريانيوس صفحة ١٥) (٢) ضد الكربوكراتيين كتاب 1

فتعظم خليفة بطرس في رومية · كما تعظم خليفة بطرس في انطاكية · فترتل مثلاً للقديس اكليمس اسقف رومية هكذا « ايها الاب الشهيد في الكهنة اكليمس · لقد صرت تلميذاً ليطرس الهامة · الذي قد علّمك الاسرار الالهية · وتركك خليفةً اهلاً · منيرًا كل البريئة »[1] * وترتل للقديس ملاتيوس بطريرك انطاكية هكذا « ايها المعلم الاسرار · لقد تلألأت تلألؤاً مجيدًا · لما أُقمتَ على كرسي بطرس اول العمّال · واذ شابهت بالفضائل رسل المسيح · ورثت سلطانهم وكرسيّهم وراثةً واضحةً · يا ملاتيوس الكلي المجد · وصرت عمودًا لاستقامة الرأي · ونصيرًا لحسن العبادة »[2] .

فأيُّ ريبٍ تترك هذه المقابلة في ان الكنيسة ما عرفت لرؤساء كهنة رومية في امر الرئاسة امتيازًا على رؤساء كهنة انطاكية وغيرهم من خلفاء الرسل ؟ على ان الذي يسلم بان اسقف رومية هو رأس الكنيسة كلها · يضطر ان يسلم ايضًا بان القديس يوحنا الانجيلي · الذي عاش نحوًا من ثلاثين سنة بعد استشهاد بولس وبطرس · كان خاضعاً لاكليمس ولغيره من الاساقفة الرومانيين بعد الرسولين . لانهُ وهو رسولٌ لم يخرج عن كونهِ عضوًا من اعضاء الكنيسة المرؤوسة على راي اصحاب الدعوى من اساقفة رومية (ما لم يقولوا انهُ لم يكن لا راسًا ولا عضوًا ويخرجوهُ من كنيسة المسيح فتكون الاواخر اشر الاوائل) ولكن مَن مِن ذوي الرأي والفكر المصيب والحكم العادل يصدق ان القديس يوحنا الانجيلي اللاهوتي . كاتب الانجيل والرسائل والرؤيا · ومؤسس كنائس اسيا · وصَدِيق المسيح الخاص . كان خاضعاً للقديس اكليمس وللذين قبلهُ وبعدهُ من رؤساء كنيسة رومية ؟ أو مَن يتجاسر لا ان يقول بل ان يفتكر بان يوحنا الذي كان يناجي الرب نفسهُ ماشيًا

(١) انظر ٢٤ من شهر تشرين الثاني في الميناون (٢) ١٢ شباط في الميناون

وسط المنارات الذهبية · وكان يوحنا الكنائس ويكتب الرسائل الجامعة الى كل كنيسةٍ في العالم كمَن لهُ سلطانٌ وليس كمَن ادعى دعوى : كان خاضعاً لتلاميذ بولس وبطرس ؟ ثم ان القديس يوحنا الرسول نفسهُ عاش الى آخر القرن الاول المسيحي كما قلنا وقد تكلم في كتاب الرؤيا عن مستقبل حظ الكنيسة · وذكر بابل واورشليم السماوية والارضية مرارًا كثيرةً · ومع ذلك لم يذكر شيئاً يشير الى حصر السياسة الكنائسية لا برومية ولا بغير رومية * فلو كانت رومية المعروفة بعاصمة العالم الوثني القديم معدّةً لان تكون عاصمةً للعالم وللدين المسيحي والعهد الجديد · أفما كانت تستوجب التفات الرسول الى ذكرها على الاقل لو بنبوءة ؟

فمما تقدم يتضح ان تاريخ العلاقة التي جرت بين كنيسة كورنثس والقديس اكليمس تلميذ مؤسسها بولس رسول الامم لا يصح ان تُبنَى عليهِ دعوى برئاسة اسقف رومية على الكنيسة المسيحية الجامعة · وعليهِ ننتقل الى مصدرٍ آخر لهُ تعلّقٌ بالقرن الاول المسيحي · وهو هذا :

٣ القوانين والاوامر الرسولية

ليس من شان مؤلّفنا البحث في ما اذا كانت هذه القوانين والاوامر الشريفة المعروفة بالرسولية مكتوبةً من تلاميذ الرسل او من رجال آخرين بعدهم · وعليهِ نقتصر على مجرد الافادة ان في هذا الموضوع رايين عند علماء تاريخ الكنائس · فبعضهم يقول ان كاتبها هو اكليمس اسقف رومية · وبعضهم يقول ان كاتبها هو اكليمس الاسكندري · وهو من رجال القرن الثاني[1] .

(١) باتر ولوجيا كوندوغوني في مولفات اكليمس الروماني

غير ان ذوي الرأيين متفقون على ان تلك القوانين قد سنها الرجال الرسوليون انفسهم نقلاً عن الرسل وتعليمهم وتسليمهم[1] . ولهذا السبب تُعتبَر قسماً مهماً من آثار القرن الاول المسيحي * ففي هذه الكتابات القديمة العهد نرى ان كل ما ورد فيها ولهُ تعلُّق بنظام الكنيسة وسياستها يدحض دعوى الرأي البابوي فضلاً عن انهُ لا يؤيّدهُ * مثال ذلك ما ورد في القانون (٣٤) حيث يُصرَّح ان اساقفة كل امةٍ لهم واحدٌ اولٌ عليهم . ولم يُذكَر او يُشَر الى ان لاسقفٍ واحدٍ في رومية او في غير رومية تقدماً على الجميع . مع ان الضرورة كانت تقتضي ذلك كل الاقتضاء ليكون معلوماً * وهاك نصُّ القانون «يجب على اساقفة كل امةٍ ان يعرفوا الاول فيهم . ويحسبوهُ راساً لهم . ولا يعملوا عملاً زائداً بلا رأيهِ * فكلُّ واحدٍ يعمل ما يتعلق بابرشيتهِ وبما يتبعها من البلاد * ولكنهُ هو ايضاً لا يعملُ شيئاً بلا رأيهم جميعاً . اذ هكذا يكون الوفق ويتمجد الله بالرب في الروح القدس الآب والابن والروح القدس» .

والقانون (٣٥) يامر الاساقفة هكذا «لا يجسرنَّ اسقفٌ على عمل شرطونياتٍ خارج حدودهِ في المدن والبلاد غير الخاضعة لهُ» .

والقانون (٣٧) يقول «لتجتمع الاساقفة مرتين في السنة . وليفحصوا بعضهم بعضاً في عقائد الايمان الحَسَن . وليحلّوا المقاومات الكنائسية الواقعة» .

ففي كل ذلك لا نرى تصريحاً برئاسةٍ للاسقف الروماني على سائر الاساقفة اخوتهِ . مع ان اكليمس اسقف رومية هو نفسهُ على الراي الغالب كتب في مدة اسقفيتهِ القوانين الرسولية . ولكونهِ كان اسقف رومية وتلميذ الرسل لم يكن ممكناً ان يكتب القوانين كلها ويترك قانوناً جوهرياً يصرح برئاسةٍ هي على

(١) المائة سنة لافجانيوس ٢٢٨

راي الغربيين اساس السياسة الكنائسية . فيتضح إذن لكل ذي بصيرةٍ ان هذه الدعوى لم تعرفها الكنيسة في زمان كتابة القوانين الرسولية البتة .

واما الاوامر الرسولية فانها تعدُّ الاساقفة الذين شرطنهم الرسل[2] وترتبهم على هذا الوجه . فاولاً تعد اساقفة اورشليم . ثم اساقفة انطاكية . ثم اساقفة اسكندرية . واخيراً اساقفة رومية لانهم حديثون عنهم . وهذا نصُّ ما ورد عن الاساقفة الرومانيين «ان اول اسقفٍ سيم على كنيسة رومية من بولس هو لينوس . والثاني بعد وفاة لينوس اكليمس سيم مني انا بطرس» . فالذي شرطن اول اسقفٍ على كنيسة رومية هو بولس لا بطرس . وهذا يوافق ما ورد في كتاب اعمال الرسل الذي يذكر سفر بولس فقط الى رومية ويوافق ما اثبتناهُ نحن ايضاً في مجلة الهدية المطبوعة في بيروت[3] . ويوافق ما قررناهُ في ما تقدم من ان مؤسس كنيسة رومية لم يكن بطرس بل بولس وان بطرس لم يستقل في رعايتها بل رعاها مع بولس .

وفي هذه الاوامر الرسولية ايضاً في الفصل المتعلق بالخدمة الكنائسية يتقدم ذكر اسقف اورشليم على اساقفة رومية فنقرأُ هكذا :

«من اجل اسقفنا يعقوب وكنائسهِ نطلب» ثم «من اجل اسقفنا اكليمس وكنائسهِ نطلب»[4]

وهذا برهانٌ واضح على المساواة الاخوية بين الاساقفة . وعلى الوقار العظيم الذي كان للقديس يعقوب اخي الرب ولكرسي اورشليم من حيث هو اقدم

(١) كتاب ٧ فصل ٤٧ (٢) سنة ١٨٨٧ صفحة ٤١٨ وما بعدها . وسنة ١٨٨٨ صفحة ٢ و١٧ و٢٥ و ١٢٠ تحت عنوان سلسلة بطاركة انطاكية (٣) كتاب ٨ فصل ١٠

الكراسي الاسقفية الموسسة من الرسل * وقد جاء في التسليم القديم ان الذي شرطن القديس يعقوب اسقفاً على اورشليم هو الرب نفسهُ * وبعضٌ يقول ان الرسل شرطنوهُ بامر الرب[1] * ومن شهادات الآباء والمولفين الكنائسيين نتعلم سمو منزلة هذا الرسول : فان ايارونيوس يقول «ان الرسل انفسهم شرطنوا يعقوب اخا الرب على كرسي اورشليم حالاً بعد آلام الرب»[2]. والقديس اوغانيوس يسميهِ «الاسقف الاول» ويقول «انهُ هو اول من نال سدَّة الاسقفية . وانهُ هو الاول الذي ائتمنهُ الرب على كرسيهِ في الارض»[3]. والقديس يوحنا الذهبي الفم يشهد «ان يعقوب شُرطن اسقفاً من المسيح»[4]. وكاتب الاوامر الرسولية (اكليميس) يقول «ان يعقوب شرطنهُ المسيح والرسل»[5]. واكليميس الاسكندري اقدم جميع المعلمين الذين ذكرهم المورخ افسابيوس كتب في ما يتعلق باقامة يعقوب على كرسي اورشليم هكذا «ان بطرس ويعقوب ويوحنا من حيث انهم مميَّزون من الرب لم يتخاصموا على المجد من بعد صعود المخلص بل انتخبوا يعقوب الصديق اسقفاً على اورشليم ... فان الرب قد سلَّم المعرفة ليعقوب ويوحنا وبطرس بعد القيامة»[6]. ومن هنا يتضح ان كرسي اورشليم كان كرسي المجد الممتاز الذي لم يتخاصم عليهِ الرسل المتقدمون . فأُقيم عليهِ يعقوب بايعاز الرب او من الرب، وكان متقدماً عليهم جميعهم كما يتضح من كتاب اعمال الرسل ومن المجامع الرسولية التي كان يرأسها يعقوب * والمورخ افسابيوس كتب في تاريخهِ ما تعريبهُ «يُقال انهُ من بعد استشهاد يعقوب ... اجتمع معاً من كل

(١) ذوسيثاوس ١ : ١١ : ٦ وسنكسار يعقوب الرسول (٢) سلسلة المولفين الكنائسيين فصل ٢ (٣) في الفرطقات ٧٨ : ٧ و٢٩ : ٢ و٦٦ : ١٩ (٤) مقالة ٢٨ على اكو فصل ١٥ (٥) كتاب ٨ فصل ١٥ (٦) تاريخ افسابيوس ٢ : ١

كان الذين كانوا في قيد الحياة من الرسل وتلاميذ الرب مع اقرباء الرب الجسد (لان القسم الاكبر منهم كانوا بعدهم وقتئذٍ احياء) وتشاوروا كلهم معاً من يجب ان يُعتبر اهلاً لخلافة يعقوب ليُقام عليها . ومن ثمَّ استنسبوا جميعهم برأي واحدٍ سمعان ابن اكلاويا المذكور في كتاب الانجيل انهُ اهلٌ ليُقام على كرسي تلك الابرشية . وهو كما يقولون ابن اخي المخلص»[1]. فكيفما فُسِّرت عبارة هذه الشهادات القديمة لا تزال دليلاً بل برهاناً قوياً يبرهن كثرة الاعتبار والتمييز الذي كان للسدَّة الاورشليمية وسموّ مقامها عند الرسل . في الوقت الذي لم يكُن احدٌ منهم او من غيرهم يتصور لكرسي رومية اهميةً او امتيازاً .

هذا اهم ما يستحق النظر والبحث من العلاقات الكنائسية في القرن الاول في الشرق والغرب من حيث الرئاسة وعدمها . ولهذا ننتقل الى القرن الثاني .

الفصل الثاني

في علاقات الكنيستين في القرن الثاني

١ . ايريناوس اسقف ليون

من مشاهير آباء ومعلمي الكنيسة في القرن الثاني كان القديس ايريناوس اسقف ليون . تلميذ القديس بوليكربوس اسقف ازمير[2] وأحد اساقفة الكنيسة الغربية في فرانسا * وكان معلمهُ بوليكربوس تلميذاً للقديس يوحنا الرسول الانجيلي * وقد كتب هذا المعلم الجليل في ما يتعلق بمنزلة الكنيسة الرومانية اكثر من كلِّ مولفٍ سواهُ من القدماء . فقال «وهكذا كلُّ من يريد ان يرى الحقيقة يستطيع ان ينظر في كلِّ كنيسةٍ تسليم الرسل المعروف في كل العالم * فاننا

(١) ٣ : ١١ (٢) تاريخ افسابيوس ٥ : ٢٠

نستطيع ان نعدّ جميع الذين شُرطِنوا من الرسل اساقفةً في الكنائس وخلفاءهم بعدهم الى ايامنا عينها · الذين ما كانوا يعرفون ولا يعلّمون شيئاً مما يهذر فيه الهراطقة.

ولكن · من حيث ان تعداد خلفاء اساقفة جميع الكنائس يطول بنا فوق المقتضى في هذا المؤلَّف المختصر · فنحن نوضح الايمان الرسولي المبشَّر للبشر والواصل الينا بخلافة الاساقفة · الذي تحفظه الكنيسة العُظمى الاكثر قدميةً المعروفة عند الجميع · والمؤسسة والمقامة في رومية من الرسولين الفائقي المجد بطرس وبولس. ونُخجل جميع الذين يرتأون الآراء الفاسدة عن اية حالةٍ كانت · إمّا عن رضى منهم · وإمّا عن مجدٍ فارغٍ · وإما عن عمىً وعدم بصيرة * لان جميع الكنائس · اعني المؤمنين في كل مكان · يجب ان يوافقوا هذه الكنيسة التي هي اقوى الكنائس الاولية · وفيها كان يُحفظ التسليم الرسولي من جميع المؤمنين في كل مكانٍ · وهكذا بعد ان اسّس الرسل المغبوطون واقاموا الكنيسة الرومانية · سلّموا خدمة الاسقفية الى لينوس · الذي ذكرهُ بولس في رسائله الى تيموثاوس * وقد خلف لينوسَ انا كليطُسُ · وبعدهُ انتخب للاسقفية اكليمبس ثالثاً من عهد الرسل · وقد شاهد الرسل المغبوطين وعاش معهم · وكانت كرازة الرسل وتسليمهم تطنُّ فيه (اي في ذاكرته) · ولم يكن هو وحدهُ · بل كان وقتئذٍ كثيرون غيرهُ باقين من تلاميذ الرسل * وقد خلف اكليمبسَ إفاريسطُسُ · وافاريسطُسَ اسكندرُ · وبعدهُ قام على ذلك الوجه اكسيسطُس او سيكسْطُس سادساً بعد الرسل · وبعدهُ تيليسفورُس او تلِسفُورُس الذي استشهد شهادةً مجيدة · وبعدهُ ايجينُس · وبعدهُ بيُس · وبعدهُ انيكيطُس · وبعد خلافة صوتير لانيكيطُس ضبط الآن رتبة الاسقفية إفتاريوس ثاني عشر بعد الرسل * فبهذا الترتيب عينه · وبهذه الخلافة نفسها · وصل الينا تسليم الرسل وتعليم الحق في الكنيسة *

وبوليكربُس ايضاً · فضلاً عن كونهِ تلميذ لرُسُلٍ وعاش مع كثيرين من الذين راوا المسيح · قد أُقيم اسقفاً من الرسل في اسيا على كنيسة ازمير · ونحن قد رايناهُ في صبانا · لانهُ عاش كثيراً · وخرج من الحياة شيخاً كبيراً · وشهيداً مجيداً وشهيراً * غير ان كنيسة افسُس ايضا الموسَّسة من بولس التي اقام فيها يوحنا الى ازمنة تراياناوس هي شاهدٌ حقٌّ لتسليم الرسل »[1]

فالمولعون الغريبون المتاخرون المتصرون لدعوى الرئاسة يظنون ان في هذه الشهادة سنداً للدعوى برئاسة كرسي رومية على جميع الكنيسة * ولكنَّ الشرقيين لا يرون لهم حقاً في هذا الظن · لان القديس ايريناوس كان كما هو معلومٌ اسقفاً من اساقفة الغرب · ويتكلم هنا عن منزلة كنيسة رومية لا بالنسبة الى الكنائس جميعها · بل بالنسبة الى كنائس الغرب التي كانت بينها كنيسة رومية الكنيسة العُظمى الاكثر قدمية * فهو يرشد اليها المؤمنين ابناء الغرب ليتعلموا منها الحقيقة · نظراً لقربها منهم عن غيرهم · ولا دخل في كلامهِ لكنائس الشرق * والبرهان على ذلك اقرب من كل قريب · فان كنيسة رومية ليست اقدم من كنيسة اورشليم ولا من كنيسة انطاكية ولا من كنيسة افسُس وغيرها. فالذي يريد ان ينسب كلام القديس الى كنائس الشرق لا يسعهُ الاّ ان يسلّم بان كنيسة رومية الحديثة اقدم من تلك القديمة · وهذا ينقضهُ التاريخ نقضاً صريحاً * واما قولهُ ان كنيسة رومية اقوى من سائر الكنائس الاولية · لكونها كانت كنيسة العاصمة في ايامهِ · فلا نتج منهُ رئاسةً لها عليها. لان القول بانَّ كلَّ ما كان اقوى كان رئيساً قولٌ غير صحيح. كما نوقنا اليوم مثلاً ان كنيسة القسطنطينية اقوى من كنيسة انطاكية · والكنيسة الروسية اقوى من الكنيسة القسطنطينية.

(1) ضد الهراطقة ٣ : ٣

فلا سبيل الى الاستنتاج ان هذه رئيسة وتلك مرؤوسة منها* على ان دليلاً آخر ايضاً يرفع كل شبهة في صحة تفسيرنا الشهادة . وهو ان القديس بعد انهُ ذكر ما ذكر عن رومية . واستشهد بها على صحة تسليم الرسل . اراد ان يتلافى كلَّ حجة للمعترض عليه في الكنائس الغربية. فدفع كل اعتراض باستشهاد ببعض الكنائس الشرقية . اعني كنيسة ازمير وكنيسة افسس . وهذا اعظم برهان على ان كلام القديس لا يتجاوز معناه النسبة بين كنيسة رومية وكنائس الغرب وحدها . فكلُّ ما قيل عن الكنيسة الرومانية بالنسبة الى الغرب . يصحُّ ان يُقال للكنيسة الانطاكية بالنسبة الى الشرق . وللاورشليمية بالنسبة الى بلاد فلسطين . وللاسكندرية بالنسبة الى البلاد المصرية . ولهذه الكنائس كلها بالنسبة الى رومية عينها . لانها ولا شك اقدم من رومية ومن سائر كنائس الغرب .

ولكي لا يتوهم بنا احدٌ غرضاً في ما شرحناهُ . نويد اقوالنا بشهادات مولف قديم من مشاهير رجال الكنيسة الغربية نفسها . وهو :

٣ . القس ترتليانوس

وقد كان معاصرًا للقديس ايريناوس . ويعلّم تعليمهُ في مراجعة الكنائس الرسولية للوقوف على حقيقة التسليم فيقول «ان كنت تريد ان تجاهد جهادًا افضل في سبيل خلاصك . فطُف على الكنائس الرسولية التي لم تزل كراسي الرسل قائمةً فيها الى اليوم . وفيها تُقرأ رسائلهم الاصلية عاكسةً صوتهم ومشخّصةً اياهم* فان كانت اخائيا بعيدةً عنك . فعليك بكورنثس * وان كنت ساكنًا عند مكدونيه : فعليك بفيلبي وثيسالونيكي * وان كنت تستطيع ان تذهب الى

اسيا . فهناك افسس * وان كنت ساكنًا قرب ايطاليا فعليك برومية »[1]

فمن هذه الشهادة الصريحة يتضح لكل من غمضت عليهِ شهادة القديس ايريناوس ان الاستشهاد بكنيسة رومية من حيث الرئاسة والقدمية والرسولية وغير ذلك انما كان بالنسبة الى دائرتها فقط (اعني بلاد ايطاليا وغيرها في الغرب) لا بالنسبة الى الكنائس الشرقية الرسولية البتة . ولا شك في ان كنيسة رومية هي مهمةٌ في الغرب الذي قلَّ مَن دخلهُ من الرسل . ولا نعلم برسولٍ غير بولس تعمق فيهِ لا الى اكثر من اسبانيا . وفي ما سوى ذلك لم توسس كنيسةٌ من الرسل بالذات في الغرب . ولكن اهمية كنيسة رومية في الغرب لا تسوّغ لمؤرخ ان يعمّمها في الشرق ايضاً حيث قامت كنائس اقدم واهم منها .

هذا اهم ما هو موضوع نظرٍ من الشهادات عن القرن الثاني * فننتقل الآن الى حوادث جرت فيهِ يتضح منها روح الكنيسة المقدسة وحقيقة علاقاتها .

٤ . الخلاف في تعييد الفصح

لعيد الفصح المقدَّس المنزلة الاولى في اعياد المسيحيين من الازمنة الرسولية عينها . وبحسب شهادات الرسول برنابا[2] والقديس اغناتيوس[3] ويوستينوس[4] وبليتيوس[5] وغيرهم لم يكن يعيَّد الفصح لتذكار قيامة الرب مرةً في السنة فقط . بل كان يُعيَّد ذلك التذكار الخلاصي كلَّ احدٍ * فكان يوم الاحد يُعيَّد ايضاً من جميع المسيحيين يوم فرحٍ وبهجةٍ بالصلاة وقوفاً (لا ركوعًا ولا قعودًا كما

(١) في نبذ الهراطقة : ٣٦ (٢) فصل ١٥ (٣) للمغنيسيين فصل ٩
(٤) احتجاج ١ : ٦٧ (٥) رسالة ١٠ : ٩٧

يفعل بعضهم اليوم) وبلا صوم [1] * غير ان عيد الفصح السنوي كانت لهُ شعائر خصوصية في قلوب المؤمنين . وكان يُحتفَل فيهِ بتذكار الآلام والقيامة معاً . ومع ذلك قام خلافٌ في الازمنة القديمة عينها على تعييد هذا العيد المجيد . واسبابهُ ان كنائس اسيا الصغرى وكيليكا وسوريا وبين النهرين كانت تعيّد اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبري تذكاراً للصلب . والسادس عشر تذكاراً للقيامة . في ايّ يومٍ من الاسبوع اتفقا . اعني من دون مراعاة يومَي الجمعه والاحد . فكانت تعتبر اهمية اليومين في عددها الشهري ١٤ و١٦ نيسان اللذَين فيهما بالتمام تامَّ وقام الرب لا في غيرهما * ولكنَّ كنائس بلاد اليونان وبلاد مصر والبنطس وفلسطين وكنائس الغرب معها لم تعتبر الاهمية في عدد اليوم من الشهر بل في اسمهِ الاسبوعي اعني الجمعه والاحد . فكانت ترى ان يكون تذكار الآلام يوم الجمعه بلا بدٍّ . وتذكار القيامة يوم الاحد بلا بدٍّ . ولهذا السبب كانت في السنين التي لا يتفق ان يكون اليوم الرابع عشر من نيسان يوم جمعةٍ تعيّد الآلام اول يوم جمعةٍ بعدهُ ثم القيامة يوم الاحد * فكانت الكنائس متفقةً على مبدإ وجوب تعييد الفصح . ولكنها اختلفت في تعيين يوم العيد . حتى كان بعضها يعيد بعد الآخر باسبوعٍ احياناً .

ولكن هذا الخلاف كان مقروناً بخلافٍ آخر ايضاً من حيث اعتبار يوم الآلام * فان القسم الاول كان يعتبر يوم الآلام من وجهِ عقائديّ يوم تحريرٍ من العبودية وخلاصٍ . فكان يُعدُّ عندهم يوم فرحٍ . وكانوا من ساعة تذكار موت الرب يحلّون فيهِ الحزن والصوم معاً * واما القسم الآخر فكان يعتبر اليوم على وجهٍ تاريخيّ يوم حزنٍ . ولم يُسمح عندهم بحل الصوم قبل تذكار القيامة . وهكذا

(٦) ترتليانوس في الاكليل ٣ وابريناوس وغيرهما

كان عند المؤمنين مذهبان من هذا القبيل . وكان كل مذهب يستشهد بتسليم الرسل . الاول بيوحنا وفيلبُّس والثاني ببطرس وبولس [1] .

على ان هذا الخلاف استمرَّ وقتاً طويلاً في الكنيسة . ولكنهُ لم يقطع ربُط السلام والمحبة بين الكنائس . غير ان المسيحيين الذين كانوا يتغربون من بلادهم الى بلادٍ جرت على غير عوائدهم كانوا مجبورين إمَّا ان يعيّدوا على عادة بلادهم ويخالفوا عادة الكنيسة المقيمون فيها . او ان يوافقوها ويعيّدوا على خلاف عادة بلادهم . وكلاهما لا يخلو من الخلل * فحدث ان القديس بوليكربوس اسقف ازمير سافر الى رومية نحو سنة ١٦٠ (وعلى راي بعضهم سنة ١٦٣) لقضاء مصالح متعددة من جملتها النظر في مسألة الفصح . آملاً باقناع اسقف رومية في ان تعيد كنيستهُ الفصح مثل كنائس اسيا . فقام خلافٌ بينهُ وبين اسقف رومية انيكيطُس في اي تسليمٍ هو الصحيح . وكان كلٌّ منهما يويد عادتهُ بتسليم الرسل كما تقدم . فلا انيكيطُس استطاع ان يقنع بوليكربوس ليترك العادة التي مارسها مع يوحنا الرسول وغيرهِ وحافظ بعدهم عليها . ولا بوليكربوس استطاع ان يقنع انيكيطُس ليترك عادة اسلافهِ المالكة في كنيستهِ . ولهذا السبب لبث كلٌّ منهما محافظاً على عادتهِ وتسليمهِ مع محافظتهما على الاتحاد والسلام ورباط المحبة الاخوية . التي من جملة مظاهرها كان ان انيكيطُس العاشر في عدد اساقفة رومية اشترك مع بوليكربوس في خدمة القداس الالهي وعند تقديس القربان تنحّى هو للقديس بوليكربوس ليقدسها احتراماً لهُ . لانهُ كان شيخاً طاعناً في سنهِ ورجلاً رسولياً تلميذاً ليوحنا الانجيلي نفسهِ اقرب من انيكيطُس الى الرسل [2] .

(١) تاريخ افسابيوس ٥ : ٢٣ — ٢٥ (٢) تاريخ افسابيوس ٥ : ٢٤ وذوسيثاوس في بطاركة اورشليم ١ : ١١ : ١

فهذه العلاقة بين اسقفَي ازمير ورومية برهانٌ واضحٌ على مساواة اسقف رومية لاساقفة الكراسي الرسولية اخوتهِ . لان الخلاف الذي قام بينهُ وبين اسقف ازمير لم يستطع ان يحكم ويحتم بهِ لا هو ولا خلفاؤهُ الى ان اجتمع المجمع المسكوني وقرَّر المسألة بسلطان الكنيسة كلها كما سنرى .

وقد ادَّعى بعض المورخين الغربيين انهُ عُقد مجمعٌ في رومية مولَّفٌ من الاسقفَين المشار اليهما وعشرة غيرهما وقرَّر تعييد الفصح يوم الاحد[1] . ولكن هذا المجمع ليس لصحتهِ مصدر . لان شهادة المورخَين افسابيوس وايريناوس ماذكرت مجمعاً بل صرَّحت بان الاسقفَين ما اقنعا احدهما الآخر * على ان قولنا بان بوليكربوس لم يقتنع من البابا وانهُ كان معتبرًا منهُ يوافق البابا ويبين اكثر من قولنا بانهُ لم يقتنع من البابا ومجمعهِ معاً * وكذلك قولهم ان المجمع في رومية قرَّر تعييد الفصح يوم الاحد ولم يجرِ قرارهُ قول محقٌ بحق البابا بالنسبة الى دعواهم بالسلطة لهُ وعلى المجامع والكنيسة * وعلى كل الوجوه هذا التاريخ القديم الصادق لا تقوم لديهِ حجة للمدعي سلطةً للبابا البتة .

وقد حذا حذوَ البابا انيكيطُس في المحافظة على السلام خلفاؤهُ بُيُس وايجينوس وتلِسفوروس وسيكُسطُس . فكانوا هم يعيّدون يوم الاحد وكنائس اسيا تعيّد اليوم الرابع عشر * غير ان الخلاف تجدَّد في ايام الاسقف الروماني ويكتور . وكان وقتئذٍ على كرسي اسكندرية الاسقف ذيمتريوس . وسيرابيُن في انطاكية . وثاوفيلوس في قيصرية فلسطين . وناركيسُس في اورشليم . وباكشيلُس في كورنثُس . وبوليكراتيس في افسُس * وكان ذلك الخلاف داعياً لعقد مجامع كثيرة مكانية اجتمعت في قيصرية واورشليم وانبنطُس

(١) كتاب المجامع جزء ١ صفحة ٥٨٣

وغلاطية وكورنثُس ورومية وبين النهرين وغيرها . وجميعها قررت رأياً واحداً . وهو ان تُراعَى عادة تعييد الفصح اي القيامة يوم الاحد وان لا يحلُّ الصوم الاَّ فيهِ . وأُرسلت القرارات الى جميع الكنائس[1] * غير ان كنائس اسيا وسيما كنيسة ازمير واسقفها بوليكراتيس لم ترضَ بان تغير عادتها القديمة التي تسلمتها من الرسل يوحنا وفيلبُس ومن القديس بوليكربوس اسقف ازمير . فقام ويكتور اسقف رومية وكتب من طرفهِ وطرف مجمعهِ رسالةً الى بوليكراتيس اسقف ازمير يحرضهُ بها على تغيير عادتهِ متهدداً اياهُ بقطع العلاقة ان قاومهُ . ولكنَّ بوليكراتيس جمع مجمعاً مولَّفاً من خمسين اسقفاً كانت نتيجة مذاكرتهِ رفض طلب ويكتور واعتبار عملهِ وقاحةً * ومما كتبهُ بوليكراتيس لويكتور وكنيسة رومية في رسالة المجمع قولهُ « فاننا نحن نقيم النهار بكل انتباهٍ . فلا نزيد على التسليم الرسولي ولا ننقص منهُ * فانهُ قد رقد في اسيا اشخاصٌ عظام . منهم فيلبُس احد الاثني عشر رسولاً الذي رقد في ايرابوليس وابنتاهُ البتولان الشيختان . . . ويوحنا ايضاً الذي اتكأَ على صدر الرب وصار كاهناً . . . وشهيداً ومعلماً قد رقد في افسُس * وبوليكربوس ايضاً في ازمير اسقفاً وشهيداً * وثراسياس . . . وماذا يجب ان نقول في ساغاريس الاسقف والشهيد الذي رقد في اللاذقية * وبابيريوس . . . وميليطن . . . فانهم جميعهم حافظوا على اليوم الرابع عشر للفصح وفقاً للانجيل . . . وكذلك انا بوليكراتيس اصغركم جميعاً . . * فانا ايها الاخوة ما دام لي خمس وستون سنةً بالرب . وقد اجتمعتُ بالاخوة الذين من المسكونة . وقرأتُ كلَّ كتابٍ مقدسٍ . لا اجزع من الاراجيف . لان الذين هم اعظم مني قالوا : انهُ يجب الخضوع لله اكثر من البشر * وكنت

(١) تاريخ افسابيوس ٥ : ٢٣ — ٢٧ وذوسيثاوس ١ : ١١ : ٢

استطيع ان اذكر الاساقفة الحاضرين معي . الذين رمتم انتم ان اجمعهم . وقد جمعتهم . واساؤهم إن كتبتها فهي كثيرة جداً . وقد راوا انساني الصغير . ووافقوا على الرسالة . لعلمهم اني لم احمل هذه الشيبة عبثاً . بل سلكت بالرب دائماً»[1]

غير ان ويكتور لم يقتنع من هذه الاقوال . بل اندفع الى ان يقطع رباط السلام والمحبة بينهُ وبين الكنائس الآسيوية ويسميها هرطوقية (اي مبتدعة) * ولكن ما برز فكرهُ الى العمل حتى قام ضدهُ اساقفة الكنائس من كل جانب . واعتبروا عملهُ استبداداً . ووبخوهُ عليهِ . ونصحوهُ ان يرجع الى حفظ الاتحاد بالسلام والمحبة . وهكذا عدل عما فعل[2] * وكان من جملة الذين قاوموا ويكتور ووبخوهُ القديس ايريناوس اسقف ليون في فرانسا . وهو من اساقفة الكنيسة الغربية نفسها . وكان من جملة ما كتبهُ لهُ قولهُ «فان الخلاف ليس في اليوم فقط . بل في نوع الصوم ايضاً . . . وتنوُّع ذلك بين المحافظين لم يحدث الآن في ايامنا . بل قبلنا بكثير في عهد اسلافنا . . . ومع ذلك جميعهم كانوا ولم يزالوا متسالمين بعضهم مع بعض . . . ومنهم الشيوخ . . . الذين كانوا تولوا الكنيسة التي انت تتولاها الي الآن . . . فانهم ما حافظوا وما سمحوا للذين معهم ان يحافظوا . وكانوا يشتركون وهم غير محافظين مع الآتين اليهم من الابرشيات المحافظة . ولا يخفى ان المحافظة تضاد عادة الغير المحافظين»[3]

فهكذا ثبتت العادتان مستمرتين . ولم يحصل شيءٌ يخل براحة الكنيسة سوى تهجم الاسقف ويكتور الذي دفعتهُ الكنيسة بروح السلام والمحبة . الى ان انحاز المسألة بصوت الكنيسة العام في المجمع الاول المسكوني .

وهذه العلاقة ايضاً . التي هي محكٌ يرفع كلَّ شبهةٍ في منزلة اسقف رومية

(١) افسابيوس ٥ : ٢٤ (٢) تاريخ سقراط ٥ : ٢٢ (٣) افسابيوس ٥ : ٢٤

في الكنيسة . تبرهن بلا ريب بطلان دعوى المدعين للبابا سلطاناً على الكنيسة الجامعة * فانها تشهد بان كلَّ ما كان يقرَّر بجامع . كان يُنظر فيهِ بحسب الاصول * واما ما كان يصدر من اسقف رومية في شأن كنيسةٍ أُخرى . كان يعتبر استبداداً * على ان بعض الغربيين يدعون ايضاً بان ويكتور امر بوليكراتيس ليجمع مجمعاً . ويستندون في دعواهم على قول بوليكراتيس ويكتور في رسالتهِ «وكنت استطيع ان اذكر الاساقفة الحاضرين معي الذين رمتم ان اجمعهم وقد جمعتهم واساؤهم كثيرةٌ» فيفسرون كلمة رمتم بمعنى امرتم * ولكن الشرقيين يدفعون هذه الدعوى بأتي : اولاً . بان المورخ افسابيوس ناقل هذه الافادة ما قال ولا اشار الى ان ويكتور امر بوليكراتيس ـ ثانياً . بان رسالة بوليكراتيس ما كانت الى شخص ويكتور بل كانت بحسب قول افسابيوس بالحرف الواحد «الى ويكتور وكنيسة رومية» اعني الاساقفة الذين معهُ . وهذا واضحٌ من قولهِ في الرسالة «واما انا ايها الاخوة» حيث لا يخاطب شخصاً واحداً بل اخوةً كثيرين . ومن هنا نستنتج ان رسالة ويكتور ايضاً الى بوليكراتيس ما كانت شخصيةً بل مجمعيةً ـ ثالثاً . بان معنى كلمة «رمتم» شيءٌ . ومعنى كلمة «امرتم» شيءٌ آخر . فلو كانت الكلمة صادرةً من ويكتور لبوليكراتيس بقولهِ لهُ مثلاً «نروم منك ان تجمع مجمعاً» ربما كانت تُحمَل على معنى الامر . ولكن الكلمة صدرت من بوليكراتيس لويكتور باللفظ اليوناني «إيكسوساته» (ومعناهُ رمتم او طلبتم) وهو اقلُّ مما يكتبهُ شخصٌ لآخر مساوٍ لهُ . فانهُ كثيراً ما يكتب احد متساويين للآخر بلفظ «آمرتم ورسمتم» وما ماثلهُ . ومع ذلك ليس من عاقلٍ يحمل ذلك على معنى الاعتراف بسلطةٍ او رئاسةٍ لهُ عليهِ . فكم بالحري الآن حيث لم يكتب اسقف ازمير لاسقف رومية اكثر من كلمة رمتم او طلبتم ؟ . اما السبب في قولهِ لهُ

«رتم ان اجمع مجمعاً الخ» فهوان اسقف رومية كان يظن ان بوليكراتيس وكنيسته فقط وفيئةً قليلةً معهُ من الاساقفة يعيّدون الفصح على خلاف عادتهِ . ولهذا كتب لهُ هو وكنيسة رومية ينصحونهُ ان يجمع مجمعاً ليقف منهُ على حقيقة التسليم في مسألة تعييد الفصح . فجمع بوليكراتيس الاساقفة الكثيرين تحت هذه الغاية عينها ايضاً اعني غاية ايضاح حقيقة التسليم وحقق مذهبهُ بشهاداتهم وجاوب كنيسة رومية كما ذكرنا * فاين هذا التاريخ الداحض للدعوى الغريبة من استناد الغربيين عليهِ لاثبات تلك الدعوى ؟ وقد اجتمعت مجامع كثيرة في اماكن متعدّدة غير مجمع اسيا كما ذكرنا . ومع هذا كان اجتماعها واحكامها وقراراتها بلا اوامر وبلا اشارةٍ وبلا معرفة اسقف رومية * على ان قيام الاساقفة ايضاً على ويكتور حين تهددهُ كنيسة ازمير وتوبخهم اياهُ — حسب شهادة المورخ افسابيوس نفسهِ — ينفي كل دعوى للغربيين بالرئاسة والسلطة * فهل من شبهةٍ في ان تلك الدعوى لا صحة لها ؟ .

هذا واننا نذكر هنا استطراداً الملاحظة الآتية وهي : ان ويكتور اسقف رومية لكي يقنع اسقف افسُس بوجوب التعييد يوم الاحد كتب لهُ ان هذا التسليم ماخوذ عن بطرس وبولس . فكان جواب اسقف افسُس لهُ : ان في اسيا ايضاً اشخاصاً عظاماً وهم يوحنا وفيلبُس . وان التمسُّك بتقليدهما واجبٌ مثل التمسُّك بتقليد بطرس وبولس * وهذا برهانٌ قاطعٌ على المساواة بين الرسل في الرتبة الرسولية خلافاً للذين يدعون عدم المساواة .

وقد استمرَّ الخلاف بعد ذلك في تعييد الفصح وتجددت فيهِ مسائل أُخرى ايضاً لا محلَّ هنا لذكرها . لانها ليست من متعلقات تاريخنا . بل تتعلق بتاريخ الكنيسة العام . وعليهِ ننتقل الى تاريخ العلاقات في القرن الثالث .

الفصل الثالث

في علاقات الكنيستين في القرن الثالث

١ . الخلاف في معمودية الهراطقة والمنشقين

موضوع هذا الخلاف هو : هل يجب ان نعتبر معمودية الهراطقة وذوي الشقاق صحيحةً وقانونيةً ولا نعيد تعميدهم عندما يرجعون الى الكنيسة . او ان نعتبرها غير صحيحةٍ ونعمّدهم ؟ ففي هذا الموضوع اختلفت الآراء قديماً بين الكنائس * فكنائس اسيا الصغرى والكبادوك وكيليكيه وغلاطيه وسوريه ومصر وافريقيه كانت تقول بان المعمودية لها قوةٌ وصحّةٌ في الكنيسة الارثوذكسية فقط التي تُتمَّم فيها حقيقةً سائر الاسرار . وان معمودية ذوي البدَع والشقاق ليست معموديةً . فكانت تعمّد الذين يرجعون اليها منهم [1] * غير ان كنيسة رومية والكنائس الغربية ايضاً كانت تعلّم ان كلَّ معموديةٍ متمَّمةٍ باسم الثالوث القدوس او باسم يسوع المسيح هي صحيحة ومقبولة . فما كانت تعمد الراجعين اليها * وكانت كل كنيسةٍ جاريةً على عادتها بلا نزاعٍ ولا شقاق في الشرق والغرب * ولكنَّ القسَّ الغربي ترتليانوس كتب في القرن الثالث رسالةً ضد معمودية الهراطقة . وفي الوقت عينهِ تقريباً حصلت اسبابٌ في اسيا الصغرى دعت النزاع في هذه المسألة * فاجتمع مجمعٌ في ايقونيه ومجمعٌ في سنادا (سنة ٢٣٠)

(١) رسالة فرميليانوس . وتاريخ افسابيوس ٧ : ٧ والاوامر الرسولية ٦ : ١٥ واكليمس الاسكندري ١ : ٢٧٥ وترتليانوس في المعمودية ١٥ وفي المولدين ١٢ وكبريانوس رسالة ٧١ و٧٣

تحت رئاسة فرميليانوس اسقف قيصرية لقرّر فيها عدم صحة معمودية الهراطقة * وكان اسقف قرطاجنة اغريبينوس عقد مجمعاً كبيراً (سنة ٢١٧ ــ ٢٢٣) وقرّر القرار عينهُ ايضاً * هذا نذكرهُ بوجه الاختصار معرضين عن الاسباب الطويلة التي لا تعلّق لها بتاريخنا هنا [1] .

غير ان النزاع شبَّ بنوعٍ خصوصيٍّ بعد ظهور بدعة نوباتيانوس احد قسوس كنيسة رومية المعروف في التاريخ الكنائسي بشدة صرامة المبادئ في معاملة التائبين . حتى انهُ كان يدّعي بانهُ لا خلاص للذين انكروا الايمان وإن تابوا ورجعوا . وانَّ كل كنيسةٍ تقبل الراجعين من الذين انكروا الايمان او من التائبين عن خطايا جسيمةٍ ارتكبوها . لا تستحق ان تسمَّى كنيسةً حقيقيةً . فكان يُعيد تعميد التائبين وتعميد الارثوذكسيين المتساهلين للتائبين مسمياً نفسهُ واتباعهُ باسم « أنقياء » * [2] وكان وقتئذٍ على كرسي رومية البابا كُرنيليوس. فجمع مجمعاً كبيراً في رومية وحرم نوباتيانوس واتباعهُ وكتب عنهُ لكبريانوس اسقف قرطاجنة . وتبادلت مكاتبات بين الاسقفين . وكتب لغيرهِ ايضاً من اساقفة الكراسي منهم فابيوس بطريرك انطاكية * غير ان نوباتيانوس استحضر ثلاثة اساقفة من البسطاء وخدعهم واسكرهم وغصبهم . فساموهُ وهم في حالة السكر اسقفاً على رومية في الساعة العاشرة من النهار . وهكذا صار اسقفان على كرسي رومية في وقتٍ واحدٍ * ولما كانت بدعة نوباتيانوس محرومةً من الكنيسة ومحسوبةً من جملة بدع الهراطقة المبتدعين . وكانت عادة كنيسة رومية ان لا تعمّد الهراطقة دعت الظروف المذاكرة في وجوب او عدم وجوب تعميد الراجعين

(١) ذوسيثاوس ١ : ١٦ : ١ (٢) كبريانوس رسالة ٤٩ و٥٢ وافسابيوس ٦ : ٤٣ : ٤ واپيفانيوس هرطقة ٥٩ واوغوستينوس هرطقة ٢٨ . وذوسيثاوس ١ : ١٥ : ١

منها اي من هرطقة نوباتيانوس الى الكنيسة . ففي سنة ٢٥٣ قام البابا استفانوس على كرسي رومية . وجرياً على عادة كنيستهِ شدَّد المنع في امر تعميد الهراطقة اجمالاً ولم يرضَ ان يراعي عادةً غيرها . ولكنهُ ما وقف على هذا الحد بل طلب ان يتوصل الى حقوقٍ يظهر انها ما كانت تخصهُ . فانهُ بنآء على عادة كنيستهِ كتب لاسقف قيصرية فرميليانوس ومنعهُ عن تعميد الهراطقة . ولكنَّ فرميليانوس استغرب مداخلة البابا في اموره ولم يعِر اذناً لكتاباتهِ . فعقد استفانوس مجمعاً (سنة ٢٥٤) حكم فيهِ بالقطع على فرميليانوس وعلى اساقفة كيليكيه وغلاطيه الموافقين لهُ [1] .

على ان المسألة ما لبثت ان انتقلت الى افريقية الشمالية ايضاً . حيث كانت العادة المالكة ضدَّ عادة رومية . وكان متمسكاً بها تمسكاً شديداً القديس كبريانوس اسقف قرطاجنه * ولا يبعد ان مقاومة البابا استفانوس لهذه العادة اقلقت بعضاً من اساقفة افريقيه . فارسل ثمانية عشر اسقفاً منهم رسالةً الى مجمع قرطاجنه يسألونهُ كيف يجب ان يعاملوا الراجعين من الهراطقة وذوي الشقاق* فاجتمع مجمع في قرطاجنه تحت رئاسة كبريانوس (سنة ٢٥٥) للمذاكرة في هذا الشان وانقسم المجمع الى رأيين * فبعضهم قال ان الذين عمدهم الهراطقة تعميداً قانونياً لا يُعاد تعميدهم وفقاً للتسليم القديم وعمل الكنيسة العام . وآخرون قالوا بان المعمودية واحدة في الكنيسة والخارج عن الكنيسة ليست لهُ معمودية صحيحة * اخيراً قرَّر المجمع ان تُعتبَر معمودية الهراطقة غير صحيحةٍ . وان الراجعين الى الكنيسة من المعمَّدين عند الهراطقة يُعمَّدون . واما الذين سقطوا من الايمان

(١) تاريخ افسابيوس ٧ : ٥ ورسالة فرميليانوس وهي رسالة ٧٥ في عدد رسائل كبريانوس .

في كفرٍ او هرطقةٍ وكانوا معمَّدين في الكنيسة فلا يُعاد تعميدهم عند رجوعهم ضدًّا لاعتقاد نوباتيانوس. وهذا القرار أُعلن برسالةٍ مجمعيةٍ للذين سألوا * ثم اجتمع مجمعٌ آخر ايضا مولَّفًا من ٧١ اسقفاً (سنة ٢٥٦) وقرَّر ما قرَّرهُ الذي قبلهُ . واعلن قرارهُ للبابا استفانوس[1] * وكان من جملة ما كتب آباء هذا المجمع لاسقف رومية قولهم:

«اننا نرفع هذه الرسالة اليك ايها الاخ الحبيب لتقف على حقيقة الامور رعايةً لرتبتنا العامَّة وكرامتنا المتبادلة . وبرهانًا للمحبة الخالصة والشركة * ولنا الثقة بتقواك الحقيقي وايمانك ان كلَّ ما هو نقويٌّ وحقيقيٌّ يكون حسنًا عندك ايضاً * وقد علمنا ان بعضاً لا يريدون ان يرفضوا ما يتعلمونهُ اول مرةٍ . ولا يمكن ان يغيّروا عزمهم بسهولةٍ . بل انهم مع المحافظة على رباط السلام والاتحاد بين الاخوة يحافظون على خصوصياتٍ قام استعمالها عندهم من اول مرةٍ * فما كان مثل هذه الخصوصيات نحن ايضا لا نعصبهم فيهِ ولا نسنُّ شريعةً لاحدٍ . لان كلَّ رئيسٍ حرٌّ بارادتهِ في سياسة الكنيسة وهو سيقدم للرب حساب اعمالهِ»[2]

فلما اخذ استفانوس هذه الرسالة لم يرُق لهُ عمل الاساقفة الافريقيين فجمع مجمعاً في رومية ورفض فيهِ رسالة مجمع قرطاجنة وكتب لاساقفة المجمع رسالةً حتميةً وقال لهم «يجب عليكم ان لا تحدثوا شيئاً بل ان تجروا على التسليم وتقبلوا بوضع الايدي فقط الذي يأتي اليكم من اية هرطقةٍ كان . لان الهراطقة انفسهم لا يعمدون الذين ينتقلون من هرطقةٍ الى أُخرى . بل يقبلونهم قبولاً بسيطاً في شركتهم»[3] . ثم انهُ تهددهم بالقطع اذا اصروا على قرارهم * فلما وقف كبريانوس

(١) قرارات المجمع في رسالة ٧ وذوسيثاوس ١ : ١٦ : ٢ (٢) رسالة ٧٢ لكبريانوس (٣) رسالة ٧٤ لكبريانوس

على هذا الجواب استغربهُ واعتبرهُ استبدادًا محضاً . وانكر على استفانوس خضوع كنيسة افريقيه لاستبدادهِ . ورفض رأيهُ . وكتب رسالةً الى بوميبوس احد اساقفة افريقيه ضد استفانوس . وكان من جملة ما كتبهُ قولهُ «اننا لا نجد مثل هذا القرار (اي قرار استفانوس) لا في الانجيل ولا في الرسائل ولا في اعمال الرسل. وباطلاً يقاومنا بعضٌ مستندين على العادة وهم مغلوبون من البراهين العقلية . كأنَّ العادة تعلو على الحقيقة او كانهُ لا يجب ان نجري في الروحيات على ما أُعلن من الروح القدس انهُ الافضل» *[1] على ان الاساقفة الافريقيين كتبوا كتاباً اخوياً آخر . وارسلوهُ الى البابا استفانوس * ولكنَّ البابا لم يُرِد ان يحضر امامهُ رسل المجمع . ولم يسمح لهم ولا بمأوى . بل جاوب جواباً اكثر حدةً من الاول سمَّى فيهِ كبريانوس «رسولاً كاذباً وعاملاً غشاشاً»[2] . وهكذا حكم بالقطع على اساقفة افريقيه كما حكم قبلاً على اساقفة الشرق . وكان ذلك داعياً لتبادل المكاتبات بين فرميليانوس اسقف قيصرية وكبريانوس اسقف قرطاجنه. ولاتحاد اساقفة الشرق واساقفة افريقيه ضد راي الاسقف الروماني * فجمع القديس كبريانوس مجمعا كبيرًا (سنة ٢٥٦) مولفًا من سبعة وثمانين اسقفاً ومن قسوس كثيرين وشمامسة وحضرهُ ايضاً كثيرون من الشعب وثبت فيهِ ماسبق وتقرَّر. ومحافظةً على روح المحبة والسلام اعلن ان اختلاف الآراء في هذا الموضوع لا يضرُّ ولا ينافي الاتحاد في الايمان ولا يفكُّ رباط اشتراك الكنائس .

هذا ما كان من تبادل العلاقات بين كنائس الشرق والغرب في مسألة صحة او عدم صحة المعمودية * وفيهِ نلاحظ ان القائلين بان بين تعميد الهراطقة وبدعة نوباتيانوس تقارباً يغلطون . لان دعوى نوباتيانوس تتعلق بالمعمَّدين عند

(١) رسالة ٧٤ (٢) رسالة ٧٥

الهراطقة . واما تعليم الاسيويين فيتعلق بالمعمدين في الكنيسة الارثوذكسية . وشتّان بين هذا وتلك * ثم ان التاريخ الذي سردناهُ عن كُرنيليوس واستفانوس وكبريانوس وسائر الاساقفة والمجامع لا تنطبق عليهِ دعوى المدعين برئاسة للبابا على الكنيسة . اولاً لان الاساقفة كانوا من تلقآء انفسهم يقبلون الراجعين من الساقطين واحياناً كانوا يقبلونهم بتوسُّط المعترفين لا بامرٍ اعلى من رئيس عام — ثانياً لان البابا كُرنيليوس لم يستطع ان يحكم على هرطقة نوباتيانوس شخصياً بل بجمعٍ كما ذُكِر — ثالثاً لان البابا كُرنيليوس كتب للبطريرك الانطاكي فابيوس في هرطقة نوباتيانوس هكذا « كما رأَت وقررت المجامع المنعقدة في رومية وايطاليا وافريقيه » ثم ذيَّل كتابهُ لهُ بفهرسٍ مستوفية اسمآء الاساقفة الذين اجتمعوا واسمآء ابرشياتهم واسمآء الاساقفة الذين لم يحضروا بالذات ولكنهم وافقوا كتابةً واسمآء بلادهم[1] . فلو كان البابا ذا سلطانٍ مطلقٍ فما الحاجة الى ذكرِ الاساقفة واستشهادهِ بهم ؟ ولما كان كُرنيليوس كتب لهُ بمناسبة ذكرِ قيام نوباتيانوس اسقفاً على رومية « انهُ لا يجوز ان يكون اسقفان في كنيسةٍ جامعة » فيدَّعي بعض الغربيين ان الكنيسة الجامعة هي الرومانية وحدها * ولكنَّ الشرقيين يدفعون دعواهم هذه بجملة براهين ضدها نذكر منها ما يوردونهُ عن رسالة مجمع انطاكية الى بولس السميساطي وهو « ان جميع الكنائس الجامعة متفقة معنا » ومن هنا يتضح ان الكنائس المكانية ايضاً تُسمَّى جامعة كما تُسمَّى الكنيسة المسكونية كلها * وقال المورخ سقراط[2] « كنيسة اسكندرية الجامعة » وهي كنيسة مكانية ايضاً * وقال جيلاسيوس[3] « كنيسة نيقوميديه الجامعة »[4] . فتكون تسمية كنيسة رومية كنيسةً

(١) افسابيوس ٦ : ٤٣ (٢) ٢ : ٢٢ (٣) خطاب ٢

(٤) راجع ما كتبهُ ذوسيثاوس ١ : ١٥ : ١ و ٢

جامعةً (اوبحسب اللفظ اليوناني كاثوليكية) لا على معنى الاختصاص بل على المعنى العام لكل كنيسةٍ جامعة — رابعاً انها تبادلت رسائل بين البابا كرنيليوس وغيرهِ من الاساقفة ومنهم كبريانوس . ومن مطالعة عنوان رسائلها تتأكد زهوق دعوى الغربيين * فان عنوان رسالة كبريانوس الى البابا كان دائماً هكذا « السلام من كبريانوس للاخ كُرنيليوس » ورسائل البابا كانت عنوانها هذه « السلام من كُرنيليوس للاخ كبريانوس » او « السلام للبابا كبريانوس » فكان البابا الروماني نفسهُ يسمي اسقف قرطاجنه اخاً . واسقف قرطاجنه يسمي بابا رومية اخاً . ومن هذا يتضح انهُ لا اثر للرئاسة الموهومة البتة * ثم ان البابا الروماني يسمي اسقف قرطاجنه « بابا » وهذا يؤيد ما ذكرناهُ وشرحناهُ عن هذا الاسم في اللمحة المثبتة في كتابنا هذا . ولا سبيل الى القول بانهُ سمَّاهُ بذلك عن تنازلٍ . لان التنازل من الاعلى للادنى لا يبيح للادنى ان يدَّعي مساواتهُ الاعلى . ومع ذلك نرى كبريانوس نفسهُ يدعو البابا اخاً لا رئيساً ولا مميَّزاً — خامساً ان العلاقات بين البابا استفانوس واساقفة افريقيه تؤيد راي الشرقيين ايضاً . فان الاساقفة فضلاً ان استقلاليتهم التي تتضح في اعمالهم ومجامعهم كتبوا لاستفانوس يبينون بصريح العبارة ان الحقوق بينهم وبينهُ متبادلة . وكانوا هم يسمونهُ كما رأينا اخاً حبيباً لا رئيساً ولا راعياً . وذكَّروهُ بان كل اسقف حرٌّ في ابرشيتهِ وانهُ ليس عليهِ ان يعطي جواباً عن فعلهِ الاَّ للرب الذي هو رأس الكنيسة فاين هذه الكتابات من دعوى المدَّعين السلطة على الكنيسة ؟ على ان استفانوس نفسهُ مما كان عليهِ من الاستبداد ما استطاع ان يكتب او يفوه بشيء بلا قوة المجمع . فاين ذلك ايضاً من الدعوى بالسلطة على المجامع ؟ ولكي يحيط علم القارئ بعدُ دعوى الغربيين عن الصواب وقوة براهين الشرقيين نستوفي الحوادث التاريخية

بين البابا استفانوس والاساقفة الشرقيين

فان فرميليانوس اسقف قيصرية لما بلغهُ عمل البابا استفانوس ضدهُ وضد المجمع ارسل سفارةً اليهِ لتقنعهُ بدوام السلام والمحبة . ولكنَّ استفانوس عاملها كما عامل سفارة مجمع قرطاجنه ولم يسمح لها بسقفٍ تبيت تحتهُ . وكان فرميليانوس اخذ رسالةً من كبريانوس ضد استفانوس . فلما عادت السفارة اليهِ خائبةً وعلم بما عاملها بهِ استفانوس كتب لكبريانوس رسالةً طويلةً ضد آراء واعمال استفانوس ندرجها بتمامها معرَّبةً عن اصلها اليوناني وهي هذه :

السلام من فرميليانوس الى كبريانوس الاخ بالرب

اما بعد فاننا ايها الاخ الحبيب قد اخذنا رسالتك من روغاتيانوس شماسكم المحبوب واعترفنا للرب بالمنَّة على نعائهِ العظيمة باننا وان كنا بعيدين بالاجساد ومنفصلين بالحس بعضنا عن بعضٍ . لا نزال متحدين بالروح . كأننا في بلدٍ واحدٍ مقيمون . او بالحري كاننا في بيتٍ واحدٍ عائشون * والي الموقن هذا كل اليقين . لعلمي ان بيت الرب الروحاني بيتٌ واحدٌ كما قال النبي « ويكون في الايام الاخيرة جبل الله ظاهراً وبيت الله على قمم الجبال يجتمعون فيهِ بسرورٍ » وفقاً لما طلب داود في زبورهِ : ان يسكن في بيت الرب طول ايام حياتهِ * وقد اوضح في احد مزاميرهِ ان الرجال القديسين يحبون الاجتماع معاً اذ قال « هوذا ما احسن وما اجمل ان يسكن الاخوة جميعاً معاً » * فان الاجتماع معاً والسلام والاتحاد يلذُّ لذةً عظيمةً لا للمؤمنين من الناس والعارفين الحق فقط . بل للملائكة السماويين انفسهم . كما جاء في كلام الله « ان فرحاً عظيماً يصير في السماء بخاطئٍ واحدٍ يتوب ويرجع الى رباط الاتحاد » * ولو لم يكن الملائكة متحدين معاً . لما قيل فيهم هذا القول وهم في السماء عائشون * ولكن كما انهم

يلتذون ويمتلئون فرحاً وسروراً عندما نجتمع نحن معاً ونكون متحدين . هكذا تنعكس حالهم عندما يرون العكس . فانهم يحزنون اذا راوا بعضاً مبتعدي الافكار ومنقسمي الآراء . لا يدعون الربَّ الواحدَ بفكرٍ واحدٍ وعزمٍ واحدٍ . بل بآراء متفرقةٍ . حتى انهم لا يتحدون لا في اقوالهم ولا في تعاليمهم * على ان المنَّة واجبة لاستفانوس (البابا) في امرٍ واحدٍ فقط وهو انهُ بعتوهِ صار سبباً لمعرفتنا وخبرتنا ايمانكم وحكمتكم * غير ان استفانوس لم يعمل شيئاً اهلاً للمنَّة في هذا الاحسان الذي نلناهُ . لانهُ ولا يهوذا الذي سلَّم المخلص بما طُبع عليهِ من الغشِّ والمكر حتى تحررت الامم والعالم كلُّهُ بهِ يستحق شيئاً من المنة كأنهُ بفعلهِ صار سبباً لكل هذهِ الخيرات * ولكن لنترك الآن ما عملهُ استفانوس لكي لا يكون ذكر وقاحتهِ داعياً لكدرٍ اعظم لنا نظراً لقباحة ما فرط منهُ * فاننا لما علمنا انكم قد قررتم مسألة استفانوس وفقاً لقانون الحقيقة وحكمة المسيح . امتلأنا سروراً لا يوصف وشكرنا الرب شكراً جزيلاً . اذ وجدنا في اخوتنا البعيدين عنا هذا البعد العظيم كل هذا الاتفاق والاتحاد في الايمان والحق * فان نعمة الله تستطيع ان تضم المتفرقات بعضها عن بعضٍ في المكان مهما كان تفرُّقها وتربطها برباط الاتحاد والمحبة . كما كان من امر الانبياء حزقيال ودانيال وغيرهم في القديم . الذين قاموا بعد ايوب ونوح بازمنةٍ كثيرة . وقد جمعتهم قوة الله برباط الروح المتفق . فاعتقدوا بالالهام الالهي اعتقاداً واحداً . وهم بعيدون بعضهم عن بعض بعهدٍ طويل من الزمان . وهذا الامر عينهُ قد تمَّ فيكم الآن . لانكم انتم ايضاً بعيدون عنا بمسافة المكان . ولكنكم انتم ونحن مرتبطون بالفكر وبالروح ارتباطاً واضحاً . وذلك بالاتحاد الالهي * لان الرب الساكن فينا واحدٌ هو . وهو يضم برباط الاتحاد الذين لهُ في كل مكانٍ . الذين لهذا السبب قد خرج نطقهم في

كل الارض * فان الذين يرسلهم الرب · اذا حفظوا رباط الاتحاد · يسرعون في سبيلهم · فيما ان التقارب والانضمام الجسدي لايفيد شيئاً اذا تفرقت النفوس. كما ان المنفصلين عن الاتحاد الالهي لايمكنهم ان ينضموا · لانهُ يقول « ها الذين يباعدون انفسهم منك يهلكون » * غير ان هولآء ومَن كان مثلهم هم بلا بدٍّ تحت حكم الرب وقصاصهِ لعدم رضوخهم لاقوالهِ · وهو قد ترجَّى الآب لاجل الاتحاد وطلب اليهِ قائلاً « يا ابتاه · كما اننا انا وانت واحدٌ اجعل هولآء ان يكونوا واحداً فينا »

اما نحن فاننا نقبل ما كتبتموهُ كأنهُ منا · وهو محفوظٌ في ذاكرتنا بعد اننا راجعناهُ مراتٍ عديدةً بتمعُّنٍ وتدقيق * فاننا لانبخس الفائدة الخلاصية بما اذا كررنا قراءة ذلك مراتٍ كثيرة لتأييد الحقيقة · او اذا اضفنا عليهِ شيئاً لايضاح البرهان عليها ايضاحاً اكثر * واذا كنا نضيف نحن شيئاً لا نفعل ذلك كانكم انتم تركتم ونحن كمَّلنا · لكن بما ان كلام الله يفوق علي طبيعة البشر · لا يستطيع عقل الانسان ان يدركهُ كلهُ ادراكاً كاملاً * ولهذا السبب عدد الانبياء كثيرٌ لتتوزع بكثيرين حكمةُ الله المتنوعة · فيؤمَر الاول منهم في التكلم بالنبوة بالسكوت عما يكشف للثاني * وعليهِ فالاقدمون فينا والمتقدمون منا نجتمع كل مدةٍ بلا بدٍّ لنستطيع ان ندير ما عُهد الى اجتهادنا وندبّر برأي عمومي ما يقتضي من الامور تبصراً اعظم · ونطبّب بالتوبة الساقطين من الاخوة والمجروحين من الشيطان بعد الحميم الخلاصي · لا بان ينالوا منا صفح خطاياهم · بل بان يرجعوا بنا الى اصلاح خطاياهم · ويضطروا ان يقدموا لله تأكيداً على ذلك * وبما ان رسولكم يريد ان يعود اليكم سريعاً وفصل الشتاء قد دخل نجيب عن محرَّراتكم بقدر الممكن فقط * فانكم قد جاوبتم استفانوس مجاوبةً حسنة جداً

عن قولهِ ان الرسل منعوا تعميد الراجعين من الهراطقة · وانهم سلَّموا ذلك الى المتأخرين عنهم ليحفظوهُ * فانهُ ليس من ناقص عقلٍ مثل الذي يصدق ان الرسل سلَّموا هذا التسليم · والامر واضحٌ ان الهرطقات القتَّالة قد ظهرت بعد الرسل * فان ماركيُن عينهُ تلميذ كارذن قد ظهر بعد الرسل بسنين كثيرة · وبعد ذلك بكثيرٍ ادخل التسليم الكاذب ضد الله · وقد انقاد ابيلّيس ايضاً الى تجاديفهِ · واضاف وزاد عليها ربوات تجاديف جديدة غيرها · مضادة للحقيقة والايمان · وغير محتملة * وكذلك امرُ ظاهر ايضاً ان والِنديُنس وباسيليدِس بعد رقاد الرسل اقلقوا كنيسة الله باكاذيب تضاد الشريعة * واما سائر الهراطقة فلا خلاف في انهم ادخلوا افكارهم الرديئة وارآءهم المعوجَّة بعد ذلك · اذ كانوا قد ضلوا كلٌّ واحدٍ منهم على نوعٍ · هذا في وجهٍ · وذاك في آخر * وهولآء كلُّهم قد أُدينوا من انفسهم وحكم عليهم قبل يوم الديتونة · اذ جاؤوا برأيٍ لا حجَّة لهُ ولا يقبل تعلُّلاً * فالذين يُثبتون معمودية هولآء القوم يجعلون لانفسهم حظاً مثل حظهم · ونظراً لمشاركتهم مثل هولآء هم يجلبون الحكم على انفسهم * على ان الذين في رومية (يعني الاساقفة الرومانيين) لا يحفظون في كل الامور التسليمات القديمة · وعبثاً يستندون على تثبيت الرسل (بطرس وبولس) * وهذا الامر يستطيع كلُّ واحدٍ ان يتحققهُ من انهم في تعييدهم ايام الفصح وعملهم اسراراً الهية غير ذلك لا يحفظون ولا يجرون بالتمام على كل ما هو جارٍ في اورشليم · لكنهم يعملون ذلك على وجهٍ مغايرٍ · كما انهم في ابرشياتٍ أُخرى ايضاً يغيّرون اموراً كثيرة بحسب مغايرة الامكنة والاسماء · ولكنهم لم يبتعدوا البتة لهذه العلل من سلام الكنيسة الجامعة والاتحاد معها · كما تجاسر استفانوس الآن ان يفعل بخرقهِ ضدكم السلام الذي قد اكرمهُ اسلافهُ معكم بالكرامة والمحبة

المتبادلتين * ثم انهُ (اي استفانوس) قد رشق على الرسولين القديسين بطرس وبولس لكنهُ تعيبهما بقوله ان هذا التسليم (يعني عدم تعميد الهراطقة) هو تسليمهما فيما انهما قد لعنا الهراطقة في رسائلهما وامرانا ان نبتعد منهم * ومن هنا يتضح ان هذا التسليم الذي يثبت الهراطقة ويقول ان لهم معمودية مبدأهُ من البشر اذ ليست معموديةٌ في غير الكنيسة * وحسناً اجبتم استفانوس في الرسالة عينها عن قولهِ : ان الهراطقة ايضاً يوافقوننا في المعمودية ولا يعمّدون الذين ياتون اليهم منا بل يقتصرون على طلب الاشتراك منهم . وان الضرورة توجب على زعمهِ ان نحذو نحن ايضاً حذوهم * فمع اننا برهنّا بكم ان اقتفاء اثر الضالين امرٌ مضحكٌ جداً نزيد على ما ذكرتم عباراتٍ يُستغنى عنها وهي : انهُ لا عجب في ما اذا نحا الهراطقة هذا النحو . والفروق فيما بينهم جزئيةٌ وهم متفقون جميعاً في الامر الاعظم اعني اتفاقهم في كيف يجدفون على الخالق مختلقين احلاماً واوهاماً لإلهٍ غير معروف * فان الذين اتفقوا في رفض حقيقة اللاهوت ينتج انهم يتفقون في فساد المعمودية ايضاً * ولكي لا نطيل المقال بجاوبتنا عن كل واحدةٍ من عقائدهم الرديئة الزائدة نكتفي بهذا المقال وهو : ان الذين لا يعتقدون ان الآب ربٌ حقيقيٌ لا يمكن ان تكون عندهم حقيقة الابن والروح القدس مثل المعروفين باسم « كاتافريجس » والطائبين ان يستعملوا النبوات الفارغة . الذين لا يمكن ان يكون لهم لا الآب ولا الابن ولا الروح القدس * وهولاء اذا سألناهم اي مسيحٍ يكرزون بهِ ؟ فيجيبوننا انهم ينادون بالذي ارسل الروح المتكلم بمونتانوس وابريسكس . فبما اننا لا نجد عندهم روح الحق بل روح الضلال نحكم بان رؤساء نبوتهم الكاذبة ضدّ الايمان بالمسيح ليس معهم المسيح * على ان سائر الهراطقة ايضاً اذ قد انشقوا عن كنيسة المسيح لا يستطيعون ان يملكوا شيئاً من السلطان والنعمة . لان

السلطان والنعمة هما في الكنيسة حيث يرأس المتقدمون سناً ولهم سلطان التعميد والشرطونية والترائيب . واما المبتدع (الهرطوقي) فلا يُسمح لهُ ان يرتب او يشرطن او يعمد او يعمل عملاً مقدساً روحياً . اذ هو غريبٌ من القداسة الروحية الموهّلة * وهذا الامر قد اجتمعنا من اجلهِ وقتاً ما في ايقونية . واجتمع معنا الذين في غلاطية وكيليكية وفي الابرشيات القريبة ضد الهراطقة . واثبتنا ان حفظهُ واجبٌ بكل دقةٍ وبكل ثباتٍ رغماً عن مقاومة بعض آخرين فيهِ * فبما ان استفانوس والذين يرون رأيهُ يدعون ان غفران الخطايا واعادة الولادة يمكن ان يمحا بمعمودية الهراطقة . وهم انفسهم يعترفون ايضاً بان الهراطقة ليس لهم الروح القدس . لصحناهم ان يفتكروا حسناً ويعرفوا ان الولادة الروحية من دون الروح غير ممكنة * فان الذين عمّدهم يوحنا قبل ان يُرسَل الروح القدس من الرب قد عمدهم بولس المغبوط مرةً ثانيةً بالمعمودية الروحية ووضع عليهم يدهُ لينالوا الروح القدس * فما دام بولس عمّد تلاميذ يوحنا وقد كانوا معمّدين منهُ . كيف نحن نقاوم ان يُعمّد القادمون من الهرطقات الى الكنيسة بعد تلك المعمودية المحرّمة والمخالفة الشريعة ؟ ما لم نعتقد ان اساقفة عصرنا اعظم من بولس حتى انهم يستطيعون ان يمحوا الروح القدس للقادمين من الراطقة بوضع اليد فقط . الامر الذي لم يكن صنعهُ في وسع بولس . لانهُ اولاً عمد بمعمودية الكنيسة الذين تعمدوا من يوحنا . وبعد ذلك اعظاهم الروح القدس بوضع الايدي * ثم ان هذا الامر ايضاً مملوءٌ من الخطإ وهو ظنٌ بعضهم انهُ لا يجب البحث في من الذي عمّد . لان المعمّد يستطيع ان يحصل على النعمة باستدعاء الثالوث باسم الآب والابن والروح القدس . وهذه تكون الحكمة التي كتب بولس انها في الكاملين * ولكن من في الكنيسة وصل وصولاً حسناً الى الكمال والحكمة ويستطيع ان

يدّعي او يؤمن ان مجرّد استدعآء هذه الاسمآء عاريةً يكفي لترك الزلات ولتقديس المعمودية؟ فان الفائدة والمساعدة تحصل حقيقةً متى كان في المعمّد روحٌ قدسٌ والمعمودية لا تُتمّم بلا الروح القدس* ولكنهم يقولون ان المعمّد على اية صورةٍ كانت يستطيع ان يحصل على نعمة المعمودية بصحة ضميرهِ وايمانهِ · وهذا ولا شك قول مضحكٌ · لانهُ لا يستطيع فكرٌ شريرٌ مملوءٌ من الخبث ان يُحدِر من السمآء تقديس الابرار · ولا يستطيع المؤمنون ان يخولوا الحقيقة المؤمنين ايماناً غير مستقيم * وقد اوضح الرب نفسهُ انهُ ليس كلُّ الذين يدعون اسم المسيح يُستجاب لهم ولا يحصلون كلهم على شيءٍ من النعمة بدعائهم حيث قال «كثيرون يأتون باسمي قائلين انا المسيح ويضلون كثيرين» · ولا فرق البتة بين المبتدع (المرطوقي) والنبي الكذاب · فكما ان هذا باسم الله او باسم المسيح يغشُّ ويخدع. كذلك ذاك بسر المعمودية يعمل مثلهُ · وكلاهما على الكذب مؤسَّسان يسعيان في خداع الاكثرين * وانا اريد ان احكي لكم قصةً جرت عندنا موافقةً لهذا الوقت:

فانهُ منذ اثنتين وعشرين سنةً تقريباً بعد القيصر اسكندر حدثت ههنا ربواتٌ من انواع المصائب واضرّت بالمسيحيين خصوصاً وبجنس البشر كلهِ عموماً * وحدثت ايضاً زلازل كثيرة متواترة خربت بلاداً كثيرة في كبادوكيه والبنطس · حتى ان الارض انشقت وابتلعت مدناً كثيرةً من اساساتها · ونشأ عن ذلك اضطهادٌ عنيفٌ علينا نحن المسمَّين باسم المسيح * فهذه الحوادث التي جرت بعد سلامٍ استمرَّ وقتاً طويلاً · بشللت امور المسيحيين بشللةً عظيمة · نظراً لمفاجأتها وعدم العادة عليها · وكان وقتئذٍ حاكماً في ابرشيتنا سيبيه يانوس الرجل المضطهد الشديد الكثير القساوة * فبينما كان المؤمنون يتموجون

وقتئذٍ في تلك العواصف ويهربون الى هنا والى هناك خوفاً ورعدةً من الاضطهاد تاركين اوطانهم ونازحين الى مدنٍ غيرها (لان الاضطهاد كان محصوراً عندنا وكانوا يستطيعون ان يذهبوا الى حيث شاؤوا) ظهرت بغتةً امرأةٌ متجننة كانت تدعو نفسها نبيّةً حاملةً روحاً (اي فيها سرٌ) · فكانت تسعى بقوة الشياطين العظام مدةً طويلةً اشغلت فيها الاخوة وخدعتهم · وكانت تصنع غرائب وعجائب وتدّعي بانها تحرّك الارض كلها لا بأن الارض كانت تستطيع ان تتحرك بامر الشيطان · ولكن لما كان الروح الخبيث يعرف بالزلازل احياناً كثيرةً قبل حدوثها فيتراءى بانهُ هو عازم ان يفعل ما سيحدث · فبلا شك يجذب بهذه الاكاذيب عقول كثيرين · فيقنعهم ان يطيعوهُ ويسيروا معهُ الى حيث يقودهم * واذ كان الشتآء قاسياً في ذلك الوقت جعل الامرأة ان تظهر ماشيةً على الثلج وغير مضرورةٍ البتة · وكان يقول انهُ متوجه سريعاً الى اليهودية والى اورشليم متظاهراً بانهُ جآء منها * وقد اضلَّ واحداً من القسوس وشماساً ايضاً فخالطا الامرأة وصار امرهما بعد ذلك معلوماً عند الشعب · ومن ثمَّ ظهر لهُ حالاً واحدٌ من المقسّمين وقد كان رجلاً صالحاً في سيرتهِ ومتعلماً تعليم الايمان المستقيم جيداً · فتحرك بتنشيط اخوة كثيرين شجعان في الايمان كانوا حضوراً هناك ونهض لمحاربة ومقاومة ذلك الروح الخبيث · وهذا الامر عرفهُ الشيطان قبل ذلك بقليل · فانهُ قال سياتي اليَّ محرّبٌ لا ايمان لهُ · غير ان ذلك المقسّم اشتدَّ بنعمة الله وقاومهُ مقاومةً قويةً وبرهن ان المظنون قبلاً قديساً انما هو روحٌ شريرٌ كبيرٌ · واما الامرأة التي كانت قبلاً تصنع صنائع كثيرة بحيل الشيطان وتخدع بها المؤمنين كانت لتظاهر بانها زيادةً على صنائعها تقدس الخبز وتتم سر الشكر بدعآء جليل وتقدم للرب ذبيحةً بدون سر الصلاة المعتادة ·

وكانت تستعمل كلمات السوء ال القانونية المعتادة (اي رفض الشيطان) وتعمد كثيرين. فتظهرانها لا تخالف قانون الكنيسة في شيء * فماذا نقول في هذه المعمودية التي عمدها الشيطان واستعمل الامرأة آلةً لها؟ أتحل استفانوس والموافقون لرأيه يقبلونها؟ سيما وانها لم تُترك علامة الثالوث ولا السوءال القانوني الكنائسي * وكيف يمكن التصديق بانهُ منح غفران الخطايا وتمت اعادة الولادة بالحميم الخلاصي تماماً موناسياً حيث كلُّ شيءٍ على نقليد الحقيقة (في ظاهره) ولكنهُ في الصحيح مفعولٌ من الشيطان. ما لم يزعم القابلون بمعمودية الهراطقة ان الشيطان يمنح نعمة المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس. ولا ريب في ان ضلال هؤلاء وخديعة الشياطين شيءٌ واحد اذ ليس لهم الروح القدس * او كيف ما يريدهُ استفانوس بقولهِ ان المعمدين من الهراطقة ينالون تقديس المسيح ليس مُخلاً؟ فانهُ اذا كان الرسول لا يكذب بقولهِ «ايها الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» فالذي اعتمدهناك بالمسيح قد لبس المسيح. واذا كان لبس المسيح فقد نال الروح القدس المرسَل من المسيح. وباطلاً يضعون عليهِ الايدي لينال الروح عند رجوعهِ. ما لم يكن الهراطقة عندهم المسيح (اذا كان الروح يُلبَس من المسيح) وليس عندهم الروح القدس * ومن كون روغاتيانوس الشماس الحبيب يريد ان يعود اليكم بسرعةٍ فقد قلنا باختصار ما ذكرتموهُ باسهابٍ وبكلامٍ وافٍ * فعلينا من ثمَّ ان نسأل مساعدي الهراطقة: ما قولهم في معموديتهم أجسديَّة هي ام روحية؟ فانها ان كانت جسدية فلا فرق بينها وبين معمودية اليهود التي يستعملونها بمثابة حمامٍ دارجٍ يغسلون بهِ اوساخهم. وان كانت روحية فكيف يمكن ان تكون معمودية روحية عند الذين ليس لهم الروح القدس؟ ولذا فالماء الذي يعتمدون بهِ ليس سراً بل هو حمامٌ جسديٌّ * واذا كانت معمودية الهراطقة كفواً لان تمنح اعادة

ولادة الميلاد الثاني فالمعمَّدون من الهراطقة ليسوا هراطقة بل يجب ان يُسمَّوا ابناء الله. لان الولادة الثانية بالمعمودية تلد ابناء لله * ولكن اذا كانت عروس المسيح واحدة فمن الواضح ان الكنيسة الجامعة هي وحدها التي تلد ابناء لله. لانها ليست عرائس كثيرة للمسيح اذ قال الرسول «اني قد خطبتكم لرجلٍ واحدٍ لاقدم للمسيح بكراً نقيةً»[1] وفي المزمور الرابع والاربعين «اسمعي يا ابنة وانظري وأميلي اذنكِ وانسي شعبكِ وبيت ابيكِ فيشتهي الملك حسنكِ» وفي الفصل الرابع من نشيد الانشاد «هلمي من لبنان ايتها العروس هلمي من لبنان فانكِ ستاتين وتجوزين من بدء الايمان» وفي الفصل الخامس «قد دخلتُ بستاني يا اختي العروس» وفي كل محلٍّ يتكلم عن شخصٍ واحدٍ. وعليهِ ليست جماعة الهراطقة واحدةً معنا. لان الزانية والفاسقة ليست عروساً ولا تستطيع ان تلد ابناء لله. ما لم يكن استفانوس يعتقد ان الهرطقة تلد وترمي والكنيسة تجمع المرميين وتربي الذين لم تلدهم كما لو كانوا اولادها. فانها لا تستطيع ان تكون اماً لاولادٍ غرباء. ولذا قد اوضح المسيح مخلصنا ان عروسهُ واحدةٌ واظهر هذا السر فقال في الفصل الحادي عشر من لوقا «مَن ليس معي فهو عليَّ. ومَن لا يجمع معي فهو يبدد» فان كان المسيح معنا والهراطقة ليسوا معنا فالهراطقة بلا بدٍّ هم ضد المسيح. وان كنا نحن نجمع مع المسيح والهراطقة لا يجمعون معنا فهم بلا شكٍّ يبددون * على اننا يجب ان نذكر شيئاً آخر قد ذكرناهُ ضرورةً وهو ان الكنيسة هي بحسب كتاب نشيد الانشاد «جنةٌ مقفلةٌ وعينٌ مختومةٌ وفردوسُ رمّانٍ مع اثمارٍ نفيسة»[2]. فالذين لم يدخلوا الجنة على الاطلاق ولم يروا الفردوس المغروس من الله صانعهِ كيف يستطيعون ان يعطوا لاحدٍ الماء الحيّ من الينبوع

(١) ٢ كو ١١: ٢ (٢) ٤: ١٢

المُقفلة داخلهُ والمختومة بالختم الالهي ؟ ولما كانت سفينةُ نوح رمزًا محضًا لكنيسة المسيح وقد خلصت الذين في السفينة . فيما كان الخارجون عنها يهلكون . نعلم جيدًا ان الكنيسة واحدةٌ وحدها فقط . كما قال بطرس الرسول في الفصل الثالث من رسالتهِ الاولى «هكذا انتم ايضًا تخلصكم المعمودية مثلها» . وقد اوضح بذلك انهم كما ان الذين لم يكونوا في السفينة مع نوح لم يتطهروا ولم يخلصوا بالماء . بل حالاً بادوا بالطوفان . هكذا الآن ايضًا كل الذين ليسوا مع المسيح في الكنيسة بل خارجًا عنها يهلكون . ما لم يرجعوا بالتوبة الى حميم الكنيسه الخلاصي * اما عمى وضلال القائلين بان غفران الخطايا يمنح في مجامع الهراطقة وهو ثابتٌ في اساس الكنيسة الواحدة التي بناها المسيح على الصخرة فسهلةٌ معرفتهُ من ان المسيح قال لبطرس وحده «كل ما تربطهُ على الارض يكون مربوطًا في السماء» وما بعد ذلك . وايضًا في الانجيل حين نفخ المسيح في الرسل وحدهم قائلاً «خذوا الروح القدس» وما بعد ذلك في الفصل العشرين من يوحنا . ويعني بذلك ان سلطان غفران الخطايا ممنوحٌ للرسل وللكنائس التي هم انشأوها بعد ما أُرسلوا من المسيح وللاساقفة الذين خلفوهم بحسب الوكالة . واما اعداء الكنيسة الواحدة الجامعة التي نحن فيها واعداؤنا نحن خلفاء الرسل الذين يباشرون ضدنا اعمالاً كهنوتيةً غير مباحةٍ ويصنعون مذابح رجسةً فلا فرق بينهم وبين فورح وداثان وابيروم . ولكونهم متعدين على الكهنوت مثلهم سوف يُعاقبون بعقاباتٍ مثل عقابهم لا يفلت منها المشاركون آراءهم . كما ان الذين وافقوا اولئك ايضًا وقتئذٍ على شرهم واشتركوا فيهِ بادوا مثلهم * اما انا فلا استطيع ان اطيق حماقة استفانوس الواضحة بهذا الصدد . فانهُ مع كونهِ يفتخر باسقفيتهِ كل هذا الافتخار ويدَّعي بانهُ خليفة بطرس الذي عليهِ تاسست اساسات

الكنيسة يُدخِل صخراتٍ كثيرةً ويقيم ابنيةً جديدةً لكنائس كثيرة (اي للهراطقة) مقرًا بان لتلك (الكنائس) معموديةً بسلطانها الخاص * فان الذين يُعمَّدون يولَدون بلا شكٍ عدد الكنيسة . والذي يقبل معموديةً اولئك (اي الهراطقة) يثبت ان لهم كنيسةً يولدها المعتمدون عندهم ولا يدري بانهُ خان الوحدة وسوَّد وجهها ومحا على نوع ما حقيقة الصخرة المسيحية * غير ان رسول الله يعترف بان اليهود لهم غيرةٌ وإن كانوا عميانًا بالجهل وتحت طائلة اثم ثقيل . واما استفانوس المفتخر بسدة بطرس بحسب الخلافة فانها لا تاخذهُ غيرةٌ البتة ضد الهراطقة وهو يهديهم قوة نعمةٍ عظيمةً لا قليلةً ويقول بانهم يستطيعون ان يرحضوا بسر المعمودية اد ناس الانسان العتيق . ويغفروا خطايا الموت القديمة . ويعملوا بالميلاد السماوي ابناء لله . ويرفعوا بخيرية الحميم الالهي الى الحياة الابدية * ولا ريب في ان الذي هو على هذا الجانب من العظمة ويمنح مواهب الكنيسة الالهية للهراطقة يشترك باوضح الوضوح مع الذين يصطنع لهم كل هذه النعمة . وعبثًا يرتاب في ان يوافقهم على سائر آرائهم ويجتمع معهم ويخالطهم في صلواتهم ويدخل معهم الى مذبحٍ واحدٍ * ولكنهُ يقول : ان اسم المسيح لهُ قوةٌ عظيمةٌ للايمان ولتقديس المعمودية وكلُّ مَن اعتمد باسم المسيح في اي مكانٍ كان ينال نعمة المسيح * غير اننا نستطيع بسهولةٍ ان ناتي بالجواب : فانهُ لو كانت المعمودية خارجًا باسم المسيح تستطيع ان تطهر الانسان لكان وضع الايدي هناك باسم المسيح نفسهِ يستطيع ايضًا ان يمنح الروح القدس . وهكذا يصير كلُّ ما يعملهُ الهراطقة من الامور الباقية حقًا وشرعيًا لكونهِ عُمل باسم المسيح . فما ذكرتم انتم في رسالتكم : ان اسم المسيح يفعل في الكنيسة فقط التي منحت لها النعمة السماوية من المسيح هذا وحدهُ يكفي لرفض العادة التي يظهرانهم يتشبثون بها ضد الحقيقة.

فمَن هو الاحمق الى هذه الدرجة حتى يفضّل العادة على الحقيقة ؟ ومَن لا يترك الظلام متى ظهر النور ؟ ما لم يكن انتفع اليهود من تمسكهم بالعادة القديمة حين جاء المسيح اي الحقيقة بكونهم تركوا طريق الحق الجديدة وثبتوا على عتيقهم . الامر الذي لكم انتم ايضاً ابناء افريقيه ان تقولوه ضدّ استفانوس * فانكم حين وقفتم على معرفة الحقيقة تركتم ضلال العادة . وعلى ذلك . اذ قد جمعنا نحن بين الحقيقة والعادة . ندفع عادة الرومانيين بعادة الحقيقة حافظين من البدء ما سلّمهُ المسيح والرسول . ولا نذكر ان هذا الامر بدأ عندكم . لانهُ ملاحَظٌ عندنا دائمًا اننا لا نعرف غير كنيسة الله الواحدة . ولا نعتمد بغير معمودية الكنيسة المقدسة . ولهذا السبب عندما ارتاب بعضٌ في معمودية الذين قبلوا انبياء جدّدًا . وهم على ما يظهر يعرفون مثلنا الآب والابن نفسهُ . اجتمعنا معًا عددًا كثيرًا في ايقونية وبحثنا في مثل هذه الامور باجتهاد كثير . واخيرًا حدّدنا ان المعمودية التي تُقام خارج الكنيسة مرفوضة * اما ما يودُّ بعضُ ان يحامي بهِ عن الهراطقة من قول الرسول في الفصل الاول من رسالته الى اهل فيلبي وهو : « حسبي ان المسيح يُبشَّر بهِ بغرضٍ كان او بالحق » فلا يحتاج الى جوابٍ البتة . لانهُ من الواضح ان الرسول لم يأتِ على ذكرٍ للهراطقة او لمعموديتهم في الرسالة التي قال فيها ذلك . وانما قولهُ يتعلق بالاخوة الذين يتكلمون بينهم بلا ايمان . اويقيمون على الايمان الظاهر . وذلك لا يحتاج الى بحثٍ طويل بل تكفي قراءة الرسالة ومعرفة ما قالهُ الرسول من الرسول نفسهِ * ولكنهم يقولون : ما هو يا ترى حظُّ الذين اتوا الى الكنيسة وقبلتهم بلا معموديةٍ كنائسية ؟ فالذين مثل هؤلاء اذا كانوا قضوا اجلهم فيخصون مع الذين وعظاؤهم ولكنهم ماتوا قبل المعمودية . ولا يجنون نفعًا من الحقيقة والايمان الذي تركوا الضلال

وجاؤوا اليهِ . وان كانوا لم ينالوا النعمة الكاملة فقد خُطفوا من الموت . واما الباقون في الحياة فليُعمَّدوا بمعمودية الكنيسة لينالوا غفران الزلات . لكي لا يلبثوا على رأي الآخرين في ضلالهم الاول . فيقضون اجلهم خالين من النعمة الكاملة * ولكن كم هو عظيمٌ اثمُ الذين يقبلون هؤلاء او يريدون قبولهم ؟ لانهم من غير ان يغسلوا ادناسهم بحميم الكنيسة ومن غير ان يعترفوا بخطاياهم يتناولون بوقاحةٍ فظيعةٍ جسد الرب ودمهُ غير مبالين بما كتبهُ الرسول : ان كل مَن يأكل الخبز ويشرب كأس الرب وهو على خلاف الاستحقاق يكون مجرمًا لجسد الرب ودمهِ * ونحن ايضاً حكمنا بان الذين عمَّدهم رجالٌ كانوا قبلاً اساقفةً في الكنيسة الجامعة ثم نالوا سلطان الدرجة الاكليرية (عند الهراطقة) لا يجب ان يُحسَبوا مع المعمَّدين . فالذي يأتي الينا وهو معمَّدٌ منهم نعتبرهُ غريباً وغير مشتركٍ بشيءٍ ونعمدهُ بالمعمودية الواحدة الحقيقية الكنائسية لينال حميم الولادة الثانية المحيي * غير ان بونًا عظيماً جدًا بين الذي سقط كرهًا مجبورًا من الاضطهاد والذي عصى الكنيسة بوقاحةٍ ودنس ذمةٍ وجدفٍ على الله اب المسيح وخالق كل العالم باقوالٍ كفرية * ولا يخجل استفانوس في دعواهُ ان الذين يرتكبون كل نوعٍ من الخطايا يغفرون الخطايا . وقولهُ هذا لا يفرق عن القول : بانهُ في بيت الموت يمكن ان يكونَ حميمُ خلاصٍ . فاين يكون اذن ما كُتب في الفصل الخامس من الامثال : ابتعد عن الماء الغريب ولا تشرب من عينٍ غريبة ؟ أو نترك ينبوع الكنيسة مختومةً ونأخذ ماء غريباً عوضاً عن مائك ؟ فانك متى اشتركت بمعمودية الهراطقة تشرب ولا شك من مائهم الموحَل . واذ تكون مطهَّرًا بتقديس الكنيسة لتدنس بملامسة الاقذار الغريبة . واذ تطرح عنك خوف دينونة الله تقدّم نفسك للهراطقة شاهدًا ضد الكنيسة . فانهُ مكتوبٌ :

ان الشاهد الكاذب لا يكون بلا قصاص (هذا في الفصل التاسع عشر من الامثال) بل انك تكون اشنع من جميع الهراطقة · لان كثيرين منهم متى عرفوا ضلالهم ياتوا اليك ليحصلوا على نور الكنيسة الحقيقي · واما انت فتساعد ضلال الآتين · واذ تعتم نور الحقيقة الكنائسية تجمع ظلام ليل الهراطقة · وفيما هم يعترفون بانهم خطأة وليس لهم شيء من النعمة وانهم لهذا السبب ياتون الى الكنيسة انت تحرمهم غفران الخطايا الذي يمنح بالمعمودية · وانت تقول انهم قد تعمدوا وانهم هم خارج الكنيسة قد حصلوا على نعمة الكنيسة. ولا تدري ان نفوسهم ستُطلَب منك في يوم الدين . انت الذي لم تسق العطاش ماء الكنيسة وقد صرت علة موت للمحبين الحياة وتسخط عليهم * فانظر كيف انت تشرع في ان تلوم القائمين ضد الكذب إماماً للحقيقة ملامة جاهل · فاني اسالك مَن هو حقٌ بان يسخط على الآخر؟ مَن من الاثنين : أَلذي قام مساعداً لاعداء الله او الذي يحارب عن حقيقة الكنيسة ضد مساعد اعداء الله ؟ ولكن من الواضح ان الجهال شجعان وغضوبون · لانهم من كونهم ناقصي الرأي والعقل يميلون بكل سهولة الى الغضب حتى ان الكتاب الالهي لا يعني احداً اكثر منك بما قاله في الفصل التاسع عشر من الامثال «ان هذا الشاهد الكاذب لا يكون بلا قصاص» * فانك قد بذرت خصومات في كل كنائس المسكونة لا تُعدُّ ولا تُحصى · ويا ليتك تعلم تحت اية خطيئة وضعت نفسك اذ انفصلت عن هولاء الناس جميعهم · لانك قد فصلت نفسك عن شركة الاتحاد الكنائسي اذ صرت عاصياً · واذ انك لا تريد ان تعاشر احداً صار الجميع يتحاشون حديثك · ولكن وصايا الرسول ايضاً لا تستطيع ان تجذبك الى قانون الحق والسلام · فان بولس قال في الفصل الرابع الى اهل افسس « فاسألكم انا الاسير

في الرب ان تسلكوا كما يحق للدعوة التي دُعيتم بها بكُلِّ تواضعٍ ووداعةٍ وأناةٍ محتملين بعضكم بعضاً بالمحبة · مجتهدين في حفظ وحدة الروح برباط السلام · جسداً واحداً وروحاً واحداً كما دُعيتم برجاء دعوتكم الواحد · وللجميع ربٌ واحدٌ وايمانٌ واحدٌ . معموديةٌ واحدة .الهٌ واحدٌ وابٌ واحدٌ هو فوق الجميع ومع الجميع وفي جميعكم» * فيا للعجب باي اجتهاد حفظ استفانوس هذه الوصايا والاقوال والنصائح الرسلية [illegible] مخلصية محافظاً اولاً على تواضع الحواس وعلى الوداعة ! فانهُ اي شيء اكثر تواضعاً ووداعةً من ان لا يوافق راي جمهور الاساقفة الكنيسيين الموجودين في كل العالم.وان يحرق السلام مع كل واحدٍ منهم بشكلٍ من اشكال الخلاف تارةً مع الشرقيين (الامر الذي لا تجهلونهُ انتم ايضاً) وتارةً معكم انتم المقيمين في الجنوب الذين استقبل اساقفتكم بصبر ووداعةٍ عظيمة حتى انهُ لم يؤهلهم للكلام معهُ على الاقل ؟ وبما انهُ كان يذكر المحبة ايضاً اوصى كلَّ الاخوية بان لا يقبلهم احدٌ منها ويجعلهم شركاء مائدتهِ حتى انهُ لم يمنع عن الوافدين اليهِ السلام والشركة فقط بل أحرمهم المنزل عينهُ ايضاً ! أهكذا تحفظ وحدة الروح باقران السلام بالانفصال عن وحدة المحبة والتغرُّب عن الاخوة والتمرُّد بحمية الخلاف الفظِّ ضد السرّ وضد الايمان ؟ فكيف يمكن ان يكون جسدٌ واحدٌ وروح واحدةٌ لانسانٍ مثل هذا ربما نفسهُ عينها ليست واحدةً لسهولة تقلُّبها وعدم ثباتها ؟ ولكن فلنترك امورهُ ولنفحص من وجهٍ أولى بالذي نتعلق بهِ المسألة * فان الذين يقولون بانهُ يجب ان يُقبَل المعمَّدون من الهراطقة لانهم نالوا نعمة المعمودية الشرعية · يقولون بان لنا ولاولئك معموديةً واحدةً ولا فرق بين الجهتين *ولكن ماذا قال بولس الرسول ؟ «ربٌ واحدٌ . ايمانٌ واحدٌ . معموديةٌ واحدةٌ . الهٌ واحدٌ» فان كانت معموديتنا ومعمودية

الهراطقة معمودية واحدة فبلا بدّ يكون الايمان واحداً ايضاً · وان كان الايمان واحداً فالرب ايضاً واحد · وان كان الربّ واحداً فبالتبعية يمكننا ان نقول بالاتحاد ايضاً · وان كان هذا الاتحاد لذي لا يمكن ان ينفصل ولا ينقسم موجوداً عند الهراطقة · فليس لنا بعد ان نطلب منهم شيئاً * فلماذا إذن لا نسميهم مسيحيين بل هراطقة ؟ فمن كونهِ ليس لنا وللهراطقة الهٌ واحدٌ ولا ربٌ واحدٌ ولا كنيسةٌ واحدةٌ ولا ايمانٌ واحدٌ ولا روحٌ واحدةٌ ولا جسدٌ واحدٌ فمن الواضح انهم ليست لنا ولهم معمودية مشتركة ولا شيء بيننا وبينهم مشترك · ولكن استفانوس لا تخجل ان يحارب الكنيسة عن مثل هولاء ويصنع شقاقاً في الاخوية من اجل الهراطقة · وفوق كل ذلك يدعو كبريانوس مسيحاً كذباً ورسولاً كاذباً وعاملاً غاشاً ذاك (اي استفانوس) الذي يستدرك ويرشق الآخرين بالزلات التي يعرفها في نفسهِ * واننا نتمنّى لهُ جميعنا (اي لكبريانوس) ان يكون معافًى مع جميع الاساقفة والاكليريين والاخوة الذين في افريقيه حتى اننا وان كنا بعيدين نستطيع ان نجتمع معاً ونحن متحدون في الآراء والنفوس »

هذا ما كتبهُ فرميليانوس للقديس كبريانوس · ومن نصّ الرسالة يتضح كل شيء عكس ما رسخ في عقول الغربيين من الاوهام برئاسة للبابا على الكنيسة * وان قلنا ان هذه الرسالة كانت من القديس فرميليانوس تطاولاً وخروجاً عن الحدود فتاريخ الوقائع ينفي ذلك · لان المجمع الاول المسكوني الذي هو وحدهُ حلّ هذه العقدة لم يحكم لا على فرميليانوس ولا على رسالتهِ بمثل ذلك البتة · وما زال فرميليانوس على علاقتهِ السلامية مع جميع الاساقفة معاصريهِ منهم القديس غريغوريوس المجائبي اسقف قيصرية الجديدة والقديس ديونيسيوس الاسكندري الذي كتب هو ايضاً رسالةً الى البابا استفانوس ينصحهُ ويحرضهُ

بها على السلام ويسمي فيها فرميليانوس رجلاً من اشهر الاساقفة كما سترى بعد قليل في قسمٍ من رسالتهِ * وقد عُقدت مجامع كثيرة في اسيا الصغرى بعد تاريخ الرسالة كان فرميليانوس ايضا رئيسها · منها المجمع الذي عُقد ضد بولس السميساطي بطريرك انطاكية المبتدع وفيهِ حكم على بدعتهِ بلا تفويضٍ من البابا وبلا اشتراك الكنيسة الرومانية اجمالاً ·

على ان لقديس كبريانوس ايضاً المعترف بهِ وبقداستهِ في الشرق والغرب لم تكن مقاومتهُ لاستفانوس اقل من مقاومة فرميليانوس · فانهُ فضلاً عما كتبهُ لفرميليانوس ضدهُ كما يتضح من الرسالة السابقة كتب ايضاً رسالةً الى البابا استفانوس نفسهِ من طرف اساقفة افريقيه ينصحهُ فيها على دوام الاتحاد · وقد ذكرنا منها شيئاً في ما سبق ·

فلنرجع الآن الى استيفاء التاريخ زيادةً للايضاح فنقول : لما رفض البابا استفانوس نصيحة القديس كبريانوس وبدلاً عن كل جوابٍ سماهُ نبيا كاذباً وعاملاً غاشاً اجتمع المجمع الكبير في افريقيه · فطلب منهُ كبريانوس اصواتاً حرّةً وقال للذين فيهِ « فالان وقت لان يقول كل واحدٍ منا ماذا يعتقد في هذا الامر عينهِ من دون ان نحكم على احدٍ في حقوق الشركة او نطردهُ و إن كان يذهب مذهباً مخالفاً · لانهُ ليس فينا من يقيم نفسهُ اسقفاً او يجبر الاخوة بخوفٍ وقهرٍ على ضرورة الاقتناع · لانَّ كلَّ اسقفٍ لهُ السلطان الذاتي في حريتهِ وسلطتهِ الخاصّة بهِ كما يستحسن هو · فكما انهُ لا يمكن ان يُحاكم من آخر · هكذا ليس لهُ ان يحاكِم آخر · بل جميعنا نتوقع حكم ربنا يسوع المسيح الذي لهُ وحدهُ السلطان ان ينصبنا في سياسة الكنيسة وان يحكم في عملك »[1]

(١) مجمع كبريانوس في قرطاجنة · وذوسيثاوس ١ : ١٦ : ٦

وفي رسالتهِ الى بومبيوس قال ايضاً عن استفانوس « ان صديق الهراطقة وعدو المسيحيين يقول بانهُ يقدم كرامة لله ويظن بانهُ حرَم كهنة الله المحافظين على حقيقة المسيح واتحاد الكنيسة . فان كانت الكرامة لله تُقدَّم على هذا الوجه وان كان خوف الله والشيء القانوني يُحفَظ من عبادهِ وكهنتهِ على هذه الصورة فلنرم سلاحنا ولنمدَّ ايدينا الى السبي »

وفي رسالتهِ الى كورنيليوس يصف استفانوس بوصف الضلال حيث يقول « بما انك اردت ان نُرسل اليك اجوبة اخينا استفانوس عن رسائلنا لتقف عليها فقد ارسلت اليك صورة جوابهِ الذي عندما تقرأهُ انتبه الى ضلالهِ باجتهادهِ في المحاماة عن الهراطقة ضد المسيحيين وضد كنيسة الله » الخ [1]

هكذا لبثت كلُّ فيئةٍ مصرَّةً على رايها وكاد الشقاق ان يستمرَّ ويضخُم سعيرهُ . ولكن مداخلة القديس ديونيسيوس بطريرك اسكندرية جعلت الخصام ان يقف على حدّهِ . فكتب الى استفانوس يقول لهُ « اعلم الان ايها الاخ ان جميع الكنائس المنشقة قبلاً في الشرق وما بعدهُ قد اتحدت . وجميع الرؤساء في كل مكانٍ متفقون في الراي وهم فرحون بالسلام الذي صار على غير انتظار منهم ذيميتريانوس في انطاكيه وثاوكتيستوس في قيصريه ومازبان في ايليَّة (اي اورشليم) ومارينوس في صور بعد رقاد اسكندر وابليودورُس في اللاذقيه بعد وفاة ثيليميدرُس وابليانوس في ترسوس وسائر كنائس كيليكيَّه وفرميليانوس

(١) هنا لا بد من ان يذكر القرآء الكرام ما كان من اصحاب البشير في بيروت ومن نصر لهم ضدنا في مسألة الاساقفة استفانوس وكبريانوس وكيف انكروا علينا قولنا : ان القديس كبريانوس قاوم البابا استفانوس وكتب ضدهُ . حالة كوننا ما ذكرنا الاَّ شيئاً قليلاً من كثير . (راجع مجلة الهدية سنة ١٨٨٧)

وسائر الكبادوكيَّه . وقد ذكرت اشهر الاساقفة فقط لكي لا اطيل الرسالة ولا اثقل الكلام * اما سوريَّه كلها والعربيَّه الذين تكونهم دائماً والذين ارسلتم اليهم الآن وبين النهرين والبنطُس وبيثينيه وبالاجمال الجميع في كل مكان ينهجون بالاتحاد والمحبة الاخوية مسجدين الله » . [1]

وبعد وفاة استفانوس وجلوس خلفهِ اكسيستوس على كرسي رومية كتب لهُ رسالةً نقتطف منها بعضها. قال « فانهُ (اي استفانوس) كان قد كتب قبلاً في ايليريوس وفرميليانوس وسائر اساقفة كيليكيه وغلاطيه والشعوب المجاورة لهم قائلاً بانهُ لا يشترك معهم لهذه العلة عينها اي لانهم يُعيدون على زعمهِ معمودية الهراطقة . وحقاً انها تقرَّرت كما اعلم في اعظم مجامع الاساقفة عقائد بان الآتين من هرطقةٍ يوعَظون اولاً ثم يُغسلون ويُطهَّرون من دنس الخميرة العتيقة . وقد ارسلت اليهِ ورجوتهُ في هولاء جميعهم » [2] ثم انهُ كتب ايضاً رسائل غيرها لهذا البابا نفسهِ ولغيرهِ يظهر منها ان تعليمهُ كان موافقاً مبدئياً لكنائس اسيا وافريقيه بان معمودية الهراطقة مرفوضة ولكنهُ استثنى من هذا القانون بعض المنشقين المختلفين اختلافاً قليلاً عن الكنيسة في العقائد [3] . ونظراً لحبهِ السلام والاتحاد لم يقطع علاقاتهِ مع الكنيسة الرومانية . بل كان يجتهد ان يقرب قلوب اساقفة رومية الى الاتحاد والسلام مع الكنائس * ومما ساعد على اطفاء وقيد الخصام بين الكنائس الاضطهاد الذي اثارهُ القيصر واليريانوس على الكنيسة (سنة ٢٥٧) . فانهُ اولاً اصدر امراً بنفي الاساقفة ومنع اجتماع المسيحيين منعاً قطعياً [4] . ثم اصدر امراً آخر (سنة ٢٥٨) حكم فيهِ بان يُسلم جميع الاساقفة

(١) تاريخ افسابيوس ٧ : ٥ (٢) افسابيوس ٧ : ٥ (٣) ٧ : ٩
(٤) افسابيوس ٧ : ١٠ — ١١

والقسوس والشمامسة الى الموت وان يجرَّد جميع الموظَّفين المسيحيين من وظائفهم وتوخذ كل اموالهم واملاكهم . وان لبثوا مصرين بعد هذا القصاص على اعتقادهم ان تُقطع رؤوسهم * وفي هذا الاضطهاد استشهد القديس كبريانوس والبابا اكسيستوس وشماسهُ لافرنديوس الذي طلب منهُ حاكم المدينة خزينة الكنيسة فاحضر اليهِ البتامى والارامل والفقراء عوضاً عنها . وهذا السبب حُكم عليه بان يموت مشوياً على مصبَّ محمىّ .

ومع كل ذلك ما زال الخلاف مستمرًّا والمسألة في تعميد الهراطقة والمنشقين غير محلولةٍ الى ان حسمها المجمع المسكوني الاول (سنة ٣٢٥)[1] وبعدهُ الثاني (سنة ٣٨١)[2] * وقد اعترف المجمع بمعموديةٍ واحدةٍ وحدَّد ان لا يُقبَل بعضٌ من الهراطقة الاَّ بالمعمودية لان معموديتهم المعروفة انما هي بالفعل غير صحيحةٍ لعدم ارتباطها بالاعتراف بالثالوث الاقدس * والبعض الآخر ان يُقبلوا بلا معموديةٍ لكون المعمودية المتمَّمة عليهم لبثت غير فاسدة ولا ممسوسة من آرائهم لتعلقها بمواضيع أُخرى لا تمس المعمودية .

فمما تقدم يتضح : اولاً ان الكنيسة القديمة ما كانت تعتبر اساقفة رومية سوى واحدٍ من اساقفة الكنيسة المتآزين كما تقدم — ثانياً ان الاحكام والقضايا ما كانت تخولها او لغيرها لِلمجامع وبنوعٍ خصوصيٍّ للمجامع المسكونية — ثالثاً ان ايضاح القديس كبريانوس مساواة الاساقفة في السلطة ونفيهُ حصرها في واحد وعدم اعتبارهِ حرم استفانوس حقاً لخروجهِ عن القانون . وتسميتهُ اياهُ اخاً وتسمية ديونيسيوس الاسكندري لهُ كذلك والحكم عليهِ بالضلال وما شاكل ذلك . هذه كلها امورٌ غنيةٌ عن كل ايضاح لفساد رأي المدَّعين بسلطة اسقف

(١) قانون ٨ و٩ (٢) قانون ٦

واحدٍ على الكنيسة * على ان المحامين عن هذه السلطة يوردون عبارةً كتبها القديس كبريانوس ليحتجوا بها عن سلطة رومية وهم لم يفهموه حق فهمها . ومن باب الاستطراد نوردها ونحرر معناها استكمالاً للموضوع :

قال القديس كبريانوس وهو يكتب في وحدة الكنيسة[1] «ما تعريبهُ» ان الرب بني كنيستهُ على واحدٍ وهو بطرس وامرهُ ان يرعى خرافهُ . ومع انهُ منح لجميع الرسل بعد قيامتهِ سلطاناً متساوياً بقولهِ لهم «كما ارسلني الآب كذلك انا ارسلكم» و«إن تركتم لقوم خطاياهم تُترَك لهم وان امسكتموها على قوم أُمسكت» مع ذلك لكي يوضح الوحدة المبدوءة من واحدٍ جعل بدء هذه الوحدة في سلطانهِ الخاص * فكل ما كان بطرس هو عينهُ كان ايضاً بلا بدٍّ الرسل الباقون . لانهم نالوا الكرامة والسلطة اسوةً لهُ * غير ان البداءة تنبعث من الوحدة . لتتضح كنيسة المسيح واحدةً . فالذي ليس على الاتحاد مع هذه الكنيسة أَلعلهُ يستطيع ان يظن بثقةٍ انهُ على الايمان ؟ والذي يقاوم ويضاد الكنيسة العلَّهُ يثق بانهُ في الكنيسة ؟ على ان بولس المغبوط يعلِّم هذا الامر عينهُ ويبرهن سرَّ الاتحاد بقولهِ «جسدٌ واحدٌ وروحٌ واحدةٌ كما دُعيتم برجاءٍ واحدٍ . ربٌّ واحدٌ . ايمانٌ واحدٌ . معموديةٌ واحدةٌ . إلهٌ واحدٌ»[2] * فعلينا ان نتمسك بهذه الوحدة تمسُّكاً ثابتاً ونُدافع عنها . لاسيما الاساقفة الذين لهم الرئاسة في الكنيسة . لكي نبرهن ان الكنيسة واحدة غير متقسمة * ولا يخدعنَّ احدٌ الاخوة بكذبٍ . ولا يفسدنَّ احدٌ حقيقة الايمان بمعصيةٍ كفريةٍ . فان الاسقفية واحدة وكل واحد يملك قسماً كاملاً منها . والكنيسة واحدة تنمو بخصبها وتمتدُّ الى كثرةٍ واسعة» .

(١) ٤ و٥ (٢) اف ٤ : ٤ — ٦

فكلٌ يرى ان هذه الشهادة توافق رأي الشرقيين تماماً ولا تنطبق على مبادىء الغربيين ودعوهم بالسلطة . لان قول القديس «ان الرب منح لجميع الرسل سلطاناً متساوياً» ينقض مبادىء الغربيين وتعليمهم بتفاوت السلطة. وقولهُ «جعل بدءه الوحدة في سلطانهِ الخاص» ينقض مبادئهم وتعليمهم بانهُ جعلها في يد رسولٍ واحدٍ او سقفٍ واحدٍ . وقولهُ «كلُّ ما كان بطرس كان الرسل الباقون» ينقض مبادئهم وتعليمهم بان بطرس اسمى من الرسل . وقولهُ «ان الرسل لهم واحظٌ للسلطة والكرامة مساوياً لبطرس» ينقض ايضاً قولهم وتعليمهم بانهم هم في درجةٍ حقيقيةٍ عن درجة القديس بطرس. وقولهُ «ان الوحدة الاسقفية مقسَّمة على جميع الاساقفة» ينقض ايضاً قولهم وتعليمهم بحصرها في اسقف رومية وبانهُ هو ينبوع الكهنوت التي توزع منها النعمة لكل اسقفٍ . وبالاجمال يحرِّر معنى شهادة القديس كبريانوس بقولنا «ان كنيسة المسيح واحدة، لها اقسامٌ» ويجب على الاقسام ان تكون متحدةً بعضها ببعضٍ . وعلى افراد المؤمنين ان يكونوا متحدين بالقسم الذي هم فيهِ . وهكذا تقوم الوحدة وتكون كنيسة المسيح واحدة» وهذا هو تعليم الشرقيين عينهُ لا يتغير .

آ . ديونيسيوس بطريرك اسكندرية
واكيستوس وديونيسيوس أسقفا رومية

من جملة الحوادث التي صادفت القديس ديونيسيوس البطريرك الاسكندري هو انهُ اتفق ان كان في كنيستهِ رجلٌ ذال المعمودية من الخراطقة . ومن جرأة ذلك كان هو نفسهُ (اي الرجل) امرأً في صحة معموديته . وبعد اقامتهِ مدةً طويلةً في الكنيسة مشتركاً مع المؤمنين جاء الى البطريرك ديونيسيوس يطلب منهُ بالحاح ودموع ان يعمده . ولكن البطريرك لم يجب طلبهُ بل علَّمهُ وطيَّب قلبهُ من جهةٍ ومن جهةٍ أخرى صار محذراً في امرهِ نظراً لاصرار الرجل على طلبهِ * فانهُ كان يكتب للبابا اكيستوس اسقف رومية خضر لهُ ان يستشيرهُ في امرهِ فقال في رسالتهِ «فني بالحقيقة ايها الاخ اطلب النصيحة واستمد آراي منك في هذا الامر المهم الذي ورد عليَّ خوفاً من ان اكون غلطانًا فان مؤمناً من الاخوة المجتمعين يُظَن انهُ قديسٌ (في الكنيسة) اقدم من زمان شرطونيتي واظن انهُ مشترك في الكنيسة قبل اقامة المطوَّب الذكر ايراكلاس (يعني سلفهُ) وقد اتفق ان يكون من المعمَّدين تعميدًا على قفا اليد. فلما سمع السؤالات والاجوبة عند القدم في باكياً وذباً نفسهُ وكان يقع امام رجليَّ معترفاً ومنكراً باقسام المعمودية التي تعمد عند الخراطقة بانها ليست مثل هذه ولا شركة لهم معها لانها مملوءة كفراً وتجاديف وقائلاً ان نفسهُ قد تخشَّعت الآن تخشُّعاً عظيماً وليست لهُ دالةٌ ان يرفع عينيهِ الى الله ما دامت بداءته من تلك الاقوال والاعمال الشريرة . ومن ثم طلب ان يحصل على هذا التطهير والقبول والنعمة الصحيحة الخالصة . الامر الذي لم اجسر ان اعمله قائلاً ان اشتراكهُ زمناً كثيراً يكفي لذلك . فاني بعد انهُ سمع الشكر وقال معنا «آمين» وحضر الوحدة ومدَّ يديهِ لتقبُّل الغذاء المقدس وثانيةً يصلي ونشترك زمناً كافياً بجسد ودم ربنا يسوع المسيح لا نستطيع ان اجسر واعيد بداءتهُ مرةً ثانيةً من الاول . وقد امرتهُ ان يتشجع ويتقدم بايمان ثابت وضمير صالح الى الاشتراك بالقدسات . اما هو فما ينكف نائحاً ويجزع ان يتقدم الى

...نة وبالرجاء العظيم يكاد ألاَّ يطيق حتى الوقوف معنا في الصلوات »[1]

ثم ان حادثاً آخر تبادلت بسببه علاقات بين البطريرك الاسكندري ديونيسيوس والبابا الروماني ديونيسيوس خليفة اكسيستوس . وهو هذا:

فانهُ في منتصف القرن الثالث قام سابيليوس رئيس بدعة جديدة ضد تعليم الحق في الثالوث . وكان هذا المبتدع من بطولمائيس في ليبية بلاد مصر واقام اوائل حياته في رومية وتعلم فيها مدة . ويظهر ان اساس هرطقته كان كما سبق * فان ابراكسياس رئيس الهرطقة المعروفة بهرطقة مؤلي الآب (وهي نوع من انواع الهرطقات ضد الثالوث) جاء في اواخر القرن الثاني من اسيا الصغرى الى رومية وكان يعلم بدعته بلا مانع وسحب كثيرين الى هرطقته منهم البكتوريوس احد مشاهير رجاله * ثم ان ابيغونوس تلميذ نوبتوس الازميري وهو رئيس بدعة قريبة من بدعة ابراكسياس) جاء الى رومية ايضاً (سنة ٢١٥) وانضاف اليه كثيرون من اصحاب ابراكسياس منهم اكلاومانيس الذي استطاع ان يسحب الى الهرطقة البابا زفيرينوس اسقف رومية بمساعدة كاليسطوس الذي صار ايضاً بابا خليفة لزفيرينوس * وقد ذكر ايبوليطوس في فلسفيانه[2] ان كاليسطوس هذا كان رجلاً خبيثاً في الشر ومتلوناً في الضلال . وانهُ كان عبداً سُجن بسبب ارتكابات وأُرسل الى معادن سردينية ومن هناك عتق هو وغيره بتوسط مريم سرية القيصر كومودس . فاخذهُ البابا ويكتور وارسلهُ الى آنثيون (بقرب رومية) ومن بعد وفاة ويكتور اتخذهُ البابا زفيرينوس مساعداً . وكان هذا البابا رجلاً بسيطاً وجاهلاً القوانين الكنائسية محباً للهدايا والمال . فجذبهُ كاليسطوس الى هرطقة نوبتوس . وبعد وفاته صار هو بابا

(١) تاريخ افسابيوس ٧ : ٩ (٢) في تاريخ الهرطقات ٩ : ١٢

على رومية (سنة ٢١٧ — ٢٢٣) والَّف حزباً كبيراً لهُ بواسطة تساهله الى الساقطين والتائبين حتى صارت في ايامه هرطقة نوبتوس هي السائدة في رومية . ولكن القديس ايبوليطوس دافع عن الرأي القويم ضد البابا كاليسطوس وكان الارثوذكسيون في رومية يعرفونهُ هو اسقفاً بدلاً من البابا المهرطق . وقطعوا كل علاقة بينهم وبين البابا للاسباب الآتية ايضاً : اولاً . لانهُ كان بناء على مثل القمح والزوان وسفينة نوح يقبل في شركة الكنيسة بلا قصاص ولا قانون جميع المراطقة والمشاقين — ثانياً . لانهُ كان يدَّعي بان الاسقف وان ارتكب خطيئة مميتة لا يُقطع — ثالثاً . لانهُ كان يقيم رجالاً متزوجين زيجة ثانية وثالثة ويشرطهم اساقفة وقسوساً وشمامسة — ورابعاً . لانهُ سمح في ايامه أدخل استعمال المعمودية الثانية . هذا ما كان من امر البابا كالِّيستوس زفيرينوس وكاليسطوس واحوال كنيسة رومية في ذلك الوقت

ففي تلك الايام كان سابيليوس المصري في رومية وكان واحداً من اتباع اكلاومانيس المذكور امام مدرسة هرطقة نوبتوس . غير انهُ اخترع تعليماً مخالفاً لتعليمه . فاجتهد البابا كاليسطوس بوجوه متنوعة ان يجذبهُ الى آرائه ولم يستطع . ولذلك قطعهُ من شركة الكنيسة .[1]

فلما حضر سابيليوس الى بلاده اخذ يلقي بذار تعليمه فيها في اواسط القرن الثالث . فاضلَّ كثيرين بضلاله وانضاف كثيرون الى هرطقته حتى من الاساقفة ايضاً . وكان وقتئذٍ على كرسي اسكندرية القديس ديونيسيوس .

(١) رسائل القديس باسيليوس ٢١٠ و٢١٤ و٢٣٥ . اثناسيوس الكبير ضد الاريوسيين ٤ : ١١ و١٣ و١٩ و٢٣ و٢٥ . ثاودوريطوس في المراطقة ٢ : ٩ . ايفانيوس هرطقة ٦٢ : ١

فكتب منشورًا الى الاساقفة اموميوس وافرانور ضد تعليم سابيليوس واستنهض همّة الاساقفة الافريقيين الى الجهاد ضد هرطقته. وكان يجتهد ان يرجعهُ الى صحة التعليم المقدس ولكنهُ ما استطاع. فجمع مجمعًا في اسكندرية (سنة ٢٦١) حرمهُ فيهِ وكتب ضدّ تعليمهِ*وكان على كرسي رومية وقتئذٍ البابا ديونيسيوس كما تقدّم. ولما كان القديس ديونيسيوس الاسكندري استعمل في كتاباتهِ ضدّ تعليم سابيليوس عبارات أُخِذَت على غير معناها فام بعضٌ من كنيسة اسكندرية ووشوا بحقهِ في رومية انهُ يعلّم تعليمًا غير مستقيم. فجمع البابا ديونيسيوس مجمعًا (سنة ٢٦٢) طرح فيهِ المسألة. فحكم المجمع على عبارة ديونيسيوس الاسكندري وكتب ضدّها وضد هرطقة سابيليوس من دون ان يذكر اسم البطريرك. وارسل البابا صورة الواقع الى البطريرك ديونيسيوس وافادهُ عما قيل بحقهِ*وغير ان البطريرك ديونيسيوس الموصوف في التاريخ بدماثة الاخلاق وحب السلام والمسالمة تلافى الخصام الذي كان يحتمل ان يقوم في الكنيسة من اختلاف الاساقفة. ولما شعر بسوء فهم عباراتهِ كتب احتجاجًا وكشفًا اوضح فيها حقيقة معناها وموافقتهُ المجمع في الرأي القويم.

فمن هذين الحادثين يعترض المدعون بسلطة البابا قائلين: ان استشارة ديونيسيوس بطريرك اسكندرية من البابا اكليمنضوس تؤيدهُ امتيازًا ورئاسةً عليهِ. وخوفهُ من ان يكون غلطانًا يؤيد عصمة البابا. واعتذارهُ للبابا يؤيد السلطة ايضًا*غير ان الشرقيين يدفعون دعواهم الاولى بقولهم: ان استشارة البطريرك من البابا ليست دليلاً على رئاسة لهُ عليهِ للاسباب الآتية: ١ . لان الاستشارة ليست مختصّة في الادنى بالنسبة الى الاعلى. بل تكون تارةً من ادنى الى اعلى. وتارةً من اعلى الى ادنى. وتارةً بين متساويين — ٢ . لان ديونيسيوس ما استاذن من البابا استئذانًا بقبول او عدم قبول الرجل. بل بعد انهُ أجرى ما اجراهُ افاد البابا في إحدى رسائلهِ عما اجراهُ وطلب رأيهُ في ما اجراهُ في مسألةٍ نادرة الحصول. فلا عجب في ما اذا شاور اسقفٌ حكيمٌ اسقفًا حكيمًا في مثل ذلك. لان الرأيين افضل من الواحد* فان بولس الرسول ايضًا الذي خُطف الى السماء الثالثة. وشهد لهُ الرب بانهُ الاناء المصطفى. وقد تعلم الايمان من الرب نفسهِ. وكان افضل الناس جميعهم واعظم الرسل[1]. قد صعد الى اورشليم وعرض انجيلهُ للرسل جميعًا خوفًا من ان يكون تعب باطلاً[2]. فاية سلطةٍ تتبح للرسل من هذا العمل على بولس؟ وكذلك كبرُس بابا اسكندرية كتب ينصح نسطوريوس بطريرك القسطنطينية ولم يكن رئيسًا عليهِ. ومثلهُ يوحنا بطريرك انطاكية* والقيصر ثاودوسيوس كتب للقديس سمعان العمودي ان ينصح البطاركة كيرُس الاسكندريّ ويوحنا الانطاكيّ ويحرضهما ونوعًا ما يجبرهما ويامرهما وهو كان مرؤوسًا لا رئيسًا* ومجمع قيصرية ايضًا شاور اباغريغوريوس في سيامة ميتروبوليت. ولا احد يتصور ان المجمع كان خاضعًا لهُ[3] — ٣ . ان ديونيسيوس نفسهُ كان الواسطة في مصالحة كنائس اسيا وافريقيه ورومية. وكثيرًا ما نصح الباباوات الذين قبل هذا العهد. ومع ذلك لم يدّعِ لهُ احدٌ برئاسةٍ عليهم. وهو نفسهُ كتب لناوتُس المبتدع ان يرجع ويخلص نفسهُ واتباعهُ او نفسهُ على الاقل. فما ان ناوتُس كان في رومية من رعية البابا لا خاضعًا لهُ. وكتب ايضًا رسالةً الى المصريين ومنّ قوانين للتائبين[4] وكل ذلك كان بسلطانهِ الشخصي من دون تصديق احدٍ الى ان

(١) يوحنا الذهبي الفم جزء ٥ مقالة ٢٢ (٢) غلا ٢: ١ (٣) ذوسيثاوس ١: ١٧: ١
(٤) اقانيون ٦: ٤٥ و ٤٦

تصدق عليه من المجمع المسكوني . وكتب ايضاً لامم بعيدة منها الارمن وهم في كراسي غريبة عن ابرشيته وليس من يدعي له رئاسة على رؤساء كراسيهم . وليريناوس ايضاً نصح البابا ويكثر من لا يسبب في الكنيسة شقاقاً بسبب مسألة الفصح كما سبق القول [1] * فمن كل ذلك يتضح ان المشورة او النصيحة ليست برهاناً ولا استناداً تبنى عليه رئاسة البتة .

اما قوله للبروتستانت اخوفاً من اكون غلطاناً » فليس عن ثقة بان البابا لا يغلط كما يتوهم بعض الغربيين لان باباوين في ايامه كانا من رؤساء الهرطقة وهما زفيرينوس وكاليستوس . وآخر ايضاً بعدهما بقليل ذبح للاصنام في اضطهاد ديوكليتيانوس واقر وهو بابا بان الصنم آلهة ثم بادر الى مجمع مكافي (سنة ٣٠٣) في سينوبسا تائباً واعترف بالمسيح وقال اكيل الشهداء (سنة ٣٠٧) واسمه البابا مرسلينوس [2] فعبارة القديس ديونيسيوس ما هي الا عن تواضع يحكي لطف اخلاقه وسمو آدابه وتاكيد الحقيقة بان كل ابن آدم يغلط .

على ان الملابسات بينه وبين البابا ديونيسيوس واحتجاجه عن نفسه في ما فهم من محرراته على غير معناه لا تصلح استناداً لدعوى الغربيين للاسباب الآتية : ١ ° . لان البابا الروماني لا يدعي البابا الاسكندري للمحاكمة بل كتب له وافاده عما سمع عنه من مسه بالهرطقة . وكتب البطريرك الاسكندري محتجاً عما كتبه قبلاً وكاشفاً حقيقة معانيه بعبارات اكثر وضوحاً . وفي الكنيسة عادة قديمة ان يحتج المؤمن عن اعتقاده نحو الاعلى والادنى والمساوي . فان القديس اثناسيوس الكبير قد احتج عن نفسه الى القيصر قسطنطين ضد ما حكم

(١) افسابيوس ٧ : ٥ راجع صفحة ٦٦ (٢) راجع البابا داماسوس في البابوات ورسالة البابا يوفانوس الى القيصر مجائيل

عليه في مجمعي صور وميروت ولم يذكر البابا مطلقاً ولا استانف الحكم اليه . وهو نفسه كتب خبر القديس ديونيسيوس الذي نحن بصدده * وديونيسيوس نفسه قد صرح بعدم استحسانه تصرف البابا استفانوس بناء على ما عرفه عن تسليم افريقيه واسيا والمجامع وسلفه براكلاً كما رأينا في الشهادة المنقولة عنه (صفحة ٩٥) وهو نفسه لما دُعي الى مجمع في انطاكية ضد هرطقة بولس السميساطي ولم يستطع ان يحضر لكبر سنه وضعفه كتب رايه في المسألة وارسله الى المجمع ولم يحله الى البابا ولا وبخ المجمع لاجتماعه بلا رخصة من البابا * ثم انه كتب اربعة اجوبة باسبيديس قد احصتها الكنيسة بعد ذلك من جملة قوانينها وحل اعتراضات بولس السميساطي العشرة وكل ذلك انما عمله بنعمة الله وسلطانه الكنائسي لا بامر من بابا ولا برخصة من غيره * وقد جمع مجمعاً وحكم على هرطقة سابيليوس وكتب ضدها . وعقد مجمعاً ايضاً ضد رئيس بدعة في مصر اسمه نيبوس وحكم على هرطقته بلا معرفة البابا [1] * فمشاورة ديونيسيوس اذن اكليستوس مشاورة اخوية وجوابه للبابا ديونيسيوس ليست براهين تؤيد دعوى البابا وبين بل هي براهين على قلة براهينهم لا غير .

٣ . بولس السميساطي والقيصر اوريليانوس

كان بولس السميساطي رجلاً من رجال البلاط ذا اطوار رديئة وآراء باطلة . وكان في اول امره فقيراً ولكنه بوسائط غير مباحة اكتسب غنى عظيماً وبعد ذلك توصل الى انه صار بسماح الحبر استفانوس على كرسي انطاكية . وبدلاً من اسم الاسقف كان يسمى دوكس (اي والياً سنياً من الرتبة الاولى ذا معاش ٣٠٠

(١) افسابيوس ٧ : ٦ و ٧ : ٢٤

سنطرشيا تعادل ٢٥٩٦٠ افريكان . وكان مغرماً بالزخارف وبالفخفخة وملحقاتها . فما كان يخرج الا بهالة جندي امامه ومائة خلفه . وقد ابدل تراتيل الكنيسة بنشائد تُنشَد لمجده كانت ترتلها نساء ضمن الكنيسة . وكان يكلف الشعب ان يصفق له كلما خطب فيه ضمن الكنيسة . ثم انه سقط ايضاً في هرطقة فظيعة . فاجتمع ضده مجمع في انطاكية تكرر انعقاده مراراً . وكان المتقدمون في المجمع فرميليانوس اسقف قيصرية وثيوقريس الجائي اسقف قيصرية الجديدة واخوه ثيوذوروس وايليوس اسقف ترسوس وايماثاوس اسقف اورشليم وغيرهم كثيرون . ودُعي ايضاً القديس ديونيسيوس البابا الاسكندري ولكنه لم يستطع ان يحضر لعجزه وانحطاط صحته [1] . فارسل رسالة الى المجمع ورسالة الى بولس السميساطي عنوانها من ديونيسيوس ومشائخ كنيسة الاسكندريين الى بولس سلام بالرب . وحلّ له عشرة سؤالات . وكان بولس السميساطي حين يحضر ان المجمع يخفي مكنونه ويتظاهر بالارثوذكسية مملوءاً بالكلام . غير ان النفس الانطاكي ملكيُّن ابياني رئيس مدرسة انطاكية كشف برقع ضلاله في اخر جلسة (سنة ٢٦٦ او ٢٧٠ او على راي ملاتيوس ٢٧٢) . وحكم المجمع عليه بنزع وظيفته وانتخب بدلاً منه دومنوس اسقفاً على انطاكية وكتب منشوراً بحقه للبابا ديونيسيوس الروماني ومكسيموس الاسكندري (لان ديونيسيوس الاسكندري كان قد رقد في هذه المدة) . فاحتمى بولس بزينوبيا ملكة تدمر ولم يخضع لقرار المجمع . فطلب المجمع إجباره من القيصر الروماني اورليانوس . ولما بلغت الشكاية الى القيصر في رومية حكم بان تُعطى الاسقفية للذين يرسلها اليهم اساقفة العقيدة في ايطاليا ومدينة رومية . ثم انه لما غلب

(1) افسابيوس ٧ : ٢٠

الملكة زينوبيا طرد السميساطي من انطاكية . فقام دومنوس على كرسي اسقفيتها .

فالغربيون يتخذون عبارة قيصر رومية اورليانوس الوثني سنداً لرئاسة عامة وسلطة للبابا على الكنيسة بقولهم : ان اورليانوس لم يعرف اسقفاً قانونياً ما لم يكن متحداً مع اسقف رومية . ولكن الشرقيين يدفعون هذه الدعوى ببراهين كثيرة نورد منها ما ياتي : ١ . انها لما تصدرت الدعوى على السميساطي الى القيصر الروماني وعرف القيصر ان اسقف رومية وقتئذٍ كان ارثوذكسيَّ المذهب فالطبيعة كانت تقتضي منه ان يذكر اسقف رومية الذي اخذ ايضاً منشور المجمع وتداخل عند القيصر في مسألة السميساطي نظراً لاقامته في رومية مركز القيصرية وقتئذٍ . وما يثبت ان ذكر القيصر لاسقف مدينة رومية انما كان بالنسبة الى صحة مذهبه لا الى حقوق رئاسة له ذكره لاساقفة ايطاليا جميعهم لا البابا وحده بل ذكره ايضاً قبل البابا — ٢ . لو كانت عبارة القيصر الوثني تشهد للبابا بحقوق لكانت تلك الحقوق عامة له وللاساقفة الايطاليين الذين ذكرهم معه وقبله . وهذه النتيجة لا تنطبق على تعليم الغربيين بحصر الحقوق في البابا وحده — ٣ . لو كان شرط قانونية كل اسقف اتحاده مع البابا في المذهب لكانت الكنيسة من عهد طويل خالية من اسقف قانوني . لانا نجد في التاريخ ان باباوات هرطقوا وسقطوا وبعضهم ذبح للاصنام . وهؤلاء لم يتفق معهم جميع الاساقفة في ما فعلوا . فلو كان لاساقفة الغير المتفقين مع هؤلاء الباباوات غير قانونيين والمتفقون معهم هراطقة مثلهم حسبما نحن نجد اسقفاً قانونياً ؟ — ٤ . اذا كان زعم الغربيين ان اعتبار المالك لوثني الاساقفة المتحدين مع البابا وحدهم قانونيين ثابتاً . فاذا يقول الشرقيون في اعتبار المالك نسيبي الارثوذكسي ثيودوسيوس الكبير ايمان بطاركة المشرق في المجمع الثاني المسكوني وقوله بان الذي لا يوافقهم ليس اسقفاً ؟ ومع

ذلك ليس من الشرقيين مَن بنى على تلك الشهادة سلطةً عامةً لبطريرك الشرق اكثر من حقوقهم — ٥ · ان الشرقيين فضلاً عن تقيدهم اعتراضات الغربيين يعترضون عليهم من تاريخ بولس السميساطي عينه الاعتراضات الآتية وهي :

١ · ان المجمع المنعقد ضد السميساطي قد اجتمع بلا امر وبلا سؤال من البابا البتة · وذلك ينفي الدعوى بالسلطة — ٢ · انهُ حكم عليهِ ونزع عنهُ وظيفتهُ الاسقفية وشرطس غيرهُ بلا راي البابا وبلا مشورة منهُ — ٣ · انهُ حين عصى بولس على المجمع لم يشتكِ عليهِ البابا بل نفيصر الذي طالباً تنفيذ حكمهِ — ٤ · انهُ حكم وحدَّد قضايا في الايمان بلا معرفة البابا البتة — ٥ · انهُ لم يطلب من البابا تثبيتاً لاعمالهِ — ٦ · انهُ قد مدح في منشورهِ فرميليانوس اسقف قيصرية وغبطهُ وشهد لهُ بالخيرة والتقوى وسلامة الرأي مع ان فرميليانوس كان معتبراً من الرومانيين مخالفاً ومقاوماً لكنيستهم · والبابا استفانوس قطع الشركة معهُ ايضاً كما رأينا في ماسبق · وهو نفسهُ (اي فرميليانوس) صاحب الرسالة ضد البابا استفانوس التي ادرجناها في محلها — ٧ · في مقدمة اسماء الاساقفة المؤتمة على المنشور نجد اسم ايليوس اسقف ترسوس مع ان البابا كان حكم عليهِ وقطعهُ فلم تكن رتبتهِ كنيسة رومية · وهذا دليل آخر على عدم اعتبار حكم البابا خارج ايرشيتهِ — ٨ · ان المجمع حكم على السميساطي ولامهُ لتقلده وظائف عالمية · فاذا يجاوب الغربيون عن تقلد باباواتهم بعد الانشقاق الوظائف السياسية الملكية التي لم يزالوا الى الآن يشترونها — ٩ · المجمع لامَ السميساطي وحكم عليهِ بسبب كبريائهِ وتفخمهِ حين خروجهِ واقامتهِ كرسياً عالياً في الكنيسة واحتقارهِ الآخرين · ولكن الذي يقرأ تاريخ الباباوات بعد الانشقاق يرى اعظم من ذلك في تاريخ خروج البابا الجانيوس في فيرارا واحتقارهِ الملوك واساقفة

الشرق والغرب وجلوسهِ على كرسيٍّ شاهقٍ · وكذلك في تألُّه البابا اينوشنسيوس الثالث في مجمع لاتيران حتى افضت الحال الى خروج مليونات من الشعوب الغربية عن طاعتهم بسبب تلك الكبرياء · ولولاحتها — ١٠ · واخيراً · المجمع يامر باباوي رومية واسكندرية ان يكتبوا تقاريرَ بسلام القانونية للبطريرك الانطاكي الجديد ومنوس ويماخضه واجابا بلا مراجعة · فهذه كلها براهين تنفي كلَّ النفي دعوى الغربيين فضلاً عن كونها لا تثبتها · ونحن نكتفي بذكرها في هذا الموضوع وننتقل الى تاريخ علاقات الكنيستين في القرن الرابع ·

الفصل الرابع

في علاقات الكنيستين في القرن الرابع

١ · المجمع المسكوني الاول النيقاوي

الآن وصلنا في تاريخ علاقات الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية الى النقطة التي يتضح فيها حق الوضوح حقيقة مركز كل واحدةٍ منهما نحو الأخرى وحقوقها · لان العلاقات في المجامع الكبيرة ليست مثل العلاقات الافرادية تحتمل تأويل والتفسير وتُحمَل على السهو والشطط بل هي علاقات مهمة كلٌّ ما أُوجب فيها كان حقاً واجباً · وكلُّ ما سُلب فيها كان فعلهُ محظوراً ·

ولكنَّا نأسف من ان تقلبات الايام ونوائب الزمان احرمتنا اعمال هذا المجمع الكبير المقدس كما جرت جلسةً فجلسة بحرفها الواحد لنطَّلع فيها على تفاصيل ما جرى فيهِ ونلخصها عنها · ولكن ما لم تخدمنا بهِ الايام نستخدم لهُ

التاريخ (1) ومع التمحيص والانتقاد نحكي ما يتعلق بغرضنا من ذكر المجمع في هذا المؤلف .

كان في هذا العصر اسقفاً على كرسي روميه البابا سيلفستروس شيخاً مهاباً وقديساً فاضلاً . وعلى كرسي اسكندرية البطريرك الكسندروس . وعلى كرسي انطاكية البطريرك افسطاثيوس . وكان الداعي الى اجتماع المجمع المقدس اضطراب الكنيسة والزعاج المؤمنين من ظهور بدعة آريوس .

فان آريوس احد قسوس كنيسة اسكندرية قام في القرن الرابع من التاريخ المسيحي يعلم في لاهوت ابن الله تعالى غير مستقيم . وما لبث تعليمه ان انتشر في بلاد مصر وانضل كثيرين من الشعب ومن الاكليروس ايضاً . فتقدمت بحقه شكاية من قسيسين لمجمع في اسكندرية (سنة ٣٠٨) انه ينكر لاهوت المسيح وحكم عليه . فعزله بدلاً من ان يكف عن تعليمه كان يعلمه وينادي به اكثر فاكثر باصرار وعناد . فجمع البطريرك الاسكندري الكسندروس مجمعاً مؤلفاً من مائة اسقف ليبيين ومصريين (سنة ٣٢١) وحكم على بدعة آريوس حكماً رسمياً وقطع من الكهنوت هو واسقفان غيره (2) . ولكنه لما كان رجلاً عالماً ومتقشفاً ومحبوباً من كثيرين لم يكف عن اقامة الحكم وهو مقطوع ومجتذاب

(1) ان المؤرخين الذين يمكن الوقوف منهم على فقدان عن المجمع الاول هم افسابيوس ودوفينوس الاكبر ومقراط وصوزومينوس وثاودوريتوس وايفروديوس وعلى الخصوص جيلاسيوس كزيكيوس الذي كان في عصر الملك زينون سنة ٤٧٦ ثم صار اسقفاً على قيصرية فلسطين . وكتب جيلاسيوس ما يعظم اعمال المجمع . غير انه في الحقيقة تاريخ المجامع (دوسينانوس صفحة ١٠٨) (2) ايفانيوس ٦٠ : ٥ وثاودوريتوس ١ : ٤ . وصوزومينوس ١ : ١٧ . وسقراط ١ : ٦

الشعب اليه الى ان اضطر البطريرك ان يطرده ويكتب رسائل الى الكنائس يحقره ويحق تعليمه . فذهب آريوس الى فلسطين وكان يكتب من هناك للاساقفة ضد البطريرك الكسندروس . ويمشي تراتيل وتسابيح للشعب يعلمهم بها موافقته حتى الف لنفسه حزباً عظيماً في الشرق .

وصدف ان الملك قسطنطين الكبير كان في تلك الايام غائباً من محاربة ليكينيوس متغلباً عليه وظافراً به ونزل في نيقوميديه . وكان اسقف هذه المدينة واحداً من اشد انصار آريوس . ويظهر انه استمال رضى الملك لرئيس البدعة . وكان الملك يعرف من تقدم شيخاً جليلاً في رؤساء كهنة الكنيسة اسمه اوسيوس اسقف كوردوي في اسبانيا . حيث كان ابو قسطنطين المعروف باسم قسطنديوس خلوروس قيصراً مساعداً لمكسيميانوس ويكاريوس اوغسطوس القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية . واذ رأى قسطنطين ما كان حاصلاً من الاضطراب بسبب بدعة آريوس فكر ان يضع حداً للنزاع استدعى الاسقف اوسيوس وبعد مذاكرته مع اساقفة آخرين ايضاً قرر ان يرسل اوسيوس نفسه الى اسكندرية ليتوسط مصالحة البطريرك وآريوس . فزوده برسالة الى البطريرك الكسندروس والى آريوس ايضاً يحرضهما فيه على الاتفاق . فلما حضر اوسيوس الى اسكندرية ووقف على حقيقة الحال وعدم امكان المصالحة عقل راجعاً الى الملك بلا فائدة . ومن ثم عزم الملك قسطنطين ان يجمع مجمعاً مسكونياً يحكم في مسألة آريوس ويقرر مسائل غيرها ايضاً مختلفاً فيها كمسألة الفصح والعمودية وغيرهما . فارسل للمشورة الملوكي الى اساقفة المملكة ليجتمعوا وبعد مدة قليلة انعقد المجمع في مدينة نيقية مؤلفاً من ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفاً منهم البطاركة الاسكندري والانطاكي واورشليم وغيرهم . ولكن البابا

سيلبسترُس لم يحضر شخصياً بسبب شيخوخته بل ارسل نوّاباً عنهُ القسّيْن ويتُن وويكنديوس * وكان في صدر المجمع الملك قسطنطين الكبير ملاحظاً الراحة ومحافظاً على الهدوء والنظام فقط من دون ان يتداخل في مذاكرات وقرارات المجمع * اما رئيس المجمع فمختلفٌ فيهِ ولكن نرجّح ان اوسيوس نفسهُ كان الرئيس * فبعد ان افتتح في المجمع كفر آريوس وتباعهِ وتألف دستور الايمان بعبارةٍ صريحةٍ وحكم المجمع بانحلال على الذين لم يوافقوا على الدستور شرع الملك في تنفيذ قراراته وحفظاً للسلام في المملكة نفى آريوس وكثيرين من وصفائهِ في انحاء الى جهاتٍ متعددة .

فهنا يتضح كل الوضوح ما يأتي : ١ ° . ان البابا الروماني وقتئذٍ مهما كان عليهِ من الاحترام والشيخوخة لم تكن لهُ مداخلةٌ في المجمع تزيد عن مداخلة اي اسقفٍ كان في وقتٍ كان الدين المسيحي كلهُ تحت التهديد وكان من الواجب ان تظهر مداخلتهُ وتنفذ اوامرهُ وتكون عنايتهُ شاملةً الكنيسة كلها لتحفظها .

٢ ° . ان البابا فضلاً عن عدم مداخلتهِ كما تقدم ما حضر المجمع ولا اشترك فيهِ شخصياً بل حضرهُ نوابهُ فقط — ٣ ° . ان المجمع لم يجمعهُ البابا ولا استأذن الملك من البابا لكي يجمعهُ . ولا تمنّعت الكنيسة عن اجابة دعوة الملك بعلة وجوب استئذان البابا — ٤ ° . ان البابا كان في المجمع بشخص نوابهِ عضواً فقط ولم يكن لا رئيساً ولا آمراً ولا حاكماً البتة — ٥ ° . ان اساقفة المجمع كانوا كلهم تقريباً شرقيين ما عدا خمسة فقط كانوا من جهات الغرب — ٦ ° واخيراً . انهُ بعد حكم المجمع حالاً شُرع في تنفيذ قراراتهِ من دون مراجعة البابا وتصديقهِ منهُ اوسؤالهِ على الاقل * فمن هذا كلهِ نتج ان دعوى المدّعين بسلطةٍ للبابا على الكنيسة ما كانت معروفةً في الكنيسة القديمة اصلاً .

غير ان واحداً من المؤلفين الكنائسيين وهو جيلاسيوس كيزيكينوس ذكر في كتابهِ المعروف باعمال المجامع ان الاسقف الاسباني اوسيوس كان رئيس المجمع بالنيابة عن البابا وبالاشتراك مع القسّين ويتُن وويكنديوس . وعليهِ استند بعضهم وادّعى ان رئاسة المجمع المسكوني الاول كانت للبابا .

ولكن هذه الدعوى ساقطةٌ لسببين : الاول . لان اوسيوس ما كان مرسلاً من طرف البابا بل كان قبل انعقاد المجمع مقرّباً من الملك كما تقدم . وقد توسط الصلح ولم يستطع الفوز بهِ كما رأينا * وان صحّت رئاستهُ في المجمع (اذ هي موضوع اختلاف) لا يمكن للبابا تعلق فيها ولا نفعٌ منها . لانهُ أُعطيت لهُ نظراً لشيخوختهِ والقواهُ وشهرة اسمهِ وتقربهِ من الملك ووجاهتهِ عندهُ وسعيهِ في حسم بدعة آريوس . فضلاً عن انها ليست رئاسة حاكم بل رئاسة تقدّم فقط . والثاني . لان افادة جيلاسيوس المذكورة اعلاهُ لا اصل لها ولا صحة ولا مرجع يرجع اليهِ . وانما اختلقها من مخيلتهِ عن غير استنادٍ كما اختلق افاداتٍ كثيرةً غيرها مثلها . ولكي يتضح غلطهُ نورد عبارتهُ . قال :

« فلما رأى الملك الكنيسة مضطربةً جمع مجمعاً مسكونياً بانهُ دعا الاساقفة من كل مكانٍ بتقارير ليلاقوهُ في نيقيه لبيثينيه * فحضر الاساقفة من ابرشياتٍ ومدنٍ كثيرةٍ قال عنهم افسابيوس بامفيلياس في الكتاب الثالث من ترجمة قسطنطين ما هو بالحرف الواحد » الخ .

نقول : ان جيلاسيوس يذكر في هذه العبارة انهُ نقل عن افسابيوس كلامهُ بالحرف الواحد * ولكننا اذا قابلنا ما يقول انهُ نقلهُ عن افسابيوس على ما كتبهُ افسابيوس نجد فرقاً عظيماً وبوناً شاسعاً . ولكي يتضح الفرق بين الاصل والنقل نثبت هنا ما كتبهُ افسابيوس وما نقلهُ جيلاسيوس احدهما مقابل الآخر :

نقل جيلاسيوس	قال افسابيوس
«وقد اجتمع معاً نخبة خدام الله في جميع الكنائس التي كانت تملأ اوربا كلها وليبية (او افريقيه) واسيا. وبيت للصلاة واحد كان كأنه يوسع من الله فيسعهم داخله جميعاً السوريين والكيليكيين الخ. وكان جالساً مع الكثيرين اوسيوس اسقف الاسبانيين الذائع الصيت جداً مع قسي رومية ويثن وويكنديوس في مكان سيلبستروس اسقف رومية العظمى. وكان رئيس المدينة المالكة الآن (يعني القسطنطينية) غائباً لشيخوخته واسمه متروفانيس. ولكن قسوساً من عنده حضروا وقاموا مقامه منهم كان اكسندروس الذي صار بعده اسقفاً على المدينة عينها»[1]	«وقد اجتمع معاً نخبة خدام الله في جميع الكنائس التي كانت تملأ اوربا كلها وليبيه واسيا. وبيت للصلاة واحد كان كأنه يوسع من الله فيسعهم داخله جميعهم السوريين والكيليكيين. وكان اسقف الاسبانيين الذائع الصيت جداً واحداً جالساً مع الكثيرين. وكان رئيس المدينة المالكة غائباً لشيخوخته. وكان قسوس من عنده حاضرين يقومون مقامه»[2]

فالفرق واضح بين الاصل وبين النقل. وهوان افسابيوس ماذكراسم وكلاء البابا البتة ولا كرسي رومية ولا مكاناً له ولا اسم البابا ولا ان اوسيوس كان رئيساً بل قال انه كان واحداً جالساً مع الكثيرين. وافسابيوس كان حاضراً هونفسه في المجمع *واما جيلاسيوس فقد ذكر كل ذلك مدّعياً انه نقله عن افسابيوس أفلا يكون جيلاسيوس قد خرج عن قاعدة الصدق في ما قال ونقل؟ فما دامت دعوى الغربيين مبنية على ما قاله جيلاسيوس وقد اتضح ان قول جيلاسيوس

(١) جيلاسيوس في المجمع الخلقدوني ٣ : ٥ (٢) تاريخ حياة قسطنطين ٢ : ٧٠

فاسد فدعوى الغربيين فاسدة لان ما يُبنى على الفاسد فاسد ولا محالة * ونحن نؤكد ذلك قول جيلاسيوس من المورخ سقراط ايضاً الذي نقل شهادة افسابيوس وهي ما زالت في تاريخه كما هي في تاريخ افسابيوس لا كما نقلها جيلاسيوس[1]

ثم ان القديس اثناسيوس ايضاً كان حاضراً في المجمع وهو رئيس شماسة البطريرك الاسكندري الكسندروس. وكان اول المناضلين ضد هرطقة آريوس وقد ذكر اسم اوسيوس مراراً وقال انه كان رئيساً لكل المجامع. ومع ذلك لم يقل فيه ولا مرة انه كان نائباً عن البابا[2]

والمورخ صوزومينوس قال في تاريخه عن المجمع الاول «ان الملك جمع مجمعاً في نيقية البيثينية. وكتب لروساء الكنائس في كل مكان ان يحضروا في يوم معيّن. وقد اشترك في هذا الاجتماع من الكراسي الرسولية مكاريوس الاورشليمي وافسطاثيوس الانطاكي والكسندروس الاسكندري * غير ان يوليوس (كذا) اسقف الرومانيين لم يحضر بسبب الشيخوخة. وقد حضر عوضاً عنه ويثن وويكنديوس قسا تلك الكنيسة عينها»[3] * فهنا نرى المورخ : اولاً يعدد الكراسي الرسولية معتبراً اقدميتها مبتدئاً من الاورشليمي فالانطاكي فالاسكندري فالروماني — ٢ . انه بدلاً من سيلبستروس يذكر منهو ايوليوس الذي قام بعد المجمع بنحو ١٢ سنة — ٣ . انه لا يميز نواب البابا عن احد من الحاضرين بشيء فضلاً عن انه ما ذكرهم او نبه برئاسة على المجمع — ٤ . انه لم يذكر الاسقف اوسيوس مع نواب البابا البتة مع انه ذكر النواب باسمائهم * فاين تكون دعوى الغربيين من هذه البينات الواضحة ؟

والمورخ ثاوذور يتوس يقول «ان اسقف رومية لم يحضر بسبب الشيخوخة.

(١) ١ : ٨ (٢) الاحتجاج الثالث لاثناسيوس (٣) ١ : ١٧

وقد ارسل قسّين ليكون له علماً بما كانوا ملزمين ان يتذاكروا عليه ويوافق على قرارات المجمع التي كانت مزمعة ان تقرر»[1] فهذا يتضح ان الغاية التي حضر لاجلها نواب البابا لم تكن رئاسة المجمع ولا تثبيته بل معرفة قراراته والموافقة عليها. ويتضح ايضاً ان نواب البابا لما كانوا القسّين فقط وبتن ووكندیوس وحدهما ولا دخل لاوسيوس ولا لغيره معهما.

وما يستحق الانتباه: ان الاسقف الاسباني اوسيوس لم يكن في ايام المجمع الاول من الاساقفة الخاضعين لكرسي رومية. لان اسبانيا وفرانسا واكثر اقسام ايطاليا عينها ايضاً كانت وقتئذٍ قائمة بنفسها مثل كنيسة قرطاجنة الافريقية. فكانت كنيسة رومية تتقدّم على البقيات ولكن العلاقات بينها لم تصر علاقات خضوع الاّ في القرون المتوسطة * فعلى ذلك تكون دعوى البابين نيابة اوسيوس عن البابا على خضوعه له ساقطةً من اساسها بلا ريب. وصحة الحال هي ان الاسقف اوسيوس المعروف والمحترم من الملك قسطنطين ومن ابيه قسطنديوس قبله نظراً لمهابته وجلالة قدره وسمو فضيلته وتقدّم سنه انتخب من الملك والاساقفة رئيساً متقدماً في المجمع وكان رئيساً لسائر المجامع التي انعقدت في ايامه ضد بدعة آريوس. لانه هو بنفسه حضر الى الاسكندرية وفحص مسألة آريوس في منشإه وعرفها حق معرفتها فكان من كل الوجوه مناسباً للمتقدم في المجمع * وان قال قائل: ما دام البابا لم يكن معتبراً ذا سلطة على الغرب كله كيف حضرت من قبله نواب الى المجمع؟ قلنا لان البابا واحدٌ من اصحاب الكراسي الرسولية. وحضور نوابه لا يقتضي سلطةً له. لان اسقف القسطنطينية ايضاً ارسل نواباً عنه وهو في ذلك الوقت اسقفٌ خاضعٌ لاسقف

(١) ١:٧

هرقلية * ومع هذا تاريخ خضوع اسبانيا لها لا خلاف في انه متاخرٌ عن هذا الوقت بكثير الى القرون المتوسطة * فعلى ذلك يكون تاريخ المجمع الاول المسكوني النيقاوي نفياً تاماً وداحضاً لكل دعوى بوحدة سلطة الكنيسة في يد فردٍ من الاساقفة سواء كان البابا او غير البابا.

فننتقل الآن الى فحص القوانين التي وضعها المجمع وطالما تعلق بمسألة السلطة لنقف منها على مقدار صحة قول الشرقيين وقول الغربيين. لانها من اعظم المصادر التي يوثق بها للحكم في مراكز الاساقفة في الكنيسة.

فان المجمع الاول المسكوني سنّ عشرين قانوناً لم تزل بحمد الله موجودةً سالمةً الى عصرنا هذا. وهذه القوانين وسائر احكام المجمع ايضاً أنيط نشرها بكل واحدٍ من اساقفة الكراسي الاولية في ابرشيته. ومن جملتهم كيكيلانوس (اوسيسيانوس) الذي افريقيه واوسيوس في الغرب كله. ولم يُذكر شيءٌ بخصوص اسقف رومية البتة يتعلق بنشرها. فلا احد انتظر منه تصديقاً عليها ولا استاذن منه لينشرها * وكما ان مسألة نشر القوانين في الشرق والغرب تنفي صحة الدعوى بسلطان البابا هكذا فحوى القوانين ايضاً ينفيها نفياً واضحاً واليك البيان:

قال القانون الرابع * ينبغي ان يُقام الاسقف على الخصوص من جميع اساقفة الابرشية. فان كان هذا عسراً بما لضرورةٍ شديدةٍ او لبعد المسافة فلا بد من اجتماع ثلاثة مما بعد اشتراك الغائبين في الاصوات وموافقتهم كتابةً. وحينئذٍ يعملون الشرطونية * اما تثبيت الاجراءات فمنوطٌ في كل ابرشية بالميتروبوليت» * فهذا القانون فضلاً عن ايضاحه مساواة رؤساء الابرشيات بعضهم لبعض بلا امتياز هو ضد العادة المرعية اليوم في الغرب بان كل اسقفٍ عندهم حتى بطاركة الطوائف التابعة لهم (المعروفة بالمكتلكة) محتاجٌ الى تصديق

من البابا او بالحري ان هذه العادة الغريبة هي ضد قانون المجمع المسكوني وهي لاغية.

وقال القانون الخامس «لقد رأينا حسناً ان تُعقد مجامع في كل ابرشية مرتين في السنة. لكي تفحص امثال هذه المسائل (الكنائسية) باجتماع عمومي من جميع اساقفة الابرشية» وهنا ايضاً نرى مرجع المسائل الكنائسية لا الى البابا بل الى مجامع الابرشيات.

وقال القانون السادس «تُحفظ السُنَن القديمة التي في مصر وليبيه والخمس المدن بان تكون السلطة على هؤلاء كلهم لاسقف الاسكندرية. بما ان هذه العادة مرعية للاسقف الذي في رومية ايضاً. ومثل ذلك يُحفظ التقدم للكنائس في انطاكية وفي الابرشيات الأخرى. وبالاجمال ليكن واضحاً ان كل من صار اسقفاً بلا رأي الميتروبوليت قد حكم المجمع الكبير انهُ لا يجب ان يكون اسقفاً» واما اذا قاوم اثنان او ثلاثة عن عناد شخصي لصوت الجميع العام رغماً عن كونهِ مصيباً وموافقاً للقانون الكنائسي فيُعمَل بصوت الاكثرين»

وقال القانون السابع «بما انها جرت العادة والتسليم القديم ان يكون الاسقف الذي في إيليه (اي اورشليم) ذا كرامة. فلتكن لهُ التبعية في الكرامة. مع المحافظة على رتبة الميتروبوليت الخاصة بها»

فواضحٌ هنا ان هذين القانونين يثبتان لكل اسقف من اساقفة الكنائس الاولى دائرة رئاستهِ لانهما يثبتان امرًا جديدًا بل بناءً على العادة القديمة. وعلى الخصوص القانون السادس يثبت دائرة الكرسي الاسكندري الذي كانت حقوقهُ قد ديست من اسقف مبتدع اسمهُ ميليتيوس اسقف ليكوبولي قطعهُ القديس بطرس بطريرك اسكندرية بسبب هرطقتهِ. فساقهُ عنادهُ الى انهُ داس حقوق البطريرك وكان يقيم شرطونيات بلا رأيهِ. ولهذا السبب جدَّد

المجمع وثبَّت حقوق الاسقف الاسكندري المداسة لتكون مرعيةً في دائرتهِ كما ان حقوق اسقف رومية لم تزل مرعيةً في دائرتهِ * وكذلك حقوق الانطاكي وحقوق كل اسقف من الاساقفة المتقدمين * ثم قرَّر في القانون السابع ان تكون التبعية في الكرامة اي الجلسة للاورشليمي بعد الانطاكي * فهذه قوانين مجامع مسكونية صريحة تبين لكل اسقف دائرتهُ ولا تعين ولا تشير الى اسقف عامٍّ على كل الكنيسة. حالة كون المذاكرة في مثل هذه المسائل كانت توجب ذلك لو كان لهُ اصلٌ. او على الاقل كانت توجب وكلاء البابا ان يدافعوا عن حقوقهِ ويقرروها.

على ان الغربيين الذين تهمهم تلك الدعوى قد حكوا ليغيروا معنى القانون السادس حيث ورد ذكر اسقف رومية. ولكنهم لم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً. لان المجمع لم يسنَّ في هذا القانون شيئاً جديدًا بل ثبَّت العوائد القديمة التي خرقها ميليتيوس وأيَّد تلك العوائد في الشرطونيات وفي كل سلطة روحية للبطاركة وللميتروبوليتين ايضاً. وقال انهُ يجب ان تكون مرعيةً لهم كما ان عادة اي حقوق اسقف رومية مرعيةٌ لهُ في كرسيهِ. وهذا التفسير غنيٌّ عن كل تحريف. ويؤيدهُ: ١ـ الترجمة العربية القديمة اي النسخة الاسكندرية ـ ٢ـ يوسف المصري الشارح القديم لهذه القوانين ـ ٣ـ ترجمة ديونيسيوس الصغير الى اللاتينية ـ ٤ـ نسخة ايسيدورُس ميركاتور ـ ٥ـ واخيرًا ترجمة روفينوس اللاتيني نفسهِ * فما دامت هذه القوانين تشهد ان حقوق ادارة كرسي رومية محصورةٌ مثل ادارة كرسي اسكندرية. عبثاً يتصور اللاتين ان للبابا حقوقاً عامةً على العالم[1]

(١) راجع البدالتيون وكتاب دوميذاوس

اما القوانين الأخرى التي لم نذكرها فمضمونها لا يتعلق بموضوع هذا المؤلف. ولذا نضرب عن ذكرها صفحاً. ونختم المجمع الاول المقدس بهذه الملاحظة وهي: انه اثبات حصر سلطة البابا في ابرشيته من عمل المجمع ومن قوانينه وتصريح المجمع بان كل اسقف من اساقفة الكرسي الرسولية له حقوقه ضمن حدوده عن عدة وسنة قديمة ينفي كل دعوى بسلطة عامة مرجعها الى تاريخ هذا المجمع او الى تاريخ متقدمة حتى الى وقت الرسل. نعني بذلك ان هذا البرهان كاف لأن يقوم مقام جميع البراهين التي اوردناها من اول الكتاب الى هنا ويقطع كل اعتراض نقدم. فلننظر الآن في ما بعد ذلك من الحوادث.

٢. القديس اثناسيوس الكبير وكرسي رومية

من بعد انحلال المجمع النيقاوي المقدس شبت نيران المقاومات بين انحاب آريوس والاساقفة الارثوذكسيين [1]. وكان الملك وبلاطه منتصراً للارثوذكسيين ومدافعاً عن المجمع. ولكن ما لبثت الاحوال ان انقلبت الى عكس ما كانت. فان قسطنديا شقيقة الملك اوصت اخاها وهي على آخر نسمة بكاهن اريوسي كان رئيس اعترافها. واذ حصل هذا الكاهن على حسن الحظوة من الملك قسطنطين اقنعه بمساعدة افسابيوس اسقف قيصرية بان آريوس نفي ظلماً. لان ايمانه مثل ايمان المجمع. وهكذا اعيد آريوس من منفاه. ورفع للملك اعتراف ايمان ملتبس المعنى وطلب اليه ان يعيده الى مركزه. فانخدع الملك من دهائه وارسله الى مركزه في الاسكندرية (سنة ٣٣٠ او اعاد

(١) سقراط ١: ٢٣ — ٢٤ و٢: ١٧. اثناسيوس في كتاب الايمان ١: ١.

سائر الاريوسيين من منافيهم [1]. فاخذ الاريوسيون ان يسعوا بكل قواهم في اضطهاد الارثوذكسيين ومن ثم عقدوا مجمعاً في انطاكية (سنة ٣٣٠) حكموا فيه على اقسطاثيوس الانطاكي ونفوه بامر الملك ثم على اسكليباس اسقف غزة وافتروبيوس اسقف اذنه [2]. وكان في ذلك الوقت بطريركاً على كرسي اسكندرية بطل الارثوذكسية العظيم اثناسيوس الكبير خلفاً لمعلمه الكسندروس من سنة ٣٢٨ *. فلما وصل آريوس الى اسكندرية قام اثناسيوس مكيدته ولم يقبله. فظن الملك انه يفعل ذلك عن حقد على آريوس وتهدده بالنفي. وبتحريك اضداده الاريوسيين حضرت سفارة من حزب بدعة ميليتيوس في اسكندرية الى نيقوميديه ووشت به انه يجمع ضريبة ويدفعها لرجل عازم ان يملك بلاد مصر. ولكن اثناسيوس حضر واظهر كذبهم. فبراهين القاطعة حتى سر الملك وارجعه بكل كرامة الى مركزه [3].

غير ان الاريوسيين حبكوا لاثناسيوس شراكاً اخرى بواسطة الميليتيين ايضاً. وعقدوا مجمعاً ضده في قيصرية فلسطين سنة ٣٣٣ واقنعوا الملك ان يأمره بالحضور اليه والاحتجاج عن نفسه *. واذ كان اثناسيوس عالماً مكيدتهم أبى الحضور. فانتقل المجمع الى صور (سنة ٣٣٥) واستدعي اليه اثناسيوس. فحضر وحكم عليه فيه. فسافر الى القسطنطينية واستأنف الحكم الى الملك (سنة ٣٣٦). فعقد الملك مجمعاً كان فيه كثيرون من الآريوسيين وشوابه الى الملك انه يهدد المملكة بمنع القمح المصري عن القسطنطينية. وهكذا نفي الى

(١) صوزومينوس ٢: ١٦ و١٧ و٤: ١٤ وسقراط ١: ٢٢ و٢٥ و٢٦

(٢) ثاوذوريتوس ١: ٢١. سقراط ١: ٢٤. صوزومينوس ٣: ١٩

(٣) احتجاج ٢ ضد آريوس. ثاوذوريتوس ١: ٢٥. سقراط ١: ٢٧

مدينة تريرر في فرنسا (١) * اما آريوس فكان قد قبلهُ في شركة الكنيسة مجمعٌ غفير في اورشليم ولكن هذا العمل لم يكن كافياً لقبول الاسكندريين اياهُ * فدعاهُ الملك الى قسطنطينية بعد نفي اثناسيوس وامرهُ ان يقوم الاسرار هو وانصارهُ بالاشتراك مع الاسقف اكسندروس القسطنطيني * فتمنع الاسقف كثيراً * ولما لم ينفع التمنع دخل آريوس الكبير في كنيسة القديسة ايريني واحنى ركبتيهِ وتضرَّع الى الله اما ان ينزع حياتهُ او حياة آريوس * وكان اليوم يوم السبت قبل الاحد المعيَّن للخدمة * اتى مساء ذلك اليوم بينما كان آريوس في اعظم شوارع المدينة مع اصحابهِ اصابتهُ هيضةٌ قوية * فدخل بعض مخادع للافراز * وهناك مات اشنع ميتةٍ سنة ٣٣٦

وبعد وفاة ذلك قسطنطين (سنة ٣٣٧) تولَّى ابنهُ قسطنطين الصغير قسماً من الغرب وارجع البطريرك اثناسيوس الى كرسيهِ (سنة ٣٣٨) * ولكن القس الاريوسي تغلب على افكار اخيهِ الملك قسطنديوس سيد القسطنطينية واستمالهُ الى الاريوسيين * وهكذا كان حزب الاريوسيين يقوى يوماً فيوماً في المملكة الشرقية حتى ان اقسابيوس نصير آريوس اقيم اسقفاً على القسطنطينية في تلك السنة * فلما رجع اثناسيوس اخذوا يعتدون مجامع ضدهُ ويقدمون عليهِ شكاوي من جملتها انهُ رجع الى كرسيهِ بلا قرار مجمع * وقد اجتهدوا ان يضيفوا الى حزبهم بوليوس اسقف رومية * ولكن بوليوس لما وقف على تشكياتهم ضد اثناسيوس كتب لهُ وافاده عنها فانعقد مجمع في الاسكندرية (سنة ٣٣٩) وكتب منشوراً الى اساقفة المملكة يكذِّب فيهِ ما عُزي الى اثناسيوس من المطاعن * ولكن لعدائهم تلافوا مفعول المنشور في الغرب بانهم ارسلوا سفارة الى

(١) ثاودوريطوس ١ : ٢٩ و٣٦ . سقراط ١ : ٣٥ و٣٦ . واخطأ اثناسيوس

رومية حيث كان اثناسيوس ايضاً ارسل سفارة * وبطلب الفريقين جمع بوليوس مجمعاً يحكم بينهما * وفي ذلك اجتمع مجمع اريوسي في انطاكية في اوائل سنة ٣٤٠ وحكم بخلع اثناسيوس واقام بدلاً عنهُ رجلاً قاسياً اسمهُ غريغوريوس الكبادوكي * وهذا سافر الى اسكندرية بمساعدة الملك وضبط الكنائس بواسطة العسكر وبذلك الدم * فهرب اثناسيوس قبل الفتح الى رومية * حينئذٍ طلب اليابا ان يحضر مجمع انطاكية الى رومية * ولكن المجمع لم يجب دعوتهُ بل اعتبرهُ تعدياً * فاجتمع مجمع رومية سنة ٣٤١ وقرَّر مظاومية اثناسيوس * وكتب اليابا جواباً للذين في انطاكية يعنيهم فيهِ على عدم حضورهم * وحدث بعد ذلك ان اجتمع اساقفة كثيرون ثرتيون في انطاكية لتكريس كنيسة «الذهبية» * فعقدوا مجمعاً استمر ثلاث سنوات (من سنة ٣٤١ الى ٣٤٤) * وسنوا خمسة وعشرين قانوناً صادقت عليها بعد ذلك المجامع المسكونية * وحكموا على بدعة آريوس * ولكنهم ما صرَّحوا بموافقة دستور الايمان النيقاوي * انعقد مجمع في ميلان من الغربيين ومن الشرقيين الذين كانوا عندهم ورفضوا قرار المجمع الانطاكي معتصمين بدستور الايمان النيقاوي وبكذا انشقت الكنيسة الى شطرين * فحينئذٍ اتفق الغبصران قسطانس وقسطنديوس ان يعقدوا مجمعاً مسكونياً في سردیكي الواقعة على حدود المملكتين وهي تخص الغرب (١) * فارسل اليابا الذين عنهُ وكان اوسيوس الاسقف الاسباني رئيساً في المجمع * فطلب الغربيون ان يكون اثناسيوس عضواً في المجمع وانكر عليهم الشرقيون ذلك * ولما لم يتفقوا تركوهم

(١) سقراط ٢ : ٨ (٢) قال بعضهم ان سردیكي في من مدن بلغاريا على حدود تراكي واسمها الآن ترادجا * واخرون انها مدينة صوفيه * ويزعم انها قريبة من فيلبه على بعد ١٠٠ ميل من القسطنطينية على طريق تراكيا المتوسطة (بنيامين ٢٥٩)

ورجعوا الى قبله وعقدوا مجمعاً ضدهم حكموا فيه على اثناسيوس وغيره ووافقوا دستور ايمان مجمع انطاكية* ولكن مجمع سَرديكي وافق على دستور المجمع النيقاوي ومنح للبابا يوليوس نظراً لما اظهره من الثبات في الايمان القويم حق استئناف الحكم على الاساقفة اليه[1] * غير ان الاولين اهاجوا القيصر قسطنديوس ضد الارثوذكسيين. فتفاهم بعد انهم عادوا من مجمع سَرديكي والتجأ اثناسيوس الى القيصر قسطانس الارثوذكسي. وجاء اسقفان من مجمع سَرديكي يحملهما سفير من طرف القيصر قسطانس الى انطاكية ليتوسطوا ارجاع اثناسيوس عند القيصر قسطنديوس. فعاملهما استفانوس بطريرك انطاكية معاملة رديئة. ومن ثم عُقد مجمع في انطاكية سنة ٣٤٤ وقطع البطريرك. وفي هذا الاثناء مات غريغوريوس خاطف كرسي الاسكندرية. فدعي اثناسيوس الى كرسيه (سنة ٣٤٦) ووصل اليه في شهر تشرين الاول[2] * وبعد ان استقر على مركزه اخذ يحارب تعليم آريوس ويخلع الاساقفة الاريوسيين في كرسيه ويضع غيرهم ارثوذكسيين. فاخذت ان تتقدم الشكايات بحقه الى قسطنديوس* وفي سنة ٣٥٠ اذ مات قُسطانس الارثوذكسي وتكاثرت الوشايات ضد اثناسيوس من الاريوسيين ومن الملكة افسابيه الاريوسية قرينة قسطنديوس عقد الملك مجمعاً في أريلاتي (سنة ٣٥٣) اذ كان هو وقتئذٍ في فرانسا وغصب المجمع ان يمضي على حكم ضد اثناسيوس. فخضع وكلاء البابا وسائر الغربيين لاجباره ما عدا يوليوس اسقف تريير* فكتب له البابا ليبريوس حينئذٍ رسالة بحرية ضمير وطلب

(١) سقراط ٢ : ٢٠ . وصوزومينوس ٣ : ١١ . وثاودوريتوس ٢ : ٧ و٨ . واثناسيوس في الحجاجه (٢) اثناسيوس الى المتوحدين . وصوز ٣ : ٢٠ . وثاود ٢ : ٧ و٢٤ وسقراط ٢ : ٣٢ وغيرهم

اليه ان يعقد مجمعاً ثانياً. فعقد مجمعاً في ميلان سنة ٣٥٥ مؤلفاً من نحو ثلاثمائة اسقف اكثرهم غربيون. وبواسطة التهديد استحصل حكماً على اثناسيوس. اما الذين لم يمضوا على الحكم فقلدهم السلاسل الحديدية وارسلهم الى المنفى. ونفى اوسيوس الاسقف الاسباني وهو في سن شيخوخة يزيد عن مائة سنة. ونفى البابا لبيريوس ايضاً. وبعد ان منح اثناسيوس الامان من الملك جاء بفئة جنود ليقبضوا عليه وهو يصلي. فتمم صلاته وفرّ هارباً الى الديرة مصر (سنة ٣٥٦). وقام على كرسيه رجل عاتٍ قاسٍ متعصبٌ اسمه جاورجيوس الكبادوكي. وهكذا عمت قوة الاريوسيين كل المملكة الرومانية.

وحدث ان الاريوسيين اختلفوا بعضهم مع بعض في مذهبهم. فعقد القيصر مجمعاً سنة ٣٥٧ في سيرميون قرّر فيه قراراً يوفق بين المذاهب بحذف لفظة «الجوهر» من قوله «المساوي في الجوهر». وقد غضب البابا ليبريوس والاسقف اوسيوس ان يوقفا عليه جبراً. غير ان الارثوذكسيين في الغرب عقدوا مجمعاً في اجاق تبنوا فيه الدستور النيقاوي. واصحاب المذهب المتوسط بين الارثوذكسيين والاريوسية عقدوا مجمعاً في نكيرا سنة ٣٥٨) أتوا فيه دستور مجمع انطاكية ووافقوا في ما عدا المساواة الجوهرية واقنعوا القيصر ان يعقد مجمعاً. فعقد مجمعاً في سيرميون (سنة ٣٥٨) ثبت قرارات مجامع انطاكية ونيكيرا * واذ كان البابا ليبريوس قد سئم من المنفى مدة سنتين ونيف غرّه حب الرئاسة والراحة ان يقبل قرار المجمع الاريوسي فامضى عليه. وهكذا رجع الى كرسيه ساقطاً في الاريوسية. ولما كان البابا فيليكس قد قام خليفة له بعد نفيه كان يسوس كرسي رومية بالاشتراك معه الى الممات كما ترى في ما ياتي.

فلما مات قسطنديوس (سنة ٣٦١) قام الشعب الاسكندري على

جاوريجيوس الكبدوكي وقتله نظر للفظائع التي كان ارتكبها اتباعه لبطريرك اثناسيوس الى كرسيه في ايام الملك يوليانوس الغاصي وعقد مجمعاً (سنة ٣٦٢) ونظم احوال الكنيسة المتضعضعة . وكان يقبل المتأخرين في الكنيسة . فنفاه يوليانوس لنجاحه في الايمان . ولكن خليفة الملك يوليانوس الارثوذكسي ارجعه (سنة ٣٦٣) . غير ان الملك وانبس خليفة يوليانوس كان اريوسياً محقاً . فنفى اثناسيوس (سنة ٣٦٥) وبعد اربعة اشهر ونصف ارجعه . فاستمر على كرسيه بهدوء وراحة الى سنة ٣٨٢ وانتقل فيها بسلام بعد ان اقام ٤٥ سنة اسقفاً منها اكثر من عشرين سنة في المنافي .

هذا هو تاريخ حياة ووقائع تقديس اثناسيوس تفصيلاً واختصاراً . وفيه يعتبر الغربيون ان مداخلات البابا يوليوس في هذه الوقائع ورسالته الى الشرقيين المدين في انطاكية برهان على سلطة له عامة على الكنيسة . غير ان الشرقيين لا يرون من كل ذلك اثراً للاسباب الآتية : ١° . لما أرجع اريوس من المنفى الى اسكندرية لم أرجع بامر الملك من دون ان يسأل البابا عن ذلك ومن دون ان يعترض البابا على ذلك . وهذا مخالف لحقوق السلطة العامة الموهومة — ٢° . لما رفض اثناسيوس قبول آريوس لم يستأذن من البابا ولا استند على سلطان البابا بل رفضه بسلطانه البطريركي الخاص ولم يقم البابا حجة على ذلك . وهذا منافٍ ايضاً للسلطة العامة — ٣° . لما اجتمع مجمع انطاكية الآريوسي ونفى بطريرك اقسطانيوس وغيره لم يستشر البابا ولا احتجت اعماله الى تصديق من البابا ولا اقام البابا عليه حجة . وهذا منافٍ ايضاً للسلطة العامة — ٤° . ان عداة اثناسيوس لم يرفعوا دعواهم عليه الى البابا بل الى الملك . والملك لم يحل الدعوى الى البابا بل فحصها هو بنفسه . وهو ارجع اثناسيوس الى كرسيه ولم

يعارضه البابا في شيء من ذلك . وهذا ايضاً ضد السلطة العامة — ٥° . لما اجتمع مجمع قيصرية ضد اثناسيوس وأبى اثناسيوس الحضور ضد ارادته الى مجمع صور لم يهتم البابا ولا رفع دعواه عليه ولا عاتبه البابا على اهماله ذلك . وهذا ايضاً منافٍ لدعوى رئاسة عليا — ٦° . لما حكم على اثناسيوس في مجمع صور استأنف دعواه الى الملك ولم يستأنفها الى البابا . فاين الآن دعوى السلطة من هذا البرهان الناحض لها ؟ ومع ذلك لم يعتبر البابا عمل اثناسيوس محجفاً بحقه . فيا ترى أهل المدعين دعوى الرئاسة والسلطة يعرفون الاصول اكثر من البابا والبطريرك وخصوصاً اثناسيوس ؟ — ٧° . اذا فرضنا ان اثناسيوس نسي الاصول في كل ما تقدم . فكان عليه ان يفتكر بها حين حكم عليه وانفي الى تريير من الملك ومجمع القسطنطينية معاً ويستأنف دعواه الى البابا . ومع ذلك اخفى عنقة الفكر ولم يخطر على باله ما خطر على خاطر غيره اصحاب الدعوى . أفليس هذا دليلاً قاطعاً على عدم الاثر لتلك الدعوى ؟ — ٨° . لما قبل مجمع اورشليم آريوس لما استأذن من البابا ولا انتظر تصديقاً منه . ولما لم يقبل الاسكندريون عمل مجمع اورشليم لم يشكوا عليه الى البابا . ولما كلف الملك آريوس ان يخدم الاسرار لم ينتظر رخصة له من البابا . وهذه كلها امور منافية ومناقضة للدعوى . سيما تبرير ساحة آريوس والترخيص له بحقوقه الأولى برهان قوي على فساد الدعوى من اصلها . لانه لو كانت سلطة البابا هي العلة في الجامع لما كان الملك اعاد اريوس بلا معرفة البابا البتة . وان قالوا ان الملك قسطنطين الكبير تعدى الاصول ولم يراع الحقوق ولولا ذلك لما كان اعاد آريوس مطلقاً . قلنا ان هذا القول غير صحيح ولا يجوز ان تدعيه على الملك . لانه لو كان الملك قد خرق الاصول لما عقد مجمعاً البتة بل كان ارجع آريوس

من نفسه وهو قادرٌ على ذلك . ولكن لعلمه ان مجمعاً حكم على آريوس وان الاستئناف ضد المجمع لا يقام الاَّ في مجمع كان كما دعت الحاجة . فحص عمل مجمعي يعقد مجمعاً . فلو كانت لحضرة البابا حقوق لمَّا داسها ولمَّا خرج عنها . لانه انما كان يسعى وراء السلام كما يتضح من كل اعماله ـ ٩ . ان البطريرك القسطنطيني الكسندروس لما أُجبر على قبول آريوس لم يستند على وجوب الاستئذان من البابا ولا احتمى به . بل دخل الهيكل واحتمى بالله . وهذا دليلٌ قاطعٌ على عدم وجود سلطةٍ كنائسية فوق سلطته وسلطة المجمع غير سلطان الله ـ ١٠ . بعد وفاة الملك قسطنطين الكبير أرجع اثناسيوس الى مركزه من ابنه قسطنطين الصغير بناءً على وصية ابيه له) لا من البابا ولا بمداخلته * وهنا نلاحظ ان عمل هذا الملك بارجاع اثناسيوس أُعتبر استبداداً وأُنكِرَ عليه به . وهذه هي النقطة المهمة التي يتضح فيها من صورة الدعوى مركز البابا في الكنيسة . فصورة الدعوى كانت هذه : ان الملك مستبد لانه ارجع اثناسيوس الى مركزه بلا قرار مجمع * فلو كان للبابا أثر سلطةٍ لمَا كانت تقدَّم الدعوى على صورة أُخرى كقولهم مثلاً : انهُ ارجعهُ بلا رخصة من البابا ؟ فاي ايضاح اوضح من هذا الايضاح لمن لم يتضح لهُ الحق الواضح ؟ واي برهان اقطع من هذا البرهان لمن يعرف قدر البرهان ؟ ـ ١١ . اذا فحصنا مداخلات البابا الارثوذكسي يوليوس التي يستند عليها الغربيون نرى انها كانت مداخلات أُدخلت على البابا لا من البابا * لان حزب آريوس لما اراد ان يكثر انصاره ويزيد قوته اخذ يستميل اليه الكثيرين وخصوصاً رؤساء الكنائس الذين كان يوليوس واحداً منهم . ولما كتب البابا يوليوس للبطريرك اثناسيوس شكاوي الآريوسيين ضده وفُحصت في مجمع اسكندرية كتب المجمع منشوراً وارسله الى

الاساقفة ولم يرفع قراره الى البابا مع ان البابا كان سبب المجمع * ولما وصلت مقاومة اثناسيوس والاريوسيين الى رومية لم تحاكما امام البابا ولا اقامت البابا حكماً بينهما بل طلبا عقد مجمع وعقداه * ولما هرب اثناسيوس الى رومية عقيب اعتداء مجمع انطاكية الاريوسي عليه دعا البابا المجمع الى رومية . وهذه هي النقطة التي يستند عليها الغربيون . ولكن ماذا كان من المجمع ؟ قد رأينا ان المجمع رفض دعوة البابا واعتبرها تعدياً خارجاً عن دائرة حقوقه واعتبر قبول اثناسيوس في شركته مخالفاً للقانون لانه كان محكوماً عليه . وهاك فحوى جواب المجمع من كلام المؤرخ صوزومينوس . قال : « انهم (اي مجمع انطاكية) قد اقروا في مكاتيبهم بان كنيسة رومية مكرمة من الجميع لكونها دار رسل ومدينة ايمان حسن منذ القديم . وان كان معلمو الايمان جاؤوا اليها من الشرق . ولكنهم لم يعتبروا انفسهم ثانين عنها في ذلك . من حيث عدم امتيازهم عليها في عظمة او كثرة الكنيسة . لانهم امتازوا منها في الفضيلة والعزم . وكانوا يعدون جحةً على يوليوس شركته مع اصحاب اثناسيوس متكدرين ومعتبرين مجمعهم مهاناً وقرارهم ملغياً . فكانوا يرجعون ما جرى (من يوليوس) بانهُ خطأ ومخالف للقانون لكنهُ نسي . لان كهنة الشرق ايضاً الذين كانوا قبلهم لم يتصدوا الى مقاومة عند ما طُرِد ناواتيانوس من كنيسة الرومانيين »[1] . فاذن من هنا يتضح انهُ لو كانت دعوى السلطة على اساس لما كان المجمع سيلٌ ان يرفض دعوة البابا او يعاتبهُ على قبوله اثناسيوس . وان قالوا ان البابا عاتب المجمع على عدم الحضور . قلنا ان عتابهُ لا يؤيد لهُ سلطةً عليهم بل ينفي الدعوى بها نفياً محضاً ويشهد بان المحبة الاخوية وحدها كانت سندهُ في كتابته ودعوته حتى اضطرهُ الامر ان يحتج عن نفسه بقبول

(١) صوز ٣ : ٨ . سقراط ٢ : ١٥

اثناسيوس ولاجل زيادة الايضاح ندرج عبارات رسالة ابابا بحرفها قال :

«لقد قرأت التحاريرالمرسلة معقسيّ إليذيوس وفيلوكسينوس واستغربت كيف نحن (اي هو والجميع) كتبنا لكم بمحبة . وبذمة الحقيقة كتبنا لكم . وانتم ارسلتم بخصام على غير ما يليق . فان الرسالة تشير الى تشاغب وعجرفة الذين كتبوها . وهذه الامور غريبة عن الايمان بالمسيح . لانهُ كان يجب ان ما كُتب بمحبة يحصل على مكافأة مساوية بالمحبة لا بالخصام . أوليس هذا دليل محبة انا ارسلنا قسوساً ليلاطفوا المصابين ويحثوا الذين كتبوا على المجيء ليمكن ان تُحَلّ الامور باكثر سرعة وتُصلح ولا يكون اخوتنا تحت شدة (يعني الثاسوس) ولا يقدح فيكم البعض (يعني اثاسيوس وشركة) ؟ فيا ترى اي شيء جرى يوجب الكدر ؟ اوايُّ شيء كان يوجب كدركم مما كتبناهُ لكم ؟ سوى اننا قدمنا نصيحة ان تجيبوا مجمعاً ؟ وقد كان من الواجب ان تقبلوا هذا بفرح . لان الذين لهم ثقة في ما فعلوا وحكموا به كما يقولون لا يتكدرون مما اذا فحص حكمهم من غيرهم . بل يثقون بان ما حكموا هم فيه بعدل لا يمكن ان يصير ظلماً . ولهذا الاساقفة الذين اجتمعوا في مجمع نيقية الكبير قد قبلوا لا بلا ارادة الله ان تُفحص اعمال المجمع السابق في مجمع آخر . واذا كانت هذه السنّة قديمة وقد ذُكرت وكُتبت في المجمع الكبير وانتم لا تريدون ان تكون مرعية عندنا فيكون رفضكم لها غير لائق . لان ما جرت عليه العادة في الكنيسة مرة وثبت من مجامع خرقهُ من فيهِ ليس صواباً» . ثم ان بولوس يحتج عن نفسهِ بقولهِ اثناسيوس في شركة الكنيسة قائلاً : ان اسباب ذلك عدم ارادة المشتكين عليهِ ان يحضروا المجمع . ثم يقول «وقد كان الواجب انتم الذين لم اكتب لكم ان لا تكدروا من ان الكتابة انما صدرت للذين كتبوا لنا . فانهُ اذا كان يقتضي ان يُكتب لكم جميعكم

فكان من الواجب ان تكتبوا انتم ايضاً معهم . واذا كانت كتابتي انا وحدي لاولئك حركتكم (يعني بسبب كتابتي لهم فقط كأنهم خصوم) فيلحق ذلك ان تتكدروا من انهم هم ايضاً كتبوا لي انا وحدي . فيبان هذه الحجة محتملة فقط ايها الاحباء وليست صواباً . ولكن ضروري هو ان احيطكم علماً باني وان كنت كتبت وحدي لكنَّ الرأي لم يكُن رأيي وحدي . بل رأي جميع اساقفة ليبيا وسائر الذين في هذه الجهات . وانا لم أُرد ان اجعل الجميع ان يكتبوا لكي لا تحصل ثقلة من كثيرين . وقد اجتمع الآن ايضاً اساقفة كثيرون ورأيهم هو هذا الرأي عينهُ الذي احررهُ لكم في كتابتي هذه المرة ايضاً . وعليهِ امضوا ايها الاحباء اني وان كنت وحدي اراسلكم فيبان الرأي هو رأي الجميع» . وفي الختام يقول «ايها الاحباء . ان احكام الكنيسة قد اصبحت لا بحسب الاتجيل بل بالتقي والموت . فانهُ لو كانت حصلت منهم خطية (اي من اثناسيوس ورفقائه) لوجب ان يكون الحكم حسب القانون الكنائسي لا على هذه الصورة (يعني) لوجب ان يُكتب لنا جميعاً ليتحدد الحق من الجميع . لان المصابين كانوا اساقفة والكنائس المُصابة ليست ابرشية كانت بل التي ترأسها الرسل انفسهم بالذات . ولماذا لم تكتبوا لنا في ما يخص مدينة الاسكندريين ؟ أو تجهلون انها كانت عادة ان يُكتب لنا اولاً ومن ثم تُعيَّن الحقوق ؟ فان كان شيء مثل هذا مشبوهاً في الاسقف الذي هناك فكان الواجب ان يُكتب للكنيسة التي هنا . ولكن الآن الذين لم يفيدونا وقد عملوا هم كما ارادوا يريدوننا ان نوافقهم من دون ان نتأكد الامر . فاوامر بولس ليست هكذا . ولا الآباء هكذا سلموا . فان هذه الطريقة هي غير المعتادة . وهذا الوجه جديد . فارجوا ان تقبلوا بنشاط . لان ما اكتبهُ هو لاجل الصلح العام . فاني انما اوضح لكم ما اخفاهُ عن الرسول

عرس المغبوط . ولو لم ترغمنا الحوادث لما كتبت ذلك صريحاً ظناً مني بانهُ معلومٌ عند الجميع . فان الاساقفة يختلفون ويتقلون . آخرون في غير جهةٍ يسلون . وآخرون يُثرى عليهم . حتى انهم يتوحون على ما خُطف . ويُغصبون على ما يُرسَل اليهم بان لا يطلبوا الذين يريدونهم وان يقبلوا الذين لا يريدونهم . «علب اليكم ان لا يحدث بعد مثل هذه الامور . بل بالحري اكتبوا ضد الذين يشرون مثلها . لكي لا تُصاب الكنائس بعد الآن بمثل ذلك . ولا يتكبد اسقفٌ وفسٌ اهانةً . لان كلَّ واحدٍ منا سيعطي حساباً في يوم الدين عماً فعلهُ هنا . عسى ان نفتكر جميعاً كما يرضي الله . فاني ادعو لكم بالرب بكل شوقٍ ايها لاخوة الاحباء ان تكونوا معافين »[1]

هذه هي اهمُّ فقرات الرسالة البابوية التي يستند عليها الغربيون وفي لحقيقة لا يستندون عليها كلها بل على عبارةٍ واحدةٍ مقطوعةٍ منها عما قبلها وعما عدها وهي قولهُ « نوجب ان يكون الحكم على القانون الكنائسي ... بان يكتب لنا جميعاً لنجدَّ الحق من الجميع » ويضيفون الى هذه العبارة شهادة خرى ايضاً مقطوعة من المؤرخين صوزومينوس وسقراط حيث يقولان « انهُ وجد قانونٌ كنائسيٌّ يذكر ان ما يُعمل بلا رأي اسقف رومانيين لا يصح »[2] ومن ثمَّ يقولون ان للاسقف الروماني الحكم والسلطة في الكنيسة الخ * غير ان شرقيين يدعمون هذه الدعوى ببراهين قوية من العبارات عينها . ذلك قد بنا في ما سبق ان المؤرخ صوزومينوس بدلاً من ان يذكر البابا سيلبستروس ذكر البابا يوليوس . والبابا يوليوس نظرائهِ هو شخصهُ في الايمان الارثوذكسي

(١) انظر اعمال المجامع طبع باريز سنة ١٦٤٤ جزء ٢ صفحة ٥٨٥ ــ ٥٩٨

(٢) صوز ٣ : ١٠ . سقراط ٢ : ٨

وحفظهِ بعد دور النيقاوي بعيداً عن الهرطقة الاريوسية حصل في التاريخ على ذكرٍ حميدٍ عند الارثوذكسيين الذين كانوا يعدُّون رأيهُ رأي الكنيسة لمواقفهِ لها . وقد منح لهُ بعد ذلك مجمع سردیكي الغربي حق استئناف دعاوي رؤساء الكهنة المتظلمين . غير ان كل ذلك لم يكن حقاً لكل بابا بل للبابا يوليوس وحدهِ . ولم يكن من قبيل السلطة بل من قبيل المكافأة . ولم يكن بالنسبة الى الشرق والغرب بل بالنسبة الى الغرب فقط . لان مجمع سردیكي اذا كان مجمعاً مكانياً غربياً لهُ الحق ان يسنَّ لكنيسة الغربية ما يشاء . فيصحُّ عليها وحدها من جهة سياستها على مثال كل مجمعٍ مكانيٍّ غيرهِ . ولا حق لسوى قرارات المجامع المسكونية ان تعمَّ الكنيسة كلها البتة . فان كان الغربيون يفهمون من عبارة المؤرخين السابق ذكرها انها تعني قرار مجمع سردیكي بالنسبة الى البابا يوليوس فقط في الغرب فلا مانع لان هذا لا يثبت بل ينفي السلطة المدَّعى بها . واما اذا كانوا يفهمون غير ذلك فيأتوا بالقانون القائل «انها لا صحة لما يجري بلا رأي البابا» لانهُ لا وجود ولا اثر للقانون مثل هذا في الكنيسة البتة . على ان العبارة يمكن ان تُحمَل ايضاً على هذا المعنى : اي ان ما يُعمل بلا رأي البابا لا يصحُّ على البابا ولا على كنيسة البابا . وهذا حقٌّ واضحٌ ينفي ولا يثبت سلطة للبابا . لان جلَّ ما يُستفاد منهُ ان كل كنيسةٍ مكانية لا تنشئ احكاماً الاَّ عليها نفسها فقط . وكل من يفهم على غير هذا المعنى يناقض نفسهُ بنفسهِ . لانهُ من جهةٍ يضطر ان يعتبر قرارات كل المجامع التي لم يكن فيها رأي للبابا لاغية . ومن جهةٍ اخرى يضطر ان يعتبرها صحيحة . اذ هي كثيرةٌ في الشرق وامثلة عديدةٌ في الغرب . وقد قامت قبل هذا التاريخ وبعدهُ بلا مداخلة البابا وجرت احكامها وصحت قوانينها وروعيت قراراتها . ولكن ما الداعي للتطويل ؟ الم تكن شهادة مؤرخٍ

معرفة المعنى تقوى على شهادة البابا نفسه على نفسه ؛ فان البابا يوليوس نفسه هو يقول في رسالته « انه كتب لمذنبين في انطاكية كتاب محبة لا لوم . وانه لم يكتب هو بل هو ولمجمع معاً . وانه انما حتم ليجيبوا المجمع لا شخصه . ويقرّ بان المجمع انما يثبته مجمع آخر اي لا بابا ولا بطريرك . وهو نفسه يستند على المجمع النيقاوي ويستشهد به مع انه كان اعظم بابا . ويحتج عن نفسه لمجمع انطاكية الاريوسي . ويبرئ طرفة من انه كتب لهم وحده . ويكرر ويؤكد ان الرأي الذي كتبه لم يكن رأيه بل رأي المجمع وهو واحد منهم . ثم انه ما طالب الكتابة لشخصه بل المجميع . واقرّ بان تحديد الحق يكون من الجميع . وهذا المعنى يوافق ما شرحناه اعلاه . اما قوله « العادة ان يُكتب لنا اولاً ومن ثم تُعيَّن الحقوق الخ » انما هو عتاب على اجحافهم بحقوقه بانهم طلبوا ان يوافقهم ويشاركهم في الحكم من دون ان يشترك معهم في معرفة اسبابه وخصوصاً في امر يتعلق بكنيسة رسولية . وهذا واضح من قوله بعد ذلك « قد عملنا ما ارادوا وطلبوا ان نوافقهم من دون ان نتأكد الامر » فحاصل معنى رسالة يوليوس هو : انني لا اقدم لكم رأيي بل رأي المجمع . ولكن كما انكم تريدون اشتراكي معكم في حكمكم هكذا يجب ان تشركوني معكم في فحص الدعوى . وهذا الامر يتم بحضوركم . والسلام » هذه كنها براهين قاطعة من قلم البابا ونفس البابا تنفي دعوى المدعين بسلطة للبابا . على ان المذنبين بدعوتها يضطرون ان يسلموا بعدم لزوم الجامع من جهة . ومن جهة أخرى يضطرون ان يعتبروا اعمال الجامع الارثوذكسية كلها لاغية في ايام البابوات الهراطقة مثل البابا الاريوسي ليبريوس خليفة يوليوس . وهذا مذهب ولا ريب فاسد واكثر من فاسد اعني قولهم ان كل قرار بلا رأي البابا لا يصح

١١ لما اجتمع المجمع الانطاكي لتكريس الكنيسة وسنّ خمسة وعشرين

قانوناً لم يجتمع بارادة البابا بل ضد ارادته حتى ان مجمع ميلان رفض قراره بمعرفة البابا وانشقت الكنيسة بسبب ذلك . ومع هذا فالمجامع المسكونية ما حكمت على قوانينه بل ثبتتها وجعلت لها نفوذاً عاماً وقبلها الشرق والغرب معاً . فاين دعوى السلطة من هذا العمل فاقدم لنا ؟ — ١٢ . لما اجتمع مجمع سردیکي اجتمع باتفاق القيصرين لا بامر البابا . ولما طلب البابا حضور اثناسيوس في مجمع انكر الشرقيون عليه طلبه ايضاحاً لان حكمهم عليه بيّن ذلك كيفما كانت ارادة الغرب كله وعقدوا مجمعاً مستقلاً . ولما أعيد اثناسيوس الى كرسيه اعاده القيصر . ولما جمع القيصر مجمعاً وحكم على اثناسيوس واجبر الاساقفة على قبول احكامه كان من جملة الذين تبادوا وستقطوا في الاريوسية وكلاء البابا . وذلك ينافي حق سلطة البابا وعصمته ايضاً . لان العصمة لا يقوى عليها غصب — ١٣ . ان البابا ليبار يوس نفسه بعد ان امضى جوراً على المجمع الاريوسي في سيرميون امضى بارادته على قرار المجمع الاريوسي الذي بعده اذ سئمت روحه من المنفى مدة سنتين . فاولاً اين المقابلة بين هذا الانقلاب وبين ثبات القديس اثناسيوس مدة ٤٥ سنة . لم يحصل فيها على راحة يوم . وهو في كرسيه فضلاً عن منافيه * ثانياً من من الاثنين يا ترى هو صخرة الايمان الثابتة الوطيدة الغير المتزعزعة . أبابا ليبار يوس الاريوسي ام اثناسيوس الارثوذكسي ؟ ثالثاً . ان البابا ليبار يوس بعد رجوعه الى كرسي رومية كان مشتركاً في سياسة الكرسي مع خلفه فيلكس . فان كان فيلكس ارثوذكسياً كيف ساغ ان يشاركه الاريوسي ؟ وان كان اريوسياً كانت النتيجة اشد وخامة . ولكن البابا فيلكس كان اريوسياً لا ارثوذكسياً . فهل ياترى سقطت الكنيسة في عهده يسقوطه وقويت ابواب الجحيم عليها ؟ حاشا حاشا الان الكنيسة ليست في واحد * رابعاً كيف ساغ ان يقوم على كرسيّ واحد بابوان معاً ؟ *

خامساً · اين هذا الحادث المثبت على البابلوات الخرطقة من الدعوى بعصمتهم ؟ فكل ذلك دلائل واضحة بل براهين قاطعة يقدمها الشرقيون دفعاً لدعوى غربيين بالسلطة وتوابعها — ١٤ · ان القديس اثناسيوس نفسهُ يشهد في رسالتهِ الى الانطاكيين « ان الكنيسة فيها رؤساء كثيرون متساوون في الكرامة يتودهم رئيسٌ واحد ربنا يسوع المسيح »(١) فهذه الشهادة تنفي الدعوى بالسلطة على وجهين : اولاً بان الرؤساء كثيرون لا واحد ومتساوون لامتباينون · وثانياً بان رئيسهم واحدٌ يسوع المسيح لا البابا ولا غير البابا من مصقع — ١٥ · القديس اثناسيوس نفسهُ في احتجاجهِ عن هرمز يقول « انهم لم يشفقوا لا على اوسيوس المعترف العظيم ولا على اسقف رومية ولا على اساقفة كثيرين من اسبانيا وفرانسا وممر وليبيه وجهات أُخرى » وهنا ايضاً يضع اسم اوسيوس قبل اسم البابا وهذا مخالف للواجب لو كان للدعوى اثر — ١٦ · هو نفسهُ يقول في تاريخ الاريوسية الذي كتبهُ المتوحدين « ان مشائخ اثناسيوس ومعلمي الايمان (يعني النفوس والاساقفة) يطردون · والكفرة يدخلون الكنائس · فلما نُفي ليباريوس اسقف رومية وكابد اوسيوس العظيم ابو الاساقفة ما يكاد لا يُحصى · من لم يعلم ان الوشايات ضدهم كلها كاذبة ومملوءة نميمة ؟ وهنا ايضاً يسمي اوسيوس ابا الاساقفة واسقفاً عظيماً · فيما انهُ لا يسمي البابا الا اسقفاً · فتامل — ١٧ · انهُ في رسالتهِ الجمعية الى الاساقفة الارثوذكسيين في مصر وسيريا وفينيقيه وبلاد العرب يقول « ان خبر الايمان الرسولي لم يزل محفوظاً عند اكثر الشعوب واكثر الاساقفة انفسهم ايضاً » وهذه الشهادة تؤكد ان صحة الايمان تثبت من الكنائس لا من رومية وحدها — ١٨ · في رسالتهِ الجمعية الى الانطاكيين يسنُّ ويحكم بلا رخصة ولا

(١) في رسالتهِ الى الانطاكيين · وذوسيثاوس ١ : ١٧

معرفة البابا : ان الذين يحرمون بدعة آريوس ويوافقون الايمان النيقاوي تحق لهم الشركة في الكنيسة ولا يُطلب منهم شيءٌ غير ذلك · فلو كان للدعوى حق في زمانهِ لما استطاع ان يسنَّ هذا القانون بلا تصديقهِ والعكس بالعكس — ١٩ · بعد ان ادرج القديس اثناسيوس رسالة البابا في احتجاجهِ قال « فبعد ان كتب المجمع الذي في رومية بواسطة الاسقف يوليوس (اي البابا) الخ » وهذه شهادةٌ على ان العمل والراي هما للمجمع لا للبابا كما سبقت شهادة البابا على نفسهِ — ٢٠ · انهُ وهو يتكلم عن الاساقفة المنفيين من قسطنديوس يقول « انهم صبروا على ان يكابدوا كل مصيبة لكي لا يروا الاحكام من اجل اثناسيوس ملغاة احكام الاساقفة الكثيرين الذين كانوا رؤوس كنائس كثيرة » وهذه ايضاً شهادة منهُ على ان الكنائس لهامن البشر رؤوس (اي رؤساء) وهم الاساقفة جميعهم لا رأسٌ واحدٌ · لان راسها الواحد انما هو يسوع المسيح — ٢١ · ان اثناسيوس نفسهُ يشهد في كتابهِ للمتوحدين : ان البابا ليباريوس طلب الى قيصر ان يجمع مجمعاً · وانهُ اي البابا سقط في الاريوسية وامضى عليها · وان الاسقف اوسيوس قال للملك « ان الله سلَّمك مملكةً وائتمننا نحن على الكنيسة الخ » ولم يقل لهُ انهُ ائتمن البابا فقط · فتأمل — ٢٢ · هو نفسهُ ايضاً يقول : ان الاساقفة التسعين الذين من مصر وليبيه كتبوا للاساقفة الافريقيين يقولون : ان ما كُتب من حيينا ومساهمنا في الخدمة داماسوس اسقف رومية العظيمة والاساقفة الكثيرين الذين اجتمعوا معهُ هو كافٍ ولا اقلَّ منهُ (ما كُتب) من المجامع الأُخرى الملتئمة في فرانسا وايطاليا في الايمان الصحيح الذي سفههُ المسيح ونادى بهِ الرسل وسلمهُ الآباء الذين اجتمعوا في نيقيه من كل المسكونة التي تعرفها الخ » فهنا ايضاً يُسمّي البابا اخاً حبيباً ومساهماً · لا سيداً ولا رئيساً كما يريد اصحاب الدعوى —

٢٣ - في منشوره الى اساقفة ليبيه يؤيد الايمان لا من تثبيت اوشهادة ثيابا بل من تحفل الاساقفة الموافقين له في عترافه وبعدهم اشهرهم وفي مقدمتهم وسيوس المعترف العظيم ومكسيميتوس اسقف فرانسا . وفيلوغونيوس وافسطاثيوس اسقفي انطاكية . وبولينوس وليبار يوس اسقفي رومية (اس سنوطلبار يوس في الاريوسية) وغيرهم كثيرين منهم افستورجيوس اسقف ايطاليا ومكاريوس اسقف ورشليم وامفيان اسقف كيليكيا . ويواكيم اسقف حمص والكسندروس سلفة الاسكندري. فاين هذه الحقائق من القول ان ثيابا هو معلم الكنيسة كلها فضلاً عن دعوى السلطة ؟ ـ ٢٤ - ان القديس اثناسيوس نفسه يسمي فيليكس اسقف رومية خليفة ليباريوس وشريكه في الرسولية عرضوقياً وانه شرطن من اثنين في احد ليبوت . ومولف تاريخ حياته يقول « ان جنون الهرطقة قد اقام واحداً اسمه فيليكس اسقفاً على كنيسة رومية عوضاً عن ليباريوس . وقد حل عليه جزاءه من عند الله . فانه ولاً فقد بصره وكان يعترف بان الغضب الالهي جاءه بحق. ثم اصيب بمرض وبائي مدة فاختل ومات »[1]

فمما تقدم يتضح انه لا اثناسيوس ولا بولينوس ولا غيرهما من الاساقفة المتقدمين عترف او تصور شيئاً مما يدعي به الغربيون على الثيابا من السلطة ورئاسة توهمية . ولم يحصل انشقاق في الكنيسة بسبب ذلك البتة * على ان الارثوذكسيين لهم شهادات كثيرة يحصنون بها برج حقائقهم المتين ومنها :

٣ - شهادة باسيليوس الكبير وايارونيموس

من مشاهير آباء القرن الرابع الذين اشتهروا في استقامة رأيهم كان

(١) ثيوفانوس ١ : ١٧ : ٥

القديس باسيليوس الكبير اسقف قيصرية الكبادوكية * وكانت الارثوذكسية في ايامه مضطهدة من معاصرة الاريوسيين وهو يتصرهم قولاً وكتابة . وله رسائل عديدة هامة للفهم الاول في الآراء المستقيمة والعقائد الحقيقية والصناعة الكتابية وبراعة الاسلوب حررها لرجال متنوعين من كيروس وعامة منهم القديس اثناسيوس وثيابا داماسوس * ففي رسائله الى الثيابا يسميه اباً وسيداً . وفي رسائله الى اثناسيوس يسميه اباً وسيداً ايضاً . وهذا برهان للشرفيين على انه لم يكن امتيازاً للثيابا رومانيا عن البطريرك الاسكندري .

ولما كانت كنائس الشرق مضطهدة جداً من الهرطقة . وكان اعداء الارثوذكسية كل يوم يزيدون . كتب القديس باسيليوس يطلب معاضدة من الكنائس لترسل اليه رجالاً يساعدونه . وكان القديس اثناسيوس ارسل اليه قساً اسمه بطرس يساعده . فكتب اليه رسالة يشكره على عنايته ويفيده انه عزم ان يحرر للثيابا داماسوس ليطلب منه نجدة[1]

وقد كتب ثيابا رسالة افاده فيها عن احوال الشرق الغربية من الاريوسيين وافاده انه كان ينتظر منه ان يبعث باشخاص يساعدونه . ولكن اذ طال انتظاره اضطر ان يطلب ذلك برسائل نظراً لاشتداد الحروب ضد الكنيسة . غير ان الثيابا قلل اكتراثه لطلب باسيليوس واخذته سورة الكبرياء . فكتب باسيليوس بحقه ملامة وتوبيخاً بكلام يشهد بفساد دعوى المتعلشين للسلطة الغربية . وقد قال في رسالة (٢١٢) : اما طريق رومية فلا اعلم كيف لم يجتز احد قط منكم اليها في الشتاء لاانك البتة . بما ان البلاد من القسطنطينية الى حدودنا مملوءة من الاعداء . وان اقتضى الامر السفر بحراً في الوقت يساعد . فاما

(١) رسالة ٦٥ (٢) رسالة ٦٧

ذا كان الاخ الاسقف غريغوريوس الجزيل وقاره يرضى بالسفر وبالسعي في امور مثل هذه * على اني لا ارى انا ايضاً من يسافر معه . واعرف ان لا خبرة له مطلقاً في امور الكنيسة . وان مقابلته تكون جليلة وذات قيمة كبيرة لو كانت لرجل ذي معروف (يعني البابا) . ولكن ما دامت تكون لرجل عالٍ ومتواضع جالس في مجلس شاهق ومن جرّاء ذلك لا يستطيع ان يسمع الخلق له من تحت بالحقيقة . اية منفعة تحصل للعموم من ان يخاطبه رجل مثل هذا خلقه بعيد عن التمليق لمخالف الحرية ؟

وفي الرسالة (٢٣٦) الى افسابيوس اسقف سميساط يحكي الاضرار التي جلبتها الحرب في الشرق بدلاً من المنفعة . ويصف الغربيين اجمالاً بالتسامح ويقول «فانك انت نفسك قد اجتمعت بالذين من رومية وقد حدثني الاخ ذوروثاوس بكل الامور . . . فيتردد في ذهني ما قاله ديوميديس : ليتك لم تربح . لان الرجل متسلف * وحقاً ان طبيعة الاخلاق الصالحة كلما توغلت كلما ازدادت تسامحاً . فانه اذا تعطف الرب علينا فالى اي شيء اكثر من نعطاه نحن نحتاج ؟ ولكن اذا استمرّ غضب الله فماذا تكون مساعدة حاجب الغربيين ؟ فانهم والحق يقال لم يروا على شيء من العلم ولا يطيقون ان يتعلموا . ولكونهم موعبين من وساوس كاذبة يفعلون الآن ما كانوا قبلاً يعلمونه على ماركلس . انهم يخاصمون الذين يقولون لهم الحقيقة ويثبتون الهرطقة باتساعهم * على اني مع قطع النظر عن الشكل العام كنت اريد انا ذاتي ان احرر لهامتهم لا في الامور الكنائسية (الاّ بقدر ما يشار له انهم لا يعرفون حقيقة احوالنا ولا يقبلون الطريق التي بها يستطيعون ان يتعلموا) بل بوجه اجمالي . في انه لا يجب التعدي على خطين من المحن ولا الظن بان الكبرياء * رتبة . حالة كونها خطيئة تكفي

وحدها لان تجعل عداوة مع الله »[1] .

وابارونيموس المغبوط ايضاً (وهو من رجال الكنيسة الغربية مقرب في رومية وفس من قسوسها . وشك ان يُنتخب بعد البابا داماسوس بابا عليها) يقول في رسالته الى إفاغروس « انا لا يجب ان نعتبر كنيسة رومية سوى كنيسة من كنائس العالم . فانه حيث يكون اسقف سواء كان في رومية او في اوغوبيون او في القسطنطينية او في ريكيون او في الكندرية او في صنيّه له القدر عينه والكهنوت نفسه * فلا قوة الغنى ولا دناءة الفقر تجعل الاسقف سامياً او حقيراً . لانهم جميعاً خلفاء الرسل » غاية حجة اكثر قوة وبرهاناً من حجة هذا المؤلف الكاتبي الغربي المعتبر من الكنيستين على الذين يدّعون بالرئاسة ؟

٤ . مجمع انطاكية

انعقد هذا المجمع سنة ٣٤١ كما ذكر ليكرّس كنيسة كبيرة ذات ثمانية اعمدة كان شرع في بنائها الملك قسطنطين الكبير وكملها ابنه قسطانديوس . وكان قسطانديوس وقتئذٍ في انطاكية لمحاربة الفرس . وحضر ايضاً فسابيوس اسقف القسطنطينية . وهو صديق آريوس المعروف قبلاً اسقفاً على بيروت ثم على نيقوميديه . وكان ذا مذهب متوسط بين المذهب الارثوذكسي والمذهب الاريوسي . فاقنع الملك ان يجمع اساقفة كثيرين لبهجة احتفال التكريس على قوله . ولكن غرضه في الباطن كان ليفي من الدستور النيقاوي كلمة « المساواة في الجوهر »[2] * فالّف المجمع من تسعين اسقفاً على قول سقراط[3] . او سبعة وتسعين

(١) ذوسبتاوس ٢ : ١٧ : ١ ــ ٢٣ (٢) سقراط ٢ : ٨ (٣) ٢ : ٨

على قول صوزومينوس[1] ومائة وعشرين على قول ثاوفانيس[2] وكان بطريركاً في انطاكية بلاكوطوس . ولم يحضر سقف رومية ولا نواب من عنده ولا اسقف اورشليم * فكتب المجمع اعتراف ايمان مستقيماً يقر بالوهية ابن الله وانه صورة الاب تامة في الجوهر والمشيئة والمجد ولكنه لا يذكر ولا ينفي المساواة الجوهرية ولهذا السبب ثبت المجمع الثاني المسكوني هذا الاعتراف * وكتب ايضاً خمسة وعشرين قانوناً تتعلق بالسياسة والنظام الكنائسي موافقة لقوانين الرسل في المعنى دائماً وفي اللفظ احياناً . ولهذا السبب ثبتها ايضاً مجمع الرابع في الجلسة الرابعة والمجمع السادس في قانونه الثاني وغيرهما[3]

قال القانون التاسع « يجب على الاسقف رئيس المدينة الاولى ان يعرف الاساقفة الذين في كل ابرشية وان يعتني بكل الابرشية لكون جميع ذوي المصالح يحضرون من كل ناحية الى عاصمة ناحيتهم الميتروبوليس . ومن ثم قد رؤي ان يكون له التقدم ايضاً في الكرامة . ولا يعمل بقية الاساقفة عملاً زائداً بدونه حسب قانون آبائنا القديم المرعي ما عدا الاعمال الخاصة لكل واحد في ابرشيته او في البلاد التي تحتها . لان كل اسقف له السلطان على ابرشيته ليسوس كل واحد منهم كما يقتضي منه تقواه . ويعتني بكل البلد الذي يلحق مدينته . ويشرطن قسوساً وشمامسة ويقضي كل امر بتمييز . وفي ما غير ذلك لا يباشر عملاً بلا اسقف العاصمة ولا اسقف العاصمة بلا رأي الباقين »

فهذا القانون يصرح بتقدم الميتروبوليتين على الاساقفة وبحقوق كل واحد منهم في ابرشيته . وبوجوب اشتراك الرأي في ما يتعلق بالاحوال العمومية . فلو كانت لدعوى السلطة حقيقة او اثر حقيقة لقال القانون غير ذلك . اعني ان

(١) ٥ : ٢ (٢) يذالبون (٣) البذالون في الشرقي الفرح

الاسقف لا يباشر عملاً بلا رأي الميتروبوليت ولا الميتروبوليت بلا رأي لبابا . ولكنه انما قال ولا الميتروبوليت بلا رأي الاساقفة . وهذا برهان على امرين : الاول ان الميتروبوليت وان كان متقدماً في الكرامة على الاسقف . لكنه ليس ذا سلطان عليه في رتبة اسقفيته بل مساوٍ له فيها . ولولا ذلك لكان في الامر تناقض بان يكون الميتروبوليت اعظم من الاساقفة وهو نفسه دونهم لانه مأمور ان يشاورهم كما يشاورونه . والثاني انه لا للبابا ولا لغير البابا من الاساقفة له سلطان عام في الكنيسة . ولولا ذلك لما كان مرجع الميتروبوليت الى الاساقفة بل الى الرئيس ذي السلطة العامة . اما معنى الميتروبوليت في هذا المقام فيشمل البطاركة ومطارنة جميعاً وكل رئيس عاصمة بالنسبة الى بلدانها . ثم ان سائر قوانين هذا المجمع ايضاً توضح بصريح العبارة لا بالمغزى ولا بالاشارة ان الحقوق في السياسة هي لكل اسقف بمفرده في ابرشيته ولمجمع الاساقفة عند اقتضاء الحال وليس فيها ما يشير او يلمح الى رئاسة عامة للبابا ولا لغير البابا من الافراد مطلقاً

٥ . مجمع سردیكي

في تاريخ القديس اثناسيوس ذكر اسباب عقد هذا المجمع المقدس وانقسامه الى شطرين شرقي وغربي[1] واستقلال الاساقفة الشرقيين بمجمع في فيلبه ضد الغربيين . وكانت نتيجة المجمعين ان كلاً منهما حكم على كثيرين من الذين برأهم الآخر فحكم مجمع فيلبه على اثناسيوس الاسكندري وبولس القسطنطيني وماركلس اسقف الكيرا واسكليباس اسقف غزة والبابا يوليوس والاسقف اوسيوس وبروطوجينيس اسقف سردیكي وغيرهم . وحكم مجمع سردیكي على

(١) تاريخ موسيم طبع بيروت صحيفة ٨٠٠ ويذالون صحيفة ٢٥٩

احد عشر اسقفاً من مجمع فيلبه * وقد سنَّ هذا المجمع عشرين قانوناً تتعلق بنظام الكنيسة ثبَّتها القانون الثاني للمجمع السادس المسكوني . بعضها موضوع مناظر بين الشرقيين والغربيين . كما نوضح ههنا على قدر الامكان :

القانون الثالث « قال الاسقف اوسيوس : ضروريٌّ هو ان نضيف ايضاً ان لا ينتقل احدٌ من الاساقفة من ابرشيته الى ابرشية أُخرى فيها اساقفة . مالم يُدعَ من الاخوة الذين فيها لكي لا يُظنَّ بنا اننا نغلق ابواب المحبة * ويجب الاعتناء مثل ذلك في هذا الامر ايضاً . اعني اذا قامت قضيةٌ لاحد الاساقفة في احدى الابرشيات ضد اخيه ومثيله في الاسقفية . ان لا يستدعي احدٌ من الاثنين اساقفةً من ابرشيةٍ أُخرى ليحكموا بينهما * وإن ظنَّ احد الاساقفة انهُ محكوم عليه في قضيةٍ وله يقينٌ بان قضيته غير ضعيفة . وانها تصلح ليُعاد النظر فيها مرة ثانية . فان كنتم تستصوبون فلنكرم ذكر بطرس الرسول بالمحبة ونكتب ليوليوس اسقف رومية من هؤلاء الذين حكموا لكي تُجدَّد المحكمة من الاساقفة المجاورين ان اقتضى ويقيمهم هم قضاةً * وان لم يستطيعوا ان يقدموا القضية على هذه الصورة اعني انها تقتضي اعادة المحاكمة . فما حُكم به اول مرة لا يُلغى ويكون ما جرى ثابتاً »

القانون الرابع « قال الاسقف غاوديَنديوس : ان قُطع اسقفٌ بحكم هؤلاء الاساقفة اعني الذين في الجوار ويدَّعي ان له ما يحتجُّ به عن نفسه فلا يقُم في كرسيه اسقفٌ آخر قبل ان يعرف ذلك اسقف رومية ويُصدر فيه رأياً »

القانون الخامس « قال الاسقف اوسيوس : لقد استصوبنا اذا قامت شكايةٌ على اسقفٍ واجتمع اساقفة تلك الابرشية عينها وقطعوه من رتبتهم ان يلجأ الى اسقف كنيسة الرومانيين الجزيل الطوبى بصفة مستأنف وطالب ان

يسمع له وان يعتبر من العدالة تجديد فحص قضيته ويطلب اليه ان يكتب للاساقفة القريبين من الابرشية ليفحصوا هم كل شيء باعتناء وتدقيق ويحكموا في القضية حكماً موافقاً للحقيقة الاكيدة . وان طلب احدٌ ان تُسمع قضيته مرةً ثانيةً ويرَى ان يحكم فيها اسقف الرومانيين ويطلب ان يرسل من طرفه فسوساً ليكون في سلطان الاسقف نفسه فان استحسن هو ذلك ورسم بوجوب ارسال قضاةٍ مع الاساقفة لهم سلطة مَن ارسلهم فليكن ذلك . وان حسب (ما جرى) كافياً لمعرفة القضية والقرار في امر الاسقف فيصنع كلٌّ ما تراه ارادته الحكيمة حسناً »

القانون التاسع « قال الاسقف اوسيوس : ليُجدَّد ايضاً هذا الامر اعني اذا ارسل اساقفة في اية ابرشية كانوا طلباتٍ الى احدهم اخي اسقف مثلهم فالاسقف الذي في المدينة الكبرى اعني الميتروبوليس هو نفسهُ يرسل شماسة والطلبات معاً ويصحبهُ برسائل توصيةٍ . اعني انهُ يكتب بالتبعية لاخوتنا الاساقفة اي مَن كان منهم في ذلك الوقت مقيماً في الذراعي او في المدن التي يسوس فيها الملك الحَسَن العبادة القضايا العمومية . وان كان لاحدٍ من الاساقفة اصدقاء في دائرة البلاط واراد ان يرجوهم في شيء (الامر الذي هو اكثر لياقةً) فلا مانع من ان يطلب اليهم بواسطة شماسه ويوصيهم ان يبدوه بخير مساعدتهم حين يطلب منهم . واما الذين يحضرون الى رومية فالطلبات التي يقصدون تقديمها (للملك) عليهم ان يقدموها (كما سبقتُ وقلتُ) لاخينا الحبيب ومثيلنا في الاسقفية يوليوس ليستحسنها هو اولاً حتى لا نكون من احدٍ منهم وقاحةً . وهكذا يعدهم بمساعدته وعنايته ويرسلهم الى المعسكر (مركز الملك) . فاجاب جميع الاساقفة ان هذا الشور يعجبهم وانهُ مناسبٌ ولائق »

هذه هي القوانين الاكثر اهمية في المناظرة بين الشرقيين والغربيين . وقد ذكرنا في تاريخ القديس اثناسيوس فحواها مجملاً بقولنا ان مجمع سردبكي منح البابا حق استئناف دعاوي الاساقفة الغربيين اليه . وقلنا ايضاً ان استناد الغربيين على هذه القوانين لا ينفعهم . اولاً لان هذا الحق كان لشخص البابا يوليوس كما هو نص العبارة لا لكل بابا . وثانياً لو فرضنا انه كان لكل بابا لا يعم حكمه على الشرق والغرب بل هو خاص على الاساقفة الغربيين وحدهم فلا يخول البابا ولا اكثر من الحق الذي هو لكل بطريرك بالنسبة الى اساقفة كرسيه . ولاجل زيادة الايضاح نلاحظ ما ياتي :

١ . ان البابويين يدعون بسلطة للبابا على الكنيسة بحق الهي يعني سلطة قائمة منذ تاسيس الكنيسة لا تقبل تغييراً ولا تحويلاً البتة . ولكنا نرى في تلك القوانين ما ينقض هذه الدعوى . لانها هي نفسها تشهد ان فحواها مبتكر باسان الاسقف الاسباني اوسيوس ومقترح على المجمع ومعروض الى اختيارهم او عدمه كقوله مثلاً « ان استصبتم فلنذكر سدة بطرس الخ » وقوله « نقد استنسبنا . . . ان يتجنى الخ » فالاستصابة والاستنساب لا يحكيان اموراً قائمة بحق الهي بل يحكيان اموراً معطاة جديداً بحق كنائسي فقط . على ان القوانين عادة كلما كانت تسن اموراً مرعية تقول : اننا نحفظ او نسن ما تسلمناه من الاباء كذا وكذا الخ . وهذه لا تقول سوى استحسنا واستنسبنا واستصبنا

٢ . يدعي الغربيون بسلطة للبابا عامة على الكنيسة . واعظم استنادهم هو على هذه القوانين . والحال ان القوانين التي نحن بصددها تنفي سلطة البابا لا عن عموم الكنيسة فقط بل عن الكنيسة الغربية نفسها . لان مضمونها الذي هو تخويل البابا حق استئناف الاساقفة الغربيين اليه باقتراح اوسيوس الاسباني

واستحسان الاساقفة الغربيين دليل واضح على انها لم تكن للبابا سلطة على الغرب البتة . على ان ما منح له من المجمع ليس لسلطة على الاساقفة الغربيين بل حق استئنافهم اليه . وبين ذا وذاك فرق عظيم — ٣ . من نص القانون الثالث يظهر انها كانت عادة لبعض الاساقفة المخاصمين ان يستدعوا اساقفة من ابرشيات غربية للنظر والحكم بينهم . اي انهم لم يكونوا يكتفون بحكم اساقفة الابرشية وحدها . فمنع القانون هذه العادة وحصر الحكم باساقفة الابرشية واقام اساقف رومية في محل الاساقفة الغرباء يعين لجنة تنظر في قضيتهم . هذا اذا عرض الامر له من الجهة المحكمة نفسها اي اساقفة الابرشية . وهذا التشكيل لا ينطبق على الدعوى بسلطة لا عامة ولا خاصة — ٤ . ان ما ورد في القانون الرابع تابع لما قبله في الثالث يتعلق بنظام الاسقف المحكوم عليه واستئنافه الى البابا يوليوس في وقته بناء على تخويل هذا الحق له باقتراح اوسيوس وتصديق المجمع السردبكي الغربي . ونتيجته تابعة لنتيجة ما قبل . اعني ان الاقتراح والاستحسان المكاني لا يمكن ان يكون حقاً ابدياً عمومياً — ٥ . ان القانون التاسع يرفع كل شبهة في صحة كلام الشرقيين . ويؤكد زهوق دعوى الغربيين . فانه من جهة يشهد بان اوسيوس كان المقترح في المجمع حيث يقول « كما سبقت وقلت الخ » ومن جهة اخرى يوضح ان حقوق امتياز الاساقفة بعضهم عن بعض ليست سوى حقوق ظاهرية مبنية على امتياز المدن والقرب من مركز الحكومة المدنية . ومن ثم خول لكل اسقف قريب من مركز الحكومة ما خوله للبابا ايضاً . اعني ان يعاطيه اخوته الاساقفة ويستمدوا مساعدته لدى الحكومة لقربه منها ومعرفته مشربها حتى لا يكون في المخاطبات المرفوعة اليها عبارات لا توافق المشرب فتعتبر وقاحة ولا تجدي نفعاً — ٦ . ان القانون التاسع عينه يشهد بصريح العبارة ضد دعوى

الغربيين . فان اوسيوس حين ذكر اسم البابا في المجمع لم يقل : سيدنا البابا ولا رئيسنا البابا ولا معلمنا البابا ولا حاكمنا البابا . بل انما قال « اخينا الحبيب ومثيلنا في الاسقفية بوليوس بابا رومية » فاي شك واي ريب يبقى في ان البابا انما هو اسقف مثل الاساقفة لا يزيد عنهم في الرتبة الاسقفية اقل زيادة ؟ وهذه العبارة لم يقلها البابا عن نفسه لعقول انه يتواضع ويلفظها . بل قالها فيه مجمع الاساقفة الغربيين كلهُ المالف من ثلاثمائة اسقف . فاية شهادة اقطع من هذه الشهادة واي برهان اقوى من هذا البرهان لمن يعرف قدر الشهادة والبرهان ؟ — ٧ واخيراً . ان اساقفة المجمع انفسهم يسمون كلام اوسيوس رأياً وشوراً مناسباً ويقبلونهُ بكونهِ يرضيهم ويعجبهم بخصوص اخيهم ومثيلهم البابا . وهذا برهان آخر ايضاً على انهُ رأي جديدٌ لاحقٌ قديمٌ .

هذا ونختم الملاحظات على ما تقدم بتكرار قولنا ان ما سُنَّ في هذا المجمع سواء كان لبابا بوليوس وحدهِ او لكل بابا بعدهِ انما هو خاصٌ باساقفة الغرب ولا تعلُّق لهُ باساقفة الشرق البتة . وان قال قائلٌ انهُ تصدق عليهِ من مجمع مسكونيٍّ وصار حكمهُ حكماً مسكونياً . قلنا : ان تصديق المجمع المسكوني ثبت فحواهُ ولكنهُ ما غيَّر معناهُ . اي انهُ جعلهُ واجب الاجرا على الغربيين فقط ومن حيث الاستئناف فقط . فلا سبيل لاسقفٍ غربيٍّ ان لا يعتبرهُ ميراعيهِ من الحيثية المذكورة . ولكنهُ لم يحوّل معناهُ من اساقفة الغرب الى كراسي بطاركة ومدارنة واساقفة الشرق ولا جعل حق الاستئناف المحصور سلطةً عامةً ولا خاصةً . وسيتضح قدر معنى هذه القوانين ببيانٍ اكثر في القرن التالي حيث الكلام عن البابا زوسيموس .

٦ . المجمع القسطنطيني المسكوني الثاني

من بعد وفاة القيصر والبس قام على كرسي القسطنطينية القيصر ثاوذوسيوس الكبير الاسباني (سنة ٣٧٩ — ٣٩٥) وكان عنصر لاريوسيين قائماً بعد . غير انهُ كان يوماً فيوماً يضعف لدى ثبات الارثوذكسيين الى ان قام الملك ثاوذوسيوس الارثوذكسي الذكور وضربهُ الضربة النهائية اولاً بامر ملوكيٍّ (سنة ٣٨٠) فيهِ يامر جميع رعيتهِ ان تعتقد اعتقاد اساقفي رومية واسكندرية الارثوذكسيين[1] ثم بمجمع مسكونيٍّ (سنة ٣٨١) وهو المجمع القسطنطيني المسكوني الثاني بعد الاول النيقاوي . وكان في هذا المجمع المقدس رجالٌ قديسون عظامٌ نذكر منهم نكتاريوس القسطنطيني وتيموثاوس الاسكندري وملاتيوس الانطاكي وكيرلس الاورشليمي وغريغوريوس النازيانزوسي وغريغوريوس النيسي وامفيلوشيوس اسقف ايقونيه وبيلاجيوس اسقف اللاذقية وذيوذورس اسقف طرسوس واكاكيوس اسقف حلب وافلوجيوس اسقف انطاكية وغيرهم كثيرون مجموعهم مائة وخمسون اباً . ولم يكن من رومية احدٌ لا البابا ولا نواب لهُ . ولا تُليت رسالةٌ من البابا نيابةً عنهُ حسب عادة الاساقفة الغائبين . ومع ذلك وافق البابا وكل الكنيسة الغربية على اعمالهِ وكان ولم يزل هو وكنيسته يعترفون بانهُ مجمعٌ مسكونيٌّ . وقد انعقد المجمع ضد جملة هراطقة وثبت دستور الايمان النيقاوي واضاف اليهِ ما اضافهُ حتى صار كما هو عندنا الى اليوم[2] . وكان رئيس المجمع اولاً القديس ملاتيوس بطريرك انطاكية . ثم توفي قبل انحلال المجمع . فتولى الرئاسة القديس غريغوريوس النازيانزوسي . غير انهُ لم يرُق لهُ ان يبقى في منصب

(١) مجل ثاوذوسيوس ١٦ : ١ : ١ : ٢ (٢) كتاب المجامع جزء ١ صفحة ٢٨٦

بطريركية القسطنطينية . فاستعفى منهُ ومن رئاسة المجمع معاً . وقام رئيساً بعدهُ خلفهُ البطريرك القسطنطيني نكتاريوس . وقد سنَّ المجمع سبعة قوانين تتعلق بنظام الكنيسة وسياستها صدق عليها من القانون الثاني للمجمع السادس ومن الاول للسابع . اما اعمال المجمع فلم تصل الينا لسوء الحظ لانقراضها من حوادث الدهر * واما القوانين فتبين وتبرهن ان اساس النظام الكنائسي ليس الاعتبارات الدينية بل المدنية ودونك النص :

القانون الثاني « لا يتعدين الاساقفة الذين خارج ادارتهم على الكنائس التي خارج حدودهم ولا يشوشن الكنائس . بل وفقاً للقانون لاسقف اسكندرية ان يسوس امور مصر فقط . ولاساقفة الشرق ان يسوسوا الشرق فقط مع المحافظة على التقدم الذي في قوانين نيقية لكنيسة الانطاكيين . ولاساقفة ولاية اسيا ان يسوسوا امور اسيا فقط . وللذين في البنطس امور البنطس فقط . وللذين في تراكي ان يسوسوا امور تراكي فقط . فلا يتعدين اساقفة خارج ولايتهم لاقامة شرطونيات او معاطاة امور أخرى كنائسية من دون ان يدعوا . ولمحافظة على القانون السابق تدوينهُ في الادارات تقتضي صريحاً ان يسوس احوال كل ابرشية مجمع الابرشية كما هو محدد في نيقية . واما كنائس الله التي بين الامم البربرية (يعني خارج المملكة) فيجب ان تساس حسب عادة الاباء المرعية .

القانون الثالث « اما اسقف القسطنطينية فليكن لهُ التقدم في الكرامة بعد اسقف رومية لكونها (اي القسطنطينية) رومية جديدة » .

ثمن كيفية عقد المجمع ومن هذه القوانين ايضاً لا سبيل لمؤرخ خالي الغرض لان يعترف بشيء من الصحة لدعوى الغربيين . لانهُ لو كان البابا ذا سلطة على الكنيسة كيف صحَّ ان ينعقد مجمع مسكوني بلا حضورهِ ولا حضور

نوابهِ من طرفهِ ويقرر احكاماً وجبت رعايتها في الشرق والغرب من ذلك الوقت حتى يومنا هذا ؟ وكيف صحَّ ان يباشر المجمع اعمالهُ ويعقد جلساتهِ مدةً تزيد عن السنتين بلا مداخلة البابا او نوابهِ عنهُ على القليل ؟ او كيف يصح ان يرأس المجمع المسكوني الشخص الكنيسة كلها غير ذي السلطة عليها لو كانت عليها سلطة لاحد كما يدعون ! فهذا البرهان الواضح يصعب على الغربيين ان يدفعوهُ او يضعفوا قوتهُ . فيدعون دعوى أخرى بقولهم : ان المجمع لم يحضرهُ البابا ولكن البابا عقدهُ وامر بهِ . وهذه الدعوى تشبه الدعوى التي ادعوها قبل الان في ما يتعلق بعقد المجمع الاول المسكوني . ولكنا نقول هنا ايضاً ما قلناهُ هناك وهو ان التاريخ يفك كل نزاع في هذا المعنى ودونك شهادات المؤرخين القدماء الثلاثة وهم سقراط وصوزومينوس وثاوذوريتوس :

قال سقراط « ولم يؤجل الملك (ثاوذوسيوس) الامر مطلقاً . فجمع مجمع اساقفة مؤمنين مثلهُ ليؤيد الايمان النيقاوي ويرسم اسقفاً للقسطنطينية فاجتمع من المؤمنين بمساواة الجوهر تيموثاوس من اسكندرية وكيرلس من اورشليم وكان من ذي قبل ملاتيوس من انطاكية حين دُعي لاقامة غريغوريوس (الثاولوغوس) واسخوليوس من ثيسالونيكي (سلانيك) وكثيرون غيرهم . وكانوا جميعهم مائة وخمسين . وعند ذلك سنوا قانوناً ان يكون لاسقف القسطنطينية التقدم في الكرامة بعد اسقف رومية لكونها رومية جديدة . وثبتوا الايمان النيقاوي . واقاموا بطاركة . ووزعوا الابرشيات . حتى لا يتعدى الاساقفة الى خارج دائرتهم على الكنائس التي خارج حدودهم . وكان هذا (القصد) يحصل قبلاً بلا ملاحظة بسبب الاضطهادات . وحددوا ايضاً ان يسوس احوال كل ابرشية عند الاقتضاء مجمع الابرشية . وقد وافق الملك ايضاً على ذلك »(٥ : ٨)

وقال المورخ صوزومينوس « وقد جمع القيصر سريعاً مجمع لاقفة من ذوي ايمانٍ لتابيد ما رُوِّيَ في نيقيه وسيامة المزمع ان يكون اسقفاً على كرسي القسطنطينية · فاجتمع من الذين يعتقدون بمساواة الثالوث في الجوهر نحو مائة وخمسين وفي رئاستهم تيموثاوس المتقلد ادارة كرسي الاسكندريين خلفاً لاخيه بطرس الذي كان قد توفي لامن عهدٍ بعيد · وملاتيوس اسقف انطاكية وكيرلس الاورشليمي · وبعد ذلك اجتمع الكهنة (اي الاساقفة) وحكموا ان يبقى ايمان مجمع نيقيه ثابتاً وتُنبذ كل هرطقةٍ وتُلس الكنائس في كل مكان على القوانين القديمة ويبقى الاساقفة في كنائسهم ولا يتعدوا الى الخارج عبثاً ولا يكلفوا انفسهم لشرطونياتٍ لم يُدعوا لها ولا تتعلق بهم كما حصل مراراً كثيرة في القديم حين كانت الكنيسة مُضطهدةً · واما ما يحدث في كل واحدةٍ منها (اي من الكنائس) فيسوسهُ ويعملهُ مجمع الامة كما يرى موافقاً · وان يكون التقدم لاسقف القسطنطينية بعد اسقف رومية لانهُ مقلدٌ نيابة كرسي رومية الجديدة · لان القسطنطينية في ذلك الوقت فضلاً عن انها كانت تُسمَّى بهذا الاسم (رومية الجديدة) وكانت فيها مشيخةٌ ورتبٌ للشعب ورئاساتٌ مثل تلك. كانت تقضي ايضاً بشرائع وعوائد الرومانيين الذين في ايطاليا وكانت الحقوق والمكافاة في كل شيءٍ متساويةً »[1]

فقبل ان نكتب شهادة ثاودوريتوس نشيرا الى ما في هاتين الشهادتين التاريخيتين من قوة البرهان على حقيقة قول الشرقيين وعدم صحة دعوى الغربيين فنقول:

ان هذه الشهادات التاريخية تويد ما يأتي: ١ - ان الملك ثاودوسيوس

(١) ٧ : ٧ و ٩

هو الذي عقد المجمع لحسم النزاع الاريوسي وغيره من البدع ولاقامة اسقف ممتاز في عاصمة مملكتهِ — ٢ - ان المجمع عُقد بالتمام بطركة واساقفة الشرق فقط مع قطع النظر عن الغرب — ٣ - انهُ سنَّ لمبطريرك القسطنطيني مساواة الاسقف الروماني في الكرامة لانهُ اسقف كرسي رومية الجديدة · وهذا الامر يوضح كل الوضوح ان اسباب تقدم الاساقفة بعضهم على بعض انما هي امتيازات المراكز العالمية كما ذكرنا في المقدمة وهي حقٌ كنائسيٌ فقط يقبل التعديل لا حقٌ الهيٌ · وهذا البرهان ينقض الدعوى بالسلطة على وجهين: اولاً على كون اساسها اعني إسنادها الى الحق الالهي غير صحيح · وثانياً على كون تغيير المجمع حقوق الاساقفة عن مركزها القديم برفع منزلة القسطنطيني وذلك بلا معرفة البابا امرٌ مناقٍ للرئاسة الموهومة — ٤ - ان موافقة القيصر قرارات المجمع قبل ان يوقع عليها البابا رومية واساقفتهُ لقطع كل شبهةٍ في صحة قول الشرقيين — ٥ - ان المجمع قد عيَّن حقوق الاساقفة وذكر حقوق البابا بانهُ متقدم في الكرامة · فلو كانت لهُ رئاسةٌ وسلطةٌ كيف جاز ان يستبد لها بالتقدُّم في الجملة فقط اسوةً باسقف القسطنطينية؟ وكيف لم تعترض رومية وتطلب حقوقها وتلغي اعمال المجمع الذي لم تزل تعترف بهِ الى اليوم انهُ مسكونيٌ مُلهَمٌ من روح الحق؟ — ٦ - ان قرارات المجمع المسكوني كان يصدِّق عليها الملوك كما يتضح من طلب المجمع الى القيصر ثاوذوسيوس الكبير ان يصدِّق على اعمالهِ لتُنشَر في كل المملكة حيث يكتب لهُ قائلاً « فنطلب الى حلمك ان يُصدِّق على حكم المجمع بتحاريرٍ من تقواك · حتى كما انك اكرمت الكنيسة بتحاريرِ الدعوة هكذا تختم نهاية ما قد رُوِّي (بتحاريرِ التصديق) »[1] ومن هنا يتضح ان قول الغربيين بتصديق البابا على

(١) كتاب المجامع جزء ٢ صفحة ٥٨٥

المجامع افتراءٌ محضٌ ومغالطةٌ · لان التصديق على اعمال المجامع المسكونية سواءٌ كان من الملك او من البابا لا يدل الاَّ على القبول والموافقة فقط · لا بمعنى ان العمل بدونهِ يكون فاسداً في ذاتهِ · بل بمعنى ان الملك او الاسقف موافقٌ عليهِ ومستحسنٌ اياهُ · وهذا الاستحسان ضروريٌّ في كل عملٍ · فضروريٌّ من طرف الملك ليُنشَر العمل في مملكتهِ بلا موانع وتكون احكامهُ معروفةً لدى الرئاسة المدنية · وضروريٌّ من طرف الاساقفة لتكون مرعيةً من الرئاسة الكنائسية الموجودة في يد كل اسقفٍ في كنيستهِ · مثال ذلك : ان يوحنا بطريرك انطاكية قد صدَّق على اعمال المجمع الثالث المسكوني التي جرت قبل حضورهِ · ولكن مَن يدَّعي ان يوحنا بطريرك انطاكية كان رأس الكنيسة لانهُ صدَّق على اعمال المجمع الثالث المسكوني ؟ فالذي يدَّعي بذلك للبابا لا سبيل لهُ الاَّ ان يعترف ليوحنا بما يدعيهِ للبابا وينقض نفسهُ بنفسهِ · واما الذي يعرف ان معنى التصديق هذا ليس سوى الاستحسان والقبول والموافقة فيمشي في النور ولا يعثر * وعندي ان كل اسقفٍ يوقع ويمضي على قرارات المجامع يصح القول فيهِ انهُ يصدق عليها بالنسبة الى شخصهِ والى كنيستهِ · وهذا كافٍ لفهم مَن يفهم — ٧ · لو كان تصديق البابوات على اعمال المجامع معناهُ التثبيت كما يدَّعون . فاعمال المجمع المسكوني كانت من ذي قبل مصدقاً عليها من البابا · فما الحاجة الى عقد مجمعٍ مسكونيٍّ لتثبيتها كما قال المورخون وكما يتضح من القانون الاول المجمعي ؟ واذا قلنا انها لم تكن مصدقاً عليها · فلماذا لم يرسلها الملك الى البابا للتصديق ويرفع عن نفسهِ وعن المجمع ثقلة عقد المجمع على امورٍ تخصُّ البابا وحدهُ ؟ او لماذا لم يقُم البابا الحجة على القيصر ليخذهِ حقوقهُ وتسليمها الى مجمع الاساقفة ؟ فكفى بنا هذا برهاناً يغني عن كل برهان على ان المجامع تثبت المشترعات والقوانين والقرارات

المجمعية لا البابا ولا غير البابا من الأفراد — ٨ · اذا قابلنا كلام صوزومينوس بعضهُ على بعضٍ في ما يتعلق بدعوى الغربيين يسهل فهمهُ على كل بطيء فهم · فقد قال في الكتاب الثالث ما ذكرناهُ وشرحناهُ وهو « انهُ يوجد قانونٌ كهنوتيٌّ يصرح بان ما يُعمَل بلا رأي اسقف رومية غير ثابتٍ · لان العناية — في الجميع تخصهُ نظراً لقدر كرسيهِ » وهنا في الكتاب السابع يقول بقرار المجمع المسكوني « واما ما يحدث في كل واحدةٍ من الكنائس فيسوسهُ ويعملهُ مجمع الامة كما يرى موافقاً · ويكون التقدم لاسقف القسطنطينية بعد اسقف رومية لانهُ مقلَّدٌ نيابة كرسي رومية الجديدة » فلو كان صوزومينوس مدافعاً عن حقوق اسقف رومية كما يدَّعي الغربيون · لكانت مدافعتهُ هنا واجبةً اكثر من كل مقامٍ سواهُ · غير انهُ انما اوضح تقرير المجمع العوائد القديمة في السياسة وتثبيتهُ استقامة الرأي في الايمان * واما معنى شهادتهِ السابقة في عناية اسقف رومية فليس سوى ان تلك العناية تخص الاسقف الروماني في جميع الكنائس الغربية فقط وفقاً لقانون مجمع سرديكي المكاني · وهذا يستدل من قولهِ « نظراً لقدر كرسيهِ » اي كرسي البابا لانهُ هو وحدهُ في الغرب موسَّسٌ من الرسل فيما ان في الشرق كراسي كثيرة مثلهُ موسَّسةٌ من بطرس ومن سائر الرسل · والذي يراعي الحق لا يحتاج الى شرحٍ اكثر — ٩ · ان القيصر الارثوذكسي ثاوذوسيوس الكبير الحسن العبادة رفع منزلة نكتاريوس اسقف القسطنطينية وتيموثاوس اسقف اسكندرية وغيرهما واوجب على الباقين ان يكونوا موافقين لهم وفي شركتهم · فلو كان اساس الايمان القويم يقوم في الشركة مع رومية كما يدَّعي الغربيون بناءً على شهادة القيصر الوثني اورليانوس كما رأينا في تاريخ بولس السميساطي · فكيف صح للملك المسيحي ان يقلع ذاك الاساس ويضع غيرهُ وهو لم يزل حسنُ العبادة ؟ فاساس الايمان

القويم انما هو الاعتراف القويم . ومن يرتأي غير ذلك لا يستقيم ... واخيراً من شهادة ثاوذوريتوس يظهر ان المجمع عقد في القسطنطينية لا بلا اذن ابابا فقط بل ضد رضاه ايضاً . وهاك الشهادة :

قال ثاوذوريتوس «وفي الصيف التابع حضر اكثر الاساقفة الشرقيين مرة ثانية الى تلك المدينة (اي القسطنطينية) . لان ضرورات كنائسية جمعتهم دفعة أخرى . واخذوا رسالة مجمعية من اساقفة الغرب تحثهم ان يحضروا الى رومية لان مجمعاً عظيماً انعقد فيها . ولكنهم استقالوا من الذهاب اذ رأوا انه لا ربح فيه . وارسلوا فافادوهم عن النوء العظيم (اي الثلاثين) ضد الكنائس ولحّوا لهم عن كاهلهم (اي كسر الغربيين عدم حضورهم) والتدابير عينها هي توضح باكثر جلاء شجاعة الكاتبين (اي رؤساء كهنة الشرق) وحكمتهم»[1]

فمن هنا يتضح ان ابابا لم يجمع المجمع وان الاساقفة الشرقيين رفضوا الذهاب الى رومية حيث دعاهم لا ابابا وحده بل اساقفة الغرب اي المجمع كما جرى في عصر ابابا ايليوس ايضاً . ومع ذلك نرى المؤرخ يمدح الشرقيين فضلاً عن انه لا يذمهم على صنيعهم ونرى ابابا والغرب كله قابلاً وخاضعاً لقراراتهم المجمعية المسكونية . واتماماً للفائدة نضع جواباً من رسائلهم . قالوا :

«وبما انكم ايضاحاً لمحبتكم الاخوية ألفتم بارادة الله مجمعاً في رومية ودعوتمونا نحن ايضاً من حيث اننا عضاء تجاوبر لذلك المجلب لله . حتى انكم بعد تحملنا وحدنا مشاق الاحزان وقتئذ لا تمكنوا بدوننا وحدكم انتم الآن حين اتفاق القياصرة في حُسن الايمان . بل لذلك نحن ايضاً معكم حسب القول الرسولي . ومن كون هذا الامر يعرّي الكنائس وقد بدأت الآن ان تُجدّد . وغير ممكن

(١) ٥ : ٨ و ٩

للاكثرين ولا بوجه من الوجوه . لانا قد اتممنا في القسطنطينية ... فلهذه الاسباب رجونا اخوتنا ومساهمينا في الخدمة الاساقفة الجزيلي الوقار والكرامة كيرياكوس وافسابيوس وبريسكيانوس ان يتحملوا مشقة السعي اليكم وبهم نوضح ان عزمنا سلامي وغايتنا الاتحاد . ونوضح ايضاً غيرتنا على الايمان الصحيح . فان كل ما كابدناه من المراطقة من المضيقات وتهديد الملوك وقساوة الولاة وكل محنة أخرى انما صبرنا عليه من اجل الايمان الانجيلي المثبّت في نيقيه الثيثينية من الآباء القديسين المتوشحين بالله الثلاثمائة والثمانية عشر . فان هذا (الايمان) يلزم ان يرضى به انتم ونحن وجميع الذين لا يحرفون كلام الايمان الحق»

هذا كلام المجمع لابابا وللغرب كله وهو ينادي بالتمام الله ان الايمان ليس من المجمع بثبتة ابابا بل هو من الانجيل بثبتة المجمع فيلزم كل مؤمن سواء كان بابا او اسقفاً او قساً او شماساً او من الشعب . واسمع ما قال المجمع بعد ذلك :

«واما في ما يتعلق بسياسة الكنائس المتفرقة في كل ناحية فموجود قانون قديم كما تعلمون ومحدود من الآباء القديسين في نيقية ان يعمل لشرطونيات في كل ابرشية اساقفة الابرشية وان ارادوا هم فيتحد معهم مجاوروهم للخير . وتعلمون ان كل الكنائس الأخرى عند تابعة لهذه القوانين وعليها يقام كهنة اشهر الكنائس كالاساقفة نكتاريوس القسطنطيني وفلابيانوس الانطاكي ... واما كنيسة اورشليم التي هي ام جميع الكنائس فتعرف اسقفاً لها كيرلس الجزيل ورعه المحب لله مُشرطناً قانونياً من اساقفة الابرشية . ونطلب الى تقواكم ان تهتموا بتوسط المحبة الروحية وخوف الرب الذي يهدّيه كل اجتهاد بشري ويجعل بنيان الكنائس افضل من الميل والتحزّب لكل واحد . فانه على هذا الوجه يتم الاتفاق في كلمة الايمان وتثبت المحبة المسيحية فينا فنكفّ عن ان

نقول ما شجبه الرسل : اذا لبولس واذا لابلس واذا لصفا [1] . ونحن اذا جميعنا للمسيح الذي لم يتقسم فيناوان شاء الله نحفظ جسم الكنيسة غير منشق ونقف لدى منبر الرب بدالة حسنة »

فما اعلى وما اجمل هذه الاقوال المقدسة الالهية المنتشر فيها عرف الروح المسيحي الزكي ؟ ولكن اين محبو الحق الخالون من الاغراض ليسمعوها ويخضعوا لها ويبتعدوا عن التحزب ويحفظوا جسد المسيح والكنيسة بلا شقاق ! وشهادتها بصوت المجمع الالهي : ان استقلالية سياسة الكنائس قانون قديم وان المسيحيين ليسوا لانسان ولا للصفا نفسه الذي يدعي البابا وت خلافته بل المسيح وحده تدحض كل دعوى بسلطة عامة لا للبابا فقط بل لبطرس الرسول ايضاً * واما تسمية المجمع كنيسة اورشليم ام جميع الكنائس لا على سبيل الدعوى بل على سبيل حكاية شيء صحته مسلم بها فماذا يقول الغربيون فيها وهم يدعون ان كنيسة رومية هي ام الكنائس ؟ على ان قول الشرقيين في اورشليم يؤيده ايضاً الكتاب المقدس حيث يسمي صهيون اماً كقول داود نبوياً « الام صهيون يقول انسان الخ » [2] وقول اشعيا النبي « من صهيون تخرج الشريعة » [3] ويؤيده قول القديس يوحنا الدمشقي حيث يرتل « افرحي يا صهيون المقدسة ام الكنائس مسكن الله » [4] . واما دعوى الغربيين فلا تستند الاَّ على هذا القياس وهو « ان رومية ام الكنائس لكونها رئيسة عليها ورومية رئيسة على الكنائس لكونها امها » وهذا قياس او بالحري دور لا ينطبق على قاعدة صحيحة ولا له نتيجة صحيحة

وقد ورد للبابا داماسوس وهو الذي كان في عصر المجمع جواب الى بعض الاساقفة الشرقيين يسميهم فيها « ابناء احباء » وعليه يستند اصحاب الدعوى

(١) ١كو ١ : ١٢ (٢) مزامير (٣) ٢ : ٣ (٤) معزي اللحن الاول

بالرئاسة ليؤيدوا دعواهم ، غير ان استنادهم يسقط للاسباب الآتية : — ١ . لان القديس باسيليوس قد انكر على البابا هذا الاعجاب كما ذكرنا في ما تقدم — ٢ . لان الجواب كان الى بعض الاساقفة لا الى المجمع — و٣ . لان عنوان رسالة المجمع الشرقي الى البابا ومجمعه في الغرب يدحض الدعوى وهو هذا : « الى الاخوة الجزيل اكرامهم ووقارهم والمساهمين لنا في الخدمة داماسوس (وهو البابا) وايميروسيوس وبريطن وولاريانوس واسخوليوس واليميوس واسيليوس وسائر الاساقفة القديسين المجتمعين في رومية المدينة العظيمة السلام بالرب من مجمع الاساقفة الارثوذكسيين المقدس المجتمعين في المدينة المنيعة مدينة قسطنطين » [1] . فهذا واضحة المساواة في قولهم : الاساقفة والاساقفة والمجتمعين والمجتمعين والمجمع المقدس والمجمع المقدس والاخوة الخ . وهذا برهان صريح على ان الاساقفة اخوة وليسوا بنين وآباء بعضهم لبعض . فاين هذا العنوان من عنوان الاساقفة والمجامع الغربية الآن للبابا بقولهم « الى الحبر الاعظم نائب المسيح الجزيل الغبطة والقداسة » وما شاكله ؟

ومما هو خليق بالذكر في هذا المقام اعتراف ايمان البابا داماسوس الذي كتبه للاسقف باولينوس ويقول فيه : انه يقبل قبولاً كاملاً اعتقاد المجمع الثاني المسكوني في انبثاق الروح القدس ويلعن كل من يتجاسر ان يقول « ان الروح القدس كان بواسطة الابن والذين لا يدينون بكل حرية ان للروح القدس جوهراً واحداً وسلطة واحدة مع الآب والابن » ولم يتجاسر البابا داماسوس ان يزيد شيئاً على دستور الايمان كما فعل خلفاؤه في قرونهم المتاخرة بل حرم ولعن المتجاسرين وقال ايضاً « ان كل من يعتقد حسناً في الآب والابن

(١) تاوضوريتوس ٥ : ١٠

ولا يعتقد اعتقاداً مستقيماً في الروح القدس هو هرطوقي» . فما السبيل الى خلاص كنيسة رومية الآن من هذا الحكم ؟ وان قالوا ان ما زدوه شرح لا زيادة. قلنا: ان البابا داماسوس حرم ولعن كل من يُدخل الآن في مسألة الايمان كما هو مسطَّر في كلامه. والمحاكة في ذلك لا تجدي نفعاً.

هذا ولما كان الغربيون عاجزين عن اسناد دعواهم باشتراك البابوات في عقد المجمعين الاول والثاني الى مصادر تاريخية يستندونها احياناً الى عبارة ماخوذة من خطبة تقريظية للقيصر قسطنطين التي لُفظت بعد ختام المجمع السادس المسكوني في القرن السابع. حيث يذكر المقرظ: ان الفاضرة والآباء كانوا يشتركون في مقاومة الهرطقة ويعتدون المجامع ضدهم. فعقد قسطنطين الكبير والبابا سيلبستروس المجمع الاول. وعقد ثاودوسيوس الكبير والبابا داماسوس وغريغوريوس ونكتاريوس المجمع الثاني. وقاوم البابا كليستينوس وكيرلس الاسكندري هرطقة نسطوريوس بمساعدة القيصر وحارب البابا لاون هرطقة افتيشيس (اوطيخا) ومعه الملك مركيانوس. اناطوليوس القسطنطيني في مجمع خلكيدون. وبعد ذلك اتفق البابا ريجيليوس مع الملك يوستينيانوس وعقد المجمع الخامس. وبعد هذا يقول المقرظ للملك ما نصه « فما دام ذلك كذلك كان من الضرورة ان يجمع حلمك المحب المسيح هذا الحفل الكلي القداسة والكثير العدد »[1]

فنحن لا نطيل الكلام في ايضاح فساد هذا الاستناد. ولكننا نقول ما لا يختلف فيه اثنان: ان التقاريظ لا تصح ان تكون سنداً توثَّق بها الحقائق وخصوصاً اذا كان الموضوع المطلوب تاييده منافياً من التاريخ او من العقل. وبناء كذلك واحد منا ذلك متى راجع اعمالنا الشخصية ورأى هو نفسه ما يكتبه او ما

(١) كتاب المجامع صفحة ٥١٤

يكتب له كل يوم من التبجيل والتفخيم والمديح والتعظيم وخصوصاً اذا كان ذلك مقصوداً حيث لا اظن انه يفتكر بان ما يقرأه او يكتبه اكثر من ارضاء احساسات. ولنا في هذا الموضوع بحث وافٍ حيث الكلام في التقاريظ الواردة للقديس بطرس الرسول. وقد برهنا بالبراهين القوية ان البابا سيلبستروس لم يشترك في عقد المجمع الاول. ولا البابا داماسوس في عقد المجمع الثاني. بل ان البابا داماسوس والغربيون طلبوا عقد مجمع في الغرب والشرقيون لم يوافقوهم فعقدوه في الشرق برأيهم كما اتضح كل شيء في محله. وعليه لا يصح قول المقرظ اذا ضاد ما اثبتهُ التاريخ. ولكي لا يبقى في هذا الكلام ريب نورد برهاناً آخر وهو: ان المقرظ يقول هنا ان البابا ويجيليوس وافق الملك يوستينيانوس وعقد المجمع الخامس. والحال كان البابا ضدَّ المجمع الخامس والمجمع منع ذكره وقرَّر قراراته بدونه كما سيتضح في الكلام عن المجمع. فاين التقريظ من الحقيقة ؟ ثم ان المقرظ نفسه يقول: ان المجمع الثاني عقدهُ الملك والبابا وغريغوريوس ونكتاريوس اسقفا القسطنطينية. والحال لم يكن نكتاريوس وقتئذٍ اسقفاً على القسطنطينية كما رأينا بل قام بعد استعفاء القديس غريغوريوس. فاين هذا ايضاً من الحقيقة ؟ ومع ذلك اذا كان الثلاثة اشتركوا مع الملك في عقد المجمع أفتكون النتيجة انهم كانوا رؤساء ذوي سلطان كلٍّ واحدٍ على كل الكنيسة ؟ ولكن هذه النتيجة متناقضة فضلاً عن كونها لا توافق الغربيين. وان قالوا: فما معنى كلام المقرظ ؟ أ لعلهُ خالٍ من المعنى وكذب ؟ قلنا: ان معناهُ مدح الآباء والملوك الذين حاربوا الهرطقات لا اكثر. فيقول المقرظ: كما ان القيصر فلان والاسقف فلان او الاساقفة هم ذوو فضل في تعاضدهم ضد الهراطقة هكذا انت ايها الملك الخ.

على اننا نستغرب من الغربيين استنادهم على كل كلمة فيها تكريم لاسقف

رومية ليقيموا دعواهم عليها . فيا ترى أمن الواجب ان لا يرد لهم ذكر في الكتب الكنائسية مطلقاً حتى يعدلوا عن هذا المصدر في الاستناد ؟ اقرأوا الكتب تروعا مشحونة تقريظاً وعبارات تبجيل لكثيرين من الآباء والكتّاب والمعلمين والولاة والملوك المسيحيين . فما الغرابة مما اذا ورد مثل ذلك لاسقف رسولي مقيم في عاصمة العالم قديماً لا ينقص عن اخوته خلفاء الرسل شيئاً من مزايا الخلافة ؟ فقد اكرم وكرّم الآباء والعالم المسيحي كرسي رومية وسائر الكراسي ايضاً ولم يتصوروا ان حضرات رؤساء نوواتية خطف الحقوق من الكنيسة لمسكونية ليحصروها في شخصهم ويضموا اليها السلطان العالي ايضاً ضداً لتعليم المسيح « الذي سلطانه ليس من هذا العالم »[1] . وكانوا يقابلون تحاريز الباباوات بجمع وتواضع حين كانت نحوى التعليم الصحيح لا خضوعاً للبابا بل اكراماً للمعلم . وكانوا يسمون كرسي رومية رسولياً مثل الكراسي الاربعة . والبابا خليفة للرسل مثل سائر خلفائهم . ولكنهم كلما كان الباباوات يشذّون عن الحق كانوا يوبخونهم كما في مجمعي قرطاجنة وخلكيدون حيث جاؤوا بقوانين مزوّرة . وفي المجمع الخامس ضد الباباويجاليوس كما ذكرنا وسنذكر وفي المجمع السادس حيث فاهوا بحرم بعض الباباوات . فما كان كرسي رومية سوى متقدم بين متساوين كما قلنا في المقدمة . وكل دعوى بغير ذلك باطلة .

على ان من يتبصر في التاريخ يتضح له ما قاله احد العلماء[2] « ان الاساقفة مع كونهم محصورين في السياسة ضمن ابرشياتهم لهم حقوق عامة لا يمتاز فيها احدهم عن احد . وذلك في ما يخص حفظ الايمان * ولهذا كلما كانت تظهر هرطقة او اضطهاد ضد الايمان كان كل منهم يعتبر من واجباته

(١) يو ١٨ : ٣٦ (٢) بنكام ٢ : ٥

المقدسة ان يساعدوبجاهد عن الايمان سواء كان في ابرشيته او خارجها . فليست الابرشيات سوى حدود معينة مرتبطة بشروط لحفظ الترتيب في اوقات السلام . واما الايمان فهو موضوع عام كما قامت حرب ضده كان العالم المسيحي كله يتحول الى ابرشية واحدة وكل الكنيسة الى رعية واحدة يرعاها ويدافع عنها كل واحد من الاساقفة على قدر ما يستطيع اينما كان . فعلى هذا المعنى كل اسقف هو مسكوني لاشتراكه في العناية العامة لكنيسة المسيح كلها . وعليه قال اوغستينوس المغبوط لبابا بونيفاتيوس « ان العناية الرعائية تتعلق عموماً بجميع الذين عليهم واجبات الاسقف وان كان هو في ذاته ذا مقام اعلى في الحراسة »[3] والقديس كبريانوس يشهد بذلك قائلاً « ان جماعة الاساقفة مرتبطة برُبُط اتفاق الآراء والاتحاد المتبادل حتى انه اذا سقط احد منهم في هرطقة وشرع في ان يمزق ويبيد رعية المسيح واجب على الآخرين ان يبادروا ويجمعوها . لانا وان كنا اساقفة (كثيرين) لكننا نرعى رعية واحدة . وعلينا ان نجمع وندارى جميع الخراف التي اشتراها المسيح بدمه »[4] . والقديس غريغوريوس قال في كبريانوس « انه راعٍ وافضل واحسن الرعاة . لانه لم يكن رئيساً على كنيسة القرطاجنيين فقط ولا على افريقيا وحدها الشهيرة به من وقته بل على الغرب وتقريباً على الشرق عينه ايضاً من جنوبه الى شماله حيث جاء هو بالعجائب »[5] وقال ايضاً في اثناسيوس « انه اذ صار اسقفاً على اسكندرية اؤتمن على ادارة الشعب ورئاسته وبقول واحد اؤتمن على كل المسكونة »[6]

فاي دور يبقى لدعوى الغربيين لدى هذه العبارات لو شُرحت على معناها الحرفي ؟ ومع ذلك ما من شرقي يدّعي لكبريانوس او لاثناسيوس اولغيرهما

(١) رسالة ضد بيلاجيوس (٢) رسالة ٦٨ (٣) خطاب ١٨ (٤) خطاب ٢١

سلطةً على كل الكنيسة * اما كون كرسي رومية كرسيَّ رسولٍ اورسلٍ فلا يميزها عن غيرها لان الكراسي الرسولية كثيرة وجميعها واحد قبالها وكرسي اورشليم هو كرسي المسيح نفسه . وقد قال اوغسطينوس « ان الكنيسة المسيحية تمتد الى كل العالم بالكراسي الرسولية وتعليم الاساقفة »(١) . وقال ابوليناريوس الصيداوي في لوبس احد اساقفة فرانسا « انه جلس على سدته الرسولية ٤٥ سنة »(٢) . والقديس باولينوس يقول لانيسيوس اسقف افريقية « ان الرب بحق احصاه في رؤساء الشعب اذ اقامه على السدة الرسولية » فلو كانت السدة الرسولية واحدة فقط اي في رومية كيف جاز ان تكون في فرانسا سدةٌ رسولية وفي افريقيا سدةٌ رسولية فضلاً عن كراسي البطاركة الرسولية ؟ وكيف جاز لاوغسطينوس الغربي الشهير ان ينطق بكراسي رسولية بلفظ الجمع ؟ وكذلك كلمة رئيس لم تُعطَ لواحدٍ منهم ممتازةً عن الآخرين بل لجميعهم بالتسوية كما ذكر ايارونيموس في شرح المزامير والنبوات بقوله « بها انتسمي رؤساء على الكنيسة الاساقفة الذين سيقومون مقام سائر الآباء » . وكذلك كلمة بابا ومعناها الاب كما ذكرنا لا تميز اسقفَ رومية والاسكندرية عن غيرهما لانها لم تكن خاصة بهما بل كانت عامةً لجميع الاساقفة كما رأيت في النعمة وفي رسائل كبريانوس . اما تسمية « اب الآباء » و « اسقف الاساقفة » فقد وردت اول مرة في رسالة القديس اكليمس اسقف رومية لا لبابا بل للقديس يعقوب اخي الرب . فسمي بها اسقف اورشليم قبل اسقف رومية . ولما قرظ ابوليناريوس الصيداوي لوبس اسقف فرانسا ما استحق لم يجعل البابا ولا اسم بطرس بل اسم يعقوب فقال « انه كان بالحقيقة اب الآباء واسقف الاساقفة ويعقوب آخر في عصره »(٣) . وقد رأينا ايضاً ان القديس

(١) رسالة ٤٣ (٢) ١٠٣ (٣) رسالة ١

اثناسيوس سمّى البابا ليبريوس اسقفاً وسمّى الاسقف اوسيوس ابا الاساقفة ورئيس جميع المجامع . وقس على ذلك امثالاً كثيرة .

فمن هذا نستنتج ان عبارات التبجيل والتفخيم لا يصحّ ان تكون اساساً للحقائق ولا تستند عليها دعوى وتثبت . وعليه فلا ينسَ القارئ قدر الالقاب حين يرى عبارات التبجيل تتخلل رسالة المجمع الرابع الى البابا لاون كما سيأتي

الفصل الخامس

في علاقات الكهنة في القرن الخامس

١ — القديس يوحنا الذهبي الفم

في اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس حصل في الشرق والغرب نزاعٌ يتعلق بموءلفات اوريجانس بين حزبين متضادين . اسبابه استناد الاريوسيين على عباراتٍ منها اختلفوا في فهمها وحقيقة نسبتها . وكان من جملة اضداد اوريجانس رهبة سكيتي في بلاد مصر اعتبرت موءلفات اوريجانس اصلاً لكل هرطقة . ومن جملة انصاره كانت رهبة أُخرى على جبل نيتريا (القرم) ومعها الاسقف الاسكندري ثوفيلوس (سنة ٣٨٥ — ٤١٢) رجلٌ يصفه التاريخ بصفة ثلاثة اشياء وهي : المال والمجد والفتنة . فلما اصدر ثوفيلوس تحريره الفصحي لسنة ٣٩٩ وقاوم اعداء اوريجانس جاءت رهبة سكيتي واجبرته ان يحرم اوريجانس . فحرمه اولاً غصباً . ثم لاسباب مالية دنيئة لا محل لها هنا تنازع مع

اتباعه ايسيدورُس الفرمي والاخوة الاربعة فانضاف الى اضداد الاوريجانيين وحرم اوريجانس فخاف اتباعه انتقامه والتجأوا الى رهبنة نيتريا . واذ لم يرضَ آباء هذه الرهبنة ان يوافقوا على حرم اوريجانس بنَوا على تعريب كتاباته على قولهم ارسل عليهم ثاوفيلوس عسكراً وبدّد شملهم وطردهم فهربوا الى اورشليم. ثم الى بيسان (سكيثوبولي) ومن هناك الى القسطنطينية (سنة ٤٠١) . وكان وقتئذٍ على كرسي القسطنطينية القديس يوحنا الذهبي الفم (من سنة ٣٩٧). فقبلهم القديس يوحنا بلطف ولكنهُ اعتبرهم محكوماً عليهم. واخذ يسترضي ثاوفيلوس عنهم . ولكن الرهبان توصلوا الى توسط الملكة افدوكسيا عند زوجها القيصر اركاديوس ان يامر ثاوفيلوس بالحضور الى القسطنطينية والمحاكمة من مجمع رئيسهُ يوحنا الذهبي الفم . فغضب ثاوفيلوس ونسب الواقع الى يوحنا واخبر القديس ابيفانيوس اسقف قبرص وهو من اشد اعداء اوريجانس ان كنيسة القسطنطينية انضافت الى اوريجانس . وهكذا خدعهُ وارسلهُ الى القسطنطينية بعد انهُ عقد مجمعاً في سالاميس (قبرص) وحرم اوريجانس * وفي هذا الاثناء قام خصام بين القديس يوحنا والملكة افدوكسيا لانهُ كان يقاوم رذائل الاوقات في خطبهِ ضداً لارادتها . فاغتنم الفرصة ثاوفيلوس وجاء لا كأنهُ مطلوبٌ للمحاكمة بل كحاكم . وعقد مجمعاً ضد يوحنا تحت رئاستهِ بمساعدة الملكة خارج القسطنطينية خوفاً من الشعب وهو المجمع المعروف بمجمع البلوطة قرب خلكيدون (سنة ٤٠٣) حيث لفقوا عليهِ انهُ خائن للملكة ودعوهُ للحضور . غير انهُ كان يطلب عقد مجمع مسكوني . فبعد ان دعوهُ اربع مرات ولم يحضر قطعوهُ وحكم الملك عليهِ بالنفي. واذ لم يسلم الشعب بنفيهِ وتداخل العسكر قام يوحنا وهدأ الشعب ونصحهم بالخضوع لملكهم وخرج منفياً * وفي ليلة اليوم التالي حدثت زلزلة عظيمة في

المدينة فتزايدت ذمة الملكة افدوكسيا على القديس حالاً الى كرسيهِ. فدخل المدينة والشعب امامهُ وحولهُ بالطرب والتهليل حتى خجل ثاوفيلوس وهرب الى اسكندرية.

ولكن لم تمضِ مدةٌ طويلة حتى تجددت الضغينة واشتدت في قلب افدوكسيا ضد القديس لاسباب مزعجة الكنيسة ارتكبها فلم يحتملها هو وشجبها عليها علانيةً فاخذت تضطهدهُ . فاستدعت ثاوفيلوس ضدهُ ولفّق عليهِ شكوى . وبمساعدة بعض المتحزبين في البلاط نُفي القديس الى نيقيه سنة ٤٠٤ ثم الى كوكوسوس في حدود ارمينيا وابصَبريا . وقد تحمّل في منفاهُ مشقّات عنيفةً مدة ثلاث سنوات كان يواصل فيها شعبهُ المخلص ويعزّيه بقولهِ « ان الذي لا يظلم نفسهُ لا يستطيع احدٌ ان يضرّهُ » . وعندما نُفي كتب لاخوتهِ الاساقفة منهم اينوشنسيوس اسقف رومية وفلاديانوس اسقف انطاكية. وهؤلاء كتبوا لاكليروس القسطنطينية يعزونهُ ويظهرون كدرهم مما حصل. ولكن فلاديانوس توفي حالاً وخلفهُ في انطاكية بُرفيريوس وهذا وافق اضداد يوحنا. فلم يبقَ سوى اسقف رومية امينا لهُ . وقد كتب هذا البابا للبطريرك ثاوفيلوس يلومهُ على سلوكهِ . غير ان ثاوفيلوس لم يحتمل ملامتهُ بل قابلها بالازدراء ايضاحاً لتعديهِ وقام نزاع بين الكرسيين دام الى ان قرر مجمع قرطاجنة (في القانون ١٠٤) ان يصطلحا بينهما بحفظ السلام الذي اوصى بهِ الرب. غير ان المداخلات بدلاً من ان تنفع القديس يوحنا اضرت بهِ. لانهُ سنة ٤٠٧ صدر امرٌ بابعادهِ الى بيتيوس في حدود البحر الاسود فذهب . ولكن مشقات السفر عجلت على اجلهِ فقضى نحبهُ بعد مدةٍ قليلة وهو يقول « الحمد لله على كلّ حال »[1] . وما هدئت اضطرابات الشعب لاجلهِ حتى نُقل جسمهُ الى القسطنطينية سنة ٤٣٨ من القيصر ثاوذوسيوس الصغير.

(١) مقراط ٦ : ١٦ — ١٨ . صوزم ٨ : ٩ — ٢٢ . وثاوذوريتوس ٥ : ٣٤

هذه بوجه الاختصار ترجمة القديس يوحنا الذهبي الفم. وفيما يرى الغربيون ان كتابة القديس للبابا اينوشنسيوس دالّ على سلطة للبابا على الكنيسة * ولكن الشرقيين يدفعون هذه الدعوى ويثبتون ان تاريخ يوحنا الذهبي كلّه يضادها كل المضادة. فيقولون: ـ ١ ـ انهُ لو كان البابا ذا سلطة على الكنيسة لما التجأ الرهبان الهاربون من ثاوفيلوس الى القسطنطينية بل الى رومية ـ ٢ ـ لما تظلّم الرهبان الى الملكة قالت «من متعلقاتي اذا ان اجمع مجمعاً وادعو ثاوفيلوس»[1] ولم تقل ان ذلك من متعلقات البابا البتة ـ ٣ ـ ان ثاوفيلوس وايفانيوس جمعا مجامع بسلطانهم ولم يستشيروا اسقف رومية[2] ـ ٤ ـ لما لم يرضَ يوحنا بمجمع البلوطة لم يرفع قضيتهُ الى رومية بل الى مجمع مسكوني[3] ـ ٥ ـ لما رجع من منفاه الاول كان يستعفي من ان يدخل المدينة قبل عقد مجمع كبير لرواية القضية ولم تخطر رومية على باله. فاجتمع مجمع مؤلف من ستين اسقفاً ونفى ما أتهمهُ به مجمع البلوطة وبرّأه[4] ـ سادساً لما نُفي المرّة الثانية لم يكتب للبابا وحده. بل لرؤساء كنائس كثيرة مستقلة. منهم فلابيانوس الانطاكي وبانيريوس اسقف ميلان العتيد وخليفة القديس امبروسيوس الكبير وخروماتيوس اسقف اكليليا وغيرهم. ولم يطلب منهم حكماً بل مداخلة ورأفة لحاله. وهذا شان كل مصاب. فلو كان هذا الطلب يثبت سلطة لكان لكل اسقف من الذين خاطبهم سلطان على الكنيسة كلها. وعلى ذلك تكون الدعوى للبابا وحده ساقطة بتعدد ذوي السلطة. وهاك نصّ ما كتبهُ لهم القديس يوحنا. قال:

«انني اناديكم جميعاً. وارجو محبتكم ان تنهضوا وتركضوا وتعملوا كلّ ممكن لتوقيف المصائب ... فاذا قد علمتم كلّ شيء يا سادتي الجزيل اكرامهم ووقارهم أظهروا

(١) صفحة ٨ (٢) ١٤: ٨ (٣) ١٧: ٨ (٤) ١٨: ٨ و١٩

شجاعتكم واجتهادكم اللائق لتوقفوا هذا التعدي الجائر الذي اصاب الكنائس. ولكي لا يعمّ هذا الاضطراب العظيم كل ما تحت الشمس اكرموا بان تحرروا (للاضداد) ان ما جرى على هذا الوجه من طرف واحد خلافاً للشريعة وفي غيابنا فيما اننا لسنا برافضين المحاكمة لا قوة لهُ. كما انهُ ليس على مقتضى الطبيعة. واما الذين اجتراؤا على هذه التعديات ضد الشريعة ان يُثبتوا ويوضعوا تحت قصاص الشرائع الكنائسية. واما نحن الذين لسنا بمرتكبين ولا مشجوبين ولا ظهرت علينا جريمة فاكرموا بان نتمتع بقاريركم متتابعة ومحبتكم وبكل ما غير ذلك كما كنا قبلاً ... وان كانوا يريدون ان يستمروا على هذه الارتكابات العظيمة التي ارتكبوها خلافاً للشريعة فلتجلس محكمة عادلة وتحاكم امامها وتدافع وتكشف عن الاسباب بحضور المسكونة واوضح نفسي بريئاً».

فواضح الامر ان الرسالة ليست الى البابا وحده بل اليهِ والى الاساقفة الآخرين ايضاً. وان القديس عندما طلب المحاكمة طلب ان تقام «بحضور المسكونة» اي في مجمع مسكوني. ولم يجعل البابا قاضياً ولا حاكماً ولا اسقفاً عاماً ـ ٧ ـ تاكد ذلك ايضاً من جواب البابا. قال المؤرخ صوزومينوس «فلما علم اينوشنسيوس اسقف الرومانيين ما جرى ضد يوحنا تكدر. فمقت هؤلاء (اي الاضداد) واخذ يسعى في جمع مجمع مسكوني. فكتب ليوحنا ولقسم من اكليروس القسطنطينية» وهو حزب يوحنا. فالرسالة الى يوحنا كانت رسالة تعزية لا اكثر. واما الرسالة الى بعض اكليروس القسطنطينية فتشهد من فم البابا ان السلطان العام يخصّ المجمع المسكوني. وهاك نصّ ما قالهُ في رسالته الى الاكليروس:

«ولكن ماذا نصنع الآن ضدّ مثل هؤلاء في الحاضر؟ من الضرورة ان

يفحصوا من مجمع قد قلنا من ذي قبل ان اجتماعه ضروري لانه هو وحده (اي المجمع) يستطيع ان يهدئ حركات مثل هذه الزوابع. ولكي نحصل على ذلك ينفعنا ان نخيل الآن العائلة لمشيئة الاله العظيم والمسيح ربنا. فهو يعزي على كل الاضطراب الذي حصل الآن بحسد المال لاختبار المؤمنين. ويجب ان لا نقطع الرجاء البتة من ربنا بثبات الايمان. لاننا نحن نفتكر كثيرًا كيف يمكن ان يجتمع المجمع المسكوني لكي بمشيئة الله تكف الحركات المزعجة»[1]

فها هو البابا اينوشنسيوس نفسهُ يعترف في رسالتهِ ان المجمع المسكوني لهُ السلطان الاعلى الذي يستطيع ان يحسم ويجزم ويحكم في المسائل الكنائسية الحكم القاطع. ويعترف بانهُ هو وحدهُ لا يقدر على شيء. فاين هذه الكتابة الصحيحة من الدعوى عليهِ الآن انهُ هو كان الحاكم الاعلى وذا السلطة المطلقة على الكنيسة؟ — ٨. لكي لا يُظَن ان كتابة البابا ايضًا لاكليروس يوحنا كانت مُسندةً الى سلطةٍ لهُ نورد ما قالهُ ثاوفانيس «ان اينوشنسيوس اسقف رومية وفلابيانوس الانطاكي لم يساهما على خلع يوحنا. لكنهما عزيا اكليروس القسطنطينية بتحاريرهما وكانا متكدرَين من الجسارة التي حصلت» — ٩. لكي لا يُظَن ايضًا ان هذين وحدهما تداخلا في المسألة نورد ما قالهُ المورخون. فقال صوزومينوس «وقد توفي فلابيانوس ايضًا من دون ان يوافق على قطع يوحنا. وخلفهُ في كنيسة الانطاكيين برفيريوس. ومن كونهِ وافق اعداء الذهبي الفم انفصل كثيرون من الذين في سوريا عن كنيسة الانطاكيين. واذ كانوا يقيمون المجامع لوحدهم كابدوا اتعابًا وشدائد كثيرة لكي يشتركوا مع ارساكيوس (اسقف القسطنطينية بعد يوحنا) وبرفيريوس هذا وثاوفيلوس»[2] وقال جاورجيوس

(١) صوز ٨: ٢٦ (٢) ٨: ٢٤

الاسكندري «وقد رذل بنوعٍ خصوصيّ هذا الظلم اساقفة اوربا وايليريا لانهم ابعدوا انفسهم عن الاشتراك معهم». وقال ثاوذوريتوس «وقد رذل بنوعٍ خصوصيّ هذا الظلم اساقفة اوربا. لانهم ابعدوا انفسهم عن الاشتراك مع الفاعلين. وجميع الايليريين انضافوا الى جماعتهم. واكثر المدن التي في جهة بزوغ الشمس (اي مدن الشرق) رفضوا الاشتراك بالظلم. ولكنهم لم يشقوا جسم الكنيسة. وبعد وفاة القديس لم يشتركوا مع المصريين والآخرين قبل ان وُضع اسم القديس في الديبتيخا»[3] والقديس يوحنا الذهبي الفم نفسهُ يمدح اساقفة مكدونية على شجاعتهم من اجلهِ[4] ويشهد لابريليوس اسقف قرطاجنة بانهُ كابد تعبًا جزيلاً وعرَقًا من اجل الكنائس التي في المسكونة ويوكد لهُ الاجر ويرجوهُ زيادة الاجتهاد[5]. ومثل ذلك للاسقف افلوجيوس حيث قال «نرجوكم ان تلبثوا مظهرين هذه الغيرة عينها وتكونوا ثابتين ومبتعدين عن هولاء بالشجاعة اللائقة. فانهُ ان كان لقوالك على هذا العزم فيقتني آثارك جميع اساقفة الدين في فلسطين»[6]. وقد قال قبلاً لاساقفة الغرب «يا ساداتي» كما رايتَ. فيا ترى لو لم يقُل القديس كلمة يا ساداتي لاساقفة الشرق والغرب وقفا قلبًا وحدهِ أفما كان يعلمنا بها الفريسيون كل فطنةٍ ولاتردهم عن الاستناد عليها لاحجةً ولا برهان؟ فاين الآن الذين يعتمدون على كلام التجهيل ويبنون عليهِ حقائق؟ أو مَن يصدق ان يوحنا الذهبي الفم كان عبدًا لاساقفة الشرق والغرب وكلهم كانوا اسيادهُ؟ ومثل ذلك كتب للاسقف ايبشيوس[7]

(١) كتاب ٥ راجع كلمة ديبتيخا في كتاب خدمة الكهنة المقع منا والمطبوع في بيروت سنة ١٨٩٠ صفحة ١٧٤ (٣) رسالة ٣٧ (٣) رسالة ٣٧
(٤) رسالة ٦١ (٥) رسالة ١٥

وثاوذوسيوس لسقف يسان [1] ولغيرهم ـ ١٠ ـ ان البابا اينوشانسيوس اجتهد كل الاجتهاد ليجمع مجمعاً مسكونياً وساعده اونوريوس ملك الغرب كثيراً . وقد ارسل الى القسطنطينية خمسة اساقفة وقسيّن ليقنعوا الملك اركاذيوس ان يجمع مجمعاً ويعين وقتاً ومكاناً له . فما كانت النتيجة الا انهم طُردوا بصفة مفسدين ومزعجين رئاسة بعيدة عنهم . ومن الاضطهاد على يوحنا زاد بنفيه الى مكان ابعد [2] حيث قضى عليه ـ ١١ ـ واخيراً . لما كتب البابا بلوم ثاوفيلوس على سلوكه في مسألة يوحنا الذهبي الفم . فمع ان ثاوفيلوس ملام حقيقة على ذلك السلوك لم يطق ملامة البابا اياه بل رفضها بكل سلطان ايضاحاً لمساواة الحقوق ولتعدي البابا على ما ليس له . فهذا كله ينفي الدعوى بالسلطة نفياً قاطعاً . ويثبت ان المجامع ما كانت تُجمَع بامر البابا وان بل بامر الملوك * اما دعوى الغربيين بان البابا حرم اركاذيوس وقطع البطاركة ارساكيوس القسطنطيني وثاوفيلوس الاسكندري فلا تستند على برهان ولم يذكرها احد من المورخين القدماء ولا توافق نصوص رسائل البابا حيث ذكر اضداد يوحنا كما رأينا . ولا تنطبق على العقل ايضاً . فانه لو كان قطع البطاركة لأقام غيرهم في محلهم . ولكننا لا نرى في اقواله واعماله الا انه لا يستطيع على شيء * وكذلك لو كان حرم الملك لما طلب منه عقد مجمع . ولما استعان باونوريوس على اقناعه ولما كتب ليوحنا في تحاريره ان يطيل اناته لانه لا يستطيع ان يساعده . والذي فعله البابا هو انه قطع علاقات الشركة مع اضداد يوحنا كما فعل كثيرون غيره وكما هي العادة لكل الاساقفة في اوقات الخصام . والدليل على ذلك هو انه حالما وُضع اسم يوحنا في ديبتيخا الكنيسة رجع هو وسائر اصدقاء يوحنا الى

(١) رسالة ٩٤ (٢) صور ٨ في آخر . ورسالة يوحنا ١٢٤

الشركة مع ثاوفيلوس الاسكندري وانصاره [1] . ومن الغرائب ان القائلين بهذا القول استناداً على جاورجيوس الاسكندري وهو من المتاخرين يذكرون حوادث فعلتها الملكة على زعمهم وتاريخ حدوثها متاخر عن تاريخ وفاة الملكة بسنة وسنتين وثلاث كما فصل ذلك البطريرك ذوسيثاوس . اما حرم ملك الشرق من البابا فليس امراً صغيراً حتى لا يذكره المؤرخون القدماء كالأذيوس الذي كان في رومية وصوزومينوس المحقق المذكور ذكرا حوادث صغيرة جداً بجانب حادث مثل هذا كحادث تسكير امبروسيوس باب الكنيسة في وجه ثاوذوسيوس * ثم ان الغربيين يدعون ايضاً بان البابا صفح بعد ذلك لاركاذيوس . والحامل على ما أرخ ثاوذوريتوس « لما نقل الملك ثاوذوسيوس جسد الذهبي الفم من كومانا الى القسطنطينية وضع عينيه وجبهته على نعشه وطلب وتوسل من اجل والديه (اركاذيوس وافدوكيا) وكان يرجو (القديس) ان يسامح ظالميه عن جهل [2] . فلو كان البابا صفح لها وهو على زعم الغربيين قادر على كل شيء في السماء وعلى الارض . ما الحاجة الى طلب المسامحة لهما من القديس؟ على اننا وان فرضنا ان البابا حرم الملك فلا تنتج من ذلك سلطة له . لان هذا الامر يفعله بسلطانهم لا البابوات والبطاركة فقط بل الاساقفة والقسوس ايضاً [3] .

فمن كل ذلك يتضح ان كل ما يدعيه الغربيون استناداً على تاريخ القديس يوحنا الذهبي الفم ساقط لا صحة له

(١) ذوسيثاوس ٢ : ١٠ ، ٩ ـ ١٢ (٢) ٣٦ ، ٥ (٣) ذوسيثاوس ٢ : ١٠ ، ١٥

آ · مجمع قرطاجنة

والبابا اوات زوسيموس وبونيفاتيوس وكِلستينوس

نحو سنة ٤٠٠ التجسّد جاء رومية راهبٌ بريطانيٌّ اسمهُ بيلاجيوس ذو معارف وفضيلة وورع · ولكنهُ من الذين ساقهم ضعف الطبيعة الى السقوط في الاضاليل · وكان ضلالهُ متعلقاً بالتعليم في الخطيئة الجدية بانهُ انكرها وانكر نتائجها وانكر ضرورة نعمة الله لخلاص الناس وماشاكل ذلك من الآراء · وكان يعلّم تعاليمهُ في رومية بلا مانع وجذب اليهِ رجلاً شريفاً ايرلنديَّ الاصل اسمهُ كِلستيوس · وفي سنة ٤١١ ذهب هو وكِلستيوس معاً الى افريقيه الشمالية وانفصلا هنالك · فبقي كِلستيوس في قرطاجنة وذهب بيلاجيوس الى مصر ففلسطين · فطلب كِلستيوس ان يُشرطَن قساً وكانت تعاليمهُ غير منتشرة بعد. ولكن شماساً من كنيسة ميلان اسمهُ پاولينوس جاء وقدّم عليهِ شكوى الضلال في سبع قضايا · فاجتمع مجمعٌ في قرطاجنة (سنة ٤١٢) وبعد فحصهِ وعدم رفضهِ البدع حرم · فذهب الى افسس وسيم قساً[1]

غير ان بيلاجيوس انضم في فلسطين الى الاورجيين ونظراً لشدة لغوهُ كان مكرماً جداً · ولكنهُ صادف مقاومةً اولاً من ايرونيموس ثم من القس يواس اوروسيوس الاسباني الذي اشتكاهُ في مجمع فلسطين تحت رئاسة يوحنا اسقف اورشليم (سنة ٤١٥) · ثم من اسقفين غربيين افرنسيين وهما هيروس ولعازر اللذان اشتكياهُ امام مجمع في لدّ (ديوسپوليس) تحت رئاسة افلوجيوس اسقف

(١) اوغسطينوس في النعمة والخطيئة ٢ : ٣ — ٤

قيصرية في السنة عينها · ولكنهُ في المجمعين اعترف اعترافاً مستقيماً وامضى ايضاً على الحكم الذي صدر من مجمع قرطاجنة ضد كِلستيوس وتبرّأ بصفة تامة · فلما بلغ الامر لاوروسيوس تلميذ اوغُستينوس الذي كان تعليمهُ ضد تعليم بيلاجيوس ابلغهُ لاساقفة افريقيه · فعقدوا مجمعين (سنة ٤١٦) احدهما في ميلاوي والآخر في قرطاجنة وحكموا فيهما على كِلستيوس وبيلاجيوس · وكتبوا للبابا اينوشنسيوس ضدهما · وكتب اوغُستينوس في اثناء ذلك ليوحنا اسقف اورشليم ضد بيلاجيوس · واذ توفي يوحنا كتب البابا اينوشنسيوس لخلفهِ برايليوس رسالةً ضدهُ اي ضد بيلاجيوس. فاكد لهُ برايليوس براءة بيلاجيوس وارسل لهُ نسخة اعتراف ايمانهِ · ولكن اوغُستينوس ايضاً ارسل الى البابا صورة اعتراف ايمان بيلاجيوس على اصلهِ القديم قبل الندامة · فرفضها واعتبرها هرطوقية ووافق الاساقفة الافريقيين · فلما علم بيلاجيوس بما كان ارسل هو نفسهُ الى البابا صورة ايمانهِ وجاء كِلستيوس بنفسهِ الى رومية ليدافع عن تعلمهِ · ولكن البابا اينوشنسيوس توفي في هذه السنة وخلفهُ البابا زوسيموس · واذ وقف زوسيموس على تعليم بيلاجيوس وكِلستيوس المخدع من ظاهرهِ وعباراتهِ الملتبسة ورضي بهِ وكتب لاساقفة افريقية رسالةً عنفهم بها على حكمهم ضدهما بدسائس هيروس ولعازر عن مآرب شخصية · وبعد وقتٍ قليل ورد اعتراف ايمانٍ ثانٍ من بيلاجيوس ورسالةٌ يقيم فيها الحجة على الذين اشتكوهُ ويبرىء نفسهُ من تهمهم ووردت مع رسالتهِ رسالةٌ من اسقف اورشليم تشهد بصحة ايمانهِ · فطرح البابا ذلك في مجمعٍ وبعد المذاكرة اعتبر اعتراف بيلاجيوس مستقيماً وكتب البابا تحريراً آخر للاساقفة الافريقيين يبكتهم ايضاً فيهِ ويعتبر الاثنين ارثوذكسيَّين* غير ان الافريقيين لم يعيروا اذناً لتبكيت البابا بل اقاموا عليهِ الحجة · وعقدوا

مجمعاً في قرطاجنة (سنة ٤١٧) ثبتوا فيه ما قرروهُ سنة ٤١٢ ضد الاثنين واظهروا للبابا انخداعه . وبناءً على نصيحة اوغُستينوس عزموا على عقد مجمع كبير لتقرير الحقيقة . فلما وقف البابا على غلطهِ وعدل بفحص المسألة من جديد* وفي اثناء ذلك كتب اوغُستينوس للقيصر اونوريوس بحق المبتدعين واستخرج امراً مورخاً في ٣٠ نيسان سنة ٤١٨ بنفي كل من ذهب مذهبهما من رومية . وفي اول ايار من السنة عينها اجتمع في قرطاجنة مجمع مولف من ٢١٤ وعلى قول فوتيوس من ٢٢٥ وعلى رأي كاتب اعمال المجمع من ٢١٧ اسقفاً . وكان في المجمع نوابٌ من كل ابرشية وثلاثةُ نوابٍ من طرف البابا زوسيموس وهم الاسقف فافستينوس والقسان فيلبُس وآسيلُس . وكان رئيس المجمع ابريليوس اسقف قرطاجنة الذي في اعمال المجمع يُسمَّى من الاساقفة بابا* ففي بدء المجمع طلب ابريليوس ان تُقرأ اعمال المجمع النيقاوي . غير ان الاسقف فافستينوس نائب البابا اعرض لائحةً معهُ من البابا وطلب النظر فيها . وكان مضمونها اربعة فصول : اولها واهمها وجوب استئناف الاساقفة الى البابا بناءً على قرار مجمع سردیكي الذي ادعى البابا بانهُ قسمٌ من مجمع نيقية للمسكوني وان قوانينهُ محصاةٌ مع قوانين المجمع النيقاوي . فلما سمع آباء المجمع تلك الدعوى قالوا : ان نسخَ اعمال المجمع النيقاوي التي عندنا ليست فيها هذه القوانين (اي قوانين سردیكي) ولاجل رفع الشبهة قرروا ان يُحضروا صوَر اعمال المجمع الاول المصححة الاصلية من كنائس الروم القسطنطينية والاسكندرية والانطاكية ويقابلوها عليها . ثم شرعوا في رؤية المسائل الدينية وحكموا على كِلستيوس وبيلاجيوس وحرموا هرطقتهما . واذ وقف البابا زوسيموس ايضاً على حقيقة ضلالهما كتب منشوراً ضدهما وطلب من جميع الاساقفة الغربيين

الحكم على تعليمهما . فبعضهم اجاب ولكن ثمانية عشر اسقفاً رفضوا طلبهُ ففي اكثرهم . وفي سنة ٤٣١ حكم المجمع المسكوني الثالث نهائياً على تعليم بيلاجيوس وتابعيهِ * وكان في عهد البابا زوسيموس قسٌّ افريقيٌّ في ابرشية سيكي اسمهُ ايباريوس اشتهر في القبح والرذيلة وقُطع من الكنيسة . فذهب الى رومية الى البابا زوسيموس وطلب مساعدتهُ . فاخذ البابا بنصرهِ وقبلهُ في شركتهِ وهو مقطوعٌ وارسلهُ بتحاريرَ توصيهِ الى مجمع قرطاجنة مع الاسقف فافستينوس فاتيا في المجمع . غير ان المجمع نظراً لقوانين اسلافهِ « ان كلَّ اكليروسيٍّ يستأنف دعواهُ ضد اسقفهِ في عبر البحر اي في ايطاليا او عند البابا » لا يقبل في افريقيا البتة »[1] كان من الواجب ان لا يقبلهُ . ولكنهُ اذ كانت تصدرت من البابا الدعوى بحق استئناف الاساقفة اليهِ وكان مجمع افريقيا قد انكر ذلك عليهِ وتوقف الامر الى بعد التفحص عنهُ في نسخ الروم الاصلية . فضلَّ مراعاة السلام واعتبر مداخلة البابا توسُّطاً حبياً ورضي ان يقبل ايباريوس في الشركة بعد الندامة والتوبة* وفي هذه الاثناء توفي البابا زوسيموس وقام خليفةً لهُ البابا بونيفاتيوس (سنة ٤١٨) . فكتب لهُ المجمع جواب رسالة سلفهِ بخصوص ايباريوس واستئناف الاساقفة . يقولون :

« الى بونيفاتيوس السيد الكلي الغبطة والاخ الجزيل الاكرام من ابريليوس وزملائهِ اساقفة السدة الاولى في ابرشية نوميديا وسائر الذين حضروا في مجمع افريقية وعددهم مائتان وسبعة عشر »

« بما انهُ حسنٌ عند الرب ان نرسل الجواب نحن القاصرين في ما اشتركنا معاً في عملهِ اخوتنا الجزيلو القداسة الاسقف فافستينوس والقسان فيلبُس

(١) انظر قانون ٣٦ مجددًا ايضاً قانون ١٢٤ من قوانين قرطاجنة

وآسلُس لا الى الاسقف زوسيموس السعيد ذكره الذي احضروا لنا منهُ التحارير والتواصي بل الى كرامتكم اذ قد أقمتم من الله في مكانهِ . وجب علينا ان نوضح بقصير العبارة ما تمَّ باتفاق الفريقين مع قطع النظر عن تنصيل لقلب المذاكرات المطوَّل لتقرير الاعمال . الذي مع المحافظة على المحبة لم يخلُ من تعب قليل في المنازعة الى ان حصلنا مع التفكر على ما يوافق المصلحة وقررناهُ على الاعمال * فانهُ لو كان ذلك ايضاً (اي زوسيموس) في هذا الجسد لقبلَ بكل سرور ايها الاخ السيد ما كان يراهُ منهياً على قاعدة السلام * فالقس ايباريوس الذي قد حصلتْ فتنٌ بسبب شرطونيتهِ وقطعهِ واستدعائهِ (الى الثانيا) لا في سيكي فقط بل في كل كنيسة افريقيه ايضاً بعد انهُ طلب صفحاً عن كل اضاليلهِ . أُرجع الى الشركة . لان اخانا اوربانوس اسقف سيكي هو اول من اصلح كل ما يحتاج فيهِ الى الاصلاح . ولكن بما ان الواجب يقضي ان نعتني في سلام الكنيسة وراحتها لا لاجل الحاضر فقط بل لاجل المستقبل ايضاً . لان اموراً مثل هذه كثيرة قد سبقت . ولكي نتحفَّظ من امثال هذه الامور او من اشد منها في ما بعد قد حسُنَ عندنا ان يقام القس ايباريوس من كنيسة سيكي مع المحافظة على كرامة درجتهِ . وان يأخذ رسالةً (اي شهادة) ويخدم خدمة قسوسيتهِ في محلٍ آخر حيث يريد ويستطيع . الامر الذي التمسهُ ايباريوس نفسهُ بكتابةٍ منهُ ونحن سمحنا لهُ بهِ بلا صعوبة . وقبل ان تتمَّ هذه المسألة على هذه الصورة مع بقية المسائل التي كنا فحصها بتدقيقاتٍ متواصلةٍ اقتضى منا الكلام (او العقل) ان نطلب من اخوتنا الاساقفة فاسنتيوس والقسين فيلبس وآسلس ليقدموا كلَّ ما هو مسموح لهم ان يشتركوا معنا بهِ في الاعمال الكنائسية . فذكروا بعض ذلك شفاهياً بلا كتابةٍ . ولكنا طلبنا منهم كتابة الكوموينطوريوم (اي اللائحة

(الكتاب الموصية) الذي جاؤوا بهِ . فقدموهُ . وبعد انَّا قرأناهُ وضعناهُ سيفي جملة الاعمال التي تم الآن حاملوها اليكم . وقد اشتمل على اربع قضايا كانوا مامورين بان يعلموها معنا . أولاها في استئناف الاساقفة الى كاهن كنيسة رومية . والثانية في ان لا يسافر الاساقفة الى باب السلطنة كيفما اتفق . والثالثة في ان تفحص قضايا القسوس والشمامسة عند الاساقفة المجاورين اذا قطعهم اساقفتهم من الشركة عن حمق (اي بلا ذنب) . والرابعة في وجوب قطع الاسقف اوربانوس من الشركة او بالحري وجوب استدعائهِ الى رومية اذا لم يصلح ما يجب اصلاحهُ * فمن هذه كلها القضية الأولى والثالثة تعني السماح للاساقفة بالاستئناف الى رومية واقامة قضايا الاكليروسيين عند اساقفة ابرشياتهم قد اعتنينا بان اوضحناها في العام الماضي بتحرير مرسلةٍ منا الى الاسقف زوسيموس نفسهِ الكرم الذكر التي تحافظ عليها وقتاً قليلاً ولا نهيئهُ الى ان تُطلب قرارات مجمع نيقية . والآن نطلب من قداستك ايضاً ان تجعلنا نحفظها على حسب ما عُملنا وقُرِّرنا من الآباء في نيقية . وان تجعل القضايا المدونة في الكوموينطوريوم عينهِ ان تُراعى عندكم فقط * ثم يشرحون كيفية ذلك ويقولون * فهاتان (القضيتان) أحصيتا في الاعمال الى حضور نسخ المجمع النيقاوي الحقيقية . فان كانتا فيها كما في الكوموينطوريوم الذي وصل الينا بواسطة الاخوة المرسلين من السدة الرسولية وهما مرعيتان عندكم في ايطاليا على هذا الترتيب عينهِ فلا نريد نحن ايضاً ان نذكر شيئاً مثل هذا ولا نحاول ان لا نحتملها . ولكنا على يقينٍ اننا بمعونة الرب الهنا ما دامت قداستك رئيسةً على كنيسة رومية لا تكابد هذا التصلُّف . بل تحفظ كلَّ الامور التي يجب حفظها بمحبةٍ اخويةٍ من دون ان تتكلم نحن . الامور التي انت نفسك ايضاً بما منحك الله من الحكمة والعدل تحكم

بوجوب حفظها اذا صدف وكانت قوانين مجمع نيقية على غير ما يُقال الآن فيها. لاننا نحن عثرنا على كتب كثيرة ولم نقرأ اعمال مجمع نيقية ولا في واحد منها في الكتب الرومانية عينها على الوضع الذي أُرسلت عليه من عندكم في الكومونيطوريوم المذكور. ولكن لكوننا لم نستطع ان نجدها هنا في كتاب يوناني نود ونفضل ان يؤتى بها اليها من الكنائس الشرقية حيث يُقال انه يمكن ايجاد القرارات الاصلية عينها. ولهذا نلتمس من وقارك ان ترضى انت ايضاً وتكتب لكهنة تلك الجهات نعني كنيسة انطاكية واسكندرية والقسطنطينية ولغيرهم ايضاً اذا لاح ذلك لتداستك ان تأتينا من هناك القوانين المدونة في نيقية من الآباء القديسين. وتكون انت قد اشتركت بنوع خصوصي في ادخال هذا الاحسان كنائس الغرب جميعها بعونة الرب. فانهُ مَن يشك في ان نسخ المجمع الذي التأم في نيقية هي على غاية الحقيقة عند الروم وانها اذا جُمعت من اماكن متفرقة كل هذا التفرُّق من كنائس الروم الرسمية توجد متطابقة؟ ولكن الى ان يتم ذلك نعترف بالطلب مناني الكومونيطوريوم المذكور ونحفظهُ الى حين الاثبات».

وقد ارسلوا هذه الرسالة الى البابا مع نوابه الاسقف فلستينوس والقسيس قلبس وارسلس. وبعد مدةٍ ليست بطويلة وردت للمجمع نسخ اعمال المجمع النيقاوي الاصلية من البطريرك الاسكندري كيرلس والقسطنطيني آتيكوس مصحوبةً برسائل منهما. وكان عنوان رسالة كيرلس هذا:

«من كيرلس الى السادات الجزيل كرامتهم والاخوة الجزيلة قداستهم مساهمينا في الاسقفية اريليوس وواليندينوس وكل المجمع الملتئم في قرطاجنة الجزيل قدسه. نقبل محبتكم بالرب».

وعنوان اسقف القسطنطينية آتيكوس كان هذا:

«من الاسقف آتيكوس الى السادات الجزيل اكرامهم والاخوة الجزيلة قداستهم

ومساهمينا في الاسقفية اريليوس وواليندينوس واقرانهم المجتمعين في مجمع افريقيا»

وبعد مقابلة النسخ الاصلية بعضها على بعض والاطلاع عليها وجدوها مطابقة للترجمة الافريقية ولم يجدوا فيها اثراً لما كتبهُ البابا زوسيموس وادعاءهُ في الكومونيطوريوم. ومن ثم تأكدوا ان دعواهُ بحق الاستئناف اليهِ الذي طلبهُ بناءً على تلك الاعمال لا صحة لهُ. وهكذا أُرسلت الى البابا بونيفاتيوس النسخ الاصلية مع الاشخاص الذين احضروها من الشرق. فالبابا بونيفاتيوس اخذ تلك الاجوبة ولبث مقتنعاً[1]. ولكنهُ بعد قليلٍ توفي (سنة ٤٢٢) وقام البابا كليستينوس خليفةً لهُ. وحدث في ايام هذا البابا ان ايباريوس رجع الى حالتهِ القديمة وسوء سلوكهِ وستوجب القطع. فذهب الى البابا كليستينوس واستنجدهُ. ففتح لهُ البابا ساعدي القبول والترحاب وقبلهُ في شركتهِ ضدَّ لكل قانونٍ وارسلهُ الى مجمع قرطاجنة مع الاسقف فلستينوس نائبهِ وأكَّد عليهِ ان يغصب كنيسة افريقية على قبولهِ وارجاعهِ. وعلى هذا العزم حضر نائب البابا ومعهُ ايباريوس وايدى فظاظةً في المجمع اوجبت الاشمئزاز منهُ. واذ رأى ابريليوس رئيس المجمع هذا السلوك الخارج عن الحق واللياقة استنطق ايباريوس حتى اقرَّ من فمهِ بذنوبهِ ووبخهُ توبيخاً صارماً. وكتب للبابا رسالةً باسم المجمع ادرج فيها المسألة كلها وما قرَّرهُ الآباء في سلوك ايباريوس. واوضح حقوق الكنيسة الرومانية. ولما كانت هذه الرسالة تغني عن كل شرحٍ ادرجناها كما هي لايضاح الحق وفائدة كل قارئ. قال:

«الى السيد الحبيب والاخ الجزيل الكرامة كيليستينوس من ابريليوس وبالانيوس وانطونيانوس وبيصس وبرادوسذاي وتيرتنيوس وفورتوناتوس ومرتينوس وايباريوس

(١) بيذالبون صحة ٢٢١

داوبناتوس وكلنيوس ودوناتس وفنسيوس ودبكتيوس وفورتوناتيانوس وسائر الموجودين في كل مجمع قرطاجنة » .

« كما ان قداستك اوضحت انكم فرحون بحضور ايباريوس حين أُرسلت التحاريز بواسطة اخينا القس لاون هكذا كنا نود نحن ايضاً لو ارسلك بفرح مثلك هذه التحاريز في تطهيره . فان نشاطنا ونشاطكم كان اكيداً ولم يظهر انهُ محتاج الى ان يسأل عما يسمع الآن اكثر مما سبق وسمع من ذي قبل . فما حضر الينا اخونا الجزيل القداسة ومساهمنا في الاسقفية فلسطينوس جمعنا مجمعاً وصدقنا انهُ أُرسل مع ذاك (اي مع ايباريوس) لهذه الغاية نعني لكي انهُ كما رجع بسعيهِ (فيلاً) الى قسرليته . هكذا يستطيع الآن ايضاً بجدهِ ان يتطهر من الذنوب الكثيرة التي أُعرضت من اهالي صاير كينه . فلما اجتمع جمهور مجمعنا وجد ان قبائحهُ الكثيرة العدد والفظيعة جداً قد ثبتت على محاماة المذكور عنهُ اكثر من حكمهِ فيهِ وعلى اجتهاد المتصرفهُ اكثر من عدلهِ عدل المحقق . لانهُ (اي فلسطينوس) اولاً قاوم المجمع كلهُ مقاومة عظيمة واهانهُ كأنهُ ينزع عن امتيازات الكنيسة الرومانية ويريد ان يكون ذاك مقبولاً منا في الشركة . ذاك الذي صدقتهُ قداستك انهُ يستأنف امراً لم يستطع ان يبرهنهُ فاعدتهُ الى الشركة . غير ان الامر آل بهِ الى لا شيء . ومن قراءتك الاعمال تعلم ذلك اكثر مما . فبعد ان اقمنا محاكمتهُ ثلاثة ايام بعناية كثير ايضاً كنا نبحث بالسحاق في ما قُرِفَ بهِ من المذمات المتنوعة قضى الله القاضي العادل القوي الطويل الاناة باختصار عظيم محادثات اخينا الاسقف فلسطينوس ومحاولات ايباريوس نفسهِ التي كان واثقاً بانهُ يغطي بها قبائحهُ المحرَّمة . وذلك بان اصراره المعروف للتلن ووقاحتهُ في الانكار الذي بهِ

كان يريد ان يغمر حمأة كل هذه المذمات زالت تماماً . لان الله قد ضيَّق ضميرهُ واشهر للناس كلهم خفايا قلبهِ وهي مسجونةٌ كنها في وحلة الجرائم . ومن ثم قام المنكر انفشاش واندفع بغتةً الى الاعتراف بجميع الذنوب المنسوبة اليهِ وكاد الأ يوبخ نفسهُ بنفسهِ طوعاً على جميع العيوب الخارقة الانتظار . على ان املنا ايضاً الذي بهِ صدقتهُ وكنا بهِ نتمنى ان يستطيع ويتطهر من الادناس العظيمة الموجبة عليهِ الخجل قد نقلهُ الى تهدئات . لأ انهُ قد خفف حسرتنا هذه بعزاء واحد وذلك انهُ اعتقنا نحن ايضاً من تعب التعب المتواصل وباعترافهِ وان يكن اعترافاً كرهياً ورغماً عن ضميرهِ قد جهَّز شفاءً لجراحهِ بها الاخ السيد * فإذن بعد تأدية واجب الاكرام المتوجب نسأل ان لا تقبلوا فيما بعد بسهولة الذين يرحلون من هنا الى مسامعكم ولا ترضوا ان تقبلوا في شركتكم الممنوعين منا عن الشركة . بما ان هذا الامر محدودٌ من مجمع نيقيه ايضاً ويمكن لوقاركم ان يجدهُ بسهولة . فانهُ اذا كان (القانون) يستدرك هناك ظاهراً امر الاكليروسيين ذوي الدرجات الواطئة وامر العلمانيين ايضاً فكم بالحري يعني وجوب حفظ ذلك في امر الاساقفة ايضاً ؟ فيجب إذن ان الذين أُفرزوا في ابرشيتهم من الشركة لا يعادون الى الشركة بسرعة وعلى خلاف الواجب من قداستك . ومثل ذلك ان ترفض قداستك على ما يليق بك الاحتماء العادم الحياء احتماء القسوس والاكليروسيين الذين دونهم . بما انهُ ليس قانونٌ من قوانين الآباء ينكر ذلك على كنيسة افريقيا . وقرارات مجمع نيقية قد صرَّحت للاكليروسيين كل التصريح سواء كانوا من ذوي الدرجة الواطئة او الاساقفة انفسهم وحوَّلتهم الى مطارنتهم . لانها قد علمت بحكمة وعدل ان كل المسائل التي تنشأ يجب ان تُنهى في محلاتها . فانهم ما اعتقدوا بان عنايةً من العنايات تخلو من نعمة الروح القدس

التي بها تُرى العدالة بعقلٍ وتُحفَظ ثبات من كهنة المسيح. بل انه سُنح ايضاً لكل واحدٍ يرتاب في محاكمة المحققين ان يستأنف الى مجامع لرشيته عينها او الى مجمع مسكوني . ما لم يكن في الوجود من يصدّق انه ممكن ان يُلهم الله لواحدٍ اياً كان العدالة في الحكم وان يحجبها عن كهنةٍ لا يُحصَون مجتمعين في مجمع . او كيف يكون هذا الحكم اكيداً وهو في عبر البحر (اي في ايطاليا) حيث لا يستطيع الاشخاص الضروريون للشهادة ان ينتقلوا اما لضعف الطبيعة او تضعف الشيخوخة او لموانع غير ذلك كثيرة ؟ واما من جهة ارسال اشخاص من جانب قدسك فلا نجد ذلك محدّداً في مجمعٍ من مجامع الآباء . لان ما أُرسل من عندكم قديماً بواسطة اخينا الاسقف فاسيتينوس نفسه كأنه ماخوذٌ عن مجمع نيقية لم نستطع ان نجد شيئاً مثلهُ في اصدق نسخ مجمع نيقية التي حصلنا عليها من اخينا كيرلس الجزيل القداسة اسقف كنيسة الاسكندريين ومن آيتكوس المكرَّم (١) اسقف القسطنطينية. وقد أُرسلت لنا عن النسخ الاصلية. وقبل هذا العهد أُرسلت منا الى سلفكم المكرَّم اذكر الاسقف بونيفاتيوس بواسطة القس ايتوشتسيوس والايبوديا كون مركليس الذين أُرسلت لنا بواسطتهما من ذينك (الاسقفين) . فلا ترضوا إذن ان ترسلوا من عندكم اكليروساً قضاةً اذا طلب ذلك قومٌ . ولا تسمحوا بذلك لكي لا نظهر اننا ندخل انتشاخ العالمي الشبيه بالدخان الى كنيسة المسيح التي تقدم نور السذاجة ونهار التواضع للمريدين ان ينظروا الله . وما دام ايباريوس المرتي له قد قُطع الآن من اخينا فاسيتينوس وأُبعد من كنيسة المسيح كما اقتضت قباحة الجرمة عينها. لا تطيق افريقية بعد الآن

(١) ان كلمة « المكرَّم » « الاسافقة هنا وفي غير هذا المقام في اليونانية بلفظ « بروسكينوس » ومعناها « المحبود لله » ولكنا ترجمناها بلفظ المكرَّم مراعاةً للاصطلاح

ان يكون تحت استحسان وعناية قداستك وهي محافظة على المحبة الاخوية . — فالهنا يحفظ قداستكم زماناً طويلاً داعياً لنا ايها الاخ السيد (١) .

هذا ما كان من علاقات البابوات الثلاثة المشار اليهم مع مجمع قرطاجنة. ومنها يتضح ان اسقف رومية لا يمتاز عن الاساقفة في شيء وان روح السيادة والسلطة قد ظهر في بعض البابوات كالبابا زوسيموس وغيره من امثاله . ولكنهُ رُفض من الكنيسة واعتُبر دخاناً عالمياً كما هو مصرَّح في رسالة المجمع الافريقي المحصاة في قوانين المجامع المكانية اذ تُعدُّ قانوناً ١٣٨ من قوانين مجمع قرطاجنة (٢) ومما يستحق الاعتبار هنا ويُريح قلوب المدعين بالرئاسة والرافضين لها شهادة رسالة المجمع الصريحة بان المجمع الاول المسكوني النيقاوي يعلم في قوانينهِ بمساواة الاساقفة بعضهم لبعض . وهذه الشهادة تنفي اقوال المدعين على ذلك المجمع المقدَّس بتعليم سلطة للبابا. وارى ان كل جدال على هذا الموضوع عبثٌ. لان شهادة المجمع القرطاجني الافريقي الغربي هي جهينة الحق قد قطعت قول كل خطيبٍ مماحكٍ يعبث بالحق . بل هي استنادٌ كافٍ وافٍ لكل محبٍّ للحق ان يعتقد الاعتقاد الحق بان الكنيسة كلها جمعاء في كل التاريخ الذي تقدم هذا المجمع لم تعرف دعوى او شبه دعوى برئاسة وسلطة لبابا على مصف الاساقفة . وان كل استنادٍ يستند عليهِ اصحاب هذه الدعوى ومرجعهُ الى مجمع قرطاجنة وما سبقهُ من التاريخ المسيحي مدة الاربعمائة والاثنتين والعشرين سنة الاولى هو باطلٌ. لان رسالة المجمع تنفيهِ وتدحضهُ بكل الصراحة والايضاح . وعلى ذلك يسقط ايضاً الاستناد الذي يستندهُ الغربيون على مجمع

(١) آخر قوانين مجمع قرطاجنة (٢) مجموع القوانين لزالي وبوتلي اليوناني في آخر مجمع قرطاجنة وكتاب قوانين المجامع الغربي في المحل عينهِ

سردیكي سقوطاً تاماً على ان الشرقيين يبدون بعض ملاحظات ايضاً لا تخفى على نظر الحذاق نوردها بوجه الاختصار . فيقولون : ١ ° ان مجمع قرطاجنة قد حكم بسلطانه على كِلِستيوس المبتدع (سنة ٤١٢) لا بسلطان البابا ولا بمعرفته — ٢ ° قد عُقد مجمع في اورشليم وآخر في لدّ وحاكما وحكما ولم تكن فيهما مداخلة للبابا — ٣ ° عُقد مجمعان ايضاً في افريقيا حكما على كِلِستيوس وبيلاجيوس معاً وبعد حكمهما كتبا للبابا اينوشنسيوس إبلاغاً فقط مع انهما في الغرب — ٤ ° بعد ان وافق البابا اينوشنسيوس الافريقيين ضد تعليم بيلاجيوس وكِلِستيوس المبتدعين قام خلفهُ البابا زوسيموس ووافق المبتدعين وخالف الافريقيين . ثم هو نفسهُ ايضاً خالف نفسهُ بنفسهِ فرفض المبتدعين ووافق الافريقيين . وهذه الاعمال لا تنطبق عليها تعاليم الغربيين وايمانهم بالبابا انهُ معصوم وخصوصاً لان هذا الغلط كان في الايمان — ٥ ° ان اساقفة الغرب لما رأوا انخداع البابا اقاموا عليهِ الحجة وكانوا هم الارثوذكسيين والبابا غير ارثوذكسيّ الى ان ندم ورجع . وهذا ايضاً ينافي الدعوى بالسلطة والعصمة — ٦ ° لما اجتمع مجمع قرطاجنة العظيم مؤلفاً من ٢١٧ اسقفاً وكان فيهِ ثلاثة نواب من طرف البابا لم يقم احدهم رئيساً عليهِ بل كان رئيسهُ ابريليوس اسقف قرطاجنة عينها . فاين دعوى الرئاسة من هذا العمل المنافي لها ؟ — ٧ ° ان السعيد ذكرهُ البابا زوسيموس قد خلّف في التاريخ مأثرة لا يحسن ذكرها بتزويرهِ على المجمع النيقاوي قوانين ما سنّها وما عرفها البتة . فالقى البابا بها مجمع قرطاجنة في ارتباك . واضطرّ المجمع من جرآء ذلك الى التحقيق — ٨ ° عند ما وقع الخلاف في قوانين المجمع النيقاوي وطلب اثبات الحقيقة أُثبتت من الروم ومن كتب الروم وكفى ما في ذلك من الشهادة لاستقامة كنيسة الروم — ٩ ° ان طلب البابا استئناف الدعاوي

اليهِ (الا السلطة كلها . ولا يخفى ان حق الاستئناف هو جانب زهيد من السلطة) اعتبرهُ المجمع عتواً وتصلفاً كما يظهر من مراجعة رسالتهِ الى البابا نفسهِ — ١٠ ° ان البابا زوسيموس ارتكب فعلاً غير ممدوح ايضاً باشتراكهِ مع ايباريوس المقطوع وانتصارهِ لهُ وهو كما ظهر بعد ذلك كان من اقبح الناس سلوكاً واشرهم عملاً — ١١ ° ان مجمع قرطاجنة ما قبل ايباريوس المُرجَع من البابا الاّ بعد توبتهِ وندامتهِ ورضاهُ بالاستعفاء من خدمتهِ في مركزهِ الاول . وهذا يثبت خطأ البابا في اشتراكهِ معهُ . فلو كان للسلطة اثرٌ لما وُضع ايباريوس تحت قانون الندامة بعد اشتراكهِ مع من يسميهِ آلهة اليوم رأس الكنيسة الخ — ١٢ ° عندما ذكر المجمع في رسالتهِ اسم البابا ما سمّاهُ اكثر من «كاهن كنيسة رومية» فاين هذا الاسم من الرئاسة والسلطة المدّعاة ؟ — ١٣ ° البابا طلب وجوباً قطع اوربانوس رئيس القس ايباريوس . ولكنّ المجمع ما قطعهُ وجوباً ولا جوّز قطعهُ اثباتاً لكونهِ ليس مرءوساً من البابا — ١٤ ° لينتبه القارئ الى عبارة المجمع في رسالتهِ الاولى بقولهِ «نحافظ على القضايا ولا نهين البابا زوسيموس الى ان ترد نسخ اعمال المجمع النيقاوي الاصلية» فبقولهِ «لا نهينهُ» يدلّ على ان عدم صحة دعواهُ لا تثمرلهُ سوى الاهانة . كما ان كلّ من يدعي تلك الدعوى الباطلة لهُ يهينهُ بدعواهُ فضلاً عن انهُ لا يخدمهُ خدمة نصوحة — ١٥ ° ان البابا بونيفاتيوس المدرك لم يشارك آراء البابا زوسيموس سلفهِ ولكنّ خلفهُ البابا كِلِستينوس قد عمِل عمَل زوسيموس بقبولهِ ايباريوس مرةً ثانيةً واشتراكهِ معهُ وهو مقطوع وتحكيمهُ الى اجبار مجمع قرطاجنة على قبولهِ . ولكنّ حكمة ابريليوس اسقف قرطاجنة اشهرت قبح صنيع البابا كِلِستينوس وسوء عملهِ بحمايتهِ لايباريوس . فكتب لهُ في الرسالة ما كتب من الاقوال المؤثرة بالنسبة الى عدم قانونية

سلوكه ولا حاجة الى اعادتها ١٦ واخيرًا. نكرر ما قلناهُ في اول الكلام ان جهينة قطعت قول كل خطيب . فان المجمع اوضح للبابا سقطتهُ العظيمة في اشتراكه مع المقطوع ابياريوس بشرح سوء حالته وفظاعة ارتكاباته واوضح لهُ غلطهُ في انتصاره للمنشقين بعدم استحسان الآباء محاماة فاقسنيوس عنهُ نائب البابا . واوضح لهُ عدم حق مداخلته في امور الكنائس الأخرى بنهيه اياهُ عن قبول المقطوعين . واثبت ذلك من المجمع النيقاوي المسكوني . وصرَّح لهُ ان الكنيسة تعلم بان مرجع الاساقفة الى رؤسائهم لا الى اسقف واحد . وان المسائل الكنائسية تُهيَّأ في محلاتها . وان كل عنايةٍ هي نعمة لروح القدس . وان حق استئناف الدعاوي منوطٌ بمجامع الابرشيات او بالمجمع المسكوني اشارةً الى انها ليست سلطة كنائسية اعلى من مجمع الابرشية غير المجمع المسكوني الذي هو القاضي الاعلى لشخص الكنيسة كلها جمعاء . وقال ان الروح القدس لم يخصص نفسهُ لواحدٍ وحدهِ اي للبابا ويترك المجمع . ولا يخفى ما في هذا الكلام من الاستخفاف بآراء ودعاوي البابويين * ثم ان المجمع انكر ايضاً على البابا قبول نوابٍ من طرفهِ في فحص الدعاوي . واوضح لهُ بعريض العبارة تزويرما ورد من رومية بهذا الباب وبطلانهُ . ونهاهُ عن ارسال منشئين من طرفهِ . وسعى ميل البابا الى الرئاسة «تشامخاً عالياً شبيهاً بالدخان» في الترفُّع والسوادوالدناءة والمقت . وفي الختام نهدَّد البابا اذا كان يعود ويقبل في شركته ابياريوس المقطوع بقولهِ « لا تطيق فريقية بعد الآن ولا بوجهٍ من الوجوه ان يكون تحت استحسان وعناية قداستكم وهي محافظة على المحبة الاخوية »*

فاية براهين اقوى من هذه البراهين لتثبت الحقيقة وتدفع الباطل ؟

هذا ونختم هذه الملاحظات باذكرهُ مترجم قوانين المجامع في حاشيته الرابعة

بعد قوانين مجمع قرطاجنة وهي مسطَّرة في النسخة الخط العربية . قال :

« ان الرئاسة والسلطة اللتين يدعي بهما البابا لا ثبات لهما من المجامع المسكونية والكنائس اصلاً ... ولعدم اثبات ما يحاولون عليهِ اتباع البابا في مطلوبهم تراهم في كل عصرٍ يتشبثون بصنفٍ من الدعاوي لاثبات قصدهم . واذ يخيبون منهُ يتركونهُ ويتمسكون بآخر غيرهِ . ولاجل ذلك في تلك الاعصار ما كانوا يستندون على لسيد المسيح وبطرس الصليح ... بل على المجامع المقدسة . كما فعلوا اولاً في هذا المجمع الافريقي مستندين على قوانين مجمع نيقية . وأصحوا كاذبين بدعواهم هذه من فحوى نص القوانين المذكورة عينها الواضح بيانها من النسخ الاصلية المودوع قيدها في سجلات الكراسي الرسولية الشرقية ... وبعد ذلك في المجمع الخلكيدوني » كما سنوردهُ في كلامنا عن المجمع الرابع .

وقال في الحاشية الخامسة ما هو بحرفهِ :

« خاماً قد اتضح ظاهراً عياناً من رسالة هذا المجمع الافريقي ان كتب الروم الشرقيين هي الصحيحة النسب والموثوق بها في حين الاعتبار في ما هو مودوعٌ بها من القيود والحدود وصحة الواقع والاخبار المحفوظة في كنائس المشرق ذات الوقر . وان الروم الشرقيين مشهود لهم من حال الاصل انهم لا يحرِّفون الكتب بحال من الاحوال . وبيان ذلك هو ان آباء هذا المجمع ما اعتمدوا على ما كان عندهم ... لكنهم التمسوا ان يؤتى لهم ... من كنيسة القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية الخ » وكفى بكنائس الروم الشرقية ما في هذه الشهادة الغربية من الافتخار وسمو المنزلة والاعتبار

٣ . المجمع المسكوني الثالث في افسس

ان اهمّ الاسباب التي دعت انعقاد المجمع المسكوني الثالث المقدس كان ظهور بدعة نسطوريوس. كما ان اهمّ الاسباب التي دعت انعقاد المجمع المسكوني الرابع المقدس كان ظهور بدعة افتيشيس (اوطيخا). ومع ان الكلام المطوّل في هذين الموضعين من خصائص التاريخ الكنائسي العام وليس من متعلقات تاريخنا هذا ان نبحث في ما يزيد عن علاقات الكنيستين الشرقية والغربية نرى ان كلامنا فيهما ولو على سبيل الاختصار ضروريٌّ ومفيد . فنقول :

كانت كنيسة المسيح الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية تعلّم منذ البدء ان مخلصنا الوحيد الله كاملٌ وانسانٌ كاملٌ ربٌّ واحدٌ لمجد الله الآب . فقام آريوس وانكر عليها الاعتقاد بطبيعة لاهوت الكلمة المتأنس . فعقدت المجمع الاول المسكوني وحكمت عليه وعلى تعليمه كما ذكرنا وقررت حقيقة كمال لاهوت المخلص . ثم قام ابوليناريوس وعلّم بنقص في طبيعة المسيح البشرية واعتقد بان اللاهوت في المسيح مقام العقل في الانسان . فعقدت عليه وعلى غيره من المبتدعين المجمع الثاني المسكوني المقدس وحكمت على تعاليمهم وقرّرت حقيقة كمال ناسوت المخلص . غير انها لم تعيّن بعبارات محدودة وجه الاتحاد بين اللاهوت والناسوت ووجه العلاقة بين الطبيعتين الالهية والانسانية . ولذا كانت الطريق رحبة لتفاوت التعبير في هذا المعنى بين المعلّمين الكنائسيين مع حفظ وحدة التعليم وجوهره . حتى ادّت الحال فيما بعد الى تفاوت فهم التعبير ونشأ عنه اختلاف في

التعليم وخصام ونزاع افضى الى الشقاقين النسطوري والاوطيخي وغيرهما

وكانت في تلك الازمنة مدرستا اسكندرية وانطاكية اللاهوتيتان مشهورتين اكثر من كل مدرسة غيرهما في الشرق والغرب . وكان لكل واحدة منهما نهج خصوصيٌّ في التعليم واصطلاح في التعبير كثيرًا ما خالف اصطلاح الاخرى في تأدية المعنى الواحد كما جرى في تعليمهما عن لاهوت وناسوت المخلص .

فان مدرسة اسكندرية كانت تعتقد بكمال الطبيعة البشرية في شخص المخلص ضدًّا لتعليم ابوليناريوس . وبكمال الطبيعة الالهية ضدًّا لتعليم آريوس . ولكنّ تعبير معلميها كان غير معيّن في ايضاح وجه اتحاد الطبيعتين واختلف بعد ذلك عن التعبير الكنائسي المعيّن . فقالوا مثلاً بالاتحاد الطبيعي والاتحاد الشخصي والاتحاد الجوهري بين الطبيعتين . وبعضهم نظروا الى الطبيعة الالهية بنوع خصوصي وقالوا بطبيعة واحدة متجسدة وما عنوا بكل ذلك سوى الاتحاد الحقيقي بين لاهوت الكلمة وناسوته وان الاله المتأنس شخصٌ واحدٌ وليس اثنين . لان كلمة « طبيعة » كانت عندهم بمعنى الشخص والاقنوم (١) على انهم ما انكروا الطبيعتين بمعنى الجوهر اللاهوتي والعنصر البشري . والذين قالوا بالطبيعتين على معناها الحقيقي اعتقدوا بتمييز بينهما لا بمعنى الاختلاط والتشويش بل بمعنى الاتحاد الحقيقي ايضًا اتحادًا اقنوميًّا (٢) على انهم ما انكروا ايضًا ان المسيح المخلص واحدٌ في الاقنوم ولكنهُ ليس واحدًا في الطبيعة . ونظرًا لامتداد بدعة آريوس ووجوب محاربتهم لما كان كلامهم يتعلق بلاهوت المخلص اكثر مما بناسوته وكانوا يسمون سيدتنا مريم « والدة الاله » ويقولون بانها

(١) اثناسيوس في تأنس الكلمة ٣ : ١ (٢) غريغوريوس الثاولوغس خطاب ٢١ و ٥ وغريغوريوس النيسي في كتابه ضد ابوليناريوس . وغد إفنوميوس

ولدت إلهاً وان « الاله وُلِد وتألَّم وصُلِب الخ »[1] . ولا يخفى ان بعض هذا التعبير لم يُسمح به بعد تعيين التعبير الكنائسي كالقول بالمزج والطبيعة الواحدة وغيرهما . وكان معلمو الغرب على الغالب متفقين مع الاسكندريين في المنهج والتعبير كما يتضح من رسائل يوليوس بابا رومية الى ديونيسيوس الاسكندري في اواسط القرن الرابع حيث ينكر الاعتراف بطبيعتين استنادًا على قول الانجيل « والكلمة صار بشرًا » وقول بولس « ربٌّ واحد يسوع المسيح » ويعترف بطبيعةٍ واحدةٍ للاهوت الغير المتألم والناسوت المتألم . وحيث يقوله الطبيعة يعني « الشخص والاقنوم » لا ينكر الطبيعة البشرية بل يثبت الطبيعة الالهية ضدًا لتعليم آريوس . وكذلك القديس اوغستينوس في تكلُّمهِ عن اتحاد اللاهوت والناسوت[2] قد استعمل لفظة « المزج » خلافًا للتعبير الذي حُدِّد فيما بعد من الكنيسة .

واما مدرسة انطاكية فكانت مبادئها تقتضي في كل موضوع بساطة المنهج وكمال الايضاح وادراك تعليم الايمان ادراكًا تامًا . ولهذا السبب كانت تميز بين اللاهوت وبين الناسوت في شخص المسيح الواحد . ومع انها كانت تعتقد بان المسيح واحدٌ وليس اثنين كانت ترفض التعليم بالاتحاد الطبيعي وبالمزج بين الطبيعتين وكانت تعتبر اتحادهما اضافيًا بمعنى السكنى والارتباط حفظًا لكمال الطبيعة البشرية التي زعم ابوليناريوس انها كانت ناقصة وشهد بذلك يوحنا بان الكلمة « سكن فينا » وبولس بانهُ « ظهر بها » . وكانت تتكل على الناسوت خواص اللاهوت كالحضور في كل مكانٍ والقدرة على كل شيءٍ وما شاكلها .

(١) فوتيوس كتاب ١١٢ و٢٧٥ . وافسابيوس في ترجمة قسطنطين ٣ : ٤٢ . وكيرلس الاورشليمي عظة ١٠ . واثناسيوس خطاب ٢ : ١٤ و٢٢ ضد الاريوسيين . وديدموس في الثالوث ١ : ٢٣ . وغريغوريوس الثاولوغوس خطاب ٥١ (٢) رسالة ١٣٢ : ١١

وعلى اللاهوت اهواء وآلام الناسوت كالولودة والتألم والموت وما شابهها . ولهذا السبب كان معلموها يجتنبون كل تعبيرٍ يؤدي على زعمهم الى مثل ذلك المعنى كتسمية العذراء بوالدة الاله وغيرها من العبارات التي عيَّنتها الكنيسة بعد ذلك صيانةً للتعليم القويم . ومع اعتقادهم بكمال الطبيعة الالهية كانوا يعتقدون بوجوب كمال الطبيعة البشرية ايضًا . لان الانجيلي يقول ان يسوع « كان يتقدم بالحكمة والقامة »[1] وهذا لا يُقال الا في طبيعةٍ بشريةٍ محضة . وكانوا يعلِّمون بوجوب السجود للناسوت بمعنى انهُ إلهٌ للكلمة ويقولون « اننا نسجد للارجوان من اجل المتردي به . وللهيكل من اجل الساكن فيه . ولصورة العبد من اجل صورة الله . وللمحمل من اجل رئيس الكهنة . وللمتَّخذ من اجل الذي اتخذهُ . وللمكوَّن في بطن البتول من اجل خالق الكل » . على انهم ما كانوا يعلِّمون باقنومين بل باقنومٍ واحدٍ ذي طبيعتين متحدتين بلا امتزاجٍ ولا اختلاط ولا تشويش . ولهذه الاسباب كانوا من جهةٍ يقدمون للمخلص سجودًا واحدًا ومن جهةٍ أخرى يرفضون الاعتراف بالاتحاد الطبيعي او الجوهري حذرًا من حصر اللاهوت او من تألُّمِ الناسوت[2] .

فينتج مما تقدم ان معلمي المدرستين كانوا يعلِّمون التعليم المستقيم على مناهج مختلفة مع محاذرة استعمال عباراتٍ مستقبحةٍ او مع استعمال عباراتٍ اشدَّ من المستقيمة تحصينًا للتعليم القويم بحسب اقتضاء مراكزهم . فكان المصريون يشذُّون العبارات المتعلقة بايضاح كمال طبيعة اللاهوت حذرًا من بدعة آريوس التي

(١) لو ٢ : ٥٢ (٢) ديودورُس الطرسوسي في كتابهِ ضد الابوليناريين وفي كلامهِ في الروح القدس — وثاودورُس المپسوستي في شرح رسالة رومية . واعمال المجمع الثالث واعمال المجمع الخامس

ظهرت في اقليمهم ضد التعليم بكمال اللاهوت . وكان الانطاكيون يطلبون ايضاح كمال طبيعة الناسوت حذراً من بدعة ابوليناريوس التي ظهرت في اقليمهم ضد التعليم بكمال طبيعة الناسوت . ولكنهُ قام في الكنيستين او المدرستين ناسٌ تطرفوا في تعليمهم فسقطوا في الضلال . فقام في مدرسة انطاكية مَن تطرَّف من التعليم بالطبيعتين الى التعليم بشخصين او اقنومين حتى انكر الاتحاد الحقيقي وهذا هو نسطوريوس واتباعهُ . وقام في اسكندرية مَن تطرف من التعليم باتحاد الطبيعتين الى التعليم باختلاطهما طبيعةً واحدةً ولم يُعد يميز بين اللاهوت والناسوت البتة وهذا هو افتيشيس اي اوطيخا وانصارهُ . وهكذا قامت بدعتا نسطوريوس واوطيخا وفروعهما وشوشتا الكنيسة اكثر من مائتي سنة . وافضت الحال بهما الى الانشقاق . وهاتان البدعتان كانتا اسباب عقد المجمع الثالث ضد نسطوريوس سنة ٤٣١ في افسس والمجمع الرابع ضد اوطيخا سنة ٤٥١ في خلكيدون والمجمع الخامس سنة ٥٥٣ في القسطنطينية ضد بدعة المشيئة الواحدة فرع بدعة الطبيعة الواحدة .

وقد امتدَّت فروعٌ من هذه البدَع الى الغرب ولكن الى افرادٍ فقط في جهات فرانسا جاؤوا بها الى افريقيا الشمالية وانطاكت هناك . فكانت بُرهان الحروب ومعمعة القتال محصورةً في ميدان الشرق وحدهِ تقريباً . فيما ان الغرب كان في اوائلها مرتاحاً منها كما سيأتي الكلام في تاريخ حوادثها .

اما نسطوريوس فكان قسًّا في انطاكية مشهوراً بالفصاحة والسيرة النسيكة . ولكنهُ كان ايضاً في التربية ومعجباً بالمظاهر في السلوك قاسي المشرب وجاهلاً حسن السياسة . وقد رُقِّي الى منصب البطريركية القسطنطينية (سنة ٤٢٧) من القيصر ثاودوسيوس الثاني المعروف بالصغير حسماً لنزاعٍ قام على ذلك المنصب . وفي اول

خطاب القاه من على كرسي البطريركية اظهر انتفاخهُ وقساوتهُ اذ طلب من القيصر اضطهاد الهراطقة ليقابلهُ على ذلك بالمساعدة في محاربة الفرس وما شاكل ذلك من الاقاويل الفارغة (١) .

ومع ان نسطوريوس كان سوريَّ الوطن متربياً ومتعلماً على نهج المدرسة الانطاكية . كان رهبان وشعوب كرسي القسطنطينية عكس ذلك تابعين نهج مدرسة اسكندرية ضد آريوس والاريوسية التي كانت متمدةً عندهم . فاخذ نسطوريوس يعلِّم بحسب مبادئهِ ضد اتحاد الطبيعتين اتحاداً طبيعياً وجوهرياً ويأبى عن تسمية العذراء « بوالدة الاله » ويستبدلها بتسمية « والدة المسيح » مدعياً بانها لم تلد الهاً بل انساناً آلةً للاهوت واتى قابلة « الاله لا والدة الاله » . فوقع تعليمهُ في آذان الشعب القسطنطيني موقع الاستغراب وكانوا يهينونهُ ويتظاهرون ضدهُ في الشوارع وفي الكنائس . فقابل هو ذلك بشديد المعاملة ايضاً . ثم عقد مجمعاً (سنة ٤٢٩) وحرم جميع الذين يذهبون ضد تعليمهِ (٢) .

فامتدت آراؤهُ الى جهاتٍ كثيرة ووصلت الى اسكندرية حيث كان على كرسي الاسقفية القديس كيرلُّس من سنة ٤١٢ خلفاً لخالهِ ثاوفيلوس مشهوراً بصرامة المبادئ وشدة الغيرة على العقائد الدينية . ففي منشورهِ الفصحي لسنة ٤٢٩ تكلَّم في تعليم الكنيسة عن الطبيعتين وحارب تعليم نسطوريوس من دون ان يذكر اسمهُ . وعقب ذلك مبادلة المكاتبات بين البطريركين . فكان كيرلُّس يوضح ويفسر لنسطوريوس ان تسمية البتول « بوالدة الاله » لا يُعنى بها ان مبدأ اللاهوت منها بل ان المولود منها هو الهٌ كاملٌ كما هو انسانٌ كاملٌ . وكان نسطوريوس يستجهل كيرلُّس ويقابلهُ بعبارات انتفاخٍ واحتقار فلم تجدِ

(١) سفراط ٧ : ٢٩ وثاودوريتوس في الهراطقة ٤ : ١٩ (٢) سفراط ٧ : ٣٢

الكتابات تفهاً . فعقد البطريرك كيرلُّس مجمعاً عرض عليهِ كل رسائلهِ فاستصوبها المجمع وحكم بصحتها واذ كانت بلاد الغرب مرتاحة من الاختلافات كما ذكرنا اخذ نسطوريوس يسعى في تعزيز حزبهِ وتكثير انصارهِ . فكتب لكثيرين من الاساقفة ولاسقف رومية ايضاً وهو البابا كِلِستينوس الذي رآسهُ في مجمع قرطاجنة . فبلغ ذلك البطريرك كيرلُّس فكتب هو ايضاً للبابا ولغيرهِ من الاساقفة وافادهم ان الارثوذكسية تحت خطرٍ عظيم بسبب تعاليم نسطوريوس وارسل رسالة البابا مع مخصوص اسمهُ بوسيذونيوس واوصاهُ ان يلاحظ ويفهم : فاذا كان نسطوريوس كتب للبابا كما بلغهُ فيعطيهِ الكتاب . وان كان نسطوريوس لم يكتب فلا يعطيهِ . فلما وصل بوسيذونيوس علم ان نسطوريوس كتب للبابا فدفع هو ايضاً كتاب كيرلُّس لهُ ومن ثمَّ عقد البابا مجمعاً (سنة ٤٣٠) اعتبر تعليم نسطوريوس غير مستقيم وكتب رسالةً الى روحاء كهنة الشرق وارسلها مع الاجوبة وقرار المجمع الغربي الى البطريرك كيرلُّس واناط بهِ النيابة عنهُ في اعلان القرار وايضاح معتقدات كنيستهِ وتهديد نسطوريوس بقطع العلاقات اذا لم يرجع عن ارائهِ في مدة عشرة ايام[1] . ولما وصلت تحاويز البابا كتب البطريرك كيرلُّس ايضاً رسائل الى روحاء كهنة الشرق وطلب اليهم ان يقنعوا نسطوريوس بالرجوع عن آرائهِ . وكان في جملة روحاء الكهنة الشرقيين اكاكيوس مطران حلب شيخاً يزيد سنهُ عن المائة سنة . فكتب للبطريرك كيرلُّس يرجوهُ ان يجتهد في اطفاء نار الخصام ضناً براحة الكنيسة[2] . وكذلك يوحنا بطريرك انطاكية

(١) روى بعض المؤرخين ان البابا كِلِستينوس اندفع الى هذه الصرامة ضد نسطوريوس لانهُ كان متأثراً منهُ لقبولهِ في كنيستهِ بعضاً من اتباع بيلاجيوس المنفيين من رومية (تاريخ ذيوميذس كيريكوالينوناي دور ٢ فصل ٢) (٢) رسالة ١٥

كتب لنسطوريوس ان يرفع اسم من تسمية العذراء «بوالدة الاله» التي وردت لكثيرين من مشاهير المعلمين والآباء .

غير ان البطريرك كيرلُّس عقد مجمعاً في اسكندرية وكتب رسالةً لنسطوريوس يعلمهُ فيها كيف يجب ان يؤمن واضاف اليها اثني عشر بنداً يشتمل كلُّ واحدٍ منها على قضيةٍ وحرم فيها الذين يعلمون الخلاف وكلفهُ ان يمضي عليها . ولكن نسطوريوس اعتبرها غير صحيحة . فكتب ضد كل بندٍ منها بنداً ختمهُ بحرم . ونظراً لاختلاف مدرستي اسكندرية وانطاكية في اصطلاح التعبير لم تقع يدود البطريرك كيرلُّس موقع الاذعان في الشرق . فكتب كثيرون من الاساقفة ضدها منهم اندراوس اسقف سروج وخصوصاً ثاوذوريتوس اسقف كورش كتب بايعاز من يوحنا بطريرك انطاكية اثني عشر فصلاً . وكتب ايضاً مولّفاً ضد كيرلُّس في تجسد الكلمة لم يصل الينا سوى فقرات فقط . وايبا اسقف اداسيس (وهي الرها) كتب رسالةً دافع فيها عن نسطوريوس . وهكذا انقسمت الكنيسة الى شطرين . فكانت كنائس رومية واورشليم الصغرى منضافةً الى البطريرك كيرلُّس وكنيسة انطاكية منضافةً الى نسطوريوس . واذ جاهر بعض رهبان القسطنطينية ضد نسطوريوس واضطهد بعضهم اضطهاداً شديداً . فكتبوا كتاباً للقيصر ثاوذوسيوس الثاني يطلبون اليهِ ان يعقد مجمعاً مسكونياً وينصفهم . فقبل القيصر ثاوذوسيوس الطلبة لرغبة نسطوريوس ايضاً عيَّن وقت للمجمع سنة ٤٣١ بعد الفصح في مدينة افسس . وارسل مكاتيب الدعوة الى اساقفة الكنيسة .

فاجتمع كثيرون من الاساقفة في افسس في الوقت المعين كيرلُّس ونسطوريوس ويوبينا ليوس الاورشليمي . ولكن اساقفة

بطريركهم الانطاكي تخلّفوا وكذلك نوّاب كنيسة رومية ايضاً (١). واذ كان الوقت الذي عيّنهُ القيصر للاجتماع قد حان فبعد ان انتظرهم المجمع ستة عشر يوماً وصلت رسالة من اساقفة الشرق يعتذرون فيها عن ابطائهم ويعدون انهم بعد خمسة او ستة ايام يصلون . غير ان الاساقفة المجتمعين لم ينتظروا قدومهم لاعذارٍ صحيّةٍ ولان كيرلُّس افادهم انهُ اخذ تحريراً ملوكياً يامر بعدم تأجيل العمل . فعقدوا المجمع في ٢٢ حزيران من تلك السنة تحت رئاسة البطريرك كيرلُّس . ولكنّ نسطوريوس اقام الحجة عليهم وطلب انتظار بقية الكنائس وساعدهُ نائب القيصر ايضاً . اما هم فلم يرجعوا عن عزمهم . وكان المجمع مولفاً من مائتي اسقف . فدُعي نسطوريوس الى الحضور فلم يحضر فأُعيدت دعوتهُ ثانيةً وثالثةً بواسطة اساقفةٍ وانذارت كتابية ولم يحضر فحكم عليهِ بالقطع . وتُليت رسائل كيرلُّس وبنودهُ الاثنا عشر ورسالة البابا كِلِستينوس الى نسطوريوس والى اساقفة الشرق وقرار مجمع رومية السالف الذكر فصدّق المجمع عليها بانها ارثوذكسية وصدّق على الاحكام السابقة ضد بيلاجيوس وكِلِستيوس وحتم بان لا يُسنّ قانون ايمان غير دستور الايمان المعروف وان لا يزيد احدٌ فيهِ ولا ينقص منهُ شيئاً وحرم كل من يفعل خلاف ذلك (٢) فقابل شعب افسُس حكم

(١) بعضهم يقول ان القديس كيرلُّس كان نائباً عن البابا في المجمع . والمؤرخون يدّعون ان البابا اقامهُ رئيساً عليهِ عوضاً عنهُ . ولكن هذا القول انما نشأ عن سوء فهم بين ارسال البابا قرار مجمع رومية الى القديس كيرلس قبل المجمع وتفويضهِ لهُ ان يعقد للاساقفة الشرقيين وبين قيام كيرلس رئيساً في المجمع بين الاساقفة . فلو كان كيرلس نائباً عن البابا او رئيساً من طرفهِ كما يدّعون ما الحاجة الى ارسال النواب من قِبَل البابا ؟ ولماذا لم يُذكر في مضابط القديس كيرلس انهُ نائبٌ عن البابا جرياً على العادة لو كان لذلك اصلٌ ؟ (٢) خالف من ان كنيسة رومية زادت في الدستور ولم تكترث للحرم

المجمع بكل فرحٍ * غير ان نائب القيصر اقام الحجة على كل ذلك وارسل نسطوريوس الى البلاط واصحبهُ بتحاريرٍ يطعن فيها بعمل المجمع وخصوصاً بابا البطريرك كيرلُّس وباسقف افسُس ميمنُن انهما ظالمان وقسيان * ومن بعد خمسة ايام وصل البطريرك الانطاكي يوحنا ومعهُ اثنان وثلاثون اسقفاً . وبحال وصولهِ ارسل المجمع نوّاباً من قبلهِ وافادهُ قطع نسطوريوس . فحكدر البطريرك يوحنا من ذلك واعتبر عمل المجمع عجلةً ونسب كيرلُّس الى الاستبداد . ثم عقد مجمعاً مولفاً من نحو اربعين اسقفاً حكم فيهِ بالقطع على كيرلُّس وميمنُن حكماً غيابياً بصفة ظالمَين . وحكم ايضاً بمثل ذلك على سائر الاساقفة الذين قبلوا قرار المجمع بلا فحصٍ ولا تروٍّ الى ان يجتمعوا ثانيةً ويلغوا ما قرروهُ ويحرموا بنود كيرلُّس الاثني عشر . وارسل عمل المجمع الى القسطنطينية . وكتب للمجمع وللقيصر ولاكليروس وشعب القسطنطينية وللمجلس الاعلى المدني وللملكة يفيدهم قطع كيرلُّس وميمنُن واسباب ابطائهِ ويطعن ببنود كيرلُّس ويطلب اعادة فحص القضية * وفي هذه الاثناء حضر نوّاب البابا وهم الاسقفان اركاذيوس وبروبا كنتوس والقس فيلبُّس . فاجتمع مجمع كيرلُّس مرةً ثانيةً في ١٠ تموز وتُليت تحاريرُ البابا الجديدة واعمال الجلسة الاولى . وفي اليوم التالي عُقدت جلسة ثالثة امضى فيها نواب البابا على الاعمال السابقة . وفي ٢٦ تموز عُقدت جلسة رابعة بناءً على استدعاءٍ من كيرلُّس وميمنُن ضد البطريرك يوحنا لقطعهِ اياهما . فدُعي يوحنا مرتين ليحكي اسباب قطعهما فاجاب انهُ لا يستطيع ان يشترك مع مقطوعين . فعُقدت في اليوم التالي جلسةٌ خامسة ودُعي يوحنا مرةً ثالثةً بانذارٍ . فارسل رئيس شمامستهِ الى المجمع ومعهُ كتابٌ فيهِ الجواب . فاجاب المجمع بانهُ لا يريد كتاباً بل يطلب يوحنا شخصياً . فاجابهم يوحنا انهُ ينتظر امر

الملك . ولكن المجمع حكم حالاً بالقطع على يوحنا وعلى ثلاثة وثلاثين اسقفاً معهُ وبرّأ كيرلُّس وميمنُن . وهكذا آل الامر الى الشقاق بين الاساقفة * فعند ذلك كتب يوحنا للقيصر ضد مجمع كيرلُّس وطلب ان يحضر من كل قسم ثلاثة اساقفة الى نيقوميدية ويُعاد هناك فحص القضية . فلما وصلت كتابات وافادات النائب القيصري الى القيصر كتب لكيرلُّس والذين معهُ ويحثهم على نصرتهم وامرهم ان لا يذهب احدٌ من افسس بل ان يجتمع جميع الاساقفة مجتمعاً واحداً ويقرروا قرارات جديدة متفقٌ عليها . فالشرقيون جاوبوا القيصر يتشكون من سوء معاملة كيرلُّس وذويهِ . وآباء المجمع ايضاً جاوبوهُ بوكدون لهُ حسن صنيعهم . وحذراً من ان تقع تحاريرهم في ايدي اضدادهم وتؤخَّر ارسلوا موثقاً من قبلهم بزيّ طلاب ومعهُ التحاريرضمن عكاز من قصب الى ارشيمندريت ناسك اسمهُ ذالتيوس كان ملازماً قلايتهُ ثماني واربعين سنةً لم يخرج منها وكان القيصر يزورهُ احياناً . فلما وصلت اليهِ كتابات المجمع قام والشعب امامهُ ووراءهُ وجاء الى القيصر واقنعهُ بان يحضر نوابٌ من المجمع ويفيدوهُ حقيقة الحوادث فوعدهُ . ثم نزل الى كنيسة القديس موكيوس وخاطب الشعب بان القيصر موافق للمجمع . وبعد خطابهِ صرخ الشعب بالحرم ضد نسطوريوس * ولما حضر نواب المجمع الى القيصر واعرضوا لهُ ما كان في افسس طاب خاطرهُ على كيرلُّس . غير ان كونتا اسمهُ ايريناوس (وقد صار مطراناً على صور سنة ٤٤٠ ــ ٤٤٨) غيَّر فكر القيصر . فصار حائراً كيف يفعل . ولكن رأي الشيخ اكاكيوس اسقف حلب هدَّأ روعهُ وجعلهُ يقرر عزل نسطوريوس وكيرلُّس وميمنُن . غير ان حزب كيرلُّس قام حالاً واقنع القيصر بواسطة رهبان القسطنطينية ان يستحضر من كل حزب سفارةً مولَّفةً من ثمانية اشخاص . فلما

حضرت السفارتان وسمع دعوى كلٍّ منهما امر باعادة كيرلُّس وميمنُن الى منصبيهما ونصَّب على كرسي القسطنطينية واحداً من سفارة كيرلُّس اسمهُ مكسيميانوس وامر بان يرجع الاساقفة من افسس الى اوطانهم .

فرجع الاساقفة وهم على حالة الشقاق لا على السلام والاتفاق . وبعد رجوعهم عقد الشرقيون مجمعين احدهما في ترسوس والآخر في انطاكية واعادوا حرم كيرلُّس وبنودهِ . فساء ذلك في اعين القيصر وبنصيحة البطريرك مكسيميانوس دعا كيرلُّس الاسكندري ويوحنا الانطاكي الى نيقوميدية وحدهما . فحضرا . وبعد مدة تسالم البطريركان . وذلك بان القديس كيرلُّس كتب اثني عشر بنداً شرح فيها بنودهُ السابقة ايضاحاً لحقيقة معناها الذي فهمهُ الشرقيون على غير المقصود منهُ * وعند المسالمة امضى يوحنا الانطاكي على قطع نسطوريوس وامضى كيرلُّس الاسكندري على حرم بدعة ابوليناريوس وعلى اعتراف ايمان حرَّرهُ تاوفوريتوس وكان ذلك الاعتراف ينطق « بان لمسيح الهٌ تامٌ وانسانٌ تامٌ من نفس ناطقة وجسد . . . وانهُ قام بهِ اتحد طبيعتين . وانهُ مسيحٌ واحدٌ وابنٌ واحدٌ وربٌ واحدٌ . وان البتول بحسب هذا الاتحاد العادم الاختلاط هي والدة الاله . لان الاله الكلمة تجسَّد وتأنس منها ومن بدء الحبل اتحد بذاتهِ الهيكل المأخوذ منها . الخ » . وكانت المسالمة السلام بين البطريركين بواسطة يولس مطران حمص . وبواسطة مسالمة البطريركين لم يسقط اعتبار المجمع الثالث عن كونهِ مسكونياً * واما نسطوريوس فمات في المنفى وقامت لهُ طائفة معروفة الى ايامنا بالكلدان . ولهم بطريرك خاصٌّ اسمهُ « جاثليق » اي العام .

وللمجمع جلستان ايضاً سادسة وسابعة . ففي السادسة أُثبت دستور الايمان المؤلَّف في المجمعين الاول والثاني . وفي السابعة حُرِّرت اسقفية قبرس من

الخضوع لبطريرك انطاكية . وسنّت ثانية قوانين لم تزل عندنا الى اليوم .

فبناء على ما تقدم يدّعي الغربيون ان في كتابة القديس كيرلس للبابا وكتابة نسطوريوس له ايضاً دليلاً على رئاسة له علمة على الكنيسة . وبالاجمال يعتبرون مداخلة البابا في احوال الشرق ناشئة عن حقوق رئاسة .

غير ان الشرقيين يدفعون هذه الدعوى ببراهين شتى . منها ان البطريرك الاسكندري كيرلس لما بلغته بدعة نسطوريوس لم يعرض الامر للبابا بل كتب هو نفسه ضدها في منشوره الفصحي للكنائس . ثم كاتب نسطوريوس وكاتب الرهبان وكاتب الملوك ايضاً كما يتضح من القسم الاول من اعمال المجمع . وهذا ينافي دعوى محبي الرئاسة . وكتب ايضاً لاكليروس القسطنطينية يقول « ان المجمع (لا البابا) يطهّر الكنيسة » . ثم انه ما كتب للبابا وحده بل له ولكثيرين غيره من الاساقفة كما هي العادة . وقبل ان يكتب له عقد مجمعاً في اسكندرية بحث في بدعة نسطوريوس وبالاجمال شرع في محاربة تلك البدعة لا برخصة من البابا حتى ولا بمعرفته . بل بمجرد الاستناد على القانون المصرّح لكل مستقيم حق التداخل في امور الابرشيات المجاورة اذا اهمل اسقفها ملافاة امتداد الهرطقات فيها فضلاً عما اذا قام هو بنفسه رئيس هرطقة (١) . ولا يخفى ان اسكندرية والقسطنطينية كانتا وقتئذٍ شديدتي العلاقات تجارةً وسياسةً . فكانت مداخلة كيرلس في المسألة ضرورية لحفظ ابناء ابرشيته من الهرطقة الجديدة فضلاً عن الحق القانوني له بذلك . فلا يجوز ان يُدّعى على كيرلس ما لم يفعله بان مداخلته كانت بايعاز من البابا . لان تلك المداخلة سبقت الاخبارات بينه وبين البابا . وكذلك لا يجوز للرومانيين ان يعتبروا كتابة كيرلس للبابا علامة خضوع .

(١) مجمع قرطاجنة قانون ١٣٥

ما لم يقولوا بان جميع الاساقفة الذين كتب لهم كيرلس كانوا رؤساء عليه . معاذ الله . وحينئذٍ ايضاً يكثر الرؤساء فتفسد دعواهم بوحدة الرئاسة . ومما يؤيد القول بان كيرلس ما كتب للبابا عن خضوع له تصريح التاريخ بانه ما كتب الا لما سمع ان نسطوريوس كتب له . فحذراً من ان يخدع نسطوريوس البابا كتب له كيرلس واوصى رسوله ان لا يدفع الكتاب الا متى تأكد ان نسطوريوس كتب . فمن اين يحق لمنصف ان يعتبر هذا العمل دليلاً على سلطة ورئاسة وما جرى مجراها؟ . ثم ان البابا ايضاً ما حكم في مسألة نسطوريوس ولا نظر فيها وحده . بل عقد مجمعاً والمجمع هو الذي رأى وكتب فيها قراراً . فاين الدعوى بالرئاسة البابوية من هذه الحوادث؟ ثم ان القديس كيرلس عقد مجمعاً وكتب هو نفسه لنسطوريوس يعلمه الايمان الصحيح ولم ينتظر ذلك من البابا ولا استأذن منه عليه . وهذا العمل ايضاً يدحض دعوى الرئاسة . وما وصلت رسالته الى نسطوريوس ولم ترضِه ما تشكّى عليه للبابا بل كتب ضده ورسلها اليه . وبالاجمال ان جميع المخابرات التي جرت في الشرق بين البطاركين او بسببها لم يكن للبابا رأي فيها ولا اطلاع عليها . فاين كانت وقتئذٍ رئاسته التي يدّعونها الآن بلا مسوّغ ؟ هذا فضلاً عن ان في كتابة كيرلس وغيرها عبارات لا يمكن ان تنطبق عليها دعوى من المدعي البابوية ولا ان تُذكر لديها . كقوله في رسالته الى البابا كليستينوس نفسه « ان الايمان الحقيقي تؤيده شهادة جميع الاساقفة وشعوب المسكونة » . وان سكان القسطنطينية يتمنون و ينتظرون مساعدة المعلّمين الارثوذكسيين » فلو صحت الدعوى المدعاة لكان احرى به ان يستشهد بالبابا لا بالاساقفة والشعوب والمعلمين . وكقوله ايضاً « انه كان يمكني اكتب

(١) جلسة اولى من اعمال المجمع في قول بطرس البريسبيتروس

نسطوريوس اتاما دام على هذا التعليم لا نستطيع ان نشترك معهُ. ولكني لم افعل ذلك الجأ. اشارة الى الحق المستقل الذي لهُ. وقد ذكر سبب عدم قطع العلاقات مع نسطوريوس حالاً في رسالتهِ الى قسوس وشمامسة القسطنطينية حيث يقول: انهُ لم يفعل ذلك اولاً لكي لا يدع حجةً للاعداء الذين اهاجهم نسطوريوس ضدهُ. وثانياً اقتداءً بالطبيب الماهر الذي يبدأ المعالجة بالعقاقير الخفيفة وان لم تجع ينتعمل الكيّ والقطع بالآلات الحديدية. وكقولهِ في رسالتهِ الى رهبان القسطنطينية «اني لا اعطي نوماً لعيني ونعاساً وراحةً لصدغيَّ الى ان اجاهد الجهاد في سبيل خلاص الجميع» ايضاحاً لانهُ هو كان مقدام الجميع في المدافعة عن الايمان لا مأموراً ولا مرؤوساً. وكقولهِ ايضاً لهم «هذا تحرير المرسل مناوهن كليستينوس اسقف رومية» ايضاحاً للمساواة. وكاستشهادهِ ضد نسطوريوس بالقديس اثناسيوس لا بابا. ومثل ذلك في رسائلهِ الى الانكات يستشهد بالآباء ايضاحاً لان معلمي الكنيسة جميعهم هم الآباء لا البابوات فقط. وكقولهِ في نسطوريوس حيث يذكر «مجمع رومية برئاسة كليستينوس ومجمع اسكندرية برئاستهِ» ايضاحاً للمساواة ايضاً. وقولهِ ايضاً فيها «ان بطرس ويوحنا متساويان في الكرامة لانهما رسولان كلاهما وتلميذان قديسان». فاي تصريح اصرح من هذا التصريح في ايضاح منزلة بطرس الرسول مساويةً لمنزلة سائر الرسل؟ وكقولهِ ايضاً لنسطوريوس «يجب ان ترى وتعلم مثلنا جميعنا نحن اساقفة ومعلمو الغرب والشرق ورؤساء الشعوب. لان الايمان الحق هو الذي يوافقهُ جميع الاساقفة الارثوذكسيين في الغرب والشرق. فلم يشترط عليهِ موافقة البابا فقط ولا اثبت الايمان من رأي البابا وحدهِ. والبابا كليستينوس نفسهُ في رسالتهِ الى القسطنطينية يقول «ان بولس السميساطي قد اهاج وقتاً ما مسألةَ

بدعوتهِ وهو رئيسٌ على كنيسة انطاكية. ولكن قرار كهنة الكنيسة الجامعة قد اتحد وقطعهُ عن الكرسي الذي كان يتصدر فيهِ تصدراً دنساً» وهذا ايضاً برهانٌ قويٌّ على ان حكم المجمع لا للبابا وان كليستينوس لم يعرف الدعوى التي ادعاها خلفاؤهُ في ازمنتنا. وفي رسالتهِ الى نسطوريوس يقول «ان رأس الكنيسة هو المسيح». وفي رسالتهِ الى يوحنا بطريرك انطاكية يقول في نسطوريوس «انهُ اذا لم يعترف بالايمان الذي تعترف بهِ كرسي الرومانيين والاسكندريين والكنيسة الجامعة في كل مكان يكن مقطوعاً. ويطلب اليهِ ان يلبس في صدرهِ رجاء الاعتراف العام» فلم يتفرد بايمان كنيسة رومية ولا باعتراف كرسي رومية فقط كما تفرد خلفاؤهُ المتأخرون. ومن رسالة القديس كيرلس الى يوحنا الانطاكي يتضح ان رسالة البابا لم تكن شخصيةً بل مجمعية. لانهُ يقول لهُ بكل صراحة «ان مجمع الرومانيين المقدس ... كتب لوقاركم». كما كتب سابقاً البابا بولبوس موكداً ان رسالتهُ ما كانت منهُ بل من المجمع (صفحة ١٣٠). وهذا شان كل متقدم في مجمع ان يحرر هو من قبل المجمع. اما قول كيرلس ليوحنا انهُ يجب الخضوع لهم (اي للمجمع او للكتوبات من المجمع نظراً لاستقامة تعليمها) فيفسرهُ الغربيون على خلاف معناهُ بقولهم يجب الخضوع للبابا. ولكن هذا المعنى قريبٌ من التزوير اكثر من هو بعيدٌ عن التفسير. وفي رسالتهِ الى اكاكيوس اسقف حلب على تسمية النسطوريوس والدة الله لانهُ لا يعتمد على امر البابا بل يستشهد بالآباء القديسين اثناسيوس وباسيليوس وغريغوريوس وآخرين. وكذلك في جوابهِ لكيرلس يؤيد الايمان من الآباء ويحرضهُ على الثبات في الجهاد عنهُ ولم يذكر البابا مطلقاً. وفي رسالتهِ الى يوفينليوس اسقف اورشليم يستنهضهُ الى التعاضد والاتحاد بعضهم مع بعض لتخليص الكنيسة والشعوب من الهرطقة. ويوحنا

بطريرك انطاكية قال لنسطوريوس : ان بلاد الغرب ومصر ومكدونيه قد عزمت ان تقطع الاتحاد معك . فذكر الجميع بالسوية ولم يكتف بذكر الغرب ولا ميزه بشيء . وهذا يخالف الاصول لو كان للغرب شيء زائد . وهنا نستلفت انتباه القارىء الى ان البابا وغير البابا تهددوا نسطوريوس بقطع العلاقات معه ولكن ما من احد منهم ادعى انه يستطيع ان يعزله ويقيم بطريركاً آخر في محله . وهذا ايضاً يدحض دعوى الغربيين بان البابا ينصب البطاركة . وقد رأينا في تاريخ القديس يوحنا الذهبي الفم ان البابا كان يحرر ليوحنا انه لا يستطيع ان يعمل شيئاً . فلا ينس اصحاب الدعوى هذه الاقوال والحوادث لانها مفيدة لهم .

وقد ورد في رسالة البابا الجوابية للقديس كيرلس حيث يفيده عن عقد مجمع رومية وقراره ضد نسطوريوس (سنة ٤٣٠ كما ذكرنا) ما نصه « وقد أضيفت اليك سلطتنا ايضاً فانت تستعمل بسلطاننا خلافتنا في المكان وتنفذ (او تعين او توجد) هذا القرار بثبات مدقق » . فمن هذه العبارة يستنتج الغربيون سلطاناً للبابا معه لكيرلس . ولكن الشرقيين يدحضون ذلك من العبارة عينها . فانها لا تقول : اننا نمنحك سلطتنا . بل اننا نضيف اليك سلطتنا . وهذا التعبير يؤكد ان كيرلس لم ينل سلطته من البابا بل انها أضيفت الى سلطته سلطة البابا باعتماده عليه وتوكيله اياه في نشر قراره مجمعة ضد نسطوريوس . لان كيرلس كان المنتصر الاول للتعليم الارثوذكسي ضد الهرطقة . فاذا كانت قوة البابا في هذا الموقف قوة رئيس على كيرلس بل قوة مساعد له كما هو شان الاساقفة حين تعاضدهم . وتأييداً لذلك نذكر ما ورد في رسالة كيرلس الى اساقفة الشرق : قال في رسالته الى يوفينا ليوس اسقف اورشليم « وبما ان كلستينوس المذكور اسقف كنيسة الرومانيين الجزيل وعه ونقواه كتب عنه الي عن نسطوريوس

كتابة صريحة وارسل الرسائل الي رأيت من الواجب ان ارسلها وانهض بالمحاربين نقواك المطيع على المحبة الى المحبة التقوية لكي بنفس واحدة ونشاط صارم نعيش بمحبة المسيح ونخلص الشعوب من الاخطار » (١) . وفي احدى رسائله الى نسطوريوس كتب يفيده عن قرار مجمع رومية ثم يقول « فها انا نحن والمجمع المقدس المجتمع في رومية العظيمة برئاسة اخينا ومساعدنا في الخدمة الاسقف كلستينوس الجزيل بره ونقواه نقيم لنحبة عليك بهذا الكتاب الثالث ونصح لك ان تبتعد عن العقائد الردية المعوجة التي تعتقدها وتعلمها وان تختار عنها الايمان القويم المسلم الى الكنائس منذ البدء بواسطة الرسل والمبشرين القديسيين الذين كانوا معاييني الكلمة وخدامه » (٢) . ثم ان قرار مجمع البابا نفسه يؤيد الايمان لا من رومية وحدها بل من جميع الكنائس . لانه يحرم نسطوريوس « اذا لم يعترف بالايمان المتمسكة به كنيسة الرومانيين والاسكندريين والكنيسة المسكونية » . ولكي يجري هذا القرار طلب من اساقفة الشرق ان يوافقوا عليه (٣) . فاين استنهاض كيرلس غيرة الاساقفة واين تسميته البابا اخاً ومساهماً له في الخدمة . واين اقامته الحجة على نسطوريوس مرة أولى وثانية وحده وثالثة مع المجمع الروماني . واين تأييده صحة الايمان من جميع الكنائس لا من رومية وحدها . واين احتياج قرار البابا الى موافقة اساقفة الشرق . كل ذلك اين هو من دعوى الغربيين على البابا بسلطان وعلى كنيسة رومية بانها قانون الايمان وحدها ؟

هذا ومن مراجعة اعمال المجمع تحكم بلا بدّ بسقوط دعوى الغربيين . ففي افتتاح اول جلسة يقول بطرس البريميكريوس « ان المجمع انما ينظر الملك ليحكم في تحاريركيرلس وكلستينوس ونسطوريوس » والغربيون يدعون ان تحاريرالبابا لا

(١) فصل ٢٤ (٢) فصل ١٤ (٣) فصل ١٨

لقع تحت حكم مجمع لانهُ على زعمهم هو الحكمُ الاعلى · فدعواهم ساقطة لان المجمع المسكوني هو وحدهُ الحكمُ الاعلى وهو يحكم في كل بابا وكل اسقف * وفي تقارير الآباء ايضاً نرى كل واحدٍ منهم يقول انهُ يوافق التعليم الذي تسلمتهُ الكنيسة منذ القديم وعلمهُ الآباء وايدتهُ المجامع · ولا يقول انهُ يوافق البابا كما يقول الآن البابويون الذين يحصرون الخلاص كلهُ في الاتحاد مع البابا * واذ قال المجمع عندما اصدر حكمهُ ضد نسطوريوس ما نصهُ « انا قد اضطررنا ضرورةً من القوانين ومن كتابة ابينا الجزيل القداسة ومساهمنا في الخدمة كِلستينوس اسقف كنيسة الرومانيين فبعد اننا اذرفنا الدموع مراراً كثيرةً اصدرنا الحكم عليهِ » ظنَّ الغربيون ان عبارة المجمع هذه تشهد بسلطةٍ لحضرة البابا · ولكنَّ المجمع قبل ان يذكر كتابة البابا ذكر القوانين · وما احترم تلك الكتابة لكونها من رئيسٍ بل لكونها موافقةً للقوانين صادرةً من هيئة كنيسة الغرب كلها اعني مجمعهُ · والدليل على ذلك كونهُ يسمي البابا مساوياً في الخدمة اعني مساوياً لا رئيساً ولا ممتازاً · ولكي لا ندع سبيلاً للشك في صحة ما نقول ولا يظنَّ احدٌ ان في قول المجمع عن البابا « ابينا الجزيل القداسة » شيئاً من معنى الرئاسة نورد ما قالهُ المجمع في رسائل البطريرك كيرلس : قال فيرموس اسقف قيصرية الكبادوكية (وهو من اول آباء المجمع) لكيرلس « ان كلي وفرك قد شرح لنا بالتدقيق ما قيل باختصارٍ وايجازٍ من مجمع نيقية المقدس وجعل لنا فهم الايمان المدوَّن فيهِ اكثر وضوحاً وجلاءً · فلم يبقَ في ما قيل شيءٌ فيهِ ريبٌ اذ اتفق الكل بعضهُ على بعضٍ وثبت الايمان · وبما ان ذلك مدققٌ فيهِ وغير متغيرٍ ولم يدخلهُ احداثٌ الا اوافق عليهِ قائلاً لرأي نفسهِ من آبائي الاساقفة القديسين »[1]

(١) اعمال المجمع فصل ٢

وقال ميمنُن مطران افسس وسائر الاساقفة هذا القول عينهُ · فهنا كل اسقفٍ يدعو الاساقفة آباءهُ ويرفع منزلة القديس كيرلس الى درجة معلم المجمع وليس من يدَّعي لهُ سلطةً او شبه سلطةٍ كما تصور الغربيون ·

وفي الجلسة الثانية والثالثة حضر نواب البابا وتُليت رسالتهُ الرسمية الى المجمع · وكانت تلك الرسالة مكتوبةً بكل الدقة ولم يرد فيها ما يزيد عن حقوق البابا الاخوية · فكان عنوانها هكذا : « السلام بالرب من كِلستينوس لمجمع المقدس الملتئم في افسس مجمع الاخوة الاحباء الجزيل شوقهم » فيسميهم اخوةً احباءً فقط لا ابناء كما لو كان ابلهم · ثم يشرح في الرسالة ان الرب اقام الاساقفة معلمين ورعاةً لشعبهِ خلفاءَ للرسل · وان جميعهم حفظةٌ لخراف الرب بالسوية · وانهُ هو واحدٌ منهم يرعى الرعية لا الرعاة كما يريد الغربيون · وان جميع الرعاة يجب ان يتعاضدوا في حفظ وديعة الايمان والتعليم · ويعترف بحقوق الحكم في الكنيسة للمجمع المسكوني بانهُ هو وحدهُ لا يخطئ في ما يتعلق بالايمان · ويختم الرسالة بقولهِ « وقد ارسلنا اخوتنا القديسين ومساهمينا في الخدمة الاساقفة اركاذيوس وبروبا كتوس والقس فيلبُّس رجالاً مختبرين وذوي نفسٍ واحدةٍ معنا ليقوموا مقامنا ويحضروا الاعمال ويفيدونا ما يُحدَّد منكم[1] ولا نشك في انهم يحصلون على القبول من طرف قداستكم · وكلُّ ما تقررونهُ ليس الاَّ من اجل راحة جميع الكنائس » · فهذه كلها كتاباتٌ رسميةٌ لا يُشتَمُّ منها رائحة سلطةٍ بل تنفي كل دعوى بشبه سلطة · ولهذا السبب عندما تُليَت هذه الرسالة صرخ الاساقفة قائلين « ان هذا الحكم لعادلٌ · ان كِلستينوس بولس جديد · ان كيرلس بولس جديد · فالمجمع كلهُ يشكر لكِلستينوس حافظ الايمان · ذي النفس الواحدة مع المجمع ومع

(١) بعضهم يفسر كلمة يفيدونا بمعنى « يعضوا على ما يُحدَّد » الخ

كيرلس. فكليستينوس واحدٌ وكيرلس واحدٌ وايمان المجمع واحدٌ. وايمان المسكونة واحدٌ»[1] وقد اوضحوا بهذا التعبير المساواة التامة بين اسقفي رومية واسكندرية بل سموا اسقف رومية حافظاً للايمان وسموا كيرلس في ما سبق شارحاً للايمان.

ومع ان رسالة البابا كِلستينوس الى المجمع هي المصدر الرسمي الذي يوثق بهِ في ايضاح مركز الكنيسة الرومانية · وما ورد غير ذلك لا يُعتد بهِ في جانب كلام البابا نفسهِ عن نفسهِ · يستند الغربيون على عباراتٍ ذكرها بعض نواب البابا وعلى غيرها ايضاً مما قالهُ بعض الحاضرين نذكرها هنا تماماً للفائدة · وقد رأينا في ما سبق ان البابا زوسيموس طلب ان يقرر لنفسهِ بعض امتيازاتٍ عن سائر الاساقفة وان مجمع قرطاجنة نبذ مبادئهُ وكتب ضدها للبابا كِلستينوس وضد بعض تعدياتٍ تعداها البابا كلستينوس نفسهُ في مسألة ابياريوس. اعني اننا رأينا ان الرومانيين كانوا يرغبون ان يحصلوا على شيءٍ من الامتيازات الرئاسية ويترقبون الفرص لذلك تارةً في المعاملات الرسمية وتارةً في المكالمات الشفاهية[2] ولكن مبادئ الكنيسة المقدسة كانت تردعهم · فعلى مثل هذه التعديات يستند الغربيون غالباً في ايامنا · وهذا الاستناد ليس انصافاً . لان الاستناد انما يُبنى على القرار لا على الدعوى · والاَّ فلو كانت كل دعوى ثبتت ام لم تثبت تصلح لان تكون سنداً لكانت فسدت الاحكام ومات الصواب · فالحق إذن ان لا ينظر الغربيون الى دعاوي اسلافهم بل الى اقرار او عدم اقرار الكنيسة المقدسة بها ورعاية او عدم رعاية اجرائها · ولما كان البابا غير قادرٍ ان يحرر شيئاً من رغائبهِ الرئاسية في رسائلهِ الرسمية الى المجمع التي حررها بدقةٍ ولم يخرج عن دائرة حقوقهِ فيها كما قلنا · وكان ايضاً هو نفسهُ الذي اقتدى بسلفهِ زوسيموس

(١) فصل ١٥ (٢) تاريخ فلوري ٢٥ : ١٧

بتعدي الحقوق في مجمع قرطاجنة ورُدع منهُ في الرسالة التي ادرجناها (صفحة ١٨٢) فاما لكونهِ اعطى تعليماتٍ سرية لنوابهِ او لأن النواب وخصوصاً احدهم القس فيلبُس ارادوا ان يخدموهُ بشيءٍ من التمجيد ذكروا شفاهاً في المجمع ما لم يكن لهُ داعٍ من التعظيم والتفخيم يستند عليهِ الغربيون في دعواهم. اذ يرون فيهِ على زعمهم دلائل على الرئاسة · حالة كونهِ لم يخرج عن انهُ كلام تبجيل. والذي قام بعبء هذه الخدمة كان القس فيلبُس ثالث النواب واخيرهم وقد حضر واحداً من النواب في مجمع قرطاجنة ايضاً. فبعد ان تكلم الاسقفان رفقاؤهُ قال هو: «انهُ لامرٌ غير مرتابٍ فيهِ من احدٍ او بالحري امرٌ معروفٌ في جميع القرون ان القديس بطرس الجزيل الغبطة زعيم الرسل وهامتهم عامود الايمان واساس الكنيسة الجامعة نال مفاتيح الملكوت من ربنا يسوع المسيح مخلص ومنقذ الجنس البشري · ولهُ أُعطي سلطان ربط الخطايا وحلها · وهو الى الآن وعلى الدوام عائشٌ وحاكم بخلفائهِ · فخليفتهُ ونائبهُ بحسب التبعية بابانا القديس كِلستينوس الجزيل الغبطة ارسلنا الى هذا المجمع المقدَّس خلفاً عن حضرتهِ · المجمع الذي الملوك المسيحيون الجزيل تحنُّنهم قد امروا بالتئامهِ لكي ان الايمان العام الذي حُفظ من البدء الى الآن يدوم ثابتاً على الدوام · · · وبما انهُ اجتمع في هذا المحفل الكهنوتي الكهنة الموجودون في الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية بعضهم حضوراً وبعضهم بوسطة السفراء · لهذا السبب قد جرى المجمع المقدَّس الحاضر ايضاً على رسوم الآباء ورسم باصدار القرار ضد المجدف الطائش · · · ومن ثمَّ فليعلم فسطوريوس انهُ غريبٌ عن شركة كهنوت الكنيسة الجامعة»[1]

فمعاني هذا الكلام من التفخيم لكرسي رومية لم يكترث الآباء لهُ لانهُ

(١) فصل ١٦

يبلغ رغائب الرومانيين تلميحاً خفياً ولا يصرح بشيء من الرئاسة . وحاصل ما ورد فيه هو ان البابا ليس محروماً من حق الحكم لانهُ خليفة بطرس الرسول . ولكنَّ هذا الحق للبابا لا ينفي حق سائر الاساقفة خلفاء بطرس وغير بطرس من الرسل. فان كل اسقف لهُ حقٌّ بالحكم في الكنيسة . اذ انتقل سلطان الحكم فيها من الرسل الى الاساقفة كما ذكرنا في النبذة . واما القاب القديس بطرس بهامة الرسل وغيرها فلا يثبت رئاسةً لا للبابا ولا لبطرس نفسهِ لان هامات الرسل كثيرة لا واحدة[1] . على ان المجمع نفسهُ في رسالتهِ الى الملوك ضد يوحنا بطريرك انطاكية قدمَّى كيرلُّس الاسكندري ومينُن الافسسي هامتيَ وزعيمي ورئيسي الاساقفة هيئة الكنيسة المسكونية كلها . وسمَّى كيرلُّس استاذ المجمع المسكوني . وبولس اسقف حمص سمَّى القديس اثناسيوس وثاوفيلوس اعمدة الرأي القويم. وقس على ذلك كثيراً مما لا يسعنا هنا ذكرهُ . فكلام القس معناهُ فيهِ من التعظيم لكرسي رومية لم يخرج في جوهرهِ عن الحدود بل بالحري قد صرَّح بالحق في آخرهِ (الذي عادة يحذفهُ الغربيون في اعتراضاتهم بالكلام السابق) اذ يعترف بان البابا ارسلهم نواباً عنهُ في المجمع (حالة كون ذلك لا حاجة اليهِ لو كان هو الحاكم) وبان الملوك لا البابا امروا باجتماع المجمع . وبان المجمع جرى على رسوم الآباء لا على اوامر البابا . وبان المجمع رسم القرار واصدرهُ لا البابا . وهذا القليل غنيٌّ عن كثير لمن يتأمل . واسمع ما قال رئيس المجمع القديس كيرلُّس بعد فروغ نواب البابا من كلامهم[2] «ان التقارير التي جرت من الاساقفة اركاذيوس وبروبا كنتوس الجزيل برهم ولغوامم ومن القس فيلبُّس الجزيل اقوالهُ صارت واضحة عندنا.

(١) هذا الموضوع بحثنا فيهِ بحثاً وافياً في مجلة الهدية واوضحناهُ بالبراهين القاطعة المنطقية هناك ومَن شاء فليراجعها (٢) فصل ١٦

فانهم قد لفظوا بالقبول حالتين محلَّ السدة الرسولية وكل مجمع الاساقفة في الغرب الجزيل وقارهم وقداستهم . ومن ثمَّ افادوا ايضاً عما حدَّد من الاسقف كلستينوس الجزيل وقارهُ وقد وافقوا على الحكم الذي اصدرهُ المجمع المقدس الذي التأم امس هنا في عاصمة الافسسيين ضد نسطوريوس المبتدع . ولذا فانضمَّ الى الاعمال المذاكرات التي جرت امس واليوم . ولتقدَّم لوقارهم ليجعلوا موافقتهم القانونية لنا جميعاً واضحةً بخط يدهم حسب العادة» . فيتضح من هذا القول ان نواب الغرب ما كانوا نواب رأس للكنيسة المسكونية بل كانوا مرسلين من قبل الكنيسة الغربية (اي مجمع اساقفة الغرب والبابا رئيسهم في مركزهم الرسولي) وشتَّان بين هذا وذاك . وكذلك عند امضائهم على اعمال الجلسة ورد ما هو بنصهِ «قال الاسقف اركاذيوس الجزيل ورعهُ سفير كنيسة الرومانيين : اننا نثبت تعاليمنا بامضائنا ضرورةً على ما عُمِلَ في هذا المجمع المقدس» وقال غيرهُ «انا الاسقف بروبا كنتوس سفير السدة الرسولية قد جريت من كل الوجوه على الحكم العادل حكم هذا المجمع المسكوني المقدس كما تعلمنا من الاعمال وامضيت على قطع نسطوريوس الكافر» . فمن هذا الامضاءات يتضح ان النواب انفسهم ما كانوا في المجمع نواب حاكم ورأس على الكنيسة بل اعضاء لها في هيئتهِ ولم يصدقوا على اعمالهِ تصديقاً بسلطان اعلى بل وافقوا عليها اسوةً بسائر الاعضاء

على انهُ وردت عبارةٌ ايضاً لفيرموس اسقف قيصرية الكبادوكية هي موضوع نزاع بين الغربيين والشرقيين نوردها هنا . فان الاسقف بروبا كنتوس لما سلَّم رسالة البابا الى المجمع قال «ان اسقف رومية بهذه الرسالة لا يعلِّم الآباء المجتمعين كانهم يجهلون التعليم بل ينصحهم وهم عالمون ويذكرهم بالقرار الذي قرَّر قبلاً (في مجمع رومية) ليتمموهُ بنشاط على قاعدة الايمان العام وعمل الكنيسة

الجامعة » فقال حينئذٍ فيرموس « ان الكرسي الرسولي المقدس كان لهُ صوتٌ وقرارٌ ايضاً في المسألة بواسطة التحاريز التي (ارسلها) الى الاساقفة الجزيل وقارهم (يعني تحاريز البابا لاساقفة الشرق) ... ونحن قد تبعناهُ بعد انهُ مضى على الفرصة المعيَّنة لنسطوريوس للاصلاح وقتٌ طويل وازمنةٌ كثيرة ... ومن كوننا استدعينا نسطوريوس ليحضر ولم يخضع عملنا بالقرار واصدرنا ضدهُ حكماً قانونياً ورسولياً » (فصل ١). فهنا يرى القريء شيئاً من الاعتراف بالسلطة في قولهِ « عملنا بالقرار » ولكن الحقيقة لا تخفى على المتبصر. لان فيرموس يبين ان المجمع قد فحص في جلستهِ الاولى قرار مجمع رومية وتعليم نسطوريوس. واعتبر قرار المجمع وعمل بهِ نظراً لاستقامة تعليمهِ. ورفض تعليم نسطوريوس لمضادتهِ القوانين وتعليم الرسل. وهذا المعنى يبرهن ان المجمع المسكوني ارفع من البابا ومن كل مجمعهِ اذ هو المحكمة العليا التي فيها يُفحص كل قرار كما رأينا قبلاً. وان قلنا غير ذلك فلا يكون المجمع المسكوني سوى دائرة اجراء اجتمعت لتنفذ قرار البابا ومجمعهِ. وهذا لا يسلّم بهِ تاريخ عقد المجمع ولا تاريخ اعمالهِ ومذاكراتهِ واحكامهِ واجراءاتهِ اذ تكون باطلة لا حاجة اليها والى التشغّل بها في مسألةٍ مقررة ومحكوم فيها فضلاً عن انهُ قولٌ لا يقولهُ لا شرقيٌ ولا غربيٌ ولا ينطبق على العقل ولا على عبارة فيرموس عينها. لان فيرموس يقول « اننا استدعينا نسطوريوس ليحضر ولم يخضع. واصدرنا حكماً » فلو كان المجمع دائرة اجراء لاوامر البابا لما كانت حاجة الى استدعاء نسطوريوس المحكوم عليهِ في قرار البابا ولا جاز لفيرموس ان يقول « اصدرنا حكماً ». على انهُ لا يخفى على اللبيب ما في قول فيرموس من عدم الاكتراث لاحكام البابا الخصوصية حيث قال « مضت مدةٌ طويلةٌ وازمنة كثيرة على المدة المعيَّنة لنسطوريوس من البابا » وهذا قولٌ ينفي الدعوى نفياً

قطعياً لانهُ يبرهن ان المجمع لم يعتبر المدة التي عيَّنها لا البابا وحدهُ بل هو ومجمعهُ المكاني معاً. ومن ثمَّ لم يكترث لها بل جرى على ما رأى هو موافقاً.

فمما تقدم يتضح ان القديس كيرلس والمجمع كلهُ لم يكن آلةً للبابا بل كان محكمةً ذات سلطانٍ عامٍ انما اعتبرت البابا رئيساً في كنيستهِ فقط. وان البابا وان لم تكن خامرتهُ شهيةُ التآمر على المجمع (كما يريد الغربيون) لم ينلهُ من ذلك شيءٌ اذ انهُ انما كان عضواً موافقاً لقرارات المجمع لا آمراً ولا حاكماً. ومما يبرهن ذلك اكثر فاكثر اعلان قرار المجمع لنسطوريوس[1] حيث يذكر ان المجمع ما اجتمع الاَّ

(١) فصل ٣. واعلم ان نسطوريوس كان مبتدعاً في سر التجسد الخلاصي. ولكنهُ في التعليم عن الروح القدس كان مستقيماً. فانهُ قال في اعتراف ايمانهِ « ان الروح القدس هو من جوهر الله وليس ابناً بل الفاً بالجوهر. لانهُ من الجوهر الذي منهُ الاله الآب الذي هو منهُ جوهرياً. فلا نعتقد بانهُ ابن ولا انهُ نال الوجود بواسطة الابن ». ولما كان القديس كيرلس كتب في الحرم التاسع من فصولهِ « ان الروح خاصٌ بالابن » جاوبهُ تاودوريتوس بقولهِ « انهُ (اي كيرلس) اذا كان يعني بذلك ان الروح مساوٍ للابن في الطبيعة ومنبثق من الآب موافقهُ ونقبل كلامهُ في جملة الايمان المستقيم. وان كان يعني انهُ (اي الروح القدس) نال الوجود من الابن او بواسطة الابن فنرفض كلامهُ في جملة التحريف والايمان الردي. » فلم يقاومهُ القديس كيرلس [illegible] لانهُ حسب قولهِ [illegible] القدس ينبثق من الآب حسب قولهِ [illegible] ليس غريباً من الابن » وقد شرح قولهُ: ليس غريباً من الابن بقولهِ في رسالتهِ الى نسطوريوس « انهُ ليس غريباً من الابن بحسب الجوهر (يعني مساوياً في الجوهر للابن) » وقد كتب ليوحنا بطريرك انطاكية يقول « ان ما هو مرسَلٌ الآن مزيَّنٌ بالشرف الانجيلي. لان فيهِ يُنادى ان ربنا يسوع المسيح الهٌ تامٌ وانسانٌ تامٌ. والروح القدس انهُ الوجود لا من الابن ولا بالابن بل هو منبثقٌ من الآب وخاصٌ بالابن اذ يُسوَّى مساوياً في الجوهر ». فهنا محكٌ يوضح بكل جلاء حقيقة الرأي في الروح القدس انهُ ليس من الابن ولا بواسطة الابن. فاذا يقول الغربيون لدى شهادات القديس كيرلس والمجمع الثالث فضلاً عن تاودوريتوس وغيرهِ؟ ومن الامور المضحكة ان توما الاكويني الغربي نهم الكنيسة الشرقية يذهب نسطوريوس في هذا الباب

بامرٍ ملوكيّ وانهُ هو حكم وقرّر. وحيث لم يرد ذكرٌ للبابا. واليك الاعلان بحرفهِ:

«ان المجمع المقدّس الذي بنعمة الله التأم في عاصمة الافسسيين بحسب امر ملوكنا المجربل نوّام المحبي المسيح برسل الى نسطوريوس يهوذا الجديد (فيقول) اعرف نفسك انك نظرًا لفعاليك الكافرة وعصيانك القوانين وبناءً على الشرائع الكنائسية مقطوعٌ من المجمع المقدّس وغريبٌ من كل درجةٍ كهنوتية»

هذا وانا نختم الكلام في المجمع الثالث المسكوني بقسمٍ من القانون الثامن من قوانينهِ يتعلق في ادارة الكنائس واستقلالية كل واحدةٍ منها وهو «فلا يجوز لاحدٍ من الاساقفة الوقورين ان يتعدّاهُ الى ابرشيةٍ غير ابرشيتهِ ليست لهُ من القديم ومنذ البدء تحت رئاسة اسلافهِ. وان كان احدٌ وضع يدًا واغتصب ابرشيةً وجعلها في دائرتهِ فليردّها لكي لا تُخالَف قوانين الآباء ولا يدخل دخان سلطةٍ عالميةٍ تحت برقع الخدمة الكهنوتية ولا نضيع الحريّة رويدًا رويدًا ونحن غافلون. الحريّة التي منحها لنا بدمهِ الخاص ربنا يسوع المسيح محرر جميع البشر. فقد رأى المجمع المسكوني المقدس ان تُحفَظ لكل ابرشيةٍ حقوقها القديمة القائمة لها منذ البدء سالمةً صحيحةً وفقًا للعادة المرعية منذ القديم بان كل ميتروبوليتٍ لهُ الرخصة ان يحصل على المساواة في الاعمال لصيانتهِ. وان برز احدٌ بقانونٍ يخالف القوانين المسنونة الآن فقد رأى المجمع المسكوني المقدس ان يكون ذلك لاغيًا»

كأنّ كلّ ما كان يعتقدهُ نسطوريوس يجب ان يُرفض. ولكنّ نسطوريوس لم يذهب وحدهُ هذا المذهب بل كل الكنيسة قبلهُ وفي عصرهِ وبعدهُ. فياترى الذين يعملون بوجود الله العلم هراطقة ايضًا عند الاكويني لان نسطوريوس كان يعتقد بوجود الله؟

٤. المجمع المسكوني الرابع في خلكيدون

قلنا في ما تقدم ان سبب عقد المجمع المسكوني الرابع كان ظهور بدعة اوطيخا وهي التعليم باختلاط طبيعة اللاهوت وطبيعة الناسوت في يسوع المسيح الى طبيعةٍ واحدةٍ كأنّ طبيعة ناسوتهِ قد اندثرت من طبيعة لاهوتهِ. وقلنا ايضًا ان هذه البدعة نشأت عن تطرّفٍ في ايضاح كمال طبيعة اللاهوت ضد تعليم آريوس الجاحد لها كما ان هرطقة نسطوريوس نشأت عن تطرّفٍ في ايضاح كمال طبيعة الناسوت ضد تعليم ابوليناريوس المنكر كمالها. وقد كان من الواجب ان نقتصر هنا على البحث في تاريخ واعمال المجمع الرابع لنرى مركز الكنيستين الشرقية والغربية كما بحثنا ورأينا في تاريخ المجمع الثالث واعمالهِ. غير ان اسبابًا مهمةً جعلتنا ان نستطرد الكلام الى النظر في تاريخ الطوائف التي انفردت لوحدها من عهد هذا المجمع المقدس كطوائف الارمن والسريان وعلى الخصوص الطائفة القبطية المصرية القاطنة هذه الديار والامصار تحت رعاية بطريرك اسكندريّ خاصٍّ بها.

فاننا بعد حضورنا الى هذه البلاد السعيدة بظل الحضرة السلطانية العلية ورعاية الذات الخديوية المفخيمة وفقتنا الظروف الحسنة بمعرفة كثيرين من وجهاء ونبلاء اكليروس وشعب هذه الطائفة المسيحية القبطية نخص منهم بالذكر حضرة صاحب القبطة البطريرك الانبا كيرلس المفضال. وحضرة السيد الانبا بولس اسقف البحيرة الجليل. وحضرة الخطيب البارع الايغومانوس فيلوثاوس النبيل رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى في مصر. وكانت هذه المعرفة داعيًا لوقوفنا على افاداتٍ جديدةٍ عن الكنيسة القبطية المشار اليها. فان التاريخ الكنائسي

يعتبر ديوسقورُس بطريرك اسكندرية شريكاً لاوطيخا في سوء العقيدة . والمجمع المسكوني الرابع حكم على هذا البطريرك كما حكم على اوطيخا تماماً . ولما كان البطريرك ديوسقورُس مسجلاً عند الطائفة القبطية بين البطاركة المستقيمي الرأي وهو منعوت منا بيدعة الطبيعة الواحدة الاوطيخية والطائفة القبطية تدعي استقامة الرأي في هذا المذهب نفسه فلدى الاستفهام من حضرة الايغومانوس فيلوثاؤس عن ذلك سمعنا جواباً لم ينطبق على التاريخ المعروف عندنا وهو : ان البطريرك ديوسقورُس لم يشترك مع اوطيخا في البدعة وان الكنيسة القبطية مع اعتبارها البطريرك ديوسقورُس هي نفسها تحرم اوطيخا وبدعته معاً ولا تشاركه في شيء منها . وقد حصلنا على رسالة من حضرة الايغومانوس الموماً اليه مورخة في ٢٦ امشير القبطي الموافق ٢٠ شباط سنة ١٨٨٩ ومحفوظة عندنا تصرح باعتقاد الكنيسة القبطية كمال الطبيعتين الالهية والانسانية ورفض الاعتقاد بالاختلاط والمزج والتشويش وما شاكلها وتفسر العبارات « الاتحاد الجوهري والاتحاد الطبيعي » بعبارة « الاتحاد الحقيقي » جرياً على نهج المدرسة الاسكندرية في التعبير القديم كما تقدم الشرح . واذ كان ولا بد لنا من ذكر المجمع المسكوني الرابع الذي فيه جرت محاكمة البطريرك ديوسقورُس رأينا ان نسطر في هذا المؤلف رواية اخوتنا الاقباط في مسألة هذا البطريرك ولا تبقى مستورة ومخفية تحت حجاب الكتمان وخصوصاً اعتقادهم في كمال طبيعتي مخلصنا الوحيد . الاعتقاد الذي هو الموضوع الجوهري المعوّل عليه بين الكنيستين . فاقترحنا على حضرة الايغومانوس ان يكتب لنا تاريخ المسألة كما هي عندهم . فكتب كتاباً خطاً مؤلفاً من تسعين صفحة سماهُ « خلاصةً تاريخية عن الكنيسة المرقسية » يشتمل على خطبة وتمهيد وخمسة فصول ويكلفنا ان ننشر ما يجب نشرهُ منهُ . كما يظهر من نصّ الخطبة

التي ندرجها هنا بحرفها الواحد . قال بعد البسملة :

« المجدُ لمَن افتدانا من أسرِ الخطأ . واحيانا من شرّ موت الشقا . بسرّ تجسُّدهِ البديع . وتدبيرهِ الباذخ الرفيع * وبعد فيقول الحقير في القسوس . الإغومانوس فيلوثاؤس . خادم الكنيسة الكبرى المرقسية العامرة . بحروسة القاهرة . قد سألني احد مشاهير الآباء الاماثل . العلماء الحكماء العاملين الافاضل . مَن لا يسعني الأطاعتهُ والإذعان لشريف اشارته . ان اقدم لقدسهِ بياناً عما تراهُ كنيستنا من جهة الاب ديوسقورُس البطريرك الاسكندري . الذي نعتبرهُ اباً ارثوذكسياً . وراعياً براً تقياً . فيما ان كثيرين يرون فيهِ الخلاف . ويحكمون على آرائهِ العقائدية واحكامهِ الرسمية بالمجمع الافسسيّ المُلقَّب بالخلل والاعتساف . وإن يكُن قدمهُ اشار عليَّ بالايجاز . واستحسن تأجيل الطويل لحين الانتهاز . لما اذ كان ذكر اوطيخا الشقي وبدعتهِ المرذولة . لهُ العلاقة الضرورية لايضاح المسألة المأمولة . رأيت مع مواخاتي ما يمكن من الاختصار . إبداء طرف ما يتعلق باوطيخا مما هو جديرٌ بالاعتبار . وافي لراجي مكارم . لاب المشار اليهِ . ان يسمح بايراد ما لابدَّ من الوقوف عليهِ . والله المسؤول الهداية . في البداءة والرعاية . في حسن النهاية »

فها يرى القارىء ان هذا الاب القبطي المعتبَر يسمي اوطيخا شقياً وبدعتهُ مرذولةً فيما انهُ يعتبر البطريرك ديوسقورُس ارثوذكسياً . فلهذا واجبةٌ رغبة حضرتهِ وحباً برفع سوء الفهم بين كنائس اخوات وشعوب مسيحيين لم يجاهد بعضهم اقلّ من بعض في سبيل محبة المسيح نقرّر عندنا استطراد الموضوع الى ما ذكرنا ورأينا ان نقسم هذا البحث الى ثلاثة فصول . ففي الاول ندرج مجمع ديوسقورُس والمجمع الرابع على ما هو في التاريخ الكنائسي المعروف الى الآن .

وفي الثاني تدرج اهمّ النقط التي فيها رواية الكنيسة القبطية تخالف الرواية الواصلة التاريخية ونقتطفها من رسالة الاب فيلوثاوس المحترم . وفي الثالث تدرج الملاحظات المتعلقة بهذا المجمع وقوانينه بين الكنيستين الشرقية والغربية .

١ . رواية التاريخ في مجمع ديوسقورس والمجمع المسكوني الرابع

في سنة ٤٤٤ قام على الكرسي الاسكندري البطريرك ديوسقورس خلفاً للقديس كيرلس . وكان هذا البطريرك واحداً من كثيرين كانوا يظنون ان البطريرك كيرلس بامضائه على اعتراف الايمان المصرّح باتحاد الطبيعتين حين مصالحته البطريرك الانطاكي يوحنا تساهل في التعليم القويم خلافاً للآباء الذين علّموا بان «طبيعة الاله الكلمة واحدة متجسدة» . وكان في ايامه ارشيمندريت رئيس دير في القسطنطينية اسمه افتيشيس او اوطيخا عدوّ الدّ لنسطوريوس لم يكتف باحدوده المجمع الثالث المسكوني ضد تعليمه بل تطرّف الى ان علّم بان المسيح المخلص هو طبيعة واحدة وان جسده من كونه جسد الهي ليس مساوياً لجسدنا في الجوهر لان الطبيعة البشرية قد ابتلعت على زعمه والدثرت في اتحادها مع الطبيعة الالهية . فقام ثاوذوريتوس اسقف كورش وكتب ضده وحكم على تعليمه . فلما وقف ديوسقورس على ذلك قام ضد ثاوذوريتوس وكتب بحقه للبطريرك الانطاكي دومنوس . واذ لم تثمر كتابته اهاج رهبان القسطنطينية ليساعدوه على حرم ثاوذوريتوس وكتب للقيصر ثاوذوسيوس الصغير ان الكنيسة الشرقية كلها نسطورية . فلما بلغ ذلك القيصر اصدر امراً ضد الانطاكيين ومنع ثاوذوريتوس عن الخروج من حدود ابرشيته (١) وغيران الانطاكيين ايضاً استعدوا للدفاع . فارسل البطريرك دومنوس سفارة الى القيصر توضح له الحقيقة وتفيده ان اوطيخا

(١) رسائل ثاوذوريتوس ٧٩ — ١١٣

سقط في مثل بدعة ابوليناريوس . غير انها لم تنجح * ولكن في سنة ٤٤٨ حضر افسابيوس اسقف ذوريلاوس في فريجيا الى القسطنطينية وقدم الشكوى الى البطريرك القسطنطيني افلابيانوس على اوطيخا انهُ افسد تعليم الآباء . فجمع افلابيانوس مجمعاً من ثلاثين اسقفاً ليفحص القضية ويحكم فيها . فعقد المجمع ستّ جلسات ودعا اوطيخا مراراً الى الحضور فلم يمتثل . وكان يحركهُ الى ذلك خصيّ من خصيان البلاط اسمهُ خريسافيوس قلبهُ مملوءٌ من الحقد والضغينة على افلابيانوس لاسباب سابقة . وهي انهُ طلب مالاً منهُ واذ لم يكن للبطريرك ما لّ ارسل اليهِ باتية الكنيسة . ففضب من هذا التوبيخ وحقد عليهِ وبدسائسهِ اخذ اوطيخا يجمع اعترافاً وعرضاً من رهبان القسطنطينية ضد افلابيانوس . غير ان المجمع عقد جلسةً سابعةً ودعا اوطيخا فحضر ومعهُ خريسافيوس وزمرةٌ من الرهبان ومن الحرس القيصري . وكان المجمع مؤلّفاً من ٢٩ اسقفاً و٢٣ ارشيمندريتاً . فسأل اوطيخا : هل يعترف بان المسيح مساوٍ للآب في جوهر اللاهوت ومساوٍ لامهِ في جوهر الناسوت ؟ فاجاب هو بما ملخصهُ انهُ يعترف بان المسيح من طبيعتين قبل الاتحاد وانهُ بعد الاتحاد طبيعة واحدة . وبعد التعب الطويل وعدم اقتناعهِ حكم عليهِ المجمع وقطعهُ من كل رتبةٍ كهنوتيةٍ ومن الشركة ومن رئاسة الدير .

وكانت للقيصر قرينةٌ اسمها افدوكيا وشقيقةٌ اسمها بولشيريا فحرّكت خريسافيوس المذكور الملكة افدوكيا ان تجبر بولشيريا على الرهبنة . واذ بلغ الخبر البطريرك افلابيانوس اوضحهُ لبولشيريا فتركت البلاط وابتعدت . فلما علمت افدوكيا بذلك اتفقت مع خريسافيوس على محاربة افلابيانوس وقاما نصيرين لاوطيخا . فاخذا يطعنان بافلابيانوس وبالمجمع انهما افلتا الاعمال وحرّفاها . وكتب للبابا لاون الكبير يشكوانهُ ظلمهما اياهُ بصفة مستأنفين . واستدعى ايضاً الى القيصر ضد ما

حصل. وبعد اخلة خريسافيوس وغيره من ذوي الوجاهة انتصر القيصر لاوطيخا وكتب هو ايضاً للبابا يطعن باعمال افلابيانوس ويلمّح بوجوب فحص المسألة في مجمع عامّ . فكتب البابا لافلابيانوس بعناية الملك في السلام واستعلم منهُ ما جرى . فارسل افلابيانوس اعمال المجمع الذي حكم على اوطيخا . فعقد البابا مجمعاً وفحصها وساءهُ عليها واعلن ذلك للقيصر . ثم ان خريسافيوس كتب للبطريرك ديوسقورُس يستنهضهُ الى مساعدة اوطيخا وعصبتهِ . وكان يجتهد في اقناع القيصر ان يعقد مجمعاً مسكونياً . فلما بلغ ديوسقورُس ما كان من امر اوطيخا عقد مجمعاً حلَّهُ من القطع وعرفهُ ارشيمندريتاً على ديرهِ وطلب من القيصر عقد مجمع مسكوني . واذ رأى القيصر ما كان من طرف البابا لاون رسم ان يجمع مجمعاً مسكونياً . ولكنهُ إمَّا لكي يفهم ما حصل في مجمع افلابيانوس فهماً حقيقياً او لكي يصلح ما كان من الظلم على اوطيخا نظراً لاعتناءهِ بانهُ كان مظلوماً امر بعقد مجمع ثانٍ في القسطنطينية ليفحص الاعمال السابقة وارسل وزيرهُ بروطوجانس ليراقب امورهُ . فانعقد المجمع (سنة ٤٤٩) وفحص الاعمال وايَّد قرار المجمع الاول ضد اوطيخا. اما لاون فلما رأى ان القيصر ما اكترث لكتاباتهِ وآرائهِ كتب رسالةً مجمعية معروفةً « بالطومس » ايَّد فيها تعليم افلابيانوس ضد اوطيخا وشرح تعليم الكنيسة بالطبيعتين في الاقنوم الواحد شرحاً مدققاً وواضحاً وارسلها الى البطريرك ليصدّق عليها اساقفة الشرق . فبعضهم صدّق مثل ثاودوريتوس وغيره وبعضهم انتظر حكم المجمع فيها كانطوليوس وكيل البطريرك الاسكندري وامثالهِ .

اما القيصر فمن بعد تقرير المجمع الثاني قرار الاول اصدر الاوامر الملوكية بعقد مجمع مسكوني في افسس في السنة عينها (٤٤٩) وعين ديوسقورُس رئيساً فيهِ وامر ان يحضر افلابيانوس وجماعتهُ من دون ان يكون لهم حقٌّ في

ابداء رأي وان لا يحضر ثاودوريتوس البتة ولا احد من زملائهِ . وسمح لعصبة من الرهبان ان يجلسوا في المجمع وفي مقدمتهم ارشيمندريت من اتباع ديوسقورُس اسمهُ برسوم (وهذا السماح اول مرة جرى في مجمع مسكوني) . وعيَّن ايضاً اثنين من ذوي المعية القيصرية وهما البيذيوس وولاجيوس ليحضرا في المجمع ويستعملا القوة عند الاقتضاء ضد المقاومين . واصدر امراً الى بروكنوس حاكم البيا ليسعف وكلاءهُ بالقوة العسكرية عند الحاجة . وكتب كتاباً ألغى فيهِ سلفاً كل اجراءات افلابيانوس وهيَّأ كل شيء ضدهُ (١) . فاجتمع في المجمع ١٣٠ اسقفاً او اكثر وحضر ديوسقورُس ومعهُ عصبةٌ من الرهبان والنوبة والخشية تحت حماية القوة العسكرية . وحضر ايضاً نوابٌ من طرف البابا لاون وهم الاسقف يوليوس والقس ريناديوس والشماس ايلاريوس والكاتب الخاص دولشيسيوس . وعند الاجتماع أُجلس افلابيانوس تحت جميع البطاركة خلافاً لقانون المجمع الثاني المسكوني (٢) . ثم تُليت رسالة القيصر اولاً . وبعد ذلك طلب نواب رومية ان تُقرأ رسالة البابا لاون الى البطريرك افلابيانوس . غير ان ديوسقورُس رفض

(١) قال القيصر في كتابهِ لاليذيوس «... فقد امرنا بانتظام هذا المجمع الثاني في افسس ... ولاجل ذلك اصطفيناك واولاجيوس المعروف بفائق وكاتب الديوان ... كونوا لعمل ما امرنا بهِ من خصوص الامور التي يرسم بها المجمع المقدس الافسسي ومنع كل همس . بل وان رابكم احدٌ طالب الخصومات والانشقاق مبادراً لمس الايمان المقدس فالقياهُ في السجن وارفعا امرهُ الينا . وتصرفا في الامور باحسن نظام . واحضرا في مجلس الشرع . واعلمانا بالامر كلهِ . واولئك الذين كانوا سابقاً قضاةً في امر اوطيخا رئيس الدير الناسك ليكونوا حاضرين صامتين ولا يجاسوا القضاة بل ينظروا ما يشرع بهِ حضور الآباء الاطهار . لان الامور التي عُ اوجبوها سابقاً تُنقض الآن الخ » . فمن تحوي هذه الرسالة يظهر ان النوايا كانت معقدة سلفاً على مقاومة افلابيانوس لا على البحث في الحقيقة .

(٢) راجع كل ذلك في تواريخ افاغريوس وثاوفانيس ونقيفاوس

الطلب ورفض ايضاً المداولة في بدعة اوطيخا واستعاض ذلك كلَّهُ بالمذاكرة في الحكم الذي صدر من مجمع القسطنطينية على اوطيخا . فتُليَت اعمال ذلك المجمع والجميع يسمعونها بهدوءٍ وسكينةٍ . ولكن لما وصل القارىء الى القسم الذي فيهِ سأل افسابيوس اوطيخا « هل تعتقد بطبيعتَين في المسيح بعد التجسُّد » قام جملةٌ من الاساقفة الحاضرين وصرخوا باعلى اصواتهم « ارفعوا افسابيوس واحرقوهُ . . . كلُّ مَن يقول بطبيعتَين محرومٌ » . وعلى هذه الصورة دفع اوطيخا اعتراف ايمانهِ موافقاً في ظاهرهِ لدستور المجمع النيقاوي ومتجنباً ذكر الموضوع المختلف عليهِ وحلَّ من القطع والحرم وأُعيد الى وظيفتهِ . واذ رأى الباقون هذه الحركات وسمعوا تلك الاصوات وضجيجها سكتوا جميعهم ما عدا نوَّاب البابا فانهم اعترضوا ولكنهم لم يعاروا التفاتاً . غير ان ديوسقورُس ما اكتفى بذلك بل اراد ان ينتقم من افلابيانوس . فطلب قراءة اعمال الجلسة السادسة من جلسات المجمع الثالث المسكوني حيث يُذكَر ان كل إحداثٍ ممنوعٌ . وبعد قراءتها قام هو بنفسهِ وطعن بحق افلابيانوس وافسابيوس انهما محدثَين . وبعد هذا الطعن قرأ كاتب المجمع حالاً حكماً بقطع افلابيانوس وافسابيوس ودوملوس وثاودوريتوس وإيبا وسائر الذين كانوا امضوا على رسالة البابا لاون الى افلابيانوس . فاعترض على هذا الحكم جماعة افلابيانوس ونوَّاب البابا . ولكنهم ما فاهوا بالاعتراض الاَّ وصرخ ديوسقورُس بصوتٍ عالٍ يقول « اين هم الكونتات » وعلى هذا الصوت دخل حالاً والي اسيا وخلفهُ عددٌ عديدٌ من العسكر والرهبان وغيرهم . فصرخ برسوم « اضربوا » فنكبُّوا جميعهم على البطريرك افلابيانوس واشبعوهُ ضرباً وجرُّوهُ الى الخارج مرضَّضاً . فعاش ثلاثة ايام ومات . وقبل وفاتهِ ارسل رقعةً الى البابا لاون واحكى لهُ ما جرى .

اما الاساقفة فبعضهم فرَّهاربًا ومنهم نواب البابا . والباقون استولى عليهم الرعب فامضوا على بياض . وهكذا في يومٍ واحدٍ انعقد وانحلَّ هذا المجمع . ونظرًا لحوادثهِ الهائلة سُمِّيَ في التاريخ « المجمع اللصوصي » . وقبل انحلالهِ منح ديوسقورُس لمدينة افسس حقوقاً بطريركية الغاها لمجمع المسكوني الرابع (١) . ثم ان القيصر صدَّق على اعمالهِ ومنع المنع القاطع ان لا يُشرطن احدٌ من الذين يعتقدون اعتقاد نسطوريوس وافلابيانوس اسقفاً . ومنح لديوسقورُس فشرطن اناطوليوس المذكور وكيلهُ في القسطنطينية بطريركاً عليها خلفاً لافلابيانوس . وشرطن البطريرك مكسيموس على كرسي انطاكية بدلاً من دومنوس .

غير ان الكنيسة صارت بهذه الواسطة شطرين . فكان اساقفة مصر وفلسطين وثراكي مع ديوسقورُس والباقون مع لاون اسقف رومية اذ ان لاون نهض للمحاماة عن الارثوذكسية بعد موت افلابيانوس . واذ علم من نائبهِ ايلاريوس ومن لائحة افلابيانوس بما كان عقد مجمعاً في رومية وقطع الشركة مع جميع الذين شاركوا ديوسقورُس في اعمالهِ . وكتب رسالتين للقيصر ثاوذوسيوس يقيم فيهما الحجة على قرار ذلك المجمع ويتوسَّل اليهِ بدموعٍ ان يسمح بعقد مجمعٍ مسكونيٍّ في ارض ايطاليَّة . قال المؤرخ ثاوفانيس « وكان البابا يتوسل بدموعٍ وعبراتٍ الى والنديانوس الثالث قيصر الغرب وزوجتهِ افدوكسيا وامهِ ايلاكيديا ان يكتبوا للقيصر ثاوذوسيوس ويقنعوهُ على اجابة طلبهِ فكتبوا . ولكن ثاوذوسيوس اجابهم : ان ما جرى يكفي وهو حسنٌ ولا حاجة الى عقد مجمعٍ آخر » * وفي هذه الاثناء حصل تغيُّرٌ في بلاط المملكة الشرقية . وهو ان القيصر

(١) راجع الاعمال طبعة ميلنا جزء ٢ صفحة ٦ — ١٠ و ٤ — ١٠٠ . وتاريخ ثاوفانيس صفحة ٦٨ . وتاريخ إفاغريوس ١ : ٩ ورسالة البابا لاون ٧٥ الى بولشيريا

ثاوذوسيوس اختلف مع زوجته افدوكيا واسترجع شقيقته بولشريا واعادها الى البلاط وطرد خريسافيوس رجل الدسائس وقيل انهُ قتلهُ ايضاً بطلب بولشريا. فحالما رجعت بولشريا اعتنت بان تحواهانة افلابيانوس اولاً . فبرأيها وبامر القيصر نُقلت جثتهُ الى القسطنطينية ودُفنت بكل احتفال واحتفاء . ولم يعش القيصر بعد ذلك طويلاً لانهُ بعد مدة قليلة وقع عن حصانهِ ومات (سنة ٤٥٠) فاستقلت بولشريا في ادارة المملكة . ونظراً لثقل هذا الحمل العظيم تزوجت بقائد جيشها مركيانوس بشرط ان تلبث عذراء وان تقتصر زيجتها على الاشتراك في ادارة المملكة . قال افاغريوس : وحالما رُقي مركيانوس الى كرسي المملكة كتب لهُ الاساقفة المظلومون والبابا لاون ايضاً فارجع جميع الاساقفة المنفيين من منافيهم وبالاتفاق مع قيصر الغرب جمع المجمع المسكوني الرابع لا في ارض ايطالية بل في مدينة نيقيه فاجتمع الاساقفة فيها وقبل عقد المجمع مرض بعضهم وكانوا محتاجين الى المعالجة . فلذلك ولأن القيصر لم يستطع ان يفارق مركزهُ ليحضر المجمع بذاتهِ نقلهُ من مدينة نيقيه الى خلكيدون بجوار القسطنطينية .

ففي اليوم الثامن من شهر تشرين الاول سنة ٤٥١ اجتمع المجمع في كنيسة القديسة إفيميا في خلكيدون مؤلفاً من ٦٣٠ اسقفاً ومعهم كثيرون من مجلس الدولة الاعلى واعيانها . وكان الاسقفان باسكاسينوس ولوشنسيوس والقسان يونيفاتيوس وباسيليوس ينوبون عن البابا لاون . وكان وجهاء الدولة جالسين في صدر المجمع امام الباب الملوكي وعن يسارهم نواب البابا ثم البطريرك القسطنطيني اناطوليوس ثم الانطاكي مكسيموس وعن يمينهم ديوسقورُس الاسكندري ثم يوفينالیوس الاورشليمي ثم سائر الاساقفة من الجهتين . وكان الانجيل موضوعاً في نصف المجمع . وبعد الافتتاح قام الاسقف باسكاسينوس والذين معهُ نواب البابا لاون

ووقفوا في وسط المجمع وقالوا لعظماء الدولة « ان اسقف مدينة الرومانيين الرسولي الجزيل الغبطة الذي هو رأس جميع الكنائس اعطانا اوامر امرنا فيها ان نخاطبكم بان لا يجلس معنا في المجمع ديوسقورُس رئيس اساقفة اسكندرية . وان شرع ان يفعل ذلك فلنخرج . فعلينا ضرورة ان نحافظ على هذا الامر . فاما ان يخرج هو واما ان نخرج نحن » فسألهم عظماء الدولة عن سبب هذا الطلب . فقال لوشنسيوس « على ديوسقورُس ان يردَّ الجواب عما حكم بهِ . فانهُ خطف حق الحكم من دون ان يكون لهُ . وتجاسر ان يجمع مجمعاً بلا رخصة من الكرسي الرسولي . الامر الذي ما صار مطلقاً ولا يجوز ان يصير » ثم قال باسكاسينوس « اننا لا نستطيع ان نخالف اوامر الاسقف الرسولي الجزيل الغبطة صاحب الكرسي الرسولي ولا القوانين الكنائسية والتقاليد الابوية » فاجابهُ الوجهاء « من اللائق ان توضع ذنبة ونسميه » فاجاب لوشنسيوس « اننا لا نطيق هذه الاهانة لكم ولنا ان يحاكم شخص حضر لاجل المحاكمة » فاجابهُ القضاة « اذا كنت جالساً بصفة قاضٍ فما بالك تخاصم » ثم قالوا لديوسقورُس ان يجلس في وسط المجمع فجلس . ثم قام افسابيوس اسقف ذوريلاوس ودفع للمجمع كتاباً ضد ديوسقورُس مضمونهُ ملخص ما جرى في افسُس فقبلهُ المجمع . ومن ثم تُليت اعمال المجمع المذكور (المعروف بالتوصي) واعمال مجمع افلابيانوس وتقرر بعد ذلك ان كل ما جرى في افسُس انما جرى جبراً وظلماً وان ديوسقورُس ومن يذهب مذهبهُ مستحقون القطع وتبرأت ساحة ثاوذوريتوس والشرقيين الآخرين .

وفي الجلسة الثانية تُليت رسائل القديس كيرلُس الى نسطوريوس والى يوحنا بطريرك انطاكية . ثم رسالة البابا لاون الى افلابيانوس . ومما كانت عليهِ من استقامة التعليم ودقة الشرح ووضوح المعاني لم تُقبل قبولاً عمومياً . فالاكثرون

قبلوها. ولكن الباقين ترددوا في صحتها. فالذين قبلوها صرخوا بعد قراءتها قائلين «هذا هو ايمان الآباء! هذا ايمان الرسل! جميعنا هكذا نؤمن! الارثوذكسيون هكذا يؤمنون! محروم من لا يؤمن هكذا! بطرس نادى بهذا التعليم بواسطة لاون! كيرلس هكذا علم! فذكر كيرلس ايدي الاون وكيرلس علماً تعليماً واحداً! محروم من لا يؤمن هكذا! هذا هو الايمان الحقيقي! الارثوذكسيون هكذا يعتقدون! هذا ايمان الآباء!» واما الذين ترددوا في صحتها فهم اساقفة ايليريا وفلسطين ولذلك طلبوا من نواب البابا شرحاً عليها. ومثلهم ايضاً الاساقفة المصريون لم يمضوا عليها لانهم كانوا بلا رئيس. ومن عادة المصريين انهم لا يوقعون على رسائل مثل هذه ما لم يوقع رئيسهم اي بطريركهم اولاً

وفي الجلسة الثالثة دفع جانب عظيم من الاكليروس الاسكندري تقارير الى المجمع يطعنون فيها بديوسقورس من حيث سوء الآداب والجور والظلم. فدعا المجمع ديوسقورس ثلاث دفعات ليحضر فلم يحضر. حينئذٍ قال الاسقف باسكاسينوس «لقد علم المجمع المقدس الجزيل وقاره وغبطته ان الاسقف ديوسقورس دُعي ثلاث مرات ليجاوب خصمه من اخصائه فازدرى بالحضور لمعرفته نفسه مجرماً. فالذي ازدرى هذا الازدراء ماذا يستحق؟ هذا امر على قداستكم ان توضحوه به كم» فقال المجمع «انه مستحق الجزاء المعيَّن في القوانين ضد العصاة» ـ قال الاسقف باسكاسينوس «ايضاً نروم من غبطتكم. ان الذي دُعي ثلاثاً من اخوتنا وشركائنا الاساقفة وازدرى ولم يحضر ماذا يستحق؟ نريد ان نعلم ما ترون قداستكم». فقال المجمع المقدس «نرى ما تراه القوانين» ـ قال لوكيانوس اسقف بيزا ونائب اسقف هرقلية «لقد اجرى ابونا كيرلس رئيس الاساقفة الجزيل الغبطة اعمالاً ضد نسطوريوس في مجمع افسس المقدس.

فقفوا على اجراءاته هناك واجعلوه رسماً للحاضر» ـ قال الاسقف باسكاسينوس «أترومون لقواكم ان تستعمل ضده القصاصات الكنائسية؟ أتوافقون؟» فقال المجمع المقدس «اننا نوافق جميعنا على ما هو حسن» ـ ثم اعاد الاسقف باسكاسينوس السؤال عينه مراراً وهم كانوا يكررون الاجوبة عينها. حينئذٍ خاطب الاسقف يوليانوس نواب البابا قائلاً «ايها الآباء القديسون اسمعوا. ان حق الحكم في مدينة افسس كان وقتئذٍ في يد ديوسقورس. وقد قطع عند ذلك افلابيانوس الجزيل قداسته والاسقف افسابيوس الجزيل وقاره واصدر عليهما حكماً ظالماً وهو اول من اثبت الحكم الظالم والجميع تبعوه مضطرين. واما الآن فالحق هو لقداستكم عن الاسقف لاون الجزيل القداسة ولجميع المجمع المقدس المجتمع بنعمة الله وبامر ملوكنا الجزيل وقارهم لله. وقد علمتم مفصلاً كل المظالم التي جرت في افسس. فإذن نرجو قداستكم ان يلفظ ضده من هو في مكان رئيس الاساقفة لاون الجزيل قداسته ويرسم ضده القصاصات المعيَّنة من القوانين فاننا جميعاً وكل المجمع المسكوني موافقون قداستكم» ـ فقال الاسقف باسكاسينوس «اني اسألكم ايضاً: ماذا تستحسن غبطتكم؟» فقال مكسيموس اسقف انطاكية العظيمة «كل ما يستحسنه بركم نوافق عليه»

حينئذٍ قام نائب بطريرك رومية العظيمة بالحرم ضد ديوسقورس مبنياً على تبرئته اوطيخا ضداً للقوانين وقبوله اياه قبل اجتماع مجمع افسس وعدم رجوعه عن خطاه ومثل باقي الاساقفة الذين وافقوه قبلاً. وعده سيحه بقراءة رسالة البابا لاون في المجمع. واصراره على قطع العلاقة مع الارثوذكسيين. ومبنياً ايضاً على التقارير التي تقدمت بحقه وعلى استدعائه ثلاثاً وعصيانه واخيراً قال «بناء على كل ذلك لاون الجزيل القداسة والغبطة رئيس اساقفة رومية العظيمة القديمة مع

بطرس الرسول الجزيل الفيطة المثلثة والكلي المديح اثناسيوس هو صخرة وقاعدة الكنيسة الجامعة واساس الايمان الارثوذكسي قد عرّاهُ بواسطتنا وبواسطة المجمع الحاضر الجزيل القداسة وابعدهُ من درجة الاسقفية ومن كل وظيفةٍ كهنوتية. فهذا المجمع الجزيل قدسهُ يحكم بما تراهُ القوانين ضد ديوسقورُس المذكور» فقال اناطوليوس رئيس اساقفة القسطنطينية رومية الجديدة «اني اعتقد في كل شيءٍ مثل الكرسي الرسولي واوافق على قطع ديوسقورُس الذي اظهر نفسهُ غريباً من كل خدمةٍ كهنوتية لعصيانهِ في كل شيءٍ قوانين الآباء القديسين واستدعائهِ قانونياً ثلاث مراتٍ وعدم ارادتهِ الخضوع» — وقال مكسيموس الانطاكي «انني اضع ديوسقورُس تحت القصاص الكنائسي الذي قاهُ بهِ بواسطة نوابهِ ابونا الجزيل القداسة لاون رئيس اساقفة رومية القديمة واناطوليوس رئيس اساقفة رومية الجديدة الجزيل القداسة» — وقال استفانوس اسقف افسس «انني انا ايضاً موافقٌ على ما حدّد من رئيسَي الاساقفة لاون واناطوليوس الجزيل ثقواهما وقداستهما» — وقال نوكيانوس اسقف بيزا «اني موافق على ما رآهُ المجمع الكبير المقدس» — وقال ديوجانيس اسقف كيزيكوس «وانا ايضاً موافق على قرار لاون ... واناطوليوس ... وهذا المجمع المسكوني المقدس» ومثلهم سائر الاساقفة. وهكذا حُكِم على ديوسقورُس «اما الاساقفة الباقون فقدموا ندامةً ونالوا الصفح.

واما الجلسة الرابعة والخامسة فكانتا تابعتَين للجلسة الثانية اعني ان مدار البحث فيهما كانت العقيدة. ففحصت رسالة البابا لاون الى افلابيانوس وقوبلت على دستور الايمان المسنون في المجمعين الاول والثاني المسكونيين وعلى تحديدات المجمع الثالث والقديس كيرلس. ثم قدم الاساقفة المصريون لائحة ايمان. واذ

لم يوردوا فيها الحرم على اوطيخا وبخهم المجمع. فقالوا انهم ينتظرون ان يشرطن بطريركُ اسكندريّ فيعملون الواجب بواسطتهِ اذ من عادة المصريين ان لا يقطعوا رأياً بلا وجود بطريركهم واكّدوا انهم صادقون بذلك. وكانوا هم متشبثين بالعبارة «من طبيعتين» والشرقيون جميعهم بصوتٍ واحدٍ يقولون «بطبيعتَين». اخيراً اتفقوا ان تُثبَّت رسالة لاون ورسائل كيرلس الى نسطوريوس وتُعرف قانوناً لاستقامة الرأي. وان يُحكَم على مذهب اوطيخا ومذهب نسطوريوس. ثم انتُخبت لجنةٌ مولّفة من جميع الفِرَق لتولّف صورة اعترافٍ للايمان. فكتبتها وقدمتها في الجلسة الخامسة. فطلب نواب رومية ان تكون رسالة البابا هي التحديد المجمعي فلم يجابوا. وبعد جدالٍ طويل اتفق الجميع وصدقوا على الاعتراف الذي قدمتهُ اللجنة المنتخبة وهو هذا «اننا نعلّم جميعنا تعليماً واحداً تابعين الآباء القديسين ونعترف بابنٍ واحدٍ هو هو نفسهُ ربنا يسوع المسيح. وهو نفسهُ كاملٌ بحسب اللاهوت وهو نفسهُ كاملٌ بحسب الناسوت. الهٌ حقيقيٌّ وانسانٌ حقيقيٌّ. وهو نفسهُ من نفسٍ ناطقةٍ وجسدٍ. مساوٍ للآب في جوهر اللاهوت وهو نفسهُ مساوٍ لنا في جوهر الناسوت مماثلٌ لنا في كل شيءٍ عدا الخطيئة. مولودٌ من الآب قبل الدهور بحسب اللاهوت وهو نفسهُ في اواخر الايام (مولودٌ) من مريم العذراء والدة الاله بحسب الناسوت لاجلنا ولاجل خلاصنا. ومعروفٌ هو نفسهُ مسيحاً وابناً ورباً ووحيداً واحداً بطبيعتَين بلا اختلاطٍ ولا تغيّر ولا انقسامٍ ولا انفصالٍ. من غير ان يُنفَى فرق الطبائع بسبب الاتحاد بل ان خاصة كل واحدةٍ من الطبيعتَين ما زالت محفوظة تؤلّفان كلتاهما شخصياً واحداً واقنوماً واحداً لا مقسوماً ولا مجزّءاً الى شخصين بل هو ابنٌ ووحيدٌ واحدٌ هو نفسهُ الله الكلمة الرب يسوع المسيح كما تنبّأ عنهُ الانبياء من البدء وكما علّمنا

الرب يسوع المسيح نفسهُ وكما سلّمنا دستور الآباء ». ومن جملة حوادث الجلسة الرابعة ان فوتيوس اسقف صور قدّم شكوى ضد اغسطاثيوس اسقف بيروت (وهو من نصراء ديوسقورُس) انهُ بعد ما رقّاهُ القيصر ثاوذوسيوس من رتبة اسقفية خاضعة لميتروبوليت صور الى رتبة ميتروبوليت مستقل وهبهُ بطريرك القسطنطينية اناطوليوس اسقفيات بيبلوس ويوتريس وطرابلوس واورثوسياس وعكار واندارادوس التي هي اسقفيات تخص ميتروبوليت صور. فبعد المداولة في هذا الموضوع لام المجمع اناطوليوس على هذا التعدّي وحكم بارجاع تلك الاسقفيات لميتروبوليت صور.

وفي الجلسة السادسة حضر القيصر بالذات وخاطب المجمع محرضاً اياهُ على السلام واستقامة الرأي. ثم تلي تحديد المجمع فامضى عليهِ الآباء وصدّق القيصر على ذلك — وفي الجلسة السابعة تصالح انبطريركان الانطاكي والاورشليمي بعد التنازع على ابرشيات فينيقيه والعربية (كما ذكرنا في اللجة) — وفي الثامنة قاءَ ثاوذوريتوس اسقف كورش بالحرم ضد اسطوريوس فعرفهُ المجمع ارثوذكسياً. وفي التاسعة ثبتهُ في ابرشيتهِ — وفي العاشرة تبرّأ الاسقف إيبا — وفي الجلسات ١١ — ١٤ حلّت مسائل تتعلق باسقفة افسس وبقومیدیه وغيرها. وفي الجلسة الخامسة عشر سنّ المجمع ثلاثين قانوناً لم تزل الى اليوم معمولاً بها وتقررت رتب الكراسي الاسقفية الأولى وحلّت مسألة تقدّم انبطاركة بعضهم عن بعض وأثبت في قوانين المجمع ان تكون لاسقف القسطنطينية المنزلة نفسها التي لاسقف رومية القديمة. غير ان نواب البابا ما حضروا هذه الجلسة. ففي الجلسة السادسة عشر وهي الاخيرة اعترضوا على قرارها واظهروا عدم رضاهم. ثم برزوا بالقانون السادس للمجمع الاول المسكوني محرّفاً على ما اوردهُ

سلفاؤهم في مجمع قرطاجنة. فرُفض اعتراضهم كما سنفصل في الملاحظات الآتية. ثم صدّق القيصر على القرارات والقوانين وحلّ المجمع ومنع اتباع اوطيخا عن ان يكون لهم كهنة وان يقيموا احتفالات دينية وحكم بالنفي على الذين يقاومون اعتراف المجمع. منهم اوضيخ وقد مات بعد مدة قليلة نظراً لشيخوختهِ. واما ديوسقورُس فنُفي الى كنجريس في افلاغونيا حيث كان يجول الى سنة ٤٥٤ واما الشيعة الاوطيخية فمروقة بشيعة الطبيعة الواحدة.

هذا هو تاريخ مسألة اوطيخا وديوسقورُس على رواية اعمال المجمع الرابع المسكوني والتاريخ الكنائسي. فلننظر الآن في ما ورد عند اخوتنا الاقباط من تبرئة البطريرك ديوسقورُس ومن مسالتهِ.

٢. رواية الكنيسة القبطية

في البطريرك الاسكندري ديوسقورُس مقتطفة من رسالة القس الابغوماوس قبلوثاوس المعنونة «بالخلاصة التاريخية في الكنيسة المرقسية»

من بعد الخطبة التي ادرجناها سابقاً من الرسالة يذكر كاتبها في تمهيد ظهور بدعة اوطيخا وموافق على انهُ حُرم بعدل ويقول «ان آراءهُ عدلاً رُذلت كبدعة شنعاء». ثم يوضح الفرق في اعتبار ديوسقورُس عند الكنائس بان الكنيستين اليونانية الاصلية واللاتينية تعتبرانهِ اوطاخيّ المذهب والرأي استناداً على انهُ حلّ ذاك الشقي (اي اوطيخا) من الحرم... وباركهُ وقرّرهُ في رتبتهِ... وعلى انهُ حطّ افلابيانوس عن رئاستهِ وحكم عليهِ... وان الكنيسة القبطية المرقسية الاصلية ومن يوافقها ترذل اوطيخا وتعتد مذهبهُ ارثذكسية عظيمة وتوافق هي ورؤساؤها الكنيستين اليونانية واللاتينية على شجبهِ مستشهداً بان البطريركين ثاوذوسيوس الاسكندري وساويروس الانطاكي المعتبرين عند الروم واللاتين

اكبر محامي الشيعة الاوطيخية وناشريها قد طعنا نسطوريوس واوطيخا بالحرم الرسمي كباقي الهراطقة في اعترافات لم تزل مسجلة ومحفوظة في الكنيسة القبطية. ومع هذا تعتبر ديوسقورُس ابا ارثوذكسياً اذ هو بريء عندها من بدعة اوطيخا. واما حلهُ وقبولهُ اوطيخا فيقول انهُ ما كان مبنياً على اشتراكهِ معهُ في الهرطقة بل على اعتراف ايمان ارثوذكسيّ قدّمهُ ذاك الشقي. فحكم المجمع بصحتهِ وديوسقورُس رئيس المجمع ثبّت الحكم. ولما ظهر منهُ بعد ذلك ما ظهر من سوء العقيدة ما نبث الاب (اي ديوسقورُس) عن ان يعلن رذلهُ وتحجب رأيهِ الردي في سيرة المجمع الخلكيدوني * ثم ينتقل حضرة الايغومانوس الى البينات وهاك ملخصها:

١ . يذكر محاكمة اوطيخا في القسطنطينية لدى افلابيانوس. فيذكر شكاية اقسابيوس على اوطيخا وطلبهُ وعدم حضورهِ . وقراءة رسالتي كيرلّس الى نسطوريوس ويوحنا واعتراف ايمان افلابيانوس وغيرهِ من الاساقفة بطبيعتين واقنوم واحد . وتكرار طلب اوطيخا ثانياً وثالثاً . واخيراً حضورهُ في الجلسة السابعة مصحوباً بكبير حرّاس الدار الملوكية وبكتاب من القيصر والسؤال منهُ عن معتقدهِ وتلوُّنهُ في الاجوبة الى انهُ لم يوافق المجمع وحكم المجمع عليهِ بانهُ ساقطٌ في بدعة ابوليناريوس ووالنديوس ومقطوعٌ من الكهنوت * ثم يذكر استغاثتهُ بالقيصر وتظاهرهُ بالتديُّن ودعواهُ على المجمع بتحريف الاعمال وامر القيصر باجتماع مجمع ثانٍ وتجديد فحص القضية . وما جرى في هذا المجمع من المداولات منتهياً باعتراف افلابيانوس باقنوم واحد بطبيعتين بعد التجسُّد وعدم تلبيهِ قول القائل بطبيعةٍ واحدةٍ اذا اضاف الى قولهِ هذا ان الطبيعة المذكورة هي متجسدة ومتأنسة. وحرمهِ المعتقدين باقنومين وابنين الخ . وكل ذلك نقلاً عن تاريخ المجمع الخلكيدوني وتاريخ الارتقات * وبعد ذلك يستنتج ان ما قرّرهُ

افلابيانوس من القول بطبيعتين او بطبيعةٍ واحدةٍ متجسدة متأنسة لم يكن موافقاً مشرب الجمهور الشرقي الذي على زعمهِ تسلَّم عن الآباء دائماً القول بطبيعةٍ واحدةٍ للكلمة المتجسد المتأنس (١) . وان الامر بات مستلزماً اجتماع مجمع عامّ لنظر في المسألة . ومن هنا ينتقل الى الكلام في مجمع افسس الذي ترأسهُ ديوسقورُس

٢ . فيذكر اصدار القيصر الاوامر والرسائل لاجتماع المجمع المذكور: اولاً الى البابا لاون وجواب البابا وارسالهُ رسالةً ونوّابًا . ثم الى ديوسقورُس حيث يطلب منهُ ان يُحضر معهُ عشرة مطارنة وعشرة اساقفة ويبادر الى افسس ويمنع قبول ثاوذوريتوس . ثم الى غيرهِ وليهِ ايضاً بخطابٍ آخر يأمر بقبول الارشيمندريت يرسوم في آباء المجمع بصفة قائم مقام جميع الارشيمندريتين الشرقيين . ثم اليهِ ايضاً بخطابٍ ثالثٍ يمنع حضور ثاوذوريتوس . ثم يقول

---

(١) قلنا على زعمهِ لان عبارة القديس اثناسيوس اليونانية الاصلية هذه ترجمتها « ان طبيعة الاله الكلمة في واحدة متجسدة » فيقول « طبيعة الاله الكلمة واحدة » يعني طبيعة اللاهوت . وقولهُ « متجسدة » يعني طبيعة الناسوت . ولهذا نحن لا نسلم على ترجمة العبارة بما ورد في المتن « ان طبيعة واحدة للكلمة المتجسد المتأنس » لانها ليست صحيحة . فضلاً عن كونها لا تبعد عن ان تؤدي الى مذهب اوطيخا خلافاً لما يعتقدهُ اخوننا الاقباط . وقد اجتهد حضرة الكاتب ان يؤيّد ببراهين عقلية صحة تلك الترجمة (صفحة ٦٣ في الفصل الخامس) ولكن فضلاً عن ان البراهين التي اوردها مردودٌ عليها ببراهين اقوى منها نقول: ان العبارة في يونانية الاصل ولا مُكبر . ومن ثمَّ ان قواعد اللغة لا تساعد مترجماً ولا تجوّز لهُ مهما كان ضعيفاً او قوياً في اللغة ان يترجمها على تلك الترجمة ما لم يحاول احدٌ ان يعتبر الاصل غلطاً والترجمة صواباً وهذا لا يدّعيهِ احدٌ . فبناءً عليهِ نظنُّ ان تعب السرّ واجهاد الفكر في اثبات صحة تلك الترجمة لا حاجة اليهما . اما غاية الاب في تلك العبارة فهي ان يوضح ان يسوع المسيح ليس اقنومين ولا ابنين ولا شخصين بل اقنوم واحد وشخص واحد وليست غايتهُ ان يعلّم انهُ ليس طبيعتين كاملتين لاهوتاً كاملاً وناسوتاً كاملاً .

« واننا نظن ان بعضاً من تباع نسطور يجتهدون وقصدهم ان المذكور يحضر في المجمع المقدس . فلاجل ذلك قد تحسن برأينا ان نرسل لحضرتكم هذه الرسالة وبها نعرّف قدسك وقدس المجمع اننا مقتدون بقوانين الآباء الاطهار ونوهب لقدسك سلطاناً وتجعلك متقدماً ليس فقط في ما يخص نوذوريتوس بل وبما يخص كل المجمع المقدس الخ » . ومن هذه الاوامر والرسائل جميعها ومن رسائل القيصر الى نوابه في المجمع التي ذكرنا منها جانباً في حاشية صفحة ٢٢٣ يستنتج ان اعتراف افلابيانوس وقرار مجمعه بطبيعتين « اعتبر كشك حادث بغتة وكأمر جديد طارىء على قواعد الدين واختلاف ضد الايمان . وان الغاية من المجمع حفظ الايمان الخ » ثم يورد اعتراضات نواب رومية على ديوسقورُس في مجمع خلكيدون ودعواهم عليه بانهُ عقد المجمع من تلقاء ذاته وبدون تصريح من البابا ويورد معارضات المجمع لهم وبناءً على ما تقدم من الاوامر الملوكية في جمع المجمع يفسد اعتراضات الرومانيين على ديوسقورُس ويقول « فهذه دعوى نواب رومية التي افتتحوا المجمع الخلكيدوني بتصديرها ضد الاب . والحال انهُ فضلاً عما في هذه المصادرة العنيفة ومعارضة القضاة والمحفل للصادرين بتلك الصفة المذكورة في نفس التاريخ الخلكيدوني ما يكفي لتقويض اركان الدعوى من أسسها وما يغني اللبيب المنصف لمعرفة مظلومية الاب من الرومانيين وعقدهم النيات بداءة بدء على اي حال كان » . ثم يذكر ملخص تاريخ مجمع ديوسقورُس في افسس نقتطف منهُ ما يأتي : جلس الآباء اولهم ديوسقورُس ثم نواب رومية ثم البطريرك الاورشليمي ثم الانطاكي ثم القسطنطيني ثم الافسسي ثم اسقف قيصرية . وبعد تلاوة تحاريز القيصر وثبوت وقبول نيابة نواب رومية وقراءة الامر بقبول برسوم طلب ديوسقورُس من نواب القيصر ما عندهم في ذلك .

فقُرئت رسائل القيصر الى نوابه والمجمع بخصوص اجراءات افلابيانوس ثم شرعوا في موضوع الايمان . فطلب ديوسقورُس ان يكشف على ما جرى في مجمع افلابيانوس وان يُقابَل على اعمال المجامع السابقة . وبناءً على امر القيصر منع تفسير المعتقد وحصر المذاكرة في مقابلته على حدود المجامع السابقة وخيّر المجمع في ما اذا اراد احداث مذهب . فجاوب المجمع سلباً ضد المحدثين . وبعد ذلك حضر اوطيخا نجيّاً عن نفسه وقدّم اعترافاً مثل اعتراف المجمع الثالث من دون ان يذكر شيئاً في المسألة المختلف عليها . ثم اشتكى على افسابيوس وافلابيانوس لحكمهما عليه . حينئذٍ طلب افلابيانوس ان يحضر افسابيوس الى المجمع . فمنعهُ نائب القيصر عن الكلام وطلب ان تُقرأ اعمال مجمعه . فسأل ديوسقورُس آباء المجمع عن رأيهم فاجابوا بالقبول . الاّ نائب رومية فانهُ طلب قراءة رسالة البابا الى افلابيانوس قبل قراءة الاعمال . فعمل ديوسقورُس برأي الجمهور وقُرئت الاعمال وفي مقدمتها تعاليم ورسائل كيرلّس فمن الجميع * ثم قال اقسطاثيوس مطران بيروت ما فعل كيرلّس حين نُمِيَت كتاباتهُ على غير معناها الى ان اورد عنهُ قولهُ « لا ينبغي لنا ان نفهم طبيعتين بل طبيعةً واحدةً متجسدةً في الله الكلمة » فاجابهُ المجمع « ليس مَن يقول ان المسيح اثنان بعد الاتحاد ولا مَن يفصل الغير المنفصل » (١) . ولما وصلوا في القراءة الى سؤال افسابيوس اوطيخا عارض آباء المجمع بحدّة (وهي قولهم اصلبوا افسابيوس واحرقوهُ الخ كما ذكرنا) . ثم يورد الكاتب اعتراضات باسيليوس اسقف سلفكيه على ما ورد عن لسانهِ من

(١) هنا ننبه القارىء الى الفرق بين قول اقسطاثيوس البيروتي وقول المجمع . لان بين القول بالطبيعتين اي باللاهوت والناسوت والقول بالاثنين اي بالشخصين فرقاً شاسعاً وبوناً واسعاً . وهذه دقة الاعتقاد التي ما ادركها اصحاب الطبيعة الواحدة .

الاعتراف بالطبيعتين بقوله انهُ « انما اعترف بطبيعةٍ واحدةٍ » ولكن « متجسدة متأنسة » الى ان قال « اني العن كل مَن يقسم المسيح الواحد الى طبيعتين ام جوهرين ام اقنومين بعد الاتحاد . ثم أندم على قولي واعترافي الذي تظاهرت بهِ في القسطنطينية . واعجد لطبيعةٍ واحدةٍ هي لاهوت الابن المتأنس »[1] . وقال سلوقوس الاسقف « قد تمسكت باعتقاد الآباء . ورذلت كلامي وما نطقت بهِ في القسطنطينية قائلاً . . . بطبيعتين بربنا يسوع المسيح بعد الاتحاد . ثم احرم وافرز الخ » . ثم ادّعى ايضاً اوطيخا بتحريف اعمال مجمع القسطنطينية مستشهداً بنقيب الوظائف الملوكية . فعارض كلامهُ افلابيانوس . فطلب ديوسقورُس البيتة كتابةً . فقال لهُ افلابيانوس « انك قطعت في السبيل لإيراد كل احتجاجٍ وان كان حقاً » . فاستشهد ديوسقورُس بالمجمع المقدس انهُ لم يمنعهُ عن شيءٍ وكرّر طلب الاحتجاج منهُ . فقال افلابيانوس « ان الاعمال صحيحة لا زور فيها ولا بهتان . ومن كل ما فطنتهُ انا في ذلك المجمع لستُ خالفاً بوجهٍ من الوجوه بعناية الله تعالى . لاني ما تمسكت باعتقادٍ غريبٍ ثم ذهبت وقتاً من الاوقات مذهباً خائداً عما اعتقدتهُ بهِ في ذلك المحفل ولا ابدل اعتقادي باعتقادٍ آخر ابداً قط » . فسأل ديوسقورُس الآباء المجمع عن آرائهم باعمال مجمع افلابيانوس ومذهب اوطيخا . فاجابوا بان اوطيخا على ما يظهر من اقوالهِ هو ارثوذكسي . وحكموا

(١) هنا لنا ملاحظتان . احداهما ندم هذا الاسقف وغيره على ما قالوهُ قبلاً لا طوعاً بل خوفاً بعد ما سمعوا بصلب وحرق افلابيانوس . والاخرى انهُ « بمجودهِ بعد الاتحاد لطبيعةٍ واحدةٍ في لاهوت الابن المتأنس » يشير الى احد امرين . اما الى انهُ بمجد اللاهوت مع قطع النظر عن الناسوت بمعنى الفصل بينهما . وهذا اعتقاد نسطوريوس عينهُ . وامّا انهُ بمجد للاهوت الذي هو طبيعة الناسوت (معاذ الله . اذ المسيح انسان تامٌ كامل هو الله تامٌ كامل) وكلاهما وخيم يخالف اعتقاد اخوتنا الاقباط .

لهُ بثبات كهنوتهِ ورئاسته . وكانوا مائة وعشرين اسقفاً ونيف . ثم قال ديوسقورُس « اني قد ثبتُّ انا ايضاً حكم هذا المجمع وحكمت بان يُحصى اوطيخا في عدد الكهنة ويتولى ديرهُ كما كان سابقاً » . ثم تقدمت شكاية من الرهبان بواسطة الشماس اوشنسيوس . وبعد تقديمهم اعترافاً كاعتراف اوطيخا برأهم المجمع . ثم اتفقوا على ان تُقرأ اعمال المجمع الثالث . فقُرئ ايضاً بان المجمع وحكمهُ (في الجلسة السادسة) بالقصاص على الذين يعلّمون الخلاف . قال الكاتب « ولما ان افلابيانوس من الجهة الواحدة لم يتنازل عن قولهِ بطبيعتين بعد الاتحاد . . . واستمرَّ مصراً على رأيهِ غير مكترثٍ بتحديد المجمع الافسسي الاول (يعني المجمع الثالث) . . . ومن الجهة الأخرى لم يؤمن على الحكم الذي اصدرهُ بحل اوطيخا . . . وبالحالة هذه ظهر مضاداً لاولئك الآباء . . . تعين لهم حينئذٍ عزلهُ عن الرئاسة وحكم جميعهم بذلك واحدٌ بعد واحدٍ بما فيهم الاب ديوسقورُس . ثم اعرضوا صراحة الامر بضلالة الملك ثاوذوسيوس فامن على تحديدهم وحكمهم . وبامرهِ الملوكي نفي افلابيانوس عن مركزهِ » . وهكذا ينتقل الكاتب الى الفصل الثالث ويتكلم :

٣ . في الاعتراض على ديوسقورُس بقبولهِ اوطيخا — وفي هذا الفصل ينفي عن ديوسقورُس التهمة بانهُ كان اوطيخي المذهب . فيجاوب عن ثلاثة اعتراضات : الاول عن قبولهِ اوطيخا وحلّهِ اياهُ من الحرم في مجمعهِ . والثاني عن القول بانهُ حكم على افلابيانوس ظلماً . والثالث انهُ تمسك بالقول بطبيعةٍ واحدة — فعن الاول يجيب بان ديوسقورُس ما قبل اوطيخا لسوء نيةٍ ورداءة عقيدةٍ ولا بطريق الاستبداد : اولاً لان اعتراف اوطيخا كان في ظاهرهِ مستقيماً موافقاً للايمان الجامع السابقة ولم يكن حجاب هرطقتهِ مكشوفاً بعد . وثانياً لان ديوسقورُس انما حلّهُ من تلقاء ذاتهِ من الحرم بل بعد ان حلّهُ المجمع كلُّهُ . ثم يستشهد بامثال

كثيرة يبين فيها ان من يحكم بناء على الظاهر لا ملامة عليه اذا اتضح الباطن خلاف الظاهر. ويبين الفرق بين اعتقادات اوطيخا واعترافات واقوال ديوسقورُس التي منها ان ديوسقورُس في بهرة المجمع الرابع انكر الامتزاج والاختلاط والاستحالة بكل صراحة. ورفض اوطيخا ما دام حائداً عن استقامة الايمان العام. وتبعته في ذلك الكنائس التي تعتبره كالكنيسة القبطية والسريانية وغيرها. ومنها انه كتب من منفاه رسالة ضد اوطيخا الى شخص اسمه ابريطُن مجملة ضمن كتاب اعترافات الآباء عند الاقباط يقول فيها «يجب علينا ان نقلع ونخرج عنا كل من يقول ان الله الكلمة تألم بلاهوته او مات ... واما نحن فما نؤمن هكذا بل نؤمن ان الله الكلمة صار جسداً بحق وبقي بلا ألم ولا موت بالجملة بلاهوته. لكن قوماً يظنون ويقولون اننا اذا قلنا ان المسيح تألم بالجسد لا بالاهوت نوجد في هذا القول موافقين لمجمع خلكيدون. ونحن نجيبهم ونقول: اذا كان اهل مجمع خلكيدون يعترفون ان الله الكلمة تألم بالجسد لا بالاهوت فانا نوافقهم»[1] ثم يختم (ديوسقورُس) كلامه بطبيعة واحدة للاقنوم الواحد الذي هو الابن الواحد المتجسد مستشهداً باثناسيوس كما تقدم وبكيرلُس. ومن كل ذلك يستنتج الكاتب ان ديوسقورُس ما كان اوطيخياً لانه رفض القول بتغير وتألم اللاهوت ورفض آراء ابوليناريوس بانكار النفس الناطقة ورفض التعليم بالاختلاط والامتزاج والاستحالة خلافاً لاوطيخا. ولانه ايضاً رفض اوطيخا بعد ظهور حقيقة

(١) هذا اعتراف ظاهر بان ديوسقورُس يوافق مجمع خلكيدون. لان المجمع وكل ارثوذكسي يعترف بان المسيح تألم بالناسوت وان اللاهوت منزه عن كل ألم. ولكن هذا الاعتقاد يقتضي ضرورة القول بطبيعتين للكلمة المتأنس الواحد لا بطبيعة واحدة فقط. فقول ديوسقورُس بعد ذلك بطبيعة واحدة لا ينطبق على اعترافه الاول وموافقته للمجمع. واما قول اثناسيوس بطبيعتين واحدة متجسدة فليس مثل قول ديوسقورُس بطبيعة واحدة للاقنوم الواحد المتجسد.

معتقداته. وينسب مظلومية ديوسقورُس الى سوء ملوك نواب رومية.

٤ - في هذا الفصل يجيب عن الاعتراض الثاني لينفي عن ديوسقورُس نسبة ظلم افلابيانوس اليه. فيقول: ان ديوسقورُس ما ظلم افلابيانوس وما عزله هو فضلاً عن انه ما تغلب عليه بالقوة ولا قهره ولا اهانه ولا ضربه ولا قتله: اولاً لان افلابيانوس كان محالاً الآباء مكرماً ما عدا حرمانه من الملك حق القضاء هو ومجمعه الخاص وان ديوسقورُس ما منعه عن حرية التكلم فخالف امر القيصر اعتباراً له. ثانياً لان ديوسقورُس ما حكم وحده بل هو والمجمع كله والحكم ثبته القيصر ونفذه. ولما كان اساقفة الشرق ادعوا في المجمع الخلكيدوني انهم أُجبروا على ان يمضوا في مجمع ديوسقورُس على قرطاس ابيض يلاحظ الكاتب ان كلامهم هذا ليس بصحيح: اولاً لانه كان ناشئاً عن خوف تولد من مشاهدتهم قساوة معاملة نواب رومية لديوسقورُس في افتتاح المجمع ومن حضور الوذور بتوس فيه. وثانياً لانه يُعتبر تلوناً اذ انهم هم انكروا امضاءاتهم طوعاً وهم انفسهم قالوا: اننا اخطأنا ونطلب الغفران. وثالثاً لان ديوسقورُس وحده ما كان ممكناً ان يجبر مائة وعشرين اسقفاً ونيف ذوي ابرشيات على ما لا رضي لهم به[1] وذلك بحضرة

(١) قلت: ان جواب اساقفة الشرق لبطريرك ديوسقورُس في مجمعه بقولهم «ان اوطيخا على ما يظهر من اقواله هو ارثوذكسي» (ص ٢٣٨) يدل على انهم كانوا يعلمون ضد افكاره. وهذا كله لا ننسبه نحن الى ديوسقورُس كما ننسبه الى القيصر نفسه الذي كان خريسافيوس واقدوكيا صديقا اوطيخا قد اقنعاه ان ينتصر لاوطيخا ويعزل افلابيانوس. ومن رسالة القيصر تصديق كاف لما بيدرأ بها. واما قول الكاتب بان فلان على ما يظهر من كلامه هو بريء والحكم يبرئه بناء على هذا القول ليس قول قضاة ولا حكم حكيم. وخصوصاً بعد ما ظهر اوطيخا غير مستقيم ونحب من المجمع الرابع نفسه وكل الكنيسة ومن ديوسقورُس لم تبق شبهة في ان ادارة اعمال مجمع ديوسقورُس كانت قائمة بالاغراض وان افلابيانوس كان ممثلاً وقد ظلم بلا جريمة. وبانت ضعية الانتصار للحق.

معتمدين من القيصر مامورين ان يمنعا كل تجسس ويحفظا نظام المجمع . ورابعاً لانهم بعد حل المجمع ما رفعوا دعوى الى القيصر بانهم مضواجبراً ولا العوام قرروه ضد ضمائرهم * وهنا الكاتب يستطرد القول الى الاعتذار عن ديوسقورس في اصراره على اعترافه مع ان جميع شركائه ندموا ويقول « ان ذلك لم يكن عناداً بل من قبيل المحافظة على اليقين » ويستطرد ايضاً الى ان الاساقفة اجتهدوا ان يعاد ديوسقورس الى المجمع ولم ينجحوا لمقاومة سياسة القسطنطينية لهم . فيا ليت ما من احدٍ منهم ذكر اوضحنا بالخبر وقتئذٍ . ويذكر ايضاً شكاية افلابيانوس الى لاون مظلوميته من المجمع وتبادل التحاريز بين ملوك الشرق والغرب بشانه . وهكذا ينتقل الى الفصل الخامس .

٥ . وفي هذا الفصل يجيب عن الاعتراض الثالث على ديوسقورس من جهة اعترافه ويقول « ان ديوسقورس لم يعترف في المجمع بطبيعتين بعد الاتحاد بل ثبت على قوله بطبيعةٍ واحدةٍ وقنومٍ واحدٍ فتنبه من طبيعتين . لا لانه كان موافقا لاوطيخا في مذهبه بل لانه كان متمسكاً اولاً بتعاليم الآباء سلفائه الذين قالوا بوحدة الطبيعة . وثانياً بصوت الكنيسة في المشرق * فعن الاول يقول ان في كتاب مجموع اعترافات الآباء بكنيسة الاقباط شهاداتٍ كثيرة تؤيده يورد منها شهادات غريغوريوس النجائبي واثناسيوس الكبير وكيرلس الاسكندري ليوضح ان القول بطبيعتين كان من شيم المذهب النسطوري[1] ويجتهد في ان يبين بشهاداتٍ طويلةٍ ان يسوع المسيح طبيعةٌ واحدةٌ . ولكن المتأمل في تلك الشهادات يرى ان معنى الطبيعة فيها كلها الشخص والاقنوم

(١) بناء على حمل الطبيعتين على معنى الشخصين ولا شك . والاَّ فعاذا الشان يكون ذلك كما في المتن . لان كيرلس نفسه قال به وامضى غليه حين مصالحته يوحنا الانطاكي .

وهذا موضوعٌ آخر عن موضوع الكلام في الطبيعة الالهية والانسانية . وغير ذلك لم يرد ولا في شهادة واحدة من جميع الشهادات المذكورة ان لاهوت وناسوت الكلمة طبيعةٌ واحدةٌ . بل حاصل ما يُقال هناك ان المسيح اقنومٌ واحدٌ من طبيعتين لا طبيعةٌ واحدة بمعنى جوهرٍ واحدٍ من جوهرين * على انك في اكثر تلك الشهادات ترى التعليم بالطبيعتين ظاهراً . مثلاً في صفحة ٧١ نقل عن كيرلس « . . . فهو واحدٌ ولكنهُ ليس بلا جسدٍ . . . فهو لم يختلط . . . لان طبيعة الوحيد لم تستحل الى طبيعة الجسد ولا طبيعة الجسد الى طبيعة الوحيد بل كل واحدٍ ثابتٌ في طبيعته في ما يختص به . . . وانها طبيعةٌ واحدةٌ للابن كما قلنا انها صارت جسداً . . . ولو قلنا انهُ طبيعة واحدة وسكتنا لم نقل بعد هذا انهُ صار جسداً وجعلنا التدبير خارجاً عنهُ ربما كان كلامهم يستقيم اذ يسلمون ابن الناسوت . لهذا الآن وقد اتينا ببيان جوهر البشرية قلنا انهُ صار جسداً فليهدأوا الخ » . فهنا واضح الاعتراف بطبيعتين لا بواحدةٍ . حتى ان الاب يعتذر بانهُ لا يقول طبيعةٌ واحدةٌ ويسكت بل يقول متأنسة ايضاً الخ[1] . وفي صفحة ٧٤ يقول كيرلس ايضاً في رسالته الى اكاكيوس اسقف ميليتيني « لاننا وان بشرنا باتحاد الطبيعتين لكننا نقر ظاهراً بمسيحٍ واحدٍ وربٍّ واحدٍ » ثم يقول بطبيعةٍ واحدةٍ ولكن متأنسة ومتجسدة باتحادٍ بلا استحالةٍ وبلا اختلاطٍ . وقط لا يعترف بوحدة الطبيعة بلا اضافة كلمة « المتجسد والمتأنس » اشارةً الى الطبيعة الثانية . وقس على ذلك شهاداتٍ كثيرةً مما يطول الشرح بنا لو اوردناها غايتها ايضاح حضرة الكاتب ان ديوسقورس انما قال بطبيعةٍ واحدةٍ من طبيعتين جرياً على تعاليم اسلافه * واما عن الثاني يعني تمسكه بصوت الكنيسة الشرقي فيقول

(١) كتاب الهداية جزء ٢ رأس ١٨ صفحة ٢٣٢

ان كنائس الشرق جميعها قبل تحديد المجمع الرابع من جهة الاتحاد الشريف كانت تعلّم كما علّم ديوسقورُس . ويستشهد على ذلك بالآباء الذين ذكر شهاداتهم سابقاً وبان القسطنطينية ولديار المصرية رفضت قول افلابيانوس بالطبيعتين الذي صرّحهُ في مجمعه الخصوصي . وبان الملك ايضاً احتسبهُ حادثاً جديداً . وبان الاساقفة وفي مقدمتهم الانطاكي ولافسني حكموا عليه في مجمع ديوسقورُس ما عدا افلابيانوس ونوّاب رومية الذين لولا معارضتهم لنفذ على زعمه حكم المجمع . «اخيراً يدفي حضرة كاتب الرسالة قول الناسبين ديوسقورُس الى مذهب اوطيخا لسبب اعتقاده بطبيعة واحدة بايضاح الفرق بين القولين وهو اولاً ان اوطيخا يقول بطبيعة واحدة ويصمت. وديوسقورُس يقول بطبيعة واحدة متجسدة — ثانياً ان اوطيخا عُزي اليه التعليم بتألم

(١) نقول : ان الدعوى بان صوت الكنيسة كلها في الشرق كان يعلّم بالطبيعة الواحدة مردودة بما ذكرناهُ في مقدمة المجمعين (صفحة ١٩١ — ١٩٤) عن وجود مدرستين في الشرق الانطاكية والاسكندرية واصطلاح خاص لكلٍّ منهما في تأدية المعنى الواحد على ما ذكرنا . حتى ان افلابيانوس نفسهُ كان متربياً في مدرسة انطاكية لا في القسطنطينية . ودومنوس وإيباوا وذورينوس كانوا من ارعاط تلك المدرسة . والدعوى بان القسطنطينية رفضت قول افلابيانوس بالطبيعتين هي عكس ما يجب ان يُقال . لان افلابيانوس ما قال شيئاً بل لما تقدمت اليه الشكاية على اوطيخا من الناسبوس اسقف دورلاوس بانهُ يقول بالطبيعة الواحدة جمع مجمعاً اولاً والمجمع حكم بالحرم على قول اوطيخا بالطبيعة الواحدة . ثم لما كان البلاط الملوكي مغشوشاً من خريسافيوس وقائماً ضد افلابيانوس امر باجتماع مجمع ثانٍ . فاجتمع وفحص اعمال المجمع الاول ثم حكم الحكم نفسهُ على اوطيخا مع انهُ كان ينتظر العكس وخصوصاً اذا كان افلابيانوس محقوقاً . فبعد هذا كلهِ من يكون القسطنطينية الرافضة أقوال اوطيخا وعدتهُ لا مجمعا افلابيانوس ؟ ومن يكون المتدع المرفوض أقوال افلابيانوس لا اوطيخا ؟ اما حكم الاساقفة في المجمع الاخير على افلابيانوس فما تقدم بخصوصهِ يغني عن الاعادة

اللاهوت . وديوسقورُس يخالفهُ بنزاهة اللاهوت عن التأثر والانفعال — ثالثاً ان اوطيخا يعتقد بان الجسد كان بلا نفس ناطقة . وديوسقورُس يعترف بطبيعة الناسوت كاملة — رابعاً اوطيخا يعلّم بالاختلاط وزوال الخواص . وديوسقورُس يخالفهُ ايضاً بانها سالمة . وبالاجمال يثبت ان اعترافات ديوسقورُس والكنيسة القبطية إجمالاً منزّهة عن النوصمة الاوطيخية التي ترفظها وتحرمها ايضاً .

فغاية ما يتضح مما تقدم هو ان اختنا وحبيبتنا الكنيسة القبطية المسيحية تؤمن ايماننا وتعلّم تعليمنا وتعترف اعترافنا وتقرّ اقرارنا بان المسيح هو الهٌ متأنّس اقنومٌ واحدٌ شخصٌ واحدٌ ربٌ واحدٌ الهٌ واحدٌ كاملٌ . وهو نفسهُ انسانٌ كاملٌ ايضاً لا نقص في جوهر لاهوتهِ ولا نقص في جوهر ناسوتهِ . مساوٍ للآب في الجوهر الالهي ومساوٍ لنا في الجوهر البشري عدا الخطيئة (والخطيئة ليست جوهراً في الانسان) ولم تختلط ولم تمتزج ولم تشوّش فيهِ طبيعتا اللاهوت والناسوت بل كلٌّ منهما ثبتت على غاية كمالها وقامتا باتحادٍ حقيقيٍّ صحيحٍ لا يعتريهِ انفصالٌ ولا انقسامٌ ولا تباعدٌ . وان الذين يقولون منهم بطبيعةٍ واحدةٍ انما يقولون ذلك خوفاً من السقوط في بدعة نسطوريوس الذي فصل الاقنوم الواحد الى اثنين . وهذا الخوف بنسبة كثيرون الى قصر لغات اتحابهِ قديماً (كالارمنية والسريانية والقبطية والله اعلم) في ايضاح الفرق بين الطبيعة والاقنوم اي الجوهر والشخص «غير انهُ الآن لم يعدْ لأحدٍ عذرٌ في هذا الخوف . لان كلاً منا يدرك ما بين الكلمتين من بعد المعنى . فالتثبُّت إذن بعبارة « الطبيعة الواحدة » لا تثبت حقيقتهُ . والقول « بطبيعةٍ واحدةٍ من طبيعتين » (وهو غير القول بان المسيح واحدٌ من طبيعتين) لا تصح نتيجتهُ . لانهُ ما من واحدٍ يكون او يؤلف من اثنين الا ويكون ثالثاً لهما . وما من مسيحيٍّ على الاطلاق يقول بان اقنوم يسوع المسيح طبيعة ثالثة

من طبيعتين . ولا بانهُ تركيبُ لاهوتٍ وناسوتٍ فلا لاهوت ولا ناسوت . ولا بانهُ لاهوتٌ فقط فلا ناسوت . ولا بانهُ ناسوتٌ فقط فلا لاهوت . حاشا له ولكلِّ مؤمنٍ من مثل هذه الاقوال الكفرية !(١) وانما يسوع المسيح هو « واحدٌ بطبيعتين » اعني اقنوماً واحداً بلاهوتٍ كاملٍ وناسوتٍ كاملٍ . فهو الهٌ متأنّسٌ . هو عمانوئيل اي الهنا (وطبيعة اللاهوت) معنا (اي متحدة مع طبيعة البشر) * اما القول بان الاعتراف بطبيعةٍ واحدةٍ غايتهُ الاحترام لتعليم اثناسيوس وغيرهِ من الآباء فليس حجةً نسلّمها . الاول . لان الاعتبار في الكلام لا يُبنى على لفظهِ مجرّداً ومقطوعاً بل على معناهُ بحسب مواقعهِ . وعليهِ فالقول بطبيعةٍ واحدةٍ متجسدةٍ هو قول اثناسيوس وهو نفس القول بالطبيعتين . والذي يقولهُ ولا يقول بالطبيعتين انما يماحك بالالفاظ والعبارات فقط ولا يودّ ان يفصح عن معنًى

(١) قال صاحب الرسالة في صحيفة ٧٠ نقلاً عن القديس كيرلس ما نصهُ « وان اردت فتاخذ مثل هذا التركيب منا نحن البشر بانا مركّبون . لاننا نقوم مركبين من نفسٍ وجسدٍ ونظربنا طبيعتين الواحدة طبيعة الجسد والاخرى طبيعة النفس . لكن انساناً واحداً قائماً من الطبيعتين بالاتحاد مركباً من الطبيعتين » — قلت : ولا اجمل من هذا التشبيه لتأييد الاعتقاد الارثوذكسي . ونتأمل هنا حكمة الاب كيرلس الدائمة . فانهُ ما قال ان الانسان طبيعة واحدة من طبيعتين . بل انسانٌ واحدٌ من طبيعتين . اي شخصٌ واحدٌ لا شخصين . وهذا هو اعتقاد الكنيسة . فانها تعترف بوحدة الاقنوم وترفض وحدة الطبيعة . فالذي يقول « ان النفس الروحانية باتحادها مع الجسد الكثيف اتحاداً فوريًا تصير معهُ ذاتاً واحدة شخصاً واحداً انساناً واحداً » بحسن قولهُ . ولكنهُ يغلط ان قال انها تصير معهُ « جوهراً واحداً وطبيعة واحدة (جوهريًا وذاتيًا) » . والدليل على ذلك ان النفس بعد الموت لا تتحد مع الجسد بل تبقى جوهراً لطيفاً والجسد يبقى كثيفاً على انهما لا تزال معاً شخصاً واحداً . فلو كان الانسان جوهراً واحداً لكان بكليتهِ اما قائماً او غير قائم * اما تسمية الشخص طبيعة واحدة فهي على معنى الشيء لا على معنى جوهريتهِ . ما لم يكن لفظ الطبيعة معناهُ الاقنوم والشخص فلا مانع كما ورد للاب كيرلس وغيرهِ . فتأمل

يعتقد بهِ ويوافق عليهِ . واما القول « بالطبيعة الواحدة » فلا هو قول اثناسيوس ولا يوافق للتعليم الصحيح . والثاني لان الاستناد على اعتبار الالفاظ القديمة لا يصحُّ دائماً وهو ظلٌّ متى ظهرت شمس المعاني . مثال ذلك ان كثيرين من الآباء القدماء مثل غريغوريوس النيسي وغسطينوس وغيرهما قالوا « بمزج الطبيعتين » كما ذكرنا في مقدمة هذين المجمعين (صفحة ١٩١) وديوسقورس نفسهُ على ما ورد سابقاً (صفحة ٢٤٠) واخوتنا الاقباط ايضاً يحرمون الذين يقولون بالمزج . ولم يحترموا تعبير الآباء بل حرموا من يقول بهِ حين فُهم على غير معناهُ . فما السبب في ذلك يا تُرى ؟ أليس لان المعاني اختلفت ؟ هكذا هنا ايضاً . اذ ظهرت البدعة اضطرت الكنيسة ان تشرح تعليمها بعباراتٍ جديدة تفي بتأدية المعنى . فمع احترامها اعترافات المجامع السابقة واقرارها اقرار آبائها القدماء قالت في هيئتها المجمع الرابع المؤلف من ٦٣٠ اسقفاً وصرّحت بالقول « ان يسوع المسيح واحدٌ بطبيعتين » وحافظت على دستور الايمان القديم سليماً . وحرمت كل من يزيد فيهِ او ينقص منهُ . وفعلت فعلاً يُذكر فيُحمد . لا كما فعل اخوتنا آباء الكنيسة اللاتينية بزيادتهم في دستور الايمان زيادةً لا داعٍ لها ولا صحة فيها ولا انسجام(١) . ولا يخفى ان القديس كيرلس نفسهُ قد امضى على اعتراف الايمان الناطق باتحاد الطبيعتين في قنومٍ واحدٍ كما رأينا حين مصالحتهِ مع يوحنا الانطاكي (صفحة ٢٠١) . وقد روى التاريخ ان امضاءهُ هذا اعتُبر ضعفاً في

(١) قلنا « ولا انسجام » لان قولهم « المنبثق من الآب والابن الذي هو مع الآب والابن مسجودٌ لهُ ومعبَّد » غير منسجم فكان عليهم بعد الزيادة ان يجمعوا العبارة هكذا « المنبثق من الآب والابن الذي هو معهما مسجودٌ لهُ ومعبَّد »

المفرقة (١) فالبعض عاتبوه وجاوبهم مثل اكاكيوس اسقف ميليتيني . وآخرون اخذوا ينادون بوحدة الطبيعة ظناً منهم بان كيرلس تساهل وخان الايمان الى ان وصلوا الى التعليم بالاختلاط وما شاكله . فكيف ينطبق القول بالطبيعة الواحدة على التعليم بكمال لاهوت وناسوت المسيح وتألم الناسوت وعدم تألم اللاهوت والاتحاد وعدم الاختلاط وسلامة الجوهرين ؟

واما ما يتعلق بشخص ديوسقورس سواء كان من جهة البدعة ام من جهة افلابيانوس فنقول ان براءته من تلك التهمة تسر الكنيسة المقدسة اكثر مما يكدرها ثبوتها عليه . كما ان اخواتنا الكنائس التي تعتبره تتكدر ولا شك مما لو ثبتت التهمة عليه اكثر مما تسر ببراءته منها وغاية ما تعتقده الكنيسة المقدسة كل يوم هي ان لا يكون فيها ولا واحد يخالف العقائد المستقيمة والآداب الحميدة . ولكن كما ان بعضاً يستصعبون الموافقة على ان ديوسقورس تغلب على مجمع موأتف من مائة وعشرين اسقفاً ونفذ رأيه جبراً عن كثيرين قد ندموا في المجمع الخلكيدوني على ما فرط منهم طوعاً او جبراً حالة كون ديوسقورس كان مستنداً على قوة السلطة المدنية بدسائس خريسافيوس ولوامر القيصر سائر اضد افلابيانوس (صفحة ٣٢٢) وما كان التغلب صعباً عليه . هكذا صعب ايضاً القول بان نواب رومية وحدهم تغلبوا على هيئة المجمع الرابع الموءلفة لا من مائة وعشرين بل من ستمائة وثلاثين اسقفاً ونفذوا اغراضهم ضد ديوسقورس ظلماً وجوراً من دون استناد على قوة او سلطة متغلبة . وخصوصاً ان كثيرين من اولئك الاساقفة كانوا قضاة في مجمع ديوسقورس وشاركوه في الحكم وكانت موافقة المجمع الرابع

(١) ان كيرلس عمدة في رسائله الى افلوجيوس القس القسطنطيني قد سمّى الذين يخذبهم مكتوبة على امضائه « غير فاهمين الامر فهماً بليغاً »

تقتضي منهم اما انكارها فعلوا واما التوبة والندامة عليه وكلاهما صعب . بناء عليه كما انه ليس انصافاً ان نرتاب في حكم مجمع موأتف من ستمائة وثلاثين اسقفاً نبتت مجامع كثيرة بعده مسكونية ومكانية في الشرق والغرب . هكذا لا شك في ان انصاف اخوتنا المومنين من اية طائفة كانوا لا بد لهم ان يعطوا في اعتبار المجمع الموأتف من اساقفة الكنيسة جميعهم تقريباً فيما انهم يعترفون بصحة ايمانه . وغاية ما يقصدونه في شرح عباراتهم العقائدية تطبيق معانيها على صراحة اعترافه وعلى كل حال هو الله العارف خفايا ومكنونات كل انسان . وليس من الحق ان يكون شخص واحد مرجعاً لوحدة الكنيسة متى كانت العقائد متوافقة . لاننا ما خلقنا لبولس ولا لابلس ولا لبطرس . بل لنكون جسداً واحداً كما دعينا في رجاء دعوتنا الواحدة . ويكون لنا ربٌ واحدٌ وايمانٌ واحدٌ ومعموديةٌ واحدةٌ وكنيسةٌ واحدةٌ وآلهٌ واحدٌ الذي نتوسل اليه ان يربطنا جميعاً برباط الاتحاد والوفاق . ويبعد عنا روح التحزب والشقاق . ويثبتنا على قاعدة الاعتراف القويم ويسهل خطوات كل من يبتغي السبيل المستقيم . الله الرحمن الرحيم . والمحسن العظيم .

٣ . الملاحظات في علاقات الشرق والغرب المتعلقة بالمجمع الرابع وقوانينه

كان في هذا العصر على كرسي اسقفية رومية البابا لاون الاول . رجل حصل على مقام عظيم في التاريخ المسيحي اكثر من كل بابا سواه نظر لمدافعته عن الايمان لقوم مدافعة صادقة حتى انه لُقّب بلقب « الكبير » الذي انما لُقّب به افرادٌ فقط كاثناسيوس وباسيليوس وامثالهما . ونظراً لمقامه الجليل يغتنم الغربيون تاريخه ليستندوا عليه دعواهم بالسلطة والسيادة اكثر من كل تاريخ سواه . غير ان الشرقيين يدفعون استنادهم ببرهين نحصر جوهره في نوعين . النوع الاول هو ان المقام الذي حصل عليه البابا لاون لم يكن عاماً لكل بابا

بل كان خاصاً بشخصه . والدليل على ذلك كونهُ لُقّب بلقب الكبير ممتازاً بهِ عن كل بابا غيرهِ تقريباً — والنوع الثاني هو ان الاستشادات عينها التي يقدمها الغربيون لاثبات دعواهم بما فيها من الاجلال والاعتبار للبابا لاون لا تثبت للبابوات لا سلطةً ولا سيادةً ولا حقاً اكثر من حق التقدم بين المساوين حقاً كنائسياً . واليك التفصيل : فان نواب البابا طلبوا في افتتاح المجمع الرابع إخراج ديوسقورُس لانهُ تجاسر على زعمهِ ان يجمع مجمعاً بلا رخصة من البابا وادَّعوا بان هذا الامر ما جرى في السابق مطلقاً . وهذا يستند الغربيون لإثبات دعواهم بالسلطة ويقولون : ان آباء المجمع ما نفوا هذه الاقوال ولا اعترضوها . ولكن الشرقيين يجيبونهم بما ينفي ذلك ويقولون : نعم ان آباء المجمع ما اجابوا نوّاب رومية بالقول عن كلامهم الكبير لعلمهم انهم ما اجتمعوا وقتئذٍ ليتذاكروا في ما هو مركز البابا ورتبتهُ ولا ليفتحوا مسائل جديدةً وخصوصاً جديداً في هيئةٍ كان اتفاقها ضرورياً لهدم الهرطقة . ولكنهم اجابوهم بالعمل بعدم تثبيت شيءٍ من دعاويهم الغريضة . فمن جهةٍ راعوا ضعف حاسياتهم غير مكترثين لمغايرة الصحيح من اقوالهم . ومن جهةٍ أخرى لم يجاروهم على مطالبهم الا في ما كان حقاً . ولكي لا يظن بقولنا انهُ كان في اقوالهم ما هو غير صحيح ظلماً بلا حقٍّ ودعوى بلا إثبات نورد البراهين : فاولاً ادعوا على ديوسقورُس انهُ جمع مجمعاً بلا رخصةٍ من البابا . والحال ان الذي جمع المجمع ليس ديوسقورُس بل القيصر ثيودوسيوس وهو اي القيصر قد حرر للبابا لاون يدعوهُ الى المجمع والبابا اجابهُ بتاريخ ١٣ حزيران سنة ٤٤٩ جواباً يقول فيهِ « فقد رسمتم ان يجتمع مجمعٌ في افسس ... ليظهر ... الحق ... وقد وجهت اخوتي ... ليتوجوا عني الخ » . وحرَّر القيصر ايضاً لديوسقورُس ثلاث مرات واقامهُ رئيساً على المجمع . وحرر لجميع الاساقفة الذين حضروا المجمع جرياً على

العادة . ثم ان البابا نفسهُ كتب للمجمع رسالةً يقول فيها « ان الملك الحليم قد احترم العقائد المقدسة وجمع المجمع ليمحو الضلال بحكم الاكمل » (يعني حكم المجمع المسكوني الذي هو وحده الحكم الاكمل من حكم مجمعي افلاطونس) وبناءً على ذلك يرسل نوابهُ ليقوموا مقامهُ ويوقعوا على ما يُقرَّر . فاي اقرار إذن هو الصادق رسائل القيصر والبابا ام كلام النواب في دعواهم على ديوسقورُس بانهُ جمع مجمعاً بلا القيصر والبابا ؟ اما قول النواب بوجوب رخصة البابا فهو قول فارغ . لانهُ لو كانت الرخصة حقاً لكان على البابا ان لا يرسل لا نواباً ولا رسائل ان المجمع لم ينعقد بدون الرخصة . ومع ذلك قد ارسل رسائل ونواباً واعترف بان المجمع عقد برخصة القيصر القسطنطينية . وعلى هذا قيس ايضاً قول النواب « ان اجتماع مجمع بلا رخصة من البابا ما جرى مطلقاً » . وقد رأينا في ما تقدم من التاريخ ان كل المجامع الشرقية وكثيراً من مجامع الغرب المكانية قد اجتمعت لا بلا رخصة البابا فقط بل بلا معرفتهِ ايضاً واحياناً ضد ارادتهِ . فضلاً عن ان المجمع المسكوني الثاني نفسهُ اجتمع بلا معرفتهِ ولا اشتراكهِ وما استطاع البابا سبيلاً الى الخلاص من قبولهِ وقبول قراراتهِ . فينتج من هذا القليل الذي بقولنا ان نواب البابا قد اطنبوا بكلام لم يكن صحيحاً في نظامهم . اما آباء المجمع فقد سمعوا ذلك لا قول ولكنهم ما اكترثوا لهُ . والدليل على ذلك انهم اولاً لم يكترثوا مع احد لنواب كلاماً نصهُ « زجر بقولهم . اذا كنت جالساً صفة قاضٍ فما بالك تحضر ؟ » وثانياً ما اجروا مطلوب قائليهِ باخراج ديوسقورُس من المجمع مع ان إخراجهُ كان اقرب من كل قريب . لانهُ فضلاً عن الهرطقة كان متهماً بقتل بطريرك قسطنطينية . ولكن لكي لا يبقى محلٌّ للنقد على احكامهم قبلوا ديوسقورُس ولاً في مصفهم ثم حاكموهُ ثم حكموا عليهِ . فسواء اقام المدعوى نواب البابا عليهِ ام لم

يقيموها لم يكن بدّ لديوسقورُس من احتجاجٍ ما ينفي التهمة عن نفسهِ او ليقدم عنها ندامة او يقع تحت الحكم. وقد رأينا ان الدعوى قدّمها افسابيوس اسقف دوريلاوس ايضاً. وقدّم بعدهُ ايضاً ادعاوي غيرها قومٌ من اكليروس ديوسقورُس. فبناءً على ذلك تسقط دعوى الغربيين المستندة على كلام نواب البابا في المجمع الرابع المسكوني لانهُ فاسدٌ. وما يُستند الى الفاسد فاسدٌ مثلهُ.

غير ان الغربيين يستندون ايضاً على التقريظ الذي قالهُ آباء المجمع للبابا لاون بعد قراءة رسالتهِ (صفحة ٢٢٨) ويدّعون بان المجمع قبلها بصفة قانون ايمان وانها بطلب نواب البابا سُجّلت في تحديدات المجمع. ويرون في هذا اشارات الى السلطة المدّعاة. ولكنّ التقريظ ليس من شأنهِ ان يثبت سلطة كما قلنا ذلك مراراً. وخصوصاً هذا التقريظ الذي اولاً لم يكن للبابا لاون وحدهُ بل كان لهُ ولكيرُلس معاً بالسوية وكل نتيجةٍ تُستنتج منهُ للبابا تشمل ايضاً وكيرُلس معاً. ثانياً ان مثل هذا التقريظ واعظم منهُ قالهُ المجمع المسكوني الثالث للقديس كيرُلس حيث سماهُ بولس جديداً وشارحاً للايمان كما رأينا (صفحة ٢١٠). ثالثاً ان هذا التقريظ لم يكن للبابا من حيث هو سلطان الكنيسة بل من حيث انهُ علّم تعليم الآباء كما يتضح من قولهم «هذا ايمان الآباء الخ». اما قولهم ان رسالة البابا جُعلت دستور ايمان فمردودٌ بانها لو جُعلت بتلك الصفة من حيث هي رسالة سلطان الكنيسة لما وقعت تحت الفحص ولما صارت موضوع اختلافٍ بين الاساقفة ولما تمنّع اساقفة فلسطين وايليريا (او استالية) والمصريون عن امضائها. بل كان من الواجب عليهم جميعاً احتراماً لرؤسائهم خضوعاً لمنطوقها. ومع ذلك ما من احدٍ خضع هذا الخضوع بل ان المجمع احترم ملاحظاتهم وسمح لاساقفة فلسطين واستالية بوقتٍ كافٍ لفحص الرسالة. وعدا المصريين من امضائها الى ان يقيموا رئيساً وهو

نفسهُ اي المجمع الرابع قبل بلا اختلاف ولا تمنّع رسالتي القديس كيرُلس بصفة قانون للايمان. فمَن لا يرى الفرق العظيم والبعد الجسيم بين هذه الحقائق وبين تلك الدعوى؟ ثم من المعلوم عندنا وعند كل كنيسةٍ مسيحيةٍ وكاتبٍ كنائسيٍّ ان دستور ايمان اثناسيوس وقوانين كثيرة غيرهُ سنّها افرادٌ من الآباء القديسين قد أُثبتت في الكنيسة الجامعة اسوةً بحدود وقوانين المجامع نفسها. ومع ذلك لم يقُم احدٌ مدعياً لا للقديس كيرُلس ولا لغيرهِ سلطاناً على كل الكنيسة. فمن اين يكون هذا الحقّ للبابا لاون او لخلفائهِ بناءً على رئاسة ما قبلتها الكنيسة الاّ بعد الفحص والتنقيب؟ بناءً عليهِ كما ان قبول الرسالة انما كان ناشئاً عن صحة اعترافها لا عن خضوع الكنيسة لسلطان مرسلها. هكذا الاشارات التي يراها الغربيون فيها ان ثبوت دعوهم انما هي وهمٌ لا جسمَ لهُ.

فلننظر الآن في الحكم الذي اصدرهُ المجمع المقدس على ديوسقورُس بهم نواب البابا. فان الغربيين يستندون عليهِ ويظنونهُ حجةً تؤيّد دعواهم. اولاً لانهُ خرج من فم نواب رومية. وثانياً نظراً لما جاء في ظاهرهِ من الكلام الكبير. ولكن هذا الاستناد ايضاً يُسقط دعواهم فضلاً عن كونهِ لا يؤيّدها. واليك البرهان: فان نطق النواب بالحكم ضد ديوسقورُس ما جرى الاّ بعد تردّدٍ طويلٍ من النائب باسكاسينوس وسؤالهِ المجمع واستئذانهِ منهُ ومجاوبة المجمع لهُ الى ان كلّفهُ المجمع بذلك. وهذا الحكم كان نائب البابا جديراً بالنطق بهِ كثير من الرؤساء الباقين لاسبابٍ واضحة. وهي اولاً لانهُ لم يكن من الاساقفة في المجمع من اقامهُ القيصر رئيساً يرأسهُ حسب العادة لينوبَ بحكمهِ نيابةً عنهُ. بل كان نواب القيصر في صدرهِ. والحق بين البطاركة للمتقدم في الجلسة. وثانياً لان البطاركة الباقين كانوا في مركزٍ حرجٍ. فان بريتانيوس الاورشليمي كان موافقاً ديوسقورُس في مجمعهِ

والاطوليوس القسطنطيني كان مشرطناً منهُ . ومكسيموس الانطاكي كان مشرطناً من الاطوليوس . وهم وغيرهم من الحاضرين كانوا قد وافقوا ديوسقوروس اما طوعاً او كرهاً . وكان يصعب على البطاركة ان يحكموا عليهِ بعدموافقتهم اياهُ . فالطبيعة كانت تقتضي صدور الحكم من فم النائب الروماني . واما ما جاء من الكلام الكبير في نطق الحكم لم يكن سوى فقاقيع لم يخرج جوهرها عن جوهر باقي الكلام . فان النواب اولاً لم يحكموا هم وحدهم بل كانوا يطلبون ان يحكم المجمع كما يرى . ثانياً لما جاء الاساقفة ليكيانوس ليفوهوا بالحكم ما قال لهم اعملوا كما يعمل البابا بل قال « كما عمل كيرلس في افسس » . ثالثاً لما كان الشرقيون يجيبون النواب ولم يصرّحوا بحكم ضد ديوسقوروس بل كانوا يجيبون اجوبة بعيدة لم يستطع النائب ان يحكم بناءً على سلطان للبابا وحدهِ . رابعاً لما تجمّع الاساقفة يوليانوس نوّاب البابا ان يحكموا وصرّح لهم حق الحكم ما قال انهُ محصور بالبابا . بل قال ان الحق هو للبابا (لشخص نواب كيسوا والمجمع الذي اجتمع بامر الملوك (لا برخصة البابا) . خامساً لما نطق النواب نيابةً عن اسقف رومية بحكم المجمع ما نطقوا بهِ واكتفوا بل طلبوا ان يحكم كلُّ واحدٍ من الاساقفة الحاضرين ايضاً ايضاحاً الى ان حكم البابا هو قسمٌ من حكم الكنيسة العام . سادساً من نطق بقية الاساقفة بالحكم يتضح ان دعوى الغربيين الآن بالسلطان لا اصل لها . فان الاطوليوس بطريرك القسطنطينية انما وافق هو بسلطانهِ على الحكم الذي نطق بهِ النواب . ومكسيموس البطريرك الانطاكي قد وافق على الحكم الذي فاه بهِ لاون اسقف رومية القديمة والاطوليوس اسقف رومية الجديدة شهادةً بمساواة الاسقفين . ومثلهُ قال وشهد استفانوس اسقف افسس . ومثلهم ليكيانوس اسقف يزا وديوجانيس اسقف كيزيكوس وعلم جرّا الى اكثر من ستمائة شهادة يذكرون فيها لاون والاطوليوس

والمجمع بالسوية . فاين كان يقتضي خضوع المجمع لمدّعى بانهُ رأس الكنيسة ؟ ومن لا يرى ان هذه الشهادات تُسقط دعوى الغربيين فضلاً عن كونها لا تؤيدها ؟ اوليس من الواضح ان المجمع الرابع هدم بهذه الاعمال تلك الدعوى العريضة التي اوردها نواب رومية في بدء كلامهم وان كان اختصر الجدال فيهِ بالاقوال لخروجها عن موضوع الاجتماع ؟

على ان في رسالة المجمع الى البابا عبارةً وردت من باب المجاملة اتخذها الغربيون سلاحاً يدافعون بهِ عن دعواهم . وهذ منطوقها « وهولاء (اي اساقفة المجمع) اما انت فكنت متقدماً فيهم بواسطة المدافعين مقامك مثل الرأس في الاعضاء ... وكان الملوك المؤمنون متقدمين يحفظون النظام مثل زوربابل ويشوع في اورشليم ويجتهدون في ان يجدّدوا بناء الكنيسة بالعقائد » وبعد ذلك يقولون « وقد صدّقنا نحن على قانون الآباء الـ ١٥٠ الذين اجتمعوا في عهد ثيوذوسيوس الكبير التقي الذكر . القانون الذي يصرّح بان يكون لتقدم في الرتبة بعد كرسيكم الرسولي الجزيل القداسة لاسقف القسطنطينية . معتقدين بانكم نظراً لوجود الشعاع الرسولي عندكم قد مددتموهُ احياناً كثيرة الى الكنيسة القسطنطينية حسب عادة عنايتكم . وذلك لان اشراككم المخلصين بخيراتكم امرٌ كثيرٌ فيكم » فمن هاتين العبارتين يستنتج الغربيون سلطةً ورئاسةً قائلين : ما دام المجمع المسكوني يشبّه البابا بالرأس والاساقفة بالاعضاء ويستمد منهُ الشعاع الرسولي لكرسي القسطنطينية الخ . فالبابا بلا شكّ رئيس الكنيسة . ولكنَّ هذا القول مردودٌ بوجهين : الوجه الاول ان تقدم البابا او نوابهِ في المجمع وخصوصاً عن سبب سبق ذكرها لا تُستنتج منهُ سلطةٌ لهُ ورئاسةٌ عامةٌ ثابتةٌ على الكنيسة كلها لان البابا الذي كان في هذا المجمع متقدماً بشخص نوابهِ مثل الرأس في الاعضاء هو نفسهُ

(اعني مركزهُ) كان عضواً في المجمع الاول ورأسهُ الاسقف اوسيوس . وهو نفسهُ كان عضواً في المجمع الثاني رئيساً كبيراً على انهما كان في المجمع الثاني لا رأساً ولا عضواً . وهو نفسهُ كان عضواً في مجمع قرطاجنة ايضاً ورأسهُ بريليوس . وقس على ذلك كثيراً في التاريخ السابق واللاحق . فمن هذا يُفهَم ان التقدُّم في المجمع شيء والرئاسة على الكنيسة كلها شيء آخر * والوجه الثاني ان المجمع انما كان يجامل البابا في هذه الرسالة لكي لا تكدره مساواة كرسي القسطنطينية لكرسيهِ . وقد ذكرنا مراراً ان عبارات التعظيم والتبجيل والتملق لا تُبنَى عليها حقائق كما هي هذه العبارات . فالبابا نظر الكونهِ واحداً من رؤساء الكراسي كانت مساهمتهُ للمجمع على اقدم كرسي القسطنطينية وتميزهِ عن كرسيَّ اسكندرية وانطاكية ضرورية . فلا عجب مما اذا جاملهُ المجمع بعبارات تزيد عن العبارات الرسمية * وان أبى الغربيون قبول هذا التفسير فنحن نقنعهم من الرسالة عينها . ففي تلك الرسالة بعد ما شبَّه اساقفة المجمع اسقف رومية بالرأس بين الاعضاء سموهُ اخاً فقالوا « هذا هو ما عملناهُ معك وانت حاضرٌ بالروح وعالمٌ ومساهمٌ لنا نحن اخوتك وتقريباً منظورٌ بحكمة نوابك » وايضاً بعد ما سموهُ متقدماً على المجمع بشخص نوابهِ سموا الملوك متقدمين مثله لا ليحفظوا النظام فقط بل ليجددوا بناء الكنيسة بالعقائد والاحكام ايضاً كما رأينا في نص الرسالة . وفي هاتين العبارتين نرى المساواة واضحة بين اساقفة المجمع واسقف رومية حيث لا تمتاز رتبتهُ عن رتبة الباقي بين اخوتهِ . ونرى التقدُّم عاماً لنواب رومية ونواب القيصر . فضلاً عن امتياز القيصر بحق عقد المجمع واقامة رئيسهِ * على ان الآباء معما كنيوهُ من المجاملة واللطف للبابا لاون الكبير نظراً لرفعة مقامهِ واستقامة تعليمهِ ولزوم مداراته ما تناسوا مركز الكنيسة الشرقية . وكما انهم شبَّهوهُ بالرأس في الاعضاء وعند الكلام

الرسمي افادوهُ انهم عملوا ما جرى وهو كان مساهماً واخاً لهم . هكذا كتبوا لهُ ان الشعاع الرسولي في الغرب جعل مركزهُ مدينة رومية ولم يشتهوا ان ذلك الشعاع الناهو خطٌّ من خطوطهِ وفرعٌ من فروعهِ وواحدٌ من اشعة شمس الدين المسيحي المزغة انوارهُ من الشرق . ولهذا السبب ما استمدوا لكرسي القسطنطينية الشعاع الرسولي (اعني ما طلبوا من البابا التصديق على تقدُّم اسقفها) الا بعد ما اوردوا تصديق الشرق على ذلك : اولاً بقانون المجمع الثاني الذي كان شرقياً محضاً . وثانياً بقولهم قد صدَّقنا نحن ايضاً على ذلك ونعتقد بانك قد مددت الشعاع الخ . اي صدَّقت لو تصدَّق * ومما يؤيد هذا القول الذي لا ريب في صحتهِ ان نواب البابا والبابا نفسهُ عارضوا واعترضوا على قرار المجمع وعلى القانون التاسع والقانون الثامن والعشرين اللذين سُنَّ فيهما تقدُّم اسقف القسطنطينية وامتيازهُ عن غيرهِ من الكراسي الاولى . ولكنَّ المجمع ما قبل اعتراضهم بل ثبَّت القانونين واليك نصهما طبق الاصل :

القانون التاسع « ان كانت لاحدٍ من الاكليروس قضيةٌ على اكليروسيٍّ آخر فلا يتركنَّ اسقفهُ ويمضِ الى المحاكم العالمية . بل عليهِ ان يفحص القضية عند اسقفهِ . وان تُقام المحاكمة عند الذين يريدهم كلا الطرفين برأي الاسقف نفسهِ . وان عمل احدٌ الخلاف بوضع تحت الفصاحات القانونية * وان كانت لاكليروسيٍّ قضيةٌ على اسقفهِ او على اسقفٍ آخر فلتكن المحاكمة في مجمع الابرشية . واما اذا قام خصامٌ بين اسقفٍ واكليروسيٍّ وبين ميتروبوليت الابرشية عينها فليرفع الامر اما الى اكسرخوس الولاية او الى كرسي القسطنطينية المتملكة »(١)

(١) لقد غلط الذين زعموا ان الآباء بقولهم اكسرخوسة الولايات هنا قد عنوا بذلك البطاركة او بابا رومية . وقد برهن هذا الغلط كاتب البيدالبون في شرح هذا القانون .

القانون ٢٨ : ٤ من حيث اننا في كل امر تابعون تحديدات الآباء القديسين وعارفون بقانون الاساقفة المائة والخمسين الجزيل توقيرهم الذين اجتمعوا في عهد التقي الذكر ثاوذوسيوس الكبير الذي صار ملكاً في القسطنطينية رومية الجديدة المتملكة : القانون الذي قُرِئَ من برهة يسيرة . نحدد نحن ايضاً ذلك التحديد عينهُ ونصدّق عليه . في تقدّم الكنيسة الجزيلة القداسة كنيسة القسطنطينية عن رومية رومية الجديدة . لان الآباء قد منحوا بلياقة لكرسي رومية القديمة التقدم لكونها المدينة المملكة . وهذا القصد عينهُ قد حرّك الاساقفة المائة والخمسين الجزيل توقيرهم فمنحوا كرسي رومية الجديدة الجزيل القداسة مساواة التقدّم اذ رأوا من الصواب ان المدينة التي قد شُرِّفت بالمُلك والمجلس الاعلى وحصلت على مساواة التقدّم (مدنياً) لرومية عاصمة المُلك القديمة لها ان تُعظَّم مثل تلك في الاحوال الكنائسية ايضاً وان تكون ثانية بعدها . ومن ثم فالميتروبوليتون فقط في ولايات البنطس واسيا وتراكي وايضاً الاساقفة الذين في النواحي البربرية من الولايات المذكورة ان يُشرطَنوا من كرسي كنيسة القسطنطينية المقدسة السابق ذكرهُ . مع المحافظة على ان كل ميتروبوليت في الولايات

ومن جملة براهينهم ان المجمع هو نفسهُ لم يتداخل في مسألة انطاكية وايروت خارج حدودها (صفحة ٣٤٢) فلم يكن ممكناً ان يمنحها حقاً للمداخلة في احوال غير كرسيه . بيان ان امر المولد قد صرّحت بان احكام البطاركة على الاطلاق لا تقبل استئنافاً او غير ذلك من البراهين الحقة . فقولهم هنا « إكسرخوس الولاية » اذ يعنون ميتروبوليت الولاية وهو الميتروبوليت المتقدم والمختار على ميتروبوليتي ايرشيات الولاية . وهذه الولايات ما خرجت عن دائرة بطريرك القسطنطينية منها ولاية فيصرية الباذوكية وولاية افسس وولاية سلانيك وولاية كورنثس . فاكسرخوس هذه الولايات وامثالها كان مخيّراً عند الحاجة ان يرفع دعواه الى الميتروبوليت الاول اي الاكسرخوس او رأساً الى بطريرك القسطنطينية . واما حقوق بقية البطاركة فلم تُمَسّ البتة واحكامهم لا تُستأنف الى غير المجامع .

السابق ذكرها مع اساقفة الايرشية يشرطنون اساقفة الايرشية كما حُدِّد في القوانين الالهية . واما الميتروبوليتون في الولايات السابق ذكرها فيشرطنون من رئيس اساقفة القسطنطينية كما ذكر بعد ان تجري الانتخابات الموافقة حسب العادة وتُعرَض اليه .

فهذان القانونان سنّتهما الكنيسة المقدسة في المجمع الرابع المسكوني وصدّق عليهما جميع اساقفته . ولكن نوّاب رومية لم يحضروا الجلسة التي سُنّا فيها . ولا يبعد انهم تغيبوا عنها لانهم كانوا عارفين ما سيجري فيها . ففي الجلسة اللاحقة وهي آخر الجلسات اعترضوا على القانونين المذكورين وشنّعوا في ما اذا كان آباء

(١) ان هذا القانون هو على رأي الشارحين قوانين الجامع فيلس يمكننا ان نقيس به مقدار سلطة البابا الروماني . لان كل ما قدحَ للبابا هو بحسب نص هذا القانون للصاروك القسطنطيني ايضاً ماعدا التقدّم في الجلسة . فلو كان البابا حقيقةً معصوماً من الغلط ورئيساً على الكنيسة كلها لكان البطريرك القسطنطيني معصوماً مثله . وقس على ذلك سائر الامتيازات التي يدّعي الغربيون ان البابا نالها من الملك قسطنطين منها ان للبابا حقاً بان يعقد الوسامات الملوكية كالملك ويلبس على رأسه تاجاً مرصعاً بالآلئ الفاخر وبلبس ثوباً احمر ووشاحاً برفيرياً ويركب خيلاً مزينةً بكل العلامات الملوكية ويمسك الملك لجام جواده حين يركب كأنهُ سائس لهُ الخ وتمتاز حاشيته عن سائر الاكليروس بالالبسة والاحذية والتركيب . فكل هذه الخ وما شاكلها ليست والحق يُقال الامتيازات الصحيحة اذ لا تُعطَ لبطريرك القسطنطيني بل للبابا فقط لانها ممنوعة ايضاً من القانون ٣٧ للمجمع السادس و٦٦ للمجمع السابع و٣٠ للرسل ومخالفة لتعليم الانجيل المقدس . فحقوق اساقفة رومية انما هي ان تكون لهُ السلطة على جميع الاساقفة والميتروبوليتين الذين في ولاية رومية . فهو يشرطنهم بالاشتراك مع اساقفة الولاية . وان يكون اولاً في مصف البطاركة رتبةً . وهذه الحقوق لها لانهُ خليفة بطرس ولانهُ نائب المسيح كما يدّعون بل مراعاةً للعادة التي جرت ان يكون اسقف المدينة الملوكية صاحبَ رتبة اولاً . وان رومية كانت كرسي المملكة . وهكذا جرى في القسطنطينية ايضاً . فانها لما امتازت بالملك امتاز اسقفها ايضاً بالمزاة في مصف البطاركة .

المجمع الشرقيون قرّروا ذلك بإرادتهم. ثم رفعوا دعواهم الى قضاة المجمع (اي نواب البابا) على اناطوليوس بطريرك القسطنطينية انهُ في غيابهم انتهز الفرصة وابرز هذا القانون بلا موافقة الاساقفة عليهِ واستندوا على القانون السادس من قوانين المجمع الاول المسكوني ليدحضوا ذاك القانون كما فعل اسلافهم في مجمع قرطاجنة (صفحة ١٧٧). وكان القانون الذي جاؤوا بهِ عن نسان المجمع الاول ينطق بان الامتيازات محفوظةٌ للسدة الرومانية. ولكن لدى مقابلتهِ على قانون المجمع الاصلي وُجد انهُ مزوَّرٌ ومحرَّفٌ كما وُجد في مجمع قرطاجنة. وهاك المقابلة:

نقل الرومانيين	اصل القانون
«القانون السادس للآباء القديسين الثلاثمائة والستة عشر. ان كنيسة رومية دائمًا لها الاولية. ومن ثم يكون ذلك لمصر ايضًا ان يكون لسقف الاسكندرية ذا سلطان على الجميع. لان هذا الامر عادة مرعية لاسقف رومية ايضًا»	«فلتحفظ السنن القديمة التي في مصر وليبيا والخمس المدن بان تكون السلطة على هولاء لاسقف الاسكندرية بما ان هذه العادة مرعية للاسقف الذي في رومية ايضًا. وعلى ذلك ليحفظ التقدُّم للكنائس في انطاكية وفي الابرشيات الاخرى»

فلما سمع القضاة دعوى نواب رومية سألوا الاساقفة عما اذا كانوا أُكرهوا على سنّ هذه القوانين. فاجاب كل واحد منهم لوحدهِ قائلين «اننا اصدرنا طوعًا منا لا كرهًا عنا هذا القانون الواجب اصدارهُ عدلاً. ووقّعنا عليهِ بخط يدنا برضانا واختيارنا». ثم قُرئت اعمال المجمعين الاول والثاني المسكونيين. ووُجد ان القانون الذي جاء بهِ النوّاب كان محرَّفًا وان قانون المجمع الثاني الذي بُني عليهِ قانون هذا المجمع المقدس كان حقيقيًا. حينئذٍ قال القضاة «اننا بناءً على ما ظهر من الاعمال ومن اقرار كل واحد نرى ان يُحفظ قبل كل شيء التقدُّم والكرامة ممتازة بحسب القوانين لاسقف رومية القديمة الجزيل توقيرهُ. ويجب ايضًا ان يتمتع

رئيس اساقفة القسطنطينية المتملكة رومية الجديدة الجزيل برُّهُ بالتقدُّم نفسهِ في الكرامة وان يكون لهُ السلطان بسيادتهِ في ان يشرطن ليتورجيات في ولايات اسيا والبنطس وتراكيا الخ». فصرخ حينئذٍ جميع المجمع قائلين «ان هذا الرأي لعادلٌ. جميعنا نقول هذا القول. هذا حكمٌ حقٌ. فليحفظ ما قد رُسم. كل شيء قد رُسم كما يجب. جميعنا ثابتون على هذا القرار». غير ان النوّاب اصرّوا والتمسوا من القضاة ان تاتي قرارات الجلسة السابقة التي جرت بغيابهم. فاجابهم عن المجمع يوسف اسقف سبسطية قائلاً «ان الجميع ثابتون على هذا الرأي نفسهِ». وقال نونيشيوس اسقف للاذقية «ان مجد بطريرك القسطنطينية هو مجدنا لان اهتماماتنا متعلقة بهِ». وامر القضاة فاجابوهم قائلين «ان ما تكلمنا بهِ قد صدَّق عليهِ المجمع كلهُ وتمَّ الحكم على ما رُسم». وهكذا انصرف النوّاب.

فمن بعد هذه الشهادات الصادرة من فم الكنيسة المسكونية كلها لا نعلم كيف يرى الغربيون سبيلاً الى الدعوى العريضة التي يدّعون بها لاسقف رومية. فان القارئ يرى على اجلى بيان واوضح برهان: اولاً ان المجمع المسكوني هو الذي يحلُّ ويربط لا بسلطان رئيس مطاق عليهِ بل بسلطانهِ الحرّ حيث قال «نحدّد نحن ايضًا ذلك التحديد عينهُ ونصدّق عليهِ». ثانيًا ان مبدأ التقدم بين الاساقفة ليس قائمًا على رتبة رئيس في الرسل كما زعم الغربيون بل انما هو منحةٌ من الآباء والكنيسة كما ورد في النص. ثالثًا ان اسباب هذا التقدُّم ليست الخلافة عن بطرس او بولس او البابا بل عن تقدُّم المدن بعضها على بعض التقدُّم المدني كما يُفهَم من قولهم «لكونها المدينة المتملكة». رابعًا ان تملُّك مدينة القسطنطينية قد اقتضى لها منزلة مساوية لمنزلة رومية بناءً على هذه القاعدة عينها وكل الكنيسة وافقت على ذلك. ومن الغريب ان نوّاب البابا اشتكوا في

المجمع على ديوسقورُس بانهُ احلس افلابيانوس خامس الاساقفة الاولين وهم انفسهم بعد ما سنّ هذا القانون طلبوا ان تكون للبطريرك القسطنطيني المنزلة الخامسة بين البطاركة. حينئذٍ قال لهم ديوجانيس اسقف كيزيكوس « انتم تعلمون القوانين » (يعني القانون الثامن للمجمع الثاني المسكوني الذي يحدد ان تكون لاسقف القسطنطينية المرتبة الثانية لا الخامسة). وليس عمل الغربيين الآن باقل غرابة من عمل نواب رومية وقتئذٍ. لان البابا لاون الكبير نفسهُ لم يترفّع من عبارات المجمع التي ذكرناها قبلاً والغربيون الآن يبنون عليها رئاسةً وسلطةً لم يعرفها. والذي يطّلع على رسالتهِ الى المجمع الرابع يرى فيها ان هذا البابا الموقّر قد اجتهد في ان يحافظ على شرف رتبتهِ ولكنهُ لم يتسرّ منزلة الكنيسة المقدسة. بل كان يراعيها ويعرض صحة ايمانهِ لديها ولا يمد يدهُ الى سلطةٍ عليها. ولهذا السبب قد اكرمهُ الملوك والاساقفة بنوعٍ خصوصيٍّ عن غيرهِ من اساقفة رومية ولقّبوهُ باول اساقفة الكنيسة الجامعة وبفسر امين لعقائدها الشريفة.

هذا بعض ما يورده الشرقيون دحضاً لدعوى الغربيين بالسلطة والرئاسة العامة وتاييداً لتمسكهم بعروة الحق وتعليم الصدق الذي تسعوهُ من الكنيسة المقدسة الجامعة بان السلطة العليا في الكنيسة ليست في قبضة هذا او ذاك من افراد الاساقفة بل انها هي للمجمع المسكوني يعني هيئة الكنيسة كلها. ولكي لا نطيل المجال في هذا المقال نكتفي بما ذكرنا ونستلفت انتباه القارئ الى ملاحظاتٍ جمّةٍ يستنتجها من مراجعة تاريخ المجامع التي ذكرناها اعني مجمعي افلابيانوس ومجمع ديوسقورُس والمجمع الرابع وما سبقها وتخللها من الحوادث التي تشهد باجلى بيان واوضح برهان ان حضرة بابا رومان ليس كما يعتقد فيهِ اخوتنا الغربيون الآن

٥ . ملخص ما جرى بعد المجمع الرابع من الحوادث منها الانشقاق بين الشرق والغرب

من بعد انحلال المجمع الرابع المسكوني قامت مخاصماتٌ اشد من السابقة في كرابي اورشليم وانطاكية واسكندرية. لان اتباع اوطيخا وديوسقورُس اخذوا يطعنون بالكنيسة انها سقطت في هرطقة نسطوريوس — ففي فلسطين قام راهبٌ اسمهُ ثيودوسيوس حضر من القسطنطينية قبل سفر اساقفة المجمع منها وبحماية الملكة افدوكيا ارملة القيصر ثاوذوسيوس جلس هو على كرسي البطريركية. واذ قاومهُ سيريانوس اسقف بيسان قبض عليهِ وذبحهُ وطرد جميع الاساقفة الارثوذكسيين وحرق بيوتاً كثيرةً وارتكب فظائع جمّةً. فعلما رأى ذلك البطاركة يوبينا ليوس ودومنوس هربا الى البرية. ولكن القيصر مركيانوس اصدر امراً ضد ثاوذوسيوس فهرب (سنة ٤٥٣) الى رهبان طورمينا ورجع البطريرك يوبينا ليوس والاساقفة المنفيون الى كراسيهم — وفي اسكندرية قام قسّان احدهما اسمهُ تيموثاوس ايلورُس والآخر بطرس موغوس وكانا يهيجان الرهبان والشعب ضد البطريرك الارثوذكسي بروتيريوس حتى ان قسماً منهم هجم على البطريرك ليقتلهُ. فحينئذٍ جاء نفرٌ من الجند للمحافظة على الراحة. فحصرهم الشعب في هيكل سيرابيس وحرقهم. فجاءت قوةٌ اكبر وهدأت الحال. فانشق ذلك الحزب عن البطريرك وكان يصلي وراء القسّين ايلورُس وموغوس. وفي سنة ٤٥٧ مات القيصر مركيانوس. فقال ثاوذوسيوس الاغنوسط واذ علم بذلك ايلورُس دهن جسدهُ بدهانٍ اسود واخذ يطوف على الرهبان ليلاً ويكلمهم بقطعةٍ من القصب

ويقول انهُ ملاك الله أُرسل اليهم ليخلعوا البطريرك بروتيريوس ويُنصبوا إيلورُس عوضاً عنهُ. فكيفما كانت هذه الافادة الخبر التاريخي هو ان احزاب إيلورُس اغتنموا فرصة وفاة القيصر. فانتخبوا إيلورُس بطريركاً فشرطنهُ اسقفان مفرّزان والبطريرك حيٌّ بعد. ثم هجموا على البطريرك وقتلوهُ وجرّوهُ في الشوارع واخيراً حرقوهُ. وبعد ثبوت إيلورُس في الكرسي جمع مجمعاً وحرم المجمع الرابع وبطاركة رومية والقسطنطينية وانطاكية ونفى جميع الاساقفة الارثوذكسيين[1]. ثم قام على كرسي المملكة القيصر لاون ماكيلي الثراكي (سنة ٤٥٧ — ٤٧٤) رجلٌ ذو ادارةٍ وفطنة. فقبل ان يقاصّ إيلورُس على ارتكاباتهِ كتب للاساقفة وطلب آراءهم في المجمع الرابع المسكوني. فاجابهُ اكثر من الف وستمائة اسقفاً بانهم يعترفون باستقامة رأي المجمع الرابع وينكرون على إيلورُس عملهُ المنكر. فامر القيصر حينئذٍ بنفي إيلورُس واقام بطريركاً على الكرسي رجلاً ارثوذكسياً اسمهُ تيموثاوس الابيض المعروف بصالوفاكيولاس (بمرحومها بالحكم) جذب بدماثة اخلاقهِ اعتبار الاعداء انفسهم وحفظ السلام[2] — واما انطاكية فكانت الراحة فيها مستتبةً الاّ ان راهباً من رهبان القسطنطينية اسمهُ بطرس القصّار حصل على صداقة زينون نسيب القيصر لاون وتبعهُ حين تعيّن قائداً لجيش الشرق. وألّف عصبةً في انطاكية ضد البطريرك مرتيريوس واحدث قلاقل استقال بسببها البطريرك من كرسيهِ طوعاً. فقام القصّار بطريركاً على الكرسي. ولكي يثبت في هذا المنصب ويؤيد تعليم اوطيخا في انطاكية احدث زيادةً في التسبيح المثليثي وعلّمها للشعب هكذا «قدوس الله. قدوس القوي. قدوس الذي لايموت،

(١) افاغريوس ٢ : ٥ و ٨ و ١٠ — ١١ وثاوذورُس الاناغنوستا ١ : ٨ و ٩

(٢) افاغريوس ٢ : ٩ — ١١

الذي صُلب من اجلنا. ارحمنا». ولكن القيصر لاون جمع مجمعاً فحص اعمالهُ فحكم عليهِ ونفاهُ. وبعد ذلك توفي القيصر سنة ٤٧٤. ثم مات ولي عهدهِ ابن ابنتهِ لاون الثاني وهو قاصرٌ بعد. واستلم زمام المملكة ابوهُ زينون واقتفى آثار سلفائهِ. غير ان رجلاً معتدياً اسمهُ باسيليسكوس تغلّب عليهِ سنة ٤٧٦ وتولى السلطة في مكانهِ. وبحال ارتقائهِ اعاد بطرس القصّار وتيموثاوس ايلورُس الى مركزيهما وبرأيهما اصدر منشوراً ضد المجمع الخلكيدوني ورسالة البابا لاون وجعل مذهب الطبيعة الواحدة الديانة الاولى في المملكة عموماً[1]. واجبر نحواً من خمسمائة اسقف ان يمضوا على منشورهِ. غير ان البطريرك القسطنطيني اكاكيوس قاوم عملهُ وساعدهُ في ذلك رجلٌ ناسكٌ اسمهُ دانيال العمودي وعقب هذا الخلاف هياجٌ عظيمٌ في العاصمة. حينئذٍ لبس البطريرك ثوباً اسود وألبس كرسيهُ وموائد كنيستهِ «اجيا صوفيا» وغيرها مثل ذلك دلالةً على حداد الكنيسة. فاضطر باسيليسكوس ان يخرج من المدينة خوفاً من حرق الشعب اياها. واذ سمع ان زينون آتٍ ضدهُ جاء الى الكنيسة واعتذر امام الاكليروس والرهبان ونقض منشورهُ السابق بمنشورٍ ضدهُ ثبّت فيهِ حقوق الكنيسة وحرم نسطوريوس واوطيخا وارجع لاكاكيوس كل ما سلبهُ منهُ. وبعد ذلك دخل زينون بقوة عسكرية وانزلهُ عن كرسي الملك ورجع اليهِ (سنة ٤٧٧). وفي هذه السنة مات ايلورُس في اسكندرية وتعكرت الامور في البلاد المصرية. لان حزب ايلورُس انتخب بطرس موغوس (او مونغوس). فشرطنهُ بطريركاً اسقفان فقط مفرّزان. فقام عليهِ الرهبان وطردوهُ واعاد القيصر تيموثاوس الابيض الى كرسيهِ. ولكنهُ بعد قليلٍ مات. فانتخب الارثوذكسيون خلفاً لهُ يوحنا

(١) افاغريوس ٢ : ٥ — ٨

طالاثيأس . وكان طالاثيأس قد اقسم امام القيصر على انهُ لا يصير بطريركاً * وفي هذه المدة عُزِل بطرس القصّار ايضاً من انطاكية . وكانت الاحزاب والقلاقل في كل مكان . فلكي يهدّىء زينون حالة المملكة ويُزيل القلاقل افتكر ان يسلك طريقاً وسطى . ويرأي ونصيحة البطريرك القسطنطيني اكاكيوس كتب منشوراً سنة ٤٨٢ مشهوراً باسم « كتاب الاتحاد » حكم فيهِ على تعليمي نسطوريوس واوطيخا معاً واثبت بنود كيرلُّس وتجنّب الكلام في الطبيعة والطبيعتين ورفض بصناعة الاعتراف الخلكيدوني ورسم بان لا يعترف احدٌ بدستور الايمان غير دستور المجمعين الاوّلين النيقاوي والخلكيدوني . ويظهر ان الغرض من هذا الكتاب كان ان يرفع ذكر المجمع الرابع لا ان يحرمهُ . ولهذا السبب انثنى اكاكيوس ان يمضيهُ مع انهُ خاطر مرارا بحياتهِ عن الارثوذكسية * اما يوحنا طالاثيأس فبعد ارتقائهِ كرسي البطريركية لم يكتب تحاريز السلام للبطاركة بل ارسل على ما روى اڤاغريوس تقوداً الى صديقٍ لهُ في القسطنطينية اسمهُ عيلُّوس ينوسط بها رضى البلاط . ولكن عيلُّوس كان في جهات انطاكية وقتئذٍ قائد جيش ضد شقي اسمهُ لاونديوس . واذ كان سكوت طالاثيأس احتقاراً للبطاركة وقيامة بطريركٍ حنثاً في قسمهِ اشتكى عليهِ اكاكيوس للقيصر فحزلهُ . ودعا مونغوس وارجعهُ الى الاسكندرية بشرط ان يشترك مع اسقفي رومية والقسطنطينية[1] . فهرب طالاثيأس ووجاء الى عيلُّوس في انطاكية . فاتحد عيلُّوس مع لاونديوس ضد القيصر . وجمع بطريرك انطاكية كالاندين مجمعاً وكتب للقيصر ولاكاكيوس ضد مونغوس وطعن بآدابهِ وبشرطونيتهِ وبحرمهِ المجمع الرابع . فظن القيصر ان

(١) اڤاغريوس ٣ : ١٤ غير ان ثاوفانيس روى ان طالاثيأس نُفي بدسائس احد قدّامه مونغوس لانهُ كان رجلاً حكيماً وارثوذكسياً .

كالاندين مشترك مع لاونديوس وعيلُّوس ولم يسمع لهُ . فذهب طالاثيأس الى رومية بتحاريز من كالاندين واحتمى هناك * ثم ان كالاندين ايضاً بعد انتصار القيصر على عيلُّوس نفي واُعيد القصّار الى الكرسي الانطاكي بعد ان امضى كتاب الاتحاد وامضاهُ ايضا مونغوس بشرط ان لا يحرما المجامع الرابع وهكذا اشترك اكاكيوس معهما غير ان القصّار نكث في وعده وحرم المجمع فقام عليهِ اكاكيوس فرجع والغى حرمهُ وشكر لاكاكيوس * وكان في ايامهِ رجل فارسي عبدٌ اسمهُ اكسيناياس هرب من العبودية وتزيّى بزي قسٍّ ووجاء الى ابرشية انطاكية في ايام البطريرك كالاندين وهو غير معمّدٍ بعد . وكان يزرع فساداً في الشعب ويعلّم بوجوب خلع ايقونات المسيح والملائكة من الكنائس . فطردهُ البطريرك كالاندين . ولكنهُ بعد رجوع بطرس القصّار الى الكرسي رجع . فشرطنهُ القصّار اسقفاً على ايرابوليس وسماهُ فيلوكسينوس . واذ علم بعد ذلك انهُ غير معمّدٍ قال « لا بأس . لان الشرطونية تغنيهِ عن المعمودية » (!!!) * اما يوحنا طالاثيأس فكان يشكّ لاسقف رومية البابا سمبليسيوس انهُ انما نُفي ظلماً بسبب اعتبارهِ المجمع الرابع ورسالة البابا لاون ويستنهضهُ الى الدفاع عنهُ . فكتب البابا للقيصر بشانهِ فاجابهُ القيصر انهُ انما نُفي بسبب حنثهِ في يمينهِ وهكذا خاب امل رجوعهِ على ان كتاب الاتحاد الذي اصدرهُ القيصر زينون بدلاً من ان يضمّ القلوب اضرم الشقاق . لانهُ لم يرضِ لا الارثوذكسيين ولا موحدي الطبائع . ولهذا السبب انشق في اسكندرية عن مونغوس قسمٌ من جماعتهِ نفسها والفوا طائفة سمّوها « اكيفلي » (اي العادمة الرأس) . واما الشرقيون فكتبوا رسالة لاكاكيوس يلومونهُ على اشتراكهِ مع مونغوس . فايكترث اكاكيوس لكتابتهم بل اجبر كثيرين منهم على موافقة كتاب الاتحاد . وكثيرون نفوا بسبب ذلك

وكتبوا لاسقف رومية البابا فيلكس الثالث (سنة ٤٨٣) ولكن البابا بدلاً من ان يجري لاكاكيوس حسب العادة القديمة ويقيم القضية عند مجمعاً وارسل قراره مع الاسقفين ويتاليوس وميسينوس الى القيصر وطلب نفي مونغوس واعادة طالاثيوس وسحب كتاب الاتحاد ورسل اكاكيوس الى رومية ليعتذر عن نفسه . وعند ذلك كتب للبابا ارشيمندريت اسمهُ كيرلُّس وهو رئيس دير الذين لا ينامون يلومهُ على ابطائهِ في الانتصار للارثوذكسية . فكتب البابا لسفيريهِ ان لا يعملا شيئاً بلا اتفاق مع الرئيس كيرلُّس = اما القيصر فجلب البابا ان يوحنا النافي لحنثهِ في القسم وان مونغوس انما قُبل لانهُ امضى اعتراف ايمان ارثوذكسي . وكذلك كاكيوس تكدر من سلوك البابا ودعوتهِ اياهُ ضد الاصول واعتبر كتاباتهِ وخاطبهُ كبريائياً واصرَّ على الاشتراك مع مونغوس وجذب سفارة البابا ايضاً الى رأيهِ وموافقتهِ . وبعد رجوع السفارة باجوبة القيصر المذكورة كتب الارشيمندريتي كيرلُّس وغيرهُ من القسطنطينية ومصر للبابا يطلبون بوحنا ويطعنون بمونغوس واكاكيوس وبالسفيرين معاً . فعقد البابا مجمعاً وحرم مونغوس وكاكيوس . ولما علم اكاكيوس بذلك محا هو ايضاً اسم البابا من ذيبتيخا الاساقفة (١) وهكذا قام شقاقٌ بين كنائس الشرق والغرب استمرَّ اكثر من ٣٥ سنةً (من سنة ٤٨٤ الى سنة ٥١٩) *ثم ان مونغوس عقد ايضاً مجمعاً حرم فيهِ رسالة لاون واعمال المجمع الرابع ونفى جميع الذين لم يذهبوا مذهبهُ . واذ علم القيصر بذلك ارسل اليهِ تحاريرهديدٍ فلم تؤثر . ثم ارسل قوةً ضدهُ فلم يخشَ منها بأساً ولبث محافظاً على مركزهِ* وفي سنة ٤٩١ او قبل توفي اكاكيوس وقام بعدهُ

(١) افاغريوس ٢ : ١٥ و١٨ و٢٠ وتاوفانيس صفحة ١١٤ · راجع كلمة ذيبتيخا صفحة ٢٢٨ من كتاب خدمة الكهنة الذي طبعناهُ في بيروت سنة ١٨٩٠

افراويطاس رجلٌ شريرٌ وردئ الذكر في التاريخ ومتلاعب (١) وبعد اربعة اشهر مات قبل ان تصل اليهِ اجوبة تحاريرهِ للبطاركة وخلفهُ البطريرك اوفيميوس رجلٌ ارثوذكسيٌ ذو عقلٍ وفضيلة . فبعد انهُ ارتقى الكرسي اخذ جواباً من بطرس مونغوس عن رسائل سلفهِ افراويطاس يحرم فيهِ المجمع الرابع . فساءهُ ذلك وقطع العلاقات معهُ وعقد مجمعاً ثبت فيهِ اعمال المجمع الرابع . وفي رسائل السلام اظهر استقامة رأيهِ واوشك ان يعود الاتحاد بين الشرق والغرب لو لم يمنع ذلك طلب البابا ان يمحى اسم اكاكيوس من الذيبتيخا * وفي هذه المدة مات بطرس مونغوس وخلفهُ البطريرك اثناسيوس في اسكندرية . ومات القيصر زينون وخلفهُ القيصر اناستاسيوس . واذ كان من ذي قبل مشبوهاً بسوء العقيدة طلب منهُ البطريرك قبل تتويجهِ اعتراف ايمانٍ بخطهِ فدفع . وبعد التتويج اجتهد القيصر باسترجاع الاعتراف فلم يستطع فجمع مجمعاً (سنة ٤٩٦) قطع البطريرك وهكذا نفذ * وقام بعدهُ البطريرك مكدونيوس الثاني رجلٌ محبوبٌ لنقاوة سيرتهِ واستقامة عقائدهِ . وقد اعتنى بان يصالح رهبان بعض اديرة القسطنطينية قوم الذين تباعدوا عن الكنيسة من ايام كتاب اتحاد زينون فلم يستطع . وفي ايامهِ انتخب موحدو الطبائع المعروفون بالمتقدمي الرأس رئيسين وهما اكسبنائياس المذكور وساويروس (٢) . اما البطريرك فعقد مجمعاً وثبت اعتراف المجمع الرابع وقد قصد

(١) سلمية بطاركة القسطنطينية لجدعون صفحة ٣٠٦ وذوسيثاوس ٤ : ١٢ و١٣

(٢) ان ساويرُس كان من صوزوبوليس في بيسيديا وقد تعلم الشريعة في بيروت وصار خطيباً مدنياً . ثم تنصَّر في دير الشهيد لاونديوس الواقع قرب طرابلس الشام على البحر . وترهَّب في دير بقرب غزة . وكان بكر اسطوريوس جداً . وكان مغرباً بعبارة « يا من صُلب من اجلنا » واذ عرف رهبان الدير ارآءهُ طردوهُ فذهب الى القسطنطينية واجتمع ببولينوس الاليكزندري وبعض الرهبان وكانوا معصبة ضد البطريرك مكدونيوس ثم اقامة القيصر بطريركاً على

ان يحرّر لكنيسة رومية تمنعهُ القيصر واخذ يقنعهُ ان يحرم المجمع الرابع فلم يجب طلبهُ . ولهذا السبب كان يعاكسهُ حتى انهُ سمح لبعض من القليلي الادب ان يدخلوا الكنيسة ويرتلوا التسبيح الثلاثي باضافة «ايها المصلوب من اجلنا» فيما المرتلون يرتلون. واحضر اكسيناياس المذكور الى العاصمة ثم ارجعهُ اضطراراً بسبب هيجان قام ضدهُ من الرهبان والشعب. وفي سنة ٥١١ تبي مكدونيوس وقام بعدهُ تيموثاوس الاول (٥١١ — ٥١٨) رجلٌ متقلب الافكار وعادم الثبات وعدوٌ الدّ لسلفهِ مكدونيوس[1] وبحال ارتقائهِ عقد مجمعاً بموافقة القيصر وحرم مكدونيوس وارسل اليهِ الحرم مع سفارة . ولكن السفارة رجعت خائبة . ثم حرم المجمع الرابع وعقد وفاقاً مع يوحنا النيقاوي بطريرك اسكندرية وساويروس بطريرك انطاكية وهما من اضداد المجمع الرابع . فنظراً لهذه الاعمال صار ممقوتاً حتى انهُ لما توفي رئيسٌ في احد اديرة العاصمة جاء الى الدير ليخدم القداس ويرسم رئيساً عليهِ فلم يقبلهُ الرهبان ان يخدم ولا الرئيس قبلَ ان يُشرطَن منهُ . فوقف حينئذٍ

انطاكية عوضاً عن البطريرك المنفي افلابيانوس بشرط ان لا يحرم المجمع الرابع حسماً للشرور . ولكنهُ حالما وصل الى الكرسي حرمهُ . فرفضهُ اساقفة الكرسي منهم ايفانيوس اسقف صور وبطرس اسقف دمشق وبوليانوس اسقف بصرى (في حوران) ما عدا مارينوس مطران بيروت . وقد حرمهُ ايضاً فرما اسقف اباميا وسيريانوس اسقف ارغوسا . وفي ايامهِ تنصر علمُ الدار وجيه العرب . فارسل اليهِ ساويرُس اسقفين ليجذباهُ الى مذهبهِ . فلما دعواهُ الى ذلك اراد علمُ الدار ان يوبخهما فقال لهما «أما سمعتما انهما جاءني رسائل تفيد في ان ميخائيل رئيس الملائكة مات ؟» فقالا لهُ «هذا امرٌ مستحيلٌ فلا تصدقهُ» . حينئذٍ قال لهما «فاذا مات ميخائيل رئيس الملائكة مستحيلاً . والمسيح ليس طبيعتين بل طبيعة واحدة على قولكما وهو الله . فكيف لا يكون مستحيلاً تألم الاله وموتهُ على الصليب بطبيعةٍ واحدة والالاهوت غير قابلٍ الآلام والموت ؟» (ذوسيثاوس ١٤ : ١٢ و٣ و٤ و١٥)

(١) راجع كتاب السلسلة لجدعون وذوسيثاوس حيث اشرنا

ونادى قائلاً «محرومٌ كل انسانٍ لا يقبل مجمع خلكيدين» واذ علم القيصر بذلك غضب . غير انهُ بتقلب سلوكهِ هذا غضبهُ اذ رجع فقال عند مواجهتهِ اياهُ «محرومٌ كل انسانٍ يقبل مجمع خلكيدون» . وقد اضطر مطران سلانيك ان يوافق تيموثاوس خوفاً من القيصر . غير ان اربعين اسقفاً من الصقالبة وبلاد اليونان عقدوا مجمعاً وقطعوا العلاقات مع تيموثاوس وانضافوا الى شركة البابا الروماني . وكانت تظاهرات الشعب في القسطنطينية متوالية حتى وصل الحال الى القتل احياناً . فانكف القيصر اضطراراً عن اضطهاد الارثوذكسية . وفي سنة ٥١٨ مات القيصر ومات تيموثاوس ايضاً وجلس على كرسي المملكة قيصراً الشيخ الارثوذكسي يوستينوس (سنة ٥١٨ — ٥٢٧) وعلى كرسي البطريركية البطريرك التقي يوحنا الثاني . وقد كتب لهذا البطريرك اكليروس سوريا يشكون من ساويرُس بطريركهم . وفي كتابتهم لهُ سموهُ «بطريركاً مسكونياً» . ولكنهُ مع قطع النظر عن الشكايات المذكورة عقد مجمعين محا بهما من ذبيحة الكنيسة اسماء جميع الموافقين على كتاب الاتحاد وبرّأ البطريركين اوفيميوس ومكدونيوس وقرّر نقل بقاياهما الى القسطنطينية . وارجاع المنفيين الى مراكزهم . وكتب في الذبيحة اسماء المجامع الاربعة واسماء البطريركين اوفيميوس ومكدونيوس واسم البابا لاون . وحرم ساويرُس وعزلهُ فنُفي وقام في محلهِ البطريرك بولس الارثوذكسي . وحكم على فيلوكسينوس وعلى سائر الاساقفة المعتقدين بوحدة الطبائع فنُفوا جميعهم . وهكذا عاد اتحاد الكنائس بين الشرق والغرب بعد شقاقهما ٣٥ سنة . اما ساويرُس ورفقاؤهُ فاجتمعوا في بلاد مصر حيث كانوا على امنٍ من سطوة القيصر . ولكنهم اختلفوا بعضهم مع بعض في ما اذا كان جسد المسيح قابلاً او غير قابلٍ الفساد . فقال ساويرُس بانهُ قابلٌ وقال غيرهُ اوليانوس

الايكرنسي) بانهُ غير قابلٍ . وهكذا انقسموا الى ساويريين وبوليانيين . ولهم اسماءٌ أُخرى غير هذه ايضاً . وسنعود الى الكلام عن هاتين الشيعتين .

اما رومية فقد تقلبت عليها احوالٌ سياسيةٌ شتَّى في هذا القرن . فمنذ انقسام المملكة الرومانية الى شرقية وغربية بعد ثاوذوسيوس الكبير (سنة ٣٩٥) كان القسم الغربي عرضةً لهجوم الشعوب الغوطية (او القوتية . وهي شعوبٌ كانت وتنتشر في حالة الهجمة بعضها بعد الاوثان وبعضها مسيحيون اكثرهم آريوسيون) وشُبَّت حروبٌ كثيرة فيهِ وافتُتحت رومية مراراً منها سنة ٤١٠ من آلاريخوس الغوطي . وسنة ٤٤٧ من آتيلا الأُوني . وسنة ٤٥٥ من جنسريخوس الواندالي . الى ان انحلت مملكة الغرب تماماً بمحاربة اودواكر الإروليّ (سنة ٤٧٦) الذي صار مسيحياً آريوسياً وملك الى سنة ٤٩٣ . فاخرجهُ ثاوذريخوس الغوطي وملكها هو الى سنة ٥٢٦ ومات . فخلفهُ حفيدهُ آتالاريخوس الى سنة ٥٣٦ . فجاء عليهِ بيليصاريوس قائد جيش الروم وطردهُ منها . ثم استرجعها الغوطيون سنة ٥٤٦ ثم استخلصها القائد نَرسيس سنة ٥٥٢ وعادت فانضمت المملكة في قبضة القيصر يوستينيانوس الكبير . ويظهر ان هذه التقلُّبات السياسية قد اثرت في سكان البلاد وفي محتلّيها تأثيراً دينياً اضر بشعب ايطاليا وبعض بابواتها ايضاً . فمن ذلك ان البابا أنسطاسيوس الثاني (سنة ٤٩٦) انضاف الى هرطقة اثنين من الهراطقة . وهما اكاكيوس وفوتينوس قبضهُ اكليروس رومية وابتعدوا من شركتهِ حتى ان التاريخ يحدث بانهُ مات مثل آريوس باندلاق امعائهِ (١)

(١) ذوسيثاوس ٤ : ١٤ : ٢ حيث يستشهد بسبعة مورخين على ذلك منهم انسطاسيوس حافظ المكتبة . وماريانوس سكوتوس . وبلاتينا . وغراتيانوس . وغيلوم اوكا (ضد الهرطقات كتاب ١٥)

وبعد وفاته انشق الشعب الى شطرين . شرطنو . باوَين في يوم واحد . وهما سيماخوس ولافرنديوس . ونظراً لشغب الذي عقب الشرطونيات عقد ثاوذريخوس الملك الاريوسي مجمعاً ثبت سيماخوس (لانهُ شرطن اولاً) واعطى لافرنديوس ابرشية نوكيرا . وبعد اربع سنوات الدفع لافرنديوس ورجع الى كرسي البابوية . فغضب ثاوذريخوس من ذلك وطرد الباوَين واقام اسقفاً اسمهُ آتينوس وكيلا على الكرسي . فانعقد مجمع من ١٢٠ اسقفاً وبرَّأ سيماخوس وحكم على لافرنديوس . فعقب ذلك اضطرابٌ وقلاقل قُتل فيها كثيرون على ما كتب انسطاسيوس حافظ المكتبة ونقل ذوسيثاوس (١)

فمن مراجعة هذه الحوادث غنىً للقارىء اللبيب عن ايراد دعوى الفريقين وبراهين الشرعيين ضدها . لان من سلوك البابا فيلكس ومقابلة اكاكيوس لهُ واضحٌ سقوط المدعى بالرئاسة . ومن حالة البابا انسطاسيوس واضحٌ سقوط الدعوى بالعصمة . ومن حكم الاساقفة الـ ١٢٠ برجوع سيماخوس وطرد لافرنديوس واضحٌ ان السلطان الممتاز للمجمع . ومن توسُّط البابا سمبليكيوس امر يوحنا طالاياس وعدم اجابة القيصر طلبهُ وضحةٌ المساواة بين البابا والاساقفة وعدم امتيازهِ بسلطانٍ نافذٍ عليهم وعلى الملوك .

(١) ٤ : ١٤ : ٢ . وانسطاسيوس في حياة البابوات

الفصل السادس

في علاقات الكنيستين في القرن السادس

١ . الحوادث التي تقدمت المجمع الخامس

اذا قابلنا تاريخ البابوات الرومانيين في هذا القرن على تواريخهم السابقة نجد فرقاً عظيماً في احوالهم وحريتهم . لان خضوع ايطاليا ومدينة رومية تحت نير الشعوب المتوحشة وبعد ذلك لقياصرة القسطنطينية رأساً كان سبباً لمداخلة اولي الاحكم في انتخابهم . فكانوا هم يثبتونهم على مراكزهم ويقفون على حركاتهم ويكافونهم الى اعمال لا يسعهم الا ان يقوموا بها .

نورد من ذلك ما كان من امر البابا يوحنا الاول في اواخر ايام ثاودريخوس ملك رومية الاريوسي . فان القيصر يوستينوس الارثوذكسي اصدر امراً باعطاء كنائس الاريوسيين في كل مملكته للارثوذكسيين . فلما سمع بذلك الملك ثاودريخوس كلف البابا يوحنا ان يذهب بنفسه سفيراً الى القيصر ويتذرع بان يطلق الحرية للآريوسيين والا فانه هو ايضاً (اي ثاودريخوس) يعطي كنائس الارثوذكسيين في ايطاليا كلها للآريوسيين . فذهب البابا يوحنا بنفسه الى القسطنطينية وخاطب القيصر بذلك واذ رآه مصراً على اوامره باضطهاد الآريوسية جثا امامه على ركبتيه وجعل يتضرع اليه ان يعدل عن عزمه . فوعده القيصر . ولما رجع البابا الى ايطاليا وضعه ثاودريخوس في السجن واماته جوعاً لا لانه كان ارثوذكسياً كما ادعى بعض بل لانه اشتبه باخلاصه له في

السفرية (١) . ومن بعد وفاة يوحنا (سنة ٥٢٦) اقام البابا فيلكس الرابع وتوفي سنة ٥٣٠ وانقسمت رومية الى قسمين احدهما انتخب بونيفاتيوس والآخر انتخب ديوسقورُس لبابوية . وكان القسم الاكبر مع ديوسقورُس . غير انه بعد ٢١ يوماً توفي فسالم بونيفاتيوس الاكليروس كلهُ وحرم ديوسقورُس المذكور وكتب كتاباً اقام فيه حقاً لهُ وجيليوس فامضاهُ الاكليروس خوفاً منهُ لانهُ كان سفاحاً . غير ان مدتهُ لم تطل اكثر من سنتين . ففي آخر حياته اقرَّ بذنبه في تعيين الخليفة وعقد مجمعاً واحرق كتابهُ المذكور . وبعد وفاته خلفهُ البابا يوحنا وبعدهُ قام البابا اغابيتوس (سنة ٥٣٥) رجلٌ تقيٌّ وجليلٌ . وبحال ارتقائهِ الكرسي احرق في وسط الكنيسة صكوك حرم ديوسقورُس من بونيفاتيوس . وكان وقتئذٍ ملكاً على رومية الاوذاتوس (٢) . فخوفهِ من بليصاريوس قائد جيش الروم ارسل البابا اغابيتوس (سنة ٥٣٦) سفيراً الى القسطنطينية ليتوسط السلام . وكان وقتئذٍ على عرش القيصرية يوستينيانوس الكبير ابن اخي يوستينوس وخليفتهُ . من سنة ٥٢٧ الى سنة ٥٦٥) وكان ساعياً جداً في تأييد الارثوذكسية والجمع لرايع وارجاع ذوي مذهب الطبيعة الواحدة الى الكنيسة (٣) غير ان امرأتهُ ثاودورة كانت ضدهُ في السر بايعاز بعض علماء البلاط ولكنها في الظاهر كانت موافقة لهُ . فخدمة لمقاصدها اقنعت القيصر بان يدعو البابا يوحنا فقام بطريركاً انتيموس مطران طرابزون من ذوي عقيدتها ومن صدقه

(١) الصحيح حافظ الكنيسة وذوميثاوس ٥ : ١٤٠ . وفرير يورس البابا الوغرس في مخطوطاته ٥ : ٣ (٢) في الصفحة السابقة ٢٧٢ سهواً ذُكر اسم ثاودوس وهو بعد الاريخوس من سنة ٥٢٤ الى سنة ٥٢٦ فكان آتالاريخوس حفيد ثاودريخوس ملكاً قاصراً وكانت امهُ آمالاسنث وكيلة عنه . ولكنهُ مات قاصراً فتزوجت بثاودوتوس ابن اخت زوجها . وبعد الزواج قتلها واستقل بالملك (٣) اغاثيريوس ٤ : ١٠

ساويرس [1]. وكان ذلك خداعاً للقيصر. فلما جاء البابا اغابيتوس وعلم بما في الرؤيا من الخبايا كشف الستار للقيصر وبرضى وموافقة القيصر اجتمع اساقفة وارشيمندريتو القسطنطينية وعقدوا مجمعاً برئاسة اغابيتوس نفسه فخلعوا انثيموس ومشاركيه فعزل. وانتخب القيصر والاكليروس والشعب عوضاً عنهُ البطريرك ميناس رجلاً ارثوذكسياً سكندري الوطن. وشرطهُ البابا والاساقفة معاً (وهذا اول مرة وردت في التاريخ) [2]. وكتب رسالة لبطرس بطريرك اورشليم قادهُ كل ذلك. وفي رسالتهِ نفسه يذكر صريحاً ان عزل انثيموس ونصيب اغابيتوس كانا باشتراك القيصر والاكليرس والشعب. وطلب اليهِ ان يبيدهُ حسب العادة كيف يقبل حكم الكرسي الرسولي. فعقد بطرس مجمعاً في اورشليم وفحص القرار ورآهُ مصيباً فصدق عليهِ برضى اساقفتهِ وارجعهُ [3]. وفي هذه المدة جاء رهبان من فلسطين ومن سوريا الى العاصمة ليقدموا الشكايات على

(١) امثلة نقل الاساقفة من ابرشية الى ابرشية سواء كان من بطرانية الى بطرانية او الى بطريركية فيلة في التاريخ القديم ينقل منها من بطريرك الى بطريركية اخرى. وربما لا اغلط اذا قلت انهُ يرد الى هذا العهد في تاريخ كرسي القسطنطينية غير خمسة بطاركة منقولين منهم اقليسيوس اسقف نيقوميدية وغريغوريوس الثاولوغوس اسقف نازيانز وبروكلس اسقف كيزيكس سابقاً وانثيموس هذا. واقدوكسيوس الذي نقل من بطريركية انطاكية الى بطريركية القسطنطينية (سنة ٤٦٠ م) ويظهر ان الكنيسة القبطية ايضاً حفظت هذه العادة لا تنتخب بطريركاً من الاساقفة (٢) وكيلوس كما يستفاد من ٤ : ١٧ : ٩

(٢) وهذا ايضاً نستغني عن شرح الخطوات في اعتراف ت الشرق والغرب ورتبتها ونكتفي عن ذلك كلهِ بان بطرس الاورشليمي لم يجب بالقبول الاَّ بعد فحصهِ قرار البابا والمجمع معاً لانهُ ربما خلافاً لما لو كانت دعوى الغربيين صحيحة. وبان اقالة البطريرك ميناس عدو اغابيتوس لم تكن من البابا بل من كنيسة القسطنطينية والبابا حاضر بالذات (ثوسيذاوس ٥ : ١٠ : ٤ و٦ و١١ : ٢٨)

ساويرس وغيره من المبتدعين. فوجدوا على غير انتظار انثيموس معزولاً. وبلا توفيق مع رهبان القسطنطينية رفعوا نوائح الشكوى الى القيصر والى اغابيتوس. ولكنَّ حياة اغابيتوس لم تطل اذ رقد في القسطنطينية بعد وقتٍ قصير. فعقد مجمعٌ برئاسة البطريرك ميناس اشترك فيهِ الاساقفة الذين كانوا مع البابا ووكلاء البطاركة الشرقيين المقيمون في العاصمة وحكم على المرطقة حكماً قضياً [1]. وكان القيصر يوستينيانوس في هذا المجمع وفي كثيرٍ من مواد القوانين التي سنَّها (المعاملات والنوبلا) يسمي اساقفة القسطنطينية ايفانيوس وانثيموس وميناس «بطاركة مسكونيين» [2]. وبعد وفاة اغابيتوس قام ايبوديا كون في رومية اسقفاً سلفاريوس ورشى الملكة ثاوذاتوس فانتخبهُ البابوية واجبر الشعب على قبولهِ بتهديد القتل للمقاومين. لان الحق في تثبيت البابوات كان للمياصرة فقط وكثيرون في رومية كانوا محافظين على هذه العادة القديمة [3]. فكتبت الملكة ثاوذورة لهذا البابا ان يساعد لبطريركية انثيموس ضد ميناس فرفض. وكان في القسطنطينية رشيديا كون وكيلاً عن البابا في اشغالهِ اسقفاً ويجيليوس. فاتفقت معهُ ووعدتهُ ان ترقيهُ الى كرسي البابوية وتدفع لهُ سبعمائة دينار [4] بشرط ان يطعن بالمجمع الرابع ويساعد

(١) ثوسيذاوس ٥ : ١١ : ١ وما بعده. حيث يفصل اعمال المجمع ويبرهن حقوق الشرق بطعن بلانت ليست من شأن تاريخنا وما يلاحظ ان لائحة الرهبان للبابا ورسالة الاساقفة الشرقيين الى البطريرك ميناس لم يميزوا بين البابا اغابيتوس والبطريرك ميناس بل تسميها بالنسوبة «الجزيلي القداسة والجزيلي الغبطة وبابا» الآباء وبطاركة مسكونيين» والفرق الوحيد كان بين «رومية القديمة» و«رومية الجديدة» [2] راجع اعمال المجلسات ٣ و٤ و٥ [3] ليبراتوس ٢٢ وبلانيدا وافتريوس وثوسيذاوس ٥ : ١٤ : ١

(٤) في سع قنطيار او كنطار والكلمة لاتينية معناها مائة دينار واظن ان كلمة قنطار المعروفة عندنا بوزن مائة رطل انما معناها عشر تزاها في قاموس البستاني) اصلها من هذه الكلمة. وقد سمعت من شيوخ بلادنا ان الذي كان عندهُ مائة غرش في القديم كان يقال انهُ

سابوريس واثيموس ضد ميناس وثبت عقيدتها فقبل ذلك . فزودته القيصرة بتحاريز وارسلته الى بليصاريوس لقائد وارسلت له ٢٠٠ دينار ايضاً معه . وكان وقتئذٍ في رابينا . فقرأ التحاريز وقال «لتكن المسؤولية من الله على الذي هو سبب خلع سلباريوس» . ثم كتب لزوجته لتحكم في قضية سلباريوس وتخلعه . وبعض قال انه هو جاء بنفسه . وعند المحاكمة دُعي سلباريوس فخلعوا عنه المنية والاموفوريون والبسوه ثوب الرهبنة واقاموا ويجيليوس المذكور بدلاً منه ونفوه . غير ان القيصر ارجعه من المنفى . وبعد رجوعه الى ثانية بحركات ويجيليوس الى جزيرة پالاماريا حيث شدد عليه حارسانه الجوع والعطش حتى اماتاه . وقبل موته رشق بالحرم البابا ويجيليوس وجميع مساعديه وشركائه[1] بما ويجيليوس فثبت المعتقد بالطبيعة الواحدة . وحكم على مجمع خلكيدون ورسالة لاون . وحرم الذي يعتقد ان في المسيح المخلص طبيعتين ولا يعترف بجوهر واحد فقط . والذي يقول انه صُلب من حيث هو انسان ولا يعترف ان ابن الله نفسه صُلب . ولكنه ما قام بوعاده كلها . وحرم بولس السميساطي وثاوذورس الموبسوستي وثاوذوريتوس . فطلبت القيصرة منه مساعدة اثيموس . ولكن ويجيليوس لدم على ما فعل واعترف بانه خطئ في مسألة سلباريوس وفي الايمان . فاخذت القيصرة تترقب فرصة مناسبة تحبه الى القسطنطينية وتنتقم منه . وقد استدعي وحضر اليها في سنة ٥٤٧ بداعي المذاكرة في الفصول الثلاثة وهي التي انعقد بسببها المجمع المسكوني الخامس . واليك اسباب النزاع فيها .

عدد قنطرة . فقنطرة القروش وقنطار الوزن لديهما كلمة كنطارس كقولي دينار . واي ما تعديل الدالة على المائة حُذفت الى كنطار فقنطار فقنطرة والله اعلم . (١) ليبراتوس والملاديا وذوسيثاوس ٤ : ١٤ : ١

كان اوريجانس وموافاته موضوع نزاع منذ عهد طويل . وكان بعض الاساقفة يحترمه نظراً لاتعابه وطهارة سيرته ومكانة علمه وكثرة مؤلفاته وبعضهم يكرهه لانها وردت اضاليل كثيرة في مؤلفاته حتى انها كانت استناداً للهراطقة من وقت الى آخر . وقد حكم عليه وعليها البطريرك ثاوفيلس الاسكندري في مجمع . وكذلك ايفانيوس اسقف قبرص في القرن الرابع . والبابا انسطاسيوس بعدهما . ولكن حزباً كبيراً كان يحترمه مدعياً ان موافاته تخلو الهراطقة ليستندوا عليها . ومن جملته رهبنة في جهات فلسطين بين اورشليم واريحا . فساءت الظروف في هذه المدة (سنة ٥٣٩) افرام بطريرك انطاكية الى ان يحكم على اوريجانس واضاليله لاعتباره اياها مساعدة مذهب الطبيعة الواحدة الذي كان يكرهه . فطلب اولئك الرهبان من بطرس الاورشليمي قطع البطريرك افرام . فلم يسمع لهم بل ارسل ارشيمندريتين روفس وكوكن الى القسطنطينية فقدما شكاية ضد اوريجانس . وكان وقتئذٍ في البلاط ثاودورس اسكيضاس اسقف قيصرية يعتبر اوريجانس جداً وهو من اتباع ثاودورة في تاييد مذهب الطبيعة الواحدة ولكنه كان يتظاهر للقيصر بخلاف ما هو عليه . وكان يساعده دوميتيانوس كاتم اسرار القيصر * فبالاتفاق مع القيصر عقد البطريرك ميناس مجمعاً حكم فيه على اوريجانس وتعاليمه . فلم يرُق ذلك لثاودورس ومع انه امضى على الحكم شرع في نصب فخ لميناس والاربعة كسيين وبالاتفاق مع ثاودورة اقنعوا القيصر بان انضمام اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة الى الكنيسة سهل متى رُفضت وحُرمت الفصول الثلاثة . وهي : اولاً مولفات ثاودورس الموبسوستي . ثانياً كتابات ثاودوريتوس ضد كيرلس . وثالثاً الرسالة المنسوبة الى الاسقف

(١) افاغريوس ٤ : ٢٨

ايبا خطاباً الى ماريس الفارسي . وكانت غايتهم في هذا الرأي اولاً ان يجرحوا (على زعمهم) المجمع الرابع الذي قبل ثيودوريتوس وايبا ولم يحرم مؤلفاتهما . وثانياً ان يرضوا اتباع اوريجانس بالحكم على ثيوسوتي لانه كتب ضد اوريجانس ويغيظوا الارثوذكسيين ... فاصدر القيصر امراً سنة ٥٤٤ ضد الفصول الثلاثة وطلب ان يمضيه الاساقفة وتهدد المخالفين بالعزل وهكذا قام النزاع . ثم عقد مجمعاً برئاسة البطريرك ميناس (سنة ٥٤٦) اثبت الحكم على تلك الفصول . غير ان اساقفة الغرب قاوموا امر القيصر وتبعهم البابا وجيليوس في ذلك وقد كتبت القيصرة لهُ وذكرته باوعاده فلم يجب طلبها . بل طرح المسألة على اساقفة الغرب . فقاموا جميعهم ضدها وبنوع خصوصي قاومها بونديانوس اسقف قرطاجنة وكتب للقيصر نفسه انهُ لا يجوز حرم شخص بعد موته . فطلب القيصر ان يحضر البابا وجيليوس الى القسطنطينية فحضر (سنة ٥٤٧) . قال ليبيراتوس « ولما ركب البابا وجيليوس السفينة في نهر تيبر اخذ شعب رومية يرميه بالحجارة قائلاً « فليرافقك صيتك الردي ! فليرافقك الموت ! انك صنعت شروراً في رومية ! فتلاقاك الشرور حيث تذهب » واذ كان بعد على الطريق سمع ان ميناس وافق على رفض الفصول فارسل يتهددهُ . ولما حضر قطع الشركة معهُ فقابلهُ ميناس بالمثل ولكنهما بعد ذلك تسالما ورفع وجيليوس كتاباً للقيصر معروفاً باسم « جودیكاتم » حكم فيهِ على الفصول الثلاثة . وقد اجتهد في مجمع عقد (سنة ٥٤٨) في العاصمة ان يقنع الاساقفة الغربيين ليمضوهُ فلم يستطع . بل انهم اقاموا ضدهُ وطعنوا بهِ انهُ خان الايمان ودنس الكنيسة بعقيدة خبيثة . وكذلك كان يقنع الافريقيين بوجوب الانقياد الى المركز البابوي ولكنهم فضلاً عن احتقارهم استنادهُ عقدوا مجمعاً وحكموا عليهِ

وقطعوهُ وعينوا لهُ وقتاً للندامة . فلما رأى ضعفهُ قام يركض الى القيصر وكان يبكي امامهُ ويطلب كتابة المذكور ولم يحصل عليهِ الاَّ بعد انهُ تعهد لهُ بقسم بالمساعدة سيفي مسألة الاتحاد . ثم ان القيصر دعا اساقفة ايليريا وافريقيا الى مجمع جديد (سنة ٥٥١) فحضر اساقفة افريقيا فقط ورئيسهم ريبارتُس اسقف قرطاجنة . ومع كل ما حصل عليهم من التهديد في المجمع لم يوافقوا القيصر على امره فقطعوا ونفوا . فعقب ذلك هياج في افريقيه لم تهدئهُ الاَّ القوة العسكرية . اما القيصر فاصدر امراً ثانياً ضد الفصول الثلاثة اشد من الاول وطلب الامضاوات عليهِ من الاساقفة . فابى البابا وجيليوس امضاءهُ وخوفهِ من غضب القيصر دخل كنيسة واحتمى بها وربط نفسهُ بعمود المائدة . فجاء الجنود وسحبوهُ فسحب العمود وسقطت المائدة . ثم اذ نال الامن على حياتهِ هرب الى خلكيدون وطلب ان يحرم القيصر من هناك . ولكنهُ لم يثبت على هذا الرأي بل عاد الى القسطنطينية . فلكي يضع القيصر حداً لهذا النزاع دعا مجمعاً مسكونياً سنة ٥٥٣

فاهم دعوى الغربيين في هذه الحوادث الحكم على الثيموس واقامة ميناس . وقد اوردناها واجبنا عنها في حاشية متقدمة . غير ان الشرقيين يوردون اعتراضات تنقض دعوى السلطة والعصمة من اسسها نلخصها بما ياتي : ١ — ان توسط البابا يوحنا اول رئيس كهنة تقدم في الكنيسة المسيحية من قبل مالك اريوسي لدى مالك ارثوذكسي عن طائفة اريوسية مهما كانت دواعيهِ وغايتهُ مهمة ليس من شأن رئيس كهنة فضلاً عن كونهِ منافياً للسلطة والعصمة معاً — ٢ — ان حرم البابا بونيفاتيوس لديوسقورس واعترافهُ بذنبهِ في اقامة خلف ونقضهُ اليوم ما فعل امس مناف لذلك ايضاً — ٣ — ان احراق البابا اغابيتوس حرم سلفهِ لديوسقورس عبارة عن حكم بابا ضد بابا وانت مخير في ان تخطئ ايا شئت اذ النتيجة واحدة —

٤ · ان عدم استيداد البابا اتقي الغابيتوس في الاعمال ومشاركته المجمع في الحكم والتثبيت برهان صريح على عدم صحة تلك الدعوى من اساسها — ٥ · ان قيام البابا سلبريوس جار عن المجمع بواسطة الدرهم والدينار سيمونية محضة وتجارة بالالهيات ومن الخطايا العظيمة — ٦ · وماذا نقول في سلوك البابا ويجيليوس الذي كان يتلون كل يوم تارة بموافقة الامبراطورة وتارة بعدم موافقتها وتارة بحرمه المجمع الرابع وتارة باعتباره اياه وتارة بموافقة المراطقة وتارة بندمه على ذلك وتارة بوعده وتارة بنكثه وتارة بامضائه وامر القيصر وتارة برفضها · وباي لسان نقول لشخص انت سلطان ومعصوم وهو يقول انا اسير فتش على مخ لاساي به وخاطي ارتكبت جريمة القتل واثم المراطقة ؟ — ٧ · وماذا يجيب الغربيون الآن الرومانيين لقدماء اذ اقاموا الحجة عليهم وقالوا لهم ان ويجيليوس قد خطئ وهو جالس على السدة البابوية وكان خطأه في الايمان والاعمال ونحن قد ودعناه برجم الحجارة والدعاء عليه وعلى شروره ؟ — ٨ · اوبماذا يجيبون الافريقيين الذين عقدوا مجمعاً وحرموا ذلك البابا وهم قسم من اقسام كرسيه · اولئك الذين كان البابا يذكرهم بالانقياد اليه وكانوا يحلفونه ؟ فهذه الاعتراضات وما مثلها مما يُستنتج من هذه الحوادث يوردها الشرقيون للبابا لتعليمهم انه ليس في الاساقفة ذو سلطان على الجميع وليس ابن بني آدم من التعصم عن الخطإ · وسبحان من له العصمة وحده وهو سلطان الجميع وسيدهم · له الملك والقوة والمجد الى ابد الآبدين

آمين

٢ · المجمع المسكوني الخامس

في شهر ايار من سنة ٥٤٣ اجتمع هذا المجمع المقدس في القسطنطينية مؤلفاً من ١٦٥ اسقفاً منهم افتيشيوس (سعيد) بطريرك القسطنطينية وهو كان رئيس المجمع ومنهم ابوليناريوس بطريرك الاسكندرية ودمنوس بطريرك انطاكية فانهما من طرف فستوشيوس الاورشليمي · غير ان البابا ويجيليوس لم يحضر فيه مع انه كان في القسطنطينية · فقبل الاعمال تليت رسالة من القيصر الى المجمع فيها يوضح الوجه الذي عليه جمعت من المناصرة المجامع الاربعة السابقة ثم يوضح السبب عند هذا المجمع ويقول ان الذي لا يوافق على قرارات المجامع الاربعة السابقة يكون تحت الحرم مهما كانت وظيفته (وقد عنى بذلك البابا لعدم حضوره) والذي يُسأل عن الايمان الصحيح ويبطئ في الجواب يُستدل من ابطائه رفض الاعتراف الصحيح · لانه في الاسئلة والاجوبة عن الايمان ليس اولٌ ولا ثانٍ بل كلٌ من كان مستعداً للاعتراف الصحيح كان اكثر قبولاً عند الله · ثم تليت الرسائل المتبادلة بين البطريرك افتيشيوس والبابا ويجيليوس حيث البطريرك يدعو البابا اخاً وشريكاً في الخدمة · ويذكر فوائد السلام والاتحاد ويوضح الحق كيفيتها في التعليم القويم ويدعو البابا الى رئاسة المجمع والمذاكرة في الفصول الثلاثة على وجه يرضي الله ويوافق تعاليم المجامع الاربعة السابقة حسماً للنزاع · وكذلك البابا في جوابه قد سمّى البطريرك اخاً واظهر موافقته وآراءه · ثم من بعد قراءة هذه الرسائل قرّر المجمع ان يذهب البطاركة الثلاثة وسبعة عشر اسقفاً ويدعوا ويجيليوس الى الجلسات · فذهبوا · غير ان ويجيليوس تمارض ووعدهم

بالجواب في الغد. هذا ما كان في الجلسة الاولى — وفي الجلسة الثانية جاء البطاركة والمطارنة المرسلون من المجمع بجواب البابا انهُ لا يستطيع ان يحضر لان الاساقفة الشرقيين كثيرون والغربيين قليلون وانهُ لازم ان يتقدم رأيهُ في الفصول الثلاثة راساً للقيصر. قال المرسلون: فقلنا لهُ انت تعلم انك في ما كتب بينكم وبيننا قد وعدت انت والاساقفة المتحدون معك بانكم تجتمعون معنا ... فلا يليق ان يؤجَّل اجتماع الشرقيين بسبب الغربيين لان المجامع الاربعة السابقة ايضاً لم يجتمع فيها عددٌ كثيرٌ من الاساقفة الغربيين البتة بل سقفان او ثلاثة وبعض الاكليروس. فالآن غبطتك حاضرٌ بنفسك ومعك اساقفة ايطاليا وافريقيه وايليريا اكثر من اولئك بكثير وليس ما يمنع اجتماعكم معنا وفقاً لما كُتب منكم ومنا. فالافضل هو اجتماع الكنيسة بجملتها وقرارهم على رأي واحد في الموضوع ليقر الجميع على قرار مكتوب عامٍّ واحدٍ. وان لم تريدوا ان تجتمعوا وفقاً لما رويناه وكُتب فاعلم غبطتك اننا نحن نجتمع مجتمعين واحداً ونبدي رأينا. لانهُ ليس حقاً ان نعثر احدٌ لا القيصر ولا المؤمنين بباطلنا في الجواب» ثم ارسل القيصر بعضاً من عظماء الدولة الى البابا مع الاساقفة القسم وطلبوا منهُ الحضور للنظر في تلك القضية فجاوبهم الاجوبة الاولى عينها بانهُ سينظر في المسألة وحده ويعرض افكارهُ للقيصر راساً. فقالوا لهُ «انك حكمت مراراً على الفصول الثلاثة كتابةً وبلا كتابة ولكن القيصر يريد ان تجتمع في المجمع العام مع الآخرين ويصدر الحكم فيها» ومثلهُ تمنع الاساقفة الايطاليون والافريقيون بسببه. حينئذٍ دعي البطاركة والاساقفة الى الاجتماع والمذاكرة — ففي الجلسة الثالثة قرر مجمع كل ما قررتهُ الاربعة المجامع السابقة ورفض كل ما رفضتهُ — وفي الرابعة والخامسة والسادسة فحص تلك الفصول وحكم برفضها — وفي السابعة ارسل القيصر

التحاريز التي كتبها البابا لاشخاص متعددين فيها يرفض الفصول المذكورة واوضح ان رأي البابا مثل رأي المجمع — وفي الجلسة الثامنة وهي الاخيرة غاب البطريرك القسطنطيني بعلامةٍ على البابا لعدم حضورهِ وكُتب قرار المجمع فقال: «ونحن لما ظهرت تجاديف ضد الحقيقة ... قد اجتمعنا في عاصمة المدن بارادة الله وامر القيصر. واذ وجد بالتصادف في هذه المدينة المالكة وبجيليوس الجزيل احتشامهُ ويوافق الجميع ان يكون حاضراً في المجمع كما رضي معنا موخراً بكتابهِ لنا ويذاكرنا في ما هو موضوع مذاكرة من تلك الفصول الثلاثة التي موارا حكم هو ضدها كتابةً ومشافهةً ... فقد طلبنا بالضرورة ان يقوم احتشامهُ بالاوعاد التي وعد بها كتابةً ... لانهُ وان كان ممكناً لنعمة الروح القدس المتزايدة في كل واحدٍ من الرسل ان تجعلهُ في غنىً عن ان يطلب نصيحةً غريبةً في ما كان عملهُ واجباً لكنهم ما ارادوا ان يحكموا في ذلك الموضوع قبل ان يجتمعوا مجمعاً عمومياً ويوكدوا كل واحدٍ منهم كلامهُ بشهادات الكتاب المقدس... هكذا الآباء القديسون ايضاً الذين اجتمعوا من وقتٍ الى آخر في المجامع الاربعة المقدسة اقتدوا بالنموذجات القديمة فحكموا في الهرطقات والمسائل التي ظهرت حكماً عاماً مشتركاً لتاكدهم ان في المذاكرات العمومية تُطرَح من الطرفين المسائل المبحوث فيها فيطرد نور الحقيقة غيوم الكذب. وانهُ في الاختلافات العامة المتعلقة بالايمان لا يمكن ان يظهر الحق على وجهٍ آخر. لان كل واحدٍ محتاجٌ الى مساعدة قريبهِ كما قال سليمان في امثالهِ «اخٌ مساعَدٌ من اخٍ يشبه مدينةً حصينةً ومملكةً ثابتةً» وسفر الجامعة يقول «خيرٌ الاثنان اكثر من الواحد» والرب نفسهُ يقول «اذا اتفق اثنان منكم على الارض في كل امرٍ يطلبانهِ يكن لهم من ابي الذي في السماوات. لانهُ حيث اجتمع اثنان او ثلاثة

باسمي انا هناك في وسطهم » وعليهِ فبعد ان دعي مرارًا ويجيليوس بابا رومية من جميعهم ومن القضاة الجزيلي الشرف الذين ارسلوا اليهِ من القيصر الجزيل تقواهُ وقال انهُ يحكم وحدهُ في هذه الفصول الثلاثة . وسمعنا نحن هذا الجواب . فبنا على نصيحة الرسول التي في قلبنا القائلة « كل واحد يعطي جوابًا لله عن نفسهِ » وخوفًا من الحكم الصادر على الذين قال لهم الرب « مَن اعثر احد هؤلاء الصغار فلجيد ... نقول : ان كل من يشرع في ان يسبأ او يعلِّ ويكتب ضد ما قد رُسم منا فان كان اسقفًا او من الاكليروس فمن كونهِ يعمل اعمالاً ليست من شأن الكهنة والاحوال الكنائسية فليعرَّ من الدرجة الاسقفية او الاكليروسية » ثم امضى انبطريرك القسطنطيني وسائر اساقفة المجمع هذا القرار . واذ لم يوافق البابا عليهِ قطعة المجمع وارسل الاعمال الى البطريرك الاورشليمي فصدَّق عليها هو ومجمعهُ . اما ويجيليوس فمن بعد ان قطعهُ المجمع نالهُ القيصر .

فانعقد مجمعٌ من اساقفة غربيين في كيرثيا حكموا ضد المجمع الخامس . غير ان البابا احيى بعد ذلك عنقهُ لقرار المجمع وقبلهُ وكتب للبطريرك افتيشيوس رئيس المجمع رسالةً اخيرةً (سنة ٥٥٤) يقول فيها : « ان الشكوك التي لحاجها عدو جنس البشر في كل العالم لا احد يجهلها . فمن جملتها انهُ وقتًا لارادتهِ في ان يخرب كنيسة الله ... شرع في ان يقسمنا عن اخوتنا ومساهمينا في الاسقفية حين كنا مقيمين معهم في العاصمة لحامي بوقار متساوٍ عن المجامع الاربعة ... فجعلنا نحن الذين كنا متفقين بايمان واحد ان نزدري بالمحبة الاخوية وان يفضي بنا الامر الى الخلاف . ولكن بما ان المسيح الهنا ... قد ازال عن ذهننا كل تشويش ودعا المسكونة والكنيسة الى السلام حتى ان ما يجب ان يرسم منا قد تمَّ تمامًا خلاصيًا باعلان الرب وتمحيص الحقيقة . ولهذا السبب فلتعلم اخويتكم كلها

اننا نحن واخوتنا نقبل المجامع الاربعة ... ونسجد هنا بذهن محبٍّ لله ونحفظ (تعاليمها) بنفس واحدة . وكل الذين لا يتبعون هذه المجامع نفسها في ما حدَّد منها في الايمان المقدس نحكم بانهم غرباء عن هيئة الكنيسة المقدسة الجامعة ... وكل ما صدر قبلاً سواء كان منا او من غيرنا للمحاماة عن الفصول الثلاثة تطعن بهِ بهذه الرسالة . ومن كوننا نود ان تعلم اخوتكم ما جرى منا قد اوضحنا لكم ذلك بهذه الرسالة » ثم ختم الرسالة بامضائهِ هذا « ويجيليوس في السنة السابعة والعشرين لملك سيدنا يوستينيانوس الاوغسطس الابدي » وبعد هذه الرسالة امضى قرار المجمع فصدرت لهُ الرخصة بالرجوع من المنفى الى كرسيهِ جائزةً لخدمهِ . غير انهُ توفاهُ الله وهو على الطريق سنة ٥٥٥ وبسبب اتحادهِ مع المجمع انشقَّت في الغرب عن كنيسة رومية كنائس افريقيا الشمالية وايطاليا الشمالية وايليريا . وبعد وفاة البابا ويجيليوس قام على كرسي رومية البابا بيلاجيوس . وقد اوضح رسميًا قبولهُ المجمع الخامس واجتهد في اقناع المنشقين ليرجعوا وكتب رسالة الى بعض منهم قال فيها « ان ويجيليوس دافع وقتًا طويلاً عن الفصول الثلاثة وبعد ذلك وافق المجمع . وهو وان كان حكم عليهِ قبلاً لكنهُ مُدِحَ بعد ذلك » . غير ان اجتهاد بيلاجيوس كان عبثًا . فكتب لنرسيس قائد الجيش رسالةً يستنهضهُ ضد المنشقين قال في ما قالهُ فيها « فها ان نفسك واضحة انها لا تريد ان تضطهد اعداء الله . وقد حكم الله والناس ان الذين يصنعون الشقاقات في كنيسة الله المقدسة يعذَّبون بالقوة الخارجية لا بالاضطهادات والمنافي فقط بل بسلب موجوداتهم ايضًا وبسجنهم بلا شفقة . فهذا ما تعرضهُ لك بحرارة ايها السيد لانكي تحارب عن العوائد الابوية وخير احوال الكنائس فقط بل لكي تصلح كل قلقلة في الشعب » . ثم ان بيلاجيوس كتب للمنشقين ليرجعوا وتاكيدًا لصحة ايمانهِ

ارسل اعترافاً بخطهِ يقول «ولكي لا يبقى لكم ريبٌ ولا للكنائس الأخرى في ايماننا نريد ونعترف ونشهد بقسمٍ ان كل ما صدّق عليهِ تعليم الرسل الالهيين المقدس وسلطة مجمع نيقيه وسيادة مجامع القسطنطينية وافسس وخلكيدون لا نفتكر ان يزعزع احدٌ شيئاً منهُ لانحن ولا غيرنا لا بزيادةٍ ولا بنقصٍ بل نحفظ كل شيءٍ . ثم اننا نحكم بالحرم على كل من يقاوم عقائد المجامع المقدسة السابق ذكرها سواء كان نحن بنفسنا او شخصاً آخر»[1] . وفي منشورٍ آخر عمومي يقول[2] «اني احفظ المجامع الاربعة واخضع لها كما هو الواجب على كل رئيس كهنة ان يحفظ ذلك . . . هذا ايماني ورجائي . الذي بهِ اصدق ان تُغفَر خطاياي واكون عن اليمين حيث مكان المختارين» . ومن بعد يلاجيوس قام البابوات يوحنا الثالث وبنيدكتس ويلاجيوس الثاني واجتهدوا في ارجاع المنشقين وما استطاعوا الى ان قام غريغوريوس الاول الكبير المعروف بالذيالوغوس وقد تمكن باجتهادهِ ان يقبل اكثر الايطاليين قرار المجمع الخامس وبدأ من هذا الوقت ان يزول الشقاق في الغرب . وكان من جملة الوسائل التي استعملها لاسترجاعهم اقتداؤهُ بالاكاكيوس بطريرك القسطنطينية في مسايرة المنشقين ليعيدهم الى الكنيسة[3] . على ان غرض القيصر يوستينيانوس بارجاع السلام الى الكنيسة ومحو شيعة الطبيعة الواحدة لم يتمّ . وقد حكي انهُ املاّ بالسلام تبع مذهب يوليانوس بان جسد المسيح غير فاسدٍ وغير قابلٍ الآلام الطبيعية ولا الغير المُعابة ايضاً . غير ان البطريرك القسطنطيني لم يقبل هذا المذهب فنُفي وصدر امرٌ بنفي البطريرك الانطاكي انسطاسيوس واخرين . ولكنهم قبل ان ينفوا مات القيصر (سنة ٥٦٥) فخلفهُ ابنهُ يوستينوس الثاني واصدر امراً بحرّية الاديان . فبقي كل شيءٍ على حالهِ[4] .

(١) رسالة ١٢ (٢) رسالة ١٤ (٣) رسالة ٢٧ (٤) اغاثيوس ٤ : ٢٨ — ٣٠

فالغربيون لا ينشرحون من ذكر المجمع الخامس المسكوني لانهُ حكم على سلوك البابا وجيليوس ووطأ شأن الكرسي الروماني . ولهذا ما حفظوا اعمال المجمع باصلها اليوناني وفي طبعتهم اياها بلغتهم اللاتينية حذفوا كل جملةٍ تثلم البابا وجيليوس وكرسي رومية . ومع ذلك يحاولون ايضاً ان يوضحوا امتيازاً للباباوات بكتاباتٍ كتبها على زعمهم القيصر يوستينيانوس للبابا اغابيتوس يقول فيها «ان الايمان العام قد حُفظ دائماً على السدة الرسولية ايضاً بلا تغييرٍ» . غير ان هذه الكتابات وان فرضنا حقيقة اصلها ونسبتها لا تميز البابا ولا كرسيهُ لمن سائر الكراسي والاساقفة . لان قولهُ «حُفظ على السدة الرسولية ايضاً» يشير الى انهُ حُفظ على غيرها قبلها . ومع هذا وذاك قد شاهد يوستينيانوس نقسة البابا وجيليوس عياناً يتقلب في الايمان وامر بمحو اسمهِ من ذبيحة الكنيسة ثم بتنقيه حين سقط ثم بارجاعهِ حين ندم ووافق المجمع . فمن اين يكون القول السابق ممسكاً على القيصر وشهادةً على امتياز كرسي رومية بسلطانٍ عامٍّ ؟ على ان الشرقيين يوردون براهين كثيرة من هذا المجمع تبين ان جميع دعاوي الغربيين بالسلطة وبغير السلطة مما يزيد عن الحقوق المعترف بها في الكنيسة الارثوذكسية لكلٍّ من الاساقفة ليست صحيحة . ونحن نقتطف بعضها : فمنها — ١ . ان القيصر يشهد في تحريرهِ للمجمع بان المعاصرة جمعوا المجامع المسكونية لا الباباوات — ٢ . ان افتيشيوس القسطنطيني ووجيليوس الروماني في كتابتهما احدهما للاخر يسمّيان اخوة خلافاً لما لو كانا غير متساويين . — ٣ . ان البطريرك لم يطلب من البابا ان يحكم في مسألة الفصول الثلاثة وحدهُ بسلطانهِ بل دعاهُ الى المجمع ليقوم الحكم بسلطان الكنيسة — ٤ . ان البابا وجيليوس اجاب بقبول الدعوة ثم تمنّع عن الحضور بعلّل لا بسلطانٍ ومع

انهُ كان غير راضٍ من اجتماع المجمع لم يستطع ان يمانع عقدهُ — ٥ · ان المجمع عهدَ البابا حين اصراره على عدم الحضور واخيراً انعقد ضدَّ ارادته وهو حاضرٌ في المدينة عينها — ٦ · قلنا سابقاً ان المقربين حذفوا من اعمال المجمع كلَّ ما يمسُّ ويجيليوس وكرسي رومية · فنورد هنا شيئاً من ذلك : فقد ورد في الاعمال ان نائب القيصر اوضح للمجمع ان البابا دعا البطريرك وبعض الاساقفة الى بيته وكان يرجوهم ان يحملوا الى القيصر رأيهُ مكتوباً على ورق وهم رفضوا ذلك · وهذا حذفوهُ ·وورد ايضاً ان نائب القيصر اوضح للمجمع ارادة القيصر بان يمحى اسم ويجيليوس من الديبتيخا جزاء اصراره وعدم موافقته الآباء وقبول المجمع ذلك · وهذا ايضاً حذفوهُ — ٧ · ان المجمع في قراره يقول انهُ اجتمع بارادة الله وامر القيصر لا بامر رئيس عمومي من الاساقفة — ٨ · ان الآباء اوضحوا في القرار مناقضة ويجيليوس نفسهِ بوعدهِ الحضور ونكثهِ وعدهِ حضورهِ — ٩ · قد اوضحوا ايضاً بصريح العبارة ان رسل المسيح والآباء ما انحلوا لانفسهم حقوقاً بعصمة وسلطة كانوا هم أولى بها بل كانوا يعتمدون على المجامع اكثر مما على انفسهم · وقد شهدوا بان الحقيقة لا يمكن ان تظهر الا بالمذاكرات وان كلَّ واحدٍ بلا استثناء محتاجٌ الى مساعدة الآخرين وان الاثنين افضل من الواحد اي ان المجمع افضل من البابا وبكّتوا ولاموا البابا لكونهِ طلب ان يفحص المسألة لوحدهِ ثم قطعوهُ قطعاً مستترًا بالاذكر اسمهِ بقولهم : سواء كان اسقفاً او من الاكليروس ... فليكن عارياً من اسقفيته · — ١٠ · ما الى البابا ان يوافق المجمع على قراره قطعهُ قطعاً صريحاً ثم نفاذُ القيصر وهو نفسهُ ناقض نفسهُ بنفسهِ اذ رجع نادماً على مقاومتهِ المجمع فوافق على ما رفض ثم كتب رسالةً للبطريرك

(١) تاريخ فلوري ٣٣ . ٤١

اخيهِ رئيس المجمع · واليك ما ورد في تلك الرسالة من الاعتراف بالضعف والسقوط بقولهِ ان عدو البشر (اي الشيطان) فسحهُ عن اخوتهِ الاساقفة وجعلهُ يزدري بالمحبة الاخوية · وان المسيح ازال التشويش عن ذهنهِ · وغير ذلك من كلام الندامة — ١١ · ان البابا نفسهُ يقول انهُ يقبل المجامع الاربعة ويسجد لها اي يوافقها ويكرمها · فاين تستند دعوى الذين يشرّفون البابا عن المجامع ؟ وكيف يسجد البابا للمجامع وهو على زعمهم اعظم من المجامع ؟ — ١٢ · انهُ في امضائهِ يسمي القيصر سيدهُ خلافاً للذين يقولون بانهُ يستخدم الملوك — ١٣ · ان البابا بيلاجيوس نفسهُ يشهد في سلفهِ ويجيليوس انهُ دافع عن الفصول · ثم رفضها بموافقتهِ المجمع — ١٤ · ان كناية البابا بيلاجيوس للقائد نرسيس ضد المشقين ليست كناية راعٍ مسيحيّ · وشهادتهُ بالمجمع الاربعة وسلطتها وسيادتها وتأكيدهُ حفظهُ تعاليمها وخضوعهُ لها وجوباً اسوةً بسائر رؤساء الكهنة لتغفر خطاياهُ ويكون من مصفّ المختارين كلها شهادات تؤكد ان دعوى السيادة والسلطة والاستقلال بها والعصمة وغيرها مما يدعي بهِ غربيّو ايامنا لم تعرفها الكنيسة في تلك الازمنة ولا في الغرب عينهِ فضلاً عن الشرق · ١٥ · واخيراً نستلفت القارئ اللبيب الى التأمل في الفرق بين امنة الكنيسة الشرقية في حفظ المسنونات والمكتوبات وارتياح خاطر الرومانيين الى التحريف والتغيير والحذف والتبديل من كتب الآباء والمجامع وقوانينهم واعمالهم · وهذه مرة ثالثة نرى منهم ذلك بعد مجمعي قرطاجنة وخلكيدون · على انهم بحذفهم من اعمال المجمع الخامس الاقسام التي تسيء اليهم اوقعوا انفسهم تحت اللائمة اسوةً بالذين لا يحبون الحقيقة · فيا ان شهادة البابا بيلاجيوس وحدها على ويجيليوس برهانٌ قويٌّ وكافٍ والتاريخ اقوى.

هذا ونختم فصلنا الحاضر باقناع اخوتنا القارئين من المصدر عينهِ الذي

يستندون هم عليه كما رأينا اعني من رسائل القيصر يوستينيانوس الى البابا ، حيث تفصح علاقات الكنائس بعضها نحو بعض * قال القيصر في رسالة الى البابا يوحنا ما تعريبهُ « بينما نحن نمنح الكرامة لكرسيكم الرسولي ولقداستكم ونوقر غبطتكم بمثابة ابٍ ترغب دائمًا ان تفيدكم عن كل ما يتعلق بحالة الكنائس . لاننا كنا ولا نزال مهتمين في حفظ الاتحاد مع كرسيكم الرسولي وفي حسن حال كنائس الله المقدسة . وهكذا نرجو من محبتكم الابوية (ان تفعلوا) في تحاريركم لنا ولاساقف هذه المدينة الجزيل القداسة اخيكم البطريرك (لانهُ هو ايضًا كتب لكم موافقًا كرسيكم الرسولي في كل شيء) وتوضحوا لنا انكم تقبلون جميع المعترفين بالايمان الصحيح وتشجبون الذين ينكرونهُ . وستزيد لحمة المعمودية لكم اكثر فاكثر ويُحفظ اتحاد الكنائس المقدسة التي عندكم . لان جميع الاساقفة المقبوطين سيعرفون بواسطتكم حقيقة تعليم الكنائس التي هي تحت ادارة قداستكم »

فهذا القول يوضح ان علاقات الكنائس الشرقية والغربية لا تجاوز حد الوقوف على تعليم بعضها بعضًا لوحدة الايمان وصحة الاتحاد . ويبرهن ان تلك الحقوق متبادلة بين البطاركة والبابا من حيث هم اخوة لا من حيث يتهم رئاسة ومرؤوسية . ويشهد بان البابا ليس لهُ في الكنيسة كنائس خاصة تحت ادارته اي تخضع لهُ وهذا التخصيص ينفي تعميم الرئاسة .

وقد ثبّت يوستينيانوس قرارات المجامع السابقة في تقدُّم بطريرك القسطنطينية على سائر البطاركة فقال في المادة الثالثة « اننا وفقًا لقوانين المجامع المقدسة نحدد ان يكون اسقف رومية القديمة الجزيل القداسة اول جميع الكهنة وان اسقف القسطنطينية رومية الجديدة الجزيل القداسة يكون لهُ المركز الثاني بعد كرسي رومية القديمة ويكون هو اعلى من جميع الباقين » . فلو كانت المراكز البطريركية

ممنوحة بحق الهي لا بحق كنسي من اين جاز وساغ وامكن ليوستينيانوس ان يسنَّ هذا القانون وفقًا لقوانين المجامع المقدسة ؟

واعلم ان يوستينيانوس قد بنى مدينةً بقرب القرية طاوريسيون وطنهِ وسماها يوستينياني الاولى او آخريس وجعلها مستقلةً تحت ادارة رئيس اساقفة واخضعها ابرشيات ايليريًّا . ونحو سنة ٦٧٩ استولى عليها البلغار وكانوا اذ ذاك وثنيين . وضيقوا على المسيحيين حتى بقي الكرسي بلا رئيس اساقفة . ففي عهد القيصر ميخائيل وتاوذوره امهِ سنة ٨٤٨ انتشر الدين المسيحي بين البلغار . ثم ارسل فوتيوس بطريرك القسطنطينية الى بلادهم رئيس اساقفة . فقام نزاعٌ بين بابا رومية وبطريرك القسطنطينية على تلك البلاد كما سيأتي الكلام

٣ . تفرُّق المذاهب في الطبيعة الواحدة

ذكرنا في ما كتبنا (صفحة ٢٦٤) ان بطرس القصار تأبيدًا لتعليم وطيخا ادخل زيادةً في التسبيح الثلثي وهي قولهُ « ايها المصلوب من اجلنا » بعد قولهِ قدوسٌ ثلاثًا * فلما انتشرت هذه الزيادة قام خلافٌ بسببها (١) بين كثيرين من

(١) وهنا خلافٌ في فهم معنى التسبيح . فالارثوذكسيون يقولون ان هذا التسبيح هو اعتراف بالتثليث والتوحيد وهذا معناهُ « قدوسٌ لله الآب . قدوس الابن القوي . قدوس الروح القدس الذي لا يموت » وبعد هذا التثليث يقولون « ارحمنا » بلفظ المفرد بمعنى ان الثلاثة هم واحد . ولهذا السبب لا يجوز ان يقال « الذي صُلب من اجلنا » اذ الخطاب للاقانيم الثلاثة * واما الذين يجيزون هذه الزيادة فيفسرون معنى التسبيح الى يسوع المسيح الاله المتأنس فقط . ولكن هذه النسبة لا تصح . لان التسبيح المثلث لم يرد فيهِ ذكر للتجسد البتة . واذا ورد فيهِ ذكر « الله . القوي . الذي لا يموت » اعني ذكر لاهوت مجرد . فعلى اي الاوجه شرحنا الزيادة لا يخرج المعنى عن ان المصلوب وقع على اللاهوت وعالمًا على

الارثوذكسيين فبعضهم اعتبرها غير مضرة ولكن القسم الاكبر رفضها وسمّى الذين يقبلونها «مؤلّهي اللاهوت». غير ان الملكة ثاوذوره اقنعت القيصر يوستينيانوس فصدّق عليها رسمياً (سجل ١ : ١ : ٦ سنة ٥٣٣). ثم لما انعقد المجمع في القسطنطينية برئاسة البطريرك ميناس رُفضت الزيادة وحرم المجمع بدعة الطبيعة الواحدة وتابيعها. فاخذ القيصر يشدّد على المتمذهبين بها. فقامت ثورة في بلاد الارمن افضت الى خيانة المملكة بتسليم البلاد الى كسرى ملك العجم.

وفي سنة ٥٣٧ توفي تيموثاوس بطريرك طائفة الطبيعة الواحدة في اسكندرية. فانتخب اتباعه بطريركين. فالساويريون انتخبوا بطريركاً اسمه ثوذوسيوس وسمّوا ثاوذوسيين. واليوليانيون انتخبوا بطريركاً اسمه غاياناس وسمّوا غايانيين * ثم قام شماس من شمامسة ساويرس اسمه تيميتيوس ستنج من تعليم ساويرس بفساد جسد المسيح ان يسوع المسيح لم يكن عالماً بكل شيء. فتبعته طائفة سميت بالجاهليين او التيميتيين. وفي اليوليانيين قامت مسألة في جسد المسيح الغير الفاسد «أمخلوق هو او غير مخلوق؟» فانقسموا الى قسمين سمّي الواحد «بعبدة المخلوق» والآخر «بتبعة الغير المخلوق» * ثم ان واحداً اسمه يوحنا اسكوصناغ رئيس مدرسة فلسفية في القسطنطينية علّم بان المسيح له طبيعة واحدة وان كل واحد من الاقانيم الثلاثة له طبيعة واحدة خاصة. وهكذا احدث شيعة مثلثي الآلهة. فنفاه القيصر. ولكن اتباعه انقسموا الى قسمين الاول الفيلوبونيون وهم شيعة يوحنا فيلوبونوس تعتقد بان جسد الانسان فان بحسب الهيئة والمادة معاً. والثاني الكونونيون وهم شيعة كونن اسقف ترسوس

الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس اذ لا ذكر للناسوت. والامر واضح كما لشمس انها لو لم تكن لبصرس القتار غاية في هذه الزيادة لما زادها. وانصف بصير

تذهب ان جسد الانسان فان بحسب الهيئة فقط[1] * ثم ان ذميان احد بطاركة طائفة الطبيعة الواحدة في اسكندرية ذهب الى ان لكل واحد من الاقانيم الثلاثة وجوداً خاصاً وان للثلاثة معاً وجوداً رابعاً عاماً وهكذا قامت شيعة مربعي اللاهوت وسمّوا اربعيين او ذميانيين. وعنها انشقت شيعة قاومت تعليمها باتباعها مذهب سابليوس القديم * ثم قام واحد من معلمي الفلسفة في اسكندرية اسمه استفانوس نيوبي ذهب الى انه لا فرق بين اللاهوت والناسوت في المسيح فتبعته شيعة سميت بالنيوبيين * وهكذا كانت تتكاثر شيع المتمذهبين بالطبيعة الواحدة ويقل فيها عدد الاساقفة وخدمة الدين الى انه كاد ان يفضي بها الانقسام الى الخراب. ولكن يعقوب البرذعاني المعروف بالبرادعي قام بغيرة عظيمة واخذ في توحيد كلمتهم. وقد سيح لمتفقاً على إذناً (أرفا) واشتغل مدة ٣٣ سنة في ضم طائفته الى واحدة. وكان لابساً بردعة اي ثوب شحاذ يطوف تحت الاخطار والاهوال من بلد الى بلد ومن قرية الى قرية يشرطن اساقفة وقسوساً ويضم الشيع المتفرقة الى مراكز معلومة ويوفق بين المتخاصمين الى ان جدّد هم مركز البطريركية في انطاكية. فاكرمه اصحاب المذهب بتسميتهم يعاقبة من اسمه. وهكذا استقرّ المذهب في كثير من جهات اسيا الصغرى وما بين النهرين وسوريه وفرس وفلسطين وبلاد الارمن ومصر والحبشة وانقسمت طوائفه الى ثلاث وهي السريان والارمن والمصريون. فالسريان كان عندهم ١٦ اسقفاً وبطريرك انطاكي يسمّى دائماً إغناطيوس ومركزه في ماردين * والارمن لهم ايضاً بطريرك يقيم في أسترَاغ ويسمّى الجاثليق * واما مصر فقام الشعب الوطني فيها المعروف بالاقباط من كلفة إجحافهم فتطبين

---

(١) يوحنا الدمشقي هرطقة ٨٣

فاقباط ومعناها المصريون) واقاموا طائفةً توحدهم تحت ادارة بطريرك خاص وابطلوا من خدمهم الدينية اللغة اليونانية وسمّوا الروم الارثوذكسيين بالملكيين اشارةً الى انهم تبعوا الملك * ثم ان الحبشة اقتفت اثر بلاد مصر لدواعٍ سياسية وقامت كنيستها تحت ادارة متروبوليت مستقل اسمهُ «ابونا»

هذا بالاختصار ما كان من امر تفرّق الطوائف وتشتّتهم . غير ان جميع اسباب التفرق الخارجية قد زالت الآن والحمد لله بظل الحضرة السلطانية المعظّمة ورعاية الحكومة الخديوية المفخّمة . وحكمة السادات البطاركة الفضلاء . وعناية الولاة والرعاة النجباء * فما علينا إلّا ان . سوى سحق سهام الشيطان . بجمع الرأي ووحدة الايمان . وعبادة الله باتفاق الشفة واللسان . مقرونةً بالدعاء لفضله المنّان . من اجل الملوك والولاة . والكنيسة والرعاة . والآباء والامهات . لتحفظ رحمتهُ الكنيسةَ والدولةَ من جميع الآفات والنكبات .

---

٤ . لقب «المسكوني» للبطريرك القسطنطيني

من بعد نفي البطريرك القسطنطيني افتيشيوس (سنة ٥٦٥ على ما ذكرنا سابقاً) بثلاثة ايام اقام القيصر بطريركاً انطاكيّ الاصل اسمهُ يوحنا الثالث كان وكيلاً لبطريرك انطاكية في العاصمة . وقد ساس الكنيسة سياسةً حسنةً مدة اثنتي عشرة سنةً ونصف وانتقل الى الاخدار السماوية . فاعاد القيصر يوستينوس البطريرك افتيشيوس الى كرسيهِ . فساس الكنيسة اربع سنوات ونصف ورقد بالرب (سنة ٥٨٢) وبعد ستة ايام أُقيم بطريركاً يوحنا الرابع المعروف بالصوّام لكثرة تقشفهِ تلميذ يوحنا الانطاكي سلفهِ * وكان القيصر يوستينوس قد عزل

نرسيس من ادارة بلاد ايطاليا . فبعد عزله (سنة ٥٦٨) هجم على تلك البلاد القبائل اللونكوبردية بقيادة ألْبُوينوس وملكوه * ثم ان القيصر يوستينوس مات سنة ٥٧٨ وخلفهُ طيباريوس . وسنة ٥٨٢ مات وخلفهُ القيصر ماوريكيوس او موريق . رجلٌ صالح السيرة والسريرة ومن اشهر قواد جيش الروم اشتهر في وقائعهِ ضد الفُرس وغيرهم * وقبل وفاة القيصر يوستينوس توفي البابا بنديكتوس فانتخب الاكليروس خليفةً لهُ البابا بيلاجيوس الثاني بلا تصريح وامر من القيصر خلافاً للعادة لداعي سلطة اللونكوبرديين على البلاد كما تقدم . فلم يرد القيصر ان يعرفهُ . واذ لم يكن ممكناً ان يقوم بابا بلا ارادة القيصر أُرسل الارشيدياكون غريغوريوس واستعطف خاطرهُ واسترضاهُ واقام في العاصمة وكيلاً عن البابا[1] . وكان بيلاجيوس رجلاً فاضلاً وتقياً * ففي ايام القيصر موريق والبابا بيلاجيوس الثاني والبطريرك القسطنطيني يوحنا الصوّام قام خصامٌ بين البطريرك الانطاكي غريغوريوس واستيريوس والي الشرق عقد بسببهِ مجمعٌ في القسطنطينية برئاسة البطريرك يوحنا مؤلّف من اساقفة ومطارنة وبطاركة الشرق وقضاة الدولة وفحص المطاعن التي رُشق بها البطريرك

(١) قال اونوفريوس : بعد ان طُرد الغوطويون من ايطاليا بواسطة البطريق نرسيس ورجعت ايطاليا وروميه الى حكم القسطنطينية جرت عادةٌ جديدةٌ في انتخاب البابايات من عهد البابا بيلاجيوس . فانهُ صار سهلاً ان كل بابا عند ما ينتخب على رومية من الاكليروس لا يُفرطن رئيس كهنة قبل ان يثبت القيصر انتخابهُ . فكان من الضرورة ان تصدر اولاً ارادة القيصر وامرهُ خطاً ثم يُفرطَن رئيس كهنة رومية وينال السلطة الاسقفية والرخصة بعد انهُ يرسل جانباً من النقود . . . وقد سنّ ذلك يوستينيانوس . . . لكي لا يُفرطَن بابا رجلٌ مكدّرٌ لراحة اورعدوٌ للملك ويخون البلاد كما أتمم سيلفريوس من ويجيليوس . فكان الاكليروس حين الانتخاب غالباً ينتخب الشخص الذي يرى القيصر مياً اليهِ . وقد ثبتت هذه العادة الى ايام القيصر قسطنطين الثالث (فوسيناوس ٦ : ٣ : ١)

غريغوريوس وظهرت براءته منها وقاصص القيصر غريمه . وقد صدّق هذا المجمع على لقب «البطريرك المسكوني» ليكون لقباً رسمياً لبطاركة القسطنطينية. وكان هذا التصديق داعياً لخصام قام بين كرسيي رومية القديمة ورومية الجديدة. ولكن لكي نفهم هذا الموضوع حق فهمه يجب ان نفحص تاريخ هذا اللقب من بدئه.

فان لقب «البطريرك المسكوني» لم يُلقَّب به في هذا الوقت فقط بطاركة القسطنطينية بل له تاريخ قديم . وقد اورد الكاتبون في هذا الموضوع جملة امثلة منها تسمية يوحنا الذهبي الفم في احدى رسائل القيصر ثاوذوسيوس الصغير «معلماً مسكونياً» (سنة ٤٢٨). ومنها ما ورد في اعمال المجمع الرابع المسكوني حيث القس ثناسيوس واشماسة ثوفوتس واليشيريين يسمّيان البابا لاون «رئيس اساقفة جزيل القداسة وبطريركاً مسكونياً جزيل الغبطة». ومنها ما ورد في اعمال مجمع القسطنطينية سنة ٥١٨ حيث توجد كتابات من مجمع اكليروس ورعيان كرسي انطاكية تقول هكذا «من المجمع المكاني الانطاكي الى يوحنا الجزيل برّه البطريرك المسكوني الخ» . وحيث المجمع نفسه يسمي البطريرك يوحنا الثاني «أبَ الآباء ورئيس الاساقفة وبطريركاً مسكونياً» (١). ومنها ما ورد في اعمال مجمع ميناس سنة ٥٣٦ حيث يسمّى كلٌّ من البطريرك ميناس والبابا اغابيتوس «رئيس الاساقفة وبطريركاً مسكونياً» (٢). ومنها تسمية القيصر يوستينيانوس البطاركة ايفانيوس واثيموثاوس وميناس وافتيشيوس بطاركة مسكونيين كما اوردنا. ومنها تسمية استفانوس مطران لاريسا في احدى رسائله لبابا بونيفاتيوس (سنة ٥٣١) «اب الآباء وبطريركاً مسكونياً». ومنها تسمية القيصر قسطنطين الملتحي بعد هذا التاريخ (سنة ٦٨٢) البابا اغاثون دومنوس ولاون الثاني اساقفة

(١) راجع صفحة ٢٧١ (٢) صفحة ٢٧٧ في الحاشية الاولى .

مسكونيين * غير ان كل ذلك لم ينشأ عنه نزاع بين الاساقفة . ولكن لما صدّق مجمع الشرقيين على اللقب وجعله رسمياً لرؤساء اساقفة القسطنطينية وشرع البطريرك يوحنا الصوّام ان يلقّب ويمضي به (١) رفض البابا بيلاجيوس اعمال المجمع الشرقي ولم يرد ان يعرفه وكتب لوكيله في القسطنطينية ان يقطع كل علاقة مع كنيستها اذا لم يصلح يوحنا غلطته . وارسل رسالة الى جميع الاساقفة الذين حضروا المجمع يقول فيها «لا تصغوا الى اسم المسكوني الذي اتخذه يوحنا لنفسه ... لانه ما من بطريرك استعمل في وقت من الاوقات هذا اللقب العظيم الشناعة . فانه اذا كان اول البطاركة يُسمّى مسكونياً فاسم البطاركة يكون في الباقين لاغياً . وحاشا لكل عقل مؤمن ان يشتهي ويخطف ذلك لنفسه ويظهر انه ينقص شيئاً من شرف اخوته . ولهذا لا تدعوا احداً في رسائلكم مسكونياً البتة لكي لا تنقصوا حقوقكم بتقديمكم لآخر كرامة لا حقّ له بها ... على ان يوحنا باختصاصه هذا اللقب اجتهد ان يضمّ الى نفسه كل شيء وما لا يليق الا برأس الواحد وحده اعني المسيح . وباتخاذه لنفسه كلمة العظمة شرع في ان يُخضع لذاته اعضاء المسيح نفسه ... فمع الاستعانة بالله يجب الاجتهاد والعناية بكل القوى في ان لا تموت بسم كلمة واحدة اعضاء جسد المسيح الحيّة. فانه اذا سمح له ان يتمادى في الضلال يفسد شرف بقية البطاركة» (٢). ثم ان

(١) تاريخ فلوري ٤٢ : ٥٢ (٢) كتاب تجامع جزء آ وتاريخ ملاتيوس قرن ٦ فصل . ٢ ذكر فلورس فلابيوس وايلاتيانا انه في سنة ٥٩ حصل في ايطاليا طغيان مياه عظيم حمل من البراري حيّات وثعابين وحشرات مسمّة الى البحر ثم ارجعتها المياه الى اليابسة فأنتنت وعقبها مرض وبائي يُسمّى ابا الركب . والذي كان يُصاب به كانت تظهر في ركبته دملة فيعطس ويموت حالاً . واول من توفي بهذا الوباء كان البابا بيلاجيوس السعيد ذكره . ومن ذلك الحين حرمت العادة ان يُقال للذي يعطس «صحة وعافية» (ذوسيفاوس ٦ : ٢ : ٢)

بيلاجيوس رقد سنة ٥٩٠ . فانتخب مجمع واكليروس وشعب رومية غريغوريوس الاول او الكبير المعروف بالمذيالوغوس وهو الذي كان في القسطنطينية وكيلاً كما ذكرنا . فحاول غريغوريوس ان يستعفي من الانتخاب ولكنه لم يستطع . وبعد الطلب القانوني ارسل القيصر كتاب التصديق على انتخابه وشُرطن * وفي تلك السنة رقد غريغوريوس بطريرك انطاكية ورجع انسطاسيوس من منفاه الى الكرسي . فكتب غريغوريوس يهنئه برجوعه . فاجابه شاكراً وارسل اليه مفتاحاً من فضة وضع ضمنه براده من سلسلة القديس بطرس [1] * وقد كتب القيصر موريق للبابا غريغوريوس ونصحه ان يقبل اللقب ويوافق يوحنا ويحافظ على السلام والاتحاد . فاجابه غريغوريوس سلباً وكتب يرجوه ان يقطع ذلك العضو الضعيف (يعني يوحنا) لانه قد شوّش الشرائع والمجامع ووصايا المسيح باختراع كلمة كبريائية . ثم انه قرّف كبريآء يوحنا وسمّى اللقب تجديفاً يعمو شرف جميع الكهنة . وكتب رسالة الى البطريرك يوحنا نفسه ينهاه فيها عن استعمال ذلك اللقب . ومن تلك الرسالة يمكننا ان نقف على جوهر التقدم بين الاساقفة في الكنيسة . ولهذا نورد جانباً منها . قال غريغوريوس ليوحنا :

« افتكر ان سلام الكنيسة يشوّش بترفعك الاحمق . فيا ايها الاخ الحبيب! أحبِبْ من كل قلبك التواضع الذي به يمكن ان يُحفظ اتفاق جميع الاخوة ووحدة الكنيسة المقدسة المسكونية . فان بولس الرسول لما سمع بعضاً يقولون : انا لبولس وانا لابلس وانا لصفا . اضطرب من تقسيم وتجزئة جسم المسيح الى كل هذه الاقسام . ومن قيام اعضائه على رؤوس غريبة فصرخ : هل بولس صُلب عنكم ؟ او باسم بولس اعتمدتم ؟ وهكذا كان يتجنب تجزئة جسم الرب وإخضاع

(١) دوسيثاوس ٦ : ٣ : ٤

اعضائه لرؤوس أخرى غير المسيح حتى ولا للرسل انفسهم . فاذا نقول للمسيح رأس الكنيسة العام؟ ... انت الذي بلقب المسكوني تجتهد ان تُخضع لنفسك جميع اعضائه ؟ بمن تقتدي في هذه التسمية المفسودة كل فساد الا بالذي احتقر سائر اجواق الملائكة المرتبطة معه واجتهد ان يرتقي قمة الاتحاد لكي لا يخضع لاحد . ولكي يظهر فوق الجميع ؟ وهو الذي قال : أصعد الى السماوات واضع كرسيّ فوق النجوم . أصعد فوق السحاب واكون شبيهاً بالعليّ * فاين اخوتك اساقفة الكنيسة المسكونية جميعهم انا هم كواكب السماء . فان اردت ان تعلو امامهم وتوطئ اسمهم بالتسمية المتكبرة فاذا تقول سوى : اني أصعد الى السماوات واضع عرشي فوق النجوم ؟ العلّ الاساقفة جميعهم غيوم ؟ ... نعم ان بطرس الرسول هو اول عضو في الكنيسة المقدسة المسكونية . ولكن من بولس واندراوس ويوحنا ؟ أليسوا رؤوساً لكنائس خصوصية ؟ ومع ذلك جميع اعضاء الكنيسة هي تحت الرأس الواحد . وبقصير العبارة اقول ان القديسين الذين قبل الناموس والقديسين الذين بعد الناموس والقديسين الذين تحت النعمة جميعهم يؤلفون جسد الرب ويعدّون مع اعضاء الكنيسة وليس منهم من اراد في وقت من الاوقات ان يُسمّى مسكونياً . فلتعلم إذن قداستكم كم تترفع عندما تريد ان تُسمّى باسم لم يخطفه احد من اولئك القديسين الحقيقيين . أو تجهل أخوتكم ان رومية كهنة هذا الكرسي الرسولي الذي انا الخادمة بارادة الله كانوا يُسمّون في مجمع خلكيدون المقدس مسكونيين لاجل الشرف فقط [1] ؟ ولكن ما من احد اراد في وقت من الاوقات ان يُسمّى هكذا ولم يخطف احد لنفسه اسماً جسوراً كل هذه الجسارة لكي لا يظهر انه ينكر على سائر اخوته المجد الممتاز

(١) هذا البابا غريغوريوس يجيز استعمال اللقب اذا كان لاجل الشرف فقط لا للسلطة

الذي حصل عليه بوظيفة رئاسة الكهنوت » . ثم يورد شواهد من الكتاب المقدس على التواضع [1] . وبعدها يقول « وها ان الكنيسة تنقسم بسبب هذا اللقب المشائخ وقلوب جميع الاخوة تضطرب من الشكوك ... وانا اشهد امام الله اني اكتب هذه الاقوال نظراً لمحبتي لأخوتكم لا لاضادكم بل محاماةً عنكم . ولكني لا استطيع ان افصّل صديقي عن الوصايا الانجيلية والقوانين الكنائسية وفائدة الاخ » [2]

هذا بعض ما كتبهُ البابا غريغوريوس للبطريرك يوحنا ومنهُ يتضح الروح المسيحي الحقيقي في الكنيسة . ونستغرب كيف خلفاء هذا البابا الجليل لم ينتبهوا الى هذه الاقوال التي تعلّم ان رأس الكنيسة انما هو المسيح وحدهُ وان التواضع اساس البنيان . وان الرسل انفسهم ما خضعوا لانفسهم لكنيسة . وان الترفع عملٌ شيطاني . وانا كل اسقف انما هو كوكبٌ من كواكب الكنيسة . وان لا بطرس ولا غيرهُ من الرسل القديسين رأسٌ للكنيسة كلها . ونستغرب كيف حمل اساقفة رومية على عاتقهم مسؤولية شق الكنيسة بسبب حبهم السلطة عليها . ولكن لندع الملاحظات ولنراعِ الاختصار بالرجوع الى الموضوع

فان القديس غريغوريوس كتب ايضاً لجميع البطاركة وافادهم ان سلفهُ بيلاجيوس رفض اعمال المجمع التي فيها استحصل على دعواهُ بوحنا القسطنطيني لقب « المسكوني » وانهُ لا احد من اساقفة رومية اراد هذا الاسم . فقال « لا تلقبوا احداً بلقب رئيس كهنة مسكوني . ولا تخالفوا في ذلك من القيصر . فهو يخاف الله ولا يعمل شيئاً ضد الانجيل والقوانين . أو استطيع ان لا احزن عندما اشاهد ان يوحنا الصوّام المتواضع قبلاً قد انصل الى كبرياء عظيمة

(١) متى ٢٣ : ١١ الخ ، ١ بط ٥ : ٦ ، متى ٢٠ : ٢٧ و ٢٣ : ٨ — ١٢ (٢) رسالة ٣٨ كتاب ٦ .

حتى شرع في ان يخصص نفسهُ بالسلطان على المتحدين بالرأس الواحد نفسهِ اعني المسيح وطلب ان يُخضع لنفسهِ جميع اعضاء المسيح مترفعاً بلقبٍ متكبر ! فان سمحنا لهُ باستعمال هذا اللقب فحينئذٍ جميع الاساقفة يفقدون وظيفتهم . وان سقط الداعي نفسهُ بطريركاً مسكونياً في ضلال فلا يوجد عند ذلك اسقف باقياً في الحق » فارجوكم ان تحفظوا كنائسكم كما تسلمتموها . احفظوا من هذا الفساد جميع الاساقفة الخاضعين لكم وأروهم انكم انتم بالحقيقة بطاركة الكنيسة المسكونية . وان حصلت مصيبةٌ فاثبتوا متحدين بالعزم حتى نبرهن بوتنا ايضاً اننا لم نشجب هذا اللقب عن غرضٍ . وكما اننا نلنا جميعنا وظيفتنا لنادي بالحق هكذا صدقوني انهُ بوافقنا ان نستقيل من الوظيفة في سبيل المحاماة عن الحق اكثر من ان نحافظ عليها . فصلّوا من اجلي لكي توافق اعمالي اقوالي » [1]

ثم انهُ كتب للقيصر موريق يقول « انك تذمني وتقول انهُ لا يجب ان يقوم بيننا خصامٌ على لقب فارغ . ولكن افتكرانها توجد امورٌ فارغة لا تضر وامورٌ تضر ضرراً عظيماً . فعندما ياتي « ضد المسيح » ويسمي نفسهُ الها يكون ذلك امراً فارغاً ولكن مضراً ومبيداً ... اذا فحصنا اشتقاق الكلمة نجدها مركبة من قسمين فقط . ولكن معناها يطوي لجة كفرٍ وهلاكاً عمومياً . فانا اقول بكل حرّية ان كلّ من يسمي او يبتغي ان يسمي نفسهُ مسكونياً يكون بترفعهِ قد سبق « ضد المسيح » لانهُ يرفع نفسهُ فوق الآخرين رفعة مشائخ ويسعى الى الضلال متشامخاً مثلهُ . فكما ان ذاك (اي المسيح الدجال) يريد ان يظهر امام البشر إلهاً . هكذا هذا ايّ من كان برغبتهِ في ان يُسمّى الحبر الاعظم والممتاز يترفع فوق سائر الاحبار » [2]

(١) رسالة ٣٤ كتاب ٦ وتاريخ فلوري ٣٥ : ٣٩ (٢) رسالة ٣٠ كتاب ٦

ثم انهُ كتب لوكيلهِ في القسطنطينية الشماس سابانوس وامرهُ ان لا يخدم البطريرك يوحنا في القدامس الى ان يترك لقب المسكوني . غير ان البطريرك يوحنا لبث محافظاً على ذلك اللقب ولم يعتبر كتابات البابا وين بيلاجيوس وغريغوريوس الا شيئاً سوى عن سوء فهمٍ او عن سوء تفسيرٍ فضلاً عن ان مداخلتها في المسألة وكتابتها لهُ وللقيصر وللبطاركة لم تكن من خصائصها لان المسألة شرقيةٌ محضة ولا تعلُّق لها بالعقائد العمومية والشرق حرٌّ في اعمالهِ امامعنى لقب « المسكوني » فليس كما فسَّرهُ البابوات بان البطريرك يوحنا التي بهِ رتبة جميع الاحبار او ترفَّع على مصفهم . لانهُ لو كان هذا المعنى لما حُفظ التقدُّم في الكرامة لكرسي رومية . ولهذا السبب كثيرون من كتَّاب الغرب انفسهم اعتبروا خصام احبار رومية ببطاركة القسطنطينية غير خالٍ من الغيرة وانتقدوا عليهم بهِ .

فاول معنى للفظة « المسكوني » في الكنيسة هو معنى المسيحي على ما شرح الكاتب الغربي يخطر نفسهُ . لان الدين المسيحي قام لينتشر في كل المسكونة. ومنهُ نسمّي بعض القديسين معلمين مسكونيين بمعنى معلمي الدين المسيحي * ثم مُنح هذا الاسم لقب شرفٍ لاساقفة ورؤساء اساقفة وبطاركة ومجامع كما رأينا في ما ذكرنا عن البطاركة يوحنا الذهبي الفم ويوحنا الكبادوكي وابيفانيوس واثيموس وميناس والباباوات لاون وبونيفاتيوس واغابيتوس . وسيفي كل تلك المواقع لم يرد على معنى تعميم السلطة على الكنيسة كلها او المسكونة بل على معنى امتدادها الى قسمٍ عظيمٍ من الكنيسة او شهرة مركزها . فيكون اللقب لا على معنى التعميم بل على معنى الاعلية والتعظيم . وعلى هذا المعنى ايضاً نسمي المجامع المسكونية مسكونية لا بمعنى ان جميع اساقفة المسكونة اجتمعوا فيها بل بمعنى ان عدداً غفيراً من اساقفة المسكونة ألفوها . وربما كان ذلك العدد جزئياً بالنسبة الى

عدد اساقفة المسكونة) مع ارتباط كثرة العدد باعتبارٍ ممتازٍ كاشتراك جميع المراكز المسيحية في تأليفهِ . ثم ان استفانوس اسقف لاريسا الذي كتب للبابا بونيفاتيوس وسماهُ بطريركاً مسكونياً هو نفسهُ كتب للبابا بونيفاتيوس ايضاً رسالتين أُخريين ولم يسمِّهِ فيهما مسكونياً . فلو كانت للاسم الاهمية التي توهمها او أوهم بها اساقفة رومية لوجبت المحافظة عليهِ دائماً * على ان البطريرك الاسكندري يُسمَّى من القديم « قاضي المسكونة » حالة كونهِ ليس متفرِّداً في القضاء على المسكونة بل تشريفاً وتكريماً لا اكثر . وفي القسطنطينية كان رئيس اساقفة الاكاذيميا الملوكية يُسمَّى « معلماً مسكونياً » حالة كونهِ لم يكن ذا سلطةٍ في شيءٍ على سائر المعلمين في المسكونة . فمن هذا كلهِ يتضح ان ما كتبهُ وصوَّرهُ اساقفة رومية ضد يوحنا اذا كان ابهاماً لا حقائق . وان الاسم ليس فيهِ ما يمس حقَّ احدٍ من سائر الاساقفة . ولكي يُفهَم ذلك على بيانٍ اكثر جلاءً نضرب مثلاً : فان مطران بيروت يُسمَّى « متقدماً ممتازاً على فينيقيه الساحلية » ومثلهُ مطران صور . ومثلهُ مطران صيدا . ومثلهُ مطران طرابلس (صفحة ٢٦) فلو اردنا ان نفسر عبارة التقدم والامتياز على معناها الحرفي لكان فيها من التناقض ما لا ينطبق على عقلٍ بان كل واحدٍ من المطارنة الاربعة المذكورين هو الممتاز والمتقدم في الاربعة . وهذا غير ممكنٍ . ولكن المعنى يسهل فهمهُ متى عرفنا ان ذلك ليس على المعنى الحرفي بل من باب التكريم فقط * بناءً عليهِ لا يسعنا ان نحق البطريرك يوحنا على لقبٍ سُمِّي بهِ قبلهُ كثيرون من اسلافهِ ومُنح لهم ولهُ من الملوك المسيحيين وصدَّق عليهِ لهُ مجمع الاساقفة وقضاة المملكة في الشرق . وقبلهُ اساقفة رومية والقسطنطينية وان لم يمضوا بهِ رسمياً * وقد اتضح ان اللقب لم يكن محجفاً بحقوق البطاركة الآخرين ولا كانت الغاية منهُ الحطَّ من رتب الاساقفة كما اوهم

اساقفة رومية في تحاريرهم وانما كان لقب شرف . فعارض الاساقفة الرومانيون ونازعوا فيه جرياً على عادة اسلافهم في الاعتداد من تعظيم كرسي القسطنطينية منذ نقل كرسي المملكة اليها . ولما كانت مداخلة البابوات في هذه المسألة تطفلاً وفضولاً وغايتها بخس شرف البطريرك القسطنطيني لم يرَ القيصر مناسباً ان يساهم ولا البطاركة الآخرون ان يوافقوهم ولا امتثل يوحنا نصائحهم ولا رهب توبيخهم (١) * وهنا يجب ان نتعجب من حكمة الباري المنزّه وحلمه عن الانفعال . فان الذي يتأمل في حياة البابوات بيلاجيوس وغريغوريوس ولبطريرك يوحنا الصوّام يتذهل من فضائلهم ويستغرب تنازعهم فيما انهم كانوا رجالاً ابراراً افضل التقاة وقديسين بالحق والصدق لا رياء ولا تظاهراً . فكان يوحنا المتهوم بالكبرياء على جانب غريب من التقشف والزهد وفعل الخير والتواضع . حتى انه حين انتخب بطريركاً هرب واختبأ . وكان غريغوريوس يحترمه ويوقره ويمدحه في حياته وبعد وفاته . وقد سماه البطريرك الاورشليمي

(١) قال صاحب البيذاليون نقلاً عن دوميثاوس : ان كلة المسكوني لها معنيان فاما انها تعني اسقفاً عاماً على كل الكنيسة مستقلاً برئاستها . او خاصاً على قسم كبير منها . فان ملوكاً كثيرين ليسوا ذوي سلطان على كل المسكونة ومع ذلك تسميهم سادات المسكونة كما هي افاغريوس زيتون بمعنى السيادة على جانب كبير منها . فعلى المعنى الاول لا يُسمى اسقفاً مسكونياً لا البطريرك القسطنطيني ولا البابا الروماني ولا غيرهما بل المسيح وحده . . . ولكنه يُسمى على المعنى الثاني لسيادته على قسم كبير من المسكونة وللعناية الفائقة بها والغيرة في حفظ الايمان والتقليدات الابوية والمجمعية لا في ابرشيته فقط بل في الباقيات ايضاً . فتسمية الاسم اعظم بابا وبابوات رومية فسّروهُ على المعنى الاول وحتماً المشتبهين به سابقي ضد المسيح وهم محقون . ولكن يوحنا ومورق وانبطاركة الذين بعده اخذوهُ على وضعه بالمعنى الثاني ولم يكترثوا بهم والحق ايضاً معهم . وهذا قال مجمع اجيا صوفيا بصريح العبارة «ان الذي يُدعى مسكونياً لانه رئيس قسم كبير من المسكونة ليس ضدّ للمسيح» (صفحة ١١٨)

صغرونيوس « مسكناً لكل فضيلة » وايسيذورس اسقف سيبيليا سماه قديساً . وكان يوزع كل ما عنده مساكين . واذا لم يكفه ذلك استدان من القيصر مبلغاً كتب فيه صكاً ورهن كل موجوداته عنه . وبعد وفاته فحصت ثروته لتوفى ديونه فكان مجموعها مقعداً من خشب وفروة صوف رديئة لقيمة وقانونية بسيطة . فلما رآها القيصر احترمها واستعاض بها ديونه وشق الصك ونقدها الى بلاطه بمثابة هدايا ثمينة . وكان في ايام الصوم الكبير يتكئ على ذلك المقعد الخشبي . ولم يكن ايا غريغوريوس اقل منه فضيلة . فانه كان تقياً وزد على ذلك انه كان رجلاً كبيراً ذا اداء وفطنة . ولما ارتقى كرسي الاسقفية كان الجوع والوبأ وحروب اللونكوبرديين تضايق رومية . وكان الاريوسيون كثيرين بعد والشعب منقسماً مدنياً . وكان الاكليروس مضطهداً والكنيسة محتاجة الى رجل كبير يحررها من تلك الضيقات ويدافع عن حقوقها . وقد وجدت مثل هذا الرجل في شخص غريغوريوس . فانه فضلاً عن كونه داس تلك المصاعب قد اهتم ونجح في انتشار الدين المسيحي بين الشعوب البريطانية ايضاً . وبما انه اقام في القسطنطينية مدة ولم يكن جاهلاً قلة ميل البطريرك يوحنا الى حب المجد ولا حقيقة معنى لقب « المسكوني » لم يكن يوحنا متصوراً ان تتكدر حاسيات سلفه بيلاجيوس وخصوصاً حاساته هو من لقب لم يمسّ كرامتها البتة ولا تجحف بحقوقها ولا بتقدمها . ومع ذلك فقد سماه غريغوريوس « يسابق ضد المسيح » على ذلك اللقب ورفض هو ان يسمّى به رفضاً صريحاً واستبدله بان سمى نفسه « عبد عبيد الله » (١) . وفي احدى رسائله الى افاوجيوس

(١) ان هذه التسمية « عبد عبيد الله » او « خادم خدام الله » لا تنطبق حقيقتها على مركز اساقفة رومية الاعظم . ويُظن معناها بمعنى الآية « من اراد ان يكون فيكم اولاً

بطريرك اسكندرية كتب ما تعريبهُ «ان لقب الدعوة المتشامخة القائلة «بابا البابا المسكوني» التي قد اهتممتم في ان تنسبوها اليَّ انا الذي منعتها اطلب من محبتكم الجزيلة حلاوتها ان لا تعيدها بعد الآن ... فانها ان كانت قد استكم تسميتي بابا مسكونياً فتنكر على نفسها ذلك اذ تعترف بأني مسكوني»[1]

ومن بعد وفاة يوحنا سنة ٥٩٥ قام البطريرك كيريا كوس وكتب رسائل السلام الى الكنائس والى غريغوريوس اسقف رومية فاجابهُ عنها . وبما انهُ حافظ على لقب «البطريرك المسكوني» كتب لهُ ان يتركهُ اذا كان يرغب المحافظة على السلام وكتب لوكيلهِ سابينيانوس ان لا يخدم معهُ القداس الالهي ما لم يترك لقب المسكوني . غير ان كيريا كوس لم يوافق البابا على كتابتهِ وليث محافظاً على الاسم . وفي سنة ٦٠٢ حصلت ثورة في عسكر الروم ضد القيصر موريق لانهُ شرع في اصلاحات تخفيفاً للفساد . فانتخب العسكر قيصراً اسمهُ فوقاس كان قائد مائة رجلاً دنيء التربية والآداب وجاؤوا بهِ لمحاربة القسطنطينية . واذ رأى موريق الخطر هرب ليلاً هو وعائلتهُ ونظراً لألم في رجلهِ لم يتمكن من البعد كثيراً . وبعد خمسة ايام علم فوقاس بهِ انهُ حيٌّ فاحضرهُ واحضر اولادهُ وقبل كل شيء ذبح اولادهُ المذكور امامهُ . فذبحوا اربعة وجاؤوا بالخامس وهو الاخير وكان مبدلاً من المربية بانها . فلما رآهُ موريق عرفهُ ومانع ذبحهُ وطلب ان يحضروا اباهُ ولا يظلموا المرضعة . واذ كانت اولادهُ تُذبح كان هو

(١) رسالة ٣٠ كتاب ٧

صامتاً لا يقول سوى «عادل انت يارب وعادلة احكامك» . فبعد ان انهى فوقاس ذبح الاولاد ذبح اباهم فوقهم . فالتجأت امهم قسطنديا وبناتها الثلاث الى دير واقمن فيهِ . وقد كتب البابا غريغوريوس للقيصر فوقاس ضد اللقب وهنأهُ وتلقفهُ وفي سنة ٦٠٤ توفي فخافهُ البابا سابينيانوس رجلٌ مقاومٌ لفضائل سافرهُ كل المقاومة. وقد عزم ان يحرق موتاهُ لكن مدتهُ على الكرسي لم تطل اكثر من بعض اشهر فمات قبل ان يتمم عزمهُ وقام البابا بونيفاتيوس الثالث بعدهُ . وقد طلب هذا البابا من القيصر ان يُسمّي كرسي رومية اول كراسي رؤساء الكهنة ورأس جميع الكنائس فمنحهُ ذلك عن سببين: وهو انهُ طلب من البطريرك كيريا كوس تسليم بنات موريق الثلاثة وامهنَّ اليهِ ليذبحهنَّ بحجة انهنَّ كنَّ داعياً لتشكيل حلف ضدهُ . فابى البطريرك تسليمهنَّ اليهِ ووبخهُ على ظلم موريق وعائلتهِ . ولكن القيصر اخذهنَّ غصباً وامامهنَّ وامات سائر اقرباء موريق وانتقاماً من البطريرك منعهُ عن استعمال لقب «البطريرك المسكوني» ومنحهُ للبابا المذكور مع تلك الالقاب . وفي هذه المدة توفي البطريرك كيريا كوس (سنة ٦٠٧) وقام بعدهُ البطريرك توما. وفي سنة ٦١٠ توفي وخلفهُ البطريرك سرجيوس. وفي هذه السنة جاء هرقل ابن امير افريقيا ضد فوقاس ومعهُ قائدان وهما صهرهُ اكريسبوس وقونيوس احد الوجهاء (كان فوقاس اغتصب امرأتهُ) وحاربوهُ وكسروهُ ودخلوا المدينة . ثم صعد قونيوس الى البلاط وانزل المغتصب من على كرسيهِ ونزع عنهُ الارجوان والبسهُ ثوب الحداد وكتفهُ وجاء بهِ الى هرقل . فامر هرقل ان يقطعوا اولاً يديهِ ورجليهِ واكتافهُ واعضاء تسليم جزاء فساده ثم راسهُ . ويحرقوا جثتهُ . وقد ماتوا معهُ اخوتهُ وسائر عائلتهِ ونقضوا ما كان سنَّهُ ولفقهُ لاساقفة الغرب . وهكذا ثبت بطاركة القسطنطينية محافظين على لقبهم . ولعلهم

بان اساقفة رومية انما كانوا يحاجّونهم على اللقب عن غرض وميل الى القبض على السلطة العامة التي لا تتيسر لهم ما داء لقب المسكوني مستعملاً للكرسي القسطنطيني كانوا يسمعون اعتراضاتهم ويقابلونها بالسكوت وعدم الاكتراث مقدمين لهم اكرامهم ومحافظين على كرامة انفسهم . وكانوا يستجهلون البابوات في اعتراضهم اياهم بناء على يقينهم الحق بانه كما ان الآباء منحوا رومية حق التقدم لكونها كانت عاصمة المملكة . هكذا ما كان يعيقهم عائق عن ان يمنحوا حقاً اكرامياً لكرسي القسطنطينية عاصمة المملكة الجديدة ويساووا رومية الجديدة برومية القديمة كما فعلوا في المجمعين الثاني والرابع ومجمع يوحنا الصوام سنة ٥٨٧ * اما الاستناد على امتياز منزلة القديس بطرس الرسول بين الرسل كما زعم مدعوه لا للسلطة بل لتمييز اسقف رومية على سائر الاساقفة فليس عهده قديماً في التاريخ . وانما مبدأه من عصر المجمع الرابع كما رأينا . وقبل هذا العهد كان المدّعون تلك الدعوى يستندون لا على امتياز بطرس ولا على رئاسة بولس بل على قانون المجمع الاول فقط . وقد كتب القديس غريغوريوس في احدى رسائله الى افلوجيوس بطريرك اسكندرية في هذا الموضوع ما يفيد رأي الكنيسة الغربية وقتئذٍ في منزلة بطرس وخلفائه ويبرهن ان الرأي الحالي هو ضد رأي القديس غريغوريوس كبير البابوات فقال « ان قداستك حبيبتي قد كتبت لي في رسائلها كثيراً في سدّة هامة الرسل بطرس وثبّتت انه لم يزل جالساً عليها الى الآن بشخص خلفائه . فانا اعترف بانني غير مستحق لا لكرامة اسلافي ولا لان اكون في عدد (الاساقفة) الموجودين . غير اني قبلت بمحبة كلّ ما قلته لان الذي كلمني عن سدّة بطرس هو ايضاً صاحب سدّة بطرس (يعني الطوباوي افلوجيوس صاحب السدّة الاسكندرية عن مرقس عن بطرس) .

على ان الكرامة الخاصة وان كانت لا تسبب لي فرحاً فاني مع ذلك افرح لانكم انتم الجزيلي القداسة مغتبطة لا نفسكم ما قد نسبتموه اليّ . فانهُ من يجهل ان الكنيسة المقدسة ثبتت على ثبات هامة الرسل الذي كان يشير باسمه الى ثبات رأيه بتسميته بطرس من يناير (اي الصخرة) ؟ ... وقد قيل له بصوت الحق «واعطيك مفاتيح ملكوت السماوات . وانت حين ترجع ثبّت اخوتك . وارع خرافي» . وهكذا وان كان الرسل كثيرين غير ان سدّة واحدة فقط تمتاز بسبب هذا التقدم اعني سدّة هامة الرسل نظراً لاهميتها وهي لواحد في ثلاثة امكنة (يعني انها لبطرس في انطاكية واسكندرية ورومية) . لان هامة الرسل نفسهُ رفع الكرسي الذي عليه استراح واستحق ان يتمم الحياة الوقتية (يعني كرسي رومية) . وهو نفسهُ زيّن الكرسي الذي ارسل اليه تلميذهُ الانجيلي (يعني كرسي اسكندرية) . وهو ايضاً ثبّت الكرسي الذي جلس عليه اولاً سبع سنوات (يعني كرسي انطاكية) . فما دام الكرسي الذي يجلس عليه الآن بعون الله ثلاثة اساقفة (يعني الانطاكي والاسكندري والروماني) هو واحداً وواحد . انا انسب الى نفسي كلّ امر صالح اسمعهُ عنكم . وكلّ امر صالح تسمعونهُ عني انسبوهُ انتم ايضاً الى استحقاقكم . لاننا جميعاً واحدٌ بالذي قال . لكي يكونوا جميعهم واحداً كما ان الآب فيّ وانا في الآب هكذا الجميع ايضا واحدٌ فينا» (١) .

فمن فحوى هذه الرسالة يتضح تعليم افاضل رجال الكنيسة الغربية في القرن السادس بالمساواة بين الكراسي الاولية . ومع ان هذا البابا المغبوط ميّز منزلة القديس بطرس الرسول هو نفسهُ اعترف بان كراسي بطرس الثلاثة في انطاكية واسكندرية ورومية متساوية . وقد كتب الاب فلوري المؤرخ الشهير

(١) يوحنا ١٧ : ٢١ . رسالة ٣٧ كتاب ٧

في هذا البابا « انه لم يكن يتداخل في امور برشيات غير التي كانت تخضع لكرسيه وتُسمَّى المجاورة منها برشيات ايطاليا الجنوبية حيث كان وحده رئيس اساقفة ، وبرشيات صقليه (وسيسيليا) وبعض الجزائر حيث كان لهامتر وبوليتون خصوصيون . ولم تكن له ولا سلطة على برشيات ميلان واكيليئيا واسبانيا وافرانسا. بل كان له وكلاء اساقف اريلاتي في افرانسا واسقف سلانيك في ايليريا » . فما دام الغرب لم يكن في اواخر القرن السادس خاضعاً للبابا بعد، كيف يمكننا ان نسلِّم للغربيين بان البابا كان سلطاناً على الكنيسة كلها في الشرق والغرب ؟ على ان رسائل البابا غريغوريوس قد شبَّهت الذي يدعي تلك السلطة بالمسيح الدجَّال . وقد قال بصريح العبارة ان الذي يرغب في ان يُسمَّى الحبر الاعظم والممتاز لا فرق بينهُ وبين ضد المسيح . فنسالهُ نحن جواباً بلا غرض عن سؤالنا : ماذا يقول خلفاؤهُ الآن لدى هذه الشهادات من رجل قديس وكبير ومن افاضل باباوات الغرب اذا قابلوا عليها سلوكهم وعوائدهم واحوالهم من عصرهِ الى الآن وقابلوا ايضاً سلوك بطاركة القسطنطينية. فان التاريخ قد برهن مدة الف ومائتي سنة ان البطريرك القسطنطيني لم يدَّعِ ولا في وقتٍ من الاوقات السلطان الذي كان البابا غريغوريوس خائفاً من اتصالهِ . واما اساقفة رومية فما اكتفوا بانهم سمَّوا انفسهم اساقفة عموميين واحباراً اعظمين بل انتحلوا ايضاً لقب « قائممقام المسيح » ولاجل ايضاح هذا اللقب فعلاً ابتدعوا بدعةً يلهامن بدعةٍ وهي انهم يوم شرطونيتهم يصعدون بكل جسارةٍ على المائدة المقدسة ويجلسون فوقها في المحل الذي تُقام فيهِ الذبيحة الالهية . فلو رآهم ذلك البابا القديس في ايامنا جالسين هذه الجلسة فوق مائدة الرب ماذا كان يقول وماذا كان يفعل ؟ واذا كان بسبب لقبٍ بسيطٍ لم يخرج عن كونهِ لقب شرفٍ قد سمَّى

« بسابق ضد المسيح » رجلاً فاضلاً متواضعاً هو نفسهُ شهد بفضيلتهِ في الحياة وبعد الممات . فاذا كان يقول في خلفائهِ حين يراهم ناصبين عرشهم فوق الاقداس وفوق جميع كواكب السماء ؟ او ما هو لقب المسكوني البسيط الخالي من معنى السلطة والكبرياء بالنسبة الى هذا التشامخ العظيم ؟ والامر الاعظم من ذلك انهم سمُّوا لكل اسقفٍ يُقام في الكنيسة الغربية ان يحلف حين الرسامة يمين الطاعة والامانة للبابا كما يعترف الاساقفة عندنا باعتراف الايمان الذي هو شرط استلامهم رعاية الكنيسة . وان يعترف ايضاً بانهُ قد حصل على درجتهِ الاسقفية بنعمة الله ورحمة الكرسي الرسولي ! فليحكم الآن كل منصفٍ في الفرق الذي بين هذه الاعمال والاختراعات وبين لقب « المسكوني » الذي اجازهُ للشرف بابا الغرب ونالهُ مقدام اساقفة الشرق بالظلم ولا شك من الله متراساً لتعديات الغرب وحافظ عليهِ نقياً طاهراً بلا بدعةٍ ولا تعدٍّ ولا شبه سلطةٍ واجحافٍ . ولما كان التاريخ هو كشَّاف الخبآت لا شك في انهُ لو عاش البابا وان الفلاصلان بيلاجيوس وغريغوريوس لاستبدلا ما كتباهُ في بطاركة القسطنطينية بما كان من شأنهما ان يجاهرا بهِ ضد هذه المناظر والله اعلم بما تضمر الضمائر وما تكتم السرائر

واعلم : ان البطريرك الاسكندري ملاتيوس قد كتب في لقب « قاضي المسكونة » لبابا وبطريرك اسكندرية ما معناهُ : ان الآباء القديمين لما رأوا ما راوهُ من النزاع بين البابا الروماني والبطريرك القسطنطيني على الالقاب اذ ان احدهما سمَّى مسكونياً والآخر طلب ان يُسمَّوا رأس جميع الكنائس فلكي يوضحوا ان لقب المسكوني ليس كما فسَّرهُ باباروميه اغتنموا فرصةً من بعض الحوادث وسمَّوا بطريرك اسكندرية « قاضي المسكونة » كما لم يزال يلقَّب الى ايامنا هذه . ورفعوا بهذه الواسطة كل سوء مفهومٍ .

الفصل السابع

في علاقات الكنيستين في القرن السابع

١ . الحوادث التي تقدمت المجمع السادس

ان ما قلناهُ في البابوات الرومانيين فاتحةً لكلامنا في حوادث القرن السادس هو عينهُ يناسب ان نقولهُ في فاتحة القرن السابع ايضاً . لان انتخاب البابوات بالمرغم والدينار وخضوعهم لاستبداد اولي الاحكام قد استمرَّ في هذا القرن على ما كان عليهِ في السابق * ومن اهم العلاقات التي تستحق النظر بين الشرق والغرب هي علاقات الكنيستين في المجمع المسكوني السادس الذي انعقد بسبب ظهور بدعة المشيئة الواحدة نتيجة العقيدة بالطبيعة الواحدة على ما سبق القول . ولهذا قبل ان نتكلم في المجمع السادس نلخص تاريخ هذه البدعة .

كانت مملكة الروم حين استلم زمامها القيصر هرقل محاطةً من كل جهةٍ بالحروب الخارجية والقلاقل الداخلية التي نشأت عن انقسام شعب المملكة الى طوائف متعددة وشيَع متفرقة . وكان القيصر هرقل يرى هذه الحال ويسعى في ضم كلمة الطوائف وجمعها الى طائفةٍ وكنيسةٍ واحدة ولكنهُ كان يترقب لذلك فرصةً اذ لم يجهل صعوبة العمل . ولما كان العنصران القويان في المملكة عنصر الملكيين وعنصر اليعاقبة او عنصر الارثوذكسيين وعنصر المعتقدين بوحدة الطبيعة اخذ يفكر في ان يوفق هذين العنصرين . واذ كان من المستحيل وقتئذٍ ان تشيع احدى الطائفتين الأُخرى لتباعد الاعتقادين بالطبيعتين والطبيعة استنبطت عقيدةٌ متوسطةٌ بينهما وهي الاعتراف « بطبيعتين في المسيح لها مشيئةٌ

واحدة وفعلٌ واحدٌ »[1] * اما مستنبطها فبعضٌ يظنُّ انهُ كان البطريرك القسطنطيني سرجيوس وبعضهم يظنُّ اثناسيوس بطريرك اليعاقبة سنة ٦٢٩ ويرجحون الاول . لانها توجد شهادة من تاوذورُس سقف فاران قبل هذا العهد تعلّم بالفعل الواحد * وقد كتب القيصر وخابر جملة مراكز في ارمينيا وفبرص (سنة ٦٢٢) . ثم جرت مخابرةٌ بينهُ وبين كيرُس اسقف فاسيس (في بلاد الاكراد) ونصح كيرُس ان يكتب ويسأل سرجيوس في المشيئة الواحدة . فكتب واجابه سرجيوس بالقبول * ثم ان هرقل نقل اثناسيوس اليعقوبي الى كرسي انطاكية وكيرُس المذكور الى كرسي اسكندرية (سنة ٦٣٠) وجعلهُ بطريركاً ووالياً على بلاد مصر وصار املهُ بالاتحاد وطيداً باستنادهِ على ثلاثة بطاركة ومعهم اونوريوس بابا رومية كما ظهر من سلوكهِ بعد ذلك * فلما وصل كيرُس الى اسكندرية كتب اعتراف ايمان بالمشيئة الواحدة ودعا المنشقين ليوافقوا عليهِ . فالساويريون قبلوهُ حالاً ولكن اليوليانيين والشيَع الأُخرى رفضوهُ . فضايقهم كيرُس بالسجن والقيود والعذابات والقتل . فذهب رؤساؤهم الى البراري وما رجعوا الى البلاد الاَّ هم والعرب معاً في فتوح مصر (سنة ٦٤٠) . اما القسطنطينية فقد قبلت الاعتراف الجديد ورومية صمتت عنهُ مع انهُ كان ضد لاون ورسائلهِ * غير ان راهبين وهما صفرونيوس الدمشقي ومكسيموس القسطنطيني من اعظم افاضل عصرهم ومشاهير علماء وآباء الكنيسة قاما في اسكندرية ضد ذلك الاعتراف

(١) ان هذه العقيدة لا تنطبق على الاعتقاد الصحيح بلاهوت المسيح الكامل وناسوته الكامل . لان الطبيعة لا يمكن ان تكون كاملةً وهي ناقصة الارادة والفعل . فالاعتقاد بالطبيعتين يلزمهُ الاعتقاد بالمشيئتين والفعلين باتحاد وبلا انفصال كما قلنا في الطبيعتين . لان يسوع المسيح لم يرد ولم يفعل شيئاً من حيث هو الله فقط . ولا من حيث هو انسانٌ فقط بل من حيث هو الهٌ وانسانٌ معاً بلا اختلاط ولا انقسام .

وفضحا تناقضهُ بكل صراحةٍ . ثم حضر صفرونيوس الى العاصمة وذهب مكسيموس الى افريقية وكانا يطعنان بالبدعة الجديدة . فلما سمع سرجيوس تلك الاصوات الارثوذكسية خاف واضطرب ومنع حزبهُ عن المذاكرة في مشيئةٍ او مشيئتين وبنصيحة القيصر لفّق عباراتٍ من الآباء تؤيد اتحاد المشيئتين وكتب للبابا اونوريوس يسألهُ رايهُ . فاجابهُ البابا انه من حيث المشيئة يعترف بمشيئةٍ واحدة في المسيح . ومن حيث الفعل لا يسمح ان يذكر احدٌ لا فعلاً ولا فعلين لان الرأيين خطأٌ * وفي ذلك الوقت (سنة ٦٣٤) جاء صفرونيوس الى اورشليم وانتخب بطريركاً ولاسبابٍ اضطر البلاط ان يقبل انتخابهُ . ثم عقد مجمعاً حرم التعليم بالمشيئة الواحدة وكتب للبطاركة الآخرين ضدهُ كتابةً صارمة . فاضطرب البابا اونوريوس من تلك الكتابة وكتب لهُ وللبطاركة رسالةً على معنى رسالتهِ الاولى . غير ان اورشليم فُتحت من العرب سنة ٦٣٧ وفي السنة عينها رقد صفرونيوس . فاصدر القيصر دستور ايمانٍ معروفاً بالإكثيسيس (سنة ٦٣٨) احتم فيهِ بقبول المشيئة الواحدة . فعقد سرجيوس مجمعاً في اواخر تلك السنة وصدّق عليهِ ومات . فخلفهُ بيرُّس ووافق على الدستور مثلهُ * وفي تلك السنة مات ايضاً البابا اونوريوس على البدعة وخلفهُ سويرينوس . ثم يوحنا الرابع . ثم ثاوذورُس . وكانوا ضد البدعة . وفي سنة ٦٣٩ تمّ فتوح بلاد الشام من العرب واخذوا انطاكية ايضاً * وفي سنة ٦٤١ مات القيصر هرقل وخلفهُ ابنهُ قسطنطين الثالث وبعد ثلاثة اشهر مات . فأتهم البطريرك بيرُّس بانهُ اشترك مع مرتيني زوجتهِ في تسميمهِ . وهاج الشعب عليهِ لاسبابٍ سياسية ايضاً . فاستعفى وهاجر الى افريقيا وهناك قام بينهُ وبين مكسيموس جدالٌ (سنة ٦٤٥) انتهى باقتناع بيرُّس ورفضهِ البدعة . ثم عُقد مجمعٌ في افريقيا حرم البدعة وكتب

للبطريرك القسطنطيني بولُس الثاني خليفة بيرُّس وهو من ذوي البدعة وتهدده بالقطع ان لم يرجع عن الهرطقة ويرفع دستور القيصر عن ابواب الكنائس * ثم ان مكسيموس وبيرُّس ذهبا معاً الى رومية . فقبلهما البابا ثاوذورُس بترحابٍ وثبّت (على زعمهِ) بيرُّس بطريركيتهُ واكرم لهُ العطاء .

وخلف قسطنطين الثالث في القيصرية ابنهُ قُسطانس الثاني (سنة ٦٤٢ — ٦٦٨) ورفعاً للخصام الذي دستور جدهِ واصدر بدلاً منهُ امراً معروفاً * بالتيبُس * (اي الرسم او المرسوم) ايهِ يمنع كلَّ تعليم بمشيئةٍ او بمشيئتين * وفي سنة ٦٤٨ توفي البابا ثاوذورُس وخلفهُ مرتينوس الاول . فعقد مجمعاً (سنة ٦٤٩) من ١٠٥ اساقفة حرم مذهب توحيد المشيئة ومخترعيهِ ودستور هرقل ومرسوم قُسطانس . وارسل اعمال المجمع الى القيصر وطلب منهُ ان يعزل البطريرك المبتدع ويقيم غيرهُ ارثوذكسياً . غير ان القيصر استعظم هذا الطلب الغير القانوني وتكدر وغضب من جسارة سلوك البابا وامر والي رايتّ اوليمبيوس بالقبض عليهِ وسجنهِ . ولكن اوليمبيوس لم يقم بالامر اذ اشهر العصيان ضد القيصر . فبعد وفاتهِ سنة ٦٥٣ كرر القيصر امرهُ لخليفتهِ ثاوذورُس كاليوباس . فقبض على البابا وسجنهُ . واذ لم يعدل عن رأيهِ قيّدهُ بالسلاسل وارسلهُ الى القسطنطينية هو ومكسيموس معاً وهناك حكموا عليهِ باشتراكهِ في العصيان مع اوليمبيوس ونفوهُ . وبعد شدائد قاسية انتقل (سنة ٦٥٥) . وقد قاسى المتوحد مكسيموس عذاباتٍ اشد من عذابات مرتينوس واستعمل القيصر كل الوسائط بالرجاء والاوعاد والتهديدات والسجن والجوع والعطش ليقنعهُ ان يختم على مرسومهِ فلم يقتنع . فغضب عليهِ وامر بوضعهِ تحت السياط وقطع لسانهِ ويمينهِ ثم نفاهُ فمات في المنفى (سنة ٦٦٢) . فنظراً لهذه القساوة ساد الخوف في قلوب الجميع ولكن كلُّ واحدٍ على ما كان

في ضميره وكان يخشى من فتن وقلاقل جديدة تصديقاً لقول من قال :

وإنَّ الجرحَ ينفر بعد حين اذا كان التشفاء على فساد

اما بيرُس فبعد ان رُفض بدعته كما تقدم الكلام عاد اليها بعد مدة (١) . ثم جاء الى القسطنطينية نحو سنة ٦٥٢ وصدف ان مات البطريرك بولس فنُصّب بيرُس ثانية على الكرسي وبعد خمسة اشهر مات مبتدعاً وخلفه بطرس المبتدع مثله (من سنة ٦٥٢ الى سنة ٦٦٥) . وفي رومية خلف مرتينوس البابا اوجانيوس ثم البابا ويتاليانوس ولم يقاوما القيصر ولا البطريرك المبتدع فأُعيد اسم البابا ويتاليانوس الى ذبتيخا الكنيسة بصفة مشترك معها لعدم مقاومته اياها. وفي سنة ٦٦٢ ذهب القيصر الى رومية فاستقبله البابا ويتاليانوس بغاية الاكرام والاحتفال (٢) . غير ان شعب القسطنطينية تكدر من سفره الى تلك الجهات وقام ضدّه ولم يسلم بارسال امراته واولاده اليه . وبعد ست سنوات قُتل في سيراكوسا من احد اتباعه . وفي مدة غيابه كان ابنه قسطنطين يسوس المملكة في الشرق وهو بعد فتى . فلما علم بقتل والده الف اسطولاً وجمع جيشاً وذهب وانتقم من القاتل ورجع والشعر نابت في وجهه فلُقّب بالمشحي او المحياني .

وبعد البطريرك المبتدع بطرس قام بالتتابع ثلاثة بطاركة ارثوذكسيون

(١) ورد في التاريخ ان البابا اونوريُس لما سمع بان بيرُس رجع الى بدعته عقد مجمعاً حرمه . ولكي يكتب قرار المجمع سكب من الدم المقدس في دواته وكتب به الحرم . فمع اعترافنا بغيرة هذا البابا الدينية لا يسعنا الاّ ان نعتبر عمله هذا فاعظياً (٢) يُقال ان سبب سفره كان عن كره من القسطنطينية لانهُ اساء الظن باخيه ثاوذوسيوس فأراد توب الرهبنة ثم قتله . وبعد قتلهِ اياهُ اخذ ضميره يلومهُ لوماً شديداً حتى كره ان يرى المدينة التي ارتكب الاثم فيها فخرج عنها . وهذا القيصر هو الذي اورده المواعظ الشهير البابا المياني انهُ كان يرى اخاهُ حاملاً كاساً من دمهِ ويقول لهُ « يا اخي اشرب ».

وهم نوما ويوحنا وقسطنطين ثم خلفهم ثاوذورُس (سنة ٦٧٦) وكان ارثوذكسياً . وقد محا اسم ويتاليانوس من الذبتيخا بعد انهُ أُعيد من بطرس المبتدع كما تقدّم . ولاح ان الشركاد تجدد . غير ان القيصر عزم ان يحسم النزاع بعقد مجمع مسكوني . واذ كانت البلاد التي لاجل ملافاة عصيانها وخروجها عن طاعة المملكة كُتب كتاب اتحاد زينون وحكم يوستينيانوس على الفصول الثلاثة ودستور هرقل ومرسوم قسطانس قد دخلت في حكم المفتحين ولم تعد هناك غاية من التساهل للمبتدعين اخذ القيصر يستميل الارثوذكسيين ويسعى في انضمامهم . فمنح لاسقف رومية سلطة على ميتروبوليت رافينا . ثم عزل ثاوذورُس ملافاةً للانشقاق واقام البطريرك جاورجيوس في محله (سنة ٦٧٨) * وفي هذه السنة قام على كرسي رومية البابا اغاثون بعد البابا دن اذيوداتوس (سنة ٦٧٢) ودمنوس (سنة ٦٧٦) خليفتي ويتاليانوس . فاشهر القيصر عزمهُ في عقد المجمع وكتب للبابا ولسائر الاساقفة يدعوهم اليهِ . وفي رسالتهِ الى البابا قال « واذ اراد بعضٌ ان يحركوا المسألة موضوع التنازع في عقيدة حسن العبادة بين فريق كنيستكم الجزيلة القداسة وكنيسة الله العظيمة التي هنا الجزيلة القداسة وان يخاصموا فيها نحن منعناهم لان الوقت لا يسمح . لعلمنا ان الاتحاد لا يمكن حصولهُ بالنزاع من الفريق الواحد وان الشر يعظم . وانا حين يتوفق لنا وقتٌ مناسبٌ نجمع مجمعاً عاماً من الكرسيين ... ولما كان الزمان لا يسمح بالاجتماع الكامل نفوض الى غبطتكم الابوية بطرسنا هذا الموقر ان ترسلوا رجالاً نافعين وودعاء لهم معرفة بكل كتاب مُنزَل وخبرة كاملة بالعقائد ليشخصوا كرسيكم الرسولي . وليكن الامان بطرسنا هذا الحسن الايمان الذين يحضرون من طرف كرسيكم الرسولي . لاننا قسماً بالله الضابط الكل ليس عندنا شيء من المحاباة البتة بل اننا

سنحافظ على المساواة بين الطرفين » .

فلما اخذ البابا كتاب القيصر عقد مجمعاً (سنة ٦٧٩) من ١٢٥ اسقفاً ايَّد قرار مجمع مرتينوس السابق ذكرهُ وانتخب القسيسين ثاوذورس وجاورجيوس والشماس يوحنا نواباً عنهُ وعن البابا وارسلوا معهم قرارهم والتحاريز اللازمة الى القسطنطينية . وكان البابا يسمّي القيصر في جوابهِ لهُ «ابناً وسيداً» ويسمي نفسهُ «عبداً لهُ» . وقد كتب في ما كتبهُ يقول : «اننا قياماً بامركم الجزيل نقواهُ اعتنينا بان ارسلنا شركاءنا في العبودية الذين نرسلهم بتكريس قلبٍ مستعطفٍ لا لانهم قادرون بمعرفةٍ زائدة بل لاجل الطاعة الواجبة علينا . لان الذين هم مقيمون في وسط الامم وبشقاء الجسد وبحيرةٍ عظيمةٍ يحصّلون غذاءهم كيف يمكن ان تكون لهم معرفة كاملة بالكتب ؟ (١) . فالناسوي ان نحفظ ببساطة قلبٍ ما هو محدَّد قانونياً من القديسين السابقين والمجامع الخمسة المقدسة ومن الايمان المسلَّم بلا شكٍّ من الآباء ونتحرى بنوعٍ خصوصيٍّ ونسعى في ان نكون على امرٍ واحدٍ وهو ان لا ينقص ولا يُغيَّر شيءٌ مما حُدِّد قانونياً ولا يُزاد عليهِ شيءٌ بل ان يُحفَظ كلُّ شيءٍ بلا تحديثٍ سواءٌ كان في لفظهِ او في معناهُ » . وفي الرسالة المجمعية منهُ ومن اساقفة الغرب الى القيصر قال «نحن جميعاً احقر رؤساء كائس المسيح وعبيد دولتكم المسيحية الحقيقية المقيمين في جهات الغرب والشمال وان كنا قليلين وبسطاء في المعرفة لكننا بنعمة الله ثابتون في الايمان ... لكي يشرق بهِ في قلوب الجميع النور المشعشع نور ايماننا العلم الرسولي الذي بعونة

(١) هنا يسلفت انتباه القارئ الى تعبير الغربيين كائس الشرق ودعواهم عليها بالسقوط لتفهر احوالها ونجيم من فم هذا البابا القديس * على ان الشرق وان كانت احواله قد تقهقرت لم يخلُ منهُ رجال متاصلوا عن الايمان المستقيم في كل عصر كما يشهد التاريخ

الله حُفظ من ينبوع النور الحقيقي بالخادمين المغبوطين بطرس وبولس هامتي الرسل بمثابة اشعةٍ من المصباح المحيي وبتلاميذهما وخلفائهما الرسوليين الى ايام حقارتنا بالتدريج » . وكان ملخص هذه الرسالة من البابا هكذا «انا اغاثون اسقف كنيسة الله المقدسة الجامعة والرسولية التي في رومية بناءً على اعتقادي ما تضمنهُ هذا المعروض المفرَّج اعلاهُ امضيتهُ مع هيئة مجمع الكرسي الرسولي كلهِ الذي اجتمع من اجل استقامة الاعتراف الرسولي» وبعده امضى سائر الاساقفة.

فالشرقيون يبدون على ما تقدم ملاحظاتٍ كثيرة نلخصها بما يأتي :—

١ . ان البابا اونوريوس قد كان ومات في مصف الهرطقة . وهذا ينقض الدعوى بالعصمة وما يتبعها — ٢ . ان البابا ثاوذورس باستعمالهِ الدم المقدس بدلاً من الخمر قد خطئ خطيئةً عظيمةً — ٣ . ان البابا مرتينوس ومجمعهُ قد اصاب في حكمهِ على الهرطقة ولكنهُ اخطأ في فظاظة السلوك فتح بدل الخير شرٌّ . واذ تخطّى خارج حدودهِ اعتُبر عملهُ تعدّياً ولم يثمر طابعهُ عزل بطريركٍ ليس لهُ حقٌّ بعزلهِ ولا بتنصيبهِ — ٤ . ان تخاصم الكرسيان كرسي رومية وكرسي القسطنطينية قام القيصر يسلمها وامر ان اجتمع مجمع مسكوني لم يرأسهُ اسقف رومية — ٥ . ان القيصر معا بذل من المسايرة لاسقف رومية لم يعتبر اسقف القسطنطينية اقلَّ من مساوٍ لهُ . وقد سمّى كنيسة رومية كنيسة جزيلة القداسة وكنيسة العاصمة كنيسةً عظيمةً جزيلة القداسة . ولكي يرفع كل شكٍّ في حفظهِ المساواة وعدم تفضيلهِ كرسي القسطنطينية على كرسي رومية اكد قولهُ بقسمٍ . فاين هذا القول من الدعوى الغربية ؟ — ٦ . البابا اغاثون نفسهُ يعترف بانهُ «يقوم بامر القيصر وانهُ يقدم واجبات العبودية لهُ ويستعطفهُ ويطيعهُ وجوباً وانهُ والمجمع عبيدٌ لدولتهِ ويسمي كتابهُ وكتاب المجمع لهُ معروضاً» وهذا كلامٌ لا يحتاج الى اكثر

منهُ من فم وقلم بابا جليل ومجمعهِ لدحض الدعوى الغريبة — ٧ · ان غاية ما تمناهُ هذا البابا القديس المحافظة لفظاً ومعنىً على ما رسم قانونياً بلا زيادةٍ ولا نقص · فاية حجةٍ تقوم للغربيين لدى هذه الشهادة ضد زيادتهم في دستور الايمان وتغييرهم اياهُ لفظاً ومعنىً ؟ — ٨ · البابا اغاثون نفسهُ يعترف بانهُ خليفة بطرس وبولُس معاً لا بطرس فقط ويسمي الاثنين بالسوية عامتين ويسمي نفسهُ واحداً من رؤساء الكنائس في الشمال والغرب يعني افريقيه وايطاليا اسوةً بسائر رؤساء الكنائس وهذه شهادة مهمة من فم وقلم بابا جليل في رسالةٍ الى قيصر عظيم تنقض الدعوى الغربية من اصولها ولا محالة — ٩ واخيراً · نؤكد هذا البرهان ببرهانٍ ثانٍ من امضاء البابا حيث يسمي نفسهُ اسقف كنيسة الله المقدسة الجامعة الرسولية لا في كل مكانٍ بل في رومية كما ان كل اسقفٍ هو في ابرشيتهِ اسقف كنيسة الله المقدسة الجامعة الرسولية ··

---

٣ · المجمع المسكوني السادس وملحقهُ

في سنة ٦٨٠ عُقد في القسطنطينية المجمع المسكوني السادس في قاعة البلاط المسماة « اطروُس » (اي قاعة القبة) مولفاً من ١٧٠ اسقفاً على رواية ثانية من ٢٨٩ اباً (١) · وفي مقدمتهم البطريرك القسطنطيني جاورجيوس واستفانوس مطران هرقلية من مشاهير علماء عصرهِ ويوحنا مطران اثينا مثلهُ · وكان البطريرك الانطاكي مكاريوس من المنتصرين للهرطقة · وكان ينوب عن مجمع الغرب

(١) يذكر الون صفحة ١٣٠ وتاريخ بابار بغوبولُس جزء ٢ صفحة ٢٥٦ · وتاريخ ملانيوس قرن ٧ فصل ١٢ و ٦٠ وربما الفرق في العدد ناشئ عن ان بعضهم عدَّ الاساقفة فقط والآخرون عدوا جميع الآباء والله اعلم ·

الثلاثة المذكورون قبلاً وعن كنيسة اسكندرية نفس بطرس وعن كنيسة اورشليم نفس جاورجيوس · فجلس القيصر في صدر المجمع وعن جانبيهِ مجلس قضاة الدولة ثم جلس عن يسارهِ نوَّاب البابا والمجمع الغربي ونائب بطريرك اورشليم · وعن يمينهِ جلس البطريرك القسطنطيني جاورجيوس ثم الانطاكي مكاريوس ونائب بطريرك اسكندرية ثم سائر الاساقفة من الجهتين · وكان الانجيل المقدس في الوسط · وقد اجتمع المجمع ثماني عشرة جلسة برئاسة البطريرك القسطنطيني جاورجيوس حضر القيصر منها الاحدى عشرة الاولى والجلسة الاخيرة · ففي الجلسة الاولى قام نوَّاب البابا وقدموا الدعوى كما في المجمع الرابع المسكوني · ولكن الفرق بين لهجتهم هنا ولهجتهم هناك كان عظيماً جداً · لانهم لم يقولوا كما قال سلفاؤهم هناك « انا مامورون من اسقف مدينة الرومانيين الرسولي الجزيل الحظة الذي هو رأس جميع الكنائس » بل وجهوا خطابهم الى القيصر وقالوا لهُ « ايها السيد الكلي الخير · انا بحسب المرسوم الصادر من دولتكم المحكَّمة من الله الى بابا الجزيل القداسة قد أرسلنا من طرفهِ الى المواطئ الكلية التقوى مواطئ حلمكم المؤيَّد من الله ومعنا معروض منهُ ومعروض آخر مجمعي من الاساقفة الجزيل برهم اخاضعين لهُ برسم تقواكم الخصص من الله · وقد سلمناها الى دولتكم ذات الوقار السامي · ثم انهم شكوا من الهرطقة ومخترعيها ومن البطاركة سرجيوس وبيرُس وبطرس وكيرُس وغيرهم منذ ٤٦ سنة او اكثر وبعد ذلك قالوا · وبما ان عبدكم كرسينا الرسولي قد رفض ذلك مرارً كثيرة وبعدهُ ترجَّى ولم يستطع الى الآن ان يبعد هذا الرأي الردي نسأل دولتكم المتوجة من الله ان يقول رجال كنيسة القسطنطينية الجزيلة القداسة اين وُجد هذا التعليم الجديد ؟ » — فاجابهم مكاريوس بطريرك انطاكية نصير البدعة

في ذلك الوقت وقال «انهُ موجودٌ في جامع اشهر الآباء وبطاركة القسطنطينية ومعتقدات كيرُس الاسكندري والبابا اونوريوس» . فطلب القيصر البينة على ذلك فأُحضرت اعمال المجامع وفي الجلسات الخمس التالية قُرئت . وقد وُجدت رسالةٌ مزوَّرة عن لسان البطريرك ميناس الى البابا ويجيليوس استند عليها مكاريوس فقاومهُ نواب رومية وظهر فسادها . ومثل ذلك عباراتٌ كثيرة من الآباء مبتورة ومحرَّفة — وفي الجلسة السابعة قدم الرومانيون بيناتهم فدُفعت الى البطريرك جاورجيوس وبعض الاساقفة ليفحصوها — وفي الثامنة قام البطريرك جاورجيوس وشهد بصحة تلك البينات وموافقتها التعليم الصحيح ومثلهُ سائر الاساقفة . ثم طلب البطريرك جاورجيوس اعادة اسم البابا وبتا يانوس الى الديبتيخا فأُعيد . ثم سُئل مكاريوس واساقفة سوريا عن موافقتهم . فالاساقفة وافقوا ولكن مكاريوس عترف بمشيئتين وانكر الفعلين مفضلاً الموت مقطعاً او غريقاً على الموافقة . فقطعوهُ من درجتهِ في الجلسة التاسعة ونفي وشُرطن البطريرك الارثوذكسي ثوفانيس بدلاً منهُ — وفي الجلسة الثالثة عشرة حكم بالحرم على سرجيوس وبيرُس وبطرس وبولُس بطاركة العاصمة وعلى كيرُس بطريرك اسكندرية واونوريوس بابا رومية وثاوذورُس اسقف فاران — وفي الخامسة عشرة حضر قيسٌ متوحدٌ اسمهُ بونيخرونيوس ادعى انهُ راى في حلم ملائكةً سماويين وفيهم رجلٌ عظيم الجلال اوصاهُ ان يذهب الى القيصر وينذرهُ بان لا يعتقد الاَّ بمشيئةٍ واحدة وانهُ تصديقاً لقولهِ يستطيع ان يقيم الميت . فبناءً على دعواهُ خرج الاساقفة والروساء والشعب الى ساحة الحمام العام ووُضع امامهُ ميتٌ على نعشٍ من فضة فوضع عليهِ اعتراف ايمانهِ وكان يبقيت ساعاتٍ ولم يستطع شيئاً حتى نخر به الشعب ولعنهُ وقطعهُ المجمع وحرمهُ —

وفي الجلسة السادسة عشرة قطع ايضاً قسطنطين قس كنيسة ابامية (فاميه) — وفي السابعة عشرة صُدِّق على اعمال المجامع السابقة ودستور الايمان بلا زيادة ولا نقصان وحُرم المعتقدون بالمشيئة الواحدة والفعل الواحد — وفي الثامنة عشرة في ١٦ ايلول سنة ٦٨١ قُرئ اعتراف ايمان المجمع «بمسيحٍ وابن وربٍ ووحيدٍ واحدٍ هو هو نفسهُ بطبيعتين ... واقنوم وشخص واحد . وبمشيئتين طبيعيتين وفعلين طبيعيين بلا انقسام ولا تغير ولا تجزؤ ولا اختلاط ... وليست المشيئتان متضادتين . حاشى ! ... بل المشيئة البشرية تتبع بلا مقاومة ولا ممانعة وتخضع لمشيئتهِ الالهية القادرة على كل شيء» . وقد قُرِّر ايضاً احصاءً رسالة صفرونيوس بطريرك اورشليم الى سرجيوس في اعمال المجمع وفي اختام دعا آباء المجمع لبطاركة الارثوذكسيين ولم يميزوا في دعائهم بطريركاً عن بطريرك بل قالوا في المجمع «انا ندعو بالسنين الكثيرة لاغاثون بابا رومية وجاورجيوس وثاوفانيس بطريركي القسطنطينية وانطاكية وللمجمع والمجلس الارثوذكسي» . وفي دعائهم للقيصر سموهُ عمود الكنيسة فقالوا «انا ندعو للقيصر نصيرا الارثوذكسية وعمود الكنيسة وحارس الايمان» . ثم طلبوا من القيصر التصديق على خمس نسخ لاعمال المجمع تُحفظ في مراكز البطاركة الخمسة وكتبوا رسالةً للبابا اغاثون طلبوا منهُ بها ان يصدق هو ايضاً على الاعمال كالعادة يعني ان يؤكد موافقتهُ بامضائهِ . وكان في تلك الاعمال حرم البابا اونوريوس بهذه الالفاظ «وانا لحرم اونوريوس الذي قام بابا على رومية القديمة لانا وجدناهُ في تحاويره الى سرجيوس تابعاً في كل شيء لرأيهِ وموافقاً على عقائدهِ الكفرية» . وقد صدَّق البابا اغاثون على هذا الحرم بقبولهِ اعمال المجمع وصدَّق عليها خليفتهُ ايضاً البابا لاون الثاني وغيرهُ بعدهُ .

فهنا برهانٌ اوضح من كل واضح يدحض دعوى اخوننا الغربيين على الخبر الروماني بالعصمة والسلطة وما جرى مجراها. ويصرّح بعريض العبارة ان بابا رومية سقط في خطإٍ في الايمان وحرم من مجمعٍ مسكونيٍّ ومن البابوات خلفائه انفسهم. فاي برهانٍ يريدون اعظم من هذا البرهان على زهوق دعواهم؟ على انهم قد حركوا كل ساكنٍ لكي يخفوا هذا الخبر عن البابا اونوريوس ولا يسمعوا ان الخبر الاعظم عندهم المعصوم من الخطإ على زعمهم قد ظهر هرطوقياً محروماً من مجمعٍ مسكونيٍّ. فتارةً تراهم يخطّئون المجمع بلا خشيةٍ وتارةً يفسرون اعتقاد اونوريوس على خلاف معناه. ولكنّ الشرقيين لا يزالون مستندين على شهادة المجمع المسكوني المقدس الذي شهادته لا يمكن ان تسقط. ويؤيدون حرم البابا اونوريوس من هذا المجمع ومن المجمع السابع ايضاً في الجلسة السادسة. ومن المجمع الذي بعده المعروف عند اللاتين بالثامن في الجلسة العاشرة ومن شهادات البابوات ايضاً. فالبابا لاون الثاني خليفة اغاثون (سنة ٦٨٢) قد صدّق على حرم اونوريوس وكتب للقيصر يقول «انا نحرم منشئي الضلال الجديد ثاودورس الفاراني واونوريوس الذي لم يزين هذه الكنيسة الرسولية بتعليم التسليم الرسولي بل سمح بالعادمة المدنس ان تدنس بالتعليم المدنس». والبابا ادريانوس الثاني في القرن التاسع قال «ان كرسي رومية لا يحاكم من احدٍ الا متى كان انحدر على هرطقةٍ. ولهذا السبب حرم اونوريوس». والبابا اغاثون نفسه في تحاريره الى القيصر قسطنطين المنتحي شهد باونوريوس انه هرطوقيٌّ. فهل يمكننا ان ندّعي على ذلك المجمع وهولاء البابوات بالظلم ضد اونوريوس؟ وكيف امكن ان يسلم نواب البابا على حرم اونوريوس وهم حاضرون في المجمع وموافقون له ولم يعترضوا على قراره؟ وكيف وافق القيصر قسطنطين على ذلك القرار وختمه

بختمه وصدّق عليه بامضائه وقد كان رجلاً فاضلاً وصديق الرومانيين لا يمكن ان يثقل ذمته بظلمٍ؟ فبلا شك ان الله الذي نطق بفم المجمع هو اصدق من كل محرّفٍ لاقواله ومدّعٍ على اعماله». وقد ورد لاحدهم في هذا الباب برهانٌ ذو حدّين نذكره انما للفائدة فقال: ان اونوريوس قد كان اما هرطوقياً او غير هرطوقي (اي ارثوذكسياً). فان كان هرطوقياً فقد اخطأ في الايمان وحلّ المشكل. وان كان ارثوذكسياً فقد اخطأ البابا لاون وادريانوس بحكمهما عليه بالهرطقة وحرمهما اياه ظلماً وحلّ المشكل. وعلى كل الاحوال لا يفات البابوات من الخطإ لا على الوجه الاول ولا على الوجه الثاني. هذا فضلاً عن ان البابا مركلينوس قد سقط ايضاً في عبادة الاصنام والبابا ليباريوس في هرطقة آريوس والبابا انسطاسيوس الثاني في مساعدة الاريوسيين كما راي[1].

ثم ان التحاريز التي تبادلت بين البابوات والقيصر والمجمع تشهد بمساواة الاساقفة وامتياز المجامع عن افرادهم خلافاً لدعوى الغربيين. ففي رسالة المجمع الى اساقفة الغرب باسمهم والبابا معاً «جزيلي المحبة» ويسمي البابا «صاحب اول كرسيٍّ في الكنيسة المسكونية» ولا ذكر لرأسٍ عليها كلها. وفي الامر الذي علّقه القيصر على تركّس كنيسة القديسة (اجيا) صوفي قال «فان المخلص اوضح لك الاعتراف السريّ به وبالآب والروح القدس بمثابة صخرةٍ عالية... وعلى هذه الصخرة قد وضعنا اسس فكرنا وقد اقمنا اتقفنا عليها بثبات ونؤمر تبعتنا ان يتمسكوا بعروتها». فواضحٌ هنا ان الصخرة هي الاعتراف المستقيم لا شخص واحدٍ من الرسل ولا من غيرهم. ثم يقول انه يقبل ويحترم المجمع الخمسة المسكونية السابقة ويذكر ان متقدمي المجمع الثالث كان «كليستينوس وكيرلس

(١) راجع صفحات ٤٠١ و١٢٥ و٢٧٢ و٢٧٣ من اليد الليون

الذين حكام والسيد المسيح ... على نسطوريوس » خلافاً لدعوى اخوتنا الغربيين ان كيرلس كان وكيلاً عن البابا * وفي تحريره الى البابا لاون قال « اننا نجتهد في ان نأتي برعيتنا المسيحية الى السلام والانضمام وخصوصاً بهتم في انتظام كنائس الله المقدسة ... وبحسب دعوتنا وامرنا قد اجتمع الذين من طرف غبطتكم والبطاركة الجزيلو القداسة الذين بعدكم المساوون لكم في الكرسي وسائر الاساقفة الجزيل برهم وجالسوا حاضرا انجب التقوى وكنا نتذاكر في موضوع الايمان » وهنا ايضاً يتضح المساواة وحصر تقدم البابا في الجلسة فقط ولا ذكر لرأس ولا لرئيس فوق البطاركة . وبعد ذلك يقول ايضاً « هذا ما اتممناه باذن الله وفقاً للغاية وجمعنا خراف المسيح رعية واحدة فلن تخدع بعد الان من المستأجرين ومن الذين ليسوا رعاة ولن تكون بسبب ذلك صيداً للذئاب . بل يرعاها الراعي الصالح الواحد الذي انتم ايضاً اتممتم شركاء في رعايتها وأسرعتم ان تضعوا انفسكم عن الخراف » . وهنا ايضاً يتضح ان القيصر هو الذي جمع الرعية بواسطة المجمع تحت رعاية الراعي الواحد يعني المسيح وان اسقف رومية شريك في رعاية الرعية لا مستقل كما ان بطرس كان شريكاً للرعاة [1] .

وفي عهد المجمع السادس طلب نواب البابا من القيصر في العاصمه تخفيض المبلغ الذي يدفع حين رسامة البابوات وكانت الغاية الجوهرية من تعيينه ربط القياصرة انتخاب البابوات بمعرفتهم ربطاً رسمياً بجزية معينة لتكون لهم ثقة بامانة الشخص المنتخب وثبوته . فعقد كرسي رومية منذ ورسم البابا لاون الثاني خلية اغاثون . بمجرد معرفة القيصر وبلا نقود . ولم ترد مدة رئاسة لاون الثاني عن سنة واحدة وخمسة اشهر فخلفه البابا بنيديكتس الثاني السوري

(1) ١ بط ٥ : ١ — ٣

الوطن . قال بعضهم وقد طلب بنيديكتس من القيصر تمام الحرية لاكليرس وشعب رومية في انتخاب البابوات ورفع تثبيت مداخلة القيصر وولاة ايطاليا فسمح له بذلك . غير ان هذا الاحسان لم تطل مدة استعماله حتى ظهر انه لم يوافق الرومانيين . لان بنيديكتس توفي بعد سنة واحدة من رئاسته فخلفه البابا يوحنا الخامس وكان سوري الوطن ايضاً وبعد سنة وثلاثة اشهر توفي سنة ٦٨٥ وفيها توفي القيصر قسطنطين الخيالي ايضاً وخلفه القيصر يوستينيانوس الثاني . وفي ايامه حصل شقاق في رومية بسبب انتخاب البابا فبعضهم انتخب رئيس قسوس اسمه بطرس والآخرون انتخبوا قساً اسمه ثاوذورس . واذ لم يتفقوا أقيم شخص ثالث اسمه كونن تركي الوطن (سنة ٦٨٠) وبعد سنة توفي فاتفقوا ايضاً شطرين احدهما انتخب ثاوذورس رئيس القسوس والآخر انتخب الارشيدياكون بسكالیوس وبعد مشاجرات طويلة اتفق الحزبان على شخص ثالث اسمه سرجيوس سوري الوطن (سنة ٦٨٧) . ومن هذه الحوادث اضطر القيصر يوستينيانوس الثاني ان يلغي الامتياز الذي منحه والده * وفي القسطنطينية بعد البطريرك جاورجيوس أعيد البطريرك المعزول ثاوذورس (سنة ٦٨٤) وفي سنة ٦٨٦ خلفه البطريرك بولس الثالث وهو من كتّاب القيصر الخصوصيين وقد انتخب بطريركاً وهو علماني * وفي ايامه وايام البابا سرجيوس (سنة ٦٩٢) اجتمع بامر القيصر يوستينيانوس مجمع مسكوني ليس له عدد خاص في عقد المجامع بل كان ملحقاً للمجمعين الخامس والسادس على رأي بعضهم والاصح للمجمع السادس فقط لانه لم يؤلف اعترافاً للايمان خاصاً بل صدق على اعتراف المجمع السادس . وكان مجتمعاً في قاعة طرولس نفسها التي كان فيها المجمع السادس ومؤلفاً من ٢٢٧ وعلى رواية ثانية من ٢٤٠ اسقفاً اكثرون منهم كانوا في المجمع

السادس الذي لقدم هذا المجمع بعشر او باحدى عشرة سنة . وقد سنّ مائة قانون وقانونين تتعلق بنظام الكنيسة داخلاً وخارجاً وبالعيشة المسيحية لم تزل الى ايامنا . وبما ان تلك القوانين رفضت وثبتت عوائد اصطلحت عليها الكنيسة الغربية وهي ممنوعة من القوانين السابقة الى البابا سرجيوس قبولها وقبول المجمع. فمن ذلك انها ثبتت وحرمت إجبار القسوس والشمامسة على ترك زوجاتهم اصلاحاً لمخالفة الرومانيين القانون الخامس للرسل باصطلاحهم على تلك العادة. وحرمت صيام السبت [1] اصلاحاً لمخالفة الرومانيين القانون ٦٤ من قوانين الرسل المحرّم صوم السبت ما عدا السبت العظيم . وثبتت تسوية امتيازات البطريرك القسطنطيني بالروماني وفقاً لقوانين المجمعين المسكونيين الثاني والرابع [2].

(١) قانون ٥٢ حيث قالوا « بما انا علمنا انها تُراعَى عادةً في كنيسة الرومانيين لما حكم قانون وفي ان العازمين ان يواقعوا المشرطونية شمامسةً او قموساً يعترفون بانهم لا يقترنون بعد ذلك بزوجاتهم . نحن نريد تبعاً لقانون التدقيق والترتيب الرسولي ان تكون زيجات الرجال المشكيين الشرعية ثابتةً بعد هذا الوقت ايضاً ولا تحل اقترانهم بزوجاتهم البتة . ولا نحرمهم من مجامعتهم بعضهم لبعض في الاوقات المناسبة . . . فكل من يتجاسر ان يقوم ضد القوانين الرسولية ويحرم احداً من المتكهين نعني القسوس والشمامسة والاسبوذياكونة ان يقترن ويجامع زوجته الشرعية يُقطَع . وكذلك كلّ قسّ او شماس يترك امرأته بعلة التورّع يُحرَم . وان اصرّ على ذلك يُقطع » (٢) قانون ٥٥ حيث قالوا « بما انا علمنا ان سكان مدينة رومية يصومون السبت في صوم الاربعين المقدّس خلافاً للتقليد الكنائسي المتسلسل رأى المجمع المقدس ان يُراعَى في كنيسة رومية ايضاً مراعاةً ثابتة القانون القائل : كل اكليريكي يوجد صائماً يوم الاحد المقدس او السبت ما عدا السبت الواحد يُقطع ، وان كان علمانياً يُحرَم » . قلت : فاذا نقول في الذين يصومون سبوت السنة كلها ؟

(٣) قانون ٣٦ حيث قالوا « انا نجدد ما اشترع من الآباء القديسين المائة والخمسين الذين اجتمعوا في هذه المدينة المملكة المحروسة من الله والسمائة والثلاثين الذين اجتمعوا في خلكدون . . فلزم ان يكون لكرسي القسطنطينية المتقدّم اسوةً بمتقدم كرسي

ومن الواضح ان هذا المجمع لم يتعدَّ على كنيسة رومية بشجبه تلك العوائد بل انما جدد حرم اعمال محرّمة من القوانين السابقة الرسولية والمجمعية وقد داسها الرومانيون بممارستهم تلك الاعمال . فلا يمكننا والحالة هذه ان نوافق معترضاً من اخوتنا اللاتين على قوانين هذا المجمع لانها لا تقبل اعتراضاً . ولا يمكننا ان نعذرهم على رفضهم اياه لانه مجمع قانوني مثبَّت من الكنيسة المسكونية كلها في المجامع وفي مؤلفات الآباء ومن باباوات رومية انفسهم [1].

اما بدعة المشيئة الواحدة فقد اندثرت من المملكة الرومية ما عدا بقعة

رومية القديمة ويعظَّم مثلها في الامور الكنائسية بكونه ثانياً بعده . ويحسب كرسي المدينة العظيمة اسكندرية بعد هذا وبعده كرسي انطاكية وبعد هذا كرسي مدينة الاورشليميين .

(١) قال كاتب الليبللون في مقدمة هذا المجمع « ان المجمع اللاتيكني (اي الخامس السادس) او بالحري المجمع السادس المسكوني المقدس . . . كان متقدموه بولس القسطنطيني وبانيلوبس اسقف غورتيني في كريت وأسقف رابينا وهما نواب البابا الروماني ، ويوحنا الاسكندري وانسطاس الاورشليمي وجاورجيوس الانطاكي وقد اجتمع بامر ملوكيّ لا ليحض هرطقة خاصة ولا ليحدد ايماناً حتى يكون مجمعاً خاصاً قائماً بنفسه بل ليكتب قوانين ضرورية تتعلق باصلاح وحالة الكنيسة . . . وهذه القوانين قد تبنتها المجمعات الاولى والرابعة والثامنة من جلسات المجمع السابع المسكوني . والقانون الاول من قوانينه ، والالة باباوات رومه ادريانوس الاول وغريغوريوس الثاني وابونشيوس الثالث وغراتيانوس ونواب البابا في المجمع السابع . والمجمع المعروف بالاول والثاني في قانونه الثاني عشر اورد القانون ٢١ منها . وكذريوس ، ويوحنا الدمشقي . . . وعلماء القوانين وفوتيوس ، وامضاوات الملك ، ونواب اسقف رومية والبطاركة والآباء الذين كانوا فيه وبالاجمال كل الكنيسة الجامعة » ثم يورد شهادات الباباوات ادريانوس الذي يسمي جميع هذه القوانين شرعية وإلهية . والبابا غريغوريوس الذي يسمي المجمع محفلاً مقدساً ويعترف بان القوانين كتبت بمشيئة الله . وشهادة البطريرك طاراسيوس والمجمع السابع الذي يثني على كل شيء فيها (صفحة ١٢١ ، قابل فوتيوس صفحة ٦٠٣ — ١٦١٨)

في جبال لبنان حيث انتصر بها الراهب يوحنا مارون من رهبان دير القديس مارون الشهير عند نبع نهر العاصي ودافع عنها. فتبعته طائفة معروفة بالمارونية من اسمه وقام هو ول اسقف عليها. وقد حافظت على الاعتقاد بطبيعتين ومشيئة واحدة وعلى استقلاليتها المدنية الى ايام الصليبيين فجعت كرسي رومية (سنة ١١٨٢) كما لم تزل الى ايامنا.

وخلف البطريرك يوحنا الثالث في العاصمة البطريرك كالينيكوس الاول (سنة ٦٩٤). وكان القيصر يوستينيانوس يرتكب اعمالاً قاسية ويباشر مشروعات مكلفة ويوظف رجالاً عتاة ظالمين فبغضه الشعب. وفي سنة ٦٩٤ طلب ان يهدم كنيسة السيدة ليقيم في مكانها بناية فخمة وكلف البطريرك ان يصلي عليها قبل هدمها. فاجابه البطريرك «انما لاجل بناء كنيسة فعندنا اثنين. ولكن لاجل هدم كنيسة ليس عندنا اثنين». غير ان القيصر اجبره بالقوة. فوقف ودموعه تسيل وصلى هذه الصلاة قائلاً «الحمد لله الطويل الاناة كل حين الآن وكل اوان والى دهر الداهرين». وفي السنة التالية قام الشعب عليه وفي مقدمته القائد لاونديوس وانزوه عن كرسيه وقطعوا انفه ونفوه الى سيبسطوبول واقاموا لاونديوس قيصراً. وفي سنة ٦٩٨ جاء القائد عبسيمروس ضد لاونديوس وغلبه وقطع انفه وارسله الى دير وقام هو قيصراً وسمي طيباريوس. ولكن في سنة ٧٠٥ رجع يوستينيانوس الاجدع ومعه جيش من البلغار وفتح العاصمة وقتل لاونديوس وطيباريوس شنع قتل. وقبض على البطريرك كالينيكوس وقلع عينيه ونفاه الى رومية واقام بدلاً منه راهباً اسمه كيرس وشنع من الاعمال ما لا تطيق سمعة اذن. ففي سنة ٧١١ جاء ضده فيليبيكوس الارداني وقتله وقتل ابنه طيباريوس وصار هو قيصراً. واذ كان

من اتحاب المشيئة الواحدة عزل البطريرك كيرس الى دير واقام بطريركاً اورطوذكسياً اسمه يوحنا السادس وعقد مجمعاً (سنة ٧١٢) اجبر اساقفته ان يحرموا المجمع السادس وحرق اعماله. ولكن في السنة اللاحقة سنة ٧١٣ اتفق قائدان من القواد وعزلاه وقلعا عينيه واقام الشعب رئيس كتاب المملكة ارتاميوس قيصراً وسماه انسطاسيوس الثاني. وبعد ضبطه زمام المملكة عقد مجمعاً ايد قرارات واعمال المجمع السادس وقطع وعزل البطريرك يوحنا واقام البطريرك جرمانوس مينروبوليت كزيكوس بدلاً منه (سنة ٧١٥) وقلع اعين القائدين المذكورين ونفاهما. وكان رجلاً حكيماً وقيصراً ماهراً. وفي سنة ٧١٦ اشهر قسم من العسكر العصيان ضده وانتخبوا بدلاً منه رجلاً اممياً اسمه ثاوذوسيوس اجبروه على قبول الملك. فعارض انسطاسيوس الخطر استعفى وطلب الامان واقام راهباً في دير. وبعد سنة جاء القائد لاون الايصوري ضد ثاوذوسيوس فاستعفى له وطلب الامان وذهب الى افسس هو وابنه وعاش رهباناً. وهذا هو لاون الذي شرع في حرب الايقونات الذي انعقد بسببه المجمع المسكوني السابع موضوع كلامنا في القرن الثامن[1].

الفصل الثامن

في علاقات الكنيسة في القرن الثامن

١ - البابا وحرب الايقونات قبل المجمع السابع

في سنة ٧٠١ قام البابا يوحنا السادس ليوناني الجنس خليفة للبابا سرجيوس

(١) تاريخ بابا رومية بولس جزء ٣ وسلسلة جدعون والتواريخ الكنائسية.

ثم البابا يوحنا السابع (سنة ٧٠٥) وكان مثله يونانياً وبعده البابا سيسينيوس السوري (سنة ٧٠٨) ثم البابا قسطنطين السوري في السنة عينها. وقد دعا القيصر يوستينيانوس هذا البابا الى القسطنطينية لاجل التصديق على قوانين المجمع السادس وأكرم ملاقاته. وفي سنة ٧١٥ خلفه البابا غريغوريوس الثاني الروماني الجنس. ففي ايامه وايام البطريرك جرمانوس شرع القيصر لاون الايصوري في حرب الايقونات واوقد اتون خصام واضطهادات دامت نيرانها مدة مائتي سنة تقريباً * وليس من شأننا البحث في الاسباب التي دفعته الى تلك الحرب ولا ان نفصل حوادثها لانها حوادث هائلة وطويلة الشرح ولكنا نقتطف ونلخص ما يتعلق منها بهذا التاريخ.

ففي سنة ٧٢٦ جمع القيصر مجلس الدولة الاعلى ودعا البطريرك جرمانوس اليه وخطب فيه ضد الايقونات والشفاعة وبقايا القديسين. فاعترضه البطريرك جرمانوس وذكّره بعهوده واقسامه للكنيسة. واذ لم تنفع الذكرى وضع الاوموفوريون عن عاتقه واستعفى. ولكن القيصر اصدر امره ضد اكرام الايقونات. فهاج الشعب وحصلت ثورات في بعض الجهات ضد القيصر وكتب القديس يوحنا الدمشقي ضد محاربي الايقونات وأيّد وجوب اكرامها. اما البابا غريغوريوس فمنع جباية الجزية من رومية وكتب كتابة مرّة ضد القيصر والمبتدعين. ولما جاء عليه والي رافينا لينتقم منه استنهد الشعب الروماني بالونكوبردبين اعدائهم وقاوموا العسكر القيصري [1] * غير ان القيصر اصدر

(١) قال المؤرخ تاوفانس ان البابا غريغوريوس الثاني شرع في العصيان على مملكة الروم من سنة ٧٢١ وسلح البلاد واستعد للحرب ضدها خلافاً لما فعل بدئة غريغوريوس الكبير بتقديم الطاعة والاكرام للدولة المذكورة وخلافاً للتعليم الانجيلي ايضاً.

امراً اشدّ من الاول (سنة ٧٢٠) ضد المقاومين وامر بكسر الايقونات وحرقها وطلي جدران الكنائس بالكلس وحرق بقايا القديسين وما مثل ذلك من الشناعات. فقاوم البطريرك هذا الامر واعترض عليه فاهانه القيصر وعزله ونصّب البطريرك انسطاسيوس بدلاً منه * وفي ايطاليا قام الشعب وحارب عسكر المملكة وطرد ولاة البلاد وقتل بعضهم وبعضهم مات حتى لم يبقَ منهم ولا واحد. وقد كتب البابا للقيصر رسائل عنيفة يقول له فيها «ان جميع الممالك الغربية تعتبر بطرس إلهاً ارضياً ... ونحن نرى نفسنا في حاجة الى ان نكتب لك كتابات غليظة وغير ادبية كما انت غليظ وبلا ادب ... والاولاد الصغار يسخرون بك ... وان كنت تهددنا ... فاعلم اننا لسنا محتاجين ان نقاتلك. فان رئيس كهنة رومية يبعد اربع وعشرين غلوة الى بلاد كمبانيا واذهب انت وقاتل الرياح». ولكن مع كل ذلك البأس وتلك المقاومة من البابا ضد قيصر الروم قد اعترف في كتاباته بحقوق السلطة المدنية التي داسها خلفاؤه وهو احتجّ بها بعض الاحتجاف ليقاوم القيصر المبتدع فقال «انت تعلم ايها الملك ان عقائد الكنيسة المقدسة ليست في يد ملوك بل في يد رؤساء الكهنة وبهم تؤيّد تأييداً ثابتاً. ولهذا فرؤساء الكهنة أقيموا ائمة في الكنائس بعيدين عن الامور العمومية والملوك مثلهم بعيدين عن الامور الكنائسية يهتمون بما أُنيط بهم».

وبعد غريغوريوس الثاني قام غريغوريوس الثالث (سنة ٧٣١) واقتفى اثر سلفه في السياسة وكتب للقيصر رسالة مهينة ليرجع عن فظائعه. فلم تُقبل رسالته. فعقد مجمعاً (سنة ٧٣٢) حرم محاربي الايقونات. واما القيصر فلكي يقاصص البابا على مداخلته في الاحوال المدنية ويقاصص البلاد العاصية ارسل عمارة بحرية ضدهم فغرقت في الطريق. واذ لم تمكنه الظروف ان يرسل عمارة غيرها احرم

البابا جميع الابرشيات التي في مملكته واضافها الى رئاسة البطريرك القسطنطيني وهي ابرشيات صقلية وكالابريا (اي ايطاليا السفلى) وابرشيات كريت وايليريا اليونانية او الشرقية تشتمل على بلاد اليونان الاصلية وبيسانيا ومكدونية وابيرُس وبلاد الارناؤوط. فقطع البابا كل علاقة كنائسية ومدنية مع مملكة الروم.

وكان لويتبراند ملك اللونكوبَرديين او اللمبرديين قد استولى على اكثر البلاد في ايطاليا وزحف الى رومية ولكنهُ احترمها ولم يفتحها اجابةً لطلب البابا. وكان البابا يسايرهُ في الظاهر ولكنهُ في الباطن كان يترقب فرصةً ليحرر البلاد من قبضتهِ. وحدث ان كارلوس (اوشارل) مَرتيلوس نائب ملك الافرنج والملك لويتبراند المذكور عقدا محالفةً وكانا يحاربان العرب في اسبانيا. فعقد البابا ضد اللونكوبَرديين محالفةً سريةً مع الدوق تراسيموند دوق سبوليتي (وهو من الذين لم يخضعهم الملك لويتبراند وقد عزل اباهُ وخلفهُ مركزهُ والرومانيون يعيش راهبًا) فكانت تلك المحالفة سببًا لان يخلع الملك لويتبراند وقارهُ لرومية ويستقر من رئيسها الروحي. فانهُ بحال رجوعهِ وتمكنهِ ان مصدر معاكستهِ كانت رومية حجز على جميع املاك الكنيسة التي تحت ادارتهِ. وشرع في حربٍ هائلة ضد البلاد وقتل وذبح ونهب واحرق وسلب حتى جعل ايطاليا في حالةٍ تفتت الاكباد. ولما كان البابا قد قطع كل علاقةٍ مع قيصر الشرق كما تقدم وكانت غلطاته قد جلبت الضيق عليهِ وعلى جميع الشعب لم يبقَ لهُ سوى ان يستغيث بملك الافرنج كارلوس. وهكذا فعل. فكان يتملقهُ ويهيج غيظهُ ضد حليفهِ لويتبراند ويعزو الى لويتبراند كل ظلمٍ والى تراسيموند كل مظلومية الى انهُ اقسم على كارلوس «باسم الاله الحقيقي الحي ان لا يضحي محبة هامة الرسل لصداقة ملك اللونكوبَرديين حتى يسرع ولا يبطئ في مساعدة كنيسته وتعزيتها». ثم انهُ

ارسل اليهِ مفاتيح تُدعى رسولية وهدايا ثمينةً والقابًا رومانيةً ودعاهُ الى محالفةٍ مستديمة. ومع كل ذلك لم يكُن بعد يطلب لنفسهِ السلطة المدنية كما فعل خلفاؤه بل تخليص املاك الكنيسة من ايدي الخطفة التي لولا مداخلاتهِ وغلطاتهِ ضدَّ لواجباتهِ لما كانت مُستَّت. غير ان كارلوس لم يجب طلب البابا ولم يقطع رباط السلام مع صديقهِ فكانت جميع الهدايا بلا ثمرة. وفي سنة ٧٤١ توفي البابا غريغوريوس وكارلوس مَرتيلوس والقيصر لاون. واستلزم زمام القيصرية ابنهُ قسطنطين الخامس المعروف بالزلي الاسم (١). وبعد سنةٍ خطفها منهُ صهرهُ آرتابَزُدس زوج اختهِ الارمني الجنس وكان قسطنطين خارج العاصمة. فجمع آرتابَزُدس جيشًا وحاصر القسطنطينية سنتين وفتحها وقلع عيني آرتابَزُدس وعيني ابنيهِ ونفاهما واخذ يضطهد الكنيسة اضطهادًا انساها اضطهادات نيرون. فكان يسخر بالاحتفالات الدينية وبكل قديس. ومنع رسميًا ذكر كلمة القديس. ومنع الاعياد والاصوام. وخرب الاديرة وجعلها نُكرًا للجنود. فكتب لهُ البطاركة والبابا وايسمع لهم بل عقد مجمعًا مسكونيًا على زعمهِ سنة ٧٥٤ من ٣٣٨ اسقفًا لم يوجد فيهِ ولا بطريرك وحرم كل من يحترم ايقونةً وحرم البطريرك جرمانوس ويوحنا الدمشقي وبعد سبعة اشهر تمت جلستهُ على هذا القرار. وبعد المجمع اضطهد الرهبان اضطهادًا عنيفًا. فبعضهم كانت تُقلع عينهُ وبعضهم تُقطع يداهُ او أُذناهُ. وقُتل منهم كثيرون. وهرب كثيرون الى ايطاليا وصقلية وبلاد الشرق

(١) سُمِّي بالزلي الاسم لانهُ حين المعمودية افرز في جرن العماد فقالي البطريرك جرمانوس ان مستقبل الكنيسة في ايامهِ رديء. وقد روى الرواة انهُ كان يحب رائحة زهر الخيل لا اقل من افر ائح الطيبة ونحن لا ننكر ولا نثبت شيئًا من ذلك اذ لا جدال في الذوق (راجع تاريخ ملاتيوس ص ٢٠٧)

حيث كانوا على امن من العذابات * اما رومية فقد قام على كرسيها البابا زكريا اليوناني الجنس بعد البابا غريغوريوس الثالث . وكان لطيفاً عن سلفيه يفضل السلام على الحروب . وقد طلب مسالمة الملك لويتبراند وانفصل عن حلفائه . فانتصر الملك عليهم وجعل تراسيموند راهباً بجانب والده . ولكنه ابى ارجاع الاملاك التي استولى عليها الى الكرسي الروماني . فذهب البابا اليه في مدينة ثارني بكل اكليرسه (سنة ٧٤٢) فلاقاه الملك بكل مجاربة وترحاب واهداه فوق مطلوبه اربع مدن من المدن التي استولى عليها من الروم ليتسلط عليها بنفسه وهذه السلطة كانت فاتحة سلطة البابوات المدنية * وبعد الملك لويتبراند قام الملك راكيس . وبعده الملك إسطولفوس (سنة ٧٤٩) وكان مرغماً الكرسي رومية . وفي سنة ٧٥١ طلب بيبينوس (ابن كارلوس نائب كليديريك ملك فرانسا الشرعي ان يسلب الملك من ملكه . فاجتمع الاشراف وتذاكروا وقرروا استفتاء البابا : هل يحل لهم خلع ملكهم وتنصيب بيبينوس بدون ان يخالفوا شريعة الله ؟ واذ كان البابا محتاجاً الى مساعدة بيبينوس وعسكره ضد الروم وضد إسطولفوس افتاهم على مرغوب بيبينوس مجوزاً الخلع فعزلوا الملك ونصبوا بيبينوس في مكانه خلافاً للحق ولكن شريعة . وكان وسيط هذه الفتوى الاسقف بونيفاتيوس مبشر الجرمانيين وهو توّج بيبينوس ملكاً . وهذا الرباط بين رومية وفرانسا كان اساساً لكل مستقبل اوروبا[1]

وبعد البابا زكريا قام البابا استفانوس الثاني وارسل سفارتين لمصالحة اسطولفوس فلم يفلح وكانت رومية في خطر منه . ثم ارسل سفارة ثالثة ومعها وجيه من كبراء دولة الروم اسمه يوحنا وطلب الصلح . فقبل الملك سفارة الروم

(١) تاريخ البابا ريغو بوانس العام جزء ٣ صحيفة ٢٢

عن سفارة البابا واكرم الاولى واهان الثانية وارسل من طرفه نائباً الى القيصر قسطنطين للمخابرة . ولكن البابا ارسل ايضاً يطلب النجدة من القيصر لينقذ ايطاليا من ابن الكفر (اي الملك) . وحقاً انه لا يسعنا الآن نستغرب عبارة البابا هذه التي يسمي فيها ملك المونكوبرديين الارثوذكسي كافراً في كتابه الى القيصر قسطنطين المضطهد الارثوذكسية . وقد صدق من قال ان الغرض اعمى . ويظهر ان الصالح المادي كان وقتئذٍ مرجحاً على الحقائق الدينية لا اقل من الآن والله اعلم * ثم ان البابا عزم ان يستعين ببيبينوس . وبعد وسائط كثيرة لا يسعنا ذكرها ذهب هو اليه بنفسه فاستقبله استقبالاً شائقاً ووقع على اقدامه ومنحه له الحصان من لجامه . وفي اليوم الثاني انقلبت الاحوال واخذ البابا يقع على اقدام بيبينوس ويرجوه باسم هامة الرسل ان ينقذ الشعب الروماني . فوعده * ثم ان البابا حلّ بيبينوس من يمين الطاعة لملكه وقد داسه بخطفه ملكه منه . واعاد تتويجه ملكاً . وتوّج امرأته وابنيه كارلوس وشارلمان ومنحهم القاب الوطنيين الرومانيين الاشراف . وبعد ذلك جاء بيبينوس بجيش مع البابا ضد المونكوبرديين (سنة ٧٥٥) واجبر اسطولفوس ان يرفع يده عن بلاد كثيرة وضعها تحت حكم البابا . وان يدفع الجزية . وهكذا رجع البابا الى رومية منتصراً ضابطاً زمام السلطة العالمية بقوة لقول المخلص « ان مملكتي ليست من هذا العالم » . اما اسطولفوس لم يبطئ عن ان يجمع جيشاً ويحاصر رومية من جديد . فلما رأى البابا استفانوس الخطر حوله كتب للملك الافرنج وبنيه يستحلفهم باسم هامة الرسل ليبادروا اليه ويعدهم بمعونة الله ويتهددهم بالدينونة ان اهملوه . ولكنهم لم يجيبوا طلبه لانهم كانوا منهمكين بمهام اخرى * حينئذٍ اخذ البابا يستعمل اسم القديس بطرس الرسول آلة للحصول على غايته فخلط الروحيات بالزمنيات

والالهيات بالعلميات والرسل بالاساقفة ورؤوس تحاريرهِ عن لسان بطرس الرسول الى بيبينوس ندرج منها هنا ما يتيسر تفكيهاً للقارىء قال:

«بطرس المدعو رسول يسوع المسيح بن الله الحي الى الملوك الثلاثة الاصفياء بيبينوس وشارل وشالمان والى جميع الاساقفة معهم والرؤساء والكهنة والرهبان وجميع المدوقين والمكونتين والبارونين. انا بطرس الرسول قد دُعيت بمشيئة الشفقة الالهية من المسيح ابن الله الحي وأُقمت بسلطانهِ لاكون مصباح كل العالم ... ولهذا السبب جميع الذين يسمعون بشارتي ويقبلونها فليكونوا على يقين ان جميع خطاياهم في هذا العالم تُغفَر بالامر الالهي وينتقلون الى الحياة المستقبلة بلا زلة. وبما ان نور الروح القدس انار قلوبكم الحليمة وبقبولكم التعليم الانجيلي احببتم التاموث القدوس المتساوي الجوهر قد حفظ لكم في الكنيسة الرومانية الرسولية المؤتمنة لي رجاء الجائزة المستقبلة التي لا ريب فيها. وهكذا اوجه اليكم خطابي من حيث انتم ابنائي في احبائه. واحثكم بمحبتكم لي ان لا تهملوا مدينة رومية والشعب المؤتمن لي من الله. بل انقذوه من ايدي الاعداء وخلصوه من الدنس البيت الذي عظامي تستريح فيهِ واعتقوا الكنيسة المؤتمنة لي من الشدة والقهر المتنوع الذي لقاسيهِ من قبيلة اللومبرديين الرذيلة ... فاكم انتم الافرنج احث جميع شعوب الارض لنا بحسب وعد المخلص نفسهِ لنا. فارجوكم انا ومريم البتول الفائقة القداسة وجميع الملائكة والشهداء والقديسين تحالفونكم معي لكي لا تسمحوا ان تصير مدينتنا رومية وشعبنا لحايا اللومبرديين. بل بادروا. بادروا الى معونتنا قبل ان تنشف الينبوع التي منها وُلدتم ... قبل ان تقسي الكنيسة امهاتها النهائية وظلمها من الايدي الكافرة ... واني اعدكم بحماية دائمة لتقهروا جميع اعدائكم وتكونوا

طويلي العمر في الحياة الحاضرة ويكون لكم رجاء وطيد بالحياة المستقبلة * وان كنتم (خلافاً لاوامر) تبطئون او تؤجلون ذلك متعللين بشيء في سبيل واجب الدفاع المطلوب منكم فاعلموا اني بسلطان الثالوث القدوس وبالنعمة الرسولية الممنوحة لي من فوق احرمكم ملكوت السماوات وحياة المستقبلة على احتقاركم وصيتي»

ثم ان ملك الافرنج جاء (سنة ٧٥٥) واخضع ملك اللومبرديين وجعل البابا سيداً على كل ولايات الروم في ايطاليا تشتمل على اكثر من ثلاثين مدينة ومساحتها ... ميلاً مربعاً تقريباً. فاصبح بابا رومية ملكاً عالمياً. ولم يرض بهذا فقط بل في السنة التالية كتب رسالة الى بيبينوس يشكر معروفهُ ويطلب منهُ مدداً غيرها ايضاً. وكل ذلك تكفيراً عن خطاياهُ وخصوصاً خطيئة خطفهِ المملكة الفرنساوية من سيدهِ كلديريك ملكها الشرعي. ومن هذه الايام اخذ يتملك في عقول الغربيين الرأي في الغفرانات بمعنى مشتراة الخطايا بالمال * ولما وصلت الاخبار الى القيصر قسطنطين بن ولاياته في ايطاليا دخلت في قبضة الافرنج ارسل سفارة الى الملك بيبينوس. فعلم البابا بذلك وارسل هو ايضاً رقيباً عليها. ولكن جواب بيبينوس لسفارة القيصر كان انهُ بعد استيلائهِ على تلك البلاد منحها لكرسي رومية عن حبٍّ لبطرس الرسول ولكي تُغفَر خطاياهُ * وبعد وفاة قصير مات الملك (مطوغوس وهو في الصيد (سنة ٧٥٦) وخلفهُ ديسيديريوس بمساعدة البابا استفانوس بشرط ان يهب لكرسي رومية بقية مدن الولايات. فاقسم ديسيديريوس قسماً عظيماً على ذلك * وبعد قليل توفي البابا استفانوس (سنة ٧٥٧) * وبعد نزاع وخلاف كبير خلفهُ اخوهُ بولس بصفة ولي عهد لكرسي ملكهِ وهذا حادث لم نعهد مثلهُ في التاريخ * وقد طالب ديسيديريوس من البابا

ان يتوسط فك الرجال المأسورين رهنا عند بيبينوس فوعده ولكنه فعل الخلاف وكتب ليبينوس يرجوه ان لا يأتيهم لان البلاد مازالت في خطر. ثم حضر ديسيديريوس بنفسه الى رومية وطلب توسطه. فاعطاه البابا تحريرا مفتوحا. ولكنه ارسل تحريرا سريا ضده ينهى بيبينوس عن فكهم ويدعي بان الرومانيين ضد ارادة الله بثلاثين سفينة لمساعدة ديسيديريوس ويرجوه ان يجبر ديسيديريوس على اعطاء البلاد الباقية * فنيأ مل القارئ هذه الاقوال وليحكم هل تليق بروساء كهنة الله. ولينتبه الى ما يأتي من ثمرة اختلاط السلطة المدنية بالرئاسة الروحية.

فان الصلح بين ديسيديريوس والبابا دام الى نهاية حياة بولس (سنة ٧٦٧). لان بيبينوس ارسل سفارة صالحتهما وكان دائما ينصح البابا ان يسالم الملك * ولكن بعد وفاة بولس شبت نيران القلاقل في رومية بسبب المنازعات على الكرسي والسلطة واخذت تسيل الدماء بسببها * فان دوقا اسمه توتن هجم بجيش عرمرم على رومية ونصب اخاه قسطنطين بقوة السلاح على كرسي البابوية وهو عامي حصل في بحر يومين على كل درجات الكهنوت وفي الثالث جلس على سدة مار بطرس وقال بعضهم انه في يوم واحد تمم كل ذلك. وقد كتب هذا البابا لبيبينوس واعتذر عن انتخابه ضد الاصول * وكان في رومية رجل وجيه اسمه خريسطوفورس وظيفته بزيميكريوس تولى ادارة الولاية البابوية كلها في ايام استفانوس وبولس وقد قصد الانتقام من توتن واخيه. فذهب بحيلة هو وابنه سرجيوس الى ديسيديريوس وطلبا المساعدة ضدهما. فاعطاه جيشا تحت قيادة الكاهن بلديبرت الى رومية وبمساعدة حلفائه فيها دخلها ليلا وقتل توتن وحبس البابا الخاطف قسطنطين. غير ان بلديبرت انكر الكرسي

على خريسطوفورس ونصب عليه قسا اسمه فيلبس. فاهاج خريسطوفورس الشعب ضدهما فهربا وقبض على الاسقف ثاوذورس وكيل قسطنطين ففلعت عيناه وقطع لسانه وأميت جوعا في سجن. ثم اجتمع مجلس مؤلف من جماعة الاكليروس والشعب والعسكر وانتخب استفانوس الثالث[1] الصقلي الجنس بابا (سنة ٧٦٨) ولم يتوجه الى ان قطع قسطنطين من وظيفته (وهذا عبارة عن الاعتراف بصحتها خلافا للذين يعتبرونها غاربا منها) ثم اخرجوا قسطنطين واركبوه على بردعة بسآية وربطوا اثقالا في رجليه وطافوا به في الشوارع والازقة وادخلوه ديرا قلعوا عينيه فيه وقلعوا عيني القس بلديبرت وقطعوا لسانه فما وقف دمه الى ان مات * وفي سنة ٧٦٩ عقد مجمع في لاتيران واحضر البابا المعزول قسطنطين واعترف بانه جبرا قبل درجته البابوية وان ارتقاءه تلك الدرجة من درجة العوام ليس امرا غريبا. فغضبوا عليه واخرجوه واماتوه. ثم سنوا قانونا بان لا يشرطن بابا من العوام وحرموا الذين لا يكرمون الايقونات[2].

وفي سنة ٧٦٠ ارسل البطريرك الاسكندري قرما رسالة الى البابا يظهر فيها احساسات مسيحيي الشرق نحبة الايقونات وفي سنة ٧٦٦ عقد مجمع في اورشليم حكم على محاربي الايقونات وارسل البطاركة الشرقيون الثلاثة رسالة الى البابا مثل السابقة. فارسلها البابا الى بيبينوس. ولما وصل الخبر الى القيصر قسطنطين اعتبرا العمل محالفة ضده فارسل سفارة الى بيبينوس وعقد مجمع

(١) ملانيوس ٨٠٨ : ١٠٠٠ بعضهم يعتبره رابعا (بافيدي جزء ٢ صفحة ٢٨) وبالاجمال يلاحظ فرق بين المؤرخين في تتابع بابوات هذه المدة لا يفيدنا شرحها

(٢) ورد في تاريخ الارشمندريت فيلاريتوس بافيدي جزء ٢ صفحة ٢٨ ان استفانوس الثالث عقد مجمعا في لاتيران سنة ٧٦٠ حرم فيه الايقونات والصحيح ان المجمع هو مجمع سنة ٧٦٩ لا غيره

مدني وروحي في جنتيليا الى سنة ٧٦٧ حضره سفراء من طرف البابا ايضاً وجرت محاورة فيه بين الروم واللاتين في موضوع لا نشاق كما سياتي في بابه. ولم تسلم اعمال هذا المجمع لكنّ المورخين يرجحون انهُ قرّر في مسألة الايقونات عادة الكنيسة الفرنكيسكانية بوضع الايقونات في الكنائس عالية للنظر والزينة فقط.

وفي سنة ٧٦٨ مات بيبينوس واقتسم المملكة ابناهُ كارلوس وشارلمان * وفي هذه الاثناء فترت الاحساسات بين خريسطوفورُس والبابا. وكان شارلمان يعضد خريسطوفورُس. غيران ديسيديريوس حالف البابا وحماهُ وانضاف اليهما سرجيوس ابن خريسطوفورُس ثم قام الشعب على خريسطوفورُس وسجنوهُ وقلعوا عينيهِ واماتوهُ وقلعوا عيني ابنهِ ايضاً. فانشرح البابا صدراً واظهر ممنونيتهُ لديسيديريوس في رسائلهِ الى كارلوس. ولكنهُ بعد قليل نسي معروفهُ. فانهُ اذ علم بان كارلوس عازم ان يقترن بديسيديرتا ابنة ديسيديريوس خاف من القرابة وسعى في ابطال المشروع وكتب لهُ ولاخيهِ رسالة ينهاهم فيها عن العمل باقسام ويمينات لا تُطاق[1]

(١) قال البابا في رسالتهِ المذكورة « لقد وصل الى مسامعنا وعلمنا بحزن نفس قوياً ان ديسيديريوس يريد ان يخيلك واحداً منكم بزيجة على ابنتهِ. فان لم يكن ذلك غشاً فهو بلا شك شورٌ شيطاني والرباط المستقبل بينكم لا يكون زيجة بل يكون مرافقة شنيعة. لان هذا المجنون من ابن هو غير الشيطان ؟ اعني ان جنس الافرنج المجيد ... يعزم ان يدنّس نسمة بشعب غشاش وشرير مثل شعب اللومبرديين الذين لا يخلطون مع الشعوب والذين نعرم ولد جنس البرص كما هو معلوم عند العموم » وقس على هذا الكلام كثيراً مثلهُ. وفي ختام الرسالة قال انهُ قبل ارسالها اقام عليها الذبيحة المقدسة كتبها والعياذ بالله رسالة سلام ومحبة. وتهدّدهم بانهُ بحرم الذي يخالفها ويجعل حظهُ النار الابدية مع الشيطان وملائكتهِ » — قلت : واني اظن ان كتابات كهذه لا تليق بمقام رئاسة الكهنوت ولا تنطبق على واجبات رسل السلام وخصوصاً بعد ان نال كاتبها كل معروف من الذي كتبها بجنهِ. وسبحان الذي لا يغلط ولا معصوم سواهُ.

غيران كارلوس لم يعبأ بذلك كلهِ وتزوج الابنة (سنة ٧٧٠) ولكنهُ بعد سنة ارجعها الى بيت ابيها والله اعلم بالاسباب... * وفي هذه المدة مات شارلمان (سنة ٧٧١) واستقل كارلوس بالملك. وفي سنة ٧٧٢ مات البابا استفانوس وقام البابا ادريانوس الاول بعدهُ ونهج نهج اسلافهِ ورفض مخالفة جارهِ وانضاف الى الافرنج. فحاربهُ اللومبَرديون وجاؤوا الى رومية. فجاء كارلوس بجيش جرار (سنة ٧٧٤) وقلب مملكة اللمبارديين في ايطاليا واخذ ديسيديريوس اسيراً الى فرانسا. وفي مدة المحاصرة عيّد عيد الفصح في رومية وجدّد كتاب هبة الاملاك والمدن الذي دفعهُ ابوهُ الى البابا واضاف اليهِ جملة بلاد. ومكافأةً لهُ على ذلك عقد البابا مجمعاً منح كارلوس حقوقاً من جملتها ان ينتخب هو اسقف رومية برأيهِ[1] * غيران كارلوس كانت غايتهُ ان يجعل ايطاليا وسائر البلدان التي كان يفتتحها خاضعةً لسلطتهِ رأساً. ولهذا السبب كان يقصّر على البابا في اجابة كل طلباتهِ. ولما ازعجهُ البابا بتكرار الطلبات والعريضات جاء سفراءهُ وسلموا الى وكلاء البابا جميع الاديرة والامطُشة وبعض الابنية العمومية ومفاتيح المدن ايضاً وقالوا لهم انهم يستثنون الاهالي والاراضي لسلطة الملك. فكأنهم ما سلّموهم سوى جدران وبنايات فارغة حتى ان البابا لما سمع تحيّر وقال « كيف إذن نحن نسوس المدن والسكان يستطيعون ان يعملوا كل ما يحييهم بلا سؤال منا ؟ ». غيران الملك فهم ضعف البابوات عن سياسة المدن لفراغ يدهم من القوة العسكرية واحتياجهم في كل وقت الى من يدافع عنهم وكان يرغب هو ايضاً ان يحصّل درجة القياصرة ويوسع نطاق مملكتهِ ما استطاع. فكتب البابا لهُ وترجّاهُ « ان لا يغير شيئاً من الضحايا التي قدمها والدهُ لذكر القديس بطرس وهو نفسهُ

(١) ملاتيوس ٨. ٧. ١١

صدَّق عليها » . ولكن ذلك كلهُ لم يشمروم تكن للبابا راحةٌ مع ملك الافرنج اكثر من راحتهِ مع ملك اللومبَرديين الذي سعى في خرابهِ . ومع كل ذلك كان يعترف ان القيصر الشرعي هو قيصر القسطنطينية وقد ارسل اليهِ نواباً في المجمع السابع المسكوني وسماهُ ملكهُ كما سياتي .

وفي سنة ٧٧٥ مات القيصر قسطنطين وخلفهُ ابنهُ لاون الرابع وكان مثالهُ يرفض الايقونات ولكنهُ كان لين الجانب . وبعد خمس سنين خلفهُ ابنهُ القاصر قسطنطين السادس ولهُ من العمر عشر سنوات . وكانت زمام المملكة في قبضة امهِ ايريني الاثينائية بالوكالة عنهُ وهي من محبي الايقونات . وقد اصدرت امراً بحرّية الاديان . وبعد اربع سنوات استعفى البطريرك بولُس الرابع بسبب القلاقل ونصح القيصرة ان تجمع مجمعاً مسكونياً يحسم النزاع ويُقال انهُ اشار عليها ان تنتخب طاراسيوس بطريركاً . وكيفما كانت الحال نصبَّت على كرسي البطريركية طاراسيوس كاتم اسرار المملكة رجلاً عالماً متضلعاً وخبيراً بالاحوال . فلم يقبل الدرجة الاَّ بعد ان استوثق من القيصرة بانها تدافع عن الرأي القويم .

---

٢ . المجمع المسكوني السابع

ومن بعد ارتقاء البطريرك طاراسيوس كرسي القسطنطينية من درجة العوام اخذ يسعى في جمع مجمع مسكوني . فكتب هو وكتبت الملكة ايضاً بالاشتراك مع ابنها للبابا ادريانوس وللبطاركة الثلاثة الشرقيين وطلبوا نواباً عنهم في المجمع . فاجاب البابا يمدح غيرتهما ويظهر سرورهُ ولكنهُ اعترض على شرطونية طاراسيوس من درجة العوام وعلى لقبهِ « البطريرك المسكوني » وطلب

ان تُردَّ لهُ املاك بطرس الرسول والسلطة على الابرشيات التي اضافها القيصر لاون الى الكرسي القسطنطيني . غير ان اعتراضاتهِ لم تسمع ومطاليبهُ لم تُجَبْ . وفي سنة ٧٨٦ اجتمع المجمع في القسطنطينية في كنيسة الرسل القديسين . واذ حصلت هناك قلاقل وموانع من طرف الجند وبعض محاربي الايقونات نُقل الى نيقية سنة ٧٨٧ (على الرأي الارجح) وكان مؤلفاً من ٣٦٧ اباً ورئيسهُ البطريرك طاراسيوس وكان القسّان بطرس وبطرس ينوبان عن البابا والقسّان توماويوحنا ينوبان عن البطاركة الشرقيين الثلاثة ابوليناريوس الاسكندري وثاوذوريتوس الانطاكي وايليا الاورشليمي لان الظروف كانت عليهم شديدةً فلم يحضروا . وقد اجتمع المجمع ثماني جلسات وسنّ ٢٢ قانوناً — ففي الجلسة الاولى اول من تكلم كان اسقفة جزيرة صقلية فقالوا « اننا نعتبر امراً حقاً ولائقاً من كل وجهٍ بالمجمع المسكوني المقدس ان يفتتح الكلام للمشروع في المواضيع المزمعة ان تطرح للمذاكرة ويفتح باب القول فيها متقدم العاصمة الجزيل برهُ رئيس اساقفة القسطنطينية رومية الجديدة وان يبدأ ويخطب بما يليق » . فاجاب اباة المجمع « اننا نوافق طلب الاسقفة الجزيل برّهم » . وبعد خطبة وجيزة من طاراسيوس قُرئ كتاب القيصرة قسطنطين وايريني يقولان فيهِ « اننا قياماً بالوصية الالهية وصية المسيح رئيس الكهنة الابدي قد اعتنينا في ارجاع السلام الى الكنيسة . . . فبرضاهُ ومسرّتهِ قد جمعنا كم انتم كهنتهُ الجزيل برّكم الحافظين عهدهُ بذبحٍ غير دموية ليكون حكمكم موافقاً لحكم المجامع المعتقدة العقائد المستقيمة ويشرق نور الروح على الجميع » ثم ذكروا كيف أغصب طاراسيوس على قبول الدرجة البطريركية واوردوا اقوالهُ لهم قبل شرطونيته وهي « اني ارى وانظر كنيسة المسيح المؤسّسة على الصخرة التي هي المسيح الها مقسومة الآن ومنشقة

واننا نحن كنا نقول قبلاً بغير ما نقول الآن ومسيحيو الشرق الماثلون لنا سيفي الايمان يقولون قولاً آخر ووافقهم مسيحيو الغرب ونحن غرباء عنهم جميعهم وكل يوم نُحرَم من الجميع . فاطلب جمع مجمع مسكوني يحضره نوّابٌ من بابا رومية ومن رؤساء كهنة الشرق » . ثم امروا ان تُقرأ رسائل البابا ورسائل بطاركة الشرق وان تُفحَص وتُقرَّر العقيدة القويمة * وبعد ذلك دخل الاساقفة المبتدعون واعترفوا بغلطهم وقدموا ندامةً ودفعوا اعترافات ايمانٍ مستقيمٍ . وفي مقدمتهم باسيليوس اسقف انكيرا وقد قال في كتابهِ بعد المقدمة « فانا باسيليوس اسقف مدينة انكيرا قد اخترت ان اتحد بالكنيسة الجامعة اعني ادريانوس بابا رومية العتيقة الجزيل القداسة . وطاراسيوس البطريرك الجزيل القبطة . والكراسي الرسولية الجزيلة القداسة كراسي اسكندرية وانطاكية والمدينة المقدسة . وسائر رؤساء الكهنة والكهنة الارثوذكسيين . ومن ثمَّ عملت اعترافي هذا كتابةً وقدمتهُ اليكم انتم الذين تلتم السلطان عن الاصل الرسولي » . فقال طاراسيوس « ان هذا المحفل الكهنوتي كلهُ يرفع الى الله مجداً وشكراً على اعترافك هذا الذي قدمتهُ الى الكنيسة الجامعة » والمجمع امَّن لقولهِ . وهكذا أُغلقَت الجلسة الاولى (١) *

(١) هنا براهين كثيرة تظهر ظهور الشمس عدم صحة دعوى اخوننا الغربيين بالسلطة والرئاسة لستغني بالاشارة اليها عن اطالة الشرح بها . فمنها فاتحة الكلام من اساقفة جزيرة صقلية بحضور النواب الرومانيين . ومنها رئاسة وافتتاح المجمع من البطريرك طاراسيوس ومنها ان الحاضرة جعلوا المجمع . ومنها ان العقيدة الارثوذكسية كانت في الشرق وكان الغرب موافقاً للشرق خلافاً لما لو كان الغرب رومياً . ومنها المساواة بين رسائل البابا والبطاركة الغائبين . ومنها الاعتراف بان الكنيسة الجامعة مؤلفة من جميع البطاركة والاساقفة لا قائمة بشخص البابا وان الذي يعتد بها لا تكفي موافقة البابا وحده بل عليه ان يوافق هيئتها المجمع المسكوني . ومنها ان طاراسيوس قبل الاساقفة الساقطين لا بصفة وكيلٍ عن البابا بل بصفة رئيس على المجمع وحاكم ذي سلطان ونواب البابا حضور .

وفي الجلسة الثانية قُرئت رسائل البابا ورسائل البطاركة . وقد اعترف البابا في رسالتهِ الى القياصرة انهُ نائب الرسولين بطرس ويوئس معاً (لا بطرس وحدهُ) وانهما كليهما هامتا الرسل وان سلطان الحل والربط مُنح لهما كليهما (لا لبطرس وحدهُ) وفي ختام الرسالة يقول « انهُ يترامى هو واخوتهُ الاساقفة على أقدام القيصرين ويتضرع اليهما ويقسم عليهما ان يُرجعا السجود للايقونات المقدسة الى الكنيسة » * وفي رسالتهِ الى البطريرك طاراسيوس سماهُ اخاً حبيباً ثم تكلم في واجبات الراعي الحقيقي وفي منافع الاتحاد واظهر فرحهُ باعتراف طاراسيوس الارثوذكسي ثم قال انهُ يرسل نوابهُ مطيعاً للامر القيصري الالهي . وكلَّف طاراسيوس ان يسعى بالغاء مجمع سنة ٧٥٤ لانهُ لم يكن فيهِ نوابٌ عن كرسيهِ الذي سماهُ « رأس جميع الكنائس » وحثَّهُ ان يكون دائماً موافقاً لاستقامة رأيهِ . ثم قال لهُ « وبما ان بركم قريبٌ من الاقدام السامية اقدام ملوكنا العظام الجزيل تقوام المتوَّجين من الله تضرعوا اليهم عنا . . . ان يؤمروا باعادة الايقونات المقدسة الى مركزها القديم في مدينة العاصمة المحروسة وفي كل مكانٍ » — ثم سأل النواب طاراسيوس هل يوافق رسالة ادريانوس ام لا؟ فاجابهُ بما معناهُ انهُ يوافقها لكونها ارثوذكسية وانهُ هو نفسهُ قد فحص كتابياً وبحث منطقياً وبيانياً وتعلَّم من الآباء واعترف ويعترف وسيعترف ويوافق ويثبت ويؤيد صحة التحاريرالتي قُرئت قابلاً الايقونات المصوَّرة على اثر تسليم آبائنا القديم » — ثم سأل النواب المجمع هل يوافق تلك الرسائل فاجابوا ايجاباً وقال القس يوحنا احد نائبي البطاركة « انهُ يليق بنا في الحاضر ان نرنم زبورياً : الرحمة والحق تلاقيا والعدل والسلام تلاثما . . . فان الرحمة والحق تلاقيا اعني ادريانوس . . وطاراسيوس . . باتفاق رأيهما وتعليمهما » . فهذه الشهادة من نائب البطاركة تحقق مساواة البطريركين الروماني والقسطنطيني .

وفي الجلسة الثالثة قُرئت رسالة طاراسيوس الى البطاركة واجوبتهم عنها — وفي الرابعة اعترف الآباء بوجوب تكريم الايقونات وقبلوها وأنفوا مجمع سنة ٧٥٤ وافسدوا قوانينه لانهُ لم يشترك فيهِ البابا والبطاركة الشرقيون لا راساً ولا بواسطة نوّابٍ ولا قبلوهُ . وبهذا اتضحت ايضاً مساواة البابا والبطاركة — وفي السادسة قُرئ قرار ذلك المجمع الملقّى ونقضهُ — وفي السابعة كُتب اعتراف الايمان وحدّد فيهِ المجمع وجوب تقبيل الايقونات والسجود الاكرامي لها احتراماً للذين صُوّرت عليهم لا عبادةً غير كما اتهم لكنيسة اعداوها لان العبادة انما تجب لله وحدهِ دون غيرهِ . ثم حرموا البطاركة انسطاسيوس وقسطنطين ويكيعا وجميع محاربي الايقونات وكرروا حرم الهراطقة السابقين وفي جملتهم البابا اونوريوس . وحددوا ايضاً وجوب حفظ التسليم الكنائسي المسنون كتابةً او نقلاً بلا احداثٍ ووجوب حفظ دستور الايمان النيقاوي بلا زيادةٍ ولا نقصٍ . ورسموا ان كل من يزيد او ينقص فيهِ ان كان اكليروسياً يُقطع وان كان من الشعب يُحرَم . ثم كتب البطريرك طاراسيوس رئيس المجمع تحريرًا للقيصرة وتحريرًا لاكليروس العاصمة يشرح فيهِ نهاية المجمع . فدعت القيصرة المجمع الى العاصمة وعند دخولهِ استقبلتهُ استقبالاً جليلاً . وفي يومٍ معيّنٍ عُقدت جلسةٌ ثمنية في البلاط المسمّى مغنورا بحضور ابنهِ وقُرئت الاعمال والقرار والقوانين وصُدّق عليها منهم . ثم رفع الآباء اصواتهم بالدعاء للقيصرة والذكر المؤبّد للساقي انتقالهم البطريرك جرمانوس وبوحنا الدمشقي وبعدهُ حُلّ المجمع

وقد حصل نوّاب البابا ورسائلهُ على اعتبارٍ كثيرٍ من طرف المجمع السابع المسكوني وهذا ما جعل بعض الغربيين ان يتوهموا بهِ تأييداً لدعواهم وخصوصاً قول البابا ادريانوس بان كرسي رومية رأس جميع الكنائس . غير ان ذلك

الاعتبار كان محصوراً بارثوذكسية كتابة البابا واقوال نوابهِ في موضوع المذاكرة واما مقام الكرسي الروماني فلم يتجاوز استحقاقهُ من حيث هو اول بين متساوين . والدليل على ذلك ان المجمع قد حرم احد بابواتهِ حرماً صريحاً بحسب القرار كما رايناه على ان جواب البطريرك طاراسيوس عن رسالة البابا ادريانوس المذكورة يحسم كل نزاعٍ في هذا الموضوع . ففي فتحتهِ يسميهِ اخاً ثم يحكي تعديات الهراطقة والموانع التي عارضت المجمع في العاصمة ويقول «واذ مضى الزمان أمر الاساقفة المحبون لله من ملوكنا الحسني العبادة ان يجتمعوا في مدينة نيقية . . . فاحضرنا نحن معنا الرجال المحبين لله ونوابكم والذين حضروا من الشرق وجئنا اليها . وقد جلسنا نحن في مقدمة جميعهم وجعلنا المسيح رأساً لنا . فان الانجيل المقدس كان موضوعاً على الكرسي المقدس بيننا جميعنا نحن الرجال الكهنة المجتمعين قائلاً : احكموا حكماً عادلاً . احكموا بين كنيسة الله المقدسة والبدعة الحديثة . . . وقد اخترنا ان نُقرأ تحاريركم قدامكم . . . ومعها التحاريرالتي أُرسلت الينا من بطاركة الشرق . . . والمسيح الهنا الصخرة التي نحن عليها ثابتون لم يترك الثوب المنسوج من فوق اعني كنيسته المقدسة المبنية منهُ وعليهِ ولم يدعها منقسمةً ومنشقةً ولا اعضاءها متقلقلةً مع كل ريحٍ لكنهُ قد قلب بكلمة نعمتهِ ضلال النير الجديد شر المتجنين ضد الايقونات الموقرة الطاعنين بالمسيحيين وطعنهم مع الهراطقة القدماء بسيف الروح » فهذه الاقوال تصرّح بان البابا مساوٍ لاخوتهِ البطاركة . وان القياصرة يعقدون المجامع المسكونية . وان رأس جميع الكنائس هو المسيح . وان تحاريرالبابا والبطاركة متساوية الاعتبار . وان المسيح هو الصخرة وغير ذلك مما لو اعترف بهِ الغربيون لما استطاع احدٌ ان يدّعي عليهم بضلال في هذا الباب

٢. البابا وات وبدعة الانبثاق

نكتفي بما ذكرنا من تاريخ حرب الايقونات لان الحوادث التي بعد ذلك لا تعلّق لها بعلاقات الشرق والغرب ونبحث هنا في تابع ما تقدم من تاريخ البابا وات بحسب ما يناسب موضوع تاريخنا * قضى البابا ادريانوس نحبهُ سنة ٧٩٥ وخلفهُ البابا لاون الثالث برضى وتصديق الملك كارلوس الاكبر بناءً على اتفاقٍ ومعاهدةٍ سرّيةٍ بينهما كما اوضحت الحوادث التابعة . فان البابا لاون بعد ارتقائهِ كرسي الرسل ارسل سفارةً الى كارلوس ومعها هدايا تشتمل على تاكيد الغفران لهُ وعلى مفاتيح اهمّ الاماكن المقدسة وعلى عَلَم مدينة رومية وغير ذلك مما يطيب قبولهُ وترجاهُ ان يرسل اليهِ وكيلاً ملوكياً يقبل من الشعب الروماني يمين الطاعة والامانة لهُ . فنم عن ذلك سجنٌ وتآلف حافك ضد البابا لاون (سنة ٧٩٩) تحت رئاسة اقرباء ادريانوس . ويوماً ما بينما كان يحتفل زحاحً هجموا وقبضوا عليهِ وطعنوهُ في عينيهِ ولسانهِ ومزّقوا جلدهُ ورموهُ في حبسٍ ظانين انهُ عدِمَ النطق والبصر . ولكن الوسائط تيسّرت لهُ فهرب وجاء الى كارلوس وحصل على استقبالٍ احتفاليٍّ * ولما وقف كارلوس على امره ارسل معهُ كثيرين من الاشراف الى رومية ثم جاء بنفسهِ ليفحص قضيتهُ وفي رومية تاكد براءتهُ مما رشقهُ بهِ الاعداء واقسم البابا لاون يميناً امام جميع الشعب إثباتاً لبراءتهِ فارجعهُ كارلوس الى كرسيهِ * وبعد وقتٍ قليلٍ بينما كان كارلوس يصلّي صلاة عيد الميلاد (سنة ٨٠٠) قدّم لهُ البابا تاج القيصرية في وقت القداس فاحنى عنقهُ امام المذبح بكل ورعٍ ونادى البابا بهِ قيصراً امكافأةً لمعروفهِ او قياماً بعهودهِ السرّية والله اعلم . وقد اقسم كارلوس انهُ يكون مطيعاً

للكنيسة الرومانية ويدافع عنها وعن حقوقها واملاكها . حينئذٍ صرخ الاكليرس والشعب بالدعاء قائلين « كارلوس الاوغسطس الجزيل التقوى المتوّج من الله قيصراً عظيماً سلامياً لتكن لهُ الحياة والظفر » . وبعد التتويج وقع البابا امام القيصر وقام بواجبات الكرامة المفروضة للقياصرة . وهكذا انشق الشرق والغرب بوجود قيصرين في مملكة الروم شرقيٍّ وغربيٍّ . قال آجنكارد كاتم اسرار كارلوس ان الملك لو علم بعزم البابا على تتويجهِ لما جاء الكنيسة في ذلك اليوم . وهذا القول سواء صحّ او لم يصحّ دليلٌ واضحٌ على ان ضمير الملك كارلوس كان يلومهُ على خطف تاجٍ ليس لهُ اكثر مما كان ضمير البابا يلومهُ على التصرّف بذلك التاج تعدّياً ونقلهِ من الشرق الى الغرب بلا مسوّغٍ نقلاً مستبداً * ومن الغريب ان هذا البابا الخارق حرمة الشرق اكراماً للقيصر الجديد كارلوس ونصالح كرسيهِ على زعمهِ هو نفسهُ قاوم كارلوس حين اقترح عليهِ بدعة الانبثاق من الابن وخرّق حرمة دستور الايمان بزيادتها فيهِ وراء غيرها ضد الايقونات . فانهُ لما رأى ان تلك البدعة اخذت تمتد في رومية ولم يكن عندهُ رجالٌ متضلعون في العلوم اللاهوتية ليدفعوها طلب من توما بطريرك اورشليم رجالاً حكماء القياء ينقذون كنيسة رومية من الضلال وافادهُ اصل البدعة من مبدئها . فارسل اليهِ اربعة رجال وهم ميخائيل السينكلس وتلميذهِ ثاوذورس وثاوفانيس المخطّطَين وايوب . فجاءوا اولاً الى قيصر الشرق لاون الارمني واعرضوا عليهِ الامر وكان من محاربي الايقونات . فلما علم انهم متوجهون ضد محاربي الايقونات وضع ميخائيل في السجن فمات وخطّط اوجه ثاوذورس وثاوفانيس بجراحٍ ونفاهما فلقّبا بالمخطّطين (ملاخي ٨ : ١١ ، ١٠ : ١١) . ولما علم البابا بما جرى على رسل اورشليم كتب للقيصر كارلوس فعقد مجمعاً سنة ٨٠٩ قرّر الزيادة في الدستور

لتعرّض لهُ في النفس (١) . ثم ارسل اسقفين ورئيس دير ليقنعوا البابا بالموافقة . وقد بذلوا كل جهدٍ ليقنعوهُ فلم يقتنع بل اجابهم قائلاً « اني لا اعلم ما

(١) ان بدعة الانبثاق بدأت قبل هذا الوقت . فان الاريوسيين كانوا قد اعتقدوا قبلاً ان الروح مخلوق ومنهم مكدونيوس واتباعهُ . فسمّت الكنيسة في الدستور « ان الروح القدس ربٌّ محيٍ منبثق من الآب ومسجودٌ لهُ ومعبدٌ مع الآب والابن » وجميع الآباء قالوا بان الآب وحدهُ مبدأٌ للروح القدس كما هو مبدأٌ للابن . وان الروح مساوٍ لهما في الجوهر . وبعضهم قال انهُ منهما جوهرياً من حيث مساواة الجوهر لا من حيث العلة والانبثاق * واما في موضوع الانبثاق فبعضهم وقف عند التعبير الانجيلي بانهُ ينبثق من الآب . وبعضهم قال انهُ ينبثق من الآب بالابن بمعنى من الآب الذي هو آبٌ للابن وان الروح هو روح الابن لا من حيث هو منبثقٌ منهُ بل من حيث هو منبثقٌ من الآب . وبان الآب وحدهُ هو العلة . وقد رأينا ان ناوفوريتوس رفض التعبير بكلمة « بالابن » الاّ اذا دلّت على المساواة في الجوهر فقط . وقس على ذلك تعليم آباء الغرب ايضاً . وعلى هذا المعنى استعمل اوغسطينوس في كتاباتهِ ضد الاريوسيين العبارة « ان الروح القدس هو من الآب والابن » اي من جوهر الآب والابن او جوهرٌ واحدٌ هو والآب والابن . وانكر قبول المبدأ بن ولم يذكر انبثاقاً من الابن مطلقاً بل انما قال ان الروح ينبثق من الآب . وتبعهُ في ذلك كثيرون في اسبانيا ثم في افرانسا قالوا بان الروح هو من الابن اي من جوهر الابن ولم يقولوا بانهُ منبثقٌ من الابن . ولكن الاسبانيين ضلوا عن المعنى الاصلي وادخلوا في دستور ايمانهم زيادةً فقالوا « المنبثق من الاب والابن » ثم تبعتهم كنيسة افرانسا بواسطة ملوكها وجرى عليها جدالٌ بين الشرقيين والغربيين في مجمع يمبتوس سنة ٧٠٧ * غير ان المدركين في الغرب كانوا يحسبون البدعة « ضلالاً اسبانيًا » * ثم ان كارلوس الاكبر اخذ يسعى بان يزاد هذا الضلال رسمياً في دستور ايمان كنيسة رومية لاسباب سياسية اولاً لكي تثبت سلطتهُ على اسبانيا . وثانياً لكي يتصل الغرب عن الشرق في العقيدة ويحفظ استقلاليتهُ . ولكن لما وصل هذا الخبر الى البابا لاون انكر عليهِ ذلك وعمل بما ذكرناهُ في المتن ولا حاجة الى اعادتهِ . والنتيجة ان التعليم بالانبثاق من الابن غريب عن الكنيسة المسيحية . واغرب منهُ اجازة زيادة الضلال الاسباني على دستور الايمان المحرّمة بالزيادة فيهِ لفظاً ومعنىً (راجع كتاب صخرة الشك صفحة ١٢١) .

اذا كان الآباء القدماء عملوا عملاً افقل بتركهم هذه الكلمة . ولا اقدر ان اؤكد انهم لم يعلموا جيداً هذا الامر كما نعلمهُ نحن . لاني لا اتجاسر ان اشبّه نفسي بهم فضلاً عن ان افضل نفسي عليهم . ومهما كانت غايتنا حسنةً يجب علينا ان نخشى لئلاّ نضرّ نحن ما هو في ذاتهِ حسنٌ ببعدنا عن التقليد القديم في التعليم . لان الآباء لما منعوا كلّ زيادةٍ في الدستور لم يقصدوا النيات الى نية صالحة ونية رديئة بل منعوا الزيادة منعاً مطلقاً حتى انهم لم يسمحوا ولا بان يفتكر احدٌ لماذا عملوا هكذا » . هذا ما اجاب بهِ البابا سفراً « كارلوس . ولكي يمنع كل تغيير في دستور الايمان عقد مجمعاً (سنة ٨١٠) ونقش الدستور على لوحين من فضة باليونانية واللاتينية صحيحاً سالماً بدون الزيادة ونصبهما امام الباب المقابل قبر بطرس وبولس وكتب عليهما هذا العنوان « انا لاون قد نصبت هذين اللوحين حبّاً بالايمان الارثوذكسي وحفظاً لهُ » (١) وهكذا حُفظت حرمة دستور الايمان المصدّق عليهِ من المجامع السبعة تحت حرومات ولعنات على المسيء بغير نصهِ او معناهُ * وقد جدّد هذه الصرامة عينها البابا بنيديكتوس الثالث (سنة ٨٥٦) كما سنورد في ما يأتي . ولكن خلفهُ نيقولاوس ما احترم حرومات اسلافهِ بل ادخل الدستور في بلاد البلغار منقولاً بالزيادة . فقام ضدهُ فصير الارثوذكسية البطريرك فوتيوس وبرهن ضلال البدعة ببراهين لا ترد . وفي المجمع الذي عُقد برئاستهِ امضى نواب البابا يوحنا على الدستور بلا زيادة . غير ان الغربيين حللوا بعد ذلك ما حرّموهُ قبلاً وهم يقرأون الآن دستورهم لا كما صدر من آبائهم .

(١) اختلف الرواة في نسق المخابرات بين لاون وكارلوس ولكنهم اتفقوا جميعهم في جوهر الرواية وصحة الخبر . ملانيوس ٨ : ١٤ : ٦ وصخرة الشك صفحة ١٢٤ وتاريخ بافيدي . وانسطاسيوس . وبارون . وغيرهم اي من شئت .

وفي سنة ٨١٤ مات القيصر كارلوس وخلفهُ ابنهُ لويز المكنّى بالتقي . فتحالف قسمٌ من وجوه رومية ضد حياة البابا لاون وقبل التوصل اليهِ علم بهم وامر بمحاكمتهم وقتلهم . فاستعظم القيصر الامر لما فيهِ من التعدّي على حقوقهِ والخروج عن دائرة الوظيفة الروحية وارسل ابن اخيهِ برنارد ملك ايطاليا الى رومية ليفحص القضية . غير ان البابا لم تطل حياتهُ . وبعد وفاتهِ قام اضدادهُ واحرقوا كل الاديرة والبناءات التي شيّدها .

الفصل التاسع

في علاقات الكنيسة في القرن التاسع الى بطريركية فوتيوس

١ . البابويات والاوامر الايسيدورية

من بعد البابا لاون الثالث قام البابا استفانوس الرابع [1] (سنة ٨١٦) وكان مثل اسلافهِ خاضعاً لقيصر الغرب ودعا شعب رومية فاقسموا يمين الطاعة للقيصر . وفي سنة ٨٢٢ خلفهُ البابا بسكال وسيم بلا معرفة القيصر واضطر ان يرسل اليهِ سفارة تطلب المعونة فمنا ولكنهُ حفظ حقوق تسلّطهِ . وفي سنة ٨٢٤ توفي البابا بسكال وقام خصامٌ وشقاقٌ على انتخاب خلفهِ فالبعض انتخبوا اوجانيوس الثاني وآخرون انتخبوا زنزينوس وقوي حزب اوجانيوس . فاضطر القيصر ان يرسل ابنهُ الملك لوتاريوس لاخفاء الفتن . فحضر ووضع قانوناً لانتخاب البابوات وايّد سلطة القياصرة بقسم اقسمهُ اهل رومية

(١) ويعضهم يعدّهُ خامساً (بلاتينوس ٩ : ٢ : ١٢) (٢) وعلى رأي آخرين سنة ٨١٧

وهو هذا « اني اُقسم ان اكون امينا للقيصر قائما بالقسم الذي اقسمتهُ للبابا . واقسم اني لا اوافق على انتخاب البابا اذا انتخب على خلاف القوانين واني لا اسعى بسيامة البابا قبل ان يقدّم بيناً امام السعير القيصري مثل اليمين الذي دفعهُ البابا اوجانيوس خطأً » * وبعد اوجانيوس انتخب البابا لوتاريوس ثم البابا غريغوريوس الرابع (سنة ٨٢٧) وقد اقام بعد الانتخاب ثلاثة اشهر بلا سيامة الى ان ارسل سفارة الى القيصر وفُحصت قانونية انتخابهِ وصدرت الرخصة بسيامتهِ . وبعد غريغوريوس قام سرجيوس الثاني [1] وسيم بلا رخصة فحصلت قلاقل في رومية بسببهِ . فارسل القيصر لوتاريوس ابنهُ لويز الى رومية فلاقاهُ البابا ولم يفتح لهُ باب الكنيسة الى ان استوثق منهُ انهُ لا يفعل بهِ شراً فعاهدهُ . ثم عقد مجمعاً وهدأ الاحوال * وبعد سرجيوس انتخب البابا لاون الرابع (سنة ٨٤٧) ولم يُسَمْ لانتظار رخصة القيصر . ولكنّ البلاد كانت وقتئذٍ في قلاقل وحروب . لان العرب كانوا شنّوا على دعوة من المومبردين هجموا على نابولي وسواحل ايطاليا وفتحوا رومية الى ان اخرجهم لوتاريوس ولويز . فاضطرت الحال ان يُسام البابا قبل صدور الرخصة بشرط حفظ حقوق القيصر والامانة لهُ * وبعد لاون انتخب البابا بنيدكتوس الثالث بصوت علم . ولكن حزباً قام بدسائس ومساعدة سفراء القيصر وعزلوهُ واهانوهُ ونزعوا عنهُ حلة الكهنوت وحبسوهُ وانتخبوا بدلاً منهُ قسماً

(١) ان سرجيوس الثاني كان اسمهُ بلا Jos porci اوس بورتشي) اي فم الخنزير فلما انتخب بابا غيّر اسمهُ . ومنهُ جرت العادة ان كل بابا حين انتخابهِ يغيّر اسمهُ . وتوسعت هذه العادة عند الغربيين حتى صار الاكليريكي عندهم كلما رُقّي من درجة الى درجة يغيّر اسمهُ . ولا يخفى ما في ذلك من التخويش والالتباس وما ورآءهُ من الغايات احياناً * على ان عادة الكنيسة الشرقية ما خرجت عن جواز تغيير الاسم حين الانتقال من الحالة العالمية الى الرهبنة اشارة الى ترك العالم والدخول في حياة جديدة ليس الا .

مقطوعاً اسمهُ انسطاسيوس . فقام الشعب ضدهم وطرد انسطاسيوس واعاد بنيديكتوس فسيمَ من مجمع الاساقفة[1] . ولما كانت بدعة الانبثاق آخذةً في

(١) نقل المورخون انهُ بين البابا لاون الرابع والبابا بنيديكتوس الثالث قام في سنة ٨٥٢ بابا اسمهُ يوحنا الثامن وهو المعروف بالبابا حبه لانهُ كان أنثى جرمانية الاصل اسمها جيلبرت الانكليزي من مدينة معروفة بحصن موغنت تزيّت بزي الرجال وجاءت الى روما وتعلمت فيها العلوم وعلّمت في رومية وكانت بارعة في التعليم . فانتخبوها بعد لاون بابا ونقلوا اسمها من جيلبرت الى يوحنا الثامن . ونظرًا لعادة الايطاليان في حلق شعورهم كانت طرق الخداع سهلة لها . وقد خدعها الشيطان باحد مؤمنيها فحبلت . ويومًا ما بينما كانت في زياح احتفالي في هيكل القديس اكليمس في اللاتران توجعت واستطلت . وعلى اثر ذلك ماتت في المرج المعروف بكولوسوس وهناك دُفنت بعد ان ساست الكرسي الروماني سنتين وخمسة اشهر واربعة ايام* هذا ما نقلهُ المورخون منهم الراهب ماريانوس سكوتوس (سنة ٩٣٠) ومرتينوس البولوني معلم خدمة البابا اوبشنيوس الرابع و يوحنا الانكليزي . وبانطونيوس رئيس اساقفة فلورنسا . واوتون اسقف فريسنجس . وكتاب الغفرانات المطبوع في رومية سنة ١٥٢٥ . وبالاتينا وملانيوس (٩ : ٧ : ٥) وفوسيناوس (٧ : ١٢) وغيرهم* غير ان هذا الخبر ينكرهُ اللاتينيون المتأخرون بنيوس و بارون وغيرهما و يفسرونهُ بان البابا يوحنا الثامن (وهو ثالث خلفاء بنيديكتوس الثالث) نظرًا لرخاوتهِ في مقاومة البطريرك فوتيوس الخصي (على زعمهم) سمّاهُ الرومانيون امراة فنهم من هذا الحادث ان احد البابايات كان امراة . و يستندون على ان انسطاسيوس لم يذكر بين البابايات البابا حبه* غير ان مصححي الحادث يقولون ان بين البابا حبه و يوحنا الثامن ثلاثة بابايات . والعالم بوكلر يؤكد في كلامهِ عن القرن ٩ و ١٠ ان الخبر موجودٌ في مولفات انسطاسيوس خطًا ولكن البابا بون حذفهُ ولم يطبعهُ* ولاونيكوس هالكوكوندلي في كتابهِ السادس يذكر الخبر ويقول : انها من ذلك الوقت جرت عادةٌ عند الرومانيين انهم بعد انتخاب البابا يجلسونهُ على كرسي مثقوب فياتي احد الكرادلة و يؤكد بالنص ذكورتهُ ويشهد بها ثم يهتفون . والبطريرك الاورشليمي ذوسيثاوس يعدّ اربعة واربعين مورخًا من الغربيين انفسهم ذكروا الخبر ولم يراجعهم فيهِ احدٌ من القدماء قبل اللاتينيين المتأخرين . و يرى ان المكارم الخير بعد هذه الاثباتات عارٌ على رومية اعظم من عار صحوه* ونحن نرغب كذلك*

الاتحاد بين الشعوب الغربية كتب دستور الايمان بحروف لاتينية خالياً من الزيادة وسنّ قانوناً بوجوب تعليمهِ لكل واحدٍ من الشعب الايطالي منعاً لدخول البدعة . وكتب رسائل الى بطاركة الشرق بان رؤساء كهنة رومية لا يقبلون الشركة مع احدٍ ما لم يكُن محافظاً على دستور الايمان سالماً كما سلّمتهُ المجامع المسكونية السبعة وحدّدت المحافظة عليهِ بان الروح القدس ينبثق من الآب فقط لا من الابن كما علّم ابتداءً الفساد . وقد حافظ اكثر خلفاء هذا البابا على سلامة دستور الايمان الى ايام استفانوس الخامس نحو سنة ٨٩٥[1] .

وكانت مملكة الكارولنيين تضعف من يومٍ الى يومٍ بسبب تقسيمها الى ثلاثة اقسام : ايطاليا وافرنسا وجرمانيا وانقسام ورثتها بعضهم على بعض وقلة ادارة ولاية حكامها ومحاربتهم بعضهم بعضاً وابادة رعاياهم . فكانت الطريق رحبةً لاساقفة رومية ان يحصلوا على غاياتهم الاستبدادية وخصوصاً للذين كانوا منهم يتولون على حب الرئاسة والمجد مثل البابا نيقولاوس الاول عزول البطريرك فوتيوس وعدوهُ الالدّ . وقد تيسرت لهُ فرصةٌ ليرفع سلطتهُ فوق السلطة المدنية بتحويل تقدمهُ على رومية الى سيادةٍ عالمية وهي : ان القيصر لوتاريوس الثاني كانت لهُ خليلةٌ اسمها والدارده طلب فسخ زوجتهِ تيوزغه ليتزوج بها . فساعدهُ اساقفة كولونيا وطور على ذلك في مجمع سنة ٨٦٢ فطلّق الخليلة ونكّل على الخليلة . فاقام الحجة عليهم إبنكار اسقف ريمي الى البابا نيقولاوس خليفة البابا بنيديكتوس الثالث (سنة ٨٥٨) . فعقد مجمعاً وارسل نواباً لفحص الدعوى . فاشتروا وحكموا للقيصر . واذ علم البابا افسد الحكم وتداخلت القوة . ولكنّ القيصر نظرًا لضعف عزمهِ ورداءة ذمتهِ اضطر ان يلتجيء الى البابا فحكم عليهِ باعادة

(١) ملانيوس ٦ : ٧ : ٤

اكيلهِ على زوجتهِ (سنة ٨٦٥). وقد استند في تلك الاحكام على كتابٍ ظهر جديداً مزوَّراً عن لسان ايسيدورُس اسقف اسبانيا معروفٍ بالاوامر الايسيدورية نحكي هنا تاريخهُ بالاختصار:

كانت قبلاً في الغرب مؤلَّفاتٌ جُمعت فيها قوانينُ الكنائسية وبعض مكاتيب واوامر البابوات وكانت اساساً لحقوق الكنيسة الرومانية. منها مؤلَّف ديونيسيوس الصغير (سنة ٥٢٧) ومؤلَّف ايسيدورُس اسقف سيبيلي في اسبانيا من كُتَّاب القرن السادس * ففي منتصف القرن التاسع (سنة ٨٢٩—٨٥٢) ظهر الكتاب المزوَّر المذكور معنوناً باسم الاسقف الاسباني ايسيدورُس. ومبنياً على كتاب ايسيدورُس القديم ومشحوناً من الاراجيف والاكاذيب والدعاوي الفارغة. وقد جاء بمائة امرٍ بابويٍّ من اكليمس (سنة ٩٥) الى غريغوريوس الثاني (سنة ٧١٥) معروفٍ تزويرها. وجاء ايضاً بتسعين امرٍ اخرى لم تُعرَف من ذي قبل. وغايتها تاييد سلطة البابا على مجامع الاساقفة وحصر كل حقٍّ كنائسيٍّ به. ومحواها انهُ لا يمكن عقد مجمعٍ ولا الحكم على اسقفٍ بلا رخصةٍ من البابا. وان كل واحدٍ لهُ حقٌّ في الاستئناف اليهِ. وكل المسائل المهمَّة يجب ان تُقام في رومية. وان البابا يثبت انتخاب كل اسقفٍ. وان شكوى الشعب ضد الاساقفة لا تُسمَع ولا حق لمحكمةٍ مدنيةٍ ان تحاكمهم والاسقف مهما كان مفسوداً لا يُخلَع بل يُعتبَر قصاصاً للشعب. وان الكهنوت يسمو على المُلك ومركزهُ كرسي بطرس وحدهُ (يعني كرسي رومية). وان نسبة الاساقفة الى البابا كنسبة الرسل الى بطرس. وان الميتروبوليت اولٌ بين متساوين وليطاركة وروءساء الاساقفة هم درجاتٌ بين البابا والاساقفة * اما مؤلف هذا الكتاب فقد رجَّح المحققون انهُ احد اكليروس كنيسة افرانسا قصد بهِ اولاً تحرير الكنيسة من استبداد السلطة

المدنية. وثانياً تحرير الاساقفة والاكليرُس من استبداد الميتروبوليتين. وثالثاً تاييد رئاسة البابا * واول مَن صدَّق على هذه الاوامر كان البابا نيقولاوس. ثم اخذت تكون ركناً لرئاسة البابوات على الشعوب الايطالية المتوحشة وقتئذٍ واستمرت على هذه الحال مدَّة ثمانية قرون ثم رُفضت * وقد اشتبه بعضٌ في صحتها قبل هذا العهد منهم بطرس كوميستور في القرن ١٢. ومرميليوس في القرن ١٤. ونيقولاوس كوزا في القرن ١٥. وبعد ذلك مؤلفو القرون المتقدمة برهنوا تزويرها وعلم ذلك عند علماء الغرب. والبابويون انفسهم والكنيسة اللاتينية عينها اقرُّوا بعدم صحة اصلها. ولكنهم ما زالوا يجعلونها اساساً لحقوق كنيستهم كأنَّ السنين الطويلة ايَّدت لهم حق وضع اليد (١).

هذا ما كان من علاقات الكنيستين الشرقية والغربية في القرون التي تقدمت البطريرك فوتيوس. وفيها يظهر ان الكنيسة الغربية لم تكن في العالم المسيحي سوى اختٍ من خمسة اخوات رئيسها مساوٍ لروءساء سائر اخواتها في الكهنوت والسلطة الكنائسية وتقدمهُ لا يزيد عن تقدم اول بين متساوين. فهو بالنسبة الى الثاني كنسبة الثاني الى الثالث وكنسبة الثالث الى الرابع والرابع

(١) قال المؤلف الكنائسي الاب المؤرخ اللاتيني «ان الاوامر الموجودة في المجموع المعنون باسم ايسيدورُس الاسباني عليها غش الغش الصريح. فهي كلها ذات لهجة واحدة ضخمة ومترفعة تحكي القرن الثامن اكثر مما تليق بالقرون الاولى الثلاث. وبالفحص والتمحيص وُجدت فيها قطعٌ منسوخة من كتابات الفنديين لاون وغريغوريوس وبابوات غيرهما عاشوا في زمانٍ بعيدٍ بعد البابوات المنسوبة الاوامر اليهم. وكل تواريخها تقريباً مختلقة وكتبها واضح في محواها كل الوضوح.. غير ان هذا الغش مع ما هو عليهِ من البساطة قد خدع الكنيسة اللاتينية كلها فكانت تعتبر تلك الاوامر حقيقية مدة ٨ مئة وما تركها الا من القرن الماضي. والآن كل واحدٍ يراها كلها كان مبنية بفنٍّ بسهولةٍ بانها غشٌّ وخداع» (كتاب ٤٤ فصل ١٢)

الى الخامس . وقد رأينا ايضاً ان هذا التقدم مبدأه تقدم مراكز اصحاب المدنية لا تقدم وظائف موسسي تلك المراكز اعني الرسل . لانهم جميعاً رسل متساوون لمرسل واحد ولغاية واحدة . ورأينا ايضاً ان دعوى الغربيين لم يكن لها في الاصل اصل ولكنها رويداً رويداً تجسمت في عقول اهليها من بذار لا يخلو منه مناخ رومية في مدنياتها وفي روحياتها فكانت ولاَّ حسداً محضاً نشأ عن نقل كرسي الملك الى القسطنطينية . ومن عهد مجمع سردیكي (سنة ٣٤٣) اظهرت بشكل دعوى بحق الاستئناف الى البابا . ومن المجمع الرابع المسكوني (سنة ٤٥١) ظهرت بزي دعوى امتياز مبني على امتياز بطرس . ومع الزمن وزيادة القرون عليها كبرت رأسها فزادت على اكليل كهنوتها تاج الملك الزمني . وهكذا برزت في الهيئة التي نراها نحن امامنا ونشأ عنها انشقاق الكنيسة في ايام البطريرك فوتيوس ترأس الارثوذكسية كما سيتضح من التاريخ الآتي .

القسم الثاني

في العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية في مدة الانشقاق

موضوع كلامنا في هذا القسم تاريخ الانشقاق الكبير بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية الذي بدأ في اواسط القرن التاسع على عهد البابا نيقولاوس والبطريرك القسطنطيني فوتيوس وتم في اواسط القرن الحادي عشر على عهد البابا لاون التاسع والبطريرك القسطنطيني ميخائيل كيرولاريوس (المعروف لدى بعضهم بالشمّاع) . وقد رأينا ان نقسمه الى فصلين : الاول ندرج فيه تاريخ الحوادث على عهد البطريرك فوتيوس . والثاني ما بعد البطريرك فوتيوس الى تمام الانشقاق . ولما كان المؤرخون قد اختلفوا في حقيقة اسباب هذا الانشقاق وبعضهم توهم في حالة الشرق والغرب على عهد البطريرك فوتيوس اوهاماً بعيدة عن الحقيقة رأينا ان نقدم على هذين الفصلين فصلاً نبحث فيه في اسباب الانشقاق وفي حالة الكنيستين في القرن التاسع وبالله التوفيق .

الفصل الاول

في اسباب الانشقاق وحالة الكنيستين في القرن التاسع

قلنا ونقول ان انشقاقات كثيرة حصلت في كنيسة المسيح المقدسة في القرون المتعددة . ولكن الانشقاق العظيم المحزن لكل قلب مسيحي اكثر من

كل انشقاق سواهُ هو الانشقاق الكبير الروماني الذي نحن في صددهِ . فانهُ بنوعٍ خاصٍّ عن غيرهِ قسم الكنيسة الى قسمين عظيمين قويين بدلاً من ان يساعد احدهما الآخر في تأييد الحقيقة وانتشارها بين جاهليها وتشييد بيعة الله المقدسة وقفا احدهما نحو الآخر موقف المحاذرة والتجنُّب واحياناً موقف العدو والمحارب * والامر المحزن اكثر من ذلك هو ان الاسباب الاصلية التي نشأ عنها لم تكن سوى امورٍ دنيئةٍ مصدرها نفسانيات واهواء كبريائيةٌ لم تعالج نسؤ الطالع بقول النبي « الانسان مثل الشعب ايامهُ وكزهر الحقل كذلك يزهر » ولا بقول الحكيم « الرب يعطي نعمةً للمتواضعين » * وان سألنا ما هي تلك الاسباب ومن اوجدها ؟ نسمع اجوبةً مختلفةً بحسب اختلاف مشارب ومآرب مؤرخيها * فاللاتينيون على الغالب ينسبون الاسباب الى الكنيسة الشرقية وخصوصاً الى البطريرك القسطنطيني فوتيوس . والشرقيون على الغالب ينسبونها الى البابوات الرومانيين وخصوصاً الى البابا نيقولاوس . وبعضهم ينسبونها الى الجهتين معاً . والصحيح هو اننا لكي نحكم حكماً حقاً في هذا الموضوع لا يجب ان نعتمد على قول هذا ولا ذاك بل يجب اولاً ان نتذكر علاقات الكنيستين في القرون السابقة وقد حررنا اهمها في ماسبق . وثانياً ان ننظر في حالة الكنيستين وقتئذٍ ومركز وسلطة كلٍّ منهما نظراً مدققاً . وثالثاً ان نعرف مَن كان الاشخاص العاملون في مدة الانشقاق ونفحص من كان المؤرخون الناقلون الحوادث .

قاولاً . قد رأيت في ما ذكرنا الى الآن من علاقات الكنيستين السابقة ان كنيسة رومية كانت بادئ بدء مرتاحةً من حب السلطة والدعوى بها وسالكةً الطريق المسيحية الحقيقية في سياستها الكنائسية . وبما انها كانت الكنيسة الوحيدة الرسولية في بلاد الغرب وكنيسة عاصمة الملك الروماني كلهِ

حصلت على اكرامٍ واعتبارٍ وتقدُّمٍ على سائر كنائسهِ واعتُبرت خزانة التسليم الرسولي فيهِ . ونظراً لما اظهرتهُ من الثبات ضد البدعة الآريوسية التي ازعجت بلاد الشرق وقتاً طويلاً اكرمها العالم المسيحي الشرقي ايضاً . واحياناً يجل بعض اساقفتها بعبارات مديحٍ وثناء اتخذها الغربيون بعد ذلك سنداً لهم وطلبوا ان يؤيدوا بها سيادةً كما تقدم * على ان الكنيسة الشرقية بناءً على مبدإها في تمييز كرامة اساقفة العاصمات عن اساقفة المدن ما انكرت على اسقف رومية كرامتهُ من حيث هو اسقف عاصمة المملكة . ولكنها لما انتقل كرسي الملك الى القسطنطينية ساوت كرامة اسقفها بكرامتهِ وجعلتهُ ثانياً لهُ في الجلسة فقط وقرَّرت ذلك في المجمع المسكونية الثاني والرابع والسادس * غير ان الرومانيين لم يكتفوا بكرامتهم . فطلبوا الحصول على اكثر منها . وكانوا يغتنمون الفرص من وقتٍ الى آخر لاجراء غايتهم وقد ساعدتهم الظروف بارتباك الشرق في قلاقل المرطقات والحروب داخلاً وخارجاً وتسلُّط الامم الغربية على المملكة الرومية وتقويضها وفصل ثلاث بطريركيات عنها وسلب التياصرة حرية بطاركة العاصمة احياناً لاجراء غايتهم . وساعدهم اكثر من ذلك انقسام الامبراطورية الى قسمين شرقيٍّ وغربيٍّ . واستقلال القسم الغربي . وحصول كرسي رومية على امتيازاتٍ من ملوك القوطيين والفرنكيين وعلى ولاية رافينا . ثم بيبينوس واخيراً على السلطة المدنية مع السلطة الكنائسية . وهكذا كانت سلطة رومية في الغرب تنمو وتجسم رويداً رويداً الى ان قام البابا نيقولاوس الاول اعظم المتنصرين لتلك السلطة والمؤيدين بها . وقد اخترعت لهُ مؤلفات مزورة تؤيدها وتُسند اليها بصفة احكام شرعية مرعية واجبة القبول والطاعة . منها الكتاب المنسوب الى الملك قسطنطين الكبير (صفحة ٢٥٤) . ومنها الاوامر الايسيدورية

الثابت تزويرها عند الشرق والغرب من زمان طويل . ومنها ما هو اغرب من ذلك اعني المراسلة بين القديس بطرس الرسول وبين البابوات والملوك مراسلة لا نعرف اي يريد يستطيع ان يتقبلها * وقد رأينا ايضاً ان الكنيسة الشرقية معاً كان الرومانيون يبذلونه من الجهد والجد لتوسيع نطاق سلطتهم باخضاعها لهم كانت تقاومهم في المجامع المسكونية محافظة على الترتيب القديم الكنسي وسالكة طريقاً واحدة مسيحية رسولية * على ان كثيرين من البسطاء قد خدعهم امتداد ابرشية رومية واتساعها فذهبوا الى ان كنيسة القسطنطينية كانت ضعيفة عن ان تقاوم كرسي رومية وان البطريركيات الثلاث الباقية كانت تئن تحت نير العبودية لا تستطيع ان تساعد القسطنطينية بشيء * ولما كان هذا الرأي غير صحيح رأينا بيانه بايضاح حالة كلٍّ من الكنيستين الشرقية والغربية نقلاً عن مشاهير العلماء الباحثين في حالة تلك القرون

ثانياً . اما حالة الكنيستين في القرن التاسع فقد استخرجها العالم وبكام (او بكام) عن جدول أُلِّف في اواخر القرن التاسع بامر القيصر لاون الحكيم يشتمل على عدد الابرشيات الشرقية جميعها واضاف اليه افادات مدققة في حالة الكنيسة الغربية ايضاً * وزبدة ما جمعه هو : ان اسقفيات اسيا الخاضعة رأساً للبطريرك القسطنطيني بما فيها ابرشية ليصوريا التي أُخذت من كرسي انطاكية كان عددها ٤٣٢ ابرشية — وابرشيات اوربا في ايليريا وبلاد اليونان وثراكي ومكدونيه وبلاد البلغار يبلغ عددها ١٦٠ — ثم ان ايطاليا الجنوبية (او السفلى) وجزيرة صقلية ادخلها القيصر لاون الايصوري منذ مائة سنة تحت سلطة بطريرك القسطنطينية انتقاماً من البابا غريغوريوس كما ذكر في محله (صفحة ٢٢٦) . فان حسبنا عدد ابرشيات هاتين المقاطعتين ٦٤ ابرشية فقط (لان ايطاليا واجراءها معاً

كانت وقتئذٍ نحو ٢٦٢ ابرشية) يتضح ان الابرشيات التي كانت خاضعة للكرسي القسطنطيني في القرن التاسع يبلغ عددها ٦٥٦ كرسياً من مطارنة ورؤساء اساقفة واساقفة . واذا قطعنا النظر عن ابرشيات ايطاليا الـ ٦٤ المذكورة تكن ابرشيات كرسي القسطنطينية وحدها ٥٩٢ ابرشية مذكورة في الجدول حيث ورد بصريح العبارة كيف كان البطريرك فوتيوس قادراً ان يجمع في مجمعه اكثر من ثلاثمائة اسقف من الخاضعين له فقط [1] .

ثم ان بطريرك اسكندرية كان يرأس ويقتدي على ١٠٨ اسقف . وبطريرك انطاكية واورشليم على ٢٤٠ اسقفاً وهم تحت حكم العرب . وليست هناك مبالغة البتة . لان بطريرك اورشليم وحده الذي ابرشيته اصغر ابرشيات سائر الكراسي الرسولية جمع قبل هذا العهد بوقت قليل مجمعاً في اورشليم من اساقفته للمذاكرة في شؤون الكرسي كان مؤلفاً من خمسين رئيس كهنة تقريباً * وهكذا كان ثلاثة بطاركة مساوون لاساقفة رومية والقسطنطينية يحكمون على ٣٤٨ ابرشية * ثم ان جزيرة قبرص المستقلة من عهد المجمع الثالث كانت تعد ١٣ اسقفاً * وايضاً بلاد الارمن والكلدان والبلاد الفارسية كان فيها جملة اساقفة منهم ٢٤ اسقفاً استشهدوا في وقت واحد في هذا القرن ولا شك في ان هؤلاء كانوا قسماً من كل . وجميعهم لم تكن لهم علاقة مع كرسي رومية البتة . وفي جهات الهند والعرب ايضاً كان رئيس اساقفة وكان عندهُ اساقفة ومثلهم عند السكوثيين وعند شعوب أُخرى خارجة عن دائرة المملكة الرومية وهؤلاء جميعهم لا يمكن ان نعد عندهم اقل من سبعين اسقفاً . فيكون من ثَمَّ مجموع اساقفة الشرق وحدهم ١٠٢٣ اسقفاً . واذا اضفنا اليهم ٦٤ اسقفاً في ايطاليا الجنوبية وصقلية

(١) بنكام ٥٧:٩

يبلغ العدد ١٠٨٧ اسقفاً . وهذا العدد خالٍ من المبالغة . اذ ان كل مدينة تقريباً كان لها في ذلك الوقت اسقفٌ خاصٌ .

فلننظر الآن في ابرشيات الغرب ففي ايطاليا والجزائر معاً كان كما قلنا ٢٩٣ اسقفاً . فان اخرجنا منهم ٦٤ اسقفاً في ايطاليا الجنوبية وصقلية كانوا يخضعون لكرسي القسطنطينية فيبقى في ايطاليا ٢٢٩ اسقفاً فقط * ثم ان ابرشية كنيسة افريقيا التي كانت في اوائل القرن الخامس تعدُّ ٦٢٩ اسقفاً خرَّبتها الحروب الواندلية والعربية ولم يبقَ فيها اساقفة . على انها حين تحرَّرت من الواندلية حررها القيصر يوستينيانوس الكبير واخضعها لكرسي القسطنطينية وصارت كنيستها تابعة كنيسة العاصمة الجديدة لا القديمة * ثم ان اسبانيا مع كثرة شعوبها ما كانت تعدُّ اكثر من ٧٠ اسقفاً * وافرانسا وجرمانيا ١٢٢ اسقفاً * وفي بريطانيا وايرلاندياً كان نحو ٧٠ اسقفاً تحت احتمال النقص * ولهذه الاسباب كان الباباوات يجتهدون في ان يسترجعوا البلاد التي كانوا يدعون ان القياصرة احرموهم اياها اعني بلاد ايطاليا الجنوبية وايليريا وان يضيفوا الى ابرشيلهم الكنائسية شعب البلغار الذي آمن جديداً بالمسيح على ايدي بطاركة القسطنطينية ويضيفوا ايضاً سائر شعب الصقالبة (الصلاف) كانهم عنصرٌ جديدٌ دخل حديثاً في عدد العائلة الاوربية الكبيرة * فجميع ابرشيات الغرب في ذلك الوقت بعد اسقاط ابرشيات افريقيا المخرَّبة وابرشيتي ايطاليا الجنوبية وصقلية الخاضعتين لكرسي العاصمة لا تبلغ اكثر من ٤٩٧ ابرشيةً وهذا العدد ينقص ١٥٩ اسقفاً عن عدد اساقفة كرسي القسطنطينية وحده الذي كان البابا يجتهد في اخضاعه لكرسيه ضدَّ لكل قاعدةٍ من قواعد الحق . ولهذا اقتضت الطبيعة نفسها من قوتيوس ومن سائر بطاركة الشرق ان

يتكدروا من سلوك الباباوات وتطلُّباتهم الظالمة المضدة للاوامر المسكونية الناشئة عن علاقات رومية مع الممالك الغربية حيث كانت هي الكرسي الرسولي الوحيد وحيث تيسرت لها الفرص ان تحصل عليها على عهد خلفاء القيصر كارلوس الاكبر بمناسبة قيامهم بعضهم على بعض وضعف مملكتهم كما تقدَّم . واما الشرق فلم يكن يعرف لتلك السلطة اثراً ولا اصلاً * هذه هي حالة ابرشيات الشرق والغرب في اواسط القرن التاسع ومنها يتضح ان الكرسي الروماني كان يرأس على اقل من نصف عدد اساقفة الشرق كلهِ او على اقل من عدد اساقفة كرسي القسطنطينية بمقدار ١٥٩ اسقفاً . وان رأي المفتكرين في انهُ كان وقتئذٍ كرسياً عظيماً وكرسي العاصمة والشرق ضعيفاً وهمٌ محضٌ يخالف الحقيقة * فعلينا الآن ان نعلم مَن كان الاشخاص العاملون في مدة المنازعات والناقلون الحوادث .

ثالثاً . فان البابا نيقولاوس كان رجلاً شهدت فيهِ التواريخ المعاصرة لهُ انهُ من عهد البابا غريغوريوس المغبوط الى الآن لم يقمْ في رومية بابا مثلهُ . لان هذا (اي نيقولاوس) قد ساد على الملوك والحكام[1] وبمثابة سيدٍ على المسكونة قد ساد

(١) تاريخ الازمنة لريجينوس سنة ٨٥٨ ومقدمة رسائل فوتيوس صحيفة ٤٣ حاشية ٢ . هذا ما افتخر به البابويون وبالحق انهم افتخروا بما يوافق لا بما يضادُّ الانجيل . والانجيل يعلّم ان تلاميذ المسيح لا يجب ان يكون هكذا فيهم يعني السيادة والسلطة (متى ٢٠ : ٢٥ — ٢٩) وان المسيح ليس قاضياً ولا حاكماً عالمياً (لو ١٢ : ١٣ — ١٥) وان مملكتهُ ليست من هذا العالم (يو ١٨ : ٣٦) وان وطننا في السماء (في ٣ : ٢٠) وان اسقفنا ليست بشرية (اكور ١٠ : ٢ و ٤) وان الرعاة يجب ان يرعوا لا اجبارياً ولا بسيادة بل بحسن النموذج (١ بط ٥ : ١ — ٤) . وآباء كنيسة الغرب القدماء هكذا علموا . منهم اوسيوس اسقف كوردوبا وقد كتب للقيصر قسطنديوس يقول : لا يحل لنا ان نحكم على الارض ولا لك ان تقدم البخور . وغريغوريوس الكبير الذي شبهوا بهِ نيقولاوس والشبيه بعيدٌ سمَّى نفسهُ عبد عبيد الله . غير ان الذين بعدهم قد افتخروا بالسيادة على الملوك لانهم احبوا مجد البشر اكثر من مجد الله .

هو عليهم ». والراهب الجزويتي الاب ميمبورج من رجال القرن السابع عشر قال فيهِ من باب المدح «انهُ في مدة ادارتهِ تسع سنين رفع سلطة اول رؤساء الكهنة الى درجةٍ تسمو كثيرًا عما كانت وخصوصاً من حيث معاملة القياصرة والملوك والدوقين والبطاركة والاساقفة فانهُ سلك معهم سلوكاً فطاً بنوعٍ خاصٍّ عن كل واحدٍ من اسلافهِ في الاوقات التي كان يحال لهُ انهم يخسون امتيازات كرسيهِ»[1]. والمورخ الغربي الفرنسلوي الشهير الاب فلوري وصفهُ وصفاً يُذكّر بناءهُ على عبارةٍ من احدى رسائلهِ الى اسقف اوتون موضوعها سلطة الملوك. حيث كتب البابا للاسقف «انت تقول انك تخضع لحاكم موافقاً الوصية الرسولية. وهذا حقٌّ. ولكن انتبه ان يكون هولاء الملوك والحكام حقيقيين. تبصَّر هل يسوسون انفسهم وتبعتهم سياسةً حسنةً؟ لان الشرير لا يمكن ان يكون من نفسهِ نافعاً. والاَّ فعليكم ان تعتبروهم مَرَدةً وان تقاوموهم بدلاً من ان تخضعوا لهم. فاخضع للملك متى كان يسموعنك بالفضائل لا بالرذائل ومن اجل الله كما اوصى الرسول لا ضدَّ الله». قال الاب فلوري بعد انهُ اورد هذه الجملة «ان البابا لا يعلم ان القيصر الذي امر الرسول بالطاعة لهُ كان وثنيًّا نيرون. وان الرسول نفسهُ اوصى العبيد بان يطيعوا ساداتهم لا الصالحين فقط بل الطالحين ايضاً. وقد جعل البابا الاساقفة قضاةً على الملوك ليحكموا أأفاضل هم ام اشرار؟ ولم يجعل الاساقفة وحدهم قضاةً عليهم بل جعل الرعية ايضاً. لان السبب الذي ذكرهُ يشمل جميع المطلوبة منهم الطاعة لملوكهم»[2]. فلدى رجلٍ هذه اوصافهُ ومزاياهُ قضت الظروف على البطريرك فوتيوس ان ينزل في ميدان النزاع ولهذا السبب وجب ان يكون هو ايضاً طويل الباع عالي الهمة قوي

(١) صفحة ٥٠ (٢) فلوري ٥٠ : ٢٤

الافكار ثابت العزم ليستطيع ان يدافع عن حقوقهِ وحقوق كرسيهِ وحقوق كل الكنيسة الارثوذكسية الشرقية التي كان هو مقدمة رؤسائها. وكان حلُّ هذه المسألة وربطها متعلقاً بخضوعهِ او بمساواتهِ للبابا الروماني ليجري ما يُقرَّر على مدى حياة الكنيسة التي لم تخلُ من نصير يتجند عند الحاجة لتعزيز مبادئها بعناية مؤسسها رب الجنود واله القوات. وهكذا ظهر هذا الرجل العظيم في مدافعتهِ عنها. ولاجل ذلك طعنهُ الرومانيون بمرّ المطاعن وحذا حذوهم بعضٌ من الشرقيين القدماء اما عن عداوةٍ شخصيةٍ لهُ واما عن تحزُّبٍ وتملقٍ لاعدائهِ.

فمنهم متروفانيس ميتروبوليت ازمير واستيليانوس اسقف قيصرية الجديدة وانقس ثاوغنوستوس وقد كتبوا ضد فوتيوس. وكتاباتهم ولا شك مشبوهة لانهم كانوا اعداء الذات لهُ وكانوا يقاومونهُ * ومنهم انسطاسيوس حافظ المكتبة المعاصر لم تستند عليهِ بنوع خصوصيٍّ كنيسة رومية ضد فوتيوس. ولكونهِ كان بعيداً عن مركز فوتيوس وما كتب ما كتبهُ الاَّ نقلاً عن الذين كانوا يودُّون ارضاء احساسات بطاركة رومية لم ترد كتاباتهُ مطابقةً للواقع * وقس عليهم بعدهم نيكيتاس البفلاغوني انتقاسف اعظم اعداء البطريرك فوتيوس (سنة ٨٨٠). فقد كتب ترجمة البطريرك اغنتيوس بناءً على ما سمعهُ من المتقدمين في السن كما قال. وبلا شك ما كتب من ذلك الاَّ ما وفق مشربهُ وغايتهُ اعني قصصاً واخباراً ومطاعن لا يمكن تصديقها عند مقابلتها على رسائل البطريرك فوتيوس عينها وعلى الاعمال المُدرجة فيها. وقد زاد على ذلك اكاذيب مختلقةً لا اصل لها مثل دعواهُ بان فوتيوس اعرض تاج القيصرية على ملك الافرنج والقيصر ميخائيل حيٌّ بعد. وان القيصر باردس رأى في الحلم بطرس الرسول جالساً في كاثذرا الكنيسة ورأى المائدة وعن جانبيهِ اثنين والبطريرك

إغناتيوس يناديه متشكياً ضد باردانس وقائلاً « ياصاحب مفاتيح ملكوت السماوات والصخرة التي ثبّت المسيح الاله كنيسته عليها انت تعلم اني مظلوم فعزّ شيخوختي المحزنة » وان بطرس سأله « مَن ظلمك ؟ فاجابهُ : باردانس . فامر بذبحه » وغير ذلك مما فصّلهُ البطريرك الاورشليمي ذوسيثاوس ونقضهُ ببراهين تاريخية وعقلية [1] . على ان مولفهُ المذكور (المعروف بترجمة اغناتيوس) اعتبرهُ الغربيون عملاً سياسياً ضد فوتيوس ما زالوا يضيفونهُ الى اعمال المجمع المعتبر عندهم مسكونياً ثامناً ومعهُ تقريظ ميخائيل السينكلس البطريرك اغناتيوس ضد فوتيوس * ولم يقصّر عن البَلاغوني سمعان المعروف بالموغيثيت . فانهُ رشق فوتيوس باراجيف وغرائب فاقت بها قريحتهُ على كل قريحة سواها . فمن جملة اراجيفهِ قولهُ ان ابا فوتيوس خطف راهبةً وتبنّاها لهُ عنها انها تلد « ضد المسيح » . وانها هي ايضاً حملت بانها تلد ثعباناً . وان فوتيوس ربّاهُ رجلٌ يهوديٌّ . وانهُ كان متكبّاً على علم التنجيم وما شاكلهُ [2] * فليتأمل المنصفون في هذه الاخبار الغريبة الظاهر بهتانها والغرض بها . فكأنّ حسَب فوتيوس ونَسَبهُ صار متعلقاً باهوائه هذا الكاتب الصادق . فلو كان محباً لفوتيوس لكان فوتيوس حسيباً شريفاً ذا علم صحيح وآداب حسنة . ولكونهِ ليس محباً لفوتيوس قد صار على زعمهِ ذاك الحسيب دنيئاً وصار ابوهُ خاطفاً وامهُ راهبةً ومعلمهُ يهودياً وعلمهُ تنجيماً * ونحن والحق يقال لا نستغرب اقوال هؤلاء المبهتين بقدر ما نستغرب عمل اخوتنا اللاتين بقبولهم وتصديقهم اياها واعتمادهم في تاريخ فوتيوس عندهم وبنائهم اياهُ عليها . لان اولئك المفرضين

(١) ٧ : ١٢ ، ٥ ومثلهُ كثيرون من القدماء والمتأخرين منهم ايليا المنباتي في كتاب حجرة الملك راس ٤ . وغيرهم عدهم طابع كتاب الاسيلوشباتي المقدمة صفحة ١ و ٢

(٢) تاريخ البزنطيين طبع الدندقية سنة ١٧٢٩ جزء ٢١ صفحة ٢٢١ ـ ٢٢٣

وامثالهم فكتبوا ما افتروهُ عن غيرةٍ وحسدٍ وبعضهم عن عداوةٍ . وبعضهم عن تدليسٍ للاعداء . وبعضهم عن حب المكسب . وبعضهم عن قصر عقلٍ . وبعضهم عن غير ذلك من الغايات . واما اللاتين فليس لهم ما يحبرهم على ذلك سوى حب الرئاسة التي ليس لهم اليوم عذرٌ على جهلهم حدودها ولا امل في الحصول عليها كما ابتغى بعض ابائهم السابقين رحمة الله عليهم * ويا للعجب من ان فوتيوس الدنيّ الاصل والتربية والسخيف العقل والعلم على رأي سمعان الاوغوثيت الخطير هو نفسهُ بحسب شهادة نيكيتاس البَلاغوني عدوه الالدّ كان ذا حسبٍ وشرفٍ وعلمٍ يفوق بهِ على جميع اقرانهِ ومعاصريهِ . فكيف نوفق بين هاتين الشهادتين الصادرتين من اخصامٍ يتسابقون في توطئة شأن عدوهم ؟ فمن هنا يتضح ان الكتابات المغرضة هي عينها تكذب بعضها بعضاً وتناقض بعضها بعضاً وان الاستناد عليها لا يُحمَد ولا يحسن برجال الذمة والادب .

اما نحن فعندنا ما نستند عليهِ لنعرف اخلاق وطوية هذا البطريرك العظيم . ولما كانت مرآة المرء اقوالهُ فقبل كل شيءٍ نرى الاستناد على مولفات البطريرك فوتيوس وخصوصاً على رسائلهِ افضل من الاستناد على غيرها لا لكي نعرف حسبهُ وشرفهُ بل لكي نتأكد عنهُ ولطف مزاياهُ . وبما ان اعداءهُ اتهموهُ بالقساوة ضد زميلهِ وعزلهِ عن رأس البطريركية الجليل اغناتيوس نجد في رسائلهِ ما يقنعنا بعكس ذلك اعني ان نجدهُ رجلاً محباً للصدق جسوراً في المدافعة عن الحق حتى انهُ وبخ زلات عظماء الشعب والقيصر انسهِ وجميع مضطهدي اغناتيوس ووبّخ قساوتهم وكان يتوسط عندهم من اجل المضطهدين * وقد عهد القاصي والداني ان تلك الرسائل موعبةٌ من النفس الرسولي والتعليم الانجيلي كرسالتهِ مثلاً الى ملك البلغار المعتمد جديداً وهي مملوءةٌ من النصائح الشاهدة

لهُ بمعارف لاهوتية عميقة . وبقية رسائلهِ الدالة على محبتهِ الرعائية نحو الذين أُصيبوا بسببهِ والمسرة عن ثباتهِ وصبرهِ على مصائبهِ وشدائدهِ ، فضلاً عن كل ذلك عندنا ايضاً مواعظهُ التي قد رفعوا الغرض وكتبوا كتابةً تاريخيةً صادقةً مثل المتوحد جاورجيوس وكذرينوس وزوناراس والقيصر قسطنطين الارجواني (بُرفير وجنيت) وتواريخهم وان كانت مختصرة هي موافقة بعضها بعضاً لا يخطها زورٌ ولا بهتان ولا قصص عجوزٍ خرفان . وهؤلاء المورخون جميعهم ينسبون القساوة التي قاساها البطريرك إغناتيوس لا الى فوتيوس بل الى بارداس خال القيصر كما سيأتي في محلهِ .

فمن بعد وقوفنا على ما تقدم من احوال الكنائس الشرقية والغربية ومراكز الاشخاص الذين كتبوا تاريخ الحوادث ننتقل الى سرد الوقائع على ما يوافق العدل والعقل تاركين الغرض للذي يهواه ومتوكلين على نعمة وعون الله .

الفصل الثاني

في الحوادث التي جرت على عهد البطريرك فوتيوس

---

١ . البطريرك إغناتيوس وفوتيوس

في اواخر القرن السابق سنة ٧٩٧ استقلَّت ايريني الملكة في ادارة المملكة البزنطية (الرومية) . وفي سنة ٨٠٣ قام ضدها احد الاشراف المدعو نيكيفورُس ونفاها وملك هو . ولكنهُ في سنة ٨١١ قُتل في حربٍ ضد البلغار وملك بعدهُ ابنهُ استاوراكيوس شهرين فقط . ثم ملك صهرهُ ميخائيل الاول الملقَّب رنكابيس

لزوج بروكوبيَّا ابنة نيكيفورُس ولكنهُ نظراً لقصر باعهِ في السياسة اضطر ان يتنزَّل عن الكرسي للقائد لاون الارمني طوعاً او جبراً . ثم ترهَّب هو واولادهُ ودخلوا الدير (سنة ٨١٣) وكان لهُ ابنان ثاوفيلاكتوس ونيكيتاس فامر القيصر لاون فخصوهما وسُمِّيا في الرهبنة الاول افسترانيوس والثاني « إغناتيوس » . وكان لاون قيصراً ماهراً ولكنهُ كان محارباً للايقونات * ثم ان ميخائيل الاتنغ احد اصدقاء لاون عقد حلفاً ضدهُ وفي سنة ٨٢٠ قتلهُ الاضداد في الكنيسة وهو يصلي صلاة عيد الميلاد . واقاموا ميخائيل المذكور قيصراً وكان رجلاً غريراً وكافراً يتهكَّم بكل امرٍ مقدَّس ولا يهمهُ دينٌ . ولكنهُ قام بعد قليلٍ ضد الايقونات وحبس مثوذيوس الذي صار بعدئذٍ بطريركاً * وفي سنة ٨٢٩ مات فخلفهُ ابنهُ ثاوفيلوس وكان على ما يُقال رجلاً عدلاً . وقد قتل الذين ساعدوا والدهُ على قتل لاون الارمني . ولكنهُ كان مبغضاً للايقونات بغضاً شديداً حتى انهُ عذَّب كثيرين من الارثوذكسيين بسببها منهم ثاوفانيس وثاوذورُس المخطَّطين . ومنهم مثوذيوس المذكور قبلاً فانهُ بعد تعذيبات عديدةٍ كسَّر فكيهِ وقلع اسنانهُ ونفاهُ ووضعهُ ضمن بئرٍ او قبرٍ مع لصَّين فمات احدهما وكان يقاسي كرب تلك جثتهِ . وقد تزوج بثاوذوره البَفلاغونية . ولما مات سنة ٨٤٢ اقامها وصيةً على ابنهِ القاصر ميخائيل الثالث فكانت ادارة المملكة في يدها . وقد اختارت لها ثلاثة مساعدين وهم اخوها بارداس ومانوئيل اخي زوجها وعمها ثوكتستوس المرغوثيت القديم[1] . وقد اجمعت التواريخ على الشهادة لثاوذوره بانها كانت نافعةً ذات ادارةٍ وتوفيرٍ ودماثة اخلاقٍ وانها كانت من محبي الايقونات . فمن بعد وفاة زوجها اتفق الوكلاء وانزلوا البطريرك يوحنا الكاتب المكنَّى

(١) بابادوبولوس ٤ : ٢٢٣ وبافيدي ٢ : ٤٦ ومقدمة الامفيلوخيا صفحة ٩

بالسحر واقاموا مثوديوس المعترف المذكور بطريركاً (١) فعقد مجمعاً سنة في القسطنطينية صدق على اعمال المجمع السابع . وفي اول احد من الصوم الكبير نُصبت الايقونات المكرّمة وصار ذلك اليوم عيداً سنوياً لرفعها وانتصار الرأي الارثوذكسي . ومن ذلك الوقت ذبلت هرطقة محاربي الايقونات ذبولاً نهائياً فلم تقم لها قائمة . ثم حكم عليها وعلى تبيعها بالآتي ذكرها في مجمعين سنة ٨٦٩ و٨٧٩ .

اما حالة المملكة المدنية فكانت مضطربة من حيث علاقات الوكلاء بعضهم مع بعض ، ومن علاقات القيصر ميخائيل وامه ومن سلوكه ايضاً الذي كان شاذاً عن جادة اللياقة والادب ولكن لا كالبالغ بعضهم فيه الى حدٍ لا يُصدَّق (٢)

(١) نقل المورخون ان هذا القديس كان دائماً صارماً فكبّه برباطٍ لانها كانت مكسرة كما ذكرنا قبلاً والمها من ذلك الوقت جرت العادة ان يربط رؤساء الكهنة عصائب ذكرى لهذا الحادث (ملا ٩ : ٦ ، ٦ وغبكلس ٤ : ٢٢) (٢) لما مات تاوفيلوس كان ميخائيل ابن ثلاث سنوات . ولما شبّ كان مولعاً بالالعاب والمعاشرات الى درجةٍ تحطُّ قدره مبنى على ذلك بعض المؤرخين فصلوا خرجت عن حدود الصدق ، منها انهُ تزوج في السنة التاسعة من عمره عن وَلَعٍ بالشهوات على رغمهم وهذا يزيد عن حقوق الضيعة في ولدٍ قاصرٍ ابن ٩ سنين . ومنها انهم ينسبونهُ الى وَلَعٍ بالملاهي واهمالٍ عظيم بوظائف حالة كونهِ حارب حروباً عظيمة حضرها بنفسهِ ضد البلغار وضد غيرهم من اعداء المملكة وكان شغوفاً على رعيتهِ حتى انهُ لما تضايق في احدى المعارك من قوة العدو نصحهُ القائد ماتوئيل ان يتركهُ ويهرب ليخلص بنفسهِ فمانعهُ « ان انا خلصت كيف يخلص العسكر والشعب ؟ » . على ان كثيراً من تلك الافادات قد ناقضت بعضها بعضاً كما فصّل صوفوكليس الكورنموس في الامبراطوريا (صفحة ٩) . وهذه دلائل تدلُّ على عدم صحة ما نُقل عن اعدائهِ من الاكرام الذي حصل لهُ بعد موتهِ فان القيصر لاون الحكيم (ابن القيصر باسيليوس المكدوني الذي قتل ميخائيل واخذ مملكتهُ) احتفل احتفالاً عظيماً بنقل عظام ميخائيل . وجاورجيوس المنوحد يشهد بانهُ كان رجلاً تقياً وقد شيّد معابد . وثاوفانيس المعترف مولّف قانون ايقونات الارثوذكسية ، ومعاصر ميخائيل يمتدح حسن العبادة (اودكية ١٥) أوهذه كلها شهادات على براءات اعدائهِ وعلى ان خطاياهُ لم تكن رفيقة حياتهِ كما رسموا .

بقولهم انهُ كان مسرفاً وشريراً واحمق وبلا دين ، وجامعاً لكل رذيلة * وقد قلنا قبلاً ان مساعدي الملكة ثاوذوره في ادارة المملكة كانوا ثلاثة . غير ان الشخص الذي كان ممتازاً فيهم بنوعٍ خصوصيٍ كان ثوكتيستوس الموغوثيت . ويظهر ان كل واحدٍ منهم كان يرغب لنفسهِ التقدم والامتياز فنشأ عن ذلك انقسامٌ داخليٌ بينهم وعدم اخلاص منهم بعضهم نحو بعض ، افضى اولاً الى استقالة مانوئيل بسبب نزاعٍ بينهُ وبين ثوكتيستوس ثم الى سجن ثوكتيستوس اعظم مساعدي ثاوذوره وقتلهِ (سنة ٨٥٤) بوشايةٍ عليهِ من بارداس اخيها الى القيصر انهُ عقد النية على التزوج بثاوذوره وباحدى بناتها لخلعهِ ويستقل بالمملكة وانهُ هو ينعها لهذه الغاية عن ان تبيح لهُ التصرف باموال الخزينة كما يريد . فتكدرت ثاوذوره من هذا العمل وصار الميدان رحباً لبارداس ان يستقل هو في الاعمال . فاخذ يقنعها ان بقاءها هي وبناتها في ادارة المملكة غير ممكنٍ ولا يوافقها واخذ ابنها ان يخلع الطاعة لها . غير ان ثاوذوره نظراً للاهانة التي حصلت لها من خلع وقتل ثوكتيستوس ونظراً لمآثرها الحميدة في ادارة المملكة وحسم الخلاف الديني القديم العهد ونظراً لحداثة سن ابنها الذي لم يزد عن ١٧ سنة وميلهِ الى التبذير والاسراف لم ترضَ الاَّ بان تكون هي مستقلة في الادارة . ومن هنا قام النزاع بينها وبين ولدها * اما بارداس فانهُ انضاف الى القيصر ضدها واخذ يساعدهُ على خلعها فقام نزاعٌ آخر بينها وبين اخيها وعداوةٌ ومقاومةٌ على الرئاسة * وكان وقتئذٍ في البلاط رجلٌ اصلهُ من عامة الناس ولكنهُ جميل المنظر ذو عقلٍ ثاقبٍ ومن رجال الحرب المعدودين اسمهُ باسيليوس المكدوني موظف بوظيفة رئيس السيّاس . واذ كان عالماً باحوال

(١) بابا ريغوبولس جزء ٢ صفحة ٢٩٢

البلاط والنزاع الحاصل بين القيصرة وابنها واخيها كان يترقب فرصة ليختفع من ذلك الخصام * وكان ايضا من جملة رجال الدولة في ذلك الوقت رجلٌ اسمهُ « فوتيوس » وُلِدَ في القسطنطينية في اوائل القرن التاسع في عائلةٍ شريفة الحَسَب والاصل . فكان ابوهُ ابن اخي البطريرك طاراسيوس المار ذكرهُ رئيس المجمع السابع المسكوني اسمهُ سرجيوس ووظيفتهُ سيّاف عند القيصر [1] وكانت امهُ ايريني شقيقةً لعديل القيصر ثاوفيلوس [2] . وكان لفوتيوس اخان احدهما اسمهُ سرجيوس باسم ابيهِ ووظيفتهُ سيّاف عند القيصر والآخر بطريق [3] اسمهُ طاراسيوس [4] . وكان والدهُ نقيًّا ومن المتصرين للرأي الارثوذكسي . وبسبب استقامة رأيهما استشهدا في ايام حروب الايقونات وفوتيوس حدث السن [5] . وقد ربي فوتيوس في وطنهِ القسطنطينية وكان منذ حداثتهِ منكبًّا على المطالعة والعلوم . وما شبَّ كان يعلّم الفلسفة وبعض العلوم ويؤلف بكل عنايةٍ واجتهادٍ . وقد اتصف على الخصوص بدماثة الاخلاق والانس والحلم والرأفة نحو الضعفاء والمذنبين من ابناء البشر [6] . وكان رجلاً سامي العقل عظيم النباهة جامعًا في نفسهِ كل مزيةٍ فاضلةٍ وبائنًا في العلم والمعرفة على جميع ابناء عصرهِ لا في علم او علمين بل في جميع العلوم في الفلسفة والطب والفلك والتاريخ واللاهوت واللغة وكل علمٍ حتى قيل فيهِ بحقٍّ ان الطبيعة لم تُحسن بمثلهِ منذ عهدٍ

(١) السيّاف هو واحدٌ من رجال الحرس الملوكي معروفٌ عند العثمانيين باسم « ياور »
(٢) كان للقيصرة ثاوذوره ثلاث اخوات وهنَّ كاتومارياً وصوفيا وايريني . وكانت ايريني امرأة خال فوتيوس فكان خالهُ عديلاً للقيصر (ثاوفانيس ١٧٤ : ٥ ومقدمة رسائل فوتيوس صفحة ٢٣ حاشية ٣) (٣) في رسائل فوتيوس يظهر ان اخوتهُ كانوا اربعة وهم سرجيوس وقسطنطين وطاراسيوس وثاوذوروس (مقدمة الرسائل ٢٤ حاشية ٢)
(٤) رسائل فوتيوس ٢ و ١٤٢ (٥) الامفيلوشيا صفحة ٦ و ٧

لهُ [1] . فان نيكيتاس البفلاغوني المذكور قبلاً قال فيهِ بصريح العبارة « ولم يكن فوتيوس من جنسٍ واطٍ او غير حسيبٍ بل كان من اصلٍ شريفٍ بحسب الجسد ومجيدٍ . وكان يُحسَب من حيث الحكمة العالية والفطنة ابرع من جميع رجال المملكة . لانهُ كان جامعًا علوم اللغة والشعر والفصاحة والخطابة والفلسفة والطب وكل علمٍ تقريبًا من العلوم الخارجية [2] الى درجةٍ جعلتهُ لا ان يمتاز عن جميع ابناء عصرهِ فقط بل ان يسابق فيها القدماء ايضًا . فان كل شيءٍ كان مساعدًا لهُ اعني صلاحية الطبيعة واجتهادهُ والغنى الذي بهِ كان يقتني كل كتابٍ وبنوعٍ خصوصيٍّ عشق المجد الذي بسببهِ كانت تمرُّ عليهِ الليالي بلا نومٍ وهو مواظبٌ على القراءة باجتهادٍ » [3] . والبابا يوحنا الثامن في رسالتهِ الى القيصر باسيليوس قال فيهِ « انهُ رجلٌ عجيبٌ وجزيل الورع وفاضلٌ ثم قال « فاننا نسمع من الذين يحضرون الينا من عندكم جميعهم تقريبًا ان الرجل مزيّنٌ بكل مزيةٍ ترضي الله ممتازٌ عن الجميع من حيث الحكمة والفطنة في

(١) صخرة الشك راس ٥ (٢) يقولو العلوم الخارجية اشتقى علم اللاهوت . وقد ادّعى هذا المولف العزول بان فوتيوس « لما قضى ان يدخل في خدمة الكنيسة اجتهد هذا النسيب في قراءة الكتب الكنائسية اجتهادًا يُذكر » . غير ان هذه الدعوى التي ظنها بعضٌ حطيطةً بشأن فوتيوس ترفع شأنهُ وان صدقت . فضلاً عن انها غير صحيحة . لان كلَّ من قرأ كتابات فوتيوس الكنائسية يرى ان استعمالهُ الآيات الكتابية فيها استعمالاً بديهيًّا ومناسبًا للمقام وغير مكلّف يشهدان كانهما كان محبوبًا بمعرفة الكتب المقدسة لاجتهادٍ في معرفتها وهو منهمكٌ باشغال المملكة في الوظائف العالية . ما لم نقل انهُ أُنزل عليهِ وحيٌ فتعلّم هو في وقتٍ قصير ما عجز عنهُ غيرهُ في وقتٍ طويل . وقد حلَّ اكثر من ٣٠٠ مسألة كتابية مُدرَجة في الامفيلوشيا تشهد بطول باعهِ في معرفة آيات الكتاب ومعانيها بكل تدقيق . (٣) في ترجمة اغناتيوس طبعة مينى جزء ١٠٥ صفحة ٥٠٢

العلوم الالهية والبشرية . ومشهور بانه عامل غير مُعاب للفضيلة الأخرى العملية ولاتمام الوصايا الالهية »[1] . وقس على هذه الشهادات شهادات كثيرة العدد منهم ومن غيرهم من القدماء والمتاخرين ومن اعداء واصدقاء فوتيوس ومن مولفي الشرق والغرب[2] . ونظراً لمؤلفات فوتيوس البديعة اعتبره العلماء ابا لعلوم عصره ومجدداً العلوم القديمة الذابلة وقتئذٍ[3] . وقد شهدت مكتبته الواسعة ومؤلفاته العديدة لعلمه وسعة اطلاعه وعجائب قريحته ودقة انتقاده على جميع مؤلفات سابقيه انتقاداً ما زال الى الآن عفاة الشرق والغرب يعتبرونه اساساً لحكمهم في تلك المؤلفات . ونظراً لاهليته لكل خدمة قد استخدمته الدولة حتى وصل الى رتب عظيمة في مصف الوزراء وصار « بروطوسبكريتس » اي اول سيافوار رئيس رجال الحجة الامبراطورية « وبروطسيكريتس » اي باشكاتب الملكة واول كاتم اسرارها ومستشاراً واول عضو في المجلس الامبراطوري الاعلى وانتُدب سفيراً من طرف المملكة الى بلاد الشرق كما ذكر هو في مقدمة كتابه المعروف « بازبوة الكتب » ونجح نجاحاً تاماً في سفارته . وقد ساعده على التقدم الى هذه الوظائف القرابة بينه وبين ثاوذوره على ما ذهب بعضهم فضلاً عن اهليته معترفين بان الاهلية وحدها كانت كافلة لارتقائه . وكان وهو في تلك الوظائف مواظباً على المطالعة والعلوم كما قال في رسالته الى البابا نيقولاوس * ولا شك في ان انساناً مثل فوتيوس ذا علم واسع ورتب سامية لا يمكن ان يكون جاهلاً قدر نفسه ورتبته ومهما كان تواضعه كثيراً لا يمكن ان لا تلاحظ عليه دلائل يتوهم بسببها من يراه انه على شيء من الكبرياء والاعجاب الذي

(١) وهذه الشهادة تنفي دعوى نيكتاس السابقة (٢) يوحنا والياس في مقدمة رسائل فوتيوس صفحة ٦٩ اورد ٢٣ شهادة منها (٣) مقدمة امفيلوخيا صفحة ٨

يسهل تصديقه على ذوي المناصب العُلى . وهذا هو الوجه الوحيد الذي يراه اعداؤه صالحاً للطعن فيه[1] . غير ان هذا الطعن لا يحل محله على شخص دافع

(١) قال المؤلف الفرنساوي جاجر مولف ترجمة فوتيوس وهو من المدّ الذين طعنوا فيه « ان فوتيوس قد حصل من الطبيعة على افضل المواهب التي منحتها لانسان اعني عقلاً سامياً وزكاة عيقاً وفريحة مستعدة ونباذاً وصرامة وحبّ مجد وقوة مائتر . ارادة الآن من الذهب ما قسى من الحديد . وقد كان عاشقاً للعلوم هائماً بها يطوي الليالي بطوله في خدمتها فصار خطيباً مصقعاً ومولفاً ماهراً في النثر وفي النظم واحياناً يسابق بعراعته المولفين البارعين القدماء . وقد نعلم كل علوم عصره والاعصر السالفة وفاق فيها على كل معاصريه غيره . . . وزد على ذلك انه كان ذا صورة جميلة وقامة مهيبة عفيفة وخُلق لطيف ومزايا وديعة الى اكثر ما يلزم او يشاء رقيقة جداً وبالاجمال حاوياً جميع الاوصاف الخارجية التي تجذب الناس وتصيدهم بسحر لا يوصف . ومن ذلك يمكنا ان نفهم كيف هذه المزايا الجميلة المهمة قد اجتمعت كلها جديرة واحدة واوجبت لفوتيوس تميزاً عجيباً عن سائر ابناء زمانه . لانه كان متقناً كل الاتقان الصناعة في ان يجعل نفسه محبوباً من جميع الاصدقاء ويجعلهم محامين اقوياء عن صيانته . . . فاذا كان ينقص هذا الانسان العجيب ؟ كان ينقصه التواضع المسيحي . فلو كان فوتيوس مالكاً هذه الفضيلة الثمينة لكان خدم الكنيسة خدماً عظيمة وجعل اسمه مباركاً عند المتاخرين . ولكنه كان اسيراً لكبرياء لا لجام لها ومصاباً بحمية رئاسة مهولة . وهذا كان سبب التهور الكثير والشر الذي سببه هو للكنيسة . . . وبالاجمال نجد في هذا الرجل مزايا كثيرة ونقائص كثيرة كلها عجيبة تفوق الحدود وهي العلم والفضيلة والشر » هذا ما قاله المولف جاجر الفرنساوي معلم التاريخ في صوربون (وقد نقل وجمع في نار يحمو كل شتيمة وكل طعن على فوتيوس) فهو من جهة يشهد بفضيلته ولا يرتاب . ومن جهة يتهمه بالكبرياء والشر ويبني مطاعنه عليها . فالاول مقبول لانه شهادة صادرة من خصم . والثاني كذلك لو كان ممكناً الجمع بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة والكبرياء ولين العريكة . وهذا قال الكاهن باسيليف الروسي رئيس كنيسة باريز « ان كتاب جاجر هو تاليف لقّاء اباة الوسواس والهوى » وقال المؤرخ ملمان الانكليزي كاتب تاريخ الكنيسة اللاتينية « ان كتاب جاجر قمر خال من الاخلاص وعدم المحاباة » جزء ٢ صحفة ٢٤٨ و ٢٥٠ ورسائل فوتيوس صفحة ٥ و ١٤٩

عن مركز يخصهُ بل انما يحلُّ على شخص اعتدى على مركز لا يخصهُ كما سيتضح. فنظراً لما كان عليهِ فوتيوس من سموّ المنزلة ومكانة العلم ورزانة السلوك كان بالطبع محبوباً في البلاط ومعتبراً من الملك ومن بارداس وباسيليوس المكدوني ومعدوداً من اخص رجال المملكة.

هذا ما كان من جهة حالة المملكة وقتئذٍ ومن جهة مركز فوتيوس ومركز إغناتيوس الذي تركناهُ هو وعائلتهُ رهباناً في الاديرة على ما اوضحنا. فلننظر الآن كيف كانت الاحوال الكنائسية.

ففي السنة السادسة للملك ميخائيل (٨٤٧) انتقل البطريرك مثوذيوس فانتُخب خليفةً لهُ إغناتيوس السابق ذكرهُ رجلٌ تقيٌّ متعبد لله وغيور على استقامة الرأي ولكنهُ شيخٌ بسيط القلب تليق بهِ العيشة النسكية اكثر مما تساعدهُ خبرتهُ على ادارة كرسي البطريركية. وقد وصفهُ المورخون بالكبرياء والحدّة الناشئين عن اعجابهِ بحسبهِ الملوكي وبالصرامة العظيمة ضد المذنبين الناشئة عن عيشتهِ ثلاثين سنةً في دير على ظهر جزيرة (اتهما بريتكيوس) وهو خصيٌّ (او كما تقول العامة طوانيّ).[1] وقد قال فيهِ نيكيتاس اعظم مادحيهِ «انهُ كان مشهوراً بالترفُّع والمحافظة ضد الكذب وكل ظلم. ولكنهُ لم يعلم ان المحافظة كثيراً ما كانت مضرّةً مثل الزيت على النار كما جرى بالفعل في جملة حوادث من اعمال هذا البطريرك الجليل الذي مهما كان عليهِ من الفضيلة لم يخلُ من الضعف البشري اسوةً بكل انسان. فان الاساقفة لم يتفقوا جميعهم على انتخاب البطريرك إغناتيوس بل كان حزبٌ منهم معارضاً لهُ. منهم بطرس اسقف ساردس وافلامبيوس اسقف ايامية وخصوصاً غريغوريوس ازبستاس اسقف

(١) ايكونوموس في النسخة السبعينية جزء ٤ صفحة ٢٥٢

ميراكوسا في صقلية رجلٌ عالمٌ وخطيبٌ ومصوّر بارعٌ وجسور[1] وكثيرون غيرهُ من الاشراف[2]. اما السبب الذي اوجب معارضتهم انتخابهُ فهو كونهُ خصياً على ما يُرجَّح. وقد ظن بعضهم ان غريغوريوس كان يهوى الرتبة لنفسهِ وهذا ظنٌّ لا حقيقة. وبعضهم قال غير ذلك طعناً عدوانياً بآداب غريغوريوس كما سيأتي. والحاصل ان إغناتيوس ارتقى سدّة البطريركية المسكونية بمساعدة القيصرة ثاوذوره التي كانت تعتبر فضيلتهُ وكانت وقتئذٍ قادرة على كل شيء. ففي يوم غرطونيتهِ بطريركاً سمح لغريغوريوس ان يلبس بدلتهُ الكنائسية ليخدم القداس. ولكنهُ في نصف الخدمة طردهُ من الكنيسة وهو لابسٌ بدلتهُ ولم يسمح لهُ ان يتمم القداس. فعظمت هذه الاهانة على غريغوريوس وعلى كثيرين غيرهِ. ومن ثم شرع في ان يقاوم البطريرك. قال نيكيتاس البَلاغوني صديق إغناتيوس «وقد رأى الاكثرون ان البطريرك لم يعمل في اول الامر هذا العمل حسناً ولكنهُ عملهُ بعدل. وبعد ذلك من يستطيع ان يصف خصام ذلك الصقليّ الشرير ومقاومتهُ وحقدهُ بسبب هذه الكلمة الصغيرة؟[3]». قالهُ حالما سمعها لم يرزن للقول ولا استرعيهُ كانسانٍ عاقلٍ بل رمى شمع الشرطونية من يديهِ وقلّل حياءهُ امام كل الكنيسة وخاصم البريَّ خصاماً عظيماً. وكان يقول بجنونٍ انهُ قام في الكنيسة ذئبٌ لا راعٍ. وقد تبعهُ بطرس اسقف

(١) بابا ريغوبولس ٣، ٨٠٥ وقد اخطأ من ظنهُ ابن لاون الارمني (مقدمة الامفيلوشيا صفحة ١٠ حاشية ٢ وفلاتيوس ٩: ٦: ٤٠٥) (٢) وبعضهم قال ان فوتيوس كان من جملتهم لان اغناتيوس كان على قولهم يطعن بآداب القديس مثوذيوس الناصل الذي كان فوتيوس يحترمهُ. مقدمة الامفيلوشيا صفحة ١١ (٣) عنى بقولهِ الكلمة الصغيرة اهانة الاسقف غريغوريوس وطردهُ امام الشعب كلهِ من الكنيسة وهو لابسٌ بدلتهُ وهذا برهانٌ على صدق هذا المورخ (!!!)

سارجس المسمّى بالنفاش وافلاميوس اسقف ابامیا وبعضاً آخر من معتبري الاكليرُس[1] وانشقوا عن الكنيسة بلا سبب. وكان إغناتيوس يجتهد في كل مدة الاحدى عشر سنة مدة بطريركيته الاولى ويعرض عليهم كل اكرام بالاقوال وبالهدايا فلم يستطع ان يطفئ شرآزيتاس. بل كان الدنس (اي غريغوريوس) يطوف كل بيوت العظماء يقدح بالقديس ويطعن عليه مراً المطاعن ولا يرضى بان يسميهُ مسيحياً على الاقل. وكان فوتيوس واقرباؤهُ يكرمونهُ بنوعٍ خصوصيٍّ عن الجميع ويعتبرونهُ رجلاً عظيماً من رجال الله. هذا ما قالهُ نيكيتاس. غير ان التاريخ يشهد بان إغناتيوس عقد مجمعاً قطع غريغوريوس من دون ان يحاكمهُ وشرطن بدلاً منهُ ثاوذوتوس (سنة ٨٤٧) وارسل الحكم الى البابا لاون الرابع ثم الى بنيديكتوس الثالث ليوافقهُ عليه فلم يبدِ برأيهِ فيه[2]

وبعد هذه المدة (سنة ٨٥٦) حدث حادث شنيع في البلاط. فان القيصرة ثاوذوره لما رأت نفسها في خطر السقوط بعد وفاة ثاوكتستوس جمعت المجلس الاعلى وقدمت حساباً وسلّمت المملكة وخرجت هي وبناتها كلهنَّ من البلاط منحيات عن الاعمال. واما بارداس فأقيم في وظيفة أمين البلاط وكان قادراً على كل شيء عند القيصر ميخائيل. وقد انشأ مدارس عديدة بمساعي ونصائح فوتيوس واعتنى في تقدم العلوم. وجمع رجالاً حكماء يعلّمون الفلسفة والهندسة والفلك واللغة واقامهم معلمين مجاناً وعين لهم رواتب وكان يفتقد المدارس هو

(١) اللاتين كتبوها «من اديناء الاكليرُس» ولكنهم اخطأوا كما اوضح المكبوس وفندان الفريمان (مقدمة انفيلوشيا صحيفة ١٠ حاشية ١) (٢) تاريخ ملاتيوس. ورسالة البابا نيقولاوس ان القيصر ميخائيل. وتند البدي صحيفة ٢٥ وفلوري ٥٠ : ٢ ورسائل فوتيوس صحيفة ٢٩ وجدعون في حياة اغناتيوس صحيفة ٣٨٠

بنفسهِ ويحرض على تعلم الشرائع المدنية التي كانت معرفتها قليلة جداً[1]. وكان لهُ ابنان احدهما رئيس للحرس الملوكي والآخر رئيس العسكر في المقاطعات الغربية. ولكن احد ابنيهِ مات فبقيت امرأتهُ افدوكيا في بيت والدها بارداس. ومن سوء الطالع حصل نفورٌ بين بارداس وبين امرأتهِ لشبهةٍ وقعت لهُ عليها على دعواهُ فطردها من بيتهِ ولا نعلم أعدلاً كان ام ظلماً. لان ما يقع بين الزوجين يصعب تحقيقهُ. وكثيراً ما كانت امورٌ لا طائل تحتها ولا غاية منها مثل نظرةٍ او تبسمٍ او وقفةٍ او لبسٍ او كلمةٍ او لحظٍ سبباً لتأكيد شبهةٍ سابقةٍ اذى الى نزاعٍ بينهما وخراب بيتهما من دون ان يكون هناك داعٍ حقيقيٌّ. ولا يبعد ان الحماة والكنة لم تكونا على مشربٍ واحدٍ فقامت المشرور ولا شرَّ الاَّ شر النساء. ولما كانت امرأة بارداس من اصلٍ شريفٍ التجأت الى اقاربها وخصوصاً الى الملكة ثاوذوره اخت زوجها لعلمها ما بينها وبينهُ من البغضاء. وكانت تستمد المساعدة ضدهُ وتتهمهُ بانهُ كان عشيقاً لكنتهِ وانهُ انما ابغضها حباً بتلك وانهُ تجاسر ويضاجعها ايضاً ضداً للشريعة. فتكدرت ثاوذوره من هذا التقول وتكدرت اكثر من الخبر القبيح. ولما كان البطريرك إغناتيوس بمقت الرذيلة ولا يطيق سماعها وصديقاً صدوقاً للملكة ثاوذوره ومكدَّ الخاطر من طرف البلاط بجملتهِ نظراً للفساد السائد على كثيرين فيهِ وخلع ثاوذوره وكان خبر بارداس وامرأتهِ وكنتهِ قد شاع في المدينة وفي الخارج ايضاً فقام هو نصيراً للامرأة المطرودة واخذ يوبخ بارداس وينهاهُ عن الغرام وينصحهُ ان يقبل امرأتهُ. وبما ان بارداس ابى قبول نصيحتهِ ففي يوم عيد الظهور الالهي سنة ٨٥٧ تقدم بارداس مع القيصر ليتناول الاسرار الالهية فابى البطريرك مناولتهُ وطردهُ خارج الكنيسة

(١) مقدمة انفيلوشيا ١١ حاشية ٧

المكدوني الذي كان يود دوام التنور في البلاط وتجريد القيصر من ذويه ليحصل على رغبته في خلعه او قتله اياه وضبط كرسيه وسلطته . وكلٌّ يعلم ان الشبهة قريبة من الروساء وان الوشاية لدى الاولياء تجد ابواباً مفتوحة واذاناً سامعة . واما البراءة والحقيقة فلا تجد الاَّ ابواباً مقفلة واذاناً صماء . فصدق القيصر كلام باردس وباسيليوس واشتبه في امه واخوته واغناتيوس معاً . وقرَّ رأيه ان يتخلَّص منهنَّ ومنه ليأمن على مركزه . فامر اغناتيوس ان يسيمهنَّ راهبات في احد الاديرة . ولكن اغناتيوس سألهنَّ اهل يردنَ الدخول في سلك الرهبنة ؟ فلكرنَ . فتمنَّع عن اجابة طلب القيصر بقوله : ان القانون يقتضي منهنَّ الارادة وعنَّ لا يردنَ ان يترهبنَ فاجبارهنَ يخالف القانون . حينئذٍ تحقق عند القيصر انَّ اغناتيوس ايضاً متحزب لثاوذوره . وانه عدوٌّ له يبغي تنزيله واعادة امه . فعقد النية على عزله وبعد وقتٍ قليل صارت نيته فعلاً . فاولاً ارسل امه واخوانه الى البلاط المعروف بكاريانو حيث سُجنَ راهبات . ثم امر اغناتيوس ان يتنزَّل عن كرسيه . واذ كان اغناتيوس عالماً نية القيصر قدَّم استعفاءه « لكي لا يخلع باهانة » على ما قال صديقه بلاغون . غير ان حزبه تشبَّث به اولاً ومنعوه عن المجيء ولكنهم بعد استعفائه انقلبوا عليه ثلاثة واعرضوهم على القيصر حسب العادة ليسمي واحداً منهم . على ما ذكر ميتروفانيس [1] . وكان اليوم الذي ترك فيه اغناتيوس كرسي البطريركية ٢٣ تشرين الثاني (١ كانون) سنة ٨٥٧ حساباً شرقياً (لان الحساب الغربي ما كان وقتئذٍ معروفاً) وبقيت الكنيسة اكثر من ٢٥ يوماً بلا راعٍ . وكان القيصر وباردس ومجلس المملكة واكثر رؤساء الكهنة واشهرهم يفتكرون في مَن هو كفوٌّ لان يقوم باحتياجات الكنيسة . ثم عقدوا مجمعاً واتفقوا

(١) رسالة ميتروفانيس صفحة ٢٧ و بلاغون صفحة ٤١ وتساليدي صفحة ٢١ و٢٢ .

على ان اقامة شخصٍ مشهورٍ من حزب اغناتيوس لا بد من ان تكون داعياً لدوام النزاع بين السلطة والكنيسة . وان الشخص المنتخب يجب ان يكون رجل سلامٍ يتوسط الوفاق بين الجهتين . وان يكون ايضاً رجل همةٍ ونشاطٍ ليدفع الحرطقات التي ما زالت الى ذلك الوقت تحارب الكنيسة بعد ما اخذت تذبل وكان اغناتيوس عاجزاً عن ان يقاومها نظراً لسنه وبساطته . فاتفقوا جميعاً على انتخاب فوتيوس كاتم اسرار المملكة وقتئذٍ المشهور بالدراية والحكمة والفضيلة والتقوى والوداعة والعفة الطوعية لا الطبيعية كما زعم بعضهم [1] . غير ان اقامة

(١) المؤرخ الغربي بارون اتهم فوتيوس بانه كان خصياً ليبين ان شرطونيته تخالف القوانين . والذي ساقه الى هذه التهمة عبارة قرأها في رسالة البطريق يوحنا الى فوتيوس على زعمه وهي قوله « ان المتغلبين اليونانيين بعصبونك الى اكيس وبعصبونك افرنجياً وبخصونك في الحرم (محل السراة) ولعلهم بك يعصبونك خُتِّي » وقد تبع بارون كثيرون بعده من اللاتين المتأخرين في هذا الطعن على فوتيوس . غير ان بارون ضلَّ عن الصواب . لان الرسالة ليست من يوحنا الى فوتيوس بل من فوتيوس الى يوحنا . وقد كتبها له يوبخه على جبانته ووقاحته الموصوفة بها طبيعة الخصيان لانه تصدَّى على الامور الكنائسية وهو بطريقٌ مدنيٌّ وخليفة مناظرة جباية الاموال الاميرية (طوموس خارتس صفحة ٢) . وقد انخدع ضلال بارون ونقله كثيرون من الغربيين اللاتين والدروتستانت (مقدمة الامفيلوشيا صفحة ١٢) * على اننا اذا فرضنا المحال وقلنا ان فوتيوس كان خصياً فلا يحطُّ ذلك بقدره ولا ينافي قانونية شرطونيته . لان القانون لا يمنع كل خصيٍّ عن درجة الاكليرس بل يمنع الخصيان الذين خصوا انفسهم فسقطوا في نوعٍ من القتل . وقد قال قانون الرسل « ان الخصي اذا كان مُعدَماً آلة الرجال من غصب الناس في اضطهادٍ او كان مولوداً خصياً وكان اهلاً فيصير اسقفاً (قانون ٢١ قابل عليه القوانين ٢٢ و٢٣ و٢٤ الرسل و١ المجمع الاول و٨ للمجمع الاول والثاني) . على ان البطاركة جرمانوس واغناتيوس كانوا خصياناً ومع ذلك يعتبرهم اللاتين قديسين فضلاً عن كونهم لا يرفضونهم . والنتيجة ان فوتيوس لم يكن خصياً بل غرض اخوتنا اللاتين قصداً جعلهم يختلقون له عيوباً لا اصل لها كدعواهم عليه بانه كان سكيراً وهو من اشد

فوتيوس بطريركاً لم تكن امراً سهلاً . لان فوتيوس كان عائشاً حياةً مرتاحة ولم يرض ان يبدل تلك السكينة بتعاب السدة البطريركية وهمومها وبقلاقل الشعب المحافظ ومصاعب سياسته (١) . غير ان الجميع كانوا يتضرعون ليقبل . واذا اصر على الرفض حبسهُ بارداس ليخضع للسلطة والكنيسة واخيراً قبل . فانصف اليوم حينئذٍ كافة الاغناتيين ماعدا خمسة اساقفة فقط كما شهد متروفانيس عدو فوتيوس حيث قال « وبعد ذلك انحاز الجميع تقريباً ماعدا خمسة كنت انا واحداً منهم » (٢) وهكذا بانتخاب الاساقفة ورضى الشعب اخذ يعلو فوتيوس درجات الكرسي القسطنطيني التي وصل الى اعلاها في ستة ايام (٣) . ففي اليوم الاول

للافنين المكرَّ (رسالة ٥٠) وقد قال فيهم والبابا عابع رسالاته « انهم يتسللون في الطعن عليه حتى يرى من قرأ مراثيهم ان تائبهم اولهم وقائلهم تائبهم وعلمٌ جرّا . فيا ايها يجتهدون ان يردوا على الدواهين المدافعة عن فوتيوس لانهم ليس لهم ما يردون به عليها فيقتصرون على جمع المطاعن عليه ويصرفون النظر عما ورد له او يدعون بانه تزوير وهذا العمري ليس من شأن المؤرخين (رسائل فوتيوس صفحة ٥ و٦ وفوتيوس ٧ : ١٢ : ٧)

(١) رسالة فوتيوس الى البابا نيقولاوس (٢) الاربعة الباقون كانوا متيليانوس اسقف قيصرية الجديدة وقسطنطيوس اسقف برجي وبرجا الكرمالي وبرجا اللاودكيوني . اعمال المجمع الثامن للباوي صفحة ٢٧١ وتعداليدي صفحة ٢٢)

(٣) قال متروفانيس اسقف ازمير ان فوتيوس ما انتخب من الاساقفة بل من بارداس وحده ضد ارادة الاساقفة . ولكنهُ هو نفسهُ قال ايضاً ان الاساقفة انحازوا الى فوتيوس ما عدا خمسة وهو واحد من الخمسة . وهذا واضح غرضهُ . لان الذي ما استطاع ان يجبر الخمسة الغير المنحازين كيف استطاع ان يجبر سائر الاساقفة على القول ان لم يريدوا . وان كانوا ارادوا فكيف انتخب فوتيوس ضد ارادتهم ؟ فليتأمل المنصفون على ان بيكتاس نفسهُ قد شهد بان القيصر عقد مجمعاً وان الاساقفة المجتمعين « قد افتكروا كثيراً لوضع وقبلوا كل رأي » ثم ان مدير ارشيف كنيسة للعاصمة فوتيوس الذي كان رئيس الشمامسة واول كاتم الاسرار ، فكيف يوفق بين شهادات الاضداد المتناقضة ؟ (رسالة صفحه ١٢١)

سيم متوحداً وفي الثاني الاغنوسطا وفي الثالث ايبوذيكونا وفي الرابع شماساً وفي الخامس قساً وبعد شرطونيته فسأجرت الجلسة الرسمية لانتخابه فشرطن اسقفاً وبطريركاً في ٢٥ كانون من السنة المذكورة ٨٥٧ وهو اليوم الذي فيه تعيد الكنيسة ميلاد المخلص الالهي . وكان المتقدم في شرطونيته الاسقف غريغوريوس آزيمندس السابق ذكرهُ الذي كان اغناتيوس عزلهُ من ابرشيته وبعضهم يقول قطعهُ ولكن المجمع بعد خلع اغناتيوس برّأهُ كما سيأتي في القول (١) .

على ان كثيراً من هذه الحوادث نسبها بعض المؤرخين الى باسيليوس المكدوني وقالوا ان الراهب جيون المذكور الذي ادعى بالنبوية لتاودوره لما كان مدفوعاً منهُ فجعل بواسطته شقاقاً بين القيصر وامهِ وبارداس واغناتيوس . ثم لما عُزل اغناتيوس كان هو من المساعدين على تنصيب فوتيوس لجملة مقاصد : اولاً ليحصل على الوجه الابيض من طرف القيصر وفوتيوس وبارداس والمجمع بتظاهرهِ انهُ واحدٌ من عشاق فضائل فوتيوس صديقهِ وعشيرهِ ورصيفهِ في تربية اولاد القيصر لاون واستفانوس (٢) . ثانياً لكي يزيد غيظ حزب اغناتيوس ضد القيصر وبارداس وحزبهما . وثالثاً لكي يبعد عن القيصر يدهُ اليمين فوتيوس اول كاتم اسراره الذي كان رجلاً عاقلاً قديراً ان يستدرك المستقبلات ويحاذر المخاطر وينفع القيصر والمملكة بنصائحهِ . ولا بعد ان يكون نظر المؤرخين في محلهِ . غير ان باسيليوس لم يستكمل بذلك كل غايتهِ . فمن بعد ارتقاء فوتيوس بوقتٍ قليلٍ اخذ يحرك حزب اغناتيوس وخصوصاً (الذين املوا ولم يحصلوا على البطريركية) ليقيموا الحجة على فوتيوس ويرفتوه ليجعل نفوذ ابنائهِ منهُ وهكذا كان .

---

(١) رسالة البابا نيقولاوس ومقدمة الامبلوغ (صفحة ١٩ حاشية ١

(٢) كانا لاون فقط لان القيصر في هذا الوقت ما كان سنهُ اكثر من ١٦ سنة .

فان فوتيوس بعد ان علا الكرسي البطريركي اخذ يسعى في اصلاح شؤونه وقبل كل شيء كان يجتهد في إزالة الخلاف بينه وبين الاساقفة الخمسة الذين رفضوا قبوله وبقي اربعين يوماً مسالماً الاغناتيين على ما قال نوفنوسيوس او كما قال نيكيتاس شهرين كاملين. ومن بعد هذه المدة قام النفور والخلاف بين فوتيوس وحزب إغناتيوس. وقد زعم بعض المؤرخين (حزب اغناتيوس) ان فوتيوس كان سبب النفور لانه قبل الشرطونية دفع صكاً يعترف فيه لاغناتيوس «بانه يعرفه بطريركاً بريئاً ولا يطعنه بلوم ولا يشترك مع طاعنيه — وانه يكرمه اكراماً ابوياً ويعمل كل شيء تبعاً لارادته ولا يحزنه بامر»[1]. ولانه بعد شرطونيته حنث في اقسامه ونكث وعوده واهان اغناتيوس. قال البَلاغوني «ولم يمضِ شهران بعد الشرطونية الاَّ وحنث فوتيوس نفسه في اقسامه واولاً سجن جميع الذين وجدهم من رجال الكنيسة محبين للبطريرك (إغناتيوس) وعذبهم بتعذيب وجلدات جائرة ثم تملقهم واعرض عليهم هدايا ووعدهم بترقية وظائفهم وطلب منهم صكوكاً وكان يغتصبهم بكل الوجوه طالباً علة ضده ليبيده. واذ لم يحصل من اجتهاده على شيء مما كان يشتهيه وسوس لبارداس الشرير ويخاتيل الابله ليرسل ويفحص فحصاً مدققاً عن اغناتيوس كيف يقلق راحة المملكة خفية». هذه هي اسباب النزاع على رأي اضداد فوتيوس. ولكن هذه الاسباب ليست صحيحة. لان فوتيوس ما دفع صكاً ولا كان طالباً منصب البطريركية ليقبله تحت شروط ولا اهان اغناتيوس اذ لم يكن داعٍ للاهانة فضلاً عن الارادة كما قالوا. وانما قبل البطريركية غصباً وبارادة حزب اغناتيوس وجميع الاساقفة ما عدا الخمسة وبارادة وقبول اغناتيوس نفسه (كما بيّنهم من شهادة الاخصام بان إغناتيوس

(١) مترفانيس ونيكيتاس (المثلوثيا صفحة ١٦)

اخذ صكاً من فوتيوس قبل ان يقبل بالمعنى انه قبل!. فالسبب الوحيد اذاً كان الاساقفة الخمسة المذكورين والعداوة التي بينهم وبين بارداس وزد على ذلك حركات باسيليوس المكدوني والعداوة التي كانت بين اغناتيوس المستعفي وغريغوريوس آزبستاس. لان شرطونية فوتيوس من غريغوريوس آزبستاس كدّرت ولا شك احساسات اغناتيوس والاساقفة الخمسة فكانوا ضمناً متكدرين ولكنهم لم يستطيعوا ضده شيئاً لان الاعمال كلها كانت قانونية وآزبستاس ما شرطن فوتيوس الاَّ بعد ما حلّ المجمع من التوقيف عن الخدمة. فبوساوس المكدوني ندم اغناتيوس على ما فعل وابى ان يعرف فوتيوس بطريركاً. وقام اولئك الخمسة وسحبوا آخرين معهم وحركوا ألسنتهم ضد بارداس فكانوا يشتمونه ويهينونه في الازقة والشوارع بلا خوف ولا نظر في العواقب. فاحتدم بارداس غيظاً ضدهم بسبب الاهانات واخذ يقابلهم بقسى معاملة. فجلد بعضهم وعذّب بعضهم عذاباً أليماً وقبض على القس افلاسيوس حافظ الاوراق وقطع لسانه جزاء تشنيعه بحق القيصر وافرط في القساوة حتى ان فوتيوس ما امتلك نفسه من الكدر بل وبخه ولامه وردعه عن قساوته. ومع ذلك ما استطاع شيئاً بل خسر الامنية من الجهة الثانية ايضاً اعني من طرف القيصر وبارداس. لان باسيليوس المكدوني صوّره لهما بصفة منحاز الى اضدادهما ومدافع عن اعداء الراحة. فيا ان اغناتيوس ايضاً وحزبه نسبوا كل قساوة بارداس الى حركات فوتيوس كما قرأنا في عبارات البَلاغوني. واذ كان فوتيوس عالماً بحركات المكدوني كتب للقيصر ولبارداس ايضاً ينهاهما عن تصديق الوشايات ويذكر بارداس ببيت هيرودس وابنه انديبتروس[1] ويقول له «أن لا يسلم نفسه الى

(١) رسالة ١٦ - قال فوتيوس «واما انت فان كنت لا تريد ان تدعوني ذعنك

الوشاة مثلاً يفرغ بيته من الاصدقاء والاقرباء .. على ان الاغناتيين لم ييئسوا من امكانهم مقاومة بارداس وجهزوا سهامهم ضد فوتيوس وقاموا يتهمونه بكل مصائبهم وحركوا رئيسهم اغناتيوس ضده . فاهانه وكان يسميه لصاً وزانياً (لا بمعنى السرقة والزنا بل بمعنى التعدي على ابرشيته كما كان يظن) . وقد ورد في اقوال ثاوغنوستوس صديق اغناتيوس كلام منقول عن لسان اغناتيوس نفسه ضد فوتيوس هذا نصه « فانه لو كان ذاك الزاني (يعني فوتيوس) من الكنيسة لكنت وافقته طوعاً . واما الآن فكيف اجعله راعياً لخراف المسيح وهو غريب فان اموراً كثيرة تضاده . وأحدها كونه من المشاقين والمحرومين » . وقد انضاف الى حزب اغناتيوس كثيرون من الذين تركوه قبلاً وانضافوا الى فوتيوس . وما اكتفوا بانهم اهانوا وطعنوا بل اجتمعوا كلهم مجمعاً واحداً في كنيسة القديسة ايريني ورفضوا فوتيوس بمثابة ساقط من الدرجة الاسقفية وغريب من كل خدمة كنائسية وناديوا باغناتيوس بطريركاً حقيقياً على كرسي القسطنطينية وصاروا سبباً لان يزداد الشعب في الكنيسة وتكثر القلاقل في العاصمة . لان عملهم كان اهانة عظيمة لبارداس والقيصر ميخائيل معاً فضلاً عن فوتيوس وقابليه والمنتصرين له . ولهذا السبب اخذ حزب فوتيوس ايضاً يدفع تلك الحركات ويؤيد اعماله . فالتأم مجمع منه في كنيسة الرسل القديسين الغى كل ما قرره مجمع الاغناتيين وجرد اغناتيوس من كل سلطان كهنوتي لعلتين :

مثالاً آخر من الامثلة القديمة فانهض ولاحظ بيت هيرودس واحوال انديبتروس الخ » . اما قصة هيرودس فهي انه كان لانبرس من امرأة سابقة اسمها انديبتروس ثم خلف ولدين من غيرها . فوشى انديبتروس لابيه ضد الرفيقة وولديها فقتلهم . وبعد ذلك وشى بانديبتروس انه نوى على خلع ابيه فقتله . وبسبب تصديق الوشاية خرب بيته (تاريخ يوسيفوس ١٥ : ١١ و١٦ : ١٧ ، ١٧ : ٢ و٦ و٩) ويرى ان نصيحة فوتيوس كانت نبوءة

اولاً . لانه كان مهيجاً ومحركاً لتلك المنازعات والخصامات — وثانياً . لانه لما صار بطريركاً ما انتخب انتخاباً قانونياً بل قام بمجرد ارادة القيصر ثاوذوره (١) * حينئذٍ يئس حزب اغناتيوس من النجاح وحركوا رئيسهم فكتب رسالة الى البابا يشكو بها ظلمه وظلم حزبه . وكان اغناتيوس على اثر الحركات التي عقبت شرطونية فوتيوس نُفي الى جزيرة في البوسفور قريبة من القسطنطينية اسمها تريبنثوس . فلما علم بارداس بما كان بعد المجمع وبرسالة اغناتيوس الى رومية تحقق له ان سبب كل النزاع انما هو اغناتيوس فاستحضره واهانه ونفاه في شهر آب الى مكان ابعد في جزيرة ميتيليني (المعروفة الآن بمدلّه) ثم نفى كثيرين من المتحزبين له وبعضهم سجنهم * وبينما كانت الامور على هذه الاحوال المحزنة نبت شر الهرطقة المقابلة هرطقة محاربي الايقونات . واخذ اعداء الارثوذكسية يغتنمون الفرصة للانتقام من الكنيسة . وزاد على ذلك كثيرون من اتباع بدعة الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة وهرطقة مانيس والباوليكيانين . وصارت الكنيسة في اضطراب شديد من هذه القلاقل والشرور * حينئذٍ افتكر القيصر ومجلس المملكة ان يجمعوا مجمعاً مسكونياً يحكم على تلك البدع ويرفضها باتفاق عام ويريح الكنيسة من شرورها . ومن ثم كتب القيصر ميخائيل رسالة الى البابا وارسلها مع سفارة مؤلفة من خمسة اشخاص وهم الاساقفة ميثوذيوس وصموئيل وزخريا وثاوفيلوس ومعهم رئيس سيافيه . وزودهم بهدايا ثمينة للبابا وطلب منه ان يرسل نواباً ينوبون عنه في المجمع المزمع عقده في القسطنطينية ضد الهراطقة ويساعدون الآباء في استتباب راحة الكنيسة . وحذراً من ان يرتاب في الاشتراك مع فوتيوس بوقوفه على كتابة اغناتيوس وحده كتب له ما كان من امر اغناتيوس وانه

(١) تاريخ ثيوفانوس ٩ : ٦ : ١٣ امفيلوخيا صفحة ١٨ ورسائل صفحة ٣٣ حاشية ٢

قدَّم استعفاءه من الكرسي البطريركي معتذراً بشيخوختهِ ومرضهِ وأُقيم فوتيوس في محلهِ وافادهُ نفور الإغناتيين وسلوكهم السلوك المشاق. وقد ارسل فوتيوس ايضاً مع السفارة نفسها رسالة السلام الى البابا جرياً على العادة الكنائسية وارسل ايضاً مثلها الى البطاركة الشرقيين الثلاثة. غير ان رسائلهُ اليهم فقدت وما وصل الينا منها سوى رسالتهِ الى البابا ورسالتهِ الى بطريرك انطاكية[1].

على ان اعداء فوتيوس نفثوا ضدهُ مذمات كثيرةً ومطاعن متنوعةً نووا ان يعيبوا بها شخصهُ ووظيفتهُ لا ليحكوا حقائق بل ليقوموا بواجبات البغضة خلافة المعائب. ولكنهم مهما اعتنوا في اتقان اساليبهم لا تزال الحقيقة تعلو على اختلاقاتهم كما سنرى في ما ياتي.

فان الغربيين يطعنون على فوتيوس: ١° بانهُ كان يود ويحترم ويعاشر غريغوريوس آزبستاس المشاق على زعمهم — ٢° بانهُ ما انتُخب انتخاباً قانونياً بل اقامهُ بارداس بطريركاً — ٣° بانهُ هو عزل إغناتيوس ليخطف مركزهُ ويتعمد به — ٤° بانهُ شُرطن من اسقف مشاق وهو غريغوريوس — ٥° بانهُ قام على الكرسي من دون ان يستعفي إغناتيوس او يُعزَل عزلاً قانونياً — ٦° بانهُ شُرطن راساً من درجة العوام — ٧° بانهُ شُرطن في يوم واحد — ٨° بانهُ كان خصياً — ٩° بانهُ اضطهد إغناتيوس واتباعهُ — ١٠° بانهُ حين قام على الكرسي كانت الكنيسة مربوطةً من إغناتيوس — ١١ واخيراً° بانهُ في رسالتهِ الى البابا طلب منهُ ان يثبتهُ في وظيفتهِ. وقس على هذه الدعاوي مشاكلها وليك الحقيقة:

(١) ان الرسائل التي يرسلها الاساقفة وخصوصاً البطاركة الخمسة بعضهم الى بعض بعد الشرطونية افادةً عن الشرطونية تُسمَّى «رسائل الجلوس او الارتقاء» واما الجوبة البطاركة عن تلك الرسائل للشرطن جديداً فتسمَّى «رسائل السلام». (رسائل ١٢٢ حاشية ١)

١° قالوا ان فوتيوس كان مشاركاً لغريغوريوس آزبستاس وان غريغوريوس كان مشاقاً. فقد تقدَّم الكلام لنا عن غريغوريوس آزبستاس وما كان من البطريرك إغناتيوس بحقهِ يوم شرطونيتهِ بطريركاً وكيف طردهُ من الكنيسة ثم اوقفهُ عن الخدمة. ولا بأس من ان نبحث هنا مَن كان غريغوريوس وماهي زلاتهُ. كان غريغوريوس اسقفاً على سيراكوسا في جزيرة صقلية شرطنهُ البطريرك ميثوذيوس سلف إغناتيوس. وكان مقيماً في القسطنطينية بسبب تعديات الشعوب الشرقية على ابرشيتهِ. وكان بينهُ وبين باباوات ذلك الوقت خصام. لان الباباوات بعد ما سادوا على ايطاليا بجرهم ولاتها وبغصبهم اساقفتها طلبوا ان يُخضعوا اساقفة صقلية وبلاد اليونان تسلطانهم وكانوا لا يفترون من ازعاجهم لهذه الغاية بدعواهم ان لهم منذ القديم سلطةً عليهم. ولكن صقلية لم يكن اخضاعها سهلاً لانها جزيرةٌ في البحر تتفقدها سفن الروم من مدةٍ الى مدةٍ. فكان الخصام بين اساقفتها واساقفة رومية متمادياً[1]. اما زلات غريغوريوس وذنوبهُ فقد اختلف فيها المورخون اعداء فوتيوس. فقال سمعان اللوغوثيت «ان البطريرك ميثوذيوس الكبير قطعهُ لاسبابٍ كثيرةٍ (لم يذكرها ولا واحداً) ولانهُ شرطن (في ابرشيتهِ) القس زخريا حين ارسلهُ البطريرك الى رومية». وقال نسطاسيوس حافظ المكتبة انهُ حين انتخاب اغناتيوس «كان بعض الاساقفة ومنهم غريغوريوس مقاومين لانتخابهِ لانهُ كان عالماً بسيرتهم الرديئة ودوَّسهم القوانين الكنائسية ولم يرضَ ان يشترك معهم قبل ان يحاكمهم على ذنوبهم. فكانوا يطعنون فيهِ طعناً ظالماً الخ». وقال البلاغوني «ان كثيرين من الاساقفة استقبحوا عمل اغناتيوس وفظاظتهُ ضد غريغوريوس وحكمهُ بلا مرافعة»[2]. وفي كل هذه

(١) تذاليدي صفحة ١٣ — ١٥ (٢) راجع ما تقدم صفحة ٢٨٢ — ٢٨٥

المطاعن لا يتضح على غريغوريوس ذنبٌ يوجب قطعه من الكهنوت * فان فرضنا صدق قول اللوغوثيت بان غريغوريوس شرطن كاهناً لم يكن تحت سلطته فلا نجد ذلك سبباً كافياً لقطع رئيس كهنة واهانته اهانةً فظةً وخصوصاً لانهُ كان رئيس ابرشية مختلفٍ عليها بين بطريركي رومية والقسطنطينية وممتازاً بذلك عن غيره من الاساقفة · على ان التاريخ يذكر مثالاً لذلك جرى بين القديس ابيفانيوس رئيس اساقفة قبرص ويوحنا بطريرك اورشليم وكانت الزلة من ابيفانيوس · فاعتذر للبطريرك يوحنا ولم يُحسَب ذنبهُ كفراً [1] * وهكذا قل في شهادات الاعداء الآخرين. فانَّ رفض غريغوريوس قبول اغناتيوس بطريركاً لا يوجب قطعهُ · فضلاً عن ان غريغوريوس انما كان واحداً من جملة رافضيهِ وما حُكم على احدٍ منهم الأعليهِ * واما الطعن في آداب غريغوريوس فلا احد يصدقهُ · لان شهادة اعداء غريغوريوس عينها تشهد بان فوتيوس واقرباءهُ كانوا يكرمونهُ بنوعٍ خصوصيٍّ عن الجميع وانهُ كان معتبراً منهم ومن غيرهم «رجل الله» [2] · وما من احدٍ يصدق ان عائلات شريفةً مشهوداً لها من الاعداء بسمو المنزلة مثل عائلة فوتيوس وامثالها يُحتمل ان تعتبر انساناً ذميم الآداب اعتبار الفاضل ورجل الله · ولان فوتيوس الذي طعن عليهِ الاعداء مطاعن كثيرةً وما استطاعوا ان يمسّوا آدابهُ بشيءٍ يمكن ان يعاشر رجلاً مرتكباً دائماً القوانين الكنائسية · وعندنا رسالةٌ من قلم البطريرك فوتيوس الى هذا الاسقف نتضح منها حقيقة حالهِ وهاك تعريبها :

«ان كلَّ ما تعمله رئاسة كهنوتكم البارَّة لبنيان كنيسة الله نحن موافقون عليهِ من البدء ومن الاصل · ولهذا ليست محتاجةً الى التذكرة على ذلك

(١) ابيفانيوس جزء ٣ : ٢١٢ (٢) راجع صفحة ٢٨٤

وخصوصاً الآن وقد جاء الاضطهاد العام من اجل المسيح والاغراض العمومية التي لا توصف تعلّمنا افصح من كل صوتٍ واكمل من كل تعليمٍ واجبتنا بعضنا نحو بعضٍ وتضمنا الى رأيٍ واحدٍ · ونروم ان تجاهدوا بها لحفظ واتمام الوصايا السيدية · فتأيّد ونجح وشرطن واخدم وأنمِ واكثر رعية المسيح وأقِم هياكل موقرة وقدسها .... وكُن معافىً وادعُ لحقارتنا » [1]

فما تقدم يتضح ان غريغوريوس لم يكن مستأهلاً للاهانة التي أُهينها وان القديس اغناتيوس انما طردهُ من الكنيسة عن حقٍّ وبرماعن تصديقٍ لوشايات بعض اعدائهِ · ومما يؤكد براءة ساحتهِ عدم موافقة البابوين لاون وبنيديكتوس على الحكم عليهِ · وهو معدودٌ من اخصام البابوات وكانت موافقتهم ضدهُ اقرب من كل قريب [2] · وكذلك اجتهاد اغناتيوس بعد تلك الاهانة في ان يجتذبهُ اليهِ بكل نوع من انواع الهدايا والاوعاد وعدم قبول غريغوريوس منهُ [3] برهانٌ عظيم على ان اغناتيوس نفسهُ فهم انهُ ظالمهُ فاخذ يسترضيهِ وان آزيستاس لثقتهِ ببراءتهِ من كل تهمةٍ اصرَّ على رفض اغناتيوس ولم يرضَ بموافقتهِ فكان كلٌّ من الحاكم والمحكوم عليهِ مسوقاً من ضعف الطبيعة البشرية الذي لا يخلو منهُ الا من خلا منها · ولكن بالاجمال لم يتعيَّن على غريغوريوس ذنبٌ يوجب القطع الذي يقال ان اغناتيوس حكم عليهِ بهِ لما رفض هداياهُ ولم يشترها باضاعة كرامتهِ · فاي مانعٍ يمنع رجلاً عاقلاً عالماً بعيداً عن معاطاة الاعمال الكنائسية ومواظباً اعمالهُ المدنية ومطالعاتهِ العلمية مثل فوتيوس ان يعاشر رئيس كهنةٍ ذا علمٍ وادراكٍ ويعتبر فضيلتهُ ويحترم هيئتهُ ورتبتهُ ؟ [4]

(١) رسالة ٩٢ (٢) ظوري ٥٠ : ٣ ومثلهُ يشهد جاجر عدو فوتيوس الالد (صفحة ٧) (٣) راجع الشهادة من اقوال البَلاغوني صفحة ٢٨٤ (٤) تاريخ ملاتيوس

٣ · يدّعون على فوتيوس بدنهُ ما انتُخب انتخاباً قانونياً وانهُ انما أُقيم من باردانس وحدهِ بطريركاً · قال عدوُّهُ متروفانيس اسقف ازمير «واذ كان اغناتيوس حياً بعد ركب ذاك (اي فوتيوس) كنيسة القسطنطينية ركوب الزاني لا بانتخاب من الاساقفة حسب الناموس وترتيب الكنيسة بل من المغتصب وحدهِ (اي باردانس) ولهذا السبب رفضهُ جميع الاساقفة وانتخبوا بصوت عامّ ثلاثة آخرين واصرُّوا اياما كثيرة على انتخابهم · ثم انحازوا جميعهم تقريباً ما عدا خمسة كنت انا واحداً منهم» *ولكن هذه الاقوال ليست صحيحة وهي نفسها متناقضة لانها تشهد بان الانتخاب ما كان من باردانس وحدهِ بل من الاساقفة ما عدا خمسة · ولكي نوضح ان قولهُ «اصرُّوا اياماً كثيرة ثم انحازوا» ليس صحيحاً نورد شهادة عدوٍّ آخر لفوتيوس تدحض شهادة هذا العدو · قال نيكيتاس البفلاغوني «ولم تمضِ ثلاثة ايام بعد نزولهِ (اي نزول اغناتيوس عن الكرسي البطريركي) الاّ وحضر المظنون بهم انهم نخبة الاساقفة وطلبوا ان ياخذوا منهُ صكّ رفض اعني استعفاء بسبب شر الوقت الحاضر · ومَن كان الذين طلبوا ذلك ؟ كانوا الذين اقسموا لهُ من ذي قبل كتابةً ودعوا على انفسهم ان يكونوا ساقطين من الثالوث الفائق الجوهر إن انكروا راعيهم بلا حكم قانوني»[1] · فهذه شهادةٌ تشهد بان الاغناتيين كانوا انحازين بعد نزول اغناتيوس على دعواهم باقل من ثلاثة ايام . فاين هذا القول من قول متروفانيس انهم اصرُّوا اياماً كثيرة ثم

(١) ان القسَم المذكور مناف كل المنافاة للتعليم الانجيلي ولا يُصدَّق على اساقفة الكنيسة . فان صحَّ قول نيكيتاس فانحلَّ من اصلهِ فاسدٌ وهو حطيطٌ بحق اغناتيوس والاساقفة معاً ويحقُّ لكل واحدٍ ان يندد على بطركهم كلٍ سواء بحث او لم يبحث في تفصيلاتهِ . بان كان نيكيتاس اخترعهُ تزويقاً لحدوثةٍ فتار بحةٍ ساقطة لانهُ لا يمكن لاحدٍ ان يُصلِح التزويق والمبالغات عن الحقيقة والحوادث .

انحازوا · واما القول بان باردانس وحدهُ اقام فوتيوس بطريركاً فقد سبق نقضهُ صفحة ٣٩٠ حاشية ٣ · وهنا نزيد ان هذه الدعوى ساقطة من اوجهٍ كثيرة غير ذلك · منها قول متروفانيس نفسهِ ان فوتيوس بعد اربعين يوماً او على رواية نيكيتاس بعد شهرين حنث في اقسامهِ لاغناتيوس وخان عهودهُ لهُ · وهذه شهادةٌ تشهد بان اغناتيوس نفسهُ فضلاً عن المجمع كان قابلاً فوتيوس بناءً على عهودٍ راعاها مدة ٤٠ او ٦٠ يوماً * ومنها شهادة نيكيتاس بان المجمع ومجلس الدولة قبّلوا كل رايٍ ثم انتخبوا فوتيوس ولم يعترض احدٌ على انتخابهِ بل اجبروهُ على القبول حتى ان نيكيتاس يندد على الاساقفة لانهم تركوا راعيهم على ما اوردنا * ومنها الدعوى التي اوردها بعضٌ ونقلها بارونيوس في تاريخهِ بان باردانس احتال على الاساقفة فوعد كلَّ اسقفٍ توحدهِ بكرسي البطريركية سراً على شرط استعفائهم امام القيصر في الجلسة لئلاّ يشتبه القيصر فيهِ وتفسد الغاية وانهم انغشُّوا واستعفوا جميعهم فاقيم فوتيوس · وهذه ايضاً حدوثةٌ من جملة الحدوثات التي اختار الاعداء كيف يطعنون بها في فوتيوس · على انها وان صحَّت يكون انتخاب فوتيوس في محلهِ لان الذين سلكت عليهم حيلةٌ لا تسلك على الاولاد الصغار كيف يستأهلون ان يكونوا بطاركةً في ظروفٍ مثل الظروف التي نحن فيها ؟ وما لنا وللتطويل ؟ فان نيكيتاس نفسهُ يشهد بان الاغناتيين قبلوا فوتيوس كما ذكرنا (صفحة ٣٩٢) ومتروفانيس نفسهُ ايضاً شهد بصريح العبارة قائلاً «وبعد ان كتب فوتيوس امامنا (اي امام الاساقفة الخمسة الذين كان هو واحداً منهم) انهُ يعرف ذاك (اي اغناتيوس) بطريركاً بريئاً ولا يطعنهُ بلومٍ ولا يشترك مع طاعنيهِ قبلناهُ مكرهين لغصب الحكّام» وهذه شهادةٌ من فم متروفانيس عدوهِ بانهُ هو ايضاً كان من القابلين · ولا عبرة في قولهِ غصباً ·

لان الارادة في مثل هذه الاوقات لا يقوى عليها غصبٌ . وان قالوا : كيف أُغصب فوتيوس على القبول ؟ قلنا : ان فوتيوس كان مغصوباً قبل ان يقبل ولكنهُ بعد القبول لم يعُد مغصوباً بل قابلاً ومحافظاً على ما قبلهُ . لا كما فعل متروفانيس بتقلُّبهِ وتلوُّنهِ اولاً بالرفض ثم بالقبول ثم بالرفض مما لا يُحمَد من مزايا الرجال وخصوصاً الاساقفة الابطال . . فالصحيح إذَن ان انتخاب فوتيوس كان بصوت عامّ قانوني وان القيصر والاكليرس كلهُ معاً سواء كان بايعاز اوبلا ايعاز من بارداس اتجاوجهوا ابصارهم الى فوتيوس وهو علمٌ لاسبابٍ فوق العادة اعني درايتهُ وعلمهُ وفضيلتهُ ولانهُ لم يكن مَن يستطيع ان يقوم بخدمة مركز الكرسي ومهامهِ خدمةً نصوحةً غيرهُ . وتؤيد هذا القول بشواهد كثيرة من اقوال فوتيوس نفسهِ كقولهِ مثلاً في رسالتهِ الى بطريرك انطاكية « اني لا اعلم ما اذا كانوا بعناية الله اوتوبيخاً لخطايانا حمَلونا نير رئاسة الكهنوت . وانا لا اجد لضميري سلوةً الاَّ في امرٍ واحدٍ فقط وهو : انهُ بينما كانوا جميعهم تقريباً مختلفين ومتخاصمين بالقطع والشقاق بعضهم عن بعضٍ ظهر في نفوسهم اتحادٌ في الرأي والعزم فجمع المتفرقين وضمَّ المتشقين وانم بالاتفاق السابق » . فمن هذه الشهادات ومما تقدم ومما سنذكرهُ ايضاً في محلٍّ آخر يتضح ان انتخاب فوتيوس كان قانونياً بقرار المجمع ورأي الامة كلها لا بغصبٍ ولا بخداعٍ من بارداس كما زعموا .

٣ . يدَّعون ايضاً بان فوتيوس عزل اغناتيوس من كرسيهِ وخطفهُ منهُ خطفاً حباً بالمجد « وانهُ لم يستعفِ من كنيسةٍ ممنوحةٍ لهُ من حكَّامٍ عالميين بلا لياقةٍ وبلا قانونٍ » . [1] « وانها لم تكن وقتئذٍ ضرورةٌ لا طبيعية ولا ادبية

(١) نيكيتاس البفلاغوني صفحة ٨٧٥ ـ ٨٧٧ وانيطوشيا صفحة ١٤

تحصب فوتيوس على ان يقبل كرسياً يخص غيرهُ » [1] . ومن الواضح ان هذه الدعاوي لا تنطبق بعضها على بعضٍ ولا تنطبق على مقتضيات العقل ايضاً . لان فوتيوس ما كان صاحب صولةٍ وامير بلادٍ ليعزل وينصَّب ولا ضرَّاب سيفٍ ليخطف وينهب وانما كان رجلاً عاقلاً عالماً شريفاً حسيباً وموجهاً سيفي الدولة على شهادة البفلاغوني عينهِ كما تقدم ولا شهادة اقوى من شهادة الخصم * واما الطعن فيهِ بانهُ لم يستعفِ من كنيسةٍ منحتها لهُ السلطة المدنية فليس مستقيماً . اولاً لان الكنيسة لم تمنحها لهُ السلطة المدنية بل الكنيسة نفسها اعني مجمع الاساقفة الذي حرَّض اغناتيوس على الاستعفاء ثم انعقد وافتكر وانتخب فوتيوس كما تقدم . وثانياً لان فوتيوس ما تهافت على المنصب ولا قبلهُ الاَّ بكل عناء لا لان قبولهُ اياهُ كان مخالفاً للياقة والقانون بل لانهُ كان يراهُ اسمى من استحقاقهِ كما هي عادة الافاضل العالمين قدر المناصب المقدسة ولانهُ كان يعلم مهامهُ الكثيرة وواجباتهِ لدى تلك المهام ولا ينوي ان يكون من المهملين لها . ونحن نرجو اخوتنا القرائين ان يسمعوا اقوال فوتيوس نفسهِ في هذا الموضوع.

قال فوتيوس في رسالتهِ الاولى الى البابا نيقولاوس « اني عندما اشخص في ذهني عظمة وظيفة رئاسة الكهنوت واشرع في ان اقيس الحقارة البشرية الناقصة نقصاً كثيراً عن كمالاتها واقيس ضعف قوتي ايضاً والفكر العظيم الذي كان دائماً يخامرني نحو سمو قيمة ما كان مثلها ويجعلني ان اتعجب واندهل من جميع الذين حملوا في جيلنا (ولا اقول الذين قبلنا) نير رئاسة الكهنوت الرهيب وهم بشرٌ مرتبطون باللحم والدم وخاطروا في ان يعملوا اعمال الشاروبيم العادمي الاجساد . فعندما افحص وابحث في هذه الامور التي لما كنت ارى آخرين

(١) لبير في البابا نيقولاوس صفحة ٩

عليها كنت اضطرب والآن ارى نفسي واقعاً فيها لا استطيع ان اصف اية اوجاع تعتريني واية احزان تكتنفني فاكابدها * فاني وان كنت منذ الصغر مهتماً اهتماماً يتمو معي ومتمنياً منية توافقني بان اتخلص من امور الحياة الدنيا وسهامها واقيم ملاحظاً اموري وحدها (ومن الواجب ان اكتب لبركم قول الحق من اوله) وان كنت اكبح الانشغاف بعشق الوظائف الملوكية الجذاب واحوّله الى اعمال أُخرى - لكن لم تداخلني البتة جسارة طقتها لادخل واتمحل في وظيفة رئاسة الكهنوت - فان هذه الوظيفة كانت عندي دائماً محترمة ومهابة وخصوصاً عندما كنت اذكر بطرس هامة الرسل الذي بعد انهُ اظهر علامات كثيرة لايمانهِ بالرب يسوع المسيح الهنا الحقيقي وقدّم امتحاناً كثيراً على اوجه متعددة في محبتهِ لهُ استحق ان ينال الخدمة الرعائية من معلمهِ بمثابة اكليل للاعمال والاتعاب الحسنة السابقة لهُ - على اني اعلم ايضاً ان عبداً اؤتُمن على وزنةٍ وخوفهِ من صرامة سيدهِ اخفاها لكي لا تسقط منهُ الامانة من محلّ وتُسلب وانهُ لكونهِ ارجع الوزنة لمعطيها غير مضاعفةٍ وقع تحت المسؤولية ... فمن بعد ان خرج من هذه الوظيفة سلّمنا في الكهنوت (١) لا اعلم كيف هجم والكبّ عليّ جميع الذين كانوا معدودين في الاكليرُس ومحفل الاساقفة والمطارنة وقبّلهم ومعهم محب المسيح الملك الحسن العبادة الذي هو وديع وحليم ورأوف على الجميع ... الاّ عليّ فانهُ ظهر وقتئذٍ عادم الشفقة وظالماً ومحيفاً عظيماً - لانهُ لم

(١) هذا معظم ما قالهُ فوتيوس في اغناتيوس . غير ان اعداءهُ لفقوا اشياء لا اصل لها . فقال البَلاغوني « ان فوتيوس كتب قائلاً ان اغناتيوس انتهى بسبب شيخوخته ومرضهِ وضعف جسدهِ وترك الكنيسة وانهُ مقيم في جزيرتهِ ودَيرهِ وحاصل على كل كرامةٍ ومداراةٍ من الملوك ومن كل المدينة ومن كنيسته » . فليتأمل ذوو الالباب في ما وصلت اليهِ العداوة والبغضة والمقاصد الغير الممدوحة المقصودة من هذا القائل .

يتساهل اقل تساهلٍ حين مجومهِ لا هو ولا عقل الكهنة جميعهُ السابق ذكرهُ . فاما هو فكان يتعلل بانهُ لا يمنع رغبة الكهنة وبغيتهم المتفق عليها من جميعهم وانهُ وان اراد لا يستطيع ان يجيب طلبنا . واما هم فلانهم كانوا جمعاً غفيراً لم تكن اقوال رجالٍ تُفهَم فهماً واضحاً عندهم . ومع اني ترامیت عليهم لم يقبلوا واما كانوا مصممين على شيءٍ واحدٍ فقط يكررون قولهُ وهو انهُ يجب عليّ بلا بدّ ان اقوم بحمل رعايتهم وان لم ارد . واذ كانت طرق تضرعاتي بالكلام مسدودةً من كل جهةٍ ملأً قتام الحيرة كل دواخلي من الاضطراب فتحركت فيّ الدموع ووصلت الى الاعين عينها وتحوّلت الى مجرى . لان الفكر لما عجز مرةً واحدةً عن التخلص بالكلام احال الامر الى الطبيعة والدموع لتترجّى هي بنفسها آملاً بانهُ يحصل بها على مساعدةٍ ونجدةٍ - ولكنهُ خاب في ما امل . لان الخاصيين لم يرقّوا ولا على هذا الوجه الى ان جرى ما كان من جهتي بعيداً عن الارادة ومن جهتهم غاية المنى . وهكذا انا الآن مقيمٌ في وسط الاضطرابات اكابدها بصبرٍ للاحكام التي يعلمها العالم بكل شيءٍ » .

وفي رسالتهِ الثانية اليهِ قال « ضبطنا مكرهين . سجناً بثابة مرتكبين . وُضعنا تحت المراقبة والحفظ . أُتعبنا ونحن غير قابلين . شُرطنا ونحن بأكون ومتحبون ولاطمون . وقد علم الجميع هذا الامر . لانهُ لم يجرِ في زاويةٍ بل وصل تاريخ عظم الشديد الى الجميع » . ثم في الجمع المسمّى الثامن قال علانيةً « اني لم اشتهِ هذا الكرسي ولا مرةً . وهذا الامر يعلمهُ جميع الحاضرين من اخوتنا واساقفتنا في الخدمة او اكثرهم ... ولهذا السبب قد صعدت هذا الكرسي كرسي رئاسة الكهنوت بدموعٍ كثيرة وبكل نوعٍ من التأجيل وبغصبٍ لا مناص منهُ

(١) رسالة ٢

لان الملك الذي كان في ذلك الوقت كان يجبرني بحكم الضرورة والموظفين ورؤساء الكهنة والكهنة كانوا يؤيدون ويقوون الاجبار الملوكي باصواتهم المتفقة وبكتاباتهم العمومية والا لم اشعر بشيء مما كان مفعولاً . ولهذا دُفعت الى حراس يراقبونني ومن هناك صعدت على هذا الوجه مجبوراً و باكياً الى هذا الكرسي » . وقد صدق المجمع على كلامه اذ صرخ الاساقفة «ان اكثرنا قد شاهدنا هذا الامر عياناً . والذين منا لم يشاهدوه سمعوه من الذين شاهدوه وقتئذٍ وعلموا علم اليقين ان هذا الامر هكذا جرى لان اخبرما زال باقياً بلا تغيير» هذا ما كتبه البطريرك فوتيوس للبابا وقاله في المجمع علانية ايضاحاً لكيفية التخابه . ومنه يتضح انه أُجبر على قبول المنصب لا من القيصر وحده بل من المطارنة والاساقفة والكهنة والجميع . ولا يمكننا ان نفرض كلامه كذباً وتصنعاً لان هذا الكلام نفسه قد قاله بين اساقفة كانوا حاضرين قبلاً وكتبه ايضاً لباردامس الذي شهد الحوادث بنفسه وهو كان مقدامها ولا يمكن ان يكتب له خلاف الحقيقة كما سنورد شيئاً من كتاباته له بعد قليل .

على ان الظروف نفسها تبرهن ان فوتيوس ما استشف الى الوظيفة ولا عافت عليها كما اتهموه لانه من يوم نزول اغناتيوس الى يوم شرطونية فوتيوس مضى ٣٣ يوماً كان فوتيوس ملازماً فيها راحته . وهذا طبيعي في رجال العلم وخصوصاً في من كان مثل فوتيوس راقياً اعلى مراتب الوظائف الملكية . وبالاجمال كيفما قلبنا دعوى اخوتنا الغربيين من هذا الوجه نجدها زاهقة تناقض بعضها بعضاً فضلاً عن مناقضتها التاريخ .

٤ . يدعون بان فوتيوس شرطن من غريغوريوس الذي كان اسقفاً مشاقاً . ولكننا قد رأينا في ما سبق ان غريغوريوس لم يكن مهرطقاً ولا مشاقاً وانما

كان متكدراً من اهانة اغناتيوس اياه . والذين قالوا بان اغناتيوس اوقفه وحكم عليه (بلا مرافعة كما شهد البَلاعوني) لا يمكنهم الاّ ان يعترفوا بان المجمع حلّه من التوقيف قبل شرطونيته فوتيوس . لان الاساقفة الذين حكموا عليه في مجمع اغناتيوس هم انفسهم انتخبوا فوتيوس وطلبوا صك الاستعفاء من اغناتيوس ولا يمكن ان يسمحوا لغريغوريوس بالخدمة والشرطونية من دون حلهم اياه من التوقيف . وكذلك فوتيوس الذي بعد العفاء الطويل قبل الوظيفة لا يمكن ان يقبل الشرطونية من اسقف مربوط او مقطوع او محروم فيما ان كثيرين من اصدقائه الاساقفة كانوا حاضرين واكثر الاساقفة الاغناتيين كانوا مخازين اليه على شهادة اخصامه ولم يكن مانع يمنع شرطنته من واحد منهم . والذي يرتاب في هذا القول نسمعه ما يحل به ريبة من اقوال الخصم : قال البابا نيقولاوس في رسالته الى بطاركة الشرق «وان قال (غريغوريوس) انه حُلّ من رؤساء الكهنة فكلامه باطل . لانه يجب ان يُحلّ لا من الذين هم اوطأ منه ولا من المساوين له بل من شخص اعظم منه (كما نتعلم من القوانين الرسولية) من الذي حرمه او من حقوق الكرسي الاول . لان الادنى والمساوي لا يستطيع ان يحل الاعلى ولا المساوي ان لم يسمح الاعلى» فهنا الشهادة واضحة بان غريغوريوس حُلّ من المجمع ولم يبق سوى النظر في تنديد البابا نيقولاوس على وجه الحل مستنداً كما زعم على قانون الرسل (وهو القانون ٣٢ اذ ليس في قوانين الرسل غيره على هذا المعنى) غير ان البابا غلط في تنديده على العمل : لان قانون الرسل يقول «ان حرم فسٌ او شمامٌ من اسقف فلا يُسمح ان يُقبل (اي يُحلّ) من غيره الاّ من الذي حرمه . ما لم يتفق ان يتوفى الاسقف الذي حرمه» فالقانون اذن هو خاصٌ بالقسوس والشمامسة الذين يربطهم رؤساؤهم

ولا يسمح لغيرهم ان يحلّوهم وهم احياء . واما رؤساء الكهنة فلا يستطيع رئيس ان يربطهم من دون مجمع . لان رئيس الكهنة لا يعلو عليه رئيس في الكنيسة من حيث درجة كهنوته سوى المجمع كما يتضح من القوانين الرسولية والمجمعية (قانون ٧٤ للرسل) . فغريغوريوس وان كان قطع من مجمع اغناتيوس الآ انه حلّ من مجمع رؤساء الكهنة كما شهد البابا . ولو لم يحلّه المجمع لما استطاع اغناتيوس ان يحلّه بلا مجمع . واما البابا فلا يستطيع ان يحلّه لا بمجمع ولا بلا مجمع لانه لم يكن تابعاً لابرشيته ما لم يكن المجمع مسكونياً . ثم اذا فرضنا ان غريغوريوس كان قساً لا اسقفاً فلا يستطيع البابا ايضاً ان يحلّه ما دام اغناتيوس حياً وفقاً لنص القانون ومعناه . فكيفما فحصنا تتديد غيطة البابا نيقولاوس يوجد مغلوطاً هو قد قال زوناراس في شرح هذا القانون انه اذا رُبط قسٌّ او شماس من اسقف فلا يستطيع آخر ان يحلّه ما لم يجتمع مجمع ويتأكد ان اسقفه ظلمه فيحلّه . فعلى ذلك لو كان غريغوريوس قساً مربوطاً من إغناتيوس لا اسقفاً لاستطاع المجمع ايضاً ان يحلّه . غير انه ما كان قساً حلّه وربطه في يد رئيسه بل كان اسقفاً حلّه وربطه يتعلق بمجمعه . وقد رأينا ان اغناتيوس طرده من الكنيسة ولكنه ما استطاع ان يربطه بلا مجمع . وما دام المجمع ربطه والمجمع حلّه لا وجه لمندوبي يفلت به من ان يظهر جاهلاً القوانين الكنائسية * اما قول البابا بان الاعلى يحل الادنى فيحتمل معنيين . فاما انه يعني به قسمة الاساقفة في درجتهم الاسقفية الى اعلى وادنى وان الاعلى يستطيع ان يحل ما ربطه الادنى . واما انه يعني به ان الاسقف وان كانت سلطته رفيعة الآ انها توجد سلطة ارفع منها يعني سلطة المجمع . فان كان المعنى الاول معناه فهو غلط محض لان الاساقفة ليس فيهم اعلى وادنى في كهنوتهم بل هم متساوون

ولا فرق في الكهنوت الاسقفي بين اكبر بطريرك وبابا وبين اصغر اسقف . وانما يمتاز بعضهم عن بعض في السياسة والادارة . فبعضهم لهم ابرشية واسعة وبعضهم لهم اصغر وكل واحد منهم يخضع لمجمع الكرسي تحت رئاسة البطريرك او الميتروبوليت المتقدم او من يقوم مقامهما . وان كان المعنى الثاني معناه فكلامه صحيح وموافق كل الموافقة لمسألة حل غريغوريوس من المجمع سواء كان ربطه صادراً من مجمع سابق او من إغناتيوس وحده * فعيناً إذن يجتهد اعداء فوتيوس في ان يطعنوا في قانونية شرطونيته باختلافات فارغة لا طائل تحتها .

٥ . وعلى ذلك قس قولهم بان فوتيوس قام على الكرسي من دون ان يستعفي إغناتيوس او يُعزَل عزلاً قانونياً . لان هذه الدعوى مصدرها البغضة لا الحقيقة * وقد رأينا في ما سبق ان محفل الاساقفة الإغناتيين انفسهم طلبوا من اغناتيوس استعفاءه وانهم قبلوا فوتيوس هم واغناتيوس معاً بشرط حفظ الكرامة له كما تقدم . فسواء فرضنا اغناتيوس مستعفياً او غير مستعفٍ لا يمكننا ان نقول ان فوتيوس شرطن بلا تنازل او تنزيل اغناتيوس . لان فوتيوس ما كان جاهلاً القوانين ولا كان من صالحه ان يشرطن شرطونية فاسدة في حين ان إغناتيوس نفسه قبله على شروط حسب قول الاعداء انفسهم . ثم ان البفلاغوني قال « ولم تمض ثلاثة ايام بعد نزول اغناتيوس (عن الكرسي) » فهذه الشهادة توضح احد امرين وهما : إما ان يكون نزل طوعاً باستعفاء . واما جبراً بعزل وكلاهما مقبول وقانوني لا دخل لفوتيوس فيهما او في احدهما ولا يمسّه عيب منهما * وبعد هذه الملاحظات في هذا الموضوع نورد ما جاء في قول البفلاغوني « ان اغناتيوس اراد ان يستعفي لكي لا يخلع باهانة » وهذه شهادة خصم لفوتيوس . وميتروفانيس نفسه قال « وكان اغناتيوس قد رسم ان ينتخب البطريرك من

كنيستنا بالمسيح » اي انهُ سمح بانتخاب غيره . وقال القيصر ميخائيل في كتابهِ الرسمي للبابا نيقولاوس « ان اغناتيوس استعفى بسبب شيخوختهِ ومرضهِ وضعف جسدهِ وترك الكنيسة » . وفي المجمع الذي انعقد بعدئذٍ ضد فوتيوس قال ايلياس نائب بطريرك اورشليم « ان كتاب الاستعفاء الذي كُتب في المنفى وان كان قد كُتب لا يُعتبر شيئاً لانهُ كُتب غصباً » وهذه شهادة على انهُ كُتب كتاب استعفاء . وبعد قليل قال اساقفة المجمع « فإذن يقولون الى الآن ان اغناتيوس استعفى » . فقال الملك (باسيليوس) « ان الذي استعفى غصباً بعد تنزيلهِ وبعد نفيهِ كيف يكون عملُ استعفائهِ قوياً وكيف لم يعملهُ جبراً ؟ » ولما اعترض افلامبيوس اسقف ابامية بان اغناتيوس استعفى بقوة ارادتهِ لا بقوة خارجية واتضحت الحقيقة تكدر نواب البابا وانبهروا المتكلمين بالحق ليصمتوا . فمن كل هذه الشهادات الرسمية الملوكية وشهادات المجمع العدواني نفسهِ واخصام فوتيوس ومن المدة التي توسطت بين نزول اغناتيوس وارتقاء فوتيوس يُستدلُّ عكس ما ادَّعى او يدعي بهِ عليهِ البابويون من التعدي . وليس عليهِ فقط بل على القيصر والمجمع والاساقفة والكنيسة كلها ايضاً . ويتضح ان فوتيوس ما قام على الكرسي الا بعد استعفاء اغناتيوس (امفيلو ١٢ : ٤) .

٦ . يدعون عليهِ بانهُ بطريرك غير قانوني لانهُ شُرطن رأساً من درجة العوام . ولكن هذه الحجة حجةٌ للذين ليست لهم حجة . لان بولس الرسول نفسهُ قد انتُخب لا من طبقة العوام فقط بل من مصفِّ اعداء الكنيسة . ولا الى درجة رئاسة الكهنوت فقط بل الى رتبة الرسل نفسها . وقد استحق هذه الخدمة في وقتٍ وجيز بنعمة الله ولا ريب . وهذا برهانٌ واضحٌ على انهُ حيث اجتمعت صفات اللياقة والاستعداد هناك الاهلية والى هناك يوجِّه صوت الله . لان

الله قد عرف الذين لهُ . ومن لا يختم على ان عالماً ممتازاً بالفضيلة والتقوى والدراية والاستعداد هو افضل لخدمة رئاسة الكهنوت من كاهنٍ او راهبٍ حبيسٍ نقصتهُ تلك الصفات اللازمة او بعضها ؟ أوَليس الكهنة ورؤساء الكهنة بشرٌ كثيرون منهم مأخوذون من عامة الناس اذا فحصتهم تجد فيهم قسماً كبيراً يجهل واجباته او يعجز عنها وان في طبقة العلمانيين كثيرين زينتهم الفضائل والتقوى وخوف الله لا اقل من افضل كاهنٍ ؟ فما المانع اذن من انتخاب رجلٍ وجيهٍ شريفٍ سامي المراتب فريدٍ في الرجال يعترف لهُ اصحابهُ واعداؤهُ انهُ لم يقم ثانٍ مثلهُ بالعلم والمعرفة لا في رؤساء الكهنة ولا في رجال الدولة حتى انهُ سُمي عالم عصرهِ وقيل فيهِ انهُ امتاز على جميع العلماء من ايام قسطنطين الكبير الى قسطنطين البابيولوغس آخر ملوك الروم ؟ ومع ان مثال القديس بولس الرسول يكفي ليقنع كلَّ معترضٍ على قانونية انتدابهِ وشرطونيتهِ ترفع كلُّ وهم في هذا الباب بايراد امثلةٍ غيرهِ من الآباء الذين شُرطنوا اساقفةً رأساً من طبقة العوام . فمنهم غريغوريوس النزيانزي ابو غريغوريوس النانوغوس وقد كان قبلاً واحداً من الهراطقة المعروفين بالمعمِّدين كانوا مؤمنين بالهٍ واحدٍ عالٍ ويعبدون النار والنجوم ويحفظون السبت وقد ارجعتهُ الى الايمان امرأتهُ نونه امغريغوريوس . ومنهم القديس نكتاريوس خليفة القديس غريغوريوس النانوغوس وقد شرطنهُ المجمع الثاني المسكوني بطريركاً على القسطنطينية حالاً بعد معموديتهِ (سنة ٣٨١) وكان هو رئيس المجمع المشار اليهِ . ومنهم طارسيوس رئيس المجمع السابع المسكوني اخوجد البطريرك فوتيوس وقد شُرطن رأساً من طبقة العوام في ٢٥ كانون الاول سنة ٧٨٤ وهو يوم شرطونية فوتيوس ابن ابن اخيهِ . ومنهم القديس نيكيفورس الاول بطريرك القسطنطينية خليفة

طاراسيوس (سنة ٨٠٦) · ومنهم القديس امبروسيوس فخر الكنيسة اللاتينية نفسها كان اسقف ميلان في ايطاليا في القرن الرابع وقد شُرطن اسقفاً حالاً بعد معموديته وهو حديثٌ بعد في الايمان مثل نكتاريوس · ومنهم سيلسيبوس اسقف نيابوليس وتالاسيوس اسقف قيصرية وغيرهم[1] · ومن الغريب ان جميع الذين انتُخبوا على هذا الوجه وشُرطنوا راساً من طبقة العوام كانوا رجالاً افاضل وكواكب لامعة في جلَد الكنيسة · وقس عليهم هذا الرجل العظيم ·

٧ · ولكنهم يدّعون ان شرطونيته تمت في يوم واحد فقط لا بالتدريج · غير ان هذه الدعوى افتراءٌ محضٌ لان القيصر ورجال الدولة والمجمع وكل الاكليرُس الذين انتخبوهُ ما كانوا خائفين من احد ليدوسوا ناموس الكنيسة ويعملوا عملاً ما احد سبقهم بمثلهِ · وقد توسطت ايامٌ لا ستة فقط بل ستة في ستة تقريباً بين نزول اغناتيوس وارتقاء فوتيوس مع ان ثلاثة ايام كانت تكفي للشموسية والقسوسية والاسقفية · فاي عاقل يصدّق انهم ما انتظروا الاّ ليوم الاخير؟ ولعمري ان هذه الدعوى اشبه بالدعوى التي بعدها وهي قولهم :

٨ · انهُ كان خصياً · وهذه الدعوى نقضناها واوضحنا اصلها في حاشية سابقة (صحيفة ٣٨٦) · وهنا نزيد البراهين برهاناً وهو ان اعداء فوتيوس الالداء ثاوغوستوس والبَلاغوني ومتروفانيس واستيليانوس قد نقبوا من المطاعن كل ما استطاعت عليهِ قريحتهم ومع ذلك ما قالوا انهُ كان خصياً · غير ان منظار القرض أرى بارون المؤرخ ما لم يرَهُ غيرهُ وصدّقهُ من اوهمهُ عدد مجلداتهِ فذهبت هذه التهمة عند البابويين مذهب مثل العامة « اعطِهِ ... » ولكنّ كثيرين منهم فهموا غلطهم بعد ذلك كما ذكرنا في الحاشية ·

(١) بَتْرولوجيا كندوغوني جزء ٢ : ٣٥٢ و ٤٠٧ وتقدالبدي ٢٢ ورسائل ٢٢ و١٥٩

٩ · قالوا « ان فوتيوس اضطهد اغناتيوس وتعبهُ » وفي هذا المعنى ايضاً ما انفقوا · فقال البَلاغوني ان فوتيوس قد جهد بعد شهرين ان يجذب الى عصبتهِ الاساقفة اصدقاء اغناتيوس تارةً بالملق وتارةً بالتهديد · واذ لم يحصل على غايتهِ قصصهم بالضرب ووشى الى باردس والقيصر على اغناتيوس بانهُ عقد على قتلهما · وحثّهما ليفتشا ويكشفا مكيدتهُ · وان المفتشين قسّوا على اغناتيوس قساوة شديدةً فحبسوهُ ولاّ في صيرة معزى مكتنفاً ثم ارسلوهُ من الجزيرة الى العاصمة وقيّدوا رجليهِ بقيدين من حديد وحبسوهُ وضربوهُ ضرباً اليماً على وجههِ حتى قلعوا سنّين من اسنانهِ وكانوا بهذه الواسطة يطلبون استعفاءهُ من الكرسي · وان فوتيوس حرمهُ مجمعياً وقطع الاساقفة تابعيهِ وتفاهم بعد العذابات الطويلة · وقطع لسان افلاسيوس لئلا يراهب حافظ الاوراق لظهورهِ عن الحق » — وقال اقسطاسيوس رصيف نيكيتاس في معاداة فوتيوس « ان باردس لما فوتيوس الماسع بان اغناتيوس عندما تفي ربط الكنيسة كلها بقسمٍ ارسل اليهِ معذّبين وهو في ميتيليني ليأخذوا منهُ الاستعفاء غصباً · وبما ان بعضاً من الاساقفة تكدروا من قساوة جمع فوتيوس واقرير جمعهِ قطع البطاركة اغناتيوس السابق » — واما متروفانيس مطران زمير فقال « ان اساقفة بريتية القسطنطينية غضبوا من قساوة معاملة بطريركهم السابق فاجتمعوا في كنيسة القديسة ايريني وهناك قطعوا فوتيوس وحرموا كل من يعرفهُ بطريركاً » هذا ما قالهُ اعداء فوتيوس انفسهم وهم لا يتفقون بعضهم مع بعض الاّ في الطعن عليهِ ونسبة مصدر المصائب اليهِ · وقد سبق وذكرنا اسباب المصائب التي اصابت اغناتيوس والاغناتيين وقلنا ان الاسباب لم تكن من فوتيوس بل من غير الاساقفة الخمسة ومدّ من المكدونيين وتشويش افكار اغناتيوس وخصوصاً

اجتماعهم وحرمهم فوتيوس وكل من يعرفه بطريركاً. وحرمهم هذا شمل القيصر وباردا س معاً فضلاً عن فوتيوس والاساقفة وسائر كتائب الكرسي. وزد على ذلك التشاؤم على باردا س والتشنيع بحق القيصر نفسه حتى انهم بسلوكهم اجبروا القيصر وباردا س على ان يجردوا ضدهم سيف الانتقام. اما فوتيوس فقد تكدر جداً من قساوة السلطة عليهم جزاء سلوكهم وحرك لسانه وقلمه وبنى القيصر وبنى باردا س عن القساوة وذكرهما بعين الله الساهرة على الانتقام وطلب مراراً ان يستعفي من مركزه حياً بالسلام وغنماً بالراحة فلم يجب بل وضع هو ايضاً تحت شبهة بدسائس المكدوني وصار هدفاً لسهام الفريقين وكان يسمع برارة قلب اعوان الاغناتيين ضده جزاء احسانه اليهم. وتاكيداً لذلك ندرج بعضاً من كتاباته لباردا س نفسه التي كان يحامي بها عن اعدائه * قال في رسالته الى باردا س (١٥٩) محامياً عن القس الراهب افلاسيوس:

«اذا كنت عالماً نفسي قبل الاختبار ايضاً اني لست اهلاً لا للدرجة رئاسة الكهنوت ولا لاستلام الرعية. ولهذا السبب حين كنت أُجبر وأُسحب اليها كنت ابتعدتها. فبالبت الموت سبق وخطفني وقتلني قبل الانتداب او بالحري قبل الغصب الغير المطلق. لان امواج كل هذه المصائب العظيمة ما كانت غرقت نفسي التعيسة بطوفانها كل يوم عليها. الامواج التي كان املي وانتظاري اياها يزعجني وقتئذٍ مالكاً اياي بالقوة الطبيعية في البشر التي تعرف المصائب قبل وقوعها وخصوصاً اذا كان الزوبعة قادماً عليها. فاذ كنت هدفاً لتلك الامواج ومتألماً منها كنت ابكي وارتجي واتمل كل عمل حتى لا قبل من الذين انتخبوني وكانوا يجبرونني واتضرع اليهم ان تعبر عني هذه الكأس كأس الاهتمامات الكثيرة والمحن المتعددة الانواع. والآن جاءت الافعال عينها

تعلمني وتوبخ عدم استحقاقي. ولم يُعدني خوف بعد من حوادث منتظرة بل اني اقاسي وجعاً قد اصاب الجرح وتنهداً وحيرة في الحوادث التي وقعت. فاني عندما ارى كهنة اياً كانوا كلهم معاً يقاسون بسبب زلة واحدة الضرب والنهب والاهانة وقطع اللسان (اشفق الهم على خطاياناً!) كيف لا اطوب الذين ماتوا قبلي؟ او كيف لا احسب الحمل الذي وُضع عليّ توبيخاً لخطاياي؟ فمن انساناً فقيراً لا سند له وعقلهُ ليس خالياً من الوجع (وهو من الذين يجب الاحسان اليهم لا الغضب عليهم) قد قاسى كل هذه المصائب دفعة واحدة فحُسب خائناً وضُرب وسُجن وبقطع لسانه فقد كل تعزية وهو مع ذلك لابس الكهنوت. وقد توسطت عنه مراراً وترجيت مراراً واحتملت كلمات ازدراء انا البطال. والذين رأوا يعلمون ذلك. وان كانوا قد نسوا فالله لم ينسَ. فاي امل بقي لي في الفاضلات ما دمت افشل ويزدرى بي في الامور الواضحة والتي تحت العيان كل هذا الفشل والازدراء؟ او كيف اتوسط عن خطاياكم وخطايا الشعب واستغفرها ما دمت توسطت عندكم عن واحد فسقطت كل هذا السقوط ورُفضت كل هذا الرفض؟ هذا اكتبهُ اليكم وانا ابكي دماً. فعليك إذن بعد الآن ان تقبل هذه الرسالة إما أُولى وإما اخيرة. لاني اقول لكم امام الرب انني إن كانت غايتكم هي رفضنا وطردنا على هذا الوجه في توسلاتنا ورجاواتنا المستصوبة وان لم تصر لذاك المسكين (يعني افلاسيوس) راحة وتعزية بكل وجه ممكن لا اكتب لكم ولا ازعجكم بوجه آخر. بل رياح ولاحظ نفسي والدب على احوالي. لاني ان كنت مع ما اقاسي من المحن والشدائد التي تأتينا من الخارج اخسر نفسي التعيسة اكن اتعس جميع البشر» (١٥٩).

هذا ما كتبه البطريرك فوتيوس لباردا س متوجعاً على الذين يتهمهم اخوتنا

الغربيون بانهُ كان شريكاً لمضطهديهم او سبباً لمصائبهم ومنهُ لتتضح حقيقة خصمهِ على قبول البطريركية لانهُ كتب لذي كان مشاهداً وعالماً بسلسلة الحوادث كلها ولا يمكن ان يكتب لهُ شيء لم يحصل. وما هو مسطرٌ في كتابتهِ من الملامة على بارداس غنيٌ عن الزيادة عليهِ. ثم انهُ في رسالتهِ ثانية قال لهُ:

« انا نفرح في المكتبات ولكننا نحزن من ان الذين رموا في المكتبات هم انتم. انتم الذين كانت آمالنا معلقة بكم لتكونوا حماية لنا ان اتفق وتعدّى احدٌ علينا. والامر الاثقل من كل ثقيل انكم اتتهم بالظلم ونحن مظلومون. والذين تحتمل منهم كل يوم انواعاً من الغش يتهموننا بانا نصنع الغش. فالحمد لله مخلصنا على كل حال. ولو لم نعلم ان هذا العمر محطٌ للبلايا لكنا نعدنا نذلاً كثيراً على ما جرى ... وان كانت موجودةً عينٌ مراقبةٌ (اعال ١٥: ٢٨) فلا تظن انها تغفل دائماً. بل اعلم بانا نظرنا تجربتنا في الامور الالهية لا الآن بل منذ القديم نحن مستعدون لقبول اعظم المظالم وعارفون ان نعترف بالفضل الذي يجعل لك المسير الى تلك الحياة اكثر اختصاراً ».

قال المؤرخ فلوري الغربي « ان هذه الرسائل قد سالت بكل هذه القوة من نفس فوتيوس الحزينة حتى انهُ لا يمكن لاحدٍ ان يطلب حجةً اعظم من هذه الحجج ضد المطاعن التي اختلقت ضدهُ لتثبت عليهِ القساوة ... وعلى ذلك فمن سائر المطاعن التي قد تكدر منها فوتيوس كدراً حقاً » (٥٠: ٣٠٤). ولعمري ان الذي يعزو الى فوتيوس ظلم اغناتيوس وحزب اغناتيوس بعد توجههِ عليهم ومخاطرتهِ في سبيل الدفاع عنهم انما يجازونهُ بدل الخير شراً ويذيقونهُ بدل العسل مراً.

على اننا نؤكد ما اكتبناهُ ونستشهد بهِ باقوال البطريرك اغناتيوس نفسهِ حيث كتب عن اسباب اضطهاده للبابا نيقولاوس فقال « وهانا اكتب السبب

الذي منهُ حصلت لي تلك المصائب: كان بيني وبين الحاكم بارداس خال الملك نزاع وقتال وما كنت اتكفُّ عن ان اضربهُ باقوال الروح. وكان هو يقابلني بضرب التهديدات والاعتداء. والسبب اني كنت اوبخهُ على الفحشاء الهيرودية. واذ لم يقنع اخرجتهُ خارج الكنيسة. ولذلك كان الملك تارةً يترجاني وتارةً يتهددني بالمصائب ان لم اقنع بقبول خالهِ. ولما اجلب الملك مشورتهُ واراد ان يبعد امهُ واخواتهِ من البلاط امرني ان اقصَّ شعرهنَّ. اما انا فلم اخضع لعدم رضى النساء بقص الشعر (يعني الرهبنة). ولهذه الاسباب طُردتُ من الكنيسة. ثم ضُربتُ ولُقيتُ ورُباتُ وسُجنتُ قبل حضور القضاة من عندكم. والذين معي ايضاً نابهم ما نابني » . فهنا تتضح اسباب ومصادر اضطهاد اغناتيوس واصحابهِ وهي اسبابٌ ومصادر قديمةٌ بالنسبة الى وقت انتخاب فوتيوس. وحسبنا بهذه الشهادة دحضاً وافياً لكلام المغرضين.

١٠ - يقولون ان الكنيسة كانت مربوطةً من اغناتيوس حين قلم فوتيوس اسقفاً عليها. قال انسطاسيوس « ان اغناتيوس حين كان ذاهباً الى المنفى ربط باللعنة الاكليريسيين الذين يقيمون الخدم الكنائسية بلا رخصتهِ » (امبلو ١٧ حا ٤). ولكن هذه الدعوى ساقطة من نفسها وهي فرعٌ من الدعوى الخامسة. فاغناتيوس ليس لهُ حقٌّ ولا حكمٌ على الكنيسة بل هو محكومٌ من مجمع الكنيسة وفقاً للقوانين التي تقدم شرحها. على اننا ان فرضنا صحة قول انسطاسيوس يكن عمل اغناتيوس فاسداً. فضلاً عن انهُ عملٌ لا يُصدَّق على من كان رجلاً جليلاً مثل اغناتيوس. لانهُ لا يليق بواجبات الراعي الصالح واهتماماتهِ في صالح رعيتهِ. وعندنا مثالٌ لهُ القديس يوحنا الذهبي الفم. فانهُ حين كان ذاهباً الى المنفى كان يحث رعيتهُ واساقفتهُ ان يخضعوا لخلفهِ ويشتركوا

معهُ لكي لا يُزعجوا راحة الكنيسة وكان يقول لهم ان الكنيسة ما بدأت منهُ ولا تنتهي معهُ وان الانبياء والرسل احتملوا اكثر مما قاسى هو . وكان يرجو الاساقفة ان يكتفوا بعدم حكمهم الحكم عليهِ ان كانوا يعرفونهُ بريئاً . وهذا نصُّ اقوالهِ عينها . قال « صلُّوا يا اخوة . وان كنتم تودون المسيح فلا احد يترك الكنيسة بسببي . لاني انا الآن أُسكَب . ووقت انحلالي قد حان » . هذه هي مزايا الرعاة الحقيقيين * فان كان القديس اغناتيوس فعل كما قال انسطاسيوس (ونحن من الذين يرتابون في صحة كلامهِ) يكُن ارتكب اثم محبة الذات بزعمهِ ان الكنيسة بلا وجودهِ يجب ان لا توجد . معاذ الله ! وحينئذٍ يصدق قول القائلين انهُ قد زاد غضب باردس بفعلهِ فانتقم منهُ ومن حزبهِ . ولو اقتدى بيوحنا سلفهِ لسكَّن ولا شكَّ غضب السلطة ونفع نفسهُ وحزبهُ والكنيسة * فزعم الزاعمين ان الكنيسة كانت مربوطةً من اغناتيوس زعمٌ فاسدٌ كما قلنا . ولو كان الاسقف يستطيع ان يربط كنيسةً لكان كلُّ اسقفٍ يُنفى يربط كنيستهُ فيضطرُّ ذووها الى ارجاعهِ . وهذا رأيٌ لا يركب على قالبٍ ارثوذكسيٍّ .

١١ . اخيراً يقولون ان فوتيوس طلب من البابا برسالتهِ اليهِ ان يثبتهُ في وظيفتهِ . وكتب لهُ ان اغناتيوس استعفى بسبب شيخوختهِ وضعفهِ وهو عائشٌ بالتكريم * غير ان هذه الرسالة ما لها اصلٌ ولا وجود . ورسالة فوتيوس الواصلة الينا ليس فيها شيءٌ من تلك الدعوى وعنوانها وحدهُ فضلاً عن نصها كافٍ لايضاح فساد ما جاء في الدعوى . قال في العنوان « الى الاخ بنقولاوس المارروبة الندبة الكلي القداسة والشرف ومساعدنا في الخدمة من فوتيوس اسقف القسطنطينية روميه الجديدة » . فهذه الكتابة ليست كتابة اسقفٍ يحتاج الى تثبيت * واما بقية الدعوى فقد نقضناها في صفحة ٤٠٤ حيث ادرجنا جانباً من رسالتهِ التي

ما خرجت عن كونها منشوراً بطريركياً سلامياً اعم مما فيهِ اعتراف الايمان جرياً على عادة البطاركة المرسومين حديثاً في كتاباتهم الى سائر اخوتهم .

فمما تقدم يتضح ان البطريرك فوتيوس قد انتُخب انتخاباً قانونياً وسيم سيامةً قانونيةً وقام بطريركاً شرعياً على كرسي القسطنطينية ١ - لانهُ من حين خلع اغناتيوس الى حين شرطونية فوتيوس توسط اكثر من شهر فيهِ جمع القيصر مجمعاً مؤلفاً من اكليروس القسطنطينية فانتخبوا بعد الفكر والفحص فوتيوس بطريركاً لكي لا تبقى الكنيسة بلا رئيس . وهو كان يرفض ويستقيل — ٢ . لانهُ في المجمع كان حزب اغناتيوس نفسهُ واكثرهم قبلوا فوتيوس ما عدا خمسة اساقفة لا اهمية لهم — ٣ . لان السلطة والاكليرس والشعب كانوا يلحُّون على فوتيوس ليقبل الرتبة — ٤ . لانهُ ما قبل الا بعد الجهد — ٥ . لان الراحة استتبَّت مدةً طويلةً بعد بطريركيتهِ — ٦ . لانهُ ما احد اعترض وقتئذٍ على شرطونيتهِ من درجة العوام * فدعاوي الاعداء إذن انما هي اختلاقاتٌ قال في قائلها داود النبي « حبِلَ وجعاً وولد إثماً . . . » (الآية)

---

٢ . البطريرك فوتيوس والبابا نيقولاوس

وقفنا في ما تقدم على نقطة التاريخ التي فيها ارسل كلٌّ من القيصر ميخائيل والبطريرك فوتيوس رسائل الى البابا نيقولاوس . ورأينا ان اغناتيوس وحزبهُ ايضاً ارسلوا رسالةً او إفادةً . وقد قلنا ان القيصر ارسل سفارةً الى البابا وطلب نوَّاباً منهُ لعقد مجمعٍ مسكونيٍّ آملاً انهُ بهذه الواسطة يستطيع ان يريح الكنيسة من شرور الخرطقات ومن الخلاف * غير انهُ اخطأ الظن وخاب الامل وبدلاً من الوفاق تمَّ الشقاق . لان البابا نيقولاوس لم يكن رجلاً محباً للسلام بقدر ما

كان محباً للمجد والعظمة ومولعاً بالرفعة والرئاسة الروحية والزمنية كما شهد فيهِ كثيرون (صفحة ٣٥٩ و٣٦٩) وكما شهدت فيهِ اعمالهُ عينها التي من جملتها انهُ انزل القيصر لويز الثاني عن حصانهِ وامشاهُ امامهُ ليسحب لهُ فرسهُ[1] * وقد لخّص المرحوم اليا تندليدي بهذه العبارات ما وصفهُ بهِ المؤرخون فقال « وكان البابا نيقولاوس في سن الستين من حياتهِ رجلاً ذا خلق متشلخ ابن عمل ولكن عنيداً سريع الغضب محباً المجد الى الغاية وفي كل مدة بابويتهِ كان تارةً يرمي ملوك اوربا في خصام وحروب بعضهم نحو بعض وتارةً يحرم ملوكاً ورؤساء كهنة ومجامع وهم يحرمونهُ بالتبادل · وما كان يعملهُ بواسطة نوابهِ كان تارةً يرفضهُ وتارةً يقبلهُ بحسب صالحهِ او بحسب ما كان يصل اليهِ من بعيد حسناً او غير حسن وهو قاعدٌ في رومية · وقد اخضع لكرسي رومية كلَّ المجامع والاسقفيات الحرَّة في الغرب مسمياً الذين يتاومون ارادتهُ منشقين وراشقاً ايام بالحرم · وهكذا اعدَّ الطريق واوضح للبابوات الذين بعدهُ وجه تسلُّط الكنيسة وخصوصاً للبابا غريغوريوس السابع · وقد سهَّلت لهُ النفوذ في كل مشروع جسور مخالف للقوانين الوساوس الغريبة التي كانت سائدةً وقتئذٍ في كل الغرب لخراب الكنيسة الكاثوليكية بان شخص البابا هو الخليفة الوحيد لبطرس المبسوط والنائب المطلق على الارض لربنا » (صفحة ٢٩) * فلما اخذ نيقولاوس تحاريز لبطريركين المتخاصمين انشرح صدراً وطاب قلباً اذ رأى فرصةً تخدمهُ لتمِّ احلامهُ باخضاع الشرق لسلطتهِ وربحهِ صيدةً ما صادها غيرهُ قبلهُ · ومع انهُ لم يكلَّف من احدٍ للقضاء والحكم بل طُلب منهُ ارسال نوابٍ الى المجمع ليكونوا مساعدين فيهِ حسب العادة اقام هو نفسهُ قاضياً وحاكماً بين

(١) امثلو ٢٠ حاشية ٤ . ملاتيوس ٩ : ١١ : ٣ · وذوسيثاوس ٧ : ١٣ : ٣

الخصمين واختار اسقفين ارسلهما تائبين عنهُ الى القسطنطينية (في ايلول سنة ٨٦٠) وهما زخريا ورودوَلد واوصاهما ان يقررا في مسألة الايقونات ما يرانهِ موافقاً لحسن العبادة وعدلاً · ولكن في مسألة البطريركين ان يفحصا فحصاً مدققاً ويقيداهُ كل شيء ليحكم هو فيها الحكم النهائي القاطع * ثم انهُ ارسل معهما رسالتين احداهما الى فوتيوس والأخرى الى القيصر * ففي رسالتهِ الى فوتيوس سمَّاهُ اسقف القسطنطينية ووافقهُ على اعتراف الايمان واقرَّ بانهُ ارثوذكسي ومدح علمهُ وحكمتهُ · ولكنهُ لام سرعة شرطونيتهِ من درجة العوام وسمَّاها مخالفةً لقانون مجمع سردیكي ولاوامر البابوات كلستينوس ولاون وجيلاسيوس (وهي من الاوامر الايسيدورية المزوَّرة كما رأينا صفحة ٢٦٠) وقال انهُ لا يوافق عليها قبل رجوع نوابهِ ووقوفهِ منهم على اعمالهِ وثباتهِ ومحاماتهِ عن الارثوذكسية. وكما يُستنتج من جواب البطريرك فوتيوس كتب لهُ ايضاً يطلب ارجاع ابرشيات صقلية وكالابريا التي اخذها لاون الايصوري وابرشيات أُخرى غيرها * وفي رسالتهِ الى القيصر اظهر كلَّ افتخارٍ وعظمةٍ فافتتحها بقولهِ « ان يدهُ السلطة الالهية التي اسبغها خالق الجميع على رسلهِ المختارين قد منحهُ لبطرس هامة الرسل زيادةً عن الآخرين بقولهِ لهُ : انت بطرس وعلى هذه الصخرة سابني كنيستي · وقولهِ ايضاً : وانت وقتاً ما بعد ان ترجع ثبِّت اخوتك * فبطرس قد أُمر ان لا يكفَّ عن العناية في الكنيسة القائمة في كل مكان »[1] * ثم انهُ تشكَّى من ان قطع اغناتيوس قد جرى بلا راي السدة الرومانية مدَّعياً بانهُ لم يحصل مثل ذلك في السابق (وقد رأينا في القسم الاول كم وكم من الاساقفة قُطعوا بلا راي ولا معرفة رومية) · وبعد ذلك قال « واما شرطونية فوتيوس فلا يمكننا

(١) ان هذه الآيات كتب معناها الخفيف صاحب الامفلوثيا صفحة ٢١ والمحل الآخر عندنا

ان نوافق عليها قبل ان نقف من نوابنا الذين ارسلناهم على كلّ ما جرى في القسطنطينية من الامور الكنائسية وما يجري ايضاً ايها القيصر الجزيل الحلم · وان ياتي اغناتيوس امام نوابنا وكل المجمع ونُمحّص قضيتهُ ويُعرَف هل ما جرى جرى على قانونٍ نظاميٍّ ؟ وهكذا نميّز براءتنا كلَّ ما هو مزمع ان يُعمَل بشأنهِ » · ثم وعد ان يرسل هو الحكم القاطع من روية غبَّ ان يقف على تفصيل المسألة · وكأني بهِ قد نسي نفسهُ معجباً هذا الاعجاب فختم الرسالة برجاء القيصر ان يسمح بخضوع ابرشيات ايبيرُس وايليريا ومكدونيه وثيساليا واخائيا وداكيا وميسيا والدردنيه وبريقاليس لكرسي رومية وان يعرف اسقف ثسالونيكي قائمًا مقامهُ في المشرق لزعمهِ انهُ منذ القديم كان خاضعاً لهُ · ثم طلب منهُ ارجاع مواريث الكنيسة الرومانية في كالابريا وصقليه وخضوع اسقف سيراكوسا لكرسي البابا وتعيينهُ منهُ * وقد زوّد رسلهُ بتعليماتٍ سرّيةٍ وارسلهم الى القسطنطينية · وكانت تلك التعليمات تتعلق بالابرشيات المذكورة كما يتضح من كتاباتهِ بقولهِ لفوتيوس وللقيصر انهُ لا يوافق على شرطونية فوتيوس ما لم يرجع رسلهُ الى رومية · فانهُ قد قرَّر في ذهنهِ مسبقاً اعني : إن كانت كنيسة القسطنطينية تتواضع لهُ وتحني رأسها لمطالب رومية الاستبدادية وترفع يدها عن الاملاك التي طلبها منها فيكون شعوبها مسيحيين حقيقيين والقيصر مؤمناً حسنَ العبادة ومستقيم الرأي وفوتيوس بطريركاً حقيقياً قانونياً وجزيل القداسة وكل من يطعن في فوتيوس يُحكَم عليهِ من البابا بقطع لسانهِ · وان كانت القسطنطينية لا تخضع لاستبدادهِ ولا تملكهُ ابرشياتها فقيصرها كافرٌ وبطريركها لصٌّ وشعبها ضالٌّ وليس فيهم مَن يعمل صلاحاً حتى ولا واحد (!!!) · هكذا كان البابا نيقولاوس ينصب اشراكهُ حوالهِ ويترقب كل فرصةٍ ليحصل على غايتهِ *

على ان في هذا المقام ملاحظةً نبديها من باب الاستطراد وهي : ان البابويين يدّعون بان للبابا سلطةً على كل الكنيسة وعلى البطاركة انفسهم ايضاً · ولكن ان كانت دعواهم حقّةً فما بال نيقولاوس يطلب سلطةً على مطران ثسالونيكي الخاضع لاحد البطاركة ؟ أملَّ البابا رئيسٌ على البطاركة فقط ولا رئاسة لهُ على المطارنة ؟ أو ليس هذا برهانٌ قاطعٌ على ان سلطة البابا محصورةٌ وانهُ بطلبهِ الرئاسة على تلك الابرشية انما قصد توسيع نطاق سلطتهِ المحصورة ليتدرّج بهِ الى السلطة العامّة ؟ ولكن هات الآن لننظر في ما بعد ذلك :

فلما وصل رسل البابا الى القسطنطينية وقفوا على مسألة فوتيوس واغناتيوس بكل تدقيق ووجدوا ان اغناتيوس كان قبلاً قابلاً بشرطونية فوتيوس وسالمهُ مدة اربعين يوماً وان شرطونية فوتيوس من درجة العوام لم تكن أولى ولا ثانية بل كانت عاديةً ومقبولةً في كنيسة القسطنطينية خصوصاً وان غريغوريوس الذي شرطن فوتيوس كان اسقفاً ارثوذكسياً وكان اغناتيوس نفسهُ يميل الى مسالمتهِ (ولا عبرة في ما اختلفا بعد ذلك اعداه فوتيوس بحقهِ) وسمعوا باذانهم من القيصر والمجمع والشعب انهم هم ترجّوا فوتيوس وحرّضوهُ واجبروهُ وغصبوهُ واخيراً عهدوهُ ليقبل البطريركية وانهُ قد لامَ وبكّت وويخ الذين ارتكبوا القساوة ضد اغناتيوس وحزبهِ وتأكدوا من كل ذلك بذاتهِ من تهمهِ وعرفوا قانونية مركزهِ وعلموا عدم امكان رجوع اغناتيوس الى البطريركية ومن ثم اشتركوا مع فوتيوس وسالموهُ · وفي سنة ٨٦١ عُقِدَ مجمع في كنيسة الرسل القديسين مؤلفٌ من ٣١٨ أباً تذكاراً لعدد آباء المجمع النيقاوي المسكوني الاول · وقد اجتمع هذا المجمع بحضور نواب البابا ورئاسة فوتيوس وتذاكر في مسألة الايقونات · وبعد المذاكرات الطويلة كان الظفر للارثوذكسيين · فطلبوا

ان تكتب المذاكرات وتُحفظ ويكتب القرار النهائي ايضاً . ولكن محاربي الايقونات هجموا عليه من الخارج وقاموا ضد الارثوذكسيين بالقوة واشهروا السلاح فانحل المجمع بلا قرار . وبعد مدة انعقد ثانية وقد حضره القيصر وبارداس وقضاة المملكة وكل المدينة اجتمعت حوله وحضره ايضاً نواب البابا وكان رئيسهُ فوتيوس . ثم ان اغناتيوس أُحضر اليه وسُئل ليجيب عن الشكايات التي تقدمت ضدهُ فلم يجب جواباً واضحاً بل قال ان نواب البابا ارتشوا ويرغب ان يرسل الى رومية ليترافع امام البابا مستنداً على قانون مجمع سرديكي الغربي وامثاله (وقد رأينا فساد هذا الاستناد في ما سبق صفحة ١٢٤ و١٣٣ الخ وتاريخ مجمع قرطاجنة صفحة ١٧٤ — ١٨٩) فقطعهُ المجمع لانهُ كان مشرطناً بانتخاب ثلوزوره وحدها وبلا صوت مجمع خلافاً للقانون الثلاثين الرسولي وشهد عليه بذلك ٧٢ رجلاً اكثرهم من ذوي الوظائف . وقُرِّر ان فوتيوس بطريرك شرعي على الكرسي القسطنطيني ووافق على كل ذلك نوَّاب البابا . ولاجل السلام وملافاة النزاع بين الكنائس سنَّ قانوناً مضمونهُ ان لا يقوم بعد الآن بطريركاً من طبقة العوام او الرهبان ما لم يتمرَّن في الدرجات الكنائسية الواطئة ويتمم الزمان القانوني فيها (قانون ١٧) . ثم تذاكر المجمع في مسألة الايقونات المقدسة وقاوم بقوال الروح فِرَق الهراطقة وأسر اكثرها الى طاعة المسيح وحكم على المبتدعين ووضع قوانين تتعلق بالاديرة والرهبنة ومن جملتها القانون ١٧ المذكور فحواه . وقد سمّي هذا المجمع بالاول والثاني لاجتماعهِ اولاً وانحلالهِ واجتماعهِ مرةً ثانيةً . وكُتبت اعمالهُ في جزئين احدهما فحواهُ مسألة اغناتيوس وقطعهُ . والثاني مسألة الايقونات . وقد ارسل القيصر الاعمال الى البابا نيقولاوس مع لاون احد كتابهِ وسفرآء البابا وزوَّدهم بهدايا كنائسية ورسالة ضمنهُ الى البابا . وكتب فوتيوس

ايضاً رسالةً لهُ موعبةً من اقوال اللطف الانجيلي والرزانة والنعمة حتى ان اعداآءه فوتيوس ما زالوا يتعجبون منها ويسمونها اعجوبةً . وهي تشهد لهُ كم كان يود السلام بين الكنائس . وقد عنون هذه الرسالة كما عنون السابقة بما مخصهُ ان من فوتيوس اسقف رومية الجديدة الى نيقولاوس بابا رومية القديمة . وبعد ذلك افتتحها بمدح المحبة واثمارها كما هو شأن الاساقفة تلاميذ الرب الحقيقيين ومعلمي الحرية الانجيلية الخلاصية . فقال « بالحقيقة لا شيء مما يملكهُ الناس اكثر وقاراً واشد كرامةً من المحبة . . . لانهُ بها يُضمُّ المتفرقون ويُسالَمُ المتخاصمون ويشتد رباط الاهلين ولا يدَعون للنزاع والخصام مجالاً . . . فهي تلطف غضب الوالد على اولادهِ . وتجعل الوالدين ان يتحمَّلوا سخط الاولاد بلا كدرٍ . وتسلخ العلاقة الطبيعية ضد الغضب الخارج عن الطبيعة . وتدفع بسهولة الخصام الذي طرأ على الاصدقاآء . . . والذين يعتقدون الاعتقاد الواحد في الله وإن كانوا بعيدين بعضهم عن بعضٍ وإن لم يروا بعضهم بعضاً مرأى العين تجمعهم الى واحدٍ وتضمهم بالرأي وتجعلهم اصدقاآء حقيقيين . . . وهي ايضاً قد اقنعت اعتدالنا ان نتحمل بلا ضجرٍ التوبيخات التي رُشقت من بركم الابوي رشق النبال . لانها جعلتنا ان نحتسبها ناشئةً لا عن ألمٍ نفسانيٍّ ولا كلاماً عن فكرٍ عدوانيٍّ بل عن طوبةٍ بسيطةٍ ومدققةٍ التدقيق النهائي في الترتيب الكنائسي » ثم انهُ يوضح لهُ كيف قام على الكرسي جبراً ويستحق شفقةً لا ملامةً فقال « وبما انهُ لا مانع يمنع ان يجاهر الاخوة لاخوتهم والاولاد لاباءهم بقول الحق (اذ لا شيء احبُّ من الحق) مسموحٌ لنا ان نجاهر ونقول لا بكوننا نكتب ردّاً بل بكوننا نبدي احتجاجاً انهُ كان من الواجب على كما لكم في الفضيلة ان يلاحظ قبل الآخرين جميعهم اننا سُحبنا الى هذا النير كرهاً عنا وان لا يوبخنا بل ان يرحمنا . ولا يحتقرنا

بل يتوجع علينا . لان الذين يحملون الغضب تحق الرحمة والشفقة عليهم لا التوبيخ والاحتقار . ونحن قد تحملنا الغضب . والله الذي جميع الخفيات ظاهرة لديه يعلم مقدارها العظيم . فقد ضُبطنا مكرَهين . سُجنّا بثابة مرتكبين . وُضعنا تحت المراقبة والحفظ . أُتُّهمنا ونحن غير قابلين . شُرطنا ونحن بأكون ومتجبون ولاظمون . وقد علم الجميع هذا الامر . لانهُ لم يجرِ في زاوية بل وصل تاريخ عظم التشديد علينا الى الجميع . فبعد هذا ماذا يجب نحو الذين قاسوا امورًا كثيرة وشديدة ؟ أتصير والتوبيخ والخصام او الرأفة والتعزية بكل ما يمكن ؟ فاني قد سقطتُ من العيشة السلامية . سقطتُ من الراحة العذبة . سقطتُ من المجد ايضاً (ان كان بعضهم يشتهي (من المناصب) المجد العالمي) . سقطتُ من السكون الحبيب ومن تلك الاجتماعات النقية الشديدة اللذة الاجتماعات مع الاقارب ومن المعاشرة الخالية من الكدر والغش والشر . فلم يكن لي ضدٌ يرفع عليَّ قضيةً . وما كنت انا اشتكي على احدٍ لا من الداخلين ولا من الوطنيين ولا من المعارف فضلاً عن الاصدقاء . وما احزنت احدًا البتة ليرشقني بنشيمةٍ ما لم تعتبر مخاطراتي في سبيل حسن العبادة . وما اخطأ اليَّ احدٌ ليزق لساني ويصل الى نقطة شتيمته . هكذا كان الجميع نحونا صالحين . ونحن وان لم نقل انا كنا نحوهم صالحين (لعم ينادون بذلك . كنت محبوباً من الاصدقاء اكثر من الاقرباء وكنت أُحسب واحدًا من الاقرباء بل اعزّ الاقرباء واقرب الاصدقاء . واما صيتي في الاجتهاد من المقرّبين فكان يحب الذين يجهلونني الى عشق الحيّ ورباط الصداقة وربما هم ايضاً يستحسنون ذلك بلا ندم * ولكن كيف يمكن ان اذكر ذلك بلا دموع ؟ فاني حينما كنت في البيت كان صفا الملذات العذب مجمعاً لي اذ كنت ارى تعب الطلبة

المتعفين واجتهاد السائلين وممارسة المخاطبين الذين بهم يُجهَّز الرأي لينضج على افضل وجه . رأيتُ الذين يرفعون ذهنهم بالعلوم الرياضية ويبحثون على الحقيقة بالمناهج المنطقية ويهذبون عقلهم في حسن العبادة بالاقوال الالهية وهذا (التهذيب) هو ثمر سائر الاتعاب . فهذا الصف كان مصف بيتي . وحين كنت اخرج الى البلاط الملوكي احياناً كثيرة كانت ترافقني ادعيتهم في حسن الذهاب وتحريضهم على عدم الابطاء . لان هذا ايضاً كان لي شرفاً ملازماً ممتازًا وهو امتلاك ارادتي درجة اعتدال الاقامة في البلاط . وعندما كنت اعود كان المصف الحكيم يستقبلني واقفاً على الابواب . ثمنهُ مَن كان يلومني على الابطاء وهم الاكثر تقرُّباً ودالّة لازدياد فضيلتهم . وبعضهم كانوا يكتفون بالسلام . وبعضهم (كانوا يكتفون) بايضاحهم فقط انهم ينتو مقيمين (منتظرين لي) وهذا كان يجري حولي من دون ان ينتهي الى العدوان ومن دون ان يمزقهُ الحسد ومن دون ان يذلهُ الهوان . فمَن يكون عائشاً هذه العيشة المذيذة تحركاتها ويرضى ان يغيّرها طوعاً وبلا نحيب ؟ فاني قد سقطت من كل ذلك . هذا ما كنت اندب عليهِ . وحين كنت أُفصَل عنهُ كانت ينابيع دموعي تُسكب مني وقتام الحزن يغشيني . لاني كنت عالماً قبل الخبرة كثرة قلاقل هذه السدة ومهامها . كنت عالماً مصاعب وجموح الشعب المخلّط وخصامهُ بعضهِ لبعض وحسدهُ وهيجانهُ وثوراتهِ واهانتهُ وغضبهُ على رؤسائهِ عندما لا يحصل على الذين يطلبهم وعندما لا يتنازلون ولا يتبعون الوجه الذي هو يريده . ثم كبرياءهُ واحتقارهُ بعد انهُ يحبهم الى اجراء طلبهِ ويجعلهم يوافقون ارادته . لانهُ يحسب اتمام ارادتهِ صادرًا لا عن معروفٍ طوعيٍّ (من رؤسائهِ) بل عن اجبارٍ اكراهيٍّ . وهكذا اذ يضبط الشعب السلطة ويرأس على السلطان

يصير مبباً لملاكهِ وهلاك رئيسهِ ... ومَن يستطيع ان يعدد كل شيء واحداً فواحداً ؟ فان الضرورة تحكم على الرئيس احياناً كثيرةً ان يبدل لون وجههِ بالعبوسة فيما ان نفسهُ لبست على طوية العبوسة . وبالعكس ايضاً يتفق ان تكون (نفسهُ) متوجعةً وهو (مضطرٌ) ان يجعل وجههُ بشوشاً واحياناً ان يغضب من دون ان يكون غضباناً او ان يضحك وهو متكدرٌ . هذا هو عذاب المقضي عليهم ان يضبطوا ولاية الجمهور (يعني رعاية الشعب) . ولكن الحالة السابقة ماهي ؟ صديقاً كنت لا يزلُّ منهُ الاصدقاء ولا عدوٌّ لهُ . وكما كانت طويتي كانت ظواهري . واما الآن فكثيراً ما تحكم الضرورة ان اوم الاصدقاء ملامةً مرَّةً وان ازدري الاهل من اجل حفظ الوصية واظهر صارماً على المذنبين . فمن كل جهةٍ ترى الحسد والفساد (في النظام) الذي ساد مع الزمان . ومالي ولتعداد ما اقاسيهِ من اوجهٍ اخرى على توبيخي سيمن (اي السيمونيا او الذين يحصلون بالمال على رتب الكهنوت) والمحن العظيمة التي انحملها كل يومٍ على استئصال الخسارة العالمية من رجال الطغمة المقدسة وردعهم عن احتقارهم الامور الفاضلة وعنايتهم في الامور الباطلة ؟ الامور التي اذ كنت اراها من ذي قبل ايضاً واتصور منها نفسي واراى ان استئصالها ليس في امكاني كنت اهرب من الانتخاب واستعفي من الشرطونية واندب الرئاسة . ولم يكن لي سبيلٌ الى الهرب مما قضي بهِ . ولكن ما بالي اكتب هذه الامور ؟ فقد كتبتها من ذي قبل . فان وقعت موقع التصديق اكُن مظلوماً بعدم حصولي على المرحمة . وان حلَّت محلَّ عدم التصديق اكُن مظلوماً بكوني اكتب حقائق ولا اُصدَّق * هكذا انا قليل الحظ من كل وجهٍ . فمن حيث ارجو ان احصل على تخفيف الكدر اُوَنَّب . ومن حيث ارجو راحةً وسلوى يزاد على وجعي وجعٌ * ولكن تقولون لي : ان كنت لا تستحق الظلم ولا

تستحق الغصب فقل ذلك للذين ظلموك . (فاجيب) ان هذه الشريعة حسنةٌ . ولكن الملامة على مَن ؟ أليست على الذين غصبوا ؟ ولمَن المرحمة ؟ أليست للذين تحمَّلوا الغصب ؟ وان كان احدٌ يترك الغاصبين ويلوم المغصوب فانا كنت ارجو ان ادعو عدلك يحكم عليهِ * ولكن تقولون انها ديست قوانين لانك من هيئة العوام انتقلت الى سموّ رئاسة الكهنوت . (فاسألكم) مَن المخالف ؟ أالغاصب ام المسحوب غصباً وكرهاً ؟ ولكن كان يجب ان اقاوم . فالى اية درجة ؟ لاني قاومت مقاومةً تفوق الواجب . ولو كنت عالماً ان عاصف الارواح الخبيثة مزمع ان يشتد عليَّ كل هذا الاشتداد لقاومت حتى الى الموت عينهِ * فاية قوانين ديست ولم تصلها الى الآن كنيسة القسطنطينية ؟ فان المخالفة تُقال في ما سُلِّم ليُحفَظ (ولم يُحفظ) . واما ما يُسلَّم فان لم يُحفظ لا بلحقهُ ذنبُ المخالفة (يعني بذلك مجمع سردكي وقوانين البابا وات المزوَّرة الغير المعترف بها في كنيسة القسطنطينية) * فما ذكرتهُ كافٍ وهو اكثر مما يقتضي ان اذكر . لاني لم اشرع في ان ابرّئ نفسي لاثبت . حاشى . بل اني مارسٌ على التمني بوجوهٍ كثيرة ان اُعتق من هذا الهم ويُنزَل عني هذا الحمل . وهذا مقدار رغبتي في الكرسي ومقدار تشبثي فيهِ . لان الكرسي لم يكن في بدء الامر ثقيلاً ثم صار مع الوقت داعي رغبةٍ . بل كما اني دخلت اليهِ جبراً اناجانسٌ عليهِ جبراً وهذا برهانٌ آخر من جملة البراهين على اني غُصبت على الدخول اليهِ وهو اني من البداءة الى الآن ما زلت راغباً ان ابتعد عن هذه الرئاسة . وان كان احدٌ كتب لي شيئاً يسرني (يعني بالواحد نيقولاوس نفسهُ) لما وجب ان يكتب « ان كل الامور الاخرى صالحة وممدوحة ونقبلها ونُسرُّ بها ونرنم ترنيمات الشكر لله الذي ساس الكنيسة على هذا الوجه بكل حكمةٍ . واما (الشرطونية) من العوام فليست ممدوحة .

ولهذا السبب لم نزل الى الآن في ريب ونوجل موافقتنا النهائية الى حين رجوع وكلائنا » الى أوجب ان يكتب هكذا « اننا لا نوافق البتة ولا نقبل والى الابد لن نقبل المعتدي المتاجر بالرئاسة الغير المنتخب الشرير على كل الوجوه . فاخرج من الكرسي . واترك الرعاية » . فبمثل هذه الكتابة يستطيع المكاتب ان يكتب لي كتابة مستحبة وان كان اكثرها كذباً . لان الذي ظلم في دخوله يجب ان يُظلَم في خروجه » . (ولا يخفى ان هذا كله توبيخ لبنولاوس واختلاف بغضه لانه يمدحه ويسميه اسقف القسطنطينية ثم يجعل قانونية شرطونيته في ريب بعد قولهِ انها مخالفة القوانين وغير ممدوحة . فلم يرفضها ولم قبلها بل احالها الى رجوع وكلائه آملاً بحصولها على الارشيات المذكورة كما تقدم) . ثم ان فوتيوس اخذ يقدم له امثلة ليريه غلطه فقال:

« وكان يكفي ما ذُكر كما ذكرنا . ولكن لما كان الآباء القديسون المطوَّبون الذين قبلنا اوشكوا يقعون معنا تحت الطعن مثل نيكيفورُس وطاراسيوس (لانهما ايضا رُقيا من هيئة العوام الى رئاسة الكهنوت المقدس وقد صارا مصباحين دائمي النور لجيلنا وكاررَين محيدَين بالايمان الحسَن وقد وطَّدا الحقيقة بسلوكها وكلامها) رايت من الواجب ان استتم المقال واوضح اولئك الرجال المطوَّبين منزَّهين عن كل علَّة وسامين عن كل عيب . وان كان بعضٌ آخر لا يتجاسرون ان يطعنوها بعيب ويعتبرون الانتقال من طبقة العوام الى الكهنوت عيباً فيعيبونها ولا يعيبونها (لانها رُقيا من طبقة العوام) ولا يبالون بان يعيّروا أناساً هم انفسهم يكرمونهم ويتذهلون منهم[1] . فهذان طاراسيوس ونيكيفورُس اللذان لهما في الحياة العملية بثابة كواكب وامتازا في الرئاسة الكهنوتية

(١) وهنا ايضاً توبيخ لبنولاوس لانه هو يكرم طاراسيوس ونيكيفورُس المنتقلين من العوام وهو نفسه يعيب ويرفض المنتقلين من العوام فيناقض مبادئه عينها .

أتعلمها رأساً الكنيسة على خلاف القانون والرسم الكنسي ؟ حاشى لي ان اطلق صوتاً مثل هذا الصوت او ان اسمعهُ من آخر يقولهُ . لانهما كانا حافظَين القوانين بالتدقيق . مدافعَين عن الايمان الحسَن . نابذَين نسوء المعتقد . كوكبَين في العالم حسب القول الالهي . ضابطَين كلمة الحياة . واما لكونهما لم يحفظا قوانين لم يعرفاها فلا احد يستطيع ان يقرّفهما ويكون عادلاً . ولكن لانهما قد حفظا كلَّ ما تسلماهُ قد مُجّدا على ذلك من الله . لان حفظ المُسلَّم هو من مزايا العزم الثابت الذي يرفض الميل الى الاحداث . واما الشروع في اشتراع ما لم يُسلَّم او حفظهِ بلا داعٍ فهو فضلات ذهن محدث وتائه . لان كلَّ واحد مرتبط ومُدارٌ بقياسهِ وقانونهِ . فقوانين كثيرة سلّمت لبعض وهي عند غيرهم غير معروفة . فالذي استلم وخالف يستحق القصاص . واما الذي لم يعلم او لم يقبل (تلك القوانين) كيف يكون مسؤولاً بها ؟ » — ثم انه اورد امثلة من خيانة ابرهيم وعدم حسان مثبصاداك مخالفاً لعدم خيانته . وقال « فاما ما رُسم باصوات مسكونية وعمومية يجب على الجميع حفظهُ . واما ما دوَّنهُ لوحدهِ احد الآباء او حدده مجمعٌ مكاني فالذين يحفظونهُ لا يحكَم على رأيهم بالنوسواس . ولكن الذين لا يقبلونهُ لا خطر عليهم من رفضهم اياهُ . مثلاً : بعضٌ عندهم الحلاقة عادةٌ ابوية وآخرون ممنوعة عنهم باوامر مجمعية (ومن الواجب ان يُقال هذا الكلام بلطف وهكذا قلناهُ . ولو اضفنا قانون مجمع سيذا لكنا ثقلاء كثيراً ومكررين[1]) »

(١) هذا المجمع عُقد سنة ٨٦٩ ضد المانويين الذين من جملة قبائحهم يعدد القديس ابيفانيوس حلق اللحى (هرطقة ٨٨) فمن جملة قوانينه منع حلق اللحى . ولما كانت عادة الحلق جارية عند الغربيين اوضح فوتيوس عدم وجوب ملامتهم من حيث العادة لا اختصاص القانون بالفرق اذ هو قانون مجمع مكاني هذا ما سألة حلق اللحى فقد كتب فيها البطريرك زوسيماوس مطولاً ولا محل هنا للتطويل (٨ : ١٤ — ١٧) ولكنا نقتطف منها ما اقتطفه

كذلك ملام معتدنا من يقطع ويصوم السبت غير السبت الواحد . وغيرنا يصومون اكثر من السبت الواحد ويظن التقليد انه يقلت من الملامة متغلباً بنفوذ العادة على القانون (صفحة ٢٢٠) * وفي رومية لا يمكن ان يوجد قسٌّ مرتبط بزيجة بامراة شرعية ونحن قد تعلمنا ان نرقي الى درجة القس الذين يعتمدون في عيشتهم على الزيجة بواحدة * وايضاً اذا فات احدٌ ان يُشرطَن قساً وارتقى من الشموسية الى الاسقفية راساً يحكم عليه لخطإٍ في الامور

صاحب الهيذالبون (صفحة ١٧٦) . فاولاً برهن منع حلق اللحى من الكتاب خصوصاً عن الاكليرُس (لاويين ١٩ : ٢٧ و ٢١ : ٥) . ثم اظهر كمال الرجل بشعره في وجهه من ظهور الله لدانيال بشكل شيخ مكرم . ومن لحية يسوع المسيح ولحى الآباء وروساء الآباء والانبياء والرسل . ثم برهن من الصُّوَر القديمة ان رجال الكنيسة في القديم كلهم كانوا ملتحين لا في الشرق فقط بل في الغرب ايضاً مثل امبروسيوس وبنيذكتوس إمام المتوحدين وغريغوريوس الذيالوغوس وغيرهم وصُوَرهم محفوظة في كنيسة القديس مرقص في البندقية . ثم استشهد بالذوق والعقل السليم على وجوب حفظ اللحى فقال : ان اللحية هي العلامة الظاهرة التي تميز بين الرجل والامراة . ولهذا لما سئل احد الفلاسفة لماذا يربي لحيةً ؟ اجاب : انني كلما مسكت لحيتي اشعر بانني رجل لا امراة . فالذين يحلقون لحاهم ليست لهم وجوه الرجال بل لهم وجوه نساء . ولهذا ايضا يوس طعن بالماسانيين كما تقدم . وبامر الرسل (١ : ٢٠) تومر ان لا ينزع احدٌ شعر لحيته ولا يغير شكل الرجال الطبيعي الى شكل النساء الغير الطبيعي له . لان الله الخالق جعل الوجه الاجرد لائقاً بالنساء وحكم بانه غير لائق للرجال * على ان فصل اللحية بدا في كنيسة رومية قبل البابا لاون التاسع بوقت قليل . وبعده البابا غريغوريوس السابع كان يجبر الاساقفة والاكليرُس لحلقوا لحاهم . وهكذا غيّر شكل خليفة بطرس الى شكل عريس جديد يديع المنظر والفرق بين الاثنين ان البابا يلبس بطرشيلاً وامموفوريا ويتقدم في مجمع مائتين ويُسمَّى بابا * ولكن بعد البابا غريغوريوس المذكور قام بابا وارث غيوره أبقوا الاقتداء به فحافظوا على لحاهم منهم جيلاسيوس الثاني وغيره . غير ان الاصطلاح الجديد غلب العادة القديمة وما زال حلق اللحى والشنب مصطلحاً عليه في كنيسة الغرب .

الجوهرية (١) . ولكن بعضاً عندهم سيان الارتقاء من القسوسية الى الاسقفية والنط من الشموسية الى وظيفة الاسقفية بقفز الدرجة المتوسطة بينهما . ومعلوم كم البعد المتوسط بين الاثنتين . لان لكل رتبة ودرجة صلوات خاصة وترتيبات خاصة وخدماً خاصة واستعدادات من حيث الوقت خاصة وتجارب من حيث الاخلاق خاصة . غير ان ما لم يقبله الانسان شريعة متى قدم حجة عن عدم حفظه عدم تسلمه يخلص من الملوم ولية عليه . . . وبعض متى ترهبوا لا يدنون من اكل اللحم الى آخر حياتهم لا لانهم يرذلونه بل تقشفاً . وقد سمعت انا من أناس يكرمون الحقيقة ان الشخص المزمع ان يقام اسقفاً على كنيسة اسكندرية يجبرونه بحادث غير منتظر حدث عندهم في بلادهم ان يعد بانه لا يمتنع عن اكل اللحم . . . هكذا حيث لا يكون المنقوض امانة لا يكون السقوط مخالفاً للصوت العام المسكوني . وما دامت العوائد والاحكام تتغير مع تغير الشعوب يستطيع كل واحد ان يحكم حكماً مستقيماً بقوله ان الذين يقبلونها لا يخطئون والذين لا يقبلونها لا يدوسون الناموس . على ان ما حُسبَ علينا ذنباً (يعني شرطوتينة) ليس بينه وبين بعض ما عددناه تناسبٌ من حيث عدم الملامة . لان تلك المعدات (اي عوائد الغربيين) انما محلها محلُّ الاعمال الخارجة عن الشريعة والمرذولة . واما هذا (اي شرطوتينة) فمقام في قسم الاعمال الممدوحة والصالحة — ثم انه يبرهن ذلك من تفضيل الذين انتخبوه على الاكليرُس كله ومن مخالفة العوائد الغربية

(١) هذا برهان واضح يخجل الذين يتهمون فوتيوس بانه شرطن راساً من علمانيٍّ اسقفاً في يوم واحد من دون ان يشرطن شماساً وقساً حالة كونه لا يوافق لاهوته الكنيسة الشرقية على تلك الشرطونية لو كانت من درجة الشموسية فكم بالحري متى كانت من طبقة العوام ؟ على ان الغربيين يجيزون شيئاً من ذلك كما يتضح من كلامه في المتن .

لشرائع الله والآباء والجامع لحفظهم السيئ ومنعهم الروايح الخ . ويقول « فالذي اعتنق من العوام السيرة المقدسة ترقيته الى رئيس كهنة عمل مناسب جداً كما اقتضع والبسة الآباء الاهليون لا بالكلام والاقوال فقط بل بعملهم اياها بالافعال في اوقات متعددة وبحاً عظيماً للكنيسة عروس المسيح » — ثم يذكر بعض الفروقات في الخدمة الالهية والفرق في اقامة القضايا على الاكليرس بان الشرقيين يكتفون بثلاثة شهود صادقين ليحكموا حتى على الاسقف نفسه وغيرهم (اي الغربيين) يطلبون سبعين شاهداً وبدونهم لا يحكمون عليه ولو سُلك سَلك اليد ويقول ثيوذوريطوس « ان الله وهبني قوة هيئة الشعر (شعر اللحية والراس الخ) وطول الزمان في نوال الكهنوت : لان حُسن خلق الانسان يوضحه اهلاً للكهنوت قبل ان توضحه هيئته وإن لم يضع احدٌ يده عليه وإن لم تُقل كلمات الدعاء . وكثيرون من الذين يفتخرون بالهيئة والكسم قد فارقهم حُسن الخلق فتركهم على الكسم وحده (١) ... هذا نقوله لا مفتخرين بنفسنا . معاذ الله . لاننا نحن فقراء من الحالتين على السواء من السيرة الحسنة ومن الكسم ايضاً (لان شعرنا لم يكن بعد مستكملاً) واني لفقير جداً من ان اقول ذلك عن نفسي حتى ان الذين يريدون ان يهزأوا بنا لهم السبيل الى ذلك من حيث حسن سيرة المستحقين للكهنوت اكثر مما لهم ان يقوموا ضدنا بسبب الهيئة . فما كتبناه لم نكتبه من اجلنا نحن بل من اجل الذين قلناهم قبلاً (يعني طاراسيوس ونيكيفورس الخ) . لاني عندما اسمع الآباء يهانون اخشى من عدم الدفاع عنهم ... فلم يكن طاراسيوس معاباً ولا نيكيفورس اللذان اظهرا سيرتهما مستحقة للكرسي قبل ان يحصلا على الكسم . ولا امبروسيوس يهان ويرضى ولا شك احدٌ من اللاتين على الاقل ان لم اقل غيرهم . امبروسيوس زينة الكنيسة

(١) هذا يوافق المثل القائل «ان الثوب لا يجعل الراهب وانما الراهب ما كتبناه صفحة ٤١١

اللاتينية الذي الّف بلغة اللاتين كتباً كثيرة ناهضة للنفوس * ولاكتاريوس يقع تحت ملامة . لان مجمعاً مسكونياً صدّق له على وظيفة الاسقفية . وان شرع احدٌ في ان يذمه لا يجعله هو بل يجعل المجمع تحت الحكم * على ان كل واحد من هذين الاثنين (يعني امبروسيوس ولكتاريوس) لم يرقَ كمال رئاسة الكهنوت من طبقة العوام فقط بل كان كلٌ منهما في التجربة بين الغير المعمّدين فاستحقا موهبة المعمودية ونعمة رئاسة الكهنوت معاً . فان كان هذان الاثنان لا يجاسر احدٌ ان يحسب احداً منهما تحت ملامة مهما كان جسوراً . فولا طاراسيوس ايضاً عمانوئيل (يجب ملاماً) ولا نيكيفورس الذي خلفه باستحقاق من حيث الجنس والكرسي وحسن السيرة . واني اترك غريغوريوس ابا الثاولوغوس وثالاسيوس اسقف قيصرية ومحفل سائر رؤساء الكهنة الذين تسلموا رئاسة الكنائس على مثل هذا الترتيب والطريقة وصاروا اسمى من كل تقريظ وكل طعن »

« ولكن هذا من اجل الذين وجب ان يُذكر من اجلهم وقد ذُكر . واما نحن فقد ذُكر وسيُذكر من اجلنا شيء واحد فقط وعوائنا كرهاً أقمنا وما زلنا الى الآن جالسين بمذلة مضبوطين . وانا ايضاً لانقيادنا في كل امر الى محبتكم الابوية وبعدنا اننا ابنا بجلاء ما ذُكر لا لاجل النزاع بل لاجل تبرئة ابائنا المضبوطين قد وافقنا على ان يُحدَّد مجمعياً ان المنتخبين من العوام او الرهبان لا يُرقَّون بعد الآن دفعة واحدة الى سمو الاسقفية ما لم يجتازوا درجات الكهنوت التابعة . فان ما ينبت منه للاخوة مرض الشك إن لم يكن شفاؤه مضراً ضرراً جسيماً نحن مستعدون ان نحل علة الشك ونتساهل في تقديم شفاء المرض بقطع السبب وإن كنا قد تعلمنا ان ندعهم يتكوّنون متى كانوا عميانا طوعاً بالحسد (مت ١٥ : ١٢ — ١٤) . فقبول نصيحتكم ورغبتكم في حفظ القانون

الذي عندكم هو بالنظر الى الماضي كالمرشق اهانةٍ على الآباء وحكمٌ على الذين لم يفعلوا ظلماً . واما السماح بذلك للذين بعدنا وتسليمهُ اليهم برأي الاكثرين (لا بامر البابا وحدهِ) لا يسبب للآباء شتيمةً ولا حكماً ظالماً ولا خسارةً لاحدٍ . وكما ان حفظ المرتبات واجبٌ كذلك طاعة الاولاد لابآئهم حقٌ وعدلٌ . ولذا اما الامر الاول (يعني قبول قول البابا بعدم قانونية الشرطونية خلافاً للآباء) لم نقبلهُ بل رفضناهُ ونصحنا وسننصح الآخرين ان يرفضوهُ . واما الثاني (يعني رأي المجمع بعدم الترقية راساً بعد الآن الخ) فقد اعتنقناهُ وعملنا بهِ مجمعياً . وبالبت كنيسة القسطنطينية ظهرت من القديم محافظةً على هذا القانون . لاني ربما كنت ارتاح على هذا الوجه من الغصب الذي لا يُطاق ومن كرب المحن المزعجة والمضايقة اياي . . . على ان الكفرة ما زالوا حولنا . فبعضهم يرذلون ايقونة المسيح ويهينون المسيح نفسهُ فيها . وبعضهم يخلطون طبيعتيهِ او ينكرونها بادخالهم طبيعةً اخرى جديدةً ونفيهم بها الطبيعتين الاوليين ويرشقون ضد المجمع الرابع ربوات من التجاديف . وقد شبَّت الحرب بيننا وبينهم ودامت وقتاً كثيراً فاسرت كثيرين منهم الى طاعة المسيح (١) . ومن يعطيني ان ارام جميعاً ماسورين ؟ ثم ان الثعالب قد برزت وهي تبتلع بالحيلة البسطاء والجهال من الشعب بلع الطيور . واني اعني ثعالب المشاقين الذين شرُّهم خفيٌ وضررُهم اشدُّ من ضرر المجاهرين بالعدوان . . وهؤلاء جميعهم وان كانت ثار وقاحتهم وسكرهم قد أُطفئت بصوت المجمع (اي المجمع الذي عقدهُ موخراً) اذ ان بركم الابوي قد صدق بواسطة نائبيهِ الجزيلي الكرامة على القرار ضدهم . غير ان دخانها ما زال يلذع

(١) من غرائب احداث فوتيوس تهنئتهم اياهُ بالمرطقة . فليتأمل المنصفون بُعد كلامهم عن فعلهِ بجريهِ المراطقة واستسلامهِ اياهم الى طاعة الكنيسة .

ويزعج الاساقفة الذين يرغبون ان يرعوا الرعية باجتهادٍ ويحسبون الخطأ الصغير من رعيتهم خسارةً جسيمةً على نفسهم . . . ولم يُستحسن ان يُحفظ القانون المذكور فقط وفقاً لتصحيحكم بل سُلِّمت باتفاق الجميع قوانين غيرهُ ايضاً . . . ولم يكن شيءٌ مما عيَّنت سنَّةُ أبوتكم المغبوطة من الله ابرُفض لو لم يقوَ على ارادتنا بآءٌ ملوكيٌ لم يسمح ان يُسنَّ ما بقي . ولذا بالاشتراك مع نائبيكم الجزيلي الكرامة رايت من الصالح ان لا نعدم كل شيءٍ بتطأُبنا كل شيءٍ بل ان نرضى بحصولنا على اكثر المطلوب وان تحملنا خسارة البقية . لانهُ امرٌ جيدٌ جداً ان لا يخيب احدٌ في شيءٍ مما يرغبهُ . ولكنهُ امرٌ خالٍ من التبصر ايضاً متى حصل على اكثر مرغوبهِ ان يكثر التفتيش على ما لم يحصل عليهِ وان ينازع فيهِ الى ان يحرم نفسهُ من الكل . بناءً عليهِ كل ما اتفق الرأي عليهِ قد دوَّناهُ مجمعياً . . .

«واما من جهة الذين كانوا يحصلون في القديم على الشرطونيات من طرفكم فقد افادنا وكلاء بركم انهُ من الواجب ارجاعهم واعادتهم الى جدَّتهم (رومية) . على انهُ لو كان اجراء هذا الطلب في سلطاننا ولم يكن العمل مشتركاً مع المملكة لما احتاج الامر الى اعتذارٍ ولكان الاجراء عينهُ يغني عن الاعتذار . ولكن بما ان العادة في الامور الكنائسية وخصوصاً في الحقوق الابرشية ان تتبع الادارة تغييرات الحكومة والولايات المدنية (ترجوان) يقبل معروف بركم ارادتنا في ان نوافق على اعطائكم ذلك ويحسب سبب عدم نوالهِ اياهُ لا علينا بل على السياسة المدنية . فاني انا لست مستعداً لان ارجع ما كان في القديم خاضعاً لآخرين فقط مراعياً الحق والسلام المحبوب بل لو كان احدٌ قادراً ورغب في ان توكَّل اليهِ مناظرة (الابرشيات) الخاصة منذ القديم بهذا الكرسي لسمحت بكل استعدادٍ للقادر ان يقوم بادارة الاكثر . لان الذي يضيف لي شيئاً

مما ليس لي هو الذي يزيد الثقل عليّ لانهُ يزيد همومي . واما الذي يطلب ان ينال بحبةٍ بعض ما عندي فيسبب لي ربحاً باعطائي اياهُ الحبة اكثر مما ايسبب لنفسهِ بحصولهِ عليها. لانهُ يجعل حمل العناية خفيفاً عليّ. واذا كان الذي يأخذ مالي بحبةٍ اعترف لهُ بالمنة السابقة. فالذي يطلب مالهُ[1] كيف لا اعطيهِ اياهُ فرحاً

(١) الكلام هنا عن الامرشيات السابق ذكرها صفحة ٣٣٦ و٤٢٢ . فالغربيون يدعون بان تلك الابرشيات كلها في الشرق والغرب كانت خاضعة منذ القديم لكرسي رومية وبان لاون الايصوري احرم البابا منها واضافها الى كرسي العاصمة الجديدة . غير ان هذه الدعوى هي في الحقيقة اعرض من اصلها وقد عرّضها الغربيون خدمةً لمآربهم في السيادة * نعم ان لاون الايصوري احرم البابا كل الاملاك التي كانت لهُ في مملكتهِ واضافها الى كرسي القسطنطينية . ولكن تلك الاملاك منها ما كان خاصاً للبابا الروماني وهي جزيرة صقلية وايطاليا السفلى او الجنوبية ومنها ما لم يكن كذلك وهي الابرشيات الباقية المعروفة باسم ايليريا والبلد اليونان — ١ . ان الملك قسطنطين الكبير حين قسّم المملكة (سنة ٣٢٣) ما جعل ايليريا قسماً من الاقليم الغربي خاضعاً لرومية بل جعلها اقليماً مستقلاً قائماً بنفسهِ خاضعاً ليسا لونيك (راجع ما في اللمعة صفحة ٢٨) — ٢ . بحسب شهادة المورخ ثاوفانيس (جزء ١ صفحة ١٠٣) وايلار ونيموس (رسالة ٣) كان الاقليم الايليري من ايام القيصر غراتيانوس (سنة ٣٧٠) منضمًّا الى الاقليم الشرقي وخصوصاً الى ولاية تراكي التي قصبتها كانت هرقليه وبعد هرقليه القسطنطينية كما ذكرنا (صفحة ٢٨) . ومن ثمَّ كانت ايليريا خاضعة لاكسرخوس هرقليه ثم خضعت لكرسي القسطنطينية — ٣ . يؤيد ذلك القيصر ثاوذوسيوس الكبير (سنة ٣٧٩) في احد اجوبتهِ لرجال البابا حيث قال «ان افلابانوس بطريرك انطاكية يشترك ويتحد معهُ علاوةً على الشرق كل اسيا والبنطس وتراكي وكل بلاد ايليريا تعرفهُ رئيساً على اساقفة الشرق» (ثاوذوريتوس ٥) وهذا برهانٌ على كون ايليريا قسماً من مملكة الشرق — ٤ . ان ثاوذوسيوس الكبير نفسهُ اصدر امراً بخضوع ايليريا للقسطنطينية اذ جعل ثاوذوسوس في الاساقفة ١٦ : ٣ : ٤٥) — ٥ . ان القيصر مركيانوس (سنة ٤٥٠) حين دعا البابا لاون الى المجمع الرابع كتب لهُ «وسنرسل منا دعوياتٍ الى كل الشرق وتراكي وايليريا» . ومثلهُ الملكة بولشريا . ارسلتها الى البابا نفسهِ عدّت ايليريا في اقسام مملكة القسطنطينية (المعروفة بالبيزنطية)*

اذا لم يكن مانعٌ وخصوصاً لاب عظيم اقدر قد طلب طلبهُ بواسطة رجالٍ

وقد ذهب بعضهم الى ان القيصر ثاوذوسيوس الصغير اصدر امراً ايضاً عام ثاوذوسيوس الكبير واخضاع ايليريا لرومية بناءً على طلب البابا اوتوريوس . غير ان هذا الامر بعضهم ينكرهُ من اصلهِ و بعضهم يقول بانهُ صدر ولكن لم يُعمَل بهِ ولذلك في مجمل يوستينيانوس (١ : ٢ : ٦) نجد امر ثاوذوسيوس الكبير ولا نجد اثراً لهذا الامر الاخير — ٦ . ان القيصر لاون التراكي امر ان يُعقد مجمعٌ في ثيسا لونيك (سنة ٤٥٢) فعقد استفها افذوكسيوس — ٧ كذلك القيصر انسطاسيوس (سنة ٥٠٠) دعا الكيسُس بنتر و بولايت نيكوبولي الى القسطنطينية ومعهُ غانيوس واسقفين من ايليريا (ڤاغريوس ٣ : ٢١ وتيكفورُس كاليستوس ١٦ : ٢٨) — ٨ . والقيصر يوستينيانوس (سنة ٥٢٤) يحمي ايليريا في عدد الابرشيات الخاضعة للبطريرك القسطنطيني (١ : ٤ : ٢٤) — ٩ . ان يوستينيانوس حين جعل وطنهُ (يوستينيانا) كرسياً مستقلاً اضاف اليها بعض ابرشيات منها ذاكيا وريثاليس ومبسيًا من ابرشيات كرسي ثيسا لونيك (تاريخ ملاتيوس ٦ : ٩ : ٦) وهي الذي اخضع صقلية للملكة الرومانية فبقيت تحت ادارتها الى ايام القيصر لاون الايصوري (سنة ٧١٠) . ولهذا السبب نجد في مجموع القوانين الذي الفهُ فوتيوس ما نصهُ «ان المنازعات القانونية التي تقوم في كل بلاد ايليريا لا يجب ان يُتخذ حكمٌ فيها بلا رأي رئيس اساقفة القسطنطينية» (٨ : ١ و ٩ : ١) — فيتضح من كل ذلك ان البابا لم تكن لهُ مداخلات قانونية في اقليم ايليريا ولا كان هو يشرطن اساقفة تلك البلاد بواسطة اسقف ثيسا لونيك نائبهِ كما ادعى بعضهم مستندين على قول البابوين نيقولاوس وادريانوس اللذين مع ذكرهما الاملاك التي نزعها من كرسيهم لاون الايصوري ذكرا الابرشيات الايليرية بل كانت ايليريا خاضعةً اولاً لهرقلية عاصمة تراكي ثم للقسطنطينية * وقد ورد حادثٌ في التاريخ يؤكد خضوع ايليريا (في ايام غراتيانوس سنة ٣٧٠) لهرقلية لا لرومية وهو : ان بوحنا اسقف نيكوبولي بعد انهُ انتخب اسقفًا متقدماً على ابيرُس وشُرطن من مجمع الابرشية حسب العادة ارسل رسالة التركة الى البابا اوريسيوس لا الى مطران ثيسا لونيك كالعادة . فكان عملهُ سيئاً لان لا يقبلهُ دور وثاوس مطران ثيسا لونيك . فكتب البابا لدوروثاوس ان يقبلهُ فأبى . فدعاهُ الى رومية فلم يذهب . فارسل اليهِ نوابًا ينظرون في المسألة فلم يقبلهم . فطلب حينئذٍ البابا اوريسيوس من القيصر يوستينوس قطع دوروثاوس

عظام محبين لله وافاضل ؟ لان نائبيّ كما لكم الابوي هما بالحقيقة رجلان ممتازان

ونية . فالمحضرة القيصر ولم يرسلة الى رومية بل الى مرقلية حيث جرت محاكمته والفحت برآءته بان سلوكه كان حقًا وثمين حقوقه . فعاد الى ابرشيته * ثم ان بطاميون شارح القوانين قال بصريح العبارة «ان البابا ليست له حقوق شرطونية في كنائسنا كما ضلّ بعضهم بقولهم ان بيتر وبولس تيسا لونيك وغيرهُ كانوا يُشرطَنون منهُ . فانهم انما كانوا وكلاء عنهُ اعني نوابًا . وكانوا مكلفين ان يحضروا عند الحاجة نوابًا عن شخصهِ . وكان ينوب عنهُ كثيرون ولكن الى الآن كان يقوم مقامهُ تارةً بيترو بولينو تيسا لونيك وانيا وكورنثس وتارةً بيترو بولينو كريت وباترى ورايناً وغيرهم واحيانًا غير المذكورين . ومن الواضح ان الذين كان كل واحد من البابارات يعتمد عليهم كانوا يعقدون نيابة فلم يكن لهُ اساقفة يعبدون كل هذا البُعد تحت سلطنو ولا كان هو يشرطنهم * اما وجود نواب للبابا من ابرشياتنا فقد أصطلح عليهِ نظرًا لبعد المسافة » (راجع ويونلى جزء ٢ صفحة ٢٠١ وطوموس كانالاجيس صفحة ٦٠ وفرماكيدي ١٢٣ ومقدمة امفيلوشيا ٢٢ حاشية ٢ * فالحقيقة اذن ان لاون الابهوري اذا احرم البابا املاكًا معروفة باسم «بتريهوبا» اي موارث بطرس على قولهم في جزيرة صقلية وايضًا البابا السنفي فقط لا ابرشيات في ايليريا او في غيرها . لان كرسي رومية ما كان في القديم ذا سلطة واسعة بل امتدت سلطتهُ رويدًا رويدًا من رومية وجوارها الى ابرشيات الغرب كما رأينا قبلاً . واما ابرشيات ايليريا فلم تكن خاضعة للبابا لجرمة اياها * ما اساس دعوى الغربيين بها فربما هو على ما ذهب بعضهم ما قالهُ المؤرخ ثاوفانيس «ان اسقف تيسالونيك خوفهِ من الملك انسطاسيوس (نحو سنة ٥٠٠) اشترك مع اسقف القسطنطينية (تاركًا بيترو بوليت مرقلية الشرقي) فنفرمنهُ نحو اربعين اسقفًا يارسلوا الى رومية يوافقوا كنايةً ان يشتركوا معها» (جزء ١ صفحة ٣٥٠) . ولا يخفى ان البابارات يترقبون كل حركة تخدم مآربهم فيحتلونها كانها حق قديم صحيحًا كانت او غير صحيحة . وعندي ان اكبر اسباب الانشقاق كان عدم حصولهم على هذه الابرشيات كما ذكرتُ في ما سبق وسنعلمهم في البلغار كما سيأتي .

تنبيه . في صفحة ٣٣٦ سطر ٤ سقطت عبارة فسمت بالمعنى . فبدلاً من قولهِ «وبلاد الارناؤوط» فقطع البابا كل علاقة الخ» يجب ان يكتب كما في الاصل هكذا «وبلاد الارناؤوط على ما ادعى اخوتنا الغربيون كما سنوضح في ما يأتي . ففقطع البابا كل علاقة الخ» راجع ما كتبناهُ في صفحة ٣٦٦ سطر ١٨ و٣٦٨ سطر ٢ و١٢ في هذا المعنى .

بالفطنة والفضيلة والخبرة الكثيرة وبحسن سلوكهما المماثل لسلوك تلاميذ المسيح يشرّفان الذي ارسلهما . وقد تركنا لهما اكثر ما يجب ان يُذكَر ويكتب لثقتنا بانهما قادران ان يقولا الحقيقة وهما حريان بان يُصدَّقا اكثر كثيرًا من الآخرين ... * وقد كنت انسى امرًا ذكرهُ واجبٌ فاضيفهُ وانهي الكلام حذرًا من إطالة الرسالة : فان حفظ القوانين الصحيحة واجبٌ على كل فاضل واكثر منهُ على الذين استحقوا من العناية ان يديروا امور الآخرين . وايضًا اكثر كثيرًا على الذين اقيموا بينهم اوّلين . فانهم مديونون بان يحفظوا النواميس بقدر ما هم ارفع منزلةً ... ولهذا يجب على غبطتكم الجزيل حبهُا ان تعتني بحسن الترتيب الكنائسي في كل امر وتتمسك باستقامة القوانين ولا تقبل كيفما اتفق الذين يذهبون من عندنا الى كنيسة الرومانيين ولا تسمح لهم ان يلقوا بذار البغضة وهم متظاهرون بالضيافة . فان ذهاب الذين يريدون ان يذهبوا كل يوم الى عند بركم الابوي ويحظوا بمواطئكم الكريمة امرٌ مستحبٌ عندي جدًا ومفضّل على امور كثيرة غيرهِ . ولكن ذهابهم خلافًا للترتيب بدون علمنا وبلا مكاتيب توصية ليس مستحسنًا لا عندنا ولا من القوانين ولا من حكمكم العادل عينهِ * فاننا نترك الاحوال الباقية الجارية عادةً من الذين يذهبون لا على مقتضى القانون . اعني الحروب والقلاقل والخصام والمنازعات والوشايات والمؤامرات والثورات واذكر الحال المشاهدة والمفعولة الآن . فان بعضًا من الذين هنا بعد انهم يدنسون سيرتهم بالتراخي ... يذهبون نحجة الزيارة ويسترون عملهم القبيح بالاسم الصالح . فهولاء منهم من ارتكب زيجات غريبة . ومنهم من وُجد سارقًا او مولعًا بالسكر او متعبدًا للقبائح . ومنهم من مُسك على ادنى من ذلك ... فاذ يشعرون بالحكم عليهم ... لا يصلحون عيوبهم بل يهلكون انفسهم وغيرهم . والذي يريد منهم ان يترفه بالمذات يرى

باب الملاك مفتوحاً رحباً . فانهم يتخلصون من الحكم بالذهاب الى رومية تحت حجة الصلاة (الزيارة) . فعلى سيادتكم المنعمة قتّالة الاهواء ان تلاحظ حيلتهم الرديئة وتجعل غشّهم ونواياهم المفسدة عادمة النتيجة والمفعول . والذين يحضرون اليكم باجتهادٍ بلا مكاتيب توصية (شهادات) ارجعوهم الى حيث هربوا هرباً رديئاً وخارجاً عن النظام . وبهذه الواسطة يمكن ان يتم خلاصهم هم انفسهم وتقوم العناية عامّة من الجميع لفائدة النفس والجسد ».

هذه اكثر اقسام الرسالة التي كتبها البطريرك فوتيوس للبابا نيقولاوس وارسلها اليه مع نائبيه ولاون كاتب القيصر . وقد اجابهُ فيها بكل لطفٍ عمّا بدا منهُ من الطعن بحقهِ وبرهن غصبهُ على قبول مركز البطريركية واجابهُ عن كل اعتراضاتهِ ببيناتٍ دامغة . وبالاسلوب الرقيق افادهُ ان اعتراضاتهِ تمسُّ الآباء اكثر مما تمسُّ هولاءِ لم يُغصَبوا مثلهُ . وجعلهُ يشعر بانهُ يناقض نفسهُ بنفسهِ برفضهِ شرطونية تقبلها الكنيسة الرومانية وتعدُّ اكثر المشرطين بها في مصف اعظم قديسيها كامبروسيوس ونكتاريوس وطاراسيوس . ثم افادهُ ايضاً بلطيف الافادة فرق عوائد الغرب عن الشرق وبُعدها عن روح التعليم المسيحي واوضح لهُ النظام الكنائسي من حيث ادارة الابرشيات وتعلقهُ بالسلطة المدنية اكثر مما بشخص رؤساء الكنائس . وختم الرسالة بموضوع مهمٍّ جداً وهو تبكيت البابا تبكيتاً لطيفاً على مخالفتهِ القوانين بقبولهِ الهاربين من الكنيسة الشرقية (كما رأينا في مسألة اغناطيوس الشرعي على عهد مجمع قوطاجنة صفحة ١٧٧) الذين لم يكن لهم غرضٌ يهمُّهم اكثر من زرع الفساد بين الرؤساء والطعن على الذين هربوا من عندهم . فاوضح فوتيوس للبابا وجوب رفضهم وارجاعهم الى كنيستهم وهكذا اظهر في هذه الرسالة كل حكمةٍ وعقلٍ بانهُ حافظ على شرف مركزهِ

بحقوقهِ وتنبيه رصيفهِ الى واجباتهِ وحافظ الكبرياء والعبارات الفظّة . وايضاً اعتذر عن نفسهِ متواضعاً وحاذر الدناءة والتملق الذميم * على ان نيقولاوس لم يسلك هذا السلوك بل استعمل فظاظة عظيمة في جوابهِ فوتيوس عن هذه الرسالة حتى انهُ قال لهُ ما نصُّهُ « اما قولكم بانكم رُقّيتم غصباً الى وظيفة الكهنوت فهو كذبٌ . لانكم منذ ارتقائكم الكرسي لم تسلكوا سلوك الاب بين اولادهِ بل اندفعتم بلا شفقة الى قطع رؤساء كهنةٍ والى الحكم على اغناطيوس البريء » . وهذا الكلام قالهُ نيقولاوس وهو قاعدٌ في رومية بعيداً عن مشهد الحوادث ومعتمداً على مجرّد افادات اعداء فوتيوس بعد مدةٍ لا تقلُّ عن السنة وغير مكترثٍ لافادات نائبيهِ اللذين اشتركا بذاك الحكم . ونحن نستلفت اعين نظر اخوتنا المغربيين في اقوال فوتيوس السابق تسطيرها واقوال نيقولاوس ليحكموا الحكم الحق في مَن من الاثنين كان متكبراً ومتصلفاً وسبب الانشقاق .

اما حزب اغناطيوس فمن بعد قطع رئيسهم ارسلوا سفارةً الى البابا منها الارشيمندريتي ناوغنوستوس لابساً ثوب العوام (على ما ذكر ستيفانوس) ومعهُ لائحة عن لسان اغناطيوس مشحونة من الشتائم ضد فوتيوس وفيها من التملق لنيقولاوس ما ليس عليهِ من مزيد . وقد عنونوها بهذا العنوان « الى سيدنا الجزيل الاقداسة ورئيسنا الجزيل القداسة بطريرك جميع الكراسي وخليفة القائد والمكتوب من عنوانهِ .

فلما اخذ البابا نيقولاوس مكاتيب الشرق ووقف على ما عملهُ نائباهُ لم يرُق لهُ ما جرى في المجمع ولا انتبه الى افادات نائبيهِ الشفاهية ولا اعتبرها لانها لم تكن موافقة لاتمام مقاصدهِ في السيادة على الاملاك المنزوعة والابرشيات المرغوبة . فما رأى الاَّ ان يستند على كتابات حزب اغناطيوس ويصدّق كلام المفسدين الذين كانوا عندهُ هاربين ويدوس حكم المجمع المؤلف من ٣١٨ اباً .

ولا يخفى انهُ حيث تقوى الاهواء يستحيل حفظ النظام ومراعاة الشريعة والقانون ويفرّ العدل على جناح السرعة. فتقرر عندهُ ان يجاهر بمعاداة فوتيوس ويضاف الى حزب اغناتيوس املاً بان يحصل على مطلوبهِ الذي لو متعهُ بهِ فوتيوس لكان هو البطريرك الحقيقي لاغناتيوس على ما ذكرنا . فجمع كل اكليرُسهِ بحضور سفراء القيصر والغى عمل نائبيهِ مدّعياً بانهما ارسلا لقطع اغناتيوس ولا لترقية فوتيوس على الكرسي . ثم كتب للقيصر انهُ يقبل كل ما جرى في المجمع ضد محاربي الايقونات ويرفض القرار الذي قُرِّر بخصوص اغناتيوس وفوتيوس ونصحهُ ان يهدّئ الخلاف الكنائسي بحكم الكنيسة الرومانية . وكتب لفوتيوس ايضاً كتاب تهديد قال لهُ فيهِ ما مؤداهُ : ان كنيسة رومية هي بحسب الامتياز الذي نالهُ بطرس من المسيح نفسهِ رأس جميع الكنائس الأخرى . ولهذا على كل واحدٍ دينٌ ان يحفظ كل قراراتها حفظاً مقدساً بلا مخالفةٍ وان كانت تخالف العادة . ومن كون فوتيوس رُفِعَ من رتبة العوام الى الوظيفة البطريركية خلافاً لاوامر الكنيسة الغربية التي يجب عليهِ ان يعرف قوانينها ويحفظها قد صار بذلك مجرماً وتحت حجةٍ وذنبٍ لا عذر لهُ عليها وخصوصاً لانهُ نال هذه الوظيفة المقدسة واغناتيوس حيٌّ بعد ومحكومٌ عليهِ ظلماً والكنيسة الرومانية ما زالت تعرفهُ على وظيفتهِ الاولى البطريركية . واما ما خصَّ نيكتاريوس فانهُ وإن شُرطن من طبقة العوام ورئيس كهنةٍ الاَّ ان السبب كان عدم وجود من كان مستحقاً اكثر منهُ في طغمة الاكليرُس . واما طاراسيوس فقد صار بطريركاً لانهُ كان مدافعاً عن الايقونات . وامبروسيوس اسقف ميلان حصل على رئاسة الكهنوت راساً بسبب عجائبهِ — هذا كان نحوى جواب البابا فوتيوس . وهذه كانت استاداتهِ ضد شرطونيتهِ استنادات ضعفها ظاهر فضلاً عن كونها غير

مستوفية . لانهُ احتجَّ عن نيكتاريوس بتفضيلهِ وهو عامي على كل اكليرُس عصرهِ . وهذه الحجة لا يمكنهُ انكارها على فوتيوس لانهُ لم يفضل لما شُرطن . واحتجَّ عن طاراسيوس بدفاعهِ عن الايقونات ولم يكن فوتيوس مدافعاً اقلَّ منهُ عن الايمان كما شهدت اعمالهُ واقوالهُ (راجع صفحة ٤٢٦ : ١٤) . واحتجَّ عن امبروسيوس بالجواب . ولكنهُ ما احتجَّ عن احدٍ غير هؤلاء الثلاثة من الذين اوردهم فوتيوس في رسالتهِ كيكيفوريُس وغيرهِ الذين اقامتهم الكنيسة بلا دواعٍ مثل هذه الدواعي . على انهُ ان صحَّ مدَّعى نيقولاوس بمنع القوانين الارتقاء من درجة العوام الى رئاسة الكهنوت نكُن كل احتجاجاتهِ كانعدم . لان الدواعي التي اوردها ليست كافية لنسخ حكم القوانين . ومَن يصدق انهُ في ايام نيكتاريوس لم يكُن احدٌ من مصنفي الاكليرُس مستحقاً وظيفة البطريركية حتى ديس القانون باختيار العامي ؟ فالامر واضحٌ اذن انهُ لم يكُن قانون يمنع ارتقاء على هذه الصورة . بل كلما وُجد رجلٌ اهلاً للوظيفة وموافقاً لظروف الوقت كانت الكنيسة تختارهُ كما جرى في ايام فوتيوس ايضاً . ثم ان نيقولاوس ما جاوب عن قبولهِ الهاربين اليهِ من الشرق الذين كانوا يعشون ويحكم عليهم بالقطع . ولكنهُ سمَّى فوتيوس زانياً ولصاً بقولهِ انهُ لم يدخل من الباب . وسماه كذاباً في قولهِ بانهُ غُصب على قبول المنصب . فتأمل الفرق بين كلامهِ وكلام فوتيوس . وفي آخر كلامهِ ادَّعى بان المجمع حرَّف رسالتهُ الى القيصر فجعلهُ مزوَّراً . ثم انهُ ارسل رسالةً أُخرى الى سائر بطاركة وروساء كهنة الكنيسة الشرقية منشئاً بان كنيسة رومية لا تقبل قطع اغناتيوس وانتخاب فوتيوس وطعن على القيصر ورفض عمل نوابهِ لكونهِ مخالفاً للتعليمات التي تلقتوها منهُ . ثم انهُ طلب منهم طلباً حتمياً بصوت هامة الرسل ان لا يقبلوا فوتيوس وان يقنعوا جميع الاساقفة ليوافقوه .

وترَسَ رسائله يمثل هذه العبارات والدعاوي بسلطان رومية وارسلها الى الشرق* ثم جمع اساقفة الغرب في رومية وعقد مجمعاً (سنة ٨٦٣) وامر ان تُقرأ اعمال مجمع القسطنطينية ضد اغناتيوس · ثم قطع زخريا احد نائبيه (ولم يقطع رودوَند لانه كان غائباً في فرانسا) وحكم على فوتيوس حكماً رسمياً بصفة زانٍ وسارقٍ ولصٍ ومتسوّرٍ الى الرئاسة لانهُ قام من عامّيٍّ بطريركاً · وهكذا قطعهُ على زعمهِ من الوظيفة والكهنوت وقطع معهُ جميع الذين شُرطنوا منهُ · وعرف اغناتيوس بطريركاً قانونياً وامر ان يرجع جميع الاساقفة الذين نُفوا من اجلهِ الى كراسيهم * ثم اعلن هذا القرار للاكليرُس الشرقي ولفوتيوس نفسهِ ولبارداس ولاغناتيوس وتهدد بالمعنة والحرم القاطع الذي لا يُحَلُّ والعذاب الابدي كل مَن يتجاسر ان يخالف هذا القرار المجمعي الصادر منهُ سواء كان عامياً ام اكليرُسياً * ومن الغريب ان اعمال هذا المجمع فني اثرها مع الموسيو وليس في التاريخ منها سوى قراره المدرَج في الرسالة ٧ من رسائل نيقولاوس اذ رأى الغربيون اعدامها افضل واشرف من وجودها · ومن الرسالة المذكورة ايضاً نعلم حكمهُ على النوّاب كما تقدم* والاغرب من ذلك ان البابا ارسل تحاريرهُ وعقد المجمع ولم ينتظر اجوبتها على الاقل · ولهذا السبب مهما اجتهدنا في تبرئتهِ من الغرض لا يسعنا ان ننكرهُ عليهِ ·

فلما وصلت التحاريرا الى القسطنطينية وعلم القيصر بما كان من نيقولاوس ارسل اليهِ جواباً مراً مثل رسالتهِ حتى ان البابا لما قرأهُ قال «ان كاتبهُ قد غطَّ قلمهُ في حلق ثعبانٍ» * ومما تضمنتهُ رسالة القيصر كان نقض دعوى البابا بالسلطة العليا على الكنائس كلها وقولهُ لهُ انهُ انما دعا سفراءهُ الى القسطنطينية اجلالاً فقط لا ليخضع كنيسة الشرق للغرب ولا ليعرض قضية فوتيوس واغناتيوس

لحكمهِ بل لكي يكون مقبولاً قبولاً عاماً بحضور النوّاب قطعُ اغناتيوس المقطوع وانتخاب فوتيوس المنتَخَب · لان انتخاب الذي تمَّ برضى عامّ من البطاركة الشرقيين جميعهم رغماً عن فوتيوس · وبهذه الواسطة يرتفع كل خلاف من بين الاكليرُس الشرقي · ثم وبّخ البابا على كونهِ ما عرف قيمةَ لهذا الشرف فطمع في ان يجعل نفسهُ قاضياً على الكنيسة كلها واوضح لهُ ان قراراتهِ ما دامت غير حقةٍ لا قوة لها ولا اعتبار وان نيابَ حروماتهِ ولعناتهِ خذلها ترس العدل والانصاف فردّها الى حيث جاءت · الى ان قال ان فوتيوس لا يزال بطريركاً اراد هو ام لم يرد · وختم الرسالة بطلبهِ منهُ ارجاع الاشقياء الذين هربوا الى رومية ثاوغنوستوس والباقين * اما فوتيوس فلما رأى ما رأى من فظاظة سلوك البابا واجوبتهِ لم يجبهُ بشيء بل وجّهَ عنايتهُ الى تنقية الكنيسة من اشواك البدَع ونشر التعليم المسيحي بين الشعوب الغير المستنيرة في نواحي ارمينيا وبين النهرين وغيرها كما سيأتي ·

غير ان البابا نيقولاوس حاط بهِ الكدر من كل جهةٍ لما وقف على جواب القيصر ورأى ان كل تهديداتهِ اياهُ ذهبت ادراج الرياح · وقد صعبت عليهِ جداً لهجة رسالة القيصر كأنهُ نسي ان البابوات اسلافهُ كانوا يترجون القياصرة السالفين ويدفعون لهم المال ليعرفوهم ويثبتوهم في منصبهم · ومن ثمَّ كتب جواباً للقيصر افظَّ من الاول حتى شبَّههُ فيهِ بجليات الفلسطي · ثم اخذ يدَّعي بان سلطتهُ ليست من بشرٍ ولا من مجمعٍ بل من الله · وطعن بامتيازات كنيسة القسطنطينية وتشبث بان محكمة رومية تسمو على المجامع (كانهُ نسي بولكربوس مناوئاً للبابا اليكتوس · وكنائس اسبا للبابا ويكتور وابريناوس موبخاً اياهُ · وكنائس الشرق وافريقيا محاورات للبابا استفانوس وكبريانوس وفرميليانوس موبخين اياهُ · وغير ذلك من الامثال الكثيرة التي رأيناها في تاريخ العلاقات قبل فوتيوس) ثم طلب من

القيصر ارسال فوتيوس واغناتيوس الى رومية ليحاكمهما واوسال وكلاء عنها واقادته موانع تاخرها عن الحضور بنفسها * وقد ارسل هذه الرسالة في اواخر سنة ٨٦٥ . غير انها لم تنفع البابا كلياً . لان اكليرس الشرق لما وقف على مضمونها انكر على رومية دعواها بالرئاسة قائلاً بان رومية لها الاكرام الاول لانها كانت كرسي الملوك . فلما نُقل الكرسي وصارت القسطنطينية كرسياً بطريركياً تساوت الكرامة بين الكرسيين .

وفي هذه الاثناء (سنة ٨٦٥) عزل القيصر بنصيحة باردا رئيس قصره دميان واقام في محله على غير انتظار باردا باسيليوس المكدوني الذي كان يترقب فرصة ليخطف كرسي الملك كما ذكرنا ولم تكن العلاقات بينهُ وبين باردا حسنة . فانتهز باسيليوس الفرصة ليقتل باردا ومن ثمَّ وسوس لسيمباتيوس صهر باردا على ابنته ان القيصر عزم على ان يرقيهُ الى رتبة معاون لهُ وباردا منعهُ . فغضب سيمباتيوس من حميهِ وبالاتفاق مع باسيليوس وسوس للقيصر ان باردا عازم على قتله ليستقل بالملك . واذ كان القيصر يخشى قتل باردا في العاصمة جمع جيشاً وتوجه الى كريت بحجة محاربة العرب ودعا باردا الى السفر معهُ . فنصحهُ كثيرون ومنهم اخته ثاوذورة ان لا يرافقهُ ولكنهُ ما سمع لهم بل سافر . ففي صباح اليوم ٢٢ من نيسان سنة ٨٦٦ جاء باردا لابسًا حلتهُ الرسمية الى خيمة الملك ليستأذنهُ باخراج الجيش الى الجزيرة . فلاقاهُ ستة اشخاص من الذين تعلَّموا في مدرسة باردا نفسهِ وفي مقدمتهم صهرهُ سيمباتيوس وباسيليوس المكدوني . فرسم صهرهُ الصليب اشارةً للهجوم عليهِ وللحال طعنهُ باسيليوس المكدوني بضربةٍ قتَّالة فالقاهُ يتضرج بدمائهِ ثم انكبَّ الباقون عليهِ وكمَّلوا ذبحهُ امام اعين القيصر وهكذا قضى حياتهُ بين ايدي القيصر ابن اخته مذكِّرًا كل

حيٍّ بقول الحكيم « باطل الاباطيل الكلُّ باطل » * ثم ان القيصر رجع الى العاصمة وتبنَّى باسيليوس وجعلهُ وليَّ عهدهِ واقامهُ ملكًا معاونًا لهُ وتوَّجهُ في يوم العنصرة الواقع ٢٧ ايار من السنة عينها يد البطريرك فوتيوس .

اما البابا نيقولاوس فاذ رأى ان تحاريرهُ للقيصر لم تفعل ولا ورد عنها جوابٌ ارسل في اواخر سنة ٨٦٦ سفارةً الى القسطنطينية الاسقف دوناتوس والقس لاون والشماس مارينوس وامرهم ان يجتهدوا بارجاع اغناتيوس وقطع وعزل فوتيوس وبارسال الاثنين الى رومية للمحاكمة ويقنعوا القيصر ان يسحب رسالتهُ اليهِ ويحرقها . وقد زوَّدهم باربع عشرة رسالة مورخة في ١٣ تشرين الثاني احداها الى القيصر يطلب منهُ بها قطع فوتيوس ويسمي طرد اغناتيوس عملاً شيطانياً ويحتم بوجوب ارسال الاثنين الى رومية وسحب رسالتهِ السابقة اليهِ ويتهددهُ بانهُ ان لم يجب طلبهُ يجمع مجمعًا في رومية من جميع اساقفة الغرب ويحرم الذين حرروا تلك الرسالة ويعلقها على خشبةٍ ويحرقها بالنار تخجيلاً للكنيسة الشرقية . ومنها رسالةٌ الى فوتيوس رشقهُ فيها بكل نوعٍ من الشتائم حتى سمَّاهُ ثعبانًا وشبَّههُ بحام ويهوذا الاسخريوطي * فحمل السفراء الرسائل وجاءوا الى القسطنطينية على طريق البر ليمرُّوا ببلاد البلغار لما رأوا ان العرب لم يقصدون زرعها كما سيأتي . فكانوا حيث حلُّوا يطعنون بكنيسة القسطنطينية وبفوتيوس وبالقيصر . واذ علم القيصر بقدومهم ارسل ضابطًا اسمهُ ثاوذورس فقبض عليهم وهم على الحدود وطلب منهم صكًّا يعترفون فيهِ بعقائد الكنيسة الشرقية ويقبلون فوتيوس بطريركًا شرعيًّا . فانكروا ذلك . وبعد انهم اقاموا اربعين يومًا قفلوا راجعين الى رومية واخبروا نيقولاوس بما شاهدوا وسمعوا .

فالذي يتامل هذه الاعمال والاحوال بعينِ وعقلٍ خاليين من دوخة

الغرض لا يسعنا الآن يعترف بان عمل الشقاق الكنيستين قد بدأ بدءاً فعلياً من حين عقد البابا مجمعه وحكم على فوتيوس وعلى زخريا معتمد رومية وقبله وان رومية انما اختارت الانفصال عن جسم الكنيسة لكي لا تتنازل عن تعاليمها الخارجة عن كل حق وشريعة * ويا للعجب من ان نيقولاوس لم يرض ان يحكم على رودولد شريك زخريا في النيابة عنه لانه كان غائباً في جهات افرانسا مع انه كان شخصاً من تبعة كرسيه ورضي ان يحكم على فوتيوس البعيد عنه اكثر من رودولد مع انه لم يكن من تبعته ولا صلاحية له ان يتداخل في احوالهِ * فبعد هذا السلوك كيف يجيز اخوتنا الغربيون لانفسهم ان يلقوا على عاتق القديس فوتيوس حمل اسباب الانشقاق ويبرئوا منها البابا نيقولاوس ؟ على ان السفراء زخريا ورودولد ما كانا من الناس البسطاء ولا من ادنياء الاكليرس بل كانا رجلين فاضلين مدحهما البابا نيقولاوس والبطريرك فوتيوس كما رأينا واعتمدت كنيسة رومية كلامها عليهما في وقت مهم جداً . فلما عملا ما اقتضت منهما الذمة اتهموهما بالخيانة والرشوى كما فعلوا ذلك قبل الآن في عهد البابا فيلكس والبابا سرجيوس[1] وبعد الآن على عهد البابا يوحنا الثامن بحق سفرائهم في مجمع فوتيوس الثاني كما سيأتي * وسبحان الله من عدم ثبات الغرب على رأي . فان البابا نيقولاوس هو حكم على نوابهِ بانقطع لعلة الخيانة وهو نفسه قال بانهم غُصبوا بالقوة على موافقة فوتيوس . ولا يخفى ان بين الغصب والخيانة فرقاً عظيماً . فان كانا خائنين لم يكونا مغصوبين . وان كانا مغصوبين لم يكونا خائنين . ولكن الغرض وحده هو الذي جعل نيقولاوس ان يجمع بين الخيانة والغصب وان لا يبالي بارسال رودولد الخائن سفيراً عنه الى افرانسا[2] * على

(١) ذوسبداوس ٧ : ١٦ (٢) امفلوشيا ٢٧ - ورسائل صفحة ٤٦ .

ان بعض الغربيين ومنهم لسطاسيوس يدعون بان النواب لجهلهم اللغة اليونانية ما وقفوا على حقيقة مذاكرات وقرارات المجمع فانغشوا . ولكن من يقبل اقوالاً مثل هذه على نواب ارسلهم الغرب كلهُ الى مجمع كبير في مثل هذه الظروف المهمة ؟ أنعلهم كانوا اطفالاً ولم يعد البابا يدرك حالتهم حتى اعتمد عليهم ؟ هذه الاعذار والحق يقال هي دليل واضح على ان تهم النواب بالخيانة وبالرشوى وبالانخداع لا صحة لها * فبعد هذه الحقائق كيف يمكننا ان نتهم فوتيوس ونبرئ نيقولاوس من وضع اساس الانشقاق ؟ وما دام نيقولاوس يطلب كلاً من فوتيوس واغناتيوس يحكم بينهما بعد اتضاح الحق ما بالهُ عقد المجمع وقطع فوتيوس ؟ وان قلنا انهُ انتاظ من القيصر فحقهُ كان ان يحرم القيصر لا فوتيوس . فضلاً عن ان رسالة القيصر لم تكن ما كُتبت لهُ قبل المجمع بل بعدهُ اعني ما كانت سبباً بل نتيجة لعملهِ * فكيف قلبنا ذلك البابا لا يسعنا ان ننكر عليهِ اسباب الانشقاق كما قلنا وابنا وكما سيتضح مما يأتي .

٣ . مداخلات البابا في بلاد البلغار والتنازع عليها

من جملة الاعمال التي وجهَ لها عناية البطريرك فوتيوس منذ ارتقائهِ كرسي البطريركية كان نشر الدين المسيحي بين الشعوب البلغارية وهي شعوب تتريَّة الاصل كانت تسكن جهات بحر قزبين نزلت من القرن الخامس الى جهات الغرب وعبرت نهر الطونه واستقرت في مبسيا وتراكي . وقد اختلطت بشعوب الصقالبة وتعلمت لسانهم وكانت الحروب بينها وبين مملكة الروم متواصلة * واول ما عرف شعب البلغار الدين المسيحي من الاسراء الروم الذين كثيراً ما نفعوا في عملية الايمان لمستأسريهم كما ورد عن راهبٍ اسمهُ ثاوذوروس كيفاراس

(سنة ٨٥٠) . على ان الاسرآء من البلغار كانوا يتعهون الدين المسيحي في بلاد الروم . وكان من جملتهم اخت ملك البلغار المسمّى بوغوريس نفسها فانها اقامت مدة طويلة سيرة في بلاط مملكة الروم واعتمدت وتعلمت الدين المسيحي. وعند مبادلة المملكتين أسرآءهما عادت الى بلادها ومعها راهب اسمه مثوذيوس ليسالويتكي الوطن . وكانت هي والراهب المذكور مجتهدين في جذب الملك بوغوريس الى الايمان ولم يستطيعا . وكان الراهب مثوذيوس بارعاً سيفي فن التصوير والملك بوغوريس يرتاح الى الصوَر المتقنة . فصوّر مثوذيوس صورة الدينونة ورسم فيها الديّان جالساً وميزان العدل مرفوعاً والصديقين ينالون الاكاليل والاشرار يدخلون جهنّم وغير ذلك من رسوم الحقائق المستقبلة وقدمها للملك فلما رآها بوغوريس تخشّع وخاف جداً واخذ يميل الى الدين المسيحي . وفي سنة ٨٦٤ حصل جوعٌ شديد في بلاد البلغار فاغتنم القيصر ميخائيل الفرصة وزحف عليها بجيش عرمرم هو وخالهُ بارداس . فسلّم الملك بوغوريس نفسهُ والبلاد وعاهد القيصر بان يخضع لهُ ويعتمد ويكون مسيحياً وتكون كنيسة بلادهِ خاضعةً لادارة كرسي القسطنطينية . وبعد المعاهدة جاء بوغوريس وعظماء واشراف مملكتهِ الى القسطنطينية واعتمد من يد البطريرك فوتيوس وسمّي ميخائيل باسم اشبينهِ ميخائيل قيصر الروم .

وكان شعوب الصقالبة قبلوا الدين المسيحي قبل هذا العهد من الكنيسة الشرقية . غير ان الكنيسة الغربية من ايام كارلوس الاكبر اخذت تتسلط على بعضهم كالشعوب الاونية والآبارية الى ان صار امراؤهم الخاضعون للملوك جرمانيا يقبلون المعمودية من المرسلين الغربيين ولم يكن ملوك الروم قادرين على الدفاع عنهم . ولكن في هذه المدة الاخيرة قامت حروبٌ بين امرآء الصقالبة

روستيسلاف وكوتيلوس وسفياتوبولك وبين ملوك جرمانيا جعلت هولآء الامرآء ان ينضموا الى ملوك الروم . فارسلوا هم من انفسهم سفارةً الى القيصر ميخائيل وطلبوا منهُ مرشدين روحيين . فبادر البطريرك فوتيوس بارسال رجلين اخوين شهيرين بالعلم والتقوى وهما كيرلّس رسول الايمان في جهات البحر الاسود ومثوذيوس اخوهُ رسول البلغار السابق ذكرهُ . وقبل ان ارسلهما شرطن كيرلّس اسقفاً حتى اذا جاءا الى بلاد الصقالبة وكانا يعرفان لغتهم شرطنا في بانونيا قسوساً كثيرين واقاما كرسياً اسقفياً وترجما الكتاب المقدس وخدمة القداس الالهي الى اللغة الصقلبية وبسطا اشعة نور الايمان على تلك البلاد . وقد ناديا فيها بالايمان اربع سنوات متوالية . ولكن الجرمانيين قاموا على الصقالبة وحاربوهم وبدسائس البابا اجبروهم ان يخضعوا لكنيسة رومية . فدعا البابا الرسولين المذكورين الى رومية نحو سنة ٨٦٨ فحضرا وهناك توفي احدهما كيرلّس سنة ٨٦٩. اما مثوذيوس فشرطنهُ البابا اسقفاً عوضاً عن اخيهِ وارجعهُ الى البلاد حيث كان يخدم القداس بلغة البلاد رغماً عن قسوس رومية . واقام سنين كثيرة يخدم الشعب وينشر الايمان ويؤيد المؤمنين .

اما ملك البلغار المتنصّر فاعطاهُ البطريرك فوتيوس رئيس اساقفة وقسوساً ومعلمين يعلمون الايمان في بلادهِ . فذهب بهم الملك وسعى في ان ينصّر شعب مملكتهِ ولكنهُ صادف صعوباتٍ وقامت ضدهُ ثوراتٌ ولم يظفر بمرغوبهِ الاَّ رويداً رويداً . وبعد سفرهِ ارسل اليهِ البطريرك فوتيوس رسالةً طويلةً من ابدع ما يكون يعلّمهُ فيها اولاً عقائد الايمان وفي مقدمتها دستور الايمان بالخرف الواحد وتاريخ المجامع السبعة . وثانياً واجبات الحاكم المدني . وقد سماهُ فيها «ابناً» وناداهُ تارةً بقولهِ «ياشخص تعابي الجميل» وتارةً بقولهِ «يا ابننا الروحي المحب

المسيح » وتارة بقوله « ايها المولود الشريف الخاص مولود المخاضي الروحية » وقس عليها امثالها من العبارات الشاهدة بالعلاقة العظيمة بينها وبعناية البطريرك فوتيوس بذلك الامير وشعبه وحقوقه عليهم .

ولم تمضِ سنتان الاَّ وجاء لويز ملك الجرمانيين ضد البلغاريين وغلبهم . واذ كان البابا نيقولاوس يترقب الفرص ليحرم كرسي القسطنطينية ابرشية البلغار الجديدة ويضمها الى كرسيه طلب من الملك لويز ان يساعده على ذلك . فحرّض لويز الامير بخائيل ان يطلب من البابا معلمين روحيين فطلب . وبادر البابا الى ارسال رجال من عنده يعلمون البلغار معتقدات الغرب وعوائده . وقد اجتهدوا بابطال العوائد الشرقية وجذب الامير الى رأيهم حتى جعلوه ان يرسل سفارة الى البابا تحمل اليه هدايا ثمينة وان يطلب منه افادات متنوعة واجوبة عن ١٠٦ اسؤالات لاهوتية وخصوصاً عما اذا كان ممكناً ان تكون كنيسة البلغار مستقلة . فاجابه البابا بكل فرح جواباً قصد فيه بكل وجه ان يبعد كنيسة البلغار عن امها ويضمها الى كنيسته . وبدلاً من ان يفرح بقبول شعب البلغار الايمان بالمسيح من كنيسة القسطنطينية شرع يقدح ويذم بفوتيوس وبكنيسته . ومن جملة ما كتبه البابا الامير بخائيل قوله « ان البطاركة الحقيقيين هم الذين يسوسون الكنائس الرسولية فقط . اعني المؤسسة من الرسل . وهي كنائس رومية واسكندرية وانطاكية . واما اسقفا القسطنطينية واورشليم فهم بطاركة اسماً فقط لا سلطة لهم . لان كنيسة القسطنطينية لم يؤسسها رسول ولا ذكرها مجمع نيقيه . ولكن بما ان القسطنطينية صيّرت رومية الجديدة حصل اسقفها على لقب البطريرك بجعة ملوكية اكثر مما بوجه العدل ... وعليه يكون بطريرك اسكندرية ثانياً بعد الروماني » — هذا بعض ما كتبه البابا نيقولاوس

لامير البلغار وشعبه الحديثين في الايمان طاعناً في فوتيوس وفي مركزه وفي كنيسة اورشليم ايضاً طاعناً يخالف قرارات كل المجامع السابقة في الشرق والغرب التي عرفت بطريرك القسطنطينية متقدماً على الاسكندري والانطاكي وبطريرك اورشليم بطريركاً قانونياً مساوياً لهم . وقد اقام البابا نفسه مساوياً بالتمام لهذين البطريركين الرسوليين بل لكل رئيس كنيسة اسسها رسول كافس وكورنثس وغيرهما خلافاً لمبادئه . ولا يخفى ان شعب البلغار نظراً لغباوته العقائد والعوائد كان سهل الميلان مثل الغصن الطري الذي يمكنك ان تميله كما تشاء . وان سلوك الغربيين بادخل الوسوس بينه كان مغرياً له فضلاً عن كونه غير نافع . وقد ارسل البابا رسالة مع اسقفين وسريقة من الاكليرس والرهبان واوصاهم ان يجتهدوا بسحب الامة البلغارية عن الكنيسة الشرقية وتعليمها البدع الغربية . فلما حضروا الى بلغاريا شرعوا في ان يقوموا بوصية مرسلهم ولم يكتفوا بان يستميلوا الشعب ويغيروا تبعته وعوائده ويطعنوا على فوتيوس بل كانوا يعيدون ميرون المميرين من الاكليرس الشرقي بدعوى ان ميرونهم غير صحيح . فهذا السلوك الخارج عن كل لياقة وذمة كدّر اكليرس القسطنطينية وخصوصاً شخص فوتيوس الذي رأى اولاده يُخطفون من حجره بعد ان سقاهم ألبان التعاليم الانجيلية بلسانه ورجاله وكتاباته . وكدّر القيصر بخائيل الذي ما مضت مدة طويلة على مسالمته مع البلغار . ومن ثَمَّ دعت الظروف ان تؤخذ الاحتياطات الكافية لمنع تعديات رومية . فعُقد مجمع مكاني (سنة ٨٦٦) حُكم فيه على التعاليم الجديدة الواردة من رومية وعلى معلميها وكتب القيصر رسالة الى الامير بخائيل ينصحه فيها ان يسدّ اذنيه عن قبول بدع رومية . ولكن اذ لم تكتفِ رومية بما فعلت بل تداخلت في شؤون شعوب أخرى من الصقالبة المجاورين

البلغار تقرّر ان يُعقد مجمعٌ كبير لكبح الشر كبحاً نهائياً . ففي اوائل سنة ٨٦٧ نشر البطريرك فوتيوس منشوراً الى بطاركة واساقفة الشرق يشكو من تعدي البابا نيقولاوس واحتياله بكل الوجوه لاخضاع الكنيسة الشرقية وبعدد العقائد الغريبة التي يزرعها رسلهُ في البلغار وخصوصاً عقيدة الانبثاق من الآب والابن خلافاً للكتاب والتسليم والزيادة المحرّمة في دستور الايمان . ومن العوائد التي من جملتها منع زيجة الاكليرُس كما سيأتي . وارسل مع منشوره صوَر رسائل وردت لهُ من الغرب ومن رؤسآء اساقفة صور وكولونيا وراينا يتظلمون فيها تظلماً مرّاً من جور البابا نيقولاوس وقساوته عليهم وحكمهِ ضد الاثنين الاولين حكماً غيابياً وعزلهِ اياهما من كرسيهما بلا مراقعة لانهما وافقا على زيجة ملكهما لوتاريوس كما رأينا (صفحة ٣٥٩) وإجبارهِ رئيس اساقفة راينا ان يعترف بسلطتهِ العليا عليهِ حارماً اياهُ الاستقلال الذي كان لكرسيهِ من القديم . ويطلبون مساعدةً من كرسي القسطنطينية ويشهدون بان الغرب لا يوافق على اعمال البابا الاستبدادية ولا يعترف لهُ بسلطةٍ مطلقة . ثم انهُ (اي فوتيوس) دعا جميع الاساقفة الى المجمع الكبير لتأييد الاحكام الكنائسية والدفاع عن القوانين المجمعية واعادة السلام في داخلية الكنيسة وهدم المؤامرات الرومانية * ولم تمضِ مدةٌ طويلة الاَّ وحضر الاساقفة ونوابٌ من طرف بطاركة اسكندرية وانطاكية واورشليم وعُقد المجمع بحضورهم وحضور جمٍ غفير من اساقفة ورؤسآء اديرة واكليرُسيين وبحضور القيصر ميخائيل وباسيليوس المكدوني واراخنة المجلس والاشراف والموجّهين . ثم قرئ كتابٌ على مسمع الجميع مضمونهُ اعمال البابا نيقولاوس واجراآتهُ . وبعد الفحص والاثبات والمذاكرات قرَّ القرار على قطع البابا من كرسيهِ وحكم عليهِ بعدم استحقاقهِ

شركة الكنيسة واخيراً أُطلق عليهِ الآنائيما . وقد أُمضي القرار بأُلف امضآء وأُرسل اليهِ الى رومية مع زخريا مطران خلكيدون وثيوذورُس مطران اللاذقية * وقد استكثر بعض الغربيين عدد الامضاوات فشكَّ في صحتهِ . ولكن لا عجب في كثرتهِ لان عمل نيقولاوس بجرمهِ كلَّ مَن يشترك مع فوتيوس كان كافياً لجمع اكثر من تلك الامضاوات من اساقفة وكهنة الشعب ورجال الدولة . اما قول انسطاسيوس بان الامضاوات كانت ٢١ فقط فبهتانٌ ظاهر * وكذلك اعترض بعضهم على الحكم ضد نيقولاوس حكماً غيابياً . ولكن هذا الاعتراض مردودٌ بوجهين اولاً بان البابا سبق وحكم على فوتيوس وعلى اساقفة الغرب غيابياً . وثانياً بان اعمال البابا عينها كانت موضوع المذاكرة اعني قطعهُ فوتيوس وحرمهُ الاساقفة وتعدياتهُ في البلغار وهي ثابتة لا تقبل ردّاً . ومما هو حريٌّ بالذكر في هذا المقام المنشور الذي ارسلهُ فوتيوس الى بطاركة واساقفة الشرق لانهُ يسطر ويشرح العقائد الارثوذكسية شرحاً مدققاً ويبين بُعد الرومانيين عنها وعن العوائد الابوية المسلَّمة منذ القديم وينقض اضاليلهم نقضاً مختصراً ولكن وافياً حتى ان الغربآء انفسهم يتعجبون من براعتهِ كفتبريكيوس ومُندا كوتيوس وغيرهما . ونحن نعرّب لهم فقراتهِ لفائدة القرآء . قال :

« يظهر ان ابليس لا شبع لهُ من الشرور ولا حدَّ لهُ في الخبائث والحيَل التي نوى وشرع في ان يحركها منذ البدء ضد الجنس البشري » — ثم ذكر خداع ابليس للبشر بالاضاليل قبل التجسُّد وبالمرطقات بعد التجسُّد وذكر محاربتها من المجامع المسكونية وقاومة الكنيسة من اكثرها وابادتها لمن العاصمة ورجوع الامر عن مذهب البعاقبة بواسطتهِ . ثم قال « على ان امَّة البلغار ايضاً المتوحشة والمبغضة المسيح قد انقلبت الى أُنس عظيم ومعرفة الله حتى انها رفضت عبادة آبائها الشيطانية

وانتقت من ضلال وساوس الديانة اليونانية وتطعّمت على وجه غريب بطعم ايمان المسيحيين * ولكن يا لها من نية خبيثة وعمل حسود ومشؤوم لله ! الان هذا الخبر الذي هو موضوع بشارة صالحة قد انقلب الى كدر وانقلب السرور والفرح الى حزن ودموع . لان تلك الامة ما استكملت السنتين منذ تشرفت بايمان المسيحيين الصحيح الا ودخل بينها رجال ارديآء الايمان وكرهون ... رجال نبغوا من الظلام (لانهم كانوا اولاد القسم الغربي) اواه ! كيف احدثت ما بعد ذلك ؟ فهولاء قد نزلوا في الامة المؤسسة حديثاً والقائمة حديثاً في حسن العبادة نزول الصاعقة او الزلزلة او رش البَرَد وبعبارة اقرب قد قفزوا قفز الوحش الضاري ودخلوا كرم الرب المحبوب المغروس جديداً ورعوه وابادوه على قدر ما استطاعت جسارتهم بارجلهم واسنانهم اعني بسلوكهم سلوكاً قبيحاً وبفساد عقائدهم . لانهم احتالوا عليهم (على البلغار) ليفسدوهم ويبعدوهم عن العقائد الصحيحة النقية عن ايمان المسيحيين الغير المُعاب * فاولاً نقلوهم الى صوم السبوت خلافاً للقوانين . ومن المعلوم ان مخالفة التسليم وان كانت صغيرةً تسبب الاحتقار التام للعقيدة (اي للديانة) كما اعلم انهم فصلوا الاسبوع الاول من الصوم الكبير عن جسم الصوم وجذبوهم الى شرب الالبان واكل الجبن فيه والشراهة بامثالها من الاغذية . فعرّضوا لهم طريق المخالفات واحادوهم عن الطريق المستقيمة السلطانية ومن ثمّ جعلوهم ان يمقتوا القسوس الافاضل المتزوجين الزيجة الشرعية كهنة الله الحقيقيين . اولئك (اي رسل الغرب) الذين جعلوا بناتاً كثيرات يظهرن نساءً بلا رجال ونساءً يربّين اولاداً لا آباء لهم[1] . وبذروا فيهم بذار

(١) اول من منع زيجة الاكليرُس كلو الثاسيريكوس (سنة ٣٨٥ — ٣٨٨) ولكن حكمه قاومه كثيرون الى ايام غريغوريوس السابع (سنة ١٠٧٣ — ١٠٨٠) الذي

فلاحة مانيس (الهرطوقي) وابادوا ببذار الزؤان نفوساً بدأت من عهد قريب تنبت بذار حسن العبادة * على انهم لم يجسروا ان يعيدوا ميرون المميرَين من القسوس داعين انفسهم اساقفة وقائلين بالغرابة بان لمسحة التي يتممها القسوس باطلة لا نفع لها . فيا ترى أيوجد انسان جمع بجنون عظيم مثل هذا لم يبطئ هولاء المجانين عن ارتكابه باعادتهم مسحة الممسوحين من ذي قبل وعرضهم اسرار المسيحيين الالهية الفائقة على الطبيعة للهذر الطويل والضحك العريض ؟ فانهم يقولون : لا يجوز للكهنة ان يقدسوا المكمّلين بميرون . لان هذا شريعة خُصّت برؤساء الكهنة وحدهم . فمن اين هذه الشريعة ومن مشترعها ؟ من من الرسل ؟ من من الآباء ؟ من من المجامع ؟ واين ومتى سنّت ؟ وبحكم من قامت ؟ أفلا يجوز للكاهن ان يختم بالميرون المعمّدين ؟ فاذن (لا يجوز لنا) ولا ان يعمّد بالكناية . ولا ان يكمّن . لكي لا يكون كاهنك نصف كاهن مُحصّى في عداد الكبرُس فاقد الكهنوت بل كاهناً كاملاً . فانهُ مادام يقدّس جسد ودم المسيح ويقدّس بها المسارّين من ذي قبل . كيف لا يقدس المكمّلين الآن بمسحة الميرون ؟ ومادام يعمّد ويتمم موهبة مغفرة المعمّد . كيف تنزع منهُ حفظ وختم التطهير الذي هو يتممهُ ؟ فان كنت تنزع منهُ الختم فلا تسمح لهُ بان يخدم المرهبة ولا ان يكمّل احداً بها لكي يكون كاهنك مزيّناً بالاسماء العارية (من الحقائق) فيظهر لك انت هامةً له واسقفاً ممثالاً لمصفّهِ *.

منعها بحزم قاطع خلافاً لقانون الرسل وغيره كما رأينا (صفحة ٣٣٠) . وكان ذلك داعياً لمساد عظيم في الغرب حتى ان الاسقف الغربي اليوس بيلاجيوس اسقف سيلي في البورتوغال قال في اواسط القرن ١٤ : ما ليت الاكبرُس لم يذكر مثل هذه العفة وخصوصاً في اسبانيا لان اولاد الاكبرُس فيها اكثر من اولاد الشعب * ومنا القول قول رجل اكبرُسي من الغرب ضد اكبرُس الغرب وهو اعظم مما ذكرهُ فونوريوس هذا (رسائل ١٦٩ حاشية ٢)

«ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد من مخالفة الشريعة · بل راوا ان هي قمة الشرور فصعدوا اليها · لانهم علاوةً على الزلات المذكورة شرعوا (ويا لحيل الشرير الكثيرة!) في ان يغفلوا بافكارٍ غريبةٍ واقوالٍ دخيلةٍ ووقاحةٍ زائدة الدستور الشريف المقدس الذي قوتهُ لا تحارَب لانها ثابتة من جميع الاحكام المجمعية والمسكونية وذلك باحداثهم التعليم بان الروح القدس ينبثق لا من الآب فقط بل من الآب والابن * فمَن ترى سمع من الكفرة انفسهم قولاً مثل هذا ؟ اية حيةٍ معوَّجة بختها في قلوبهم ؟ مَن من المسيحيين يطيق ان يدخل في اثالوث القدوس علتين يكون الآب علة الابن والروح ثم الابن علة الروح ويحل الرئاسة الواحدة الالهية الى اثنتين ويزق تعليم المسيحيين في الله لا اقل من تمزُّق خرافات اليونانيين ويبين جلالة الثالوث الواحد الرئاسة الفائق الجوهر ؟ ولماذا الروح ينبثق من الابن ايضاً ؟ فانهُ ان كان الانبثاق من الآب كاملاً (وهو كاملٌ لانهُ اللهٌ كاملٌ من اللهٍ كاملٍ) فما هو الانبثاق من الابن ؟ ولماذا ؟ لانهُ يكون زائداً وباطلاً * ثم ان كان الروح ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب فلِمَ لا يولد الابن من الروح كما يولَد من الآب ؟ لكي يكون كل شيءٍ للكفرة كفراً اعني آراءهم واقوالهم ولا يبقى شيءٌ لم يرتكبوهُ * ولاحظ ما يأتي ايضاً : اعني ان كانت خاصة الروح تُعرَف بانبثاقهِ من الآب وخاصة الابن بولودة الابن وينبثق الروح حسب هذرهم من الابن ايضاً فيميَّز الروح عن الآب بخواص اكثر مما يميَّز الابن ... لان صدور الروح من الآب والابن يكون خاصةً عامةً لهما وانبثاقهُ من الآب ومن الابن ايضاً خاصةً خصوصيةً لهُ · وان كان الروح يميَّز بخواص اكثر من الابن يكُن الابن اقرب من الروح لجوهر الآب · وهكذا تعود فتقوم جسارة مكدونيوس ضد الروح متلبِّسةً هيئة هولاء وشخصهم *

على ان كل ما كان عاماً للآب والابن كان عاماً بلا بدٍّ للروح ايضاً كالالوهية والملك والابداع ... فان كان صدور الروح عاماً للآب والابن يجب ان الروح ينبثق من نفسهِ ايضاً (لان ما عمَّ الآب والابن يعمهما هو ايضاً) فيكون هو بدءاً لنفسهِ وعلةً ومعلولاً معاً · وهذا ما وصلت اليهِ ولا خرافات اليونان * ولكن ان كان من خواص الروح وحدهِ نسبتهُ الى مبادئ متنوعةٍ فكيف لا يكون من خواص الروح وحدهِ ايضاً كون بدئهِ كثيراً لا واحداً (خلافاً لوحدة المبدإ) ؟ ثم اذا كانوا يحجزون الروح عن الاشتراك في ما احدثوا فيهِ شركةً للآب والابن · وانما الآب والابن واحدٌ بالاشتراك في الجوهر لا في بعض الخواص · فينتج انهم يحصرون الروح عن المجانسة (اي المساواة للآب والابن) في الجوهر (باستثنائهم الروح من الاشتراك في ما هو مشترك بين الآب والابن الذي هو الجوهر لا الخواص) * أرايت كيف هولاء حملوا اسم المسيحيين عبثاً او بالحري ليسهل عليهم صيد الاكثرين ؟ فالروح ينبثق من الابن · ولكن من اين سمعت ذلك ؟ ومن اي الجيليِّ جاءك هذا الصوت ؟ واي مجمعٍ نطق بهذا التجديف ؟ فربناوالهنا قال «الروح الذي من الآب ينبثق» واما آباء هذا الايمان الجديد الردي فقالوا : الذي من الابن ينبثق · فمَن لا يسد اذنيهِ لدى هذا التجديف الزائد ؟ فانهُ يقاوم الاناجيل ويحارب المجامع المقدسة وينقض الآباء المغبوطين القديسين اثناسيوس الكبير وغريغوريوس الشهير بعلم اللاهوت وحلة الكنيسة الملوكية باسيليوس الكبير وفم المسكونة الذهبي لجة الحكمة الذهبي الفم بالحقيقة · وباقي اقوال فلان وفلان : فان هذا القول المجدف المحارب لله قد سُلَّ ضد جميع القديسين الانبياء والرسل والرسل والكهنة والشهداء والاقوال الالهية نفسها * أفتقول ان الروح ينبثق من الابن ؟ ولكني اسالك كيف تعني هذا

الانبثاق ؟ اتعني نفس الانبثاق من الآب ام انبثاقاً معاكساً له ؟ فان كان هو نفسه كيف لا تعمّ الخواص التي بها وحدها يوصف الثالوث ثالوثاً مسجوداً له ؟ (يعني ان خاصة الآب تكون خاصة الابن ولا تعود الخواص خواصاً لان ما كان مشتركاً ليس خاصاً) . وان كان معاكساً له كيف لا ينتج لنا من هذا القول مانيس ومركّين (الهراطقة المحركين لسفتهم الهازية لله ضد الآب والابن من جديد ؟ وزد على ما تقدم انه اذا كان الابن مولوداً من الآب . والروح منبثقاً من الآب والابن . فلانه منسوب الى علتين لا يستطيعون ان يفلتوا من التركيب » — ثم يوضح فوتيوس ان القول بان الآب علة الابن والآب والابن معاً علة الروح يوجب ان يكون الآب والابن والروح علة لاقنوم رابع والاربعة لخامس الى ما لا نهاية له . وهذا كفر « وايضاً ان الانبثاق من الآب كامل ولا حاجة الى القول باكثر منه . ويقول » واذا كان كلّ ما ليس عاماً للثالوث . . . خاصاً بواحدٍ من الثلاثة وصدور الروح ليس عاماً للثلاثة فهو خاص بواحدٍ من الثلاثة (يعني الآب وحده) » وانظر كيف يتضح سوء اعتقادهم وقلة عقلهم . فان كلّ ما يُقال في الثالوث الكلي القداسة المتساوي في الطبيعة والجوهر إما ان يكون عاماً للثلاثة كلهم او خاصاً بواحدٍ منهم . فان كان صدور الروح لا عاماً لهم ولا خاصاً بواحدٍ وحده على زعمهم . . . ينتج انه ليس انبثاقٌ للروح في الثالوث رئيس الحياة الكلي الكمال »

« هذا الكفر زرعه في امة البلغار مع تعاليم اخرى محرّمة اولئك الاساقفة اساقفة الظلام (لانهم يدعون انفسهم اساقفة) ووصل خبرهم الى مسامعنا . فجُرحنا جرحاً بليغاً في وسط احشائنا كمن يُجرَح الذي يرى بعينيه اولاده الذين ولدهم ممزقون ومجرّحين من الدببات والوحوش . لان الذين بذلت في سبيل اعادة ولادتهم وكالم الاتعاب والاوجاع والاحراق كان الحزن عليهم والمصاب

في تقدمهم غير مطاق وكانت كثرته مناسبة لكثرة ما ذُكر . فانك قد تحنا بسبب المصيبة التي طرقتهم بقدره . امتلأنا افراحاً حين رأيناهم معتقين من الضلال القديم »

« غير ان اولئك تحنا عليهم ونوح ولا نعطي عيوننا نوماً ولا اجفاننا نعاساً الى ان ندخلهم بيت الرب على قدر لامكان ليقوموا من سقطتهم * وما تقدموا الشقاق الجُدد خُدّام للخان . لم تكون ما يلحق ربوات من البيوت . المفسدون العموميون المرقون تلك الأمة البسيطة الحديثة في الايمان بزيقات كثيرة وعظيمة . اولئك الخدّاعون المعاندون لله . فقد حكمنا عليهم حكماً مجمعياً الهياً ولم نحدّد قرارنا ضدهم من جديد بل استخرجنا من المجامع السابقة والشرائع الرسولية الحكم الذي كان معداً لهم وجعلناه واضحاً امام الجميع » — ثم انه جاء بالقانون ٦٤ للرسل وهو للمجمع السادس حيث يُحرم الذين يصومون السبوت . والقانون ٥ لمجمع غنغرة والقانون ٢٨ للمجمع السادس الحارمين الذين يمنعون ان يكون الكهنة متزوجين . ثم يقول « واما تحليل الاسبوع الاول واعادة ميرون المعمدين والمميرين فاظن انها لا تحتاج الى قوانين لحكم لان ذكرها وحدهُ يتغلب من نفسه على كل افراط في سوء العبادة * على ان شدة الافراط في التجديف على الروح او بالحري على الثالوث القدوس بكليته وان لم يكن معها شيء من الارتكابات السابق ذكرها تكفي وحدها لتجعلهم تحت ربوات من الاناثيما » — ثم ان فوتيوس يدعو البطاركة والاساقفة الى الاجتماع حسب عادة الآباء لقطع التعليم الردي * ولاعادة النساء واعادة المؤمنين حديثاً الى حسن العبادة وتثبيتهم فيه . ثم يقول « لانها ليست هذه الأمة وحدها (اي البلغار) بدأت كفرها القديم بالايمان المسيحي بل الأمة الأخرى ايضاً المشهورة كثيراً عند كثيرين التي تركت سائر الامم خلفها في القساوة وسفك الدماء اعني الامة المدعوّة «الروس» التي قد استعبدت مجاوريها

فهضت وقامت ضد السلطة الرومية. غيرانها الآن قد بدلت هي ايضاً العقيدة اليونانية (اي الوثنية) الكافرة، التي كانت عليها، بديانة المسيحيين النقية العادمة الرغل وجعلت نفسها في رتبة رعايا واصدقاء محبين بوضاً عما كانت عليهِ قبلاً ضداً من النهب والارتكاب. وقد الفتها جداً عشق الايمان والغيرة عليهِ (تبارك الله مدى الدهور) حتى انها قبلت اسقفاً وراعياً واعتنقت عقائد المسيحيين برغبةٍ واجتهادٍ كثير — ثم انها يدعو الاساقفة الى المعاضدة في انتشار الايمان عندها وذلك الامر يطلب ان يكون رؤاهم (ان لم يحضروا بالجسم) مفوّضين بكل سلطتهم الكنائسية النظر في قضايا اساقفة الغرب «الذين ارسلوا رسائل ضد اسقفهم مملوءة من الارتكابات واقسموا علينا ان لا نهملهم يبيدون بلا شفقة ويئنّون تحت ثقل الجور الشديد واهانة الشرائع الكهنوتية وقلب كل ناموس كنائسيّ الامور التي من ذي قبل جاء رهبانٌ وقسوسٌ من هنالك (اي من الغرب) واوصلوها الى مسامع الجميع الخ».

هذا بعض ما كتبهُ البطريرك فوتيوس للبطاركة الشرقيين ولغيرهم من الاساقفة. غير ان بعضاً تذمروا عليهِ لانهُ في رسالتهِ الى البابا اعترف بانها توجد فروقاتٌ كنائسية بين الشرق والغرب وما ضرب على عقائد وعوائد الغرب وهنا ضرب على تلك العوائد والعقائد كما رأينا. فنسبوهُ من جرّاء ذلك الى الغرض وعدم الثبات والمناقضة في اقوالهِ. غيرانهم قد ضلوا بآرائهم في فوتيوس على هذا الوجه. اولاً. لان فوتيوس انما اوضح في رسالتهِ الى البابا فروقات بين الكنائس ليقنعهُ انهُ لا حق لهُ ان يطلب من الشرق قانوناً لا يعرفهُ. ومن ثم لم يكن البحث هناك في صحة او عدم صحة تلك الفروقات (صفحة ٤٦٣: سطر ١٠). ثانياً. لانهُ عندما ادخل رسل الغرب في رعية فوتيوس عقائد وعوائد رومية صار من

واجبات فوتيوس ان يوضح ما هو الصحيح وما هو الفاسد منها. ثالثاً. لانا اذا تأملنا رسالة فوتيوس الى البابا نرهُ يلمّح مخالفة عوائد رومية لقوانين المجامع (راجع صفحة ٤٦٣ سطر ١٢ — ١٥). ورابعاً. لان البطريرك فوتيوس فضلاً عن تسميهِ مخالفة عوائد الغرب للقوانين الرسولية والمجمعية لم يحث هناك في العقيدة الجديدة عقيدة الانبثاق من الابن وزيادتها في دستور الايمان التي حاربها في جملة رسائل ومؤلفات. فعدم ايرادهِ اياها انما كان ناشئاً عن انتظار فرصةٍ مناسبة للبحث فيها والحكم ضدها لانها مسألة جوهرية لا نسبة بينها وبين زيجة الاكليرس وصوم السبت الخ. بناءً عليهِ تسقط كل دعوى من هذه الحيثية على فوتيوس كما لا يخفى على كل ذي بصيرة.

اما البابا نيقولاوس فانهُ سمع قبل وصول الاسقفين زخريا وثاوذورس برسالة القيصر ميخائيل الى ميخائيل امير البلغار وبمنشور البطريرك فوتيوس ضدهُ وكان من جرّاء ذلك متكدراً جداً وطريح الفراش. فلما وصلت اليهِ اعمال مجمع الشرقيين وقرأها ووقف على الحكم عليهِ بالمرطقة والقطع وعلى رفض اساقفة ايطاليا اياهُ واشمئزازهم منهُ ولعلهِ ان بعضاً من اساقفة الافرنج كانوا ضدهُ لعدم قبولهم زيادة كارلوس كلمة «والابن» في دستور الايمان خاف ان يحكم عليهِ مجمعٌ مسكونيٌ وضاق صدرهُ ولكنهُ لم ييأس. فكتب منشوراً الى ابتكار رئيس اساقفة رايمس وغيرهِ من رؤساء كنائس الافرنج المشهورين ببراعة الكتابة وصوّر لهم ان الكنيسة الشرقية اتهمت الغرب بالمرطقة وشحن كتاباتهِ من الشتائم ضد فوتيوس والقيصر ميخائيل وكل الكنيسة الشرقية وطلب اليهم ان يجمع كل مطران منهم مجمع اساقفتهِ ويتذاكروا في كيف يمكنهم ان ينقضوا ما جاء ضدهم محرّضاً اياهم على الانضمام بقولهِ «هيا بنا نسعى ضد

العدو العام لا يجتمع مفرّق بل جميعنا معاً كنا في مصف القتال ». وانما حرّك فيهم تلك الحماسة وحرّضهم على عدم تفرّق الجند لانهُ كان قبلاً غير راضٍ عن بعضهم وهم غير راضين عنهُ بسبب مسألة نوثيريوس * وقد رأينا في صفحة ٣٧٠ سطر ١١ ان البابا نيقولاوس قد علّم بوجوب مقاومة الحاكم المدني متى كان غير فاضل . فيظهر ان هذا التعليم لم يعلّمهُ بالقول فقط بل علّمهُ بالعمل ايضاً . لان اعمال باسيليوس المكدوني في بلاط القسطنطينية يظهر انها لم تخلُ من اصبع ودسائس البابا المذكور . ولا ينسَ القارىء اللبيب الحلم الذي اوردهُ اصدقاء البابا عن بارداس (ومن مضمونهِ ان بطرس الذي رفع اليهِ اغناتيوس شكواهُ قد امر بذبح بارداس) والحقائق التاريخية التي يُستدلُّ عليها من هذا الحلم الملفّق لا تخفى على لبيب [1] . ولما كان قتل بارداس وحدهِ غير وافٍ بالغرض المقصود لا للبابا ولا لباسيليوس . وكان البابا قد سبق وكتب للقيصر انهُ سيموت قتلاً مثل جليات تمّت نبوتهُ في هذه الاثناء بان باسيليوس المكدوني الذي تبنّى بهِ القيصر وجعلهُ بعد قتل بارداس شريكهُ في المُلك واقامهُ ولي عهدهِ اشتبه في ثبات القيصر لجهتهِ فهجم عليهِ وقتلهُ بيدهِ في ١٤ ايلول من تلك السنة ٨٦٧ وضبط هو كرسي القيصرية وكلّف فوتيوس ليمسحهُ قيصراً . واذ كان الشعب راضياً بهِ مسحهُ هو وزوجتهُ وهو غير راضٍ عن فعلهِ المذميم كما سيأتي القول [2] * غير ان البابا نيقولاوس لم يعِش ليسمع بموت خصمهِ ولا ليقرأ اجوبة رومية كنائس الافرنج بل مات في ١٣ تشرين الاول اعني

(١) اغليلوشيا ٢٤ حاشية ٢ . ورسائل صفحة ٥٢ حاشية ٣ (٢) وما اعلى نصيحة البطريرك الحكيم فوتيوس لبارداس التي رأيناها في صفحة ٣٩٣ و٣٩٤ . فلو سمعها لما اصابهُ واصاب القيصر ما اصابهما من باسيليوس .

بعد ٢٩ يوماً وهكذا اخذت الحال طوراً جديداً وخصوصاً في الشرق .

٤ . عزل فوتيوس ورجوع اغناتيوس

ان ما رأيناهُ من اعمال باسيليوس المكدوني كافٍ ليقنعنا بما كان عليهِ ذلك الرجل من القساوة وارتكاب المحرّمات . ولهذا السبب كان البطريرك فوتيوس يمقت افعالهُ حتى انهُ مراراً وبخهُ عليها . ففي رسالةٍ اليهِ وهو بعد حاكماً (ايبارخوس) في القسطنطينية وبخهُ لقساوتهِ على الرعية (رسالة ١٦) وفي رسالةٍ الى القيصر ميخائيل اوضح مظلومية بارداس وجور الوشاة بحقهِ وقد عنى باحد الوشاة باسيليوس المكدوني (رسالة ٢٣) . ثم ان باسيليوس المذكور كان قد ترك امرأتهُ وتزوج بالكبريتي سرّية القيصر الممقوتة من ثاوذوره لقبح سيرتها فيما ان القيصر لم يخلها من ذمتهِ ولا بعد زواجها بباسيليوس فكانت من جرّاء ذلك دواعٍ كثيرة لان يمقت فوتيوس اعمال باسيليوس ويترقب باسيليوس فرصةً للانتقام منهُ وان كان بحسب الظاهر يحترمهُ حتى انهُ طلب بعنايتهِ تربية ابنهِ * فمن بعد جلوس باسيليوس على الكرسي بمدةٍ قليلة جاء في يوم عيد الى الكنيسة العظمى وطلب من فوتيوس ان يتقدم الى الاسرار الالهية . فمنعهُ فوتيوس مسمياً اياهُ سفّاحاً لاتيانهِ على وشايةٍ وتخمين كما فعل اغناتيوس ببارداس بل بناءً على فعلٍ مثبوت . فغضب باسيليوس من هذا السلوك وانزل فوتيوس عن الكرسي بصفة معتدٍ على اغناتيوس ونفاهُ الى دير مجاور القسطنطينية معروف بدير سكيبي واعاد اغناتيوس الى الكرسي في ١٣ تشرين الثاني سنة ٨٦٧ وهو يوم وفاة البابا نيقولاوس [1] .

(١) زونارا س ١٦ : ٨ . لاون الكاتب صفحة ٤٧١ واغليلوشيا ٢٤ . ورسائل : ٥٣ : ٣

فما عاد اغناتيوس الى كرسيه بادر حالاً الى قطع فوتيوس وجميع الذين شرطوا منهُ واشتركوا معهُ وبطلبهِ اصدر القيصر امرًا بان يوخذ جميع الرسائل والاعمال المجمعية والمكاتبات الرسمية من ايدي فوتيوس . فجاء الموروون واخذوا سبعة اكياس فيها مولفاتهُ ومكاتبات من فوتيوس واليهِ وعمال وقرارات مجامع قيل واوراق حكم كتائبي على اسيليوس المكدوني . وقد اهانوا فوتيوس اهانات كثيرة « ومزقوا لحوم خدامهِ بالسياط وجعلوا اجسادهم كلها كالمجاري بخطوط كثيرة بالضرب لياخذوا الفضة والذهب الذي خزنهُ (على زعمهم) فوتيوس ولم يرَهُ ولئك المساكين ولا في الحلم » (رسالة ١٧٤) * ثم ان اعداءهُ اخذوا يطوفون الازقة والبيوت ويهجون بحقهِ تارةً بقولهم « انهُ يعلم بان الزلازل تحصل من كثرة الامتلاء من الماء لا من كثرة الخطايا » وتارةً بقولهم « انهُ يعلم بان لا يتناول الناس الاسرار وهم صائمون » وتارةً بقولهم « انهُ في الخدمة لم يكن يقرأ

وكذلك بوتيل وجرجي المنوحد وجماعة اللوغوثيت نفسهُ عدو فوتيوس يوردون ذلك . وفي شهادات توميد حزم فوتيوس وعزمهُ لا كما تهمهُ اعداؤهُ « انهُ كان يمضمض كل صباحٍ ويساير الاشرار حفظًا لمركزهِ . على انهم قد لفقوا اقاويل كثيرة مناقضة بعضها بعضاً ليمحوا مآثر هذا البطريرك الجليل . فقال البغلاغوني ان فوتيوس وعد لويز ملك الغرب بان يجعلهُ قيصرًا على الشرق إن عزل حصنهُ نيقولاوس ولهذا السبب عزلهُ باسيليوس من كرسيهِ واعاد اغناتيوس . وقال غيرهُ انما امر فوتيوس في المجمع ان يُذكر لويز وقرينتهُ باسم القياصرة على جرمانيا فقط لا على الشرق . ولكن من يصدق ان فوتيوس يستطيع ان يعمل ذلك في مجمع كان القيصر يخايل حاضرًا فيهِ بذاته ؟ على ان القيصر قسطنطين البرفيري حقد باسيليوس كتب تاريخ عزل فوتيوس ولم يذكر شيئاً من هذه التلفيقات بل قال ان باسيليوس (جدهُ) بعد ارتقائهِ الكرسي اراد ان يقطع النزاع من الكنيسة فجمع مجمعاً كبيرًا صدق على اعمال المجمع السابع ضد محاربي الايقونات وعزل فوتيوس واعاد اغناتيوس . ولم يذكر السبب الاصلي الذي منع فوتيوس القيصر عن مناولة لان القيصر كان جدهُ والصالح اقتضى منهُ تليس اعمالهُ لباس العدل كما لا يخفى (راجع الجدل صفحة ٥٨)

الطلبات بل ابياتاً من شعراء ليونان » وتارةً بقولهم « انهُ كان يعلم بان كل انسان لهُ نفسان الواحدة تخطئ والاخرى لا تخطئ » وهلم جرًا من الاقاويل الدالة على حسدهم اياهُ لكثرة معارفهِ واختلاقهم عليهِ آراء علمية اما انهُ لم يقلها او انهُ قالها ولم يفهموها * واما باسيليوس فلم يضبط غيظهُ عند حدٍّ فهدم الكنائس التي بناها فوتيوس واهمل الفقراء والمساكين الذين كانوا تحت عنايتهِ ورذل الاناجيل المقدسة والاواني الكنائسية وغيرون المقدس نفسهُ وداسها وداسها (١) ثم انهُ عمل عملاً خرج عن اللياقة بشأنهِ وشأن مملكتهِ والكنيسة الارثوذكسية وندم هو نفسهُ عليهِ بعد ذلك وهو انهُ ارسل سفيرًا اسمهُ اغثيميوس الى البابا نيقولاوس حاملاً رسالةً اوضح لهُ فيها عزل فوتيوس واعادة اغناتيوس وطلب منهُ بلا داعٍ تصديقًا على عملهِ وطلب رأيهُ في ماذا يجب ان يصنع ضد الذين اشتركوا مع فوتيوس والقى المسوءولية في ما بعد عليهِ بقولهِ لهُ « فاننا نحن قد عزلنا فوتيوس عن الكرسي ليرتاح . . . وقد تركنا لبرّك ان تنهي ما بقي » * وقد اقتفى باسيليوس بعملهِ هذا اثر القيصر فوقاس المغتصب قاتل الملك موريق واولادهِ (صفحة ٣٠٨) الذي بعد قتلهِ ابا هم كتب للبابا وطلب تصديقهُ فجاوبهُ البابا بهتهُ . غير ان نيقولاوس مات قبل وصول سفير القيصر . فلما وصل وجد خليفتهُ ادريانوس الثاني . وكان هذا البابا مثل سلفهِ من حيث العناد ولكنهُ لم يكن ذا اقدام على الاعمال مثلهُ . وحين التخابر لم ينتظر شعب رومية حضور سفراء ملك الغرب لانتخابهِ . فما حضروا واعترضوا اجابوهم انهم قد انتخبوهُ لا لانهم لا يحترمون القيصر بل لكي لا يصير انتظار السفراء عادةً في الانتخابات . على ان مشيخة رومية ما سمحت للشعب في سرعة الشرطونية بل اجلتهم الى ان حضر

(١) رسالة ٩٧ و ١٠١ و ١٤٠ (طبعة والتا)

السفراء فسرّ الملك لويزمن ذلك ومدح فعلهم وكتب لهم انهُ فضلاً عن كونهِ لا يطلب منهم النقود الاعتيادية هو مستعدٌ ان يرجّع لكنيسة رومية كلّ ما سُلب منها · ومن هذا العهد يؤرّخ استقلال كنيسة رومية عن سلطة الملوك الكارولينين في الغرب ·

ثم ان باسيليوس بعد ارسالهِ اغناتيوس بوقتٍ قليلٍ ارسل الى رومية سفارةً مؤلفةً من يوحنا مطران سيلا وكيلاً عن اغناتيوس وبطرس مطران ساردايس والراهب مثوذيوس وكلاءً عن فوتيوس ومعهم السيّاف باسيليوس بيناكاس من طرفهِ · وقد زوّدهم بتحاريرملوكية وهدايا ثمينة الى البابا نيقولاوس (ولم يدرِ انهُ مات) وباعمال المجمع الكبير الذي حرم البابا المذكور · فسافروا بحرًا · غير ان بطرس مطران ساردايس وكيل فوتيوس مات غريقًا في الطريق على ما نقلوا والباقون وصلوا · فاستقبلهم البابا ادريانوس استقبالاً شائقًا وترحب بهم ترحابًا فائقًا وخصوصاً لما اخذوا يطعنون امامهُ باعمال مجمع فوتيوس مدّعين بان امضاء باسيليوس فيها تزويرٌ لا صحة لهُ · اما الراهب مثوذيوس فحال وصولهِ طلب البابا حضورهُ للمحاكمة فلم يحضر · ثم كرر الطلب ثلاث مراتٍ وحرمهُ · وكتب جوابين الى القيصر والى اغناتيوس قال فيها انهُ في مسألة اغناتيوس وفوتيوس يتبع اعمال سلفهِ نيقولاوس حرفًا حرفًا وارسلها مع الارشمندريتي ثوغنوستوس السالف ذكرهُ بعد انهُ اقام سبع سنوات في رومية · ثم عقد مجمعًا مؤلفًا من رؤساء كهنة الغرب حضرهُ وكلاء الشرق ما عدا الراهب مثوذيوس واطلق الاناثيا على المجمع الذي انعقد في القسطنطينية ضد نيقولاوس وعلى فوتيوس ايضًا ان لم يخضع لمراسيم البابا نيقولاوس · والغى كلّ ما جرى وقُرّر ضد اغناتيوس وادى بالقيصر باسيليوس سفالك الدماء

«انهُ ابن امين جزيل الحلم ومستقيم الرأي» وعرف جميع الذين اذعنوا لاوامر نيقولاوس اهلاً للشركة الكنائسية واطلق الاناثيا على الذين لم يقبلوها ولم يحفظوها · ثم انهُ احرق علانيةً اعمال مجمع القسطنطينية التي احضرها السفراء وكتب رسائل الى القيصر باسيليوس والى اغناتيوس مملوءةً من روح الرئاسة والكبرياء وارسلها مع السفراء وطلب منهما ان يُعقد مجمعٌ في القسطنطينية وارسل ثلاثة نواب من طرفهِ ليحضروا المجمع وينتظروا في الاحوال عن قربٍ ويحرقوا ما هو باقٍ ضد نيقولاوس من الاعمال ويصدّقوا على قراره ضد فوتيوس واخيرًا طلب من القيصر ان لا يزيغ راسهُ المحصّن من الله عن وصايا الكرسي الرسولي ·

٥ · المجمع ضد فوتيوس

فلما جاء سفراء البابا ادريانوس الى القسطنطينية استقبلهم القيصر باسيليوس استقبالاً عظيماً واجابةً لرغائب البابا جمع المجمع المطلوب في شهر تشرين الاول سنة ٨٦٩ في كنيسة «اجيا صوفيا» · غير ان الاساقفة قد ابوا ان يحضروا في ذلك الاجتماع · لان نواب البابا لما واجههم القيصر قبل الاجتماع وقال لهم «ان كنيسة القسطنطينية وسائر البطاركة والمطارنة والاساقفة الشرقيين لم الآن سنتان ينتظرون حكم الكنيسة الرومانية لاعادة السلام» اجابوهُ «اننا لا نستطيع ان نقبل شرقيًا في المجمع ما لم يمضِ اولاً صكًا وتعهدًا حسب الصورة التي وجدت في خزنة السدة الرسولية» · فاجابهم القيصر واغناتيوس ايضًا ان امثال هذه الامضاءات لم تسبق لها عادةٌ وهي مسألةٌ جديدة من اصلها ونريد ان نقرأ صورة الصك المذكور · فدفعوها اليهم وكان فيها ما يأتي :

«ان الخلاص الاول يقوم بحفظ قوانين الايمان القديم وعدم الزيغان

بالكلية عن اوامر الله والآباء . فالاول يتضح بالاعتراف والثاني بالاعمال . ولكننا لا نستطيع ان نخفي اقوال الرب «انت بطرس وعلى هذه الصخرة سابني كنيستي» ... فلكي لا ننفصل نحن ايضاً عن السدة الرسولية ولكي نتبع قوانين الآباء وخصوصاً الذين جلسوا عليها نفرز جميع الفرقات وهرطقة محاربي الايقونات . ونفرز فوتيوس ايضاً الذي رقي حالاً ضد القوانين المقدسة الى رئاسة كنيسة القسطنطينية ترقية خصوصية الى ان يخضع لحكم الروماني ويلغي جمعيته . ونتبع المجمع المقدس ايضاً الذي عقده البابا نيقولاوس السعيد ذكره الذي فيه كتبت انت ايضاً ايها السيد ادريانوس رئيس الكهنة المساوي للملائكة . ونقبل كل ما قبله ذاك ونشجب كل ما شجب منه وخصوصاً فوتيوس وغريغوريوس اسقف سيراكوسا واتباعهم المصرين على الشقاق ... واما جمعيات الخبثاء والاوامر الملتوية التي اصدرها الملك ميخائيل مرتين ضد البطريرك اغناتيوس الجزيل القبطة ومرة ضد خدمة الكرسي الرسولي العليا فنربطها بربط حرومات لا تحل وتربط معها الذين يدافعون عن اعمالهم الكفرية والذين يستمرونها * واما ما خص البطريرك اغناتيوس الجزيل الكرامة والذين يميلون اليه فنتبع بكل ذهننا ما دونته سلطة الكرسي الرسولي بهم ونرغب ان نحافظ على الشركة معه في كل شيء لان ثبات الايمان المسيحي قد اسس منه ونعد ان لا نذكر في الخدم من كان محروماً منه * وقد عملت اعترافي هذا انا (فلان) اسقف كنيسة (...) المقدسة وامضيته بيدي ودفعته لك بواسطة نوابك ايها السيد ادريانوس الجزيل القداسة رئيس الكهنة العظيم البابا المسكوني»[1] .

(١) في صحة صورة الصك هذه خلاف والارجح ان اسطانيوس زاد عليها ما اراد وبناها على هذا الوجه . والسبب ان اعمال المجمع الاصلية فقدت كما يأتي . غير ان الجوهر المطلوب هو الامضاء على الحكم ضد فوتيوس قبل محاكمته .

فلما قرأ القيصر والبطريرك هذا الصك لم يرضيا من فحواه ولكنهما رأيا من صالحهما ان لا يعارضا نفوذه حالاً . ومن ثم جلس نواب البابا على باب كنيسة «اجيا صوفيا» وكانوا يطلبون من كل رئيس كهنة يدخل الى المجمع امضاء صورة الصك المذكور . فما تطيع رفض الاسقفة طلبهم ما عدا بعض الادنياء وهكذا اول جلسة عقدت افتتاحاً لمجمع مسكوني انتظرته الكنيسة سنتين على دعوى القيصر كانت مؤلفة من ١٨ شخصاً منهم ٥ مطارنة و٧ اساقفة حزب اغناتيوس و٣ نواب البابا وناثبان عن بطاركة الشرق واغناتيوس معهم فيا ان مجمع فوتيوس الاول كان فيه ثلاثمائة اسقف . ولا شك في ان ذلك كان حزباً عظيماً لاهواء الغربيين وامراً مضحكاً في التاريخ . والسبب انه ما من احد غير المذكورين قبل ان يمضي حكماً على فوتيوس بانه كان مغتصباً لعلمهم انه لم يكن غاصباً بل مغصوباً من القيصر والمشيخة والشعب على قبول الكرسي * اما نواب بطاركة الشرق فكانوا اثنين توما مطران صور وايليا سينكلس بطريرك اورشليم وكانا مرسلين الى القيصر من طرف الخليفة او بالحري عن امور لقضايا سياسية بين الدولتين اعني ليتوسطا تحرير الاسراء الذين كانوا عند ملك الروم وقتئذ . فاقامهما القيصر في المجمع نواباً عن بطاركة الشرق على غير علم من البطاركة انفسهم (رسالة فوتيوس ١٦١) . فاما توما فلم تكن في يده تحارير لان بطريركه بحسب شهادة رفيقه ايليا كان متوفى وكان هو بالنظر لاقدميته قائماً مقامه . واما ايليا فقدم رسالة من ثاوذوسيوس بطريرك اورشليم الى اغناتيوس يتضح من فحواها انه لم يرسل لعقد مجمع بل لقضاء حاجات مدنية . فقال البطريرك فيها «انك لا تجهل ايها السيد الجزيل البر السبب الذي لا يدعنا نستطيع لا ان نكتب ولا ان نرسل اليكم . فهوان لا نكون في نظر السلطة المالكة علينا تحت شبهة

وريب. فانهم (اي الحكام) يعملون معنا معروفاً جزيلاً بانهم يسمحون لنا ان نبني كنائسنا ونحافظ على عوائدنا بلا مانع. واما الآن فقد أمرنا من امبراطورنا ان نكتب لكم. فترجوكم ان تتكلموا في مسامع سيدنا المتوّج من الله (اي القيصر) ليسمح لنا بكل مَن يريده من الشرقيين (اي العرب) لكي بتقديمهم نستأنس سطوة حكّامنا». فهذا الكلام لا يشير الى عقد مجمع لمسائل دينية بل يوضح ان الغرض من ارسالهم كان تخليص الأسراء. ومع ذلك فقد سابق باسيليوس غرضه ان يحضرهم بصفة نواب في مجمع مسكوني. اما بطريرك اسكندرية فمحال فلم يحضر من عنده نوّاب ولكن في نهاية المجمع حضر او أُحضر واحدٌ وفي يده رسالةٌ موضوعها تحرير الأسراء ايضاً على معنى الرسالة السابقة. ثم ان القيصر لما رأى نفور الاساقفة من قبول الامضاء والاجتماع والعار اللاحق بهم من ذلك (لان البابا من سنتين كتب لهُ مع ثاوغنوستوس «نرغب ان يُقام عندكم مجمع كثير العدد بواسطة سعي تقواكم» وهو نفسهُ (اي القيصر) كان من ذلك الوقت يستعد للمجمع وينتظر نواب البابا على ما قال لهم حين المواجهة صفحة ٤٧١) اخذ يسعى في اقناع الاساقفة بعضهم بالرجاء وبعضهم بالهدايا والاوعاد واكثرهم بالوعيد والتهديد ليمضوا الصك. وقد تعهّد لهم انهُ بعد نهاية المجمع لا بد من ان يسترجع الامضاءات كلها ويردّها الى اصحابها — ومع ذلك ما قدر ان يجمع في الجلسة الثانية اكثر من ٢٨ عضواً لان نفراً قليلاً اجابوا طلبهُ. ثم انضاف الى هذا العدد ١١ قساً و٩ شمامسة و٧ ايبوذياكونة. وكفى بذلك برهاناً على رضى الكنيسة الشرقية كلها تقريباً عن فوتيوس في ايامهِ لا كما يدعي اخصامهُ — وفي الجلسة الثالثة اجتهدوا ان يجذبوا اساقفة آخرين من الذين شرطنهم الثناتيوس نفسهُ فلم يقنعوهم بل اجابوا بان اعتراف الايمان الذي دفعوهُ حين

الشرطونية كافٍ وافٍ — وفي الجلسة الرابعة اجتهد نواب البابا ان يكذبوا الاساقفة زخريا وثاوفيلوس اللذين كانا من السفارة التي ارسل معها فوتيوس الى نيقولاوس رسالة السلام وافادهُ بها عن انتخابهِ وشرطونيتهِ بطريركاً. فهذان افادا بعد رجوعهما ان البابا اشترك معهما وقبلها في شركتهِ واثبتا بذلك ان نيقولاوس لم يرفض في اول الامر انتخاب فوتيوس. فلم يستطع نواب البابا ان يكذبوهما لانهما اكّدا قولاهُ وربحا مارينوس احد النواب على انكاره ذلك وهو قد حضر اشتراكهما مع البابا. ثم انهما لم يريدا ولا ان يسمعا بالصك الذي قدموهُ للامضاء فاخرجوهما من الاجتماع — وفي الجلسة الخامسة دعوا البطريرك فوتيوس لا بواسطة اساقفة كالعادة بل بواسطة رجال من الشعب كانهُ ليس من طغمة الاكليرس. فلم يرد ان يحضر طوعاً فاحضروهُ جبراً. ولما حضر نظر اليهِ نوّاب البابا وقالوا «هذا هو فوتيوس الذي بسببهِ قست كنيسة رومية المقدسة اوجاعاً كثيرة مدة سبع سنين ومثلها كنائس الشرق وقامت وقعدت كنيسة القسطنطينية كل هذا القيام». غير ان فوتيوس كان ساكتاً يسمع كل سؤالات نواب البابا ولا يجيب بكلمة عنها. اخيراً قالوا لهُ «انك بسكوتك لن تخلو من الحكم الواضح عليك» فاجابهم حينئذٍ قائلاً «ولكن يسوع ايضاً حكم عليهِ وهو ساكت فلم يخلُ من الحكم بسكوتهِ». فقالوا لهُ «ان سكوتك يجعلك بلا حجة». فقال لهم «ان الله يسمع صوت الانسان وان كان ساكتاً». وبعد شكاوي كثيرة قدّموها عليهِ وكان يسمعها بلا اكتراث اعطوهُ فرصة ليتذكر ويأتي بالجواب الاخير. فرفض قبول الفرصة — وفي الجلسة السادسة حضر القيصر بالذات واخذ يستحضر الاساقفة ويحثهم هو والنواب على رفض فوتيوس. فنفرٌ منهم خافوا وانضافوا اليهِ ولكن الاكثرين ما اقتنعوا بل قال لهُ منهم

إفسشيمون اسقف قيصرية الكبادوكية «ايها القيصر السيد - انا نعرف دولتك طويل الاناة ونرجو ان تظهر اناتك نحونا ايضاً - لكي نعتذر عن انفسنا بلا مانع. ونحن على يقين بانا نستطيع ان نبين هذه الصكوك وهذه الاقوال والتعهدات كلها باطلة» - فاجابه القيصر قائلاً «انكم عبثاً تكلمتم بجسارتكم وقولكم ان ما قُرئ باطل - لانه صادر من بطاركة عظام جداً - ولانك لعالم انت وكل من تحت الشمس ان خمس مدات بطريركية لا تفضل البتة في الايمان - فعليك إذن ان تقبل قراراتها» - (وهذا الجواب يوضح المساواة بين البطاركة في السلطة لا حصرها في البابا وان القيصر لم يكن في الباطن مسلماً نواب رومية على دعاويهم كما سينضح ما يأتي ايضاً) * ثم بعد المداولات الكثيرة في مسألة فوتيوس اوضح اسقف قيصرية للقيصر بالاثباتات القوية ان البطريرك اغناتيوس قد استغنى من كرسيه قبل اقامة فوتيوس - حينئذٍ انتهرهُ نواب البابا قائلين «ان الذين قطعتهم كنيسة رومية لا حق لهم ولا ان يتكلموا في المجمع» - ثم سألوا «من من الاساقفة القابلين فوتيوس شرطنماغناتيوس؟» فقام ثلاثة فسألوهم «هل تريدون ان تمضوا على الصك؟» فاجابوا «معاذ الله - وان سمح لنا القيصر فنحن مستعدون ان نقول الحق كيف حصل كل شيء» - فطلب النواب ابعادهم بصفة عُصاة على المجمع واخرجوا معهم زخريا المدافع عن فوتيوس - وهذا كله ذكرهُ انسطاسيوس نفسهُ في الاعمال التي لفقها هو — وفي الجلسة السابعة دُعي فوتيوس مرة ثانية ومعهُ غريغوريوس رئيس اساقفة سيراكوسا ويوحنا مطران هرقليه وغيرهما من اتباعهِ * ولما حضر طلب النواب ان تؤخذ منهُ عكازهُ - ثم طلبوا منهُ ان يندم ويمضي على الصك. فاجاب «الله يحفظ ملكنا عمراً طويلاً - نحن لا نعتذر الى النواب - فان كان ما عيّنوهُ علينا اثاماً فاوهُ على انفسهم ليندموا هم فليرونا ذلك فعلاً وليندموا على

ما اقترفوا» - واما الاساقفة الذين معهُ فقالوا بكل جرأة «اننا إن جاءنا لارسل رومية بل ملاك من السماء يخالف القوانين لا نخضع البتة» ثم انهم اعترضوا على المجمع لكونهِ لم يدعُ لهم الحرية في ان يتكلموا بما عندهم رغماً عن كل رجاواتهم الى ان قالوا «اننا لا نقبل النواب قضاة - ولا نوافق على ما يُعمل خلافاً للصواب» واما يوحنا مطران هرقليه فقال «ان الذي يحرم رئيس كهنتهِ لكُن هو محروماً» - ومن بعد ذلك قام قضاة فوتيوس وفاهوا (بفم اغناتيوس) بالاناثيا ضد فوتيوس وغريغوريوس واتباعهم واحرقوا اعمال مجمع فوتيوس ضد نيقولاوس وفرضوا على الشهود الذين شهدوا فيهِ ضد اغناتيوس قانون توبة - وامضوا على الاعمال (يا للجسارة!) بدم المخلص مقتفين اثر البابا الوذورُس ضد بيرُس كما رأينا صفحة ٣١٨ حالة كون المسيح ما اعطى دمهُ حبراً للكتابة ولا تمضى بهِ لعنات بل مشروباً للحياة لنفوس المؤمنين[1].

اما الحكم الذي صدر ضد فوتيوس فلم يكُن فيهِ شيء يمس ايمانهُ - ولا تجاسر احد ان يدّعي عليهِ هرطقة لا من القدماء ولا من المتاخرين - وانما أُطلق عليهِ الاناثيا بصفة معتدٍ ومغتصب وحديثٍ وخاطف ومشاقٍ ومتجوبٍ ومختلق الاكاذيب وما شاكل ذلك[2] - فالحكم عليهِ لم يبنَ الا على عدم سماحهِ للبابا بالسلطة على الكنيسة كلها - ولهذا السبب لم يكترث ذلك البطريرك الجليل لهذا الاناثيا كما يتضح من احدى رسائلهِ الى صديقهِ اغناتيوس اسقف كلاوديوبولي حيث قال «ان الاناثيا كان وقتئذٍ ما مخيفاً ورهيباً حين كان يُرشق من معلمي حسن العبادة ضد الكفرة - ولكن من حين توافح الاشقياء الحمقاء العادموا الخجل ان يطلقوا الاناثيا الذي عليهم على نصراء استقامة الرأي

(١) اميلنو ٢٧ — ٢٨ رسائل ٥٨ — ٦٠ وغيرهم (٢) صخرة الشك راس ٢٧

ضداً لكل شريعة الهية وبشرية وقاتلوا وضاربوا ليجعلوا الجنون البربري امتيازاً كئيباً حالاً القلب ذاك القصاص المخيف الذي هو غاية ونهاية كل قصاص وصار خرافات ولعباً» (رسالة ١٦٣).

هكذا انتهى هذا الاجتماع بعد خمسة شهور في ٢٨ شباط سنة ٨٧٠. وقد اعتبرته كنيسة البابا مجمعاً مسكونياً ثامناً وعدته بين المجامع المسكونية[1] = على ان الغربيين وان كانوا ملكوا ارهم من جهة فوتيوس لكنهم من جهة بلاد البلغار فشلوا فشلاً عظيماً. ففي ختام المجمع اجلوا المذاكرة في هذا الموضوع. وبعد ثلاثة ايام اجتمعوا في البلاط الملوكي جمعية مؤلفة من القيصر واغناتيوس ونواب رومية ومن المدعوين وكلاء بطاركة الشرق وحضر ايضاً وكلاء من طرف البلغار جاؤوا ليسألوا مجمع الكنيسة ان يحل مسألتهم حلاً نهائياً. وكان القضاة في هذا المجمع بين الرومانيين والقسطنطينيين نواب بطاركة الشرق. فبعد سماعهم دعاوي الطرفين واستنادات الغربيين على ان لهم حقوقاً قديمة على البلاد سألوا نواب البلغار من اين اخذوا ايمانهم. فاجابوهم انهم اتوا على ايدي رسل القسطنطينية. فحكموا ان تخضع بلادهم لكنيستها وفقاً للقانون ٢٨ للمجمع المسكوني الرابع. فرفع نواب البابا حكمهم بقولهم انها ليست معهم تعليمات من

(١) ان ما تقدم من التاريخ كاف ليوضح فساد الدعوى بمسكونية هذا المجمع الذي لم يبحث في عقيدة من عقائد الايمان ولا حكم على فوتيوس ببدعة وهرطقة ولا كانت اعماله مستقيمة ولا كان فيه نواب عن البطاركة ولا صدق البطاركة عليه. بل كل الكنيسة الشرقية سمته دائماً «جمعية غصبية ومخالفة الشريعة ومرذولة» وسمته المجمع الذي قام في روسيا سنة ١٦٥٥ باسم «جمعية غصبية» وقس عليهم كثيرين من الغربيين القديسين مثل ايونيوس وفولقان ومن البطاركة مثل مدافوسيوس ميخائيل الاول وكاليوس وغيرهم (ايباوشيا ٢٨ حاشية ٢).

البابا في هذا الموضوع وان الحكم النهائي في ذلك يجب ان يُترك للبابا نفسه. ولكنهم لم يخجلوا الان الشرقيين قرروا وجوب خضوعها لبطريرك العاصمة. حينئذٍ اخذ النواب المذكورون يشتمون القضاة الشرقيين جرياً على عوائدهم في المطف فقالوا لهم «ان السدة الرسولية لم تنتخب احداً منكم قاضياً في مصلحتها لانكم انتم خاضعون لها. وهي وحدها لها الحق في ان تقضي وتحكم للكنيسة كلها. ولاجل هذا نحن نترك لها الحكم النهائي. وما رأيكم فتحتقره السدة الرسولية بسهولة كثيرة توازي السهولة التي بها انتم تنطقون بحكمكم» (فوري ١٨:٥١). وهذا الجواب كان ختام المجمع البابوي ضد فوتيوس. على انه جواب لا يخلو من التناقض والمنقوض. لانها دامت سدة رومية وحدها حاكمة على الكنيسة فما الحاجة الى تكبُّد الثقلة في ارسال نواب عنها وعقد مجمع. بل مجامع في الشرق كل مدة؟ وما دامت تحتقر بسهولة كل قرار لا يوافقها بالها تكتب وتحمو وتعمل عما لا تليق ان توصف بها كنائس؟ غير ان قرار الشرقيين كان الفائز والجميع قبلوه. واذ وقف عليه ملك البلغار حمل الاسقف الغربي «غربوالدي» هدايا ثمينة وارسله هو وجميع الكهنة الرومانيين الذين في بلاده الى رومية وبقي كهنة الشرق المشرطنين من فوتيوس. ثم ان اغناتيوس ارسل اسقفاً ارثوذكسياً ولم يعترض على شرطونية احد من الذين اقامهم فوتيوس غير مكترث لتهديد البابا على قبولهم. هكذا لبثت العقائد الارثوذكسية في البلغار سائدة حتى يومنا هذا.

وكان نواب الغرب قد اعتنوا في ان تُكتب اعمال المجمع نسختين يمضي عليهما كليهما من الاعضاء بايديهم واخذوا من النسختين واحدة ليحفظوها في رومية. غير انهم ما هنأوا بهذا الظفر الذي نالوه. لان كثيرين من الاساقفة المتقلين الذين امضوا الصك والاعمال جاؤوا الى القيصر والى اغناتيوس

وكانوا يكونون ويتوحون على خيانتهم كنيسة القسطنطينية وامضائهم على إخضاعها للرومانية وطلبوا ان تؤخذ الاعمال من الثواب وخصوصاً الصك الوردي . فندم القيصر ايضاً على ما فعل وكلّف بعضاً من رجال بلاطهِ ان يسحبوا من مسكن الثواب الاوراق المطلوبة في غيابهم فسحبوها . ولكن الثواب عرفوا بالسرقة وطلبوا بواسطة سفرآء لويز الثاني ملك جرمانيا ارجاعها اليهم موكدين انهم بدونها لا يتجاسرون ان يدخلوا رومية . غير انهم بعد سفرهم من القسطنطينية بحراً طلع عليهم صقالبة قرصان (لصوص البحر) بقرب مدينة ديراشيون وسلبوا منهم كل ما كان معهم والاوراق من الجملة . فذهبوا الى رومية صفري اليدين . وبسبب هذه الحوادث تأخرت اخبار المجمع عن الوصول الى ادريانوس . فلما علم بها ارسل الى اغناتيوس يشكو ما جرى . ولكنهُ ما انتفع شيئاً . فكتب للقيصر ايضا يرجوهُ ان يلزم إغناتيوس ليستعفي عن بلغاريا وتهدد اغناتيوس بالحرم ويقطع الاساقفة المُرسَلين منهُ ان لم يتركها . وكذلك البابا يوحنا الثامن (او التاسع سنة ٨٧٢) كتب لميخائيل امير البلغار يطعن بالكرسي القسطنطيني ولكنهُ ما انتفع . وكتب ايضاً لاغناتيوس ثلاث مرات حرضهُ على احترام حقوق رومية ولكن اغناتيوس لم يجبهُ . اخيراً تهددهُ بانهُ ان لم يحضر اكليروسهُ في مدة ثلاثين يوماً بعد وصول التحرير اليهِ يحرمهُ الشركة بجسد ودم المسيح . وان اصرَّ بعد ذلك فيحرم وظيفتهُ البطريركية التي حصل عليها برحمة البابا (!!!) وارسل التحرير مع رسولين وهما بولس والجانيوس وهكذا انقلبت المسألة بين الكرسيين من البحث في قانونية شرطونية فوتيوس الى النزاع في ابرشية بلغاريا . ولكن اغناتيوس لم يعش ليقرأ هذه الرسالة لانهُ توفي قبل وصولها سنة ٨٧٨ . ولو عاش البطريرك اغناتيوس لحصل بينهُ وبين ادريانوس ويوحنا ما حصل بين

فوتيوس ونيقولاوس ولّما لهُ منهما ما نال فوتيوس من رومية . وهذا يبرهن ان اسباب الانشقاق لم يكُن توقيع اغناتيوس لباردا س ولا كبريآء فوتيوس بل مطامع البابوات في السلطة على كل الكنيسة هي التي شقّت ثوب المسيح الى اثنين كما قلنا في فاتحة الكلام .

---

٦ . اضطهاد فوتيوس ومصالحتهُ مع اغناتيوس

من بعد انحلال المجمع البابوي سحبوا فوتيوس ودفعوهُ الى يدي الاثمة . فساقوهُ الى الدير الذي كان فيهِ حيث هيّأوا لهُ كل نوع من العذاب والشقآء . ومن ثمَّ وُضع تحت محافظة فرقة من الجند تمنع عنهُ دخول كل قريب وصديق وتفحص كل يوم علاقاتهِ . وقد اعتراهُ مرَضٌ ثقيلٌ قاسى منهُ اوجاعاً شديدةً مدة ثلاثين يوماً متوالية ولم يسمحوا لهُ بطبيب يعالجهُ ولا بصديق يعزيهِ ولا بلوازم حالتهِ واحتياجاتهِ (رسالة ١٩٢) . ثم انهم لكي يزيدوا عذابهُ ألمّا عرّوهُ من الكتب بالكلية ومن الاوراق ولوازم الكتابة الاَّ نادراً لكتابة بعض رسائل ضرورية وقطعوهُ بهذه الواسطة عن كل علاقة مع العالم . ولا يخفى ان رجال العلم لا يصعب عليهم قصاص ولا شقآء بقدر ما يصعب عليهم حرمانهم سلوة المطالعة والكتابة . وقد اقام البطريرك فوتيوس على هذه الحال مدة ثلاث سنوات ونيف شاكا فيها احياناً لبعض اصدقائهِ وللقيصر ما كان يقاسيهِ من العذاب ننقل نحن منهُ بعض ما جآء في رسالتهِ (٢٨١) الى القيصر . قال :

« إسمع ايها الملك الجزيل الشفقة . اني لا اذكرك الآن بالصداقة القديمة ولا بالاقسام الرهيبة والعهود ولا بسحك وسيامتك منّا ملكاً ولا بانك كنت تتقدم وتتناول من ايدينا الاسرار الرهيبة الطاهرة ولا بالرباط الذي ربطنا بهِ تبنّيً

ابنك الصالح . كل ذلك لا اقوله بل اني اذكرك بحقوق البشر العمومية . فان جميع (الملوك) من الاعاجم واليونان متى حكموا على احدٍ بالموت يُعدموهُ الحياة ولكنهم لا يميتون الذين يتركونهم احياءً خنقاً بالجوع وبالعذابات الأخرى الكثيرة . اما نحن فاننا نعيش عيشةً امرَّ من الموت . فاننا قد أُمرنا وأُحرمنا كل شيء . أُحرمنا الاقارب والخدم والمعارف وكل نوعٍ من اللوازم البشرية . على ان بولس الالمي حين كان يطوف مقيَّداً لم يُحرَم من الساوى بالمعارف والاصدقاء . وحين كان مسحوباً الى الموت كان حاصلاً على موانسةٍ من طرف الامم المبغضين المسيح . على ان الزمان الطويل ربما عرف أُناساً لا من رؤساء كهنة الله بل من الاشقياء قاسوا مثل ذلك (يعني حرمان الاهل والاصحاب) غير ان حرماننا الكتب امرٌ جديدٌ وقصاصٌ غريبٌ وحديثٌ ما اخترع الآ ضدنا . ولماذا ذلك ؟ لكي لا نسمع ولا كلام الرب . فلا سمح الله ان تتمَّ في مدة ملكك هذه المحنة القائلة « ويكون في تلك الايام جوع خبزٍ وجوع لاستماع كلمة الرب » (عا ٨ : ١١) ولماذا أُخذت الكتب منا ؟ فاننا ان كنا ارتكبنا ظلماً فيجب ان تُعطى لنا كتبٌ اكثر مما عندنا ومعها معلمون لكي نقرأها ونتفع ونوبخ منهم ونرتدع . وان كنا لم نرتكب ظلماً فلماذا نُظلم ؟ فانهُ لم يقاسِ ارثوذكسيٌّ هذا العذاب ولا من طرف غرباء المذهب والهراطقة . فاثناسيوس الكثير الجهاد مرارًا كثيرةً طردهُ الهراطقة والامم من كرسيهِ ولكن ما من احدٍ حكم عليهِ باخذ كتبهِ . وافسطاثيوس العجيب قاسى النفي نفسهُ من الاريوسيين ولكنهُ لم يُحرَم كتبهُ مثلنا . وبولس المعترف ويوحنا الذهبي الفم وافلابيانوس الالمي وربواتٌ غيرهم . ثم يعدُّ كثيرين من الهراطقة ايضاً ويقول « ولكن ضدنا نحن فيا للمصيبة ! كل شيءٍ جديدٌ يفوق كل تشخيصٍ محزنٍ . فاني اسيرٌ

معرًّى من كل شيء . معرًّى من الاصدقاء . معرًّى من الاقرباء والخدام . معرًّى من المرتلين الموحدين . بل بدلاً من الاصدقاء . بدلاً من الرهبان . بدلاً من المرتلين . بدلاً من الجميع دُفعنا الى حراسة الجند . ثم انها قد هُدمت بيوت الله ونُقلت اجساد المساكين المشوَّهة ونُهبت امتعتهم كأنها غنائم عدوٍّ . ولماذا ذلك ؟ لكي نحزن نحن . نعم قد حزنَّا حزناً عظيماً . لان العناية بوثنك قد تكرست منا لهُ كفارةً عن خطايانا » ثم يوضح ان الشرائع فرضت على الاشرار عذاب الجسد لتعقل النفس وتطهر وبان حرمان الكتب وهدم الاعمال الخيرية قصاصٌ جديدٌ ضد كل شريعة لانهُ عذاب للنفس اذ يحرمها الاستنارة وكفارة الخطايا ثم يقول « فلاحظ ايها الملك هذه الاحوال في ذاتك . وان كانت ذمتك تبرئك أضف عليها اكثر . هو الآن ان كان شيءٌ بعد باقياً . وان كانت تلومك فلا تنتظر صدور الحكم عليك من هناك حين لا تنفع الندامة . وربما انا اطلب طلباً جديداً . ولكن الاحوال التي تجعلني اطلبهُ جديدةٌ ايضاً . فاوقف ايها الملك سوء معاملتنا على حدٍّ إما باخراجك ايانا من هذه الحياة عاجلاً . . . واما بمنعك الافراط في الإساءة . واذكر انك انت ايضا انسانٌ وان كنت ملكاً . اذكر انك لا تسود بشرةً واحدةً كالملوك والشعب ومشتركون في طبيعةٍ واحدة . اذكر ان لك سيداً واحداً وخالقاً وحاكماً واحداً . . . فلا تطلب منك كرسياً ولا مجداً ولا سعادةً ولا رفاهةً بل انما تطلب منك ما هو مسموحٌ للمحجوزين . ما لا يُحرَم الأسراء . ما يتحنن به البرابرة على المقيَّدين . . . فاذا تطلب ؟ تطلب إما ان نعيش عيشةً لا اكرهَ من الموت واما ان نُفتَق من هذا الجسد سريعاً . فرُقَّ نحو الطبيعة . احترم شرائع البشر العمومية . احترم الحقوق العامة الممنوحة من السلطة الرومية . ولا تسمح بان يُضاف في ترجمة حياتك خبرٌ جديدٌ بان ملكاً موصوفاً بالحلم والرأفة

بعد انهُ جعل رئيس كهنة صديقاً لهُ وشريكاً في بيتهِ ومن يديهِ مسحَ هو وملكتهُ مسحة المُلك ومنهُ لبس الوظيفة · وبعد انهُ كان منهُ محبوباً وعقد معهُ اقساماً وعهوداً رهيبة · وبعد انهُ كان يظهر للجميع انهُ يحبهُ حباً مفرطاً ويودهُ · بعد كل ذلك اسلمهُ الى المنفى والجوع المرّ واذايهُ بربواتٍ أُخرى من الاسواء وفيما هو يصلّي من اجلهِ دفعهُ الى الموت »

هذا بعض ما كتبهُ فوتيوس للقيصر معدّداً امصائبهُ ومحافظاً مع ذلك على الوقار والاكرام الواجب للملك بلانقص · وقد كتب ايضاً للاساقفة الذين حافظوا على مودتهِ محرضاً ايام على الصلاة من اجل الحكّام حفظاً لتعليم المسيح · واستشهد على براءتهِ بثبات الجميع على الامانة لهُ من صغيرٍ وكبيرٍ وبسطاء وعلماء واساقفة ومطارنة وعدم انفصال احدٍ عنهُ وهو في وسط تلك الاضطهادات العنيفة وتقلّب الاحوال حتى ان المؤرخ انمربي الاب فلوري يشهد بان جميع الاساقفة الذين امضوا المجمع ضدهُ لم يكن عددهم مائة اسقف في ان ثلاثمائة اسقف كانوا محافظين على مودة فوتيوس إمام المتنصرين لحقوق الكنيسة الارثوذكسية · (رسائل ١٤٠ و١٤١ و٧٤ و١٨٦)

اما القيصر باسيليوس فاذ رأى نفسهُ ثابتاً على كرسيهِ ولم يعد محتاجاً لا الى البابا ولا الى اغناتيوس واذ شبعت نفسهُ ايضاً من الانتقام اشعر بانهُ في حاجة الى معينٍ في ادارة مملكتهِ · فلم يرَ افضل من فوتيوس رجلاً قادراً على ازالة الخلاف الكنائسي والمدافعة عن حقوق الشرق والبحث في الشرائع الكنائسية والمدنية والعناية بتهذيب اولادهِ · فدعاهُ من منفاهُ واكرمهُ اكراماً عظيماً واقامهُ مستشاراً لهُ في ادارة المملكة والامور الكنائسية حتى ان قسطنطين البرفيري قال فيهِ « انهُ كان هو البطريرك اكثر مما كان اغناتيوس الجالس على كرسي

البطريركية » على ان اعداء فوتيوس لفّقوا اسباباً لاعادتهِ من منفاهُ لا تركب على قالب حقيقةٍ · فقال البَلاغوفي ان فوتيوس كتب بحروفٍ اسكندرية قديمة في كتاب مؤلفٍ من ورق عتيقٍ جداً شجرةً سلسل فيها من جنس تيريذات الملك الارمني العظيم (الذي كان سنة ٢٨٦) ملكاً اسمهُ بيقلاس ومعها نبوة بان هذا الملك يكون اعظم الملوك و بواسطة ثوفانيس الفلسطي ادخلها المكتبة الملوكية · ثم أطلع ثوفانيسُ الملكَ عليها وافادهُ انهُ ما من احدٍ يستطيع ان يكشف مكنوناتها و يفسرها غير فوتيوس · فدعا الملك فوتيوس ففسرها لهُ وافادهُ ان بيقلاس اسمٌ مؤلف من ستة حروفٍ وهي الباء في اسم باسيليوس والياء في اسم يفدوكيا زوجتهِ والقاف في اسم ابنها قسطنطين واللام في اسم الثاني لاون والالف في اسم الثالث الكسندرُس والسين في اسم الاصغر ستفانوس · وان الاسم بيقلاس المؤلف من الحروف الاولى في اسماء القيصر وعائلتهِ انما يشير الى القيصر باسيليوس الذي هو اعظم الملوك · وان القيصر مُرّ وصالحهُ بسبب هذا التفسير · وقد تبع البَلاغولي كثيرون غيرهُ في هذا التلفيق · وقال آخرون ان فوتيوس كانت لهُ صداقة مع الاسقف سنداوريتوس وان هذا الاسقف كان ساحراً فدار عقل القيصر فدعا فوتيوس من المنفى · وقس على هذه الخرافات امثالها مما تضيق عن تصديقهِ العقول الواسعة (١)

فلما رجع فوتيوس من منفاهُ (سنة ٨٧٣) ووقف اغناتيوس على حقيقة الحوادث وعرف براءتهُ اخذ يتقرب منهُ · ومن ثمَّ تلاقى البطريركان في البلاط فتقدما احدهما الى الآخر ووقعا كلٌّ منهما على اقدام الآخر وتصالحا تصالحاً اخوية وهكذا تصالحا · ومن بعد ذلك كان فوتيوس معيناً للبطريرك اغناتيوس

(١) انميلوشيا ٤٠ حاشية ٣ · رسائل صفحة ٦٧ · صخرة الشك راس ٢٢

يحترمه كأب له ويداري ويكرم شيخوخته . وكذلك اغناتيوس رفض المجمع البابوي ضد فوتيوس وكان هو نفسه يشرطن كهنة من العوام المستحقين الكهنوت حسب عادة الكنيسة الشرقية رغماً عن اعتراضات البابا .

ثم ان اغناتيوس اعتراه مرض وهو شيخ مملوء من الايام فاشعر بقرب نهاية اجله فدعا فوتيوس اليه وكان يتعزى بمشاهدته وكان فوتيوس يزوره كل ما سمحت له الفرصة ويعتني به ويسليه بالكلام ويوكد له محبته بالعمل حتى ان اغناتيوس حين وفاته اقامه وصياً على اخصائه . وقد حدث فوتيوس نفسه تاريخ المصالحة معه وتاريخ وفاته في المجمع الثامن (جلسة ٢) اما قول الاعداء بان فوتيوس قتل اغناتيوس فهو من جملة التلفيقات لانهم يقولون ذلك وهم انفسهم يشهدون بان اغناتيوس طلب في آخر حياته الى الله ان ينقله فسمعت طلبته . وقد مات شيخاً مملوءاً من الايام والكنيسة تعيد له في الشرق وفي الغرب مكرمة فضيلته وان كان حين انتقاله على خطر من جهة الغرب بسبب عدم تركه ابرشية البلغار (رسائل صفحة ٦٦) .

---

٧ رجوع فوتيوس وعقد المجمع الكبير المعروف بالمسكوني الثامن

من بعد انتقال القديس اغناتيوس (في ٢٣ تشرين الاول سنة ٨٧٨) اجتمع شجمع رؤساء الكهنة وقرروا رجوع البطريرك فوتيوس الى كرسيه (١) ومن ثم ارسل القيصر بعض مكاتيبه وطلب رأيه سراً فابى فوتيوس القبول . فارسل ثانية

(١) كدرينوس جزء ٢ صفحة ٥٧٢ و رسائل ٧٢ و ١٠٤ المطبوع .

بعضاً من الاشراف واكد عليه وجوب قبوله بزوال كل محذور فابى . فارسل مرة ثالثة قائلاً له ان مصنف الاساقفة بطلبك والكراسي كلها متفقة عليك فاصعد الى كرسيك وارع رعيتك التي ائتمنك عليها المسيح من فوق فابى . اخيراً حضر اليه القيصر بالذات واقنعه بالرجوع (١) وفي ٢٦ تشرين الاول من السنة عينها جلس البطريرك فوتيوس على كرسيه واخذ يسعى في تأييد السلام قبل كل شيء . ثم انه تحصيناً للتعليم القويم ضد البدعة الجديدة بدعة الانبثاق اقنع القيصر ان يجمع مجمعاً كبيراً . واذ راى القيصر الضرورة لعقد المجمع ارسل التحاريز الى الجهات اللازمة وارسل ثاودورس سانداوارينوس اسقف اوخايتا المتهم بالسحر وغيره سفراء الى البابا يوحنا وافاده ارتقاء فوتيوس كرسي البطريركية وطلب منه نواباً في المجمع المزمع عقده . وكان البابا يوحنا وقتئذ تحت ظروف شديدة من تسلطي الشعوب الشرقية على ابرشيته ومحتاجاً الى مساعدة قيصر شديد البأس مثل باسيليوس المكدوني لاجل ردعهم ولاجل حل مسألة البلغار حلاً يرضيه . فاملاً بحصوله على كل ذلك رضخ لتحرير القيصر ووافق على رجوع فوتيوس الى منصبه والغى المجامع السابقة التي عقدت ضده من نيقولاوس وادريانوس وطلب لقاء ذلك ان لا يتداخل بعد الآن فوتيوس في ابرشية البلغار . ثم انه كتب لفوتيوس ايضاً رسالة على هذا المضمون وارسل له بدلة كنائسية وارسل الرسائل والهدايا مع قس اسمه بطرس ليكون هو والمعتمدان الآخران بولس واتجانيوس اللذان في القسطنطينية (صفحة ٤٨٠) نواباً عنه في المجمع وارسل معه الكومونيطور يوم الرسمي (كتاب التعليمات) واوصى نوابه ان يحرموا كل من لا يقبل الشركة معهم ومع فوتيوس وان يرجوا فوتيوس امام المجمع ان لا يتداخل

(١) مجمع ٨ جلسة ٢

البتة في ابرشية البلغار ولا يشرطن احداً فيها . وهذا القرار كتبهُ البابا وامضى عليهِ مجمعٌ مؤلفٌ من ١٧ اسقفاً في رومية .

فلما وصل بطرس الى القسطنطينية ووصل ايضاً نواب بطاركة الشرق وروسا الكهنة المطلوبون التأم المجمع في شهر تشرين الثاني سنة ٨٧٩ في كنيسة « اجيا صوفيا » مؤلفاً من ٣٨٣ رئيس كهنة خاضعين لفوتيوس ما عدا نواب رومية نواب وبطاركة الشرق وكان رئيسهُ البطريرك فوتيوس . ففي الجلسة الاولى بعد مبادلات السلام بين البطريرك والنواب قام زخريا مطران خلكيدون (الذي اخرجوهُ من المجمع البابوي كما رأينا في صفحة ٤٧٥) وقرأ خطاباً افتتاحياً اوضح فيهِ ان السبب الاصلي للاضطراب الكنائسي ومصائب فوتيوس انما كان حسد اضداده اياهُ على معارفهِ ومكانة علمهِ وحكمتهِ . ثم انهُ وجّه خطابهُ الى نواب رومية وقال لهم « ان المجمع قد عُقد من اجلكم ومن اجل كنيسة رومية ومن اجل شرفكم لكي لا يطعن عليكم المشاقون بانكم روسا القلاقل والاضطراب . ولم يتعقد من اجل اصلاح كنيسة القسطنطينية التي ليست محتاجةً الى اصلاح البتة بل حافظت على المسالمة مع بطريركها » فامن المجمع لكلامهِ قائلاً « ان بعضاً منا كانوا منذ البدء متحدين معهُ ولم نبتعد عنهُ البتة بل كنا مستعدين ان نقدم دماءنا برغبةٍ للذين كانوا يريدون ان يطلبوا سفكها من اجلهِ . واما الذين انفصلوا عنهُ في اثناء ثورةٍ فقد ندموا على رأيهم السيئ وعلمهم وهم يعرفونهُ الآن من كل نفسهم وقلبهم بعزمٍ ثابتٍ رئيس كهنةٍ وسيداً وراعياً . ونعتبر الذين يرتابون في ذلك اعداء الكنيسة ومستحقين الطرد منها » ففا سمع النواب هذه الاقوال ورأوا انفسهم في رتبة مدّعى عليهم بدلاً من رتبة القضاة التي كانوا ينتظرونها سمتوا وقتاً . ثم قام بطرس احدهم وقال « ان البابا يوحنا ايضاً هو

شريك لفوتيوس في الرأي ولهذا السبب ارسل لهُ بدلة رئاسة الكهنوت » ثم ختمت الجلسة بالدعاء للبطاركة فوتيوس ويوحنا بتقديم اسم فوتيوس على اسم البابا في كل الجلسات الامر الذي كان مستحيلاً لو كان للبابا سلطانٌ على الكنيسة بحقّ الهي كما يدّعي الغربيون .

وفي الجلسة الثانية (١٣ تشرين الثاني) قُرئت رسائل البابا الى القيصر والى فوتيوس . وهذه الرسائل هي الآن في اللاتينية مغايرةً لترجمتها اليونانية في بعض فصولها اذ توجد بعض عبارات في اليونانية ليست في اللاتينية . فبعضهم يقول ان الشرقيين تصرفوا في مواضيعها وغيّروا فيها وهو قول غير صحيح لان العبارات المغيّرة ليست ذات اهمية اكثر من عباراتٍ أُخرى ما زالت باقيةً فيها تمثل فوتيوس والكنيسة الشرقية معاً . فلو كان الشرقيون تصرفوا فيها لما ابقوا تلك العبارات على حالها . وبعضٌ يقول ان نواب البابا تصرفوا في الرسالة حين ترجمتها او ان المترجم باشارتهم تصرف نظراً لما رأوهُ من الاحوال في الشرق وهذا الرأي هو الارجح ان فرضت مغايرة النسختين قديمةً لا حديثة . ومما يؤكد صحة ذلك عدم اعتراض النواب على الرسائل حين سمعوها باليونانية . وهذا البرهان يؤيد الحقيقة الآتية وهي : ان الترجمة اليونانية هي الصحيحة والاصل اللاتيني لم يبقَ على حاله بل غيّرهُ الغربيون بعد انهم رأوا ان مقاصدهم ما نجحت في استخلاص البلغار . وقد رأينا لهم مثل هذه السوابق في ما تقدّم . فمن بعد قراءة الرسائل سأل النائب بطرس : هل يقبل المجمع فحواها ؟ فاجاب المجمع : انهُ يقبل كلَّ ما قيل بخصوص البطريرك والسلام الكنائسي . واما ما يخصُّ القيصر وولايتهِ فممنوعٌ لارادتهِ . فقال بطرس : انهُ مكتوبٌ في كتاب التعليمات ان لا يُرسل الشرق بعد الآن اوسقوريون الى بلاد البلغار . فذكّرهم البطريرك فوتيوس

بما كتبهُ للبابا نيقولاوس (صفحة ٤٢٧) وقال انهُ بعد رجوعهِ الى الكرسي ما شرطن لها احداً بعد. ثم قال بروكونيوس اسقف قبصرية: اننا نؤمل برحمة الله ودعاءِ سيدنا ورئيس كهنتنا ان تخضع الامم كلها لملوكنا القائمين من الله وحينئذٍ يعملون هم حدوداً ويعيّنون لكل واحدٍ ابرشيتهِ كما يلهمهم الله. فامَّن المجمع لكلامهِ وقالوا جميعهم ان هذه المسألة ليست مسألة روحية بل هي مسألة مدنية ولهم ما اجتمعوا ليوزعوا ابرشيات * ثم ان النواب طرحوا مسألة اخرى وقالوا: كيف رُقّي فوتيوس الى الكرسي قبل وصولهم؟ فاجابهم الاساقفة ان هذا جرى بناءً على اتفاقٍ عامٍّ من جميع الاساقفة ورضي بهِ بطاركة الشرق كلهم واوضحوا ان اعمال فوتيوس السابقة كانت كلها قانونية. وحينئذٍ اخذ فوتيوس وسرد بالاختصار تاريخ بطريركيتهِ مختتماً كلامهُ بقولهِ «اني لم اشتهِ هذا الكرسي مطلقاً» وبعد ذلك اوضح انتخابهُ من الاساقفة والكهنة وغصب الحكام اياهُ على قبول المنصب ثم عزلهُ واحتيالهُ بنكبِ كل مصائبهِ. ثم اعادتهُ الى البلاط بلا توسيط احدٍ ومصالحتهُ مع اغناتيوس وزيارتهِ اياهُ واقامتهُ منهُ وصياً واجبار الملك اياهُ على قبول صوت الكنيسة بالرجوع الى الكرسي بعد وفاة اغناتيوس على ما تقدم صفحة ٤٨٦. فقال جميع الاساقفة «نعم هذا كلهُ جرى تماماً» ثم قُرئت رسائل البطاركة الشرقيين الى فوتيوس. وكان من جملة ما ورد في رسالة البطريرك الاسكندري حرمٌ على يوسف وايليا اللذين حضرا في المجمع السابق البابوي بصفة نائبين عنهُ وعن بطريرك اورشليم واوضح ان توما مطران صور الذي حضر بصفة معتمدٍ من كرسي انطاكية قد ندم وطلب الصفح. ومثلهُ البطريركان الآخران اذ قالوا انهم لم يقطعوا الشركة مع فوتيوس مطلقاً. وقد ختم الاسكندري رسالتهُ بقولهِ «ان كلَّ من لا يقبلك بطريركاً مشرطناً بمسرة الله ليكن اناثيما».

وفي الجلسة الثالثة (١٩ تشرين الثاني) قُرئت رسالة البابا يوحنا الى اساقفة الشرق على معنى رسالتهِ السابقة. ثم جرى التحقيق في امر نواب البطاركة الشرقيين الذين حضروا مجمع سنة ٨٦٩ البابوي ضد فوتيوس واتضح انهم كانوا سفراء من طرف امير العرب. حينئذٍ قال فوتيوس «الله يجعل ما جرى في ذلك الوقت نسياً منسياً». فنظر نواب البابا الى المجمع وقالوا «ان كنيسة القسطنطينية لم تنل في احضانها من عهدٍ طويلٍ رجلاً مثل هذا». ثم أُلغيَ المجمع المذكور ورُفض.

وفي الجلسة الرابعة (٢٤ كانون الاول) قُرئت تحاريرٌ جديدة من بطريركي انطاكية واورشليم للبطريرك فوتيوس. ثم طرح نواب البابا خمسة مسائل. اولها مسألة بلغاريا فرفضها المجمع. والثانية عدم جواز الشرطونية من درجة العوام فرفضها المجمع. والثالثة وجوب انتخاب بطريرك القسطنطينية من رومية فرفضها المجمع وقرر وجوب انتخابهِ من كنيستهِ. والرابعة في الغاء مجمع ادريانوس ومجمع سنة ٨٦٩ ضد فوتيوس فقبلها المجمع ومدح البابا يوحنا عليها. والخامسة في رفض جميع المشوشين للسلام فقبلها ايضاً. ثم بطلب النواب وتصديق المجمع كلهِ قُرِّر ان يخدم الاساقفة جميعهم القداس الالهي في عيد الميلاد الشريف مع البطريرك فوتيوس وهكذا في اليوم الثاني قدم فوتيوس الذبيحة النطقة الغير الدموية ومعهُ نواب الكنيسة المسيحية المسكونية كلها في اليوم الذي فيهِ شُرطن بعد ٢٢ سنة من شرطونيتهِ.

وفي ٢٦ كانون الثاني سنة ٨٨٠ عُقدت الجلسة الخامسة وحُرِّر فيها متروفانيس مطران ازمير (احد الكتّاب الذين يستند عليهم الغربيون). وبطلب البطريرك فوتيوس أُثبت المجمع النيقاوي الثاني ضد محاربي الايقونات مجمعاً

مسكونياً سابعاً . ثم سنّت الاثنة قوانين اولها واهمها يقول « ان الاكليرُسيين او العوام او الاساقفة الايطاليين (المقيمين في امبا او اوربا او الفريقيا) الذين هم تحت رياطٍ او قطعٍ او حرمٍ من البابا يوحنا يكونون عند فوتيوس ايضاً تحت القانون عينهِ . وكذلك الاكليرُسيون والعوام والذين من طغمة رئاسة الكهنوت في اية ابرشية كانت متى كانوا تحت حرمٍ او قطعٍ او فرزٍ (اناثيما) من فوتيوس يكونون عند البابا يوحنا وكجميعهِ تحت طائلة القانون عينهِ وان التقدُّم الذي للكنيسة الرومانية يبقى على حالهِ بلا احداثٍ ولا تغييرٍ لا الآن ولا في المستقبل » .

اما الجلسة السادسة (٣ اذار سنة ٨٨٠) فعُقدَت في البلاط وحضرها القيصر واولاده لاون واسكندر . فافتتح القيصر المذاكرات بقولهِ ما ملخَّصهُ : انهُ كان من الواجب ان يحضر كل جلسات هذا المجمع المسكوني المقدس ولكن لكي لا يشتبه احدٌ في حريّة الاساقفة ولا تكون لاحدٍ حجةٌ عليهم في انهم عملوا عملاً ضد ارادتهم عن غصبٍ او عن خجلٍ ترك المجمع يقرر قرارتهِ بانهام الله واجلّ التصديق عليها . ثم نصحهم ان يكتبوا دستور ايمانٍ عامٍ وان لا يكون مغايراً لدستور الايمان المعروف بالنيقاوي » فاجابهُ باسيليوس اسقف مرتيروبوليس نائب بطريرك انطاكية « ان دستور الايمان في كل المسكونة هو هو لا يتغير والمجمع الحاضر يصدّق عليهِ » . فأمَّن المجمع لقولهِ . ثم قال نوّاب رومية « انهُ يجب ان لا يُسنَّ قانونٌ جديد بل ان يُصدَّق على دستور الايمان القديم النيقاوي عينهِ » . فامر ليطريرك فوتيوس الشماس بطرس رئيس الكتّاب ان يقرأ اعتراف الايمان . فوقف وقال ما ملخَّصهُ « اننا نحافظ على تعاليم المسيح واوامر الرسل وشرائع المجامع السبعة المسكونية وتعاليمهم كما تسلمناها ونرفض ما رفضوهُ ونقبل ما قبلوهُ . وعليهِ نقبل بالقلب واللسان دستور الايمان الوصل الينا منهم منذ القديم ونقرأهُ في كل مكانٍ علناً ولا نحذف منهُ ولا نزيد عليهِ ولا نبدل فيهِ ولا نزيفهُ . لان

هذه كلها من اعمال المحال الخبيث . فالمجمع المقدس المسكوني الحاضر يعانق بالشوق الالهيّ وباستقامة الذهن دستور الايمان القديم ويوقرهُ وعليهِ يؤسس ويبني حقيقة الخلاص ويهتف للجميع ان يرتّلوا ويعلّموا هكذا :

« اومن بالهٍ واحدٍ آبٍ ضابط الكل خالق السماء والارض كل ما يُرى وما لا يُرى . وربٍّ واحدٍ يسوع المسيح (الخ) . . . وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب المسجود لهُ والممجد مع الآب والابن الناطق بالانبياء . . . (الخ) — فهكذا نعتقد وعلى هذا الاعتراف تعمّدنا وبهِ طُهّرت كل هرطقة » واما الذين يغيرونهُ او يبدلونهُ او يمسّونهُ بكلماتٍ غريبة او بزيادةٍ او بنقصٍ فبحسب حكم المجامع السابقة المسكونية ان كانوا من الاكليرُس فليُقطعوا قطعاً نهائياً وان كانوا من العوام فليُحرَموا بالاناثيما » — ومن بعد قراءة هذا الاعتراف قال الاساقفة : « جميعنا هكذا نعتقد وعلى هذا الاعتراف تعمّدنا وأهّلنا لدرجة الكهنوت فالذين يعتقدون اعتقاداتٍ مغايرةً لهُ نعتبرهم اعداء الله والحقيقة . والذي يضيف عليهِ او ينقص منهُ مرفوضٌ وغريبٌ عن التعليم المسيحي . لانهُ يجعل الايمان بالثالوث الاقدس ناقصاً . والذين يتجاسرون ان يسنّوا غيرهُ او ان يزيدوا فيهِ او ينقصوا منهُ محرومون بالاناثيما » . ثم قال ايليا نائب البطريرك الاورشليمي وفزما نائب البطريرك الاسكندري « محرومون الذين يعتقدون اعتقاداً مغايراً لهُ . محرومون الذين لا يعترفون بانهُ هو الدستور العام » . وبعد ذلك امضى القيصر واولاده يدهم اعتراف الايمان المدوَّن .

وفي ١٣ اذار عُقدَت جلسةٌ سابعة في كنيسة « اجيا صوفيا » واعيدت قراءة اعتراف الايمان وصُدّق على اعمال الجلسة السادسة والجميع امضوا عليهِ . وكانوا يحرمون كل من يتجاسر ان يزيف دستور الايمان بزيادةٍ او بنقص . وفي

نهاية المجمع قال نواب البابا بصوت جهير « كلُّ من لا يقبل فوتيوس بطريركاً قديساً ولا يشترك معه ليكن حظّه مع يهوذا الاسخريوطي ولا يحسب مع المسيحيين » فقال المجمع كلّه « ان من لا يعرفه رئيس كهنة الله فلا ينظر مجد الله » . وهكذا أُغلق المجمع بالدعاء للملوك ولفوتيوس وليوحنا .

فالذي يطلع على هذه الاعمال الممضية من الكنيسة الشرقية والغربية معاً ويسمع دستور الايمان الآن عند الغربيين على غير اصله ويسمع مطاعنهم على البطريرك فوتيوس أفلا يستغرب انقلابهم من المدح الى الذم وقبولهم على انفسهم حكماً صدر من ايديهم تحت لعن وقطع وحرم وابسال ؟ ما دعوى بعضهم بعدم صحة ما نقلهُ التاريخ عن هذا المجمع وبعضهم بعدم صحة انعقاده اصلاً وبعضهم بان قراراته كانت بلا قبول النواب وبعضهم بان النواب قبلوا ولكن ارتشوا بلا معرفة البابا وبعضهم بان البابا عرف وقبل ولكن عن خوف وبعضهم بانهُ قبل ضد ارادته لكي يرضي الروم ليرفعوا يدهم عن صقليه والبلغار فقد محتها قوة التاريخ والحقيقة[1] . وكفى بنا شاهداً عدم اتفاقهم على وجه الدعوى . على ان البابا يوحنا نفسهُ قد ذكر المجمع في رسالتيه ٢٥٠ و٢٥١ سنة ٨٨٠[2] . وفوتيوس ذكرهُ في الرسالة ٥ الى رئيس اساقفة اكيليتيا سنة ٨٨٣ وفي غيرها . وزوناراس وبلصامون وار يستينوس (في شرح القوانين جزء ٢ صفحة ٢٠٦) والبطريرك يوحنا بيكوس اللاتيني الرّي . ونيلوس مطران رودس وغيرهم . وكذلك يوسف بريانيوس في القرن الخامس عشر يشهد بان اعمال هذا المجمع كانت في ايامهِ موجودة في البطريركية وفيها امضاءات نواب رومية بايديهم[3] * ومن الوقوف على ما جرى

(١) نقد الهدي ٧٦ — ٨١ وجزء ٢ : ٢١٢ و٢٢٧ — ٢٣٦ (٢) تحفة الملك راس ٣٥

(٣) امفيلوشيا ٤٥ طباعة ا حيث يستشهد بالغربيين ايضاً . .

في هذا المجمع وبحثهِ في عقائد الايمان ولتثبيتهِ المجامع السابقة واجتماعهِ من عدد لسافقة غفير ووجود نواب فيهِ عن جميع البطاركة مرسلين منهم بتحاريرهم رسمية كعادة المجامع المسكونية السبعة السابقة يتضح انهُ هو المجمع المسكوني الثامن لا ذاك الذي انعقد من ١٨ عضواً في اول جلساتهِ بلا نواب ولا موضوع مهمّ للبحث ولا لتثبيت اعتراف الايمان كما رأيتَ (صفحة ٤٧٧)[1] .

اما البابا يوحنا فوقع بين محذورين إما ان يرضى باقرار رومية رضى القيصر في ظروفهِ الضيقة . وإما ان يصرّ على مطالبهِ ويخسر مساعدة القيصر . واذ فهم ان المجمع لم يقرر ما كان يرغبهُ وكان القيصر ارسل اليهِ سفناً لمساعدتهِ تستّر بتجاهل ما كان في المجمع وكتب للقيصر يشكرهُ على ارسالهِ المدد ويسميهِ محسناً وعلى كونهِ لم يحرمهُ بلغاريا (كذا) ويقول انهُ يسلم على كلّ ما جرى وقرّر في المجمع ما لم يكن نوابهُ قد خالفوا وصاياهُ في امر فانهُ يرفضهُ * ولما وصل النواب الى رومية ووقف منهم على اعمال المجمع ورأى انهُ لم ينلهُ من بلغاريا اكثر مما نالهُ من دعواهُ بالسلطة غضب وارسل مارينوس (سفير سلفهِ ادريانوس في مجمع سنة ٨٦٩) سفيراً الى القسطنطينية ليقنع القيصر والبطريرك على تغيير القرار . قال بعضٌ وصعد هو على الآمبُن وفي يدهِ الانجيل ونادى « كلُّ من لا يعتبر فوتيوس المقرور بحكم الهيّ كما تركهُ البابا وان نيقولاوس وادريانوس القديسان ليكن آثاثياء * اما مارينوس فلما رأى ان القيصر والاساقفة لم يقبلوا حرفاً ضدّ ما قُرّر اخذ يتطاول في الكلام ويؤيد مجمع سنة ٨٦٩ الذي القاهُ البابا يوحنا نفسهُ (صفحة ٤٨٧) الى ان غضب القيصر والقاهُ ثلاثين يوماً في السجن ثم حرّرهُ وارسلهُ الى رومية كما جاء منها * على ان هذه الرواية مختلفٌ

(١) تاريخ ملانيوس ٩ : ١٧ . وذوسيثاوس ٧ : ١٤ وطوموس ها راس ١٢٤

في صحتها . لان رواية أُخرى تفيد ان يوحنا ارسل كتابهُ الى القيصر لا قبل رجوع السفراء بل بعدهُ مع السفير مريتوس نفسهِ ولم يبدِ حركةً ضد القيصر او فوتيوس الى كتب للقيصر يطلب بلغاريا ويتهددهُ بانهُ يرجع الى عمل سلفهِ ان لم يبلها وكتب فوتيوس يدافع عن كنيسة رومية بانها لا تعتقد بالانبثاق من الابن ويعد بانهُ يسعى في رجوع الذين ضلُّوا هذا الضلال . وهاك بعض ما في الرسالة وهي مُدرجة في آخر اعمال المجمع الثامن المذكور . قال :

«انا لا نجهل ان بعضاً من غير رجال السلام الذين عندكم من دون ان ينظروا الى الحقيقة يطعنون بكنيستنا . . . ولذا قبل ان توضح لي أُخوَّتك شيئاً من كل ذلك اسبق انا واقيدك عنهُ . . . فان أُخوَّتك تعلم انهُ لما جاء من عهدٍ قريب رسولها اخبرنا في دستور الايمان المقدَّس ووجدنا محافظين عليهِ غير مجروح كما سلَّم اليك منذ اليك من دون ان نزيد عليهِ او ننقص منهُ لعلمنا ان الذين يتجاسرون على مثل ذلك ينتظرهم عقابٌ شديد * فنكرر الايضاح لوقارك عن هذا البند الذي قام الخصام عليهِ بين كنائس الله نعلم انا نحن فضلاً عن كوننا لا نقول ذلك (يعني «المنبثق من الآب والابن») نحكم بان الذين تجاسروا من الاصل ان يعملوهُ هم مخالفون للوصايا الالهية ومغيرون للاقوال اللاهوتية اقوال السيد المسيح والرسل وسائر الآباء الذين التأموا مجمعاً وسنوا الدستور المقدس . ونحسبهم مع يهوذا لانهم ارتكبوا ارتكابهُ لا بأنهم دفعوا جسد الرب للموت بل بانهم شقُّوا وفصلوا المؤمنين اعضاء جسدهِ بعضهم عن بعض ودفعوهم بذلك للموت الابدي او بالحري خنقوا انفسهم كما فعل التلميذ الملتوي المذكور» . ثم يوضح صعوبة سرعة ارجاع بعض الاساقفة عن غيهم الذين لحقوا واضافوا الزيادة وانهُ سيسعى في ارجاعهم رويداً رويداً لا جبراً بل بالحلم والرأفة . ويوضح ان

الطعن عليهِ في هذا الباب كذبٌ . وان الذين يبرّئونهُ من هذه البدعة ويتهمون بها غيرهُ في الغرب يصدقون . واخيراً يطلب المحافظة على الشركة والتعاضد على قلع البدعة .

فالغربيون يصعب عليهم الاعتراف بهذه الرسالة وهذه الرواية ولكنهم على كلا الروايتين خاسرون . لان حرم يوحنا لفوتيوس بسبب ابرشيةٍ امرها منوطٌ بالسلطة المدنية لا بفوتيوس بعد اعترافهِ بقانونية فوتيوس وافعالهِ اعمال نيقولاوس وادريانوس بحقهِ خسارةٌ على الغرب اعظم من الخسارة الظاهرة في الرواية الثانية . وقد رأينا في تاريخ جميع البابوات تقريباً ان من عوائدهم عندما يطلبون شيئاً ولا يحصلون عليهِ اما ان ينوحوا ويشكوا كالاطفال (حين ضعفهم) او ان يحكموا ويحرموا كالرجال (حين قوتهم) . بحقٍّ كان او بلاحقٍّ كيفما اتفق (صفحة ٤٧٧) . على ان الرواية الثانية تُرجَّح على الأُولى ببرهانٍ ثابتٍ وهو دعوى رجال الغرب على يوحنا بالمينونة والتساهل في معاملة فوتيوس حتى سموهُ أُنثويَّ الطبع وادعى المتأخرون منهم ان تاريخ البابا حنه اصلهُ من تسمية هذا البابا حنا بالأُنثى للسبب المذكور (صفحة ٣٥٨) . فلو كانت الرواية الاولى صادقةً بان يوحنا حرم فوتيوس كيف جازت الدعوى عليهِ بالرخاوة ومسايرة فوتيوس ؟ او كيف ينطبق القول بمسايرتهِ لهُ على القول بانهُ حرَّمهُ ؟ هذا وان فوتيوس في رسالتهِ الى رئيس اساقفة اكيليئيا سنة ٨٨٣ يشهد ليوحنا انهُ رجلٌ ارثوذكسيٌّ ويمدحهُ . ويوحنا نفسهُ في رسالتهِ الى امير المورابيين يدافع عن اسقفهِ مثوذيوس المتهم بتزييف دستور الايمان بالزيادة موكداً انهُ استحضرهُ وفحصهُ ووجدهُ يقرأ الدستور على اصلهِ . فلو كان يوحنا حارماً فوتيوس وراضياً عن بدعة الانبثاق كيف سماهُ فوتيوس ارثوذكسياً وسعيد الذكر وكيف نفسر

عملهُ بمحصه الاسقف منوذيوس والشهادة لهُ باستقامة الرأي بناءً على رفضهِ الزيادة في الدستور (١) . فالصحيح إذن ان يوحنا بعد وقوفهِ على اعمال المجمع من النواب ارسل السفير مارينوس ومعهُ رسالةٌ الى القيصر واخرى الى فوتيوس وطلب الحصول على بلغاريا بالتي هي احسن كما نوى على ارجاع بعض الغربيين عن الزيادة في الدستور بالتي هي احسن * واما السفير فلم ينلهُ شيءٌ بل كان من امرهِ ما كان ورجع الى رومية خائباً .

ثم ان يوحنا توفي سنة ٨٨٢ وخلفهُ مارينوس (او مرتينوس الثاني) السفير المذكور . واذ كان حانقاً على الشرقيين بسبب الاهانة التي نالتهُ في القسطنطينية جزاءً فظاظتهِ وانتصارهِ لمجمعٍ ملغًى حرم فوتيوس . وبعد سنتين مات وخلفهُ البابا ادريانوس الثالث سنة ٨٨٤ واقتفى اثرهُ فكتب لهُ القيصر رسالةً مرةً وقويةً تهكَّم فيها على التشامخ البابوي وسخر بهِ . ولكن وفاتهُ سبقت وصول الرسالة اليهِ فاخذها خلفهُ استفانوس الخامس وجاوبهُ بطاعنا على فوتيوس ورافضاً المجمع الثامن

٨ . عزل فوتيوس ووفاتهُ

اما فوتيوس فمن بعد تحصينهِ استقامة الرأي بواسطة المجمع اخذ يسعى في محو البدعة حيث وجدت . واذ كانت تلك العقيدة آخذةً تمتد في الغرب كتب لجملة اساقفة ضدها وخصوصاً كتب رسالةً الى رئيس اساقفة اكيليا تنقض كل سفسطات اللاتين وهي طويلة يضيق عن اثباتها المقام حاويةٌ من ميتكرات المعاني وقوة البراهين ما ليس عليهِ من مزيد . وكان مواظباً على تعليم شعبهِ

(١) رسالة فوتيوس ٥ طبع ڤينا . وتندالمدي صفحة ٨٢

وامتداد الايمان وتأليف الكتب وجمع الشرائع المدنية والكنائسية كما تشهد مؤلفاتهُ العديدة الواصلة الينا . ومهتماً ايضاً في بناء الكنائس والاديرة ومن جملتها ديرٌ جميلٌ على قمة جبل في جزيرة خالكي بجوار القسطنطينية على اسم الثالوث الاقدس وهو الآن مدرسةٌ لاهوتيةٌ فيهِ تعلمنا نحن ما فتح الله من العلوم .

وفي هذه الاثناء وُشي للقيصر باسيليوس بابنهِ لاون انهُ ثار على قتلهِ فسجنهُ وعزم على قلع عينيهِ . ولكن البطريرك فوتيوس توسط امرهُ وبمساعدة رجال المجلس خلَّصهُ من الخطر . وفي شهر آب سنة ٨٨٦ مات القيصر باسيليوس وخلفهُ ابنهُ لاون المنعوت بالحكيم لكثرة اجتهادهِ بالعلوم . وكان لاون تلميذ البطريرك فوتيوس وابناً وضيعاً لهُ . فاعدَّ فوتيوس دسوتَ الوساوس للقيصر الجديد واقنعوهُ ان الوشي بحقهِ لابيهِ كان ثاوذورُس سنداوارينوس اسقف اوخايتا الذي كانوا يسمونهُ بالساحر لانهُ كان صديق فوتيوس . واشركوا معهُ بالتهمة فوتيوس نفسهُ . فلاون اما لانهُ صدَّق الوشاية او لانهُ رغب عزل فوتيوس ليرقّي اخاهُ كرسي البطريركية مستترًا بالعلة المذكورة او تلامرين معاً عزل فوتيوس ونفاهُ الى دير الارمونيين في اواخر سنة ٨٨٦ وحبس ثاوذورُس وجلدهُ ورقّى اخاهُ السينكلس استفانوس كرسي البطريركية وكتب للبابا ان فوتيوس قد احبَّ العزلة والانفراد فقدَّم استعفاءهُ وترك الكرسي وطلب منهُ ان يقبل الذين شرطتهم فوتيوس (لان اخاهُ البطريرك الجديد كان مشرطناً منهُ) . ثم ان اعداء فوتيوس ايضاً كتبوا للبابا وطعنوا عليهِ اشد المطاعن . منهم سقيلينوس اسقف قيصرية الجديدة . فلما قرأ البابا رسائل الطرفين لم يبد رأياً بل طلب ما طلبهُ نيقولاوس قبلاً اعني ان يحضر الفريقان امامهُ اما واساً او بالوكالة وبتجاكما . ولكنهُ لم يُسمع . بل عقد لاون مجلساً ودعا فوتيوس وثاوذورُس وحاكمهما . وعند المحاكمة اخرجت

اجوبتها كل مطاعن اعدائها وخصوصاً اجوبة فوتيوس الذي كان هو سبب خلاص لاون . غير ان غرض لاون لم يدعهُ يتبصر فغضب غضباً شديداً على اعداء فوتيوس لانهم ما استطاعوا ان يثبتوا عليهِ شيئاً وقلع عيني سَند واربنوس المشبوه ونفاهُ الى اثينا وارجع فوتيوس الى الدير على ان سورة غيظهِ بعد ذلك خمدت فارجع سَنداواربنوس الاعمى وعيَّن لهُ معاشاً وكان يكرمهُ ويداريهِ . واما فوتيوس فبقي في ديرهِ ملازماً الصلاة والمطالعات ومتعبداً لله بعقلٍ خالٍ من الهموم العالمية الى نهاية حياتهِ بعد ان ساس الكنيسة اول مرةٍ تسع سنين وثاني مرةٍ ثماني بكل غيرةٍ ونشاط . وفي سادس شهر شباط سنة ٨٩١ رقد شيخاً جليلاً مملوءاً من الايام مستظهراً على مستعبدي الكنيسة وهادماً التعاليم الغريبة وحاملاً راية المجامع السبعة المسكونية ورسولاً للام ومعلماً للبيعة وموعياً من كل حكمةٍ وعلمٍ وفلسفة . ولذا قد اكرمت الكنيسة الارثوذكسية جهاداتهِ عن الحق وتعليم الانجيل واحصتهُ في مصف القديسين المعترفين وعظَّمتهُ بمثابة معادل للرسل وهي تعيد تذكارهُ في اليوم المذكور في كل مكان (ميناون ٦ شباط) وخصوصاً في ديرهِ ديرالثالوث الاقدس في خالكي حيث تحتفل احتفالاً عظيماً كل سنةٍ .

٩ . من سبب الانشقاق

فمما تقدم من الافادات الصحيحة الثابتة بالبرهان يتضح ان البطريرك فوتيوس لم يبغضهُ اخوتنا الغربيون حفظاً لقوانين كنيستهم لانهُ شرطن من درجة العوام ولاحباً بالبطريرك اغناتيوس لانهُ على زعمهم ظلمهُ . ولا دفاعاً عن التعليم الانجيلي لانهُ سقط في هرطقةٍ . بل مجرَّداً لانهُ لم يسمح لهم بالسلطة على الكنيسة ولا على بلاد البلغار المهتدية بواسطتهِ والتابعة لمملكة وكنيسة القسطنطينية .

ومن هنا يتضح ان الخلاف بين الشرق والغرب لم يكن بسبب شرطونيتهِ فوتيوس القانونية لا اقل من شرطونية جملة بطاركة قديسين بل كان بسبب مطامع الغرب . وهذا برهنهُ فضلاً عما تقدم معاملة البابوات لاغناتيوس . فانهم حين كانوا يستطيعون ان يستعملوهُ آلةً لم وقَّروهُ واكرموهُ . وحين رأوا انهُ اخذ يقاوم مطامعهم تهددوهُ وعزموا على قطعهِ وحرمهِ . وضف على هذا السبب سببين آخرين : اولها البدعة الحديثة بدعة الانبثاق التي ظهرت في الغرب ونوى البابا نيقولاوس ادخالها في الشرق بواسطة رسلهِ الى البلغار . وثانيها خرق حرمة دستور الايمان المصدَّق عليهِ من المجامع السبعة المسكونية والمحصَّنة حرمتهُ ومبناهُ ومن المجامع ومن البابوات بالحرم واللعنة على الذي يتجاسر ان يزيد عليهِ او ينقص منهُ . فلم يكن إذن فوتيوس سبب الانشقاق بين اربع بطريركيات الشرق وبطريركية الغرب بل ان السبب هو ترفُّع البابوات ومطامعهم وخرقهم الدستور الضامن استقامة رأي كل مسيحيٍّ خرقاً منافياً لتعليم الانجيل والرسل وتسليم الكنيسة .

وقبل اختتام هذا الفصل نورد حادثاً تاريخياً يؤيد حقوق الكنيسة الارثوذكسية وعمل البطريركين فوتيوس واغناتيوس ضد مطامع الغرب . فان اساقفة بافاريا من مقاطعة جرمانيا تشكَّوا في اواخر هذا القرن للبابا يوحنا التاسع (او العاشر) من ان ثلاثة اساقفة أُرسلوا في ايام اسلافهِ الى الصقالبة الذين في موراويا ودخلوا بلا حقٍّ في ابرشية رئيس اساقفتهم . ومن المعلوم ان اساقفة جرمانيا هم من الشعوب الغربية . فما دام اولئك الغربيون انفسهم انكروا على البابا حق مداخلاته في ابرشياتهم وارسال اساقفةٍ الى شعوبهم كيف لا يحقُّ لفوتيوس واغناتيوس ان ينكرا عليهِ المداخلات في احوال البلغار واكثر من ذلك ان ينكرا عليهِ السلطة على كل الكنيسة ؟ فمطامع البابوات كانت سبب الانشقاق . ولو لم

يسبق الموت ويخطف اغناتيوس قبل ازدياد المنازعة بينهُ وبين البابا لكانوا بغضوهُ لا اقل مما بغضوا فوتيوس وعرّوهُ من القداسة التي يعتبرونهُ الآن عليها.

الفصل الثالث

في ما بعد القديس فوتيوس الى تمام الانشقاق سنة ١٠٥٤

القياصرة والباباوات والبطاركة وعلاقات الكنيستين الى نهاية القرن التاسع

قلنا ان اسباب مخاطلة ملوك باباوات الغرب مع الشرق كانت القوة التي اكتسبوها في بلاد الغرب وخصوصاً من حين تداخلهم في الامور المدنية وانتخاب الملوك وتسمية القياصرة بعد منتصف القرن التاسع. ومع انهم كانوا قبلاً لا يرقون كرسي البابوية بلا رخصة وتصديق من الملوك ودفع الجزية القانونية اخذوا من هذا العهد ان يخلعوا ويبدّلوا ويبدّلوا هذا التيرو يستبدوا لا في الانتخاب فقط بل في السلطة والسياسة ايضاً. ففي انتخاب البابا يوحنا الثامن (او التاسع) الذي خلف ادريانوس الثاني سنة ٨٧٢ (صحة ٨٨٠) كان انقيصر لويس (اولوز) الثاني اخو لوثاريوس الثاني في حرب مع ادوجيس دوق وِنوندي واحتاج الى مداخلة البابا بينهُ وبين عدوهِ للمسالمة. وبعد موتهِ استبد البابا يوحنا في تسمية وتثبيت القياصرة في الغرب وداس شريعة الخلافة. فان لويس الثاني مات عاشياً وتاج القيصرية كان يحق لعمهِ الاكبر لويس الجرماني ثالث اولاد لويس التقي ومع ذلك احرمهُ البابا حقّهُ ودفع التاج لشارل الاصلع ملك فرانسا رابع اولاد التقي المذكور لانهُ اعطاهُ هدايا وكادت تشبُّ حروبٌ بين الاخوين بسبب

ذلك (فلوري ٥٢ : ٢٠٠). وبعد موت الاصلع مسموماً من طبيبهِ صَدَقيا سنة ٨٧٦ وموت ابنهِ لويس الاثغم سنة ٨٧٩ حمى البابا ابنهُ الصغير شارل السمين قيصراً وداس حقوق اخيهِ الاكبر لويس ملك فرانسا. ثم صارت القيصرية في الغرب اسماً بلا مسمّى لمجرّد الشرف تُمنح برحمة البابا للملوك الكارولينيين الذين بسبب انقسامهم بعضهم على بعض صاروا محتاجين الى تصديق البابا بدلاً مما كان هو محتاجاً الى تصديقهم وتأيدت السلطة العلمية في ايدي الباباوات حتى اخضعت الرعاة والرعية معاً للاهواء البشرية فرقي كرسي بطرس الرسولي باباوات كدّروا كنيسة رومية كدراً عظيماً بفضائح شنيعة وارتكابات فظيعة وخصوصاً في القرن الثاني العاشر قرن الفساد المحزن. وقد قطع البابا يوحنا فورموس اسقف بورت وحرمهُ لمداخلات سياسية وجعلهُ تحت يمين بان لا يعيش الاّ علمياً. غير ان مارينوس خليفتهُ حلّهُ من اليمين وارجعهُ الى اسقفيتهِ. وبعد مارينوس سنّ البابا ادريانوس الثالث قانوناً يمنع مداخلات القياصرة في انتخاب وتثبيت الباباوات.

وفي سنة ٨٨٨ استعفى القيصر شارل السمين مطاوعاً شور بعض اهليهِ والمقرّبين منهُ وخلفهُ ارنولف ابن اخيهِ شارلمان. وفي سنة ٨٩١ مات البابا استفانوس الخامس خلف مارينوس وبعد موتهِ شبّت نيران الخصام في رومية على انتخاب خلفهِ فبعضٌ انتخبوا شماساً اسمهُ سرجيوس وآخرون انتخبوا فورموس المذكور اسقف بورت. وغلب حزب سرجيوس. ولكن في ساعة شرطونيتهِ هجم حزب فورموس وخطفوهُ من الكنيسة وقدموا فورموس فصار بابا. غير ان التاريخ نعتهُ بكل وصف ردي لهذا السبب ولانهُ هو البابا الاول الذي رُقّي من درجة الاسقف خلافاً للقانون. وكان لفورموس صديقٌ اسمهُ غويدُن دوق سبوليتي. تحارب هو ودوق آخر اسمهُ بِرنكاريوس الاول دوق فريول حتى دخل

التقي من ابنته جيزيلا سنة ٨٨٨ على مملكة ايطاليا وبمساعدة البابا استفانوس غلب برنكاريوس واستقل بالملك. ففي سنة ٨٩٢ سامهُ البابا فورموسس قيصرًا ولكن برنكاريوس دعا ارنولف لمساعدته فجاء وخلع غويدُن وارجع برنكاريوس. وفي سنة ٨٩٤ مات غويدُن فقام ابنهُ لامبرت بمساعدة حزب سرجيوس ضد برنكاريوس. فخاف البابا فورموسُس ودعا ارنولف للمساعدة فجاء واخذ رومية من لامبرت وسيم هو قيصرًا من البابا * وبعد فورموسُس قام البابا بونيفاتيوس السادس سنة ٨٩٦. ولكنهُ بعد ايام قليلة طُرد من حزب سرجيوس وأُقيم استفانوس السادس في محلهِ. وكان البابا فورموسُس قد حرم البطريرك فوتيوس بعد وفاتهِ في رسالةٍ الى ستيليانوس القيصري. فبعد وفاتهِ هو ايضًا نالهُ اشد مما فعل. لان اول اعمال استفانوس كان انهُ حكم ضد فورموسُس وحرَمهُ لانهُ انتخب على خلاف القانون[1] وما اكتفى بحرمهِ اياهُ بل امر بفتح قبرهِ واخراج جثتهِ واحضارها الى ديوانهِ للمحاكمة. فأُحضرت تلك الجثة المسكينة بعد ما كانت مدفونة في الارض يسترها التراب اياماً ونُصبت امامهُ ووقف محامٍ خلفها يجيب عن الاسئلة الموجهة اليها وبعد المحاكمة حكم عليها البابا استفانوس اولاً بقطع اصابع

(1) لقد سبق لنا القول (صفحة ٢٧٦) ونكررهُ هنا بان ترفية رؤساء الكهنة الى رتبة البطريرك ليست قانونية لانها ماخرجت عن كونها نقل اسقف من ابرشية الى ابرشية. ونظن ان المحافظة على القانون بانتخاب البطاركة من درجة الكهنة او الشماسة افضل وأسلم عاقبة من انتخابهم من درجة رؤساء الكهنة ونقلهم من ابرشية الى ابرشية اذ يرتفع بهذه الواسطة كل غرض من جهة الاساقفة المنوط بهم انتخاب البطريرك بان لا ينتخب احد منهم بنفسهِ قبل غيرهِ. ولا يبقى سوى محذور التغرض من طرف البعض لاخصائهم. ولكن هذا امر ضعيف جدًا ودواؤهُ سهل. شفاؤهُ اكثر كثيرًا من داء التعصبات على اننا لا نقصد عدم استحسان عمل الكنيسة الذي هو قانون ايضًا محترم منا قبل غيرنا ولكنا نرى عمل الآباء والاجتهاد اسلم عاقبة واكثر وفاء بالغاية المقصودة.

يمينها الثلاثة التي بها كانت تقدم القربان ثم بقطع رأسها وبطرحه في نهر تيبر بعد سحبها واهانتها كأنها جثة وحش لا جثة بابا متقدم. ثم تنفيذ الحكم. ثم ان استفانوس الغى تتويج ارنولف من فورموسُس وتوج لامبرت وكثرة فظائعهِ يقول بارون يلام المدافعين عن كرسي رومية انهُ لا يجاسر ان يحصيها مع البابوات. ولكنهُ نال جزاء ما فعل لانهُ (اي البابا استفانوس) خُلع من الكرسي وأُلقي في سجن. وهناك قُضي عليهِ بموت المشنقة (سنة ٨٩٧).

ومن بعد وفاة البابا استفانوس السادس على ما ذكر قام البابا رومانوس ثم البابا تاودورُس وما عاش الاَّ اياماً قليلة. وبعد ذلك قام نزاع في رومية بين خطيبين للمدة البابوية وهما سرجيوس المذكور ويوحنا التاسع (او العاشر). وبعد مشاجرات هرب سرجيوس الى توسكاني واقام مدة سبع سنين هناك ينتظر فرصة ليعلو الكرسي. واما يوحنا فسيم بابا واقام سنتين على الكرسي يسعى في ارجاع السلام الذي هدمتهُ اعمال استفانوس المذكور. وقد عقد مجمعاً وحكم على سلوك استفانوس الخارج عن اللياقة وعلى هتكهِ جثة البابا فورموسُس وحرَم جميع الذين تجاسروا على حفر تلك الجثة وفضحها ومن جملتهم سرجيوس الذي بعد ذلك صار بابا وهو محروم كما سيأتي. ومن قانون هذا المجمع يمكننا ان نعرف الحالة التعيسة التي كانت عليها كنيسة رومية وقتئذٍ وكم كانت احوالها الداخلية مضطربة. قال القانون:

«ان الكنيسة الرومانية المقدسة تقاسي كثيرًا من الجور الذي يعقب وفاة كل بابا. وهذا كلهُ ناشئ عن شرطنتهم بلا علم القيصر خلافاً للقوانين والعوائد. لانهُ ما من احد ينتظر حضور وكلاء القيصر الذين بحضورهم يمنعون الخلل في النظم. ولهذا نرغب ان يُنتخب البابا من الآن فصاعداً في مجمع الاساقفة وسائر

الاكليرس بموجب طلب الشيخة والشعب وبعد ذلك يُشرطَن رسمياً بحضور رُسل القيصر لكي لا يستطيع احدٌ ان يقترح عليهِ اقساماً . والغاية من كل ذلك ان تلبث الكنيسة بلا عثرات ولا يهان شرف الملوك * وقد طرأت ايضاً عادةٌ رديئةٌ اخرى وهي نهب بلاط البابا البطريركي بعد موتهِ وهذا النهب قد شمل كل رومية بلا استثناء . وعمَّ جوارها ايضاً حيث تُعامَل بيوت الاساقفة بعد وفاتهم هذه المعاملة عينها . فنحن نمنع ذلك في المستقبل تحت القصاص الصارم بالحرم الكنائسي والغضب الملوكي ايضاً » (فلوري ٥٤ : ٢٨)

وقد صدَّق على اعمال هذا المجمع امام لامبرت الذي عرفهُ البابا قيصراً شرعياً بدلاً من برنكريوس المنتدب من فورموسس فيما ان القيصر الثالث ارنولف كان حياً بعد . فكانت الامور السياسية في الغرب مضطربة لا اقل من الاحوال الكنائسية وقد طلب البابا يوحنا من لامبرت محاماة عن الكنيسة الرومانية ضد خاطفي املاكها لانها باتت فقيرةً لا تستطيع ان تقوم بدفع معاشات اكليرسها فوعدهُ وطلب منهُ ان يكون جميع الرومانيين تحت حمايتهِ (فلوري ٥٤ : ٢٩) .

اما البطريرك القسطنطيني استفانوس اخو القيصر لاون فتوفي سنة ٨٩٣ في ١٨ ايار الذي فيهِ تحتفل الكنيسة تذكارهُ نظراً لفضيلتهِ . وقام بعدهُ البطريرك انطونيوس الملقَّب بكاوليس وقد كان رجلاً فاضلاً ايضاً ساس الكنيسة بكل غيرةٍ وتقوى مدة سنتين ورقد سنة ٨٩٥ الذي فيهِ تعيد الكنيسة تذكارهُ . وقام بعدهُ البطريرك نيقولاوس ميستيكوس (اي المكتَّم) رجلٌ ذو علمٍ واسعٍ وفضيلةٍ عظيمة . وقد كان قبلاً كاتم اسرار القيصر لاون ثم ترهب ورُقي في درجات الكهنوت الى ان انتُخب بطريركاً * ولم تدُم سلامة العلاقات بين هذا البطريرك الجليل وبين القيصر لاون الحكيم كما سيأتي في كلامنا عن حوادث القرن العاشر .

ولكن العلاقات بينهُ وبين البابا يوحنا كانت سلامية خلافاً لما كانت بينهُ وبين خلفاء البابا يوحنا وخصوصاً البابا سرجيوس كما سيأتي الكلام ايضاً * وقد كتب البابا يوحنا لاستيليانوس القيصري يثني على غيرتهِ في مسألة الاعداء بسبب فوتيوس ورغب ان يكون البطاركة اغناتيوس وفوتيوس واستفانوس وانطونيوس معروفين في وظيفتهم التي عرفهم بها سلفاؤهُ * وفي اواخر هذا القرن او اوائل القرن العاشر توفي يوحنا وقام بعدهُ بنيديكتوس الرابع وقد كان رجلاً سلامياً مثل سلفهِ . وذكر المؤرخ فلوري ان احد اساقفة فرنسا ارغرم لانكري كتب لهُ يشكو من « انهُ لم يُقدَّس ميرون في ابرشيتهِ من زمانٍ طويل بسبب القلاقل السياسية وان الاطفال لا يُمسحون بهِ » وهذا برهانٌ على ان سرَّ الميرون كان يُتمَّم على الاطفال في الغرب كما يُتمَّم في الشرق بخلاف عادتهم الآن .

على ان التاريخ يعتبر يوحنا وبنيديكتوس مستثنيين بين كثيرين من البابوات الذين قبلهما والذين بعدهما . وكُتَّاب الغرب انفسهم الناقلون اخبار القرون الحاضرة يسوِّدون صحائف تواريخهم بانفس الافادات خصوصاً عن رومية وفقد الروح المسيحي والادبي من بابواتها وقلَّبهم حتى انهُ في مدة ١٥٠ سنة من يوحنا الثامن الى لاون التاسع وهو وقت الانشقاق قام على رومية خمسون بابا يسميهم التاريخ (الأمَر نذر) مرَّدةً عتاةً لا رعاةً . وقد قال بلاتينا في كلامهِ عن استفانوس السادس « ان رجال الكنيسة في تلك الازمنة اتصلوا الى درجةٍ عظيمةٍ من الشر حتى انهم ما كانوا يفضلون مثل اسلافهم على قبول رئاسة الكهنوت بل كانوا يتطلبونها بارادتهم وبالرشوة والمال ... وانها كانت وفتئذٍ عادةً للبابوات الجدد اما ان يحرقوا حرمة اعمال وقرارات اسلافهم او ان يخفوها او يعدموها بالكلية » . وفي ترجمة رومانوس الاول يقول « ان رؤساء

كهنة رومية ما كانوا يفتكرون بشيء آخر سوى كيف يحمون امتيازات اسلافهم وشرفهم الامر الذي لا يمكن ان يكون شيء اكثر شناعة منه للنفوس الضيقة عينها ** وقال ايضاً غراتيوس « انه كان في هذه الازمنة اضطراب غريب في كرسي رومية اذ كان الخلف يرفض اعمال سلفه ويرميها ويستخرج جسده الميت من القبر فيأتي آخر من الخلفاء المحبين للاول ويقابل الثاني بجرمه اياه ثم يأتي الرابع ويحرم الثالث حارماً الاول ومبرئاً الثاني وهلم جراً وهكذا كان الظلام الحالك سائداً على خلفاء بطرس الذين يقولون انهم ابواب المسيح على الارض » والمؤرخ بروز نصير كرسي رومية نفسه يسمي تلك الازمنة « تعس الازمنة على كنيسة رومية تستحق الحزن والاسف العظيمين اكثر من كل زمان سواها اذ قام فيها على سدة بطرس رجال متوحشون بالشر فيمحو السيرة الى الغاية عائشون بالرذيلة آدابهم على اقصى درجات الفساد وفي كل شيء رجسون . ولهذا كانت سيدة الامم (يعني كنيسة رومية) عارية من ثياب المجد والفخار سوح وتنتحب وتبكي وتندب مقيمة على الحزن والحداد » ثم يقول ان الذين اقيموا رؤساء في سفينة الكنيسة الرومانية هم انفسهم غطوها بالامواج ودفعوها الى الاعماق حتى انه يعتبر خلاصها من بين يديهم عجيبة (ملانيوس ٢٠٠ : ٧) .

هذه كانت الاحوال في الغرب فيما ان كرسي القسطنطينية كان يزينه رجال تقديسون افاضل وعلماء اماثل يؤيدون بعلمهم وفضائلهم وغيرتهم نور الكنيسة القويم منهم صزاسيوس وسيكيفورس ومثوذيوس واغناتيوس وفوتيوس وانطونيوس واستفانوس وليقولاوس وغيرهم الذين سنورد ذكرهم فيما بعد انشاء الله .

فهرس المشتركين

عدد	اسكندرية
٣٠	السيد صفرونيوس بابا وبطريرك اسكندرية والجزيرة المدافع عن الخيطة
١	السيد جرمانوس مطران نيبه
١	الخوري يواكيم القاصوف
٤	القس عطار بالمرقسية
١	القس حنا البراموسي
١	الشماس افتيموس مسعود
١	المتوحد جبرائيل لوبزو
	الخواجات
٥	معلم كرم واخوته
٥	يوسف سباج
٣	يوسف البان
١	يوسف خوري الحداد
٣	يوسف ابوشنب واخوته
٤	يوسف زخاوط
١	يوسف قنواتي
١	يوسف خناواتي
١	يوسف عيسى
٣	فضل الله دباس
٥	رافائيل عبد الله خوري
٢	ميخائيل يواكيم
٢	ميخائيل قطه
١	ميخائيل حابيدي ترجمان البطريركخانة

عدد	
١	ميخائيل خضر
١	ميخائيل بركه
١	ميشيل زاخر
١	ميخائيل عبود
١	ميخائيل حنا فرح
١	ميخائيل ميخ
١	ميخائيل شديوب
١	ميخائيل صعب
١	ميشيل تلولا عبد النور
١	ميخائيل ريتوفي
١	ميخائيل مصوّر
١	ميخائيل كمال
١	ميخائيل جرجس خزام نيبه
١	جبران جداره
١	جبران صروف واولاده
١	جبران ميخائيل صوايا
١	جبران الزهار
١	جبرائيل شديوب
١	جبران بركه
١	جبرائيل حجي
١	الياس دبيو واولاده
٣	الياس شاره صوايا
١	الياس ميخائيل صوايا
١	الياس بوقل

حيانا بعض الادباء في حلب وبيروت وغيرهما من المدن وقفوا على فحوى كتابنا او فصول منهُ بتقاريظ اعتضنا عن ادراجها بالمتمم . غير ان حضرة وكيلنا في طنطا أبى الاَّ ادراج تقريظ حضرة الناظر البليغ المعلم عبد الله فريج احد اركان نقابة المشتركين هناك فاضطررنا ان نجيب الطلب وليك هو بما فيهِ من المبالغة :

الادَّعُ ذكر سلمى وساقٍ * اذا قامت على قدمٍ وساقِ
ولا تطرب برنَّات المثاني * على الاعلام ما بين الرفاقِ
وان رُمتَ الصفا والانسَ بادر * لتاريخٍ تنزَّه عن نفاقِ
يُريك حقائق الاحوال جهراً * بصدقٍ في معانيهِ المساقِ
براهينٌ تفوقُ الشمسَ نوراً * تجلَّى الحقُّ معها في انطباقِ
عروسٌ زفَّها حبرٌ جليلٌ * لنا من دون مهرٍ او صداقِ
ابونا جرجس اخو المعالي * لهُ المولى من الغراء واقِ
همامٌ فضلهُ قد عمَّ مصراً * وبرَّ الشام مع ارض العراقِ
كريمٌ قد حبانا اليومَ منهُ * بما كنا اليهِ في اشتياقِ
وخلَّد في الورى ذكراً جميلاً * لهُ طول المدى لا زال باقِ
وحسبي انَّ ذا منهُ كتابٌ * يُرينا الدرَّ يزهو في النساقِ
بهِ قد حازَ في ميدانِ فضلٍ * قصاب الفخر في يوم السباقِ
واذ قد رقَّ في طبعٍ بديعٍ * فأرَّخهُ فريجٌ باتفاقِ
ألا يا فضلَ سفرٍ فيه أبشرْ * لنا قد جلَّ شرح الاشتقاقِ

٣٢ ٩٢١ ٣٤٠ ٥٠٣٩٥ ١٠٤٨١ ٥٠٨٢٣ ٥٠١٣

١٨٩١ عبد الله فريج ١٣٠٩

الحمد لله

بعد تادية الحمد الواجب لله المنان على ما انعم علينا بهِ في قيامنا بهذه الخدمة المقدسة نقيد حضرات المشتركين الاماجد اننا وفقاً لاعلاننا في السنة الماضية قد اشرنا بادئ بدء في طبع هذا الكتاب * ولكننا رأينا بعد ذلك ان نزيد المؤلف تحسيناً من حيث المبنى والمعنى فاستحضرنا لهُ الحروف التي طبعنا بها كتاب خدمة القداس من الجنس الاسطنبولي الاول وجعلنا الصفحات اوسع مما وعدنا بها في الاعلان . ولاجل الفائدة التامة قدَّمنا على اقسام الكتاب الثلاثة لمحةً تبحث مطوَّلاً في النظام الكنائسي ورتب رؤساء الكهنة من اساقفة ورؤساء اساقفة ومطارنة وإكسرخوسة وبطاركة او باباوات . وذيَّلنا كل فصل تاريخي بملاحظات تجلي للقارئ حقيقة مركز كل كنيسة في مدة حوادث ذلك الفصل . وجعلنا الكلام في تاريخ المجمع الرابع مطوَّلاً اكثر مما في غيره لارتباط تاريخهِ بتاريخ اخوتنا الاقباط مبيِّنين بعد التوقف على تزعم بدعة وضيخاور فضهِ اعتنة ذوباختلاط وتشويش الطبيعتين وآلم اللاهوت) ان الفرق بيننا وبينهم بظهر محصوراً في التعبير عند الوقوف على التفسير سائلين الله زوالهُ على الوجهين (صفحة ٢٤٠) * ولما كان التاريخ الكنائسي مجهولاً عند العامة وعند كثيرين من غير العامة ويصعب عليهم فهم الحوادث التاريخية ان لم يقفوا على معرفة الاشخاص لوارد ذكرهم فيها استطردنا الكلام احياناً الى ذكر مختصر تواريخ بعض القياصرة والباباوات والبطاركة ورجال الدولة والكنيسة . فجاء الكتاب والحمد لله وافياً من كل الوجوه بالغرض المقصود * على ان المجال الذي اعددناهُ لهُ اعني الخمسمائة الصفحة وان كانت قد توسَّعت

استغرقت منها تلك الزيادات جانباً عظيماً فلم تعد تكفي لنطاق التاريخ كما كان في آخر مجمع فلورانسا في القرن الخامس عشر. واذ كان القسم الباقي لا ينقص عن ٢٥٠ صفحة لم نود ان نتاخر عن توزيع الكتاب بسببه اكثر مما اخرتنا الاسباب المذكورة بل راينا ان نجعل ما تبقى كتاباً قائماً بنفسه نباشر طبعهُ بعد راحة شهرين من تاريخه انشاء الله. وسيشتمل القسم الباقي اولاً على تاريخ علاقات الكنيستين في القرن العاشر والحادي عشر بين القياصرة والباباوات والبطاركة — ثانياً على كيفية تمام الانشقاق وصورة الحرم الصادر من الكنائس بعضها ضد بعض — ثالثاً على تاريخ العلاقات في ايام الصليبيين وفتحهم للقسطنطينية واعمالهم فيها — رابعاً على تاريخ القيصر ميخائيل باليولوغوس واجتهاده في الاتحاد — خامساً على تاريخ مجمع ليون — سادساً على تاريخ العلاقات في القرن الرابع عشر — سابعاً على مجمعي قسطنديا وباسيليا — ثامناً على مجمع فرّارا — تاسعاً على مجمع فلورانسا — عاشراً واخيراً على مجمع القسطنطينية بعد مجمع فلورانسا وسقوط مملكة الروم. انما القيمة المطلوبة عنهُ فهي نصف ريال فقط. وباب الاشتراك ما زال مفتوحاً. وستُدرَج في آخر الجزء الثاني اسماء المشتركين كما في الاول. ونحن نسأل الله معونتهُ العلوية والفائدة الروحية لك وللقارئين آمين

الاسكندرية في غابة شهر آب سنة ١٨٩١

الارشمندريتي
جراسيموس مسرّه

في صفحة ٥٠ سطر ١٢ بدلاً من كلمة «رياون» اكتب «مكسار» ١٩ اغسطو ٢٠٤٨ ف

فهرس الكتاب

	صفحة
فاتحة الكتاب	٣
لمحة — في بدء النظام الكنائسي واصل الرتب الكنائسية للبطاركة والباباوات الخ. وفي معناها ومركزها وحقوق كل واحدٍ منها	١٥
القسم الاول — في العلاقات بين الكنيستين قبل الانشقاق	٤٥
القرن الاول — ١ً. القديس اكليمس اسقف رومية وكنيسة كورنثس	٤٥
« « ٢ً. القوانين والاوامر الرسولية	٥٣
القرن الثاني — ١ً. ايريناوس اسقف ليون	٥٧
« « ٢ً. الفس ترتيليانوس	٦٠
« « ٣ً. الخلاف في تعييد الفصح	٦١
القرن الثالث — ١ً. الخلاف في معمودية المراطقة والمنشقين	٦٩
« « ٢ً. ديونيسيوس الاسكندري والباباوات اكليمنوس وديونيسوس	٩٨
« « ٣ً. بولس السميساطي والقيصر اورليانوس	١٠٥
القرن الرابع — ١ً. المجمع المسكوني الاول النيقاوي	١٠٩
« « ٢ً. اثناسيوس الكبير وكرسي رومية	١٢٠
« « ٣ً. شهادة باسيليوس الكبير وايارونيموس	١٣٨
« « ٤ً. مجمع انطاكية	١٤١
« « ٥ً. مجمع سردبكي	١٤٣
« « ٦ً. المجمع المسكوني الثاني القسطنطيني	١٤٦
القرن الخامس — ١ً. يوحنا الذهبي الفم	١٦٥
« « ٢ً. مجمع قرطاجنة والباباوات زوسيموس وبونيفاتيوس وكليستينوس	
« « ٣ً. المجمع المسكوني الثالث الافسسي	
« « ٤ً. المجمع المسكوني الرابع الخلكيدوني	
« ١ً. رواية الشارح في مجمع ديوسقورس	
« ٢ً. رواية الكنيسة القبطية في رسالة الابغوماتوس فيلوثاو	

فهرس الكتاب

	صفحة
» ٣ . علاقات الشرق والغرب المتعلقة بالمجمع الرابع	٣٤٩
» » ٥ . الانشقاق الاول بين الشرق والغرب	٣٦٣
القرن السادس — ١ . الحوادث التي تقدمت المجمع الخامس	٣٧٤
» » ٢ . المجمع المسكوني الخامس القسطنطيني	٣٨٣
» » ٣ . تفرق المذاهب في الطبيعة الواحدة	٣٩٣
» » ٤ . لقب « المسكوني » للبطريرك القسطنطيني	٣٩٦
القرن السابع — ١ . الحوادث التي تقدمت المجمع السادس	٤١٤
» » ٢ . المجمع المسكوني السادس ولحقه (يتبكي)	٤٢٢
القرن الثامن — ١ . الباباوات وحرب الايقونات قبل المجمع السابع	٤٣٣
» » ٢ . المجمع المسكوني السابع	٤٤٦
» » ٣ . الباباوات وبدعة الانشقاق	٤٥٢
القرن التاسع — ١ . الباباوات والاوامر الايسبلورية	٤٥٦
القسم الثاني — في العلاقات بين الكنيستين في مدة الانشقاق	٤٦٣
الفصل الاول — في اسباب الانشقاق وحالة الكنيستين في القرن التاسع	٤٦٣
الفصل الثاني — ١ . البطريرك اغناتيوس وفوتيوس	٤٧٤
» » ٢ . البطريرك فوتيوس والبابا نيقولاوس	٤٩٩
» » ٣ . مداخلات البابا في بلاد البلغار والنزاع عليها	٥٠١
» » ٤ . عزل فوتيوس ورجوع اغناتيوس	٥١٧
» » ٥ . المجمع ضد فوتيوس	٥٢١
» » ٦ . اضطهاد فوتيوس ومصالحة هو واغناتيوس	٥٣١
» » ٧ . رجوع فوتيوس وعقد المجمع الكبير المعروف بالمسكوني الثامن	٥٣٦
في صفحة ... ٥ . البابا قدمس ووفاته	٥٤٨
	٥٥٠
تابع	
. القياصرة والباباوات والبطاركة الى	
٥٦٣	